

# منهج التقييم في القرآن الكريم

## METHODOLOGY OF EVALUATION IN HOLY QURAN

بحث لنيل درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية

إعداد الطالب

سليمان حماد عبد المهدي الحوامة

بإشراف

الأستاذ الدكتور / محمد أختر سعيد صديقي

كلية الدراسات الإسلامية

قسم الدراسات العليا

جامعة كراتشي

كراتشي - باكستان

العام الجامعي

١٤٢٣هـ - / ٢٠٠٢م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لجنة المناقشة للحصول على درجة الدكتوراه

جامعة كراتشي

كلية الدراسات الإسلامية

قسم الدراسات العليا

كراتشي - باكستان

أجريت مناقشة البحث الذي قدمه

الطالب / سليمان حماد عبد المهدي الحوامدة

بعنوان : منهج التقويم في القرآن الكريم

( دراسة تطبيقية )

تاريخ : / /

أسماء أعضاء لجنة المناقشة وتوقيعاتهم :

م	الاسم	التوقيع
١		
٢		
٣		
٤		
		ملحوظات

# الإهداء

إلى والدي العزيزين برأ وإحساناً  
والذي رحمه الله، ووالدتي حفظها الله .  
وإلى أسرتي الصغيرة، وزوجتي الكريمة التي شجعنتي دائماً  
وأولادي الأعزاء .  
وإلى عائلتي اخوتي وأخواتي وأقاربي جميعاً .  
وإلى مجمع الدعوة وأنصار الحق والخير على وجه المعمورة .  
وإلى أرواح شهداء الأمة وعلمائها ومصلحيها حتى يرث الله  
الأرض ومن عليها .  
إلى هؤلاء جميعاً أهدي ثمار هذا الجهد العلمي المتواضع .

# شكر وتقدير

أرفع عظيم شكري ووافر تقديري وخالص دعائي إلى أستاذي المحترم الدكتور أختار سعيد صديقي الذي تكرم بالإشراف على بحثي ، فقدم لي كل عون وتسهيل وكان لتوجيهه الكريم وملاحظاته العزيزة أكبر الأثر في إخراج هذا البحث والانتهاء منه .

وخالص امتناني لإدارة جامعة كراتشي وشيخ الجامعة وعميد كلية الدراسات الإسلامية ورئيس قسم الدراسات العليا على ما قدموه لي من تسهيل ومساعدة .

وأتقدم بخالص المحبة والتقدير والدعاء إلى الأساتذة الكرام الذين كان لملاحظاتهم ومساعدتهم أثر مبارك في إتمام هذا الجهد وإبرازه إلى حيز الوجود .

١ - الأستاذ الدكتور أحمد العسال رئيس الجامعة الإسلامية العالمية بإسلام آباد سابقاً ومستشارها حالياً .

٢ - الأستاذ الدكتور فتحي يكن المفكر والداعية والكاتب الإسلامي المعروف .

٣ - الأستاذ الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني الأستاذ في المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة سابقاً ، والأستاذ في جامعة الكويت حالياً .

٤ - الأخ الكريم الدكتور يحيى الخلايلة ، المحاضر في الجامعة الإسلامية العالمية / إسلام آباد .

٥ - الأخ الكريم الدكتور عبد الخالق دريس .

٦ - الأستاذ الشيخ ياسين ( رحمه الله ) جامعة العلامة إقبال المفتوحة/ إسلام آباد.

٧ - الأخ الكريم الدكتور ضياء حسان .

وشكري موصول كذلك إلى كل من ساعدني وقدم لي العون لإتمام هذا البحث ، وأخص

بالذكر الأخ المكرم أحمد شاه الذي قام بطباعة البحث وإخراجه على جهاز الحاسوب .

جزى الله الجميع خير الجزاء ، راجياً من المولى عزت قدرته أن يكون جهداً مقبولاً عنده نافعاً لعباده .

وصلى الله وسلم وبارك على خاتم أنبيائه ورسوله محمد وآله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين .

## ملخص البحث

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم المرسلين وآله وأصحابه أجمعين. يشكل القرآن الكريم حلقة خاتمة ، ودستورًا أخيرًا لحياة البشرية، يحتوي على كل ما يصلح حال المكلفين في حاضرهم ومستقبلهم استمرارًا للرسالات السابقة بمنهجية شاملة كاملة على مستوى الزمان والمكان والناس ، فيكون بذلك ميدانًا فسيحًا من المعالجة، والغذاء الناجع لمختلف ساحات النشاط البشري عبر تكوينه الثلاثي في الروح والعقل والجسد. والقرآن الكريم على ذلك يزخر بثنى المناهج والقواعد التي تقود البشرية إلى السير الصحيح نحو خالقها، سعادة وعدلاً واستقامة في الدنيا، وجزاءً ونعيمًا وفوزًا وجنة خالدة يوم القيامة. ولا يكون ذلك إلا على أساس من المعايير والقواعد الربانية في القرآن، للتمييز والحكم والتقويم لأفعال هؤلاء العباد. بعيدًا عن منحنيات النفس البشرية وأهوائها وتقلباتها المتشعبة. وموضوع بحثي "منهج التقويم في القرآن الكريم" جاء ليركز على إبراز هذه المعايير والقواعد التي تقوم أوضاع الناس وتحكم على الأشياء والأفكار والأشخاص في مجالات شتى وما يتعلق بهذا الموضوع من ضرورة إبراز قواعده وشروطه ومجالاته وفوائده ، وأساليبه، ومعوقاته ومن ثم محاولة توظيفه في واقع الأمة وغيرها من شعوب الأرض.

ومنهج التقويم في القرآن بذلك هو الدستور الذي يبرز قيمة الأشياء سلبًا وإيجابًا، ومن ثم تعديلها وتصويبها حسب معايير الخالق لخلقه، وصولاً إلى هدف العبادة والاستخلاف بعدل وشمول في الدنيا، وثوابًا أو عقابًا في الآخرة.

ولقد بلغت الآيات التي ذكرت مصطلح النقوم ومشتقاته اللغوية في القرآن الكريم حوالي (٦٤٤) آية تركزت معانيها في إقامة الأمر بمعنى: الدوام عليه وإصلاحه والنهوض به كما قال تعالى: ﴿ فوجدنا فيها جداراً يريده أن ينقض فأقامه ﴾ [الكهف: ٧٧]. والاستقامة : بمعنى السير السليم على الأمر. والدين القيم بمعنى: المستقيم الذي لا عوج فيه، والتقويم والأقوم بمعنى : الأحسن في تأليفه واعتداله وصوابه وعدله، كما في قوله تعالى: ﴿ قد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم.... ﴾ [التين: ٤] وغير ذلك من المعاني.

ويشكل قول الله تعالى: ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم... ﴾ [الإسراء: ٩] شعار القرآن الدائم في الإصلاح والعدل والحكم والتقويم ، وروحه الدائمة في ضرورة التمييز بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والجمال والقبح. ويقرر قول الله تعالى: ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط... ﴾ [الحديد: ٢٥] وقوله : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ... ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قاعدة العدل والحكم بين الناس بميزان الله ، وتقويمه لهم بالقسط بناء على ما كسبوا وعملوا في مختلف شؤون حياتهم. ومن هنا فإن رسالات السماء كلها تشكل مناهج تقويم للبشرية تعيدها إلى مسار البينات والميزان والكتاب كلما نددت عن الطريق وتكبت عن الجادة.

ولقد أبرز البحث قواعد عدة لمنهج التقويم القرآني من مثل الشمول والموازنة في النقوم، وذلك بذكر سلبيات الشيء وإيجابياته، كما في قوله تعالى: ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل

فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴿البقرة: ٢١٩﴾ فذكر القرآن منافع الخمر ومضارها ولم يقتصر على ذكر إحداهما. وكذلك قاعدة العدل والموضوعية في قول الله تعالى: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل...﴾ [النساء: ٥٨] وتأتي قاعدة الصراحة والوضوح، والعلم والخبرة، وثبوت الدليل، وهدفية التقويم وأخلاقيته من أهم قواعد هذا المنهج العزيز.

وشمل منهج التقويم مجالات عدة من أهمها تقويم المخلوقات كالإنسان، والحيوان، والجان فقال تعالى عن الإنسان: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً...﴾ [الإنسان: ٢]، أي خليطاً مهيباً من الرجل والمرأة، وخلقنا له السمع والبصر كأدوات للتمييز والرشد. وقوم الله كذلك الهدد والنملة والحمير والخيل وغيرها.

وطرق منهج التقويم مجال العقائد والأفكار كقول الله تعالى مقوما عقائد النصارى: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم...﴾ [المائدة: ١٧].

وقوم القرآن مجال الأعمال كلها ومثال ذلك تقويم الأعمال الجهادية كقوله تعالى: ﴿أولما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنا هذا قل هو من عند أنفسكم...﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وعموماً فإن النظر إلى مآلات الأفعال وتقويمها وتصويبها يشكل أساساً محترماً مقدرًا في الشريعة الإسلامية يقول الإمام الشاطبي "النظر إلى مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً كانت الأفعال موافقة أو مخالفة".

ويشمل قوله تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ [الزلزلة: ٧-٨] قاعدة عريضة لتقويم جميع أفعال العباد ولو كانت بحجم الهباءة الطائرة في الهواء.

وبرز أن التقويم الذاتي هو من أعظم مجالات التقويم وأعمقها فهو نقطة البداية في حياة البشر التغييرية، وأساس ذلك وجود نزعتي الخير والشر في النفس البشرية ﴿ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها﴾ [الشمس: ٧-٨] ومقياس التغيير هو ما بالنفس البشرية من رغبة في التغيير: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ [الرعد: ١١] ولقد نطق آدم وحواء عليهما السلام بهذه القاعدة عندما قالاً: ﴿ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين﴾ [الأعراف: ٢٣].

وأظهرت الدراسة أن للتقويم القرآني فوائد وغايات معتبرة، وأنه غانياً أخلاقياً، وليس عبثياً لمجرد التجريح والنقد والانتقاص، أو الإطراء والنفاق والمبالغة، فنقويم العقائد مثلاً هو لتصحيحها وتصويبها قال تعالى: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره أفلا تتقون﴾ [الأعراف: ٦٥] فعبادة الله وحده دون شريك تورث التقوى والاستقامة. ومن فوائد التقويم أخذ العبر والدروس ومن ذلك جولات الأنبياء في تقويم أقوامهم عبر القصص القرآني في حياتهم الدعوية الطويلة قال تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ [يوسف: ١١١] أي أن تقويم الأنبياء لأقومهم فيه عبرة وعظة في طريق الدعاة والمغيرين.

ومن فوائد ذلك إشاعة الشورى والحوار، ولا تكون الشورى إلا بعد تقويم الأمور والحوار في نتائجها سلماً وإيجاباً قال تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران: ١٥٩] وذلك على أثر نتيجة معركة أحد. ويفيد تقويم الذات والأشخاص عموماً في وضع الرجل المناسب

في المكان المناسب، ويعرف التقويم في الإدارة بمدى الخلل والقصور لتحسينه وتطويره ، ويفيد في استشراف المستقبل ، والعدل في تقويم الأعداء والأصدقاء على حد سواء، ويوجد الراحة النفسية والصراحة وتكوين الثقة والشجاعة الأدبية، وتقليل الاحتكاك والصراع، وتقبل الآخرين ، وفتح العقل والذهن وعدم تحجره.

وأبرزت الدراسة أن التقويم القرآني يأتي على عدة أساليب وآليات متعددة، من مثل أسلوب المعاشية والملاحظة العملية، وذلك ما ظهر في قول الله تعالى في معاشية الغلامين لسيدنا يوسف في فترة سجنه: ﴿ ودخل معه السجن فتيان قال أحدهم أني أراني أعصر خمرا وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾ [يوسف: ٣٦] فطلب تأويل الرؤيا والثقة بيوسف من قبل الغلامين كان بسبب المعاشية التي أفضت إلى قولهما إنا نراك من المحسنين. وجاء التقويم على شكل ضرب المثل والتشبيه من مثل قوله تعالى: ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ [البقرة: ٢٦١] فالإنفاق في سبيل الله مضاعف لأصحابه مرات ومرات. والمثل في التقويم أسلوب رافع ترتاح له النفس ، ويقتنع به العقل ويدركه.

وورد من أساليب التقويم كذلك السجل التاريخي للأقوام والأمم السالفة، وكذلك أسلوب الإحصاء والتسجيل، والتقرير الميداني، ويدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ وإن كان حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حسابين ﴾ [الأنبياء: ٤٧] أي متقال حبة صغيرة من النبات نحسبها بدقة ودراية، وقوله تعالى: ﴿ وجنتك من سبأ بنبا يقين ﴾ [النمل: ٢٢] وجاء هذا على لسان هدهد سليمان عندما استطلع أحوال ملكة سبأ.

وبينت الدراسة أن للتقويم معوقات وموانع تمنعه ولا تسمح له أن يعم حياة الناس من مثل الظلم ، والهوى ، والتعصب، وقلة الفهم والوعي ، والظن والشك والريبة وكذلك التقليد الأعمى والمبالغة والتعديس المذموم ، وهي موانع شديدة تحاصر النفوس والعقول وتمنعها من عدل التقويم وموضوعيته وصراحته وشموله، ومن الآيات الدالة على ذلك قوله تعالى: ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيفا ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴾ أي شكت قلوبهم بالحق والإيمان ، فجعلهم ذلك مترددين خائفين لا يملكون قرارا ولا حكما صائبا ، وقوله: ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا... ﴾ [الحجرات: ١٢] فالظن والشك بالناس ، وسوء تقدير أحوالهم وتقويمها يورد إلى التجسس عليهم، وغيبتهم وبذلك تتقطع الأواصر والصلات الاجتماعية . وقوله تعالى: ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم... ﴾ [البقرة: ٥٤] أي أن سوء تقديركم العقدي بعبادة العجل هو قمة الظلم والطغيان على أنفسكم وعقولكم.

وقد بالغ فرعون وقدس ذاته ونصبها إلهها من دون الله قال تعالى: ﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيلا ﴾ [غافر: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴾ [القصص: ٣٨] أي أن رأيكم يجب أن يكون تبعا لرأيي، وما أنا إلا ربكم الأعلى . وقال تعالى في التقليد المذموم الذي يحجب الحكم والتقويم السليم: وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نبتع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ [لقمان: ٢١] فهم يصرون على اتباع الآباء وإن كان الشيطان هو الذي يقودهم



إلى جهنم ويصدهم عن عبادة الله بهذا المنطق السخيف والتقليد المذموم الذي يغلق العقول والقلوب عن الهداية والرشاد . ومن معوقاته كذلك عدم فهمه والتعود عليه، أو الحيلولة دونه ومنعه من حياة الناس، وكذلك قلة اهتمام مناهج التعليم والتربية به ثم تعليق القصور والتراجع والمشاكل على الغير والآخر ، وعدم استعمال التقويم الذاتي للنفس وتكبرها وتبريرها المستمر لأخطائها مع أن الله قد أكد ذلك في قوله تعالى: ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ فالإنسان أعرف بذاته وتقصيره، ولو ألقى المعاذير ، واصطنع الحجج.

ولقد حاولت في الفصل الأخير من البحث الإشارة إلى كيفية توظيف هذا المنهج التقويمي في حياة المسلمين وغير المسلمين . وعرضت لبعض الجهود الفكرية من قبل العلماء والمتخصصين في هذا الموضوع، من مثل منهجية الجرح والتعديل في مدرسة علم الرجال ومصطلح الحديث ، وكذلك معايير التفكير الموضوعي العادل وعلاقته بالمعايير الإسلامية القرآنية في التقويم، ومنهجية دراسة تقويم الشخصية الإسلامية، وتقويم الآخرين ومؤلفاتهم ، وأسرت إلى ضرورة تربية المسلمين على هذا المنهج فهما وسلوكا عبر آيات التربية والتعليم، والحد من معوقات هذا المنهج وموانعه . وأكدت أن منشأ هذا المنهج التقويمي هو النفس البشرية: ﴿ إن الله لا يغير ما يقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [الرعد: ١١] .

ولمست شيئا من تقويم العمل الإسلامي في جانبي السلب والإيجاب، وظهر أن ذلك يحتاج إلى جهود أخرى كبيرة على أساس منهجية القرآن الشاملة العادلة ، وبيئت أخيرا ضرورة ربط هذا المنهج بعالمية الإسلام ، فهو منهج الخلق أجمعين مسلمين وغير مسلمين، وموزينه يجب أن تطبق على الجميع دون ظلم، فالصديق والعدو سيان أمام عدل التقويم القرآني . ثم أبرزت بعض المفاهيم التي تساعد على زيادة الوعي والفهم للعصر الحاضر وفقهه، من مثل: فقه الأولويات، وفقه الموازنات، والمفاسد والمصالح، وفقه المفاهيم والنظرة للآخر، وما هي مقومات نهوض الأمة ورأيها في بعض المفاهيم المعاصرة من مثل: مفهوم العولمة، وحوار الأديان ، ومحاربة الإرهاب، واستهداف الأعداء للإسلام وأهله، بعد تقويمها تقويماً قرآنياً بعيداً عن الاجتزاء والسطحية، والنظر بعين واحدة، والتبرير للذات ، والتفوق ، وكبت الحريات وغير ذلك . وثبت أن هذا المنهج لا يمكن تطبيقه إلا عبر تظافر جهود الجميع منذ سن الطفولة تربية وتأهيلا وحتى سن العطاء والإنجاز عن طريق كافة دوائر التأثير، من مستوى القيادة وقمة الهرم في حياة الأمة، إلى مستوى القاعدة وأفراد الناس في شريحة الشعوب، وشعار ذلك قوله تعالى: ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ [الإسراء: ٩] وأن يعمل الجميع على هذا الأساس بقناعة وتخطيط وتصويب . والله وحده هو الهادي إلى سواء السبيل.

\*\*\*

SUMMARY OF PH-D THESIS:

**METHODOLOGY OF  
EVALUATION  
IN HOLLY QURAN**

PREPARED BY:  
SULEIMAN HAMMAD  
ABDUL MUHDI AL- HAWAMEDAH

SUPERVISED BY:  
PROFESSOR DR.  
MUHAMMAD AKHTAR SAEED SIDDIQI

SUBMITTED TO:  
FACULTY OF ISLAMIC LEARNING  
DEPARTMENT OF HIGHER STUDIES

UNIVERSITY OF KARACHI  
KARACHI- PAKISTAN

ACADEMIC YEAR:  
1423/2002

## المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء وخاتم المرسلين ، وبعد .  
فيشكل القرآن الكريم خاتمة رسالات السماء إلى الأرض ، وصلة الوحي مع البشر ،  
وهو بذلك يعلن نضوج البشرية واستعدادها للرسالة الخاتمة التي تحوي دستوراً متكاملأ  
يعالج مناحي الحياة الإنسانية ويقودها إلى السعادة والعدل ويرشد مسيرتها ، ويقوم اعوجاجها  
كلما نددت عن الجادة وتتكبت المسير .

وانطلاقاً من القاعدة الجلييلة التي تسطرها الآية الكريمة في قول الله تبارك وتعالى :  
﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ [الإسراء: ٩] كان الاهتمام بطرق هذا الموضوع ،  
والاهتمام بهذه الدراسة ، ويؤكد ذلك أن المتتبع لخط سير الهداية البشرية منذ أن خلق الله  
الأرض ومن عليها وشاعت حكمته في ابتلاء بني البشر بإنزال أبيهم ( آدم ) وأمههم (حواء)  
بعد أن زلأ إلى الأرض لخوض معركة الحياة ، وتحقيق مراد الله في عبادته ، والاستقامة  
على منهجه ، يلحظ المتتبع أن رسالات الله للبشر عن طريق الأنبياء والرسل ما هي إلا  
مناهج إصلاح وتقويم لمسيرة البشرية وإرجاعها إلى الجادة ، وإرشادها إلى الاستقامة،  
وتصحيح أوضاعها ، وإزالة إعوجاجها وصولاً إلى تحقيق هدف الاستخلاف والعبادة  
والقرآن الكريم على ذلك نظام إصلاح وتقويم ومنهج حياة ، له قواعده ومجالاته وفوائده  
وأساليبه ذلك أن الناس قد انقسموا أمام رسالة البلاغ التي حملها الأنبياء والرسل إلى مؤمنين  
وكافرين وغير ذلك ، وانقسموا أمام التكليف إلى ملتزم طائع ومفرط عاصٍ ومقصر عاجز  
وهكذا ، فلزم بذلك تصنيف أعمالهم وتوزينها وتقويمها على هذا الأساس في الدنيا لإحفاق  
الحق وإقامة العدل لإصلاح البشرية وفي الآخرة للحساب والثواب ليتم عدل الله في الآخرة  
والأولى .

وقد استخرج علماء المسلمين ومفكروهم كنوزاً عظيمة من أنواع العلوم والمناهج من  
هذا الكتاب العزيز ولا يزالون يستخرجون ، ولا غرو في ذلك فانه عز وجل يقول : ﴿ قل  
لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً ﴾  
[الكهف: ١٠٩] .

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول عن القرآن الكريم " ولا تنقص عجائبه ، ولا يخلق على كثرة الرد "

والتقويم والحكم والنقد أصل بارز في القرآن الكريم في الدنيا وهو مقياس الفوز والنجاح لدخول الجنة ومعيار الفشل والإخفاق لدخول النار . ولا يكون ذلك إلا بعد حساب وتقويم وحكم وقضاء .

ومن أبرز العلوم التطبيقية التي تفرد بها المسلمون وتميزوا بها علم الجرح والتعديل وعلم الرجال ، وقد أنتجوا منهجية غاية في العلمية والموضوعية والدقة والتوثيق والحكم والتقويم وذلك خارج عن موضوع القرآن الكريم ، وكان الأحرى أن يدرس هذا الموضوع في القرآن الكريم ويستخرج منه أولاً حسب رأينا المتواضع .

ولقد لمست من خلال حياتي العلمية والعملية والإدارية إضافة إلى فكرة أن القرآن هو دستور وتقويم وهداية أهمية منهج التقويم والتصحيح والتحسين على ضوء المفاهيم والعلوم القرآنية للحياة الإسلامية ومشروعها الحضاري المنشود فكانت هذه الدراسة . ووجدت - حسب اطلاعي المتواضع - دراسات ومؤلفات إسلامية محدودة تطرقت لموضوع النقد والتقويم وناقشته في زوايا معينة أوحسب ظروف وملابسات معينة ، ونم أجد من درس الموضوع من خلال القرآن الكريم كما قمت به مباشرة ومن تلك الكتابات في دراسة موضوع التقويم ، كتاب التقويم الذاتي للشخصية في التربية الإسلامية لأكرم عبد القادر/ رسالة ماجستير ، وكتاب مبادئ التقويم التربوي الأساسية في التربية الإسلامية والتربية الحديثة لأحمد جوهر /رسالة ماجستير ، وكتاب النقد الذاتي للدكتور خالص جليبي وكتاب فصول في التفكير الموضوعي للدكتور عبد الكريم بكار ، وكتيب التوجيه والتقويم خلال التاريخ الإسلامي للعلامة المرحوم محمود شاكِر، وكتيب منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم للأستاذ أحمد بن محمد الصويان وكتيب منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين للأستاذ هشام بن إسماعيل الصيني وكتاب ظاهرة المحنة محاولة لدراسة سننية للدكتور خالص جليبي ، وكتاب النظرية العامة للدعوة الإسلامية ( منهج الدعوة) وخطة التربية والبناء للدكتور عدنان علي رضا النحوي ، وكتاب نظرات في مسيرة العمل الإسلامي للأستاذ الدكتور عمر عبيد حسنة ، وكتاب الحركة الإسلامية بين الجمود والتطرف للأستاذ الدكتور يوسف القرضاوي وكتاب " حتى يغيروا ما بأنفسهم " للأستاذ جودت سعيد ، وكتب أخرى تناولت معالجة تقويمية لجزء من العمل الإسلامي من قبل

البوابة السوداء ، والإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ ، ومحاولات كتاب كثير من مثل كتابات د. عبد الله النفيسي ، والمودودي ، ومالك بن نبي وعمر عبيد حسنة في تقديماته في سلسلة كتاب الأمة ، والدكتور محمد أبو الفتح البيانوني و عبد الحميد أو سليمان وغيرهم. وكلها محاولات ودراسات أبرزت ضرورة منهجية التقويم ولا شك ، وذلك أعانني كثيراً على استيعاب الموضوع ومن ثم معالجته عبر كتاب الله العزيز ، وأقدت كثيراً من منهجية علماء الجرح والتعديل وعلم الرجال خاصة كتاب الرفع والتكميل في الجرح والتعديل للإمام أبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي . وكان على رأس كتب التفسير التي أقدت منها في هذا المجال تفسير " في ظلال القرآن " للأستاذ سيد قطب رحمه الله .

فعمدت على هذا الأساس إلى كتاب الله عز وجل لأعيش معه عسى أن أسير خطوة مفيدة في طريق العلم ، وأقدم ما أظن أن المكتبة الإسلامية بحاجة إليه ، وأن العمل الإسلامي ومشروعه الحضاري أكثر حاجة لمثله ، وأعترف أنني لم أستطع إحاطة الموضوع إحاطة كاملة ، وأستوعبه استيعاباً شاملاً من كتاب الله عز وجل ، وذلك ولا شك يؤثر على شمولية الموضوع ، وشرف خدمة كتاب الله تعالى . وحسبي أنني تجرأت على ذلك ، ولفت نظر أهل العلم والتخصص لهذا المجال المهم . ولعل جهدي أن يكون إضاءة أو مدخلاً للموضوع ليس إلا . فلست من أهل التخصص في القرآن وعلومه ، وإنما هي رغبة فكرية وحاجة عملية وتجربة إدارية ميدانية أردت أن أقدم أمامها ما قدرني الله عليه ، ولا شك فسيجد القارئ نقصاً ما ، فالمأمول أن يتفضل كل صاحب رأي وملاحظة وترشيد وتقويم سليم لإسداء ذلك لصاحب البحث الذي يأمل ذلك ويرجوه بأسرع ما يمكن . والله وحده الهادي إلى سواء السبيل .

### (أ) أهمية الموضوع : أخصها في النقاط التالية :

- ١- جمع أطراف الموضوع من آيات القرآن الكريم كعلم متخصص تأكيداً على أن هذا الكتاب لا يتقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد .
- ٢- تحقيق خدمة علمية للمسلمين عموماً والدارسين خصوصاً للاستفادة من هذا المنهج فكراً وعملياً .
- ٣- إنصاف المسلمين وغير المسلمين عند الحكم عليهم وتقويم أفكارهم وأعمالهم على ضوء هذا المنهج ﴿ ولا يجرمك شتان قوم ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .
- ٤- تحسين وإجادة وتطوير الأعمال والأفكار والبرامج بعد تقويمها والحكم عليها .

- ٥- تحقيق الانسجام والاستفادة من العلوم الإدارية والإنسانية المعاصرة على ضوء هذا المنهج والتي تجعل التقويم حلقة أساسية من حلقات الإدارة الحديثة .
- ٦- تكريم النفس البشرية في اتباع هذا المنهج ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم ﴾ .
- ٧- محاربة الظلم والمحاباة والتعصب في حياة المسلمين ، بل والناس أجمعين ، والحض على الموضوعية والتقويم السليم على ضوء منهج التقويم القرآني .
- ٨- إبراز أهمية التقويم الذاتي والمعالجة الداخلية في الخلل الحاصل في البنية الفكرية والسلوكية لدى الأمة الإسلامية .

### ب) منهج الدراسة والبحث :

يتطلب البحث العلمي منهجية وموضوعية وفهماً واطلاعاً على الموضوع قيد الدراسة ، وقد يكون منهج الدراسة وصفيّاً سرديّاً وقد يكون تحليلياً استنتاجياً وقد يكون مزيجاً من ذلك . وألخص منهجي في الدراسة كالتالي :

- ١- الاطلاع والقراءة لكل ما توفر لدي حول الموضوع من كتب ومقالات وإشارات في كتب التفسير .
- ٢- استخراج الآيات القرآنية التي تعالج الموضوع - حسب فهمي لذلك - وتصنيفها حسب فصول البحث ومواده .
- ٣- الاقتصار في معالجة الآيات والاستفادة منها فيما يخدم الموضوع دون الخوض في فوائدها الفقهية أو اللغوية والبلاغية وغيرها .
- ٤- الرجوع لبعض والاستفادة منها حول تفسير الآيات المختارة من قبلي للموضوع وخاصة تفسير الظلال والقرطبي وابن كثير .
- ٥- لأن الموضوع جديد - حسب رأيي - فقد كان منهجي العام في الدراسة هو المنهج الاستنباطي الاستنتاجي بالدرجة الأولى .
- ٦- كنت أميل وأقصد إلى أن أعطي الموضوع الصفة التخصصية العامة ، أي أن منهج التقويم بمفهومه العام موجود في القرآن الكريم كمقدمة لدراسته بشكل مفصل وأكثر تخصصاً مستقبلاً كمثل : منهج التقويم الإداري منهج التقويم التربوي ، منهج التقويم الجهادي وهكذا . وكل ذلك موجود لمن أراد دراسته حسب رأيي .

- ٧- لم أقم باستقصاء كل الآيات التي تخدم الموضوع وأكتفيت بما يخدم الموضوع ويبرزه خشية الإطالة ، وبسبب عدم تفرغي لذلك .
- ٨- حصرت نفسي بالآيات الكريمة حيث هي مادة الموضوع الأولى ، ولم أتوسع في الاستفادة من علوم الشريعة الأخرى من حديث أو فقه وغيرها .
- ٩- أفدت كثيراً من آراء وأفكار من كتبوا حول الموضوع في توظيف ما استخرجه من منهجية التقويم في حياة الأمة ومشروعها الحضاري .
- ١٠- التوثيق والفهرسة المطلوبة حسب متطلبات البحث العلمي حسب الاستطاعة .

### ج) الصعوبات والمشاكل :

- ١- قلة المراجع التي عالجت الموضوع ، وانعدامها في دراسته من خلال القرآن الكريم تحديداً .
- ٢- الغربة والبعد عن حركة التأليف والبحث خاصة في البلاد العربية التي من المفترض أن تكون هي المكان والمصدر الرئيسي للمراجع والدراسات لمثل هذه الدراسة .
- ٣- عدم التفرغ العلمي والانشغال بالعمل الإداري وهمومه ، والغربة وتكالييفها .
- ٤- عدم وجود مراجع أجنبية - حسب اطلاعي - في الموضوع والتي من شأنها إثراء ورصد قيمته العلمية لو وجدت .
- ٥- استعمال المنهج الاستنباطي في البحث مما يحتاج إلى تفكير وكد ذهني وقدرة وجرأة على ذلك خاصة أن البحث في كتاب الله القرآن الكريم .
- ٦- ندرة وربما انعدام وجود ما يستطيع الباحث الاستفادة منه في كتب التفسير من مادة تتعلق مباشرة بمفردات الموضوع ومعالجته كما يريد الباحث . وذلك - حسب اطلاعي - ما عدا تفسير الظلال الذي أسعفني كثيراً في ذلك مما جعلني أعتمد عليه أكثر من غيره .

### د) سبب اختيار الموضوع :

تقويم الإنجاز البشري بكل مجالاته وأشكاله موضوع مهم ، وهو جانب من فطرة الإنسان ، تعتمد عليه نتائج الإنجازات عند الخالق تبارك وتعالى في الدنيا والآخر . وهو الخطوة الأولى التي تسبق كل تحسين وتطوير وإصلاح . وأحصر سبب اختيار الموضوع والكتابة فيه بما يلي :

- ١) استكمالاً لتخصصي الجامعي الأول في التربية وعلم النفس ، فالموضوع له علاقة ما بذلك .
- ٢) الرغبة في معالجة الاضطراب الفكري والعملي في كيفية التقويم والحكم على الأفكار والأعمال والأشياء ووضع المعايير والموازن الشرعية الصحيحة لذلك .
- ٣) القناعة بأن التقويم السليم والتشخيص العادل الدقيق هو الخطوة الأولى التي لا يمكن تخطيها بحال أمام مشروع التغيير الإسلامي الحضاري المنشود .
- ٤) المشاركة في تثبيت موازين العدل والموضوعية وتجنب المؤثرات النفسية والشخصية في اعتلال منهج التقويم وعلاقة ذلك برسالة الإسلام العالمية .
- ٥) وجود خبرة إدارية وميدانية وتعليمية - متواضعة - واهتمام علمي بهذا الموضوع ساعداً في اختيار الكتاب فيه .

#### هـ) خطة البحث :

- بعد مشاورات علمية ، واستشارات منهجية ، وتعديلات عملية اشتملت خطة البحث بعد المقدمة على مبحث تمهيدي وستة فصول وخاتمة وضعتها كالتالي :
- ١- المقدمة : احتوت على فكرة عن الموضوع وبعض الدراسات التي عالجت وحدود دراستي له ، تلاها إبراز أهمية الموضوع ، وأسباب اختياري له ، ومنهجي في دراسته ، والصعوبات التي واجهتني .
  - ٢- **المبحث التمهيدي** : وفيه ستة فروع تناولت فيها المواد التالية :
    - الفرع الأول : معنى المنهج لغة واصطلاحاً .
    - " الثاني : معنى التقييم والتقويم لغة واصطلاحاً .
    - " الثالث : الفرق بين التقييم والتقويم .
    - " الرابع : مصطلح التقويم ومشتقاته ومعانيه في القرآن الكريم .
    - " الخامس : عناصر التقويم .
    - " السادس : أصل التقويم وعلاقته بقاعدة العدل وفطرة الإنسان في القرآن الكريم .
  - ٣- **الفصل الأول** : وقد اشتمل على قواعد التقويم . فكل علم ومنهج قواعد وأسس يبني عليها ، وعالجت ذلك عبر خمسة مباحث :



**المبحث الأول :** وقد عالج قاعدة الشمول والموازنة وذلك من خلال ثلاثة مطالب

هي :

الأول : وفيه شمول التقويم للأشياء والأشخاص والمناهج من جميع النواحي .

الثاني : شمول التقويم في منهجية علم الجرح والتعديل أي تعديل الشيء أو تجريحه أو كليهما .

الثالث : شمول التقويم في القرآن تجاه المخالفين ، أي ذكر ما لهم وما عليهم .

**المبحث الثاني :** قد عالج قاعدة العدل والموضوعية عند التقويم وذلك في ستة

مطالب، هي :

الأول : العدل في إرسال الرسل أ من أجل إقامة العدل في حياة الناس .

الثاني : العدل في التمييز والتفاضل أثناء التقويم والحكم على الأشياء .

الثالث : العدل والموضوعية بين المسلمين وغيرهم ، فالتقويم القرآني عادل مع جميع الناس .

الرابع : العدل والموضوعية في وسطية الأمة المسلمة وذلك متناسب مع كونها أمة وسطاً .

الخامس : العدل والتقويم على أساس الحق لا على أساس القرابة أو المصلحة .

السادس : العدل والتقويم على أساس المسئولية والطاقة الفردية .

**المبحث الثالث :** وناقش قاعدة الصراحة والوضوح في التقويم من خلال مطلبين :

الأول : ما ورد من هذه القاعدة في سيرة الأنبياء والرسل .

الثاني : ما ورد من هذه القاعدة في مواقف ومناسبات أخرى .

**المبحث الرابع :** تناول قاعدة العلم والخبرة وثبوت الدليل ، إذ لا تقويم بدون علم

وثبوت دليل وخبرة في الموضوع المراد تقويمه وفيه مطلبان :

الأول : التبين والتثبت من الأخبار والمرويات .

الثاني : الوقوف عند الحد والتخصص عند التقويم والحكم .

**المبحث الخامس :** وناقش قاعدة ارتباط التقويم بهدف معين ، ومراعاة الجانب

الأخلاقي عند التقويم ، فالتقويم ذا هدف وغاية .

**٤ - الفصل الثاني :** وتطرق لمجالات التقويم ، أي ما هي المجالات التي قومها

القرآن الكريم ، وذلك حسب المباحث الأربعة التالية :

**المبحث الأول :** وشمل مجال تقويم المخلوقات ، مثل ( الإنسان ، الحيوان ، الجن )

ضمن ثلاثة مطالب :

الأول : تقويم الإنسان كإنسان بغض النظر عن دينه وفكره .

الثاني : تقويم الحيوانات ، مثل ( النمل ، النحل ، الهدد ... الخ ) .

الثالث : تقويم الجن ، كمخلوق خاص في دائرة العبودية لله .

**المبحث الثاني :** وفيه تقويم العقائد والمبادئ والأفكار من خلال ثلاثة مطالب :

الأول : تقويم عقائد أهل الكتاب .

الثاني : تقويم العقائد والأفكار حسب القصص القرآني .

الثالث : تقويم عقائد وأفكار مشركي العرب في الجاهلية .

**المبحث الثالث :** وناقش مجال تقويم الأفعال والأعمال . من خلال ثلاثة مطالب :

الأول : تقويم الأعمال في ميدان الجهاد .

الثاني : تقويم الأعمال في ميدان الكيل والوزن والبيع والشراء .

الثالث : تقويم الأعمال بشكل عام / أعمال في ميادين أخرى .

**المبحث الرابع :** وتضمن مجال التقويم الذاتي ، أي أن يقوم الإنسان نفسه من خلال

ثلاثة مطالب :

الأول : التقويم الذاتي في دائرة الإيمان وأهله .

الثاني : التقويم الذاتي في دائرة الانحراف وأهله .

الثالث : وعالج ضوابط ومعايير التقويم الذاتي .

**٥- الفصل الثالث :** وبحث في فوائد التقويم ومقاصده ، عبر أربعة مباحث :

**المبحث الأول :** تصحيح التصور والاعتقاد ، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : تقويم سيدنا نوح لعقائد قومه وتصحيحها .

المطلب الثاني : تقويم سيدنا هود لعقائد قومه وتصحيحها .

المطلب الثالث : تقويم سيدنا صالح لعقائد قومه وتصحيحها .

**المبحث الثاني :** تربية النفس البشرية وصقلها . ضمن ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : تربية النفس وتقويمها من خلال المجال الوقائي .

المطلب الثاني : تربية النفس وتقويمها من خلال المجال القيمي والنظري .

المطلب الثالث : تربية النفس وتقويمها من خلال المجال الأخلاقي العملي .

- المبحث الثالث :** أخذ الدروس والعبر والعظات ، من خلال مطلبيين :
- الأول :** الدروس والعبر من خلال تقويم قصص الأنبياء .
- الثاني :** الدروس والعبر من خلال مناسبات التنزيل .
- المبحث الرابع :** إشاعة الشورى والحوار من خلال النقد والتقويم .
- ٦- الفصل الرابع :** وناقش أساليب التقويم ، فقد ورد التقويم القرآني بعدة أساليب وطرق. وذلك عبر أربعة مباحث هي :
- المبحث الأول :** الملاحظة والمعاشة .
- المبحث الثاني :** التشبيه وضرب الأمثال .
- المبحث الثالث :** السجل التاريخي وفيه مطلبان :
- الأول :** سجل أهل الكتاب وتقويم القرآن لهم .
- الثاني :** سجل المشركين والمنافقين وتقويم القرآن لهم .
- المبحث الرابع :** الإحصاء والتقرير الميداني ، وشمل مطلبيين :
- الأول :** التقرير والكشف الميداني .
- الثاني :** الإحصاء ودقة الحساب .
- ٧- الفصل الخامس :** وعالج هذا الفصل مقومات التقويم ومشاكله من خلال أربعة مباحث هي :
- المبحث الأول :** الهوى والتعصب .
- المبحث الثاني :** الظن والشك والريبة .
- المبحث الثالث :** الظلم .
- المبحث الرابع :** المبالغة والتقديس والتقليد ، وشمل ثلاثة مطالب :
- الأول :** المبالغة .
- الثاني :** التقديس .
- الثالث :** التقليد .
- ٨- الفصل السادس :** وبحث هذا الفصل في توظيف المنهج القرآني في حياة المسلمين العملية من خلال أربعة مباحث :
- المبحث الأول :** تحديد المنهج من قبل العلماء والمفكرين ، وفيه مطلبان :

الأول : وقفة مع منهج الجرح والتعديل وعلم الرجال .

الثاني : جهد العلماء في تحديد منهج التقويم .

المبحث الثاني : تربية المسلمين على منهج التقويم فهماً وسلوكاً . عبر مطلبيين :

الأول : معالجة معوقات منهج التقويم القرآني .

الثاني : تربية المسلمين على منهجية التفكير التقويمي في القرآن .

المبحث الثالث : تقويم تجارب العمل الإسلامي على ضوء منهج التقويم القرآني .

المبحث الرابع : ربط المنهج التقويمي بعالمية الإسلام ، وفيه مطلبان :

الأول : تقويم بعض المفكرين والعلماء لغير المسلمين .

الثاني : فقه العصر وعالمية التقويم القرآني .

وأخيراً فقد أنهيت البحث بخاتمة أبرزت فيها ملخصاً موجزاً لأفكار البحث ومادته

الرئيسية إضافة لأهم نتائج البحث ومقترحاته . آملاً من الله القبول والتوفيق ، فإن كان من

صواب وتوفيق فمن الله عز وجل ، وإن كان غير ذلك فمن تقصيري ومن الشيطان ،

واستغفر الله رب العالمين .

اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ

بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت

. والحمد رب العالمين .

\*\*\*

# البحث التمهيدي

# البحث التمهيدي

وفيه ستة فروع:

- الفرع الأول : معنى المنهج لغة واصطلاحاً .
- الفرع الثاني : معنى التقييم والتقويم لغة واصطلاحاً .
- الفرع الثالث : الفرق بين التقييم والتقويم .
- الفرع الرابع : مصطلح التقويم ومشتقاته اللفوية ومعانيه في القرآن الكريم .
- الفرع الخامس : عناصر التقويم .
- الفرع السادس : أصل التقويم وعلاقته بقاعدة العدل وفطرة الإنسان في القرآن الكريم .

## البحث التمهيدي

أعرض فيه تعريفاً لمصطلح المنهج ومصطلحي التقييم والتقويم والفرق بينهما ، وعناصر التقويم وأمس علاقة التقويم بقاعدة العدل وفطرة الإنسان كما أشار إليها القرآن في دائرة التكليف في الدنيا ودائرة الجزاء في الآخرة ، وذلك حسب الفروع التالية :

### الفرع الأول : معنى المنهج لغة واصطلاحاً :

١- المنهج لغة : من فعل " نهج " طريق نهج : بين واضح ، وهو النهج ، وقيل : منهج كنهج . ومنهج الطريق : وضحه ، والمنهاج أو المنهج في التنزيل : ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ [المائدة : ٤٨].

والمنهاج : الطريق الواضح ، وفي حديث العباس : لم يمت رسول الله حتى ترككم على طريق ناهجة أي واضحة بيّنة <sup>(١)</sup> .

٢- المنهج اصطلاحاً : مصطلح المنهج مصطلح علمي ، نال من الاهتمام والدراسة الشيء الكبير، وقد تحكمت الخلفية الفكرية والعقدية والفلسفية والتخصصية لدى المهتمين والباحثين كثيراً في تحديد مناهجه ومعانيه . لذا نورد أدناه بعض التعريفات والمفاهيم لهذا المصطلح .

-فالمنهج : هو التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة ، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون بها جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للأخرين حين نكون عارفين بها<sup>(٢)</sup> .  
-والمنهج : مجموعة العمليات العقلية الاستدلالية التي تستخدم في حل مشكلات العلم وبناء العلم نفسه في مرحلة ما من تاريخه <sup>(٣)</sup> .

-وهو أيضا : إدارة رسمية مقصودة تضم مجموعة المعارف والخبرات التي يتبناها المجتمع لناشئته لصالح نموها ونجاحها الفردي والاجتماعي حسب خطط واستراتيجيات هادفة مدروسة ، ويمكن أن تشكل عناصر المنهج المعادلة التالية :

(١) لسان العرب : جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، مادة (نهج) طبعة دار إحياء التراث / بيروت . الطبعة الأولى ١٩٨٨ م .

(٢) مناهج البحث العلمي : د.عبد الرحمن بدوي ص ٤-٥ وكالة المطبوعات- الكويت عام ١٩٧٧م .

(٣) مجلة عالم الفكر : العدد الأول ١٩٨٩ م .

أهداف + معارف + خبرات + تقييم = منهج<sup>(١)</sup> .

- ويأتي كذلك : بمعنى الطريقة Method فهو " مجموعة القواعد العامة التي تحدد العمليات العقلية والإجراءات العملية التي تتبع من أجل تفسير الظواهر الطبيعية Natural ؛ فيزيائية Physical كانت أو سلوكية إنسانية<sup>(٢)</sup> .

- وعموما فهو الطريق الواضح الذي يسلكه الإنسان للوصول للهدف من خلال قدراته المتنوعة ومحيطه الذي يعيش فيه .

ولقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا.. ﴾ [المائدة: ٤٨].

(شرعة ومنهاجا) شريعة وطريقا واضحا في الدين<sup>(٣)</sup> .

## الفرع الثاني : معنى التقييم والتقويم لغة واصطلاحا:

### ١- التقييم والتقويم لغة :

التقييم من الفعل قَوَّمَ وَقَوَّمَ ، وقال سيبويه : قَيَّم وزنه فَيَعْل ، وأصله قَيُّوم ، فلما اجتمعت الياء والواو والسابق ساكن ، أبدلوا الواو ياء وأدغموا فيها الياء التي قبلها ، فصارت ياء مشددة . وكذلك قال في سيّد وجيد وميت وهين ولين .  
وقَسِّمَ وقَيُّومَ بمعنى واحد وهي من أبنية المبالغة ، ومعناها القيام بأمر الخلق وتدبير العالم في جميع أحواله.

وقام الشيء واستقام : اعتدل واستوى ، والقوام : العدل ﴿وكان بين ذلك قواماً﴾ .  
وقَوَّمَ دراه : أزال عوجه (اللحياني) وقَوَّمَ السلعة بالتقويم . ويقال كم قامت ناقتمكم : أي كم بلغت . وفي الحديث : قالوا: يا رسول الله لو قَوِّمْت لنا ، فقال : الله هو المَقَوِّم : أي

(١) المنهج المعاصر: د. محمد زياد حمدان ، ص ١٨-١٩. دار التربية الحديثة / الأردن عام ١٩٨٨م.

(٢) مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية : تحرير أ.د. جابر أحمد منصور . بحث أ.د. محمد علي الفرامكتبة دار العروبة / الكويت عام ١٩٨٨م ص ٢٥٦ .

(٣) أسباب النزول : لجلال الدين السيوطي ، إعداد د. محمد حسين الحمصي ، دار الرشيد ، دمشق ، بيروت.



لو سعرت لنا. وأمر قيّم : مستقيم، والقَسيّم : السيد وسائس الأمر .وقيّم المرأة: زوجها،  
والملة القيّمة:المعتدلة<sup>(١)</sup>.

وقام المتاع بكذا : تحددت قيمته ، أقام العود والبناء ونحوهما : عدّله وأزال عوجه ،  
وقوم السلعة : سعّرها وثمرتها . تقوم الشيء : تعدّل واستوى<sup>(٢)</sup> .

وجاء ﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ الآية . أي قائمين بشئونهن<sup>(٣)</sup> وجاء ﴿ لقد  
خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ الآية . التقويم ، تصيير الشيء على ما ينبغي أن يكون في  
التأليف والتعديل<sup>(٤)</sup>.

وجاء ﴿ وأقوم للشهادة ﴾ أي أصح وأحفظ<sup>(٥)</sup> .

وجاء التقويم بمعنى : حساب الزمن بالسنين والشهور والأيام ، وتقويم البلدان تعيين  
مواقعها وبيان ظواهرها<sup>(٦)</sup> .

والتقييم : كلمة مستحدثة على غير قياس ، شاع استخدامها على اللسان العربي في  
الكتابات والمؤلفات، مما حدا بمجمع اللغة العربية في القاهرة إلى إجازتها وإحاقها بالتقويم،  
ومعناها جعل قيمة للشيء<sup>(٧)</sup> .

(١) لسان العرب : ابن منظور ٣٥٧/١١ مادة (قوم) .

(٢) المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية، إخراج : د. إبراهيم أنيس ، د. عبد الحلیم منتصر ، د. عطية  
صوالحة ج ٢ ص ٧٦٧-٧٦٨ .

(٣) المفردات في غريب القرآن : العلامة الحسين بن محمود بن المفضل الملقب بالراغب الأصفهاني ، أصح  
المطابع، كراتشي ص ٥٠٢ .

(٤) التفسير الكبير ( مفاتيح الغيب) للإمام فخر الدين الرازي محمد بن عمر بن الحسين الرازي الشافعي .

(٥) الجامع لأحكام القرآن : للإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ج ٣ مؤسسة مناهل  
العرفان / بيروت ، دمشق .

(٦) المعجم الوسيط .

(٧) فصل التقويم في علوم الشريعة : يحيى إسماعيل ص ٤٥٨ من كتاب المرجع في تدريس علوم الشريعة  
د. عبد الرحمن صالح عبد الله ط ١٩٩٤ / الجامعة الأردنية .

وقوام الدين والحق: أي به يقوم ، والقوام: الطول الحسن ، والقومية : القوام والقامة<sup>(١)</sup>.

## ٢- التقييم والتقويم اصطلاحاً :

وردت عدة تعريفات ومعان في ذلك أهمها :

التقويم : عبارة عن لائحة أو كراسة تحتوي على جداول الأيام والأسابيع والشهور مع بيان زمان طلوع الشمس والقمر وغروبهما ، وأوقات الأعياد إلى غير ذلك من الفوائد ويسمى بالمطبوخ أيضاً ، وبالفارسية يسمى بعضه روز نامه .

وعند الإفرنج المانك ، وعند العرب سمي بالزيج للحسابات الفلكية .

- وهو كذلك ، ما تعرف به البلاد بالنظر إلى مساحتها وعدد سكانها وحالة زراعتها

وصناعاتها وتجاريتها وسائر ما يتعلق بمنافعها وبصالح الإنسان فيها .

- وعرفه بعضهم: بأنه علم الأمور المتعلقة بالهيئة الاجتماعية ومعبراً عنها بالأعداد<sup>(٢)</sup>

- وفي الاصطلاح التربوي : هو عملية استخدام البيانات والمعلومات التي يوفرها

القياس بهدف إصدار حكم أو قرار يتعلق بالسبل المختلفة للعمل التربوي<sup>(٣)</sup> .

- ويعرف التقويم إدارياً : بأنه آلية التغذية الاسترجاعية الأساسية التي تساعد على

رفع الأداء<sup>(٤)</sup> .

- ويرى كامبل وايلز : أن التقويم عملية تصدر منها الأحكام وتستخدم كأساس

للتخطيط وتشتمل على تحديد الأهداف وتوضيح الخطط ، وإصدار الأحكام على الأدلة

ومراجعة الأساليب والأهداف في ضوء هذه الأحكام<sup>(٥)</sup> .

- ويعرف التقييم : Evaluation بالإنجليزية بأنه تقرير أو تحديد قيمة الشيء وأهميته

ودوره في تحقيق الغرض المختص به .

(١) معجم مقاييس اللغة: لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا . تحقيق: عبد السلام هارون ج ٥ ص ٤٣ .

(٢) كتاب دائرة المعارف : تأليف المعلم بطرس البستاني ، ج ٦ ، ص ١٥٨ دار المعرفة / بيروت .

(٣) علم النفس التربوي : عبد الحميد نشواني ، ص ٦٠ .

(٤) دليل التدريب القيادي: د. هشام الطالب ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي/أمريكا ط ٢ ١٩٩٥م ص ١٢٢ .

(٥) القياس والتقويم التربوي : سليمان أحمد عبيدات ، جمعية المطابع التعاونية /عمان ١٩٨٨م ص ٦٣ .

- وتأخذ مصطلحات التقييم والقيمة والتممين نفس المعنى ، فهي ألفاظ لغوية مترادفة تدل في مجملها على تحديد وتقدير الظاهرة أو العملية أو الشيء (١) .
- وقيل إن التقييم : هو الحكم على الأشياء وتوزينها وبيان قيمتها سلباً أو إيجاباً بموضوعية وشمول .

### الفرع الثالث : الفرق بين التقييم والتقويم

- ١- لقد بينت سابقاً أن كلمة تقييم كلمة مستحدثة شاع استخدامها على اللسان العربي مما حدا بمجمع اللغة العربية في القاهرة إلى إلحاقها بكلمة التقويم وإجازتها ، ومعناها جعل قيمة للشيء .
- ٢- شاع استخدام الكلمتين بمعنى واحد في الاستعمالات اللغوية والتربوية والإدارية وعند مراعاة المنهج العلمي واللغوي والتخصصي بدقة نستطيع أن نلمس الفروق التالية :
- أ- لدى الاطلاع على بعض المعاجم العربية ، وجدنا في العموم بأن مصطلح التقويم مرتبط بدرجة رئيسية بالتعديل والتصحيح والتجبير .
- وأن القيمة هي واحدة قيم ؛ وتعني القدر أو الثمن ، فالتقييم بهذا يعني : التتمين والتقدير وتحديد قيمة الشيء (٢) .
- أما التقويم فيجسد التصحيح ، فالتقييم عملية وأداة سابقة للتقويم المنهجي الذي يجسد بدوره هدفاً ونتاجاً لسابقه التقييم ، فعلى أساس بيانات التقييم نضع في العادة قراراتنا التقويمية للمنهج .
- فهما إذن عمليتان متكاملتان لكل منهما دوره ونهاياته المقصودة المرتبطة بالأخرى والتي لا تصح أبداً بدونها (٣) .
- ب- هناك فرق بين ثلاث مصطلحات تستخدم في هذا المجال وهي القياس والتقييم والتقويم .

القياس : هو المعيار الوصفي لتحديد القيمة العددية والرقمية فقط .

والتقييم : هو الحكم على هذه القيمة وإعطائها وزنها ومستواها سلباً أو إيجاباً .

(١) تقييم المنهج : محمد زياد حمدان ص ٤٥ - ٤٦ بتصرف .

(٢) المعجم الوسيط ، ص ٧٦٨ .

(٣) تقييم المنهج ، ص ٤٦ - ٤٧ بتصرف .

والتقويم : هو فوق كل ما سبق يتدخل بالتعديل والتغيير نحو الأحسن .  
فمثلاً : علامة طالب ما هي ثمانون فهذا رقم يدل على قياس الأداء ، ومستواه هنا جيد جداً فهذا حكم على مستواه وتقييم له ، وقولنا نريد أن يصل إلى مستو أحسن باتباع كذا وكذا من الأنشطة ، فهو تقويم للتحسين والارتقاء في علامته .  
وبذلك يمكن ربط تلك المصطلحات كالتالي :- قياس ← تقييم ← تقويم <sup>(١)</sup> .

### خلاصة :

على ضوء ما سبق نستطيع أن نخلص إلى المفاهيم التالية :

- ١- أن التقييم لغة : هو توزيع الشيء وإعطاء قيمة له .
- ٢- وأنه اصطلاحاً: الحكم على الأشياء وتوزيعها وبيان قيمتها سلباً وإيجاباً على ضوء معلومات سابقة ومعايير محددة .
- ٣- أن التقويم لغة : هو التعديل والاستقامة وإصلاح الاعوجاج .
- ٤- وأنه اصطلاحاً : عملية منهجية تتضمن جمع معلومات عن أمر معين تستخدم في الحكم عليه على أساس أهداف ومعايير محددة مسبقاً من أجل تطويره وتحسينه .
- ٥- أن التقويم أشمل من القياس والتقييم وهو يقوم مقامهما ولا يقوم مقامه .
- ٦- وبناء على ما تقدم من شمول مصطلح التقويم وأصله اللغوي ، وذكر القرآن الكريم له ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ [التين: ٤] وما ورد من كلمات كثيرة ضمن اشتقاق هذا المصطلح في القرآن الكريم فإنني سوف أعمد إلى استخدام مصطلح التقويم في رسالتي هذه ، إلا إذا دعت الضرورة العلمية والتوضيحية لغيره . ومن المصطلحات التي سترد في البحث أحياناً وتأخذ معنى التقويم في سياق معانيه ومدلولاته ضمن فصول البحث مصطلح النقد ، والحكم ، والقياس ، والمتابعة ، والتوجيه ، إضافة إلى بعض المصطلحات الشرعية مثل : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، نظام الحسبة ، الجرح والتعديل والقضاء وغيرها.

٧- والحقيقة أن مؤلفات علم الإدارة والتربية وعلم النفس والاجتماع قد توسعت في الكلام عن مصطلح التقويم ، فجعلت له أشكالاً وأنواعاً وقواعد وغايات ومجالات وأساليب

(١) مبادئ القياس النفسي والتقييم التربوي : د. سبيع محمد أبو لبدية ط ٤ ، عمان ، ١٩٨٧م ص ٨٧ بتصرف.

كثيرة، وقد أدخلته في كثير من الدراسات وجعلته المؤشر الحقيقي للتقدم والتطوير . ولا تسمح لنا طبيعة الفصل التمهيدي بالتوسع في هذا المجال تاركين ذلك ( إن أمكن ) إلى فصول البحث الأخرى حسب مفردات الدراسة ومتطلباتها .

#### الفرع الرابع : مصطلح التقويم ومشتقاته اللغوية ومعانيه في القرآن الكريم

وذلك حسب مادة الفعل (قَوْمٌ ، قَوْمٌ) .

- ١- زخر القرآن الكريم بمئات الآيات التي ذكرت التقويم ومشتقاته اللغوية ، وما تدل عليها من معان مختلفة ، فقد بلغت الآيات التي ذكرت ذلك حوالي (٦٤٤) آية .
  - ٢- المعاني والمشتقات التي وردت في آيات الكتاب العزيز من مادة الفعل (قوم) كثيرة ومتشعبة نلخص أبرزها فيما يلي :
- (أ) إقامة الأمر : أي الدوام عليه وإصلاحه والنهوض به ، مثل : إقامة الصلاة وقد ورد في ذلك آيات كثيرات منها :

﴿ وأقام الصلاة وأتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ... ﴾ [ البقرة : ١٧٧ ]

﴿ إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم ... ﴾ [ المائدة : ٦ ] .

﴿ والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة ... ﴾ [ الأعراف : ١٧٠ ] .

﴿ وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك ... ﴾ [ النساء : ١٠٢ ]

ووردت آيات في إقامة الأمر وإصلاحه مثل :

﴿ فوجدنا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه ﴾ [ الكهف : ٧٧ ]

﴿ ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن

تحت أرجلهم ... ﴾ [ المائدة : ٦٦ ]

﴿ لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل ... ﴾ [ المائدة : ٦٨ ]

﴿ فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما ... ﴾ [ البقرة : ٢٢٩ ]

﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفاً ولا تكونن من المشركين ﴾ [ يونس : ١٠٥ ]

﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ [ الرحمن : ٩ ]

﴿ الرجال قوامون على النساء ﴾ [ النساء : ٤١ ]

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء على ... ﴾ [ النساء : ١٣٥ ] .

﴿ الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ﴾ [ البقرة : ٢٥٥ ] .

(ب) الاستقامة : أي السير السليم على الأمر . ومن الآيات الدالة على ذلك :

- ﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ... ﴾ [ فصلت : ٣٠ ] .
- ﴿ و ألو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً ... ﴾ [ الجن : ١٦ ]
- ﴿ قد أجيبب دعوتكما فاستقيما ... ﴾ [ يونس : ٨٩ ]
- ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ... ﴾ [ الشورى : ١٥ ] .
- ﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾ [ الفاتحة : ٦ ] .
- ﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ [ البقرة : ٢١٣ ] .
- ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ [ الإسراء : ٣٥ ]
- ﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾ [ الشعراء : ١٨٢ ] .
- ﴿ أفمن يمشي مكبا على وجهه أهدى أمن يمشي سويا على صراط مستقيم ﴾ [ الملك : ٢٢ ]
- ﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم ... ﴾ [ التوبة : ٧ ] .
- ج) الدين القيم :** بمعنى المستقيم الذي لا عوج فيه ، مثل :
- ﴿ ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم ... ﴾ [ التوبة : ٣٦ ]
- ﴿ أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ... ﴾ [ يوسف : ٤٠ ] .
- ﴿ ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [ الروم : ٣٠ ] .
- ﴿ فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ﴾ [ الروم : ٤٣ ] .
- ﴿ وذلك دين القيمة ﴾ [ البينة : ٥ ] .
- د) المقام والمقامة والمقيم :** أي المنزل والمكانة والدوام ، ومن الآيات على ذلك :
- ﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى .. ﴾ [ البقرة : ١٢٥ ] .
- ﴿ وما منا إلا له مقام معلوم .. ﴾ [ الصافات : ١٦٤ ]
- ﴿ كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم .. ﴾ [ الدخان : ٢٦ ] .
- ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان .. ﴾ [ الرحمن : ٤٦ ] .
- ﴿ أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك .. ﴾ [ النمل : ٣٩ ] .
- ﴿ الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب .. ﴾ [ فاطر : ٣٥ ] .
- ﴿ وما هم بخارجين منها ولهم عذاب مقيم ﴾ [ التوبة : ٢١ ] .
- ﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي .. ﴾ [ إبراهيم : ٤٠ ] .
- ﴿ وإنها لبسبيل مقيم .. ﴾ [ الحجر : ٧٦ ] .
- ﴿ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴾ [ الزمر : ٤٠ ] .

هـ — التقويم والأقوم: بمعنى الأحسن في تأليفه واعتداله وصوابه وعدله، وآيات ذلك:

- ﴿ ذلك أفسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى إلا أن ترتابوا .. ﴾ [البقر: ٢٨٢].  
﴿ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم .. ﴾ [النساء: ٤٦].  
﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم .. ﴾ [الإسراء: ٩].  
﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قبلا .. ﴾ [المزمل: ٦].  
﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن التقويم .. ﴾ [التين: ٤].

و — القيامة: أي يوم القيامة الذي يقوم الناس فيه من موتهم بأمر الله للحساب وهو اليوم

الآخر وقد وردت آيات كثيرات في هذه المجال منها:

- ﴿ فإله يحكم بينهم يوم القيامة فيما فيه يختلفون .. ﴾ [البقرة: ١١٣].  
﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه .. ﴾ [النساء: ٨٧].  
﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة .. ﴾ [الأنبياء: ٤٧].  
﴿ وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة بنس الرشد المرفود .. ﴾ [هود: ٦٠].  
﴿ وكلهم آتية يوم القيامة فردا ﴾ [مريم: ٩٥].  
﴿ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون .. ﴾ [المؤمنون: ١٦].  
﴿ ربنا آتانا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة .. ﴾ [آل عمران: ١٩٤].  
﴿ أفمن ينقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة .. ﴾ [الزمر: ٢٤].  
﴿ لا أقسم بيوم القيامة .. ﴾ [القيامة: ١١].  
﴿ قل الله يُحييكم ثم يُميتكم ثم يُجمعكم إلى يوم القيامة .. ﴾ [الجاثية: ٢٦].

ز — القوم ومشتقاتها: أي المجموعة التي تقوم على الأمر وترتبط ببعضها . وقد

وردت عشرات الآيات نذكر منها ما يلي:

- ﴿ تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون ﴾ [البقرة: ١١٨].  
﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [آل عمران: ٨٦].  
﴿ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا ﴾ [النساء: ٧٨].  
﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا ﴾ [المائدة: ٨].  
﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴾ [الأنعام: ٤٥].  
﴿ فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ [الأعراف: ٩٣].  
﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ﴾ [التوبة: ٣٩].

- ﴿فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين﴾ [يونس : ٧٥].
- ﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون﴾ [الزخرف: ٤٤].
- ﴿ وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا ..﴾ [يونس : ٨٧]
- ﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين﴾ [الأعراف : ٨٩].
- ﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ..﴾ [الكهف : ١٥].
- ﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى﴾ [طه: ٧٩].
- ﴿ وأحلوا قومهم دار البوار﴾ [إبراهيم : ٢٨].
- ﴿ فأنت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جننت شيئا فريا﴾ [مريم : ٢٧].
- ﴿ ونجيناهما وقومهما من الكرب العظيم﴾ [الصافات : ١١٥].
- ﴿ وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجورا﴾ [الفرقان : ٣٠].
- ﴿ قال رب إنني دعوت قومي ليلا ونهارا ..﴾ [نوح : ٥].<sup>(١)</sup>

ومن خلال الاطلاع على بعض كتب التخصص في موضوع التقويم والقياس واستعراض الآيات القرآنية الدالة على موضوع التقويم حسب مجالاته واشتقاقاته وأساليبه المتنوعة واقتراب معاني التقويم ومفاهيمه من بعض المصطلحات المشابهة في المعنى والمفهوم ( كما ذكرنا ) من مثل ، النقد، والنصيحة ، الجرح والتعديل ، والقياس ، والتقييم ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والمتابعة ... الخ ، من خلال ذلك نستطيع تحديد وبشكل عام بعض الأشكال والمعاني لهذا الموضوع الشامل نختصرها كالآتي:

١- يأخذ التقويم أحيانا معنى النصيحة ومفهومها في دائرة الأخوة الإسلامية ودعوة الرسل عليهم السلام ، ومثال ذلك : قوله تعالى ﴿ وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ..﴾ [ الأعراف: ٧٩] وقوله تعالى ﴿ وأبلغكم رسالة ربي وأنصح لكم﴾ [الأعراف: ٦٢] وقوله كذلك ﴿ أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين﴾ [الأعراف: ٦٨] وكذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم " الدين النصيحة : قلنا : لمن يا رسول الله : قال : لله ولرسوله وللأئمة المسلمين وعامتهم " <sup>(٢)</sup> .

<sup>(١)</sup> المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي ، المكتبة الإسلامية ، استنبول / تركيا ١٩٨٢م ص ٥٧٨ كما وردت في مادة (قَوْمٌ) بتصرف واستنتاج .

<sup>(٢)</sup> صحيح مسلم بشرح النووي ، ج ٢ ، ص ٣٧ ، باب الدين النصيحة ، مكتبة الغزالي / دمشق ، ومناهل العرفان / بيروت .



ويأتي مقام النصح هنا من استثارة وازع التقويم والتصحيح في النفس البشرية تجاه ما تشاهد من مواقف مشينة تحتاج إلى تعديل وإصلاح ، أو مواقف صحيحة تحتاج إلى تثبيت وإطراء ، فيسبق التقويم والحكم والنقد هنا عملية النصح التي تكتسي ثوب الإشفاق والحب والرحمة .

١- ويأتي التقويم أحياناً بمعنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كقاعدة إسلامية وقائية تحول دون تفكك المجتمع واندثاره ابتداء من دائرة السلطان والقيادة، وانتهاء بدائرة الشعب بجميع شرائحه ، والنصوص في ذلك كثيرة منها :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر... ﴾ [الأنفال: ٧١] .

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم " والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم " (١) حديث حسن رواه الترمذي .

ويأخذ التقويم بهذا المنحى سلطة فردية قد يقوم به كل فرد قادر عليه شاعر بمسئوليته، أو سلطة دستورية قانونية عبر مؤسسات الدولة في ما كان يسمى ديوان المظالم ، أو ديوان الحسبة عبر عصور التاريخ الإسلامي سابقا ، أو ما يتمثل في آليات قانونية مستحدثة تؤدي هذا الدور في واقع المسلمين المعاصر .

٢- ويبرز التقويم أحياناً أخرى بمفهوم القضاء وهو الحكم بين المتخاصمين بالعدل على أساس الشريعة، وإن كان أكثر ما يخص القضاء عموماً هو فض الخصومات وحل مواطن الخلاف بين الناس ، ويتدخل في ذلك أنظمة ومرافعات وشهود .. الخ ، ومن النصوص في ذلك قوله تعالى : ﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

وقوله تعالى: ﴿ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ﴾ [النساء: ٦٥] .  
وقوله كذلك ﴿ إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ [يونس: ٩٣] .  
وقوله عز وجل: ﴿ فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾ [يونس: ٤٧] .  
ويدخل التقويم كذلك ضمن مصطلحي الجرح والتعديل على مفهوم مدرسة مصطلح الحديث وعلم الرجال ، وهي المدرسة التي يفتخر بها التراث الإسلامي ، إذ لم

(١) رواه الترمذي رقم ٢١٦٩ ، طبعة مصطفى الحلبي . وأحمد في مسنده ٣٨٩/٥ طبعة الميمنية

يتحصل لأمة غير الأمة الإسلامية صناعة هذه المنهجية العلمية ، الراقية الدقيقة في تقويم الحديث ورجاله سنداً ومنتناً ، قدحاً ومدحاً ، ويقوم الأمر هنا على نقد وتقويم الرجال في ما لهم من صفات حسنة في عدالتهم وأمانتهم وحفظهم وضبطهم ، وما عندهم ، في المقابل من صفات جارحة ، في عدالتهم وأمانتهم وحفظهم وضبطهم على مستوى الصفات الذاتية والصفات الحديثية سواء . ومن النصوص على ذلك قول الله تعالى : ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ [ ق : ١٨ ] وقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ [الحجرات: ٦] .

وقوله صلى الله عليه وسلم " من كذب عليّ عامداً متعمداً فليتبوأ مقعده من النار " <sup>(١)</sup> وهذه النصوص تركز على دقة القول وتحري الصحة في الكلام والنقل وتناسب مقام الحجة في الجرح والتعديل ؛ إذ أن المهم هنا هو النقل والرواية عن الغير بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم فاللفظ عليه ملك رقيب دائم المراقبة ، ويوجب هذا التبين والتثبت في الأخبار والأنباء التي تروى حتى يعلم حال صاحبها ، لأن عدم التبين قد يُصيب الناس بالجهالة والكذب ، وهو هنا كذب القول واللسان الذي يفضي إلى القعود في نار جهنم ، ويا لها من نتيجة مفزعة مروعة .

٥- ويجيء التقويم أحياناً بالمفهوم التربوي التعليمي في دائرة " التربية والتعليم " ويختص هذا المفهوم أكثر ما يختص في مجال تعليم الطلاب وتربيتهم والتعامل معهم عبر آليات وأساليب وإجراءات في موضوعي القياس والتقويم مع مراعاة المستويات العمرية والفروق الفردية ، والمكتسب الفطري ، وتأثير البيئة ، والقيم والأهداف ، المناهج والعاملين بها ، وبكل ما يختص بالعملية التعليمية . وللتربية الإسلامية ونظامها التعليمي قدم راسخة في هذا الباب انطلاقاً من نصوص الكتاب والسنة ، ومناهج علماء المسلمين في القديم والحديث، ومن النصوص في هذا المجال قول الله تعالى: ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ﴾ [ القيامة: ١٤ ] أي في معرفة ضعفها وخطأها ومن ثم تقويمها وتصويبها ، وهذا نوع من النقد الذاتي للنفس . ويقع في نفس المجال قول الله تعالى ﴿واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ... ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وذلك لمراقبة الله والشعور الدائم بمعيبته وعلمه بما في نفوسنا، مما يتولد عنه تقويم النفس وتعديل سلوكها على ضوء معيار المراقبة لله سبحانه مما له أكبر

(١) صحيح مسلم بشرح النووي : للإمام مسلم ، باب التثبت في الحديث ، رقم ٣٠٠٤ طبعة مكتبة الغزالي ، ومؤسسة مناهل العرفان .

الأثر في تحسين العملية التربوية والتعليمية وبناء الرقابة الذاتية وإحياء صفة التقويم والمحاسبة في ضمائر كل من له علاقة بها .

ويكون التقويم الذاتي التربوي كمثال على هذا المفهوم من مفاهيم التقويم في دائرة التربية والتعليم قلياً وبنائياً وختامياً ، قلياً : أي قبل الفعل الذي سيقوم به الفرد فيخضعه ابتداءً للتقويم لما عنده من معايير مسبقة لمثل هذا الفعل . وبنائياً : أي التقويم الذي يقع من المرء أثناء عمله حتى لا ينحرف ويكمل عمله على وجه الصواب . وختامياً : أي هو التقويم النهائي الذي يصدره الإنسان على عمله بعد إنجازه وإنجازه على أساس المعايير الإسلامية قال تعالى : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ... ﴾ [ البقرة : ٢٨١ ] .

٦- ويتعدى مفهوم التقويم كذلك إلى دائرة علمية حديثة من ميادين العمل البشري وهو ميدان الإدارة والقيادة في مختلف الميادين والمجالات ، ويشكل التقويم بمفهومه الإداري إحدى عمليات الإدارة الخمسة ، وهي : التخطيط ، التنظيم ، التنسيق ، المتابعة والتقويم ، ويشكل التقويم كما في علم الإدارة حلقة مهمة ، إذ لا فائدة من كل ما سبق من عمليات إدارية دون التقويم . فبه يتم الحكم على كل ما سبق بالسلب أو الإيجاب ، أو كليهما ، ومعرفة نسبة تحقيق الخطط والأهداف الموضوعة مسبقاً .

فيعرف بذلك المطلوب حالياً والمحقق فعلياً والمأمول مستقبلياً . وأصبح للتقويم على هذا الأساس مؤسسات تخصصية تقوم بالتقويم لمن أراد أن يقوم نفسه أو خطته أو مؤسسته وهكذا ... .

وقد أورد القرآن الكريم بعض معايير التقويم لمن يقوم بالعمل الإداري والقيادي كطاقة بشرية هي الأساس في العملية القيادية على لسان سيدنا يوسف عليه السلام في قصته مع ملك مصر بقوله ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ [ يوسف : ٥٥ ] .

فقوم يوسف عليه السلام نفسه ووصفها بصفتين عزيزتين مهمتين للقيادة الاقتصادية في حياة الدول والشعوب هما ( الحفظ ) بمعنى الأمانة والصدق و( العلم ) بمعنى الخبرة والتجربة والتخصص . ويظهر هنا جواز تركية الإنسان لنفسه وتقويمها بما يعرفه عنها من خير في مواطن المصلحة العامة ونفع الآخرين ، وعند عموم الفساد ، وعدم وجود الكفاءات القيادية ، شرط أن يكون ما يصف به نفسه متحققاً .

ويرد كذلك في هذا المقام قول الله عزوجل على لسان ابنة شعيب عليه السلام في حق موسى عليه السلام وتقويمها له عندما سقى لها وأختها وساعدهما في وقت هما في أشد الحاجة للمساعدة فيه ﴿يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ [القصص: ٢٦].

فوصفت ابنة شعيب عليه السلام سيدنا موسى عليه السلام بوصفين بارزين مهمين لمن يريد القيام بالعمل الموكل إليه خير قيام هما ( القوة ) أي المقدره والعلم والخبرة بالعمل و (الأمانة ) الصدق والخلق الرفيع ، ومن ذلك قول الله عز وجل في تقويم رسول الله و وصفه ﴿.. وإني لأرى خلقاً عظيماً﴾ [ القلم : ٤ ] وهنا تقويم من الله عز وجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه على خلق عظيم أي صاحب أخلاق عظيمة ، والأخلاق مفهوم واسع عريض يحمل كل معاني الخير وميزات القيادة والإدارة والتعامل مع الآخرين . ولم تقتصر صفة الرسول هنا على الأخلاق فقط إنما وصفت بأنها أخلاق عظيمة، وهذه ولا شك قمة سامقة وصفات سامية لا يصل لها إلا خواص الناس مثل الأنبياء والرسل ، وصفة الأخلاق القيادية سمة وعامل أساسي ومحور رئيسي أجمعت عليه كل مدارس القيادة والإدارة المعاصرة لما له من أثر جوهري في نجاح القيادات في الوصول إلى أهدافها وغاياتها .

### الفرع الخامس : عناصر التقويم

- عملية التقويم عملية منهجية شاملة تبدأ بالتشخيص وبيان الإيجابيات والسلبيات وتنتهي بالتعديل والإصلاح والتطوير وهي تتشكل من عدة عناصر هي :
- ١- المَقُومُ : وهي الجهة التي تقوم بعملية التقويم ، فرداً كانت أو جماعة أو هيئة أو دولة أو غيرها .
  - ٢- المَقُومُ : وهي الجهة التي تقع عليها عملية التقويم ، فرداً كانت أو جماعة أو قوماً أو فكرة أو خطة أو أي شيء آخر .
  - ٣- موضوع التقويم : وهي الحالة أو الموقف المراد تقويمه أياً كان نوعه ومع أي جهة كانت.
  - ٤- أسلوب التقويم : الطريقة أو الكيفية التي يتم بها التقويم ، بالقول أو الفعل ، أو الكتابة أو المعاشة ... الخ .

٥- نتيجة التقويم : وهي المحصلة أو الثمرة التي تصل إليها عملية التقويم ، سلباً أو إيجاباً أو كليهما ، ونسبة ذلك على ضوء الأهداف والمقاييس المحددة (١) .

وعند استعراض آيات الكتاب العزيز التي تعالج منهج التقويم وتبرزه ، نجد أن تطبيق العناصر السالفة عبر المواقف التقويمية في تلك الآيات ممكن ، بل وواضح أشد الوضوح ، وحتى لا نُبعد في ذكر الآيات الكثيرات ، ونستطرد في بحثها ، نعرض هنا بعضاً منها على سبيل المثال والاختصار :

**أولاً :** قول الله عز وجل في مقام تقويم العقائد والأفكار التي اعتقدها النصارى في حق سيدنا عيسى عليه السلام . قال تعالى :

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ... ﴾ [ المائدة : ١٧ ]

تضمنت الآية عملية تقويمية تجلت عناصرها كما يلي :

أ-المَقَوْمُ : هو الحق تبارك وتعالى ، بقوله : " لقد كفر ... " .

ب-المَقَوْمُ : هم أهل الكتاب من النصارى " الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ...

" وعبر عنهم كمجموعة و جهة وقوم بلفظ " الذين " .

ج- موضوع التقويم : عقيدتهم وفكرتهم القائلة بألوهية عيسى عليه السلام ، وأن الله

هو عيسى " عقيدة الناسوت " التي يقول بها النصارى .

د-أسلوب التقويم : وهو القول الصريح ، والإعلان المباشر من الله تعالى على موقف

النصارى تجاه عيسى عليه السلام .

هـ- نتيجة التقويم : وصف الله لهم بالكفر على اعتقادهم بألوهية عيسى ، وهو تقويم

ذا نتيجة سلبية قاسية تناسب قولهم واعتقادهم القبيح .

ولقد كان تقويم الحق تبارك وتعالى وحكمه على هذا الموقف العقدي على ضوء معيار

إلهي معروف مركز في الفطرة البشرية وظاهر في الحكمة الربانية هو توحيد الله عز

وجل ، وبذلك كيف يكون الخالق هو المخلوق والمخلوق هو الخالق بمزيج قبيح ، وتركيبية

مردولة نسجتها الأهواء والانحرافات والعناد . فانه قادر على إهلاك عيسى وأمه ومن في

الأرض جميعاً ، فكيف يكون عيسى بشراً محكوماً بقانون الهلاك ، وإلهاً قادراً على الإهلاك

(١) كتاب إدارة الأفراد : د. محمد يوسف القريوتي ، وكتاب دليل التدريب القيادي : د. هشام الطالب نشر ،

معهد الفكر الإسلامي ( بتصرف ) .

في نفس الوقت ، وتقدير هذا المعيار ( في توحيد الله الذي تعرفه البشرية عبر رسالات الرسل والأنبياء ) هو الثمرة التي يريد الله أن يقوم بها هذه المفاهيم المنحرفة والعقائد الضالة . ويشير هذا الموقف التقويمي إلى أحد قواعد التقويم التي ستمر بنا في أحد فصول البحث، وهي قاعدة الصراحة والوضوح الكامل في التقويم والحكم على الأشياء ، خاصة عندما يتناول الأمر الفكر والعقيدة ، فلا مجاملة ولا موارد ، إنما هو التقويم بالكفر والوصف بالضلال مباشرة دون مجاملة ولا تلثم ، ولربما تكون كلمة الكفر ، والوصف بالكفر أشد كلمة قوم بها القرآن مواقف البشر ، بل ربما تكون أقسى كلمة يقوم بها الإنسان في حياة البشرية كلها ، إذ ليس بعد الكفر ذنب .

يقول الأستاذ سيد قطب - رحمه الله - عند تفسير الآية في مجال وضوح طرح العقيدة وجلانها " وتبرز الخاصية الأولى للعقيدة الإسلامية في تقرير حقيقة الألوهية ، وحقيقة العبودية ، والفصل التام الحاسم بين الحقيقتين بلا غبش ولا شبهة ولا غموض " (١) .

**ثانياً : قول الله عز وجل ﴿ قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم نغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ [ الأعراف : ٢٣ ] .**

رحلة حواء وآدم عليهما السلام رحلة شاملة تظهر فيها حقيقة الحياة وهدف الخلق وعوائق الطريق وجوانبه ، وقدرة المكلف ونقاط ضعفه ومنهج الخالق في الابتلاء ، وحقيقة التوبة ، والاعتراف بالخطأ ، والنقد الذاتي ، ومعرفة الذات التي تشكل العتبة الأولى في مقام العبودية والطاعة ، وهذه الرحلة ولا شك تلخص حياة بني آدم إلى أن تقوم الساعة . وتتجلى عناصر التقويم الذاتي في هذه القصة الضاربة في أعماق الزمان والمكان والخلق كما يلي :

- أ- المقوم : آدم وحواء عليهما السلام ، بقول الله " قالوا " بصيغة التثنية .
- ب- المقوم : هما : آدم وحواء عليهما السلام بقوله تعالى على لسانهما ﴿ ظلمنا أنفسنا ﴾ .
- ج- موضوع التقويم : عملهما ومخالفتهما بأكلهما من الشجرة وقد مُنعا من ذلك ﴿ ... ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾ [ الأعراف : ١٩ ] .
- ﴿ فلما ذاقا الشجرة ... ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ... ﴾ [ الأعراف : ٢٢ ] .
- د- أسلوب التقويم : بالقول الصريح والاعتراف بالخطأ وتقويم الذات المباشر " قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا" .

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب ج ٢ ص ٨٦٦ ط ١٢ ، ١٩٨٦م دار العلم / جده ، دار الشروق/القاهرة .

هـ- نتيجة التقويم :

- ظلم النفس بسبب العصيان والأكل من الشجرة " ظلمنا أنفسنا " .

- معرفة الذات وضعفها واللجوء إلى الله بالدعاء وطلب المغفرة ... " وإن لم تغفر لنا

وترحمنا " .

- الخسارة وعدم الفوز و تأكيد ذلك إذا لم يتحصلا على مغفرة الله ورحمته " لنكونن

من الخاسرين " .

ويشكل موقف آدم وحواء منهجية راشدة في تقويم الذات ولجمها وإنابتها وتوبتها ، مما

يدل على ضرورة إحياء هذه المنهجية التقويمية بشجاعة وقوة ووضوح في حياة البشر كافة

والمسلمين خاصة ، يقول سيد قطب في كلامه حول هذه الآية : " إنها خصيصة الإنسان التي

تصله بربه ، وتفتح له الأبواب إليه ، الاعتراف، والندم ، والاستغفار ، والشعور بالضعف ،

والاستعانة به ، وطلب رحمته ، مع اليقين بأنه لا حول له ولا قوة إلا بعون الله ورحمته وإلا

كان من الخاسرين <sup>(١)</sup> .

**ثالثاً: قول الله تعالى في مطلع سورة عبس ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما**

**يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنتعه الذكرى ﴾ [ عبس : ١-٤ ] .**

ذكر غير واحد من المفسرين أن مناسبة هذا المطلع هي حادثة إعراض الرسول صلى

الله عليه وسلم عن ابن أم مكتوم رضي الله عنه وقد جاء يطلب من رسول الله صلى الله عليه

وسلم أن يعلمه شيئاً من الإسلام ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشغولاً بمخاطبة

بعض كبراء المشركين رغبة في إسلامهم ، مظنة إن يتبعهم أناس آخرون ، فيما لو دخل

هؤلاء الكبراء في الإسلام . وقد قوّم القرآن هذا الموقف الدعوي ، وكان ذلك على صورة

عتاب شديد لرسول الله صلى الله عليه وسلم . وواضح أن قصد رسول الله صلى الله عليه

وسلم من وقفته هذه هو رغبته الشديدة بإسلام هؤلاء . فتلك هي رسالته ، فقد أنزله ربه

رحمة للعالمين . ومع نبل المقصد وسمو الغاية يقف القرآن ليضع ميزاناً ومعياراً لحياة

الناس ونظرتهم للأشياء والأشخاص .

يقول الإمام ابن كثير عند تفسير هذه الآية : " ومن ههنا أمر الله رسوله صلى الله عليه

وسلم أن لا يخفي بالإنذار أحد بل يساوي فيه بين الشريف والضعيف، والفقير والغني

(١) في ظلال القرآن : ج ٣ ص ١٢٧٠ .

والسادة والعبيد، والرجال والنساء ، والصغار والكبار ، ثم الله تعالى يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة " (١) .

وذكر الإمام القرطبي "أن الآية عتاب من الله لنبيه صلى الله عليه وسلم في إعراضه وتوليه عن عبد الله ابن أم مكتوم " ويقول في سبب هذا العتاب " ولكن الله عاتبه حتى لا تنكسر قلوب أهل الصفة ، أو ليعلم أن المؤمن الفقير خير من الغني ، وكان النظر إلى المؤمن أولى، وإن كان فقيراً أصلح وأولى من الأمر الآخر ، وهو الإقبال على الأغنياء طمعاً في إيمانهم ، وكان ذلك أيضاً نوعاً من المصلحة . وعلى ذلك يخرج قوله تعالى ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى ... ﴾ الآية على ما تقدم . وقال كذلك ... " ومع هذا أنزل الله في حقه على نبيه صلى الله عليه وسلم " عبس وتولى " بلفظ الإخبار عن الغائب ، تعظيماً له ولم يقل : عبست وتوليت " إلى أن يقول : " نظير هذه الآية في العتاب قوله في سورة الأنعام

﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ﴾ وكذلك قوله في سورة الكهف : ﴿ ولا تعدّ عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ﴾ وكان مثله والله أعلم " (٢) .

ويؤكد الأستاذ سيد قطب في كلامه حول تفسير سورة عبس موقف العتاب القرآني لرسول الله صلى الله عليه وسلم في إعراضه عن ابن أم مكتوم فيقول : " فنزل القرآن بصدر هذه السورة يعاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاباً شديداً ، ويقرر حقيقة القيم في حياة الجماعة المسلمة في أسلوب قوي حاسم " ويقول كذلك " والحقيقة التي استهدف هذا التوجيه إقرارها هي : أن يستمد الناس في الأرض قيمهم وموازينهم من اعتبارات سماوية إلهية بحتة، آتية لهم من السماء ، غير مقيدة بملاسات أرضهم ، ولا بمواصفات حياتهم ، ولا نابعة من تصوراتهم المقيدة بهذه المواصفات وتلك الملاسات ، وهو أمر عظيم جداً ، كما أنه عسير جداً ... وذلك ندرك عظمة هذا الأمر وعسره حين ندرك أن نفس محمد بن عبد

(١) تفسير القرآن العظيم : الإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي ج ٤ ص ٤٧١ ط إحياء التراث ، دار الحديث / القاهرة ١٩٨٨ م .

(٢) الجامع لأحكام القرآن : أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي جزء ١٠ مكتبة الغزالي / دمشق ، مؤسسة مناهل العرفان بيروت ص ٢١٢-٢١٤ .



الله صلى الله عليه وسلم قد احتاجت كي تبلغه إلى هذا التوجيه من ربه ، بل إلى العتاب الشديد ، الذي يبلغ حد التعجب من تصرفه ! (١) .

ويساغ القول بعد ما سبق أن المعايير والمقاييس التي تحكم حياة الناس وتصرفاتهم ، وتقوّم وتوجه مواقفهم وتصرفاتهم هي الأساس لضبط الحياة ، وقربها من العدل والتحسين والتعديل نحو الأفضل . وواضح أن ذلك منهج قرآني لا يحابي أحداً ، ولو كان خاتم الأنبياء والرسول محمد صلى الله عليه وسلم .

وعند تطبيق عناصر التقويم على هذه الآيات التي عاتب بها الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم بسبب موقفه من ابن أم مكتوم نجدها تظهر كالتالي :

(أ) المقوّم : هو الله تبارك وتعالى بقوله " عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى " .  
(ب) المقوّم : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم كما ذكر المفسرون . وجاء لفظ العبوس والتولي بصيغة الغائب ﴿ عبس وتولى ﴾ احتراماً وتعظيماً للرسول صلى الله عليه وسلم .

(ج) موضوع التقويم : موقف الرسول من ابن أم مكتوم وإعراضه عنه في موقف دعوي أراد به الرسول دعوة كبار القوم ، فذلك أنفع للإسلام والمسلمين من الإصغاء لابن أم مكتوم في حينه .

(د) أسلوب التقويم : العتاب الشديد ، واللوم بالإعلان والقول الصريح الواضح . مع ذكر ذلك بصيغة الغائب تلطفاً بالرسول صلى الله عليه وسلم وتعظيماً له .

(هـ) نتيجة التقويم : " وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى " توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أن الهداية بيد الله ، والمهم هو الالتزام بالمنهج والميزان في الدعوة ، والنظرة للناس على أساس المساواة والعدل في حقهم جمعياً ، دون تمييز بين كبير وصغير أو غني وفقير .

وهي حقيقة القيم والموازن والمعايير التي تقوّم مواقف الناس وتصرفاتهم ، وتختتم الآيات هذه النتيجة بقوله تعالى :

﴿ أما من استغنى ، فأنت له تصدى ، وما عليك ألا يزكى ، وأما من جاءك يسعى ، وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ﴾ .

(١) في ظلال القرآن : مرجع سابق ج ٦ ص ٣٨٢٢-٣٨٢٣ .

والحقيقة التطبيقية لهذا الموقف أن العبوس والتولي والتلهي من قبل الرسول صلى الله عليه وسلم تجاه ابن أم مكتوم ، والتصدي والرغبة في دعوة كبار القوم لا تغير من الموقف شيئاً ، والمهم هو ميزان الدعوة ومعيار التفاضل بين الناس ، والنتيجة محسومة بيد الله ، ولا دخل للبشر فيها ، شرط قيامهم بالأسباب في حدود الطاقة والوسع ضمن المعيار والميزان المطلوب .

### الفرع السادس : أصل التقويم وعلاقته بقاعدة العدل وفطرة الإنسان في القرآن الكريم

تقوم قاعدة الوعي البشري عموماً على وجود خالق و مخلوق وحياة وتصور فكري ووجداني حول ثلاثية أساسية هي : الإنسان في نفسه ، والكون من حوله ، والحياة ومغزاها ومآلها .

وقد أنتجت البشرية ضمن مراحل تطورها كما هائلا من التنظير والفعل ثم التصحيح حول هذه المحاور، وكان حظ الصدام والتناحر وافرأ بين خطوط إنجازها النظري والتطبيقي على حد سواء في هذا المجال .

وكان الانسجام والتوافق من معالم وأساسيات التصور الإسلامي " الاستسلام لمنهج الخالق " على مر العصور والرسالات بين أطراف هذه الثلاثية المذكورة على قاعدة وحدة المصدر والمآل ، وبذلك فقد تجلت القضية منذ البداية ، فهناك خالق هو " الله تبارك وتعالى " يتصف بكمال الإرادة والقدرة والعلم ، شاء ما شاء لحكمة وغاية يريدتها ويرتضيها لخلقها .

وهو كلما ارتكست البشرية وتراجع رصيد الرقي والإحسان فيها بعث لها من يرشدها إلى الجادة ، ويأخذ بيدها إلى الارتقاء ، على شكل رسالات وأنبياء ورسول ومعجزات .

وبعد أن وصلت البشرية إلى المستوى المعقول من الرشد والنضوج في تفكيرها وفعلها، ختم لها الخالق سبحانه معطيته التي تعودت عليها برسالة خاتمة ، ونبي خاتم ، وجعل ذلك في دفتي كتاب محفوظ هو القرآن الكريم ، جمع بين رصيد الرسالات السابقة ، وزاد عليها في اكتمال وشمول ونضوج ، واكتملت بذلك الحلقات والمراحل برسالة الإسلام التي هي دستور الخالق للخلق إلى يوم الدين وموعد المآل .

والقرآن الكريم كحلقة خاتمة ودستور أخير للبشرية احتوى على كل ما يصلح حال المكلفين في حاضرهم ومستقبلهم احتراماً لنضوجهم التاريخي في الدروس والعبر الماضية ، ومواكبة لتقدمهم وتطورهم المستقبلي ، وكل ذلك عبر سنن وقوانين وأطر عامة ، وبذلك

شكل القرآن ميدانا فسيحاً من التحدي والغذاء الناجع لمختلف ساحات النشاط البشري الروحية والعقلية ، والمادية ، والأخلاقية ، والقيادية والعلمية وغيرها .

ولقد أخرج القرآن نظرياً وعملياً أمة كاملة الأوصاف نموذجية العطاء والرقى - مع ما رافق ذلك من ارتكاسات معلومة - وأثبت عملياً أنه الأصلح للبشرية على مر عصورها كلها، وأن فيه من المقاصد النبيلة والشمول والتكامل وتغطية حاجات المكلفين ما لا يملكه المكلفون هم لأنفسهم فرادى كانوا أو جماعات . ومنطق ذلك أنه من الخالق إلى المخلوق ومن الكامل إلى الناقص ومن القوي إلى الضعيف .

وكان ولازال وسيبقى قانون العدل والتمييز والتقويم لما يصدرُ من المكلفين . فالدستور القرآني هو الدعامة الأساسية وشاطئ الأمان ومصدر الطمأنينة والرضاء للإنسان في دنياه ومآله ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ [ الإسراء : ٩ ] .

وهذا ما يفسر لغز الحياة وفلسفتها في التصور الإسلامي ، إذ لو كانت الحياة دون هدف وقانون ، وليس هناك مآل وميزان وتقويم وحكم لما يصدر من المكلفين في الحياة تجاه أنفسهم، وتجاه غيرهم ، ومجازاتهم على ذلك كل حسب ما يستحقه ، لو لم يكن ذلك لكانت الحياة ولبقيت كما هي في كثير من فتراتنا شريعة غاب يأكل القوى فيها الضعيف ، ويفتك الظالم فيها بالمظلوم ، وتتصارع البشرية مع نفسها ومع الكون من حولها بل مع خالقها ، مما يقودها إلى نفي المآل وحكمة الخالق للخلق ، فتسترسل في حياة اللذة والشهوة والظلم والطغيان والمادة إلى أقصى ما تستطيع ، فالحياة الدنيا هي نهاية المطاف ، ويمضي الإنسان بعدها للمجهول ، فعليه من أجل ذلك استغلال حياته قبل فوات الأوان . كما هي نظرة بعض الناس للحياة والعلم والتطور الآن ، وقد شكل ذلك (كما في العالم الغربي) ردود فعل سلبية قاسية ضد فكرة الأديان وفكرة الخالق والخلق ، بل ضد الفطرة البشرية نفسها التي تميل في أصلها إلى الحق والعدل وتكره الظلم والتعسف والطغيان .

يقول الأستاذ الدكتور محمد عبد الرحمن الراوي في كتابه "كلمة الحق في القرآن الكريم" :

" والحكم بين الناس بالحق مطلب فطري تسانده فطرة الحق التي فطر الله الناس عليها، ويدعو إليه تبادل حاجاتهم ومنافعهم ، وضرورة تعاونهم في أسرهم ومجتمعاتهم ، وتحقيق تعارفهم وأمنهم ، فمن ذا الذي يقرر الحق منهم ولهم جميعا ، ولكل منهم مصالحه وهواه ؟

أليس من مصلحتهم جميعاً أن تكون كلمة الحق صادرة من ربهم جميعاً رب العالمين ،  
مبارة من اتباع هوى ، أو تأثير حاجة أو مصلحة ، منزهة عن قصور علم وإحاطة ؟ إن مما  
يفعله الناس عند خصامهم أن يميلوا إلى جهة محايدة تحكم بينهم لا يكون منها ذو نسب أو  
قربة ، أو يكون لها مصلحة عند أحد من المتخاصمين ، والله المثل الأعلى .

وإذا كان الناس يفعلون ذلك طلباً للعدل ، وإنصافاً للحق يخشون أن يحكم بينهم من له  
مصلحة عند أحدهم ، فهل يكون من الانصاف والعدل أن يأبى أحد حكم الله وهو غنى عن  
العالمين ، وليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته ؟

هل من الإنصاف أن يأبى أحد حكم الله الذي خلقهم جميعاً ، ويعلم ما خفي وظهر من  
أمرهم وما يصلحهم ، ويحقق لهم الفوز والفلاح ، في دنياهم وأخراهم <sup>(١)</sup> . ويقول كذلك :  
والتحذير من الميل أو اتباع الهوى في تحقيق العدل وإقامة الحق لا يلقي على الناس موعظة  
بلا حساب أو جزاء ، بل لا بد من حساب عليه وجزاء لمن أحسن أو أساء <sup>(٢)</sup> .

ولقد أكرم الخالق خلقه وقدرهم ، حيث جعل لهم حرية الفكر وحرية الاعتقاد والاختيار  
احتراماً لعقولهم ، ونضوجهم ، لقوله تعالى ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم .. ﴾ وقال ﴿ لا إكراه في  
الدين قد تبين الرشد من الغي .. ﴾ .

ولكنه في المقابل وهو العليم بما عندهم من قصور ونوازع وأهواء ، كلفهم نتيجة  
اختيارهم وأعمالهم بعد أن وضح لهم الطريق والنتيجة لما يختارونه من خير أو شر ، ولم  
يجعل النتيجة غامضة سحرية ، بل هي واضحة معلومة منذ البداية ، وأنزل الكيفية التي  
نعرف بها في الدنيا والآخرة ( الميزان ، والتقويم ، والعدل ) ولا تكون هذه صحيحة مستقيمة  
إلا من لدنه سبحانه بعيداً عن أهواء الناس ، ورغباتهم وميولهم ، وقلة حياديّتهم ، وقسطهم .

ولقد زخر القرآن الكريم بآيات تعالج موضوع العدل والقسط في حياة الإنسان  
ومآله الختامي، ويبدأ منهج العدل في التصور القرآني من قاعدة الحقوق والواجبات على  
المستوى الفردي والجماعي بين المسلمين وغير المسلمين ، ونقتطف بعض ما أورده بعض  
العلماء في هذا المجال بتصرف وإيجاز .

(١) كلمة الحق في القرآن الكريم : د. محمد عبد الرحمن الراوي ج٢ ص ٦٤٩ نشر جامعة محمد بن سعود  
الإسلامية ١٤٠٩هـ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٦٠

يقول د. يوسف القرضاوي في كتابه " مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية " : جعل القرآن الكريم هدف الرسل والرسالات تحقيق العدل والقسط في حياة الناس فقال تعالى : ﴿لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط﴾ [ الحديد: ٢٥ ] ويقول تعالى : ﴿ قل أمر ربي بالقسط ﴾ [الأعراف: ٢٩] ويقول ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ [ النحل: ٩٠].

وتشمل صور العدل في القرآن الكريم مجالات كثيرة منها مجال النفس بالتزام حدود الله لقوله تعالى ﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ [ الطلاق: ١].  
ومنها العدل مع الخالق تعالى بإفراجه بالعبادة ، في قوله تعالى ﴿ لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم ﴾ [ لقمان: ١٣].

وفي مجال العدل مع الغير فلا محاباة ولا انحياز لقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ [ النساء: ١٣٥].  
والعدل أساس في القول والفعل والشهادة ، والحكم والتقويم كما في الآيات التالية:  
قال الله تعالى ﴿ وإذا قتلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ [ الأنعام: ١٥٢].  
وقال الله تعالى : ﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ﴾ [ الطلاق: ٢].  
وقوله تعالى ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ [ النساء: ٥٨].  
والعدل مع المسلم وغير المسلم ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ [ الممتحنة: ٨].  
ويظهر ذلك حتى في حالة الحرب والجهاد ﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ [ البقرة: ١٩٠].

ويقسم الأستاذ القرضاوي العدل إلى ثلاثة أقسام عامة هي :

- ١- العدل القانوني أو القضائي : وهو التسوية بين الشريف والوضيع كما أيد ذلك الحديث الشريف " لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها " <sup>(١)</sup> .
- ٢- العدل الاجتماعي : وهو المترکز في توزيع الثروة المالية العامة بين الناس بالسوية دون استثناء أو احتكار ، وكذلك فرص التعليم والكسب والتوظيف .
- ٣- العدل الدولي: وهو ما يتعلق بعلاقة الدولة المسلمة بغيرها من الدول واحترام العهود والجنوح للسلم بالحق.

(١) رواه البخاري ٢١٣/٤ و ١٩٩/٨ ، طبعة دار الفكر .

ويختتم بإيراد رأي الإمام ابن القيم في الموضوع إذ يقول " الشريعة عدل كلها ورحمة كلها ، ومصالحة كلها ، فأى مسألة خرجت من العدل إلى الجور ، أو من الرحمة إلى ضدها ، أو من المصلحة إلى المفسدة ، فليست من الشريعة وإن دخلت فيها بالتأويل" (١) .  
وقد عرف الأستاذ . عبد الكريم زيدان في كتابه السنن الإلهية العدل : بقوله " يمكن تعريف العدل بأنه وضع الشيء في موضعه الشرعي ، وإعطاء كل شيء حقه في المكانة أو المنزلة أو الحكم أو العطاء" (٢) .

وجاء في لسان العرب أن العدل ما قام في النفوس أنه مستقيم وهو ضد الجور (٣) وجاء في النهاية لابن الأثير العدل : هو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم (٤) .  
ويبدأ منهج العدل في التصور القرآني ومن ثم التقويم والحكم على أعمال العباد من قاعدة الحقوق والواجبات ، واجبات المكلفين وحقوقهم ، ضمن منهج الله لهم ، ويبنى هذا على الاستطاعة في حدها الأدنى من المكلفين ، يقول الله تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية الكريمة ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ أي لا يكلف أحدا فوق طاقته ، وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم " وفي قوله ﴿لها ما كسبت﴾ أي من خير ﴿وعليها ما اكتسبت﴾ أي من شر وذلك في الأعمال التي تدخل تحت التكليف" (٥) .

ويقول الإمام القرطبي في تفسير نفس الآية ﴿ لا يكلف الله نفسا ﴾ نص الله تعالى على أنه لا يكلف من وقت نزول الآية عباده من أعمال القلب والجوارح إلا وهي في وسع المكلف، وفي مقتضى إدراكه ، وبنيتة " ويقول : فانه سبحانه بلطفه وإنعامه علينا ، وإن كان قد كلفنا بما يشق ويشكل ، كثبوت الواحد للعشرة ، وهجرة الإنسان وخروجه من وطنه،

(١) مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية : د. يوسف القرضاوي ط ٢ مؤسسة الرسالة ١٩٩٧م ص ٦٩-٧٣ بتصرف .

(٢) السنن الإلهية : د. عبد الكريم زيدان ط ٣ سنة ١٩٩٤م مؤسسة الرسالة بيروت ص ١١٥ .

(٣) لسان العرب : ج ١٣ ص ١٥٦ .

(٤) النهاية لابن الأثير ج ٣ ص ١٨٩ .

(٥) تفسير القرآن العظيم ، أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ج ١ .

ومفارقة أهله ووطنه وعادته ، لكنه لم يكلفنا بالمشقات المثقلة ، ولا بالأمر المؤلمة ، كما كلف من قبلنا بقتل أنفسهم وقرض موضع البول من ثيابهم وجلودهم<sup>(١)</sup>.

ويذكر الأستاذ سيد قطب رحمه الله تعالى معنى هذه الآية الكريمة في ظلال القرآن ﴿لا يكلف الله إلا وسعها﴾ وهكذا يتصور المسلم رحمة ربه وعدله في التكليف التي يفرضها الله عليه في خلافته للأرض وفي ابتلائه أثناء الخلافة وفي جزائه على عمله في نهاية المطاف ، ويطمئن إلى رحمة الله وعدله في هذا كله ، فلا يتبرم بتكليفه ، ولا يضيق بها صدرا ، ولا يستقلها كذلك ، وهو يؤمن أن الله الذي فرضها عليه أعلم بحقيقة طاقته، ولو لم تكن في طاقته لما فرضها عليه".

ويقول في قوله تعالى ﴿ لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ فردية التبعية فلا تنال نفس إلا ما كسبت ، ولا تحمل نفس إلا ما اكتسبت ، فردية التبعية ورجعة كل إنسان إلى ربه بصحيفته الخاصة ، وما قيد فيها له أو عليه ، فلا يحيل على أحد ولا ينتظر عون أحد<sup>(٢)</sup>.

وقد ورد في تفسير القرطبي عند قوله تعالى: ﴿ وليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾ [البقرة: ٢٨٢] بالعدل أي بالحق والمعدلة ، أي لا يكتب لصاحب الحق أكثر مما قاله ولا أقل . قال مالك رحمه الله تعالى " لا يكتب الوثائق بين الناس إلا عارف بها عدل في نفسه مأمون ، لقوله تعالى ﴿ وليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾ .

أورد الإمام ابن كثير في تفسيره للآية الكريمة ﴿ فليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾ أي بالقسط والحق ، ولا يجر في كتابته على أحد ، ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان<sup>(٣)</sup>.

وورد في تفسير الظلال حول نفس الآية " وهذا الكاتب مأمور أن يكتب بالعدل فلا يميل مع أحد الطرفين ، ولا ينقص أو يزيد في النصوص " <sup>(٤)</sup>.

(١) الجامع لأحكام القرآن الكريم : أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ط ٢ مؤسسة العرفان ومكتبة الغزالي ص ٤٢٧-٤٢٨.

(٢) في ظلال القرآن : مرجع سابق ج ١ ص ٢٣٨-٣٣٩ ، القرطبي ج ٢ ص ٣٨٣-٣٨٤.

(٣) مرجع سابق ص ٣١٦ .

(٤) مرجع سابق ص ٣٢٩ .

وقد ورد في تفسير تيسير الكريم الرحمن في تفسير قوله تعالى ﴿ وَإِذَا حُكِمَ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ يَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [ النساء: ٥٨ ] " وهذا يشمل الحكم بينهم في الدماء والأموال والأعراض القليل من ذلك والكثير على القريب والبعيد والفاجر والولي والعدو" (١).

ويقول الإمام ابن القيم الجوزية في كتابه "أعلام الموقعين" إن الله أرسل رسوله ، وأنزل كتبه ليقوم الناس بالقسط ، وهو العدل الذي قامت به السماوات والأرض ، فإذا ظهرت إمارات الحق وقامت أدلة العدل وأسفر صبحه بأي طريق كان فثم شرع الله ودينه ورضاه وأمره ، والله تعالى لم يحصر طرق العدل وأدلته وإماراته في نوع واحد ، وأبطل غيره من الطرق التي هي أقوى منه وأدل وأظهر ، بل بين ما شرعه من طريق مقصوده إقامة الحق والعدل ، وقيام الناس بالقسط ، فأبي طريق استخرج منها الحق ، وعرف العدل وجب الحكم بموجبها ، ومقتضاها (٢) .

يقول الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿ إِنْ أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَا يَحْكُمُونَ بِالْحَقِّ الْكُفْرُ الْأَعْمَى ﴾ [ النساء : ٥٨ ] وأجمعوا على أن الأمانات مردودة إلى أربابها الأبرار منهم والفجار ﴿ وَإِذَا حُكِمَ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ يَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ وهذا خطاب للولاة والأمراء والحكام، ويدخل في ذلك المعنى جميع الخلق كما ذكرنا في أداء الأمانات (٣).

ويذكر صاحب الظلال في تفسير نفس الآية السابقة ﴿ إِذَا حُكِمَ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ يَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ فأما الحكم بالعدل بين الناس فالنص يطلقه هكذا عدلا شاملا " بين الناس جميعا لا عدلا بين المسلمين بعضهم بعضا فحسب ، ولا عدلا مع أهل الكتاب دون سائر الناس ، وإنما هو حق لكل إنسان بوصفه إنسان ، فهذه الصفة صفة الناس هي التي يترتب عليها حق العدل في المنهج الرباني ، وهذه الصفة يلتقي عليها البشر جميعا مؤمنين وكفاراً وأصدقاء وأعداء سودا وبيضا ، عربا وعجما ، والأمة المسلمة قيمة على الحكم بين الناس بالعدل متى حكمت في أمرهم " (٤).

(١) تفسير تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : عبد الرحمن بن ناصر السعدي ط ١ ١٩٩٦م مكتبة الرسالة ص ١٤٨ .

(٢) إلام الموقعين ، الإمام ابن القيم ج ٤ ص ٣٧٣ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

(٣) القرطبي : مرجع سابق ص ٢٥٦-٢٥٨ .

(٤) الظلال مرجع سابق م ٢ ص ٦٨٩ .



---

ويساغ لنا هنا الترجيح في ظلال قوله تعالى ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ إضافة إلى آيات كثيرات في هذا الإطار ، إنها تشكل المقاصد الكبرى للقرآن الكريم ، وتوضح أسس بنائه ودعوته، وتبرز بجلاء أنه يقود ويهدي إلى التقويم والتعديل وإصلاح الاعوجاج في كل معطيات حياة الناس ، ابتداء من علاقة الإنسان بربه ، وانتهاء بعلاقته بالمجتمعات الإنسانية بعضها ببعض ، فهو إذن كتاب تقويم شامل وإصلاح عام لكل الناس في أي زمان ومكان .

\*\*\*

# الفصل الأول

## قواعد التقويم

# الفصل الأول

## قواعد التقويم

وفيه حمسة مباحث:

**المبحث الأول : قاعدة الشمول والموازنة ، وفيه ثلاثة مطالب :**

المطلب الأول : شمول تقويم الأشياء والأشخاص والمناهج

المطلب الثاني : شمول التقويم في دائرة علم الجرح والتعديل

المطلب الثالث : شمول التقويم تجاه المخالفين

**المبحث الثاني: قاعدة العدل والموضوعية ، وفيه ستة مطالب :**

المطلب الأول : العدل في إرسال الرسل

المطلب الثاني: العدل في التمييز والتفاضل

المطلب الثالث : العدل بين المسلمين وغيرهم

المطلب الرابع : العدل والموضوعية في وسطية الأمة المسلمة

المطلب الخامس: العدل على أساس الحق لا على أساس القرابة والمصلحة

المطلب السادس: العدل على أساس التقويم الفردي والطاقة الفردية

**المبحث الثالث: قاعدة الوضوح والصراحة، وفيه مطلبان :**

المطلب الأول : ما ورد في سيرة الأنبياء والرسل

المطلب الثاني : ما ورد في مواقف متنوعة

**المبحث الرابع: قاعدة العلم والخبرة وثبوت الدليل ، وفيه مطلبان:**

المطلب الأول : التبين والتثبت من الأخبار والمرويات

المطلب الثاني : الوقوف عند الحد في مجال العلم والمعرفة

**المبحث الخامس: قاعدة الارتباط بالهدف والاخلاق**

# **المبحث الأول**

## **قاعدة الشمول والموازنة**

**وفيه ثلاثة مطالب**

**المطلب الأول : شمول تقويم الأشياء والأشخاص والمناهج**

**المطلب الثاني : شمول التقويم في دائرة علم الجرح والتعديل**

**المطلب الثالث : شمول التقويم تجاه المخالفين**

## تمهيد:

يرتكز مفهوم الشمول والإحاطة في عالم المناهج والأنظمة والدراسات على نوعية مصدره وجهة تشريعه، في جوانب العلم والقدرة والإرادة بالدرجة الأولى ، فقاعدة الشمول والموازنة في منهج التقويم القرآني قاعدة بارزة تأخذ قوتها وجلالها من قوة وجلال الله عز وجل صاحب المنهج ومُنزّل الكتاب وما احتوى من كنوز ومناهج ودراسات ونظم ، فقد قال تعالى ﴿ والله بكل شيء محيط ﴾ ويقول ﴿... وقد أحاط الله بكل شيء علماً﴾ . ومعلوم أن إحاطة المخلوق وشمول نظرته للأشياء والأحكام محدودة في إطار ضعفه ونقصه البشري ، فتجده يحيط بحكمه وتقويمه لما يريد مرة ، ولا يتحصل على ذلك مرات. ومن هنا يبرز تفوق المنهج القرآني في التقويم على أساس قاعدة الشمول والإحاطة الربانية. ومقتضى هذه القاعدة أن يكون التقويم شاملاً لما يراد تقويمه في إطار السلبيات والإيجابيات سواء يشمل التقويم سلبيات المقوم وإيجابياته بدقة وشفافية دون تضخيم أو تقليل لأحد جوانب الأمر في السلب أو الإيجاب، إذ كثيراً ما يُبرز الناس السلبيات دون الإيجابيات عند التقويم لمن لا يحبون أو لمن يعادون . وهذا عوار في النظرة واعتداء على المنهج . وفي المقابل تجد البعض يُبرز الإيجابيات دون السلبيات لمن يحبون ويألفون، وأسباب ذلك كثيرة ، وهي ولا شك تقدر في منهجية التقويم وشموله . وقد ضرب لنا القرآن الكريم أمثلة كثيرة في آيات كثيرة لقاعدة الشمول والإحاطة في منهج التقويم نعرضها حسب المطالب التالية :

### أ) المطالب الأول : شمول تقويم الأشياء والأشخاص والمناهج

قال الله تعالى ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ [ البقرة : ٢١٩].

يقول الإمام ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية الكريمة " أما أثمهما فهو في الدين " وأما المنافع فدينيوية من حيث أن فيها نفع البدن ، وتهضيم الطعام ، وإخراج الفضلات ، وتشحيد بعض الأذهان، ولذة الشدة المطربة التي فيها ، كما قال حسان بن ثابت رضي الله عنه في جاهليته :

ونشربها ففتركنا ملوكاً وأسوداً لا ينهنهنا السقاء  
وكذا بيعها والانتفاع بثمنها .. ولكن هذه المصالح لا توازي مضرته ومفسدته  
الراجعة، لتعلقها بالعقل والدين ولهذا قال الله تعالى ﴿ وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾<sup>(١)</sup>.  
والظاهر أن الله عز وجل على الرغم من تحريمه للخمر والميسر كحكم نهائي ناسخ  
لكل الأحكام السابقة المتعلقة بهما ، إلا أن حكمه عليهما وتقويمه لهما كان شاملاً محيطاً  
لخيرهما وشرهما على السواء ، مع غلبة الإثم الديني لهما لتعلق ذلك بأهم الضرورات  
والمقاصد الشرعية عقل الإنسان ودينه.

يقول الأستاذ سيد قطب : عند تفسيره لهذه الآية الكريمة ﴿ ويسألونك عن الخمر  
والميسر قل فيهما إثم كبير ومافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ [البقرة: ٢١٩] وهذا النص  
الذي بين أيدينا كان أول خطوة من خطوات التحريم ، فالأشياء والأعمال قد لا تكون شراً  
خالصاً ، فالخير يتلبس بالشر والشر يتلبس بالخير في هذه الأرض ، ولكن مدار الحل  
والحرمة هو غلبة الخير أو غلبة الشر ، فإذا كان الإثم في الخمر والميسر أكبر من النفع ،  
فتلك علة تحريم ومنع ، وإن لم يصرح هنا بالتحريم والمنع<sup>(٢)</sup>.

ويحتاج الالتزام بقاعدة شمول التقويم أمام التباس الحق بالباطل ، والخير بالشر ،  
والمصلحة الخاصة بالمصلحة العامة ، والقريب بالبعيد ، إلى سمو نفسي ، ورقي علمي ،  
ونضوج عقلي ، يرتفع فوق كل الجوانب والمؤثرات.

وبأخذ التقويم على قاعدة الشمول والإحاطة عدة أطر عامة مقصودة كلها في مناقشة  
هذا الموضوع ، فيقوم الأفراد بكل صفاتهم ، الإيجابية منها بالمدح والتعديل ، والسلبية منها  
بالقدح والتجريح ، على أساس معايير كمال الشخصية كما هي في التصور القرآني ، وقد  
وردت آيات تُقوم مواقف الأنبياء والرسل بالإيجابية والتعديل والمدح ، وهذا هو الأساس  
في شخصياتهم ومناقبتهم . وذكرت بعض الآيات مواقف لامت فيها الأنبياء وعاتبتهم ، كما  
قال تعالى واصفاً نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم : ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ [القلم : ٤]  
وقوله معاتباً له في سورة عبس ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ [عبس: ١-٢] .

(١) تفسير ابن كثير : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٤٢ .

(٢) في ظلال القرآن : مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٢٢٣ .

وكذلك موسى عليه السلام وهو من أولي العزم من الرسل وكليم الله عزوجل ، وهو صاحب الحلم والعلم والإحسان ، كما قال الله تعالى في حقه : ﴿ ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴾ [ القصص: ١٤ ] نجد أن الله قد ذكر على لسانه في القرآن الكريم وهو يقوّم نفسه وفعله عندما وكز عدوه فقضى عليه ﴿ قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [ القصص: ١٦ ] .

وكذلك يقع ضمن منهج التقويم حسب قاعدة الشمول العطاء التربوي والمنظومة التعليمية بكل جوانبها ، وأهدافها ومناهجها وإدارتها ، وطلابها وكل ما يتعلق بها على ضوء معاييرها ومقاييسها المحددة .

" فعملية التقويم عملية تشخيصية علاجية وقائية ، تقتضي خاصية الشمول وعدم اقتصار التقويم على مجال واحد من الأهداف ، ولكن هذا الأمر ما ينبغي له أن يقلل من أهمية الجواب والمجالات القلبية ، والأدائية عند القيام بعملية التقويم بصورة عامة " (١) .

### ب) المطلب الثاني : شمول التقويم في دائرة علم الجرح والتعديل :

ورد عن الإمام أحمد - رحمه الله - في مقام شمول التقويم والموازنة بين التجريح والتعديل قوله " ويعلمنا القرآن أيضاً أنه لا يكفي تدوين السير والتزام الصدق منه فقط ، بل ينبغي توجيه النقد الصادق أيضاً للاعتبار والموعظة ، انظر أمثلة ذلك في قصة آدم ونوح ويونس عليهم السلام (٢) .

وفي مجال قاعدة الشمول في جرح الرجال وتعديلهم " ... والكلام في الرجال جرحاً وتعديلاً ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عند كثير من الصحابة والتابعين من بعدهم ، وجوزوا ذلك تورعاً وصوناً للشريعة لا طعناً في الناس ، وكما جاز الجرح في الشهود جاز في الرواة ، والتثبت في أمر الدين أولى من التثبت في الحقوق والأموال . فلهذا افترضوا على أنفسهم الكلام فيه" (٣) .

(١) المرجع في تدريس علوم الشريعة : د. عبد الرحمن صالح عبد الله . بحث التقويم في علوم الشريعة ليجيى إسماعيل عيد ص ٤٦٨ .

(٢) كتاب العلل : الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : وصي الله عباس المكتب الإسلامي ط ١ ١٩٨٨ م ج ١ ، ص ١٨ .

(٣) كشف الظنون : ج ١ ، ص ٣٩٠ .

ولمكانة علم الجرح والتعديل في رصيدنا العلمي التوثيقي الإسلامي كصورة دقيقة من صور التقويم ، نذكر هنا بعض أقوال فحول هذا العلم بما يختص في قاعدة الشمول التقويمية ، يقول الإمام الذهبي في ترجمة ( أبان بن يزيد العطار ) :  
" قد أورده أيضاً العلامة ابن الجوزي في ( الضعفاء ) ولم يذكر فيه أقوال من وثقه ، وهذا من عيوب كتابه ، يسرد الجرح ويسكت عن التوثيق "

قلت : هذه النصوص لعلها لم تفرع صماخ أفاضل عصرنا ، و أمائل دهرنا ، فإن شيمتهم أنهم حين قصدهم بيان ضعف رواية ينقلون من كتب الجرح والتعديل للجرح دون التعديل ، فيوقعون العوام في المغلطة لظنهم أن هذا الراوي عار عن تعديل الأجلّة .  
والواجب عليهم أن ينقلوا الجرح والتعديل كليهما ثم يرجحوا - حسبما يلوح لهم - أحدهما ، ولعمري تلك شيمة محرمة وخصلة مُخرقة " (١) .

ويرسم أبو حاتم ابن حبان معالم هذا المنهج فيقول : " لسنا ممن يوهم الرعاع ما لا يستحله ، ولا ممن يحيف بالقدح في إنسان وإن كان لنا مخالفاً ، بل نعطي كل شيخ حظه مما كان فيه ، ونقول في كل إنسان ما كان يستحقه من العدالة والجرح " (٢) .

وننوه في سياق قاعدة الشمول والإحاطة في تقويم الأشياء والأفعال والأشخاص .. الخ على ضوء ما تقدم إلى قضية مهمة ، وهي : أن كثيراً ما لا يدرك من يريد تغيير وضع معين بتقويمه وتطويره ، والحكم عليه عمق المسألة ، وتشعبها وارتباطها بالناس وحياتهم ، إما جهلاً منه أو استعجالاً ، أو تحمساً زائداً ، وإما غير ذلك . فيخرج بذلك حكمه ناقصاً ، وتقويمه مجتزئاً لا يحقق الهدف الحقيقي منه ، وبذلك تعم السطحية ، وقلة المنهجية والإحاطة ، وتطيش قاعدة الشمول والعمق في منهج التقويم في عقول الناس ، فتصيب مرة وتخطيء مرات .

ويؤثر ذلك سلباً على المنظومة التربوية والأخلاقية التي تسود المجتمعات ، وتشكل لحمة غالية أساسية في تفكير أبنائها ، وتصوراتهم للمحافظة على المجتمع وتطويره ، وتقويمه في إطار مصلحة الفرد والجماعة ، ومن ثم نظام و دستور المجتمع على حد سواء . فقد ينتج الشرُّ الخيرَ ، وقد ينتج الخيرُ الشرَّ . فالمعاصي مثلاً : فيها نفع مؤقت لأصحابها

(١) الرفع والتكميل في الجرح والتعديل : أبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي الهندي ط ٣ ، تحقيق

أبوغدة ، مركز الدعوة الإسلامية ، باكستان ، ص ٦٦ .

(٢) كتاب التقات : لابن حبان ٦٤٦/٧ .



كالخمر والميسر والزنا... الخ . ولكنه نفع ذاتي يرافقه اختلال في الموازين يؤدي الآخرين، ويهدم منظومة المجتمع ، ويترتب على ذلك نتائج وخيمة تعصف بالجميع من أمراض ، واستغلال واختلاط أنساب ، وفوضى تعم المخالفين وغير المخالفين .  
والخير قد ينتج شراً ، فالصدقة على عصابات التسول الذين يظهرون بحالة رثة ، وعاهات متنوعة تثير شفقة المتصدق ، قد تنتج شراً ، إذ تجد خلف ذلك متاجرة بالمحرمات، والمخدرات ، ونصب واحتيال ، وما إلى ذلك من ظواهر اجتماعية مشينة ، تنتج ولا شك طبقة سيئة متسولة متطفلة تعيش عالة على الغير ، وتظهر المجتمع بأقبح صورة ، وتكسب مع الوقت أنصاراً من العاطلين المحتالين ، تحركهم عصابات من الأذكياء المنحرفين . وكل ذلك يجعل عملية التقويم عملية شاملة عميقة كما سطرها القرآن ، فأوضح القرآن الأمر بإحاطة وشمول ، وذكر نسبة الخير ونسبة الشر . ثم كان الرأي النهائي في التقويم ، بأن شرهما أكبر من نفعهما ، فانتهدت المسألة ، والتزم المسلمون معيار التقويم القرآني ووظف علماء الأمة هذا المعيار في حياة الأمة عبر أحوالها المتجددة وظروفها المتغيرة .

### ج) **المطلب الثالث : شمول التقويم تجاه المخالفين :**

تتحكم في الغالب نزعة الهوى والتعصب في النفس البشرية عند تقويمها وحكمها على المخالفين ، فتظهر شرهم وتخفي خيرهم ، وهذه نظرة فاسدة ، وخصلة ظالمة تطيش بالعقل والرشد ، وتنتج أجواء من البغضاء والتنافر والعداء لا تنفع أحداً . والقرآن وحده الذي يعرض منهجية وسطية عادلة شاملة لعرض الخير والشر ولو كان صاحبهما عدواً أو مخالفاً ، لإيجاد مساحة من التفاهم والتلاقي بين بني البشر .

يعلق صاحب الظلال في تفسيره لقول الله تعالى ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ [آل عمران: ٧٥] فيقول : " إنها خطة الانصاف والحق ، وعدم البخس والغبن ، يجري عليها القرآن الكريم في وصف حال أهل الكتاب الذين كانوا يواجهون الجماعة المسلمة حينذاك . والتي لعلها حال أهل الكتاب في جميع الأجيال .

ذلك أن خصومة أهل الكتاب للإسلام والمسلمين ، ودسهم وكيدهم وتدبيرهم الماكر اللئيم، وإرادتهم الشر بالجماعة المسلمة وبهذا الدين ، كل ذلك لا يجعل القرآن يبخس المحسنين منهم حقهم، حتى في معرض الجدل والمواجهة .

فهو هنا يقرر أن من أهل الكتاب ناساً أمناء لا يأكلون الحقوق مهما كانت ضخمة مغرية ، ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك .

ولكن منهم الخونة الطامعين المماطلين ، الذين لا يردون حقاً - وإن صغر - إلا بالمطالبة والإلحاح والملازمة ، ثم هم يفلسفون هذا الخلق الذميمة بالكذب على الله عن علم و قصد " (١) .

وتتجلى هنا الشفافية العالية واحترام الحق وأهله ، والخير وأصحابه في منهج القرآن على مجتمع اليهود المجهول على المماطلة ، وإنكار الحقوق والكذب على الله ، تتجلى العدالة في شمول الحكم والتقويم لكل طبقات اليهود، الصالحين منهم والظالمين ، بغض النظر عن التوافق معهم ، أو الاختلاف في العقيدة والدين والفكر والأخلاق .

فشمول التقويم أساس في بناء المفاهيم وترجمتها إلى واقع مع كل الناس ، وفي كل وقت وتحت أي ظرف ، وفي أي مكان مع القريب والغريب ، مع المسلم وغير المسلم سيان . فرغم أن لليهود تاريخهم الطويل المعوج على مر العصور ، وفي مختلف نواحي الحياة ، ومع كل شرائح الناس ، سيما مع أنبياء الله ورسله الكرام ، مع هذا فقد قوّم القرآن فعلهم بعدل وشمول ، حسب نوعه وصحته ، ولم يغض الطرف عن قليل خيرهم أمام الكثير من شرهم .

" فإن الإسلام يعلمنا أن من الخطأ البين إصدار حكم واحد على قبيلة أو أهل ملة أو بلدة، لأن ذلك التعميم سوف ينطوي على ظلم واضح، فلا يمكن أن تكون العدوانية أو الخيانة أو البخل صفة ملازمة لقبيل كبير من البشر ، وفي هذا الصدد يقول تعالى : ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ... ﴾ [آل عمران: ٧٥] .

ويقول سبحانه : ﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون ﴾ [آل عمران : ١١٣] (٢) .

(١) في ظلال القرآن : سيد قطب ، مرجع سابق ، ج ١ ، ص ٤١١ .

(٢) فصول في التفكير الموضوعي د. عبد الكريم بكار ص ٨٩ .

ويرد في معرض ضرورة الاعتراف للآخرين بما يملكون من خصائص " وهذا الاعتراف لا يولد إلا من رؤية شاملة للحياة ، ذلك لأن النقد ليس بياناً للمماثلة والعيوب ، لكنه أيضاً الكشاف عن مساحات الخير والجمال ، وهذا ليس بالأمر السهل ، إذ أنه يقتضي معرفة الحالة العامة ومركز الآخرين منه " (١).

والحقيقة أن شمول التقويم للسلبيات والإيجابيات في كل ما نريد ، تقويمه بضاعة عزيزة ، وقمة سامقة لا يصلها كثير من الناس . فنجد أن الرائج هو : أن ينظر الناس بعين واحدة ، ويغمضوا الأخرى عند التقويم والحكم . وأسباب ذلك كثيرة ، سنعالجها في بعض فصول البحث مستقبلاً ، ونجد أن قول الشاعر العربي يصف هذه الحالة وصفاً دقيقاً إذ يقول :

وعين الرضا عن كل عيب كليله      كما أن عين السخط تبدي المساويا .

ولذلك يستعجل جل الناس عند تقويم ما ، أو حكم ما ، على قضية ما ، أو شخص ما ، باجتزاء الحكم والتقويم ، فيوصف بالكمال من توجد فيه صفة حميدة عند المقوم رغم أن عنده مثالب أخرى ، ويوصف بالنقص والعيب من عنده صفة ذميمة عند المُقوم ، رغم وجود صفات حميدة أخرى ، وتارة يطغى التعميم على منهجية التقويم فيقال مثلاً " الناس منافقون" أو " الناس طيبون" والحقيقة أن الناس ليسوا منافقين جميعاً ولا طيبين جميعاً ، فالتعميم على هذا الأساس فيه ظلم كبير للمقومين من كلا الصنفين . بينما نجد أسلوب القرآن في ذلك دقيقاً و مميّزاً في حكمه وتقويمه ، و ظهر ذلك عبر آيات كريمة منها قول الله تعالى : ﴿ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ﴾ [ آل عمران : ٧٨ ] . أي أن قسماً وفريقاً معيناً فقط من أهل الكتاب يفعلون ذلك ، رغم أن اعوجاج أغلب أهل الكتاب عبر تاريخهم الطويل معروف ، وانحرافاتهم مشهودة . عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله وكان يلقب خماراً ، وكان يُضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جلده في الشراب ، فأتى به يوماً فأمر به فجلد ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ما أكثر ما يؤتي به! فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا

(١) فصول في التفكير الموضوعي مرجع سابق ص ٩٠.

تلعنوه فو الله ما علمت أنه يحب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> . فهذا الصحابي الجليل رضي الله عنه زلت قدمه ، وتكرر منه شرب الخمر ، ولكن هذا لا يعني أنه فاسد بالكلية ، بل إن فيه من الصفات الحميدة الأخرى ما توجب محبته ومودته ، فيعرف للمحسن إحسانه وللمسيء إساءته ، إتماماً للعدل والإنصاف . ولا يجوز بحال أن يغلب جانب النظر إلى المعصية دون النظر إلى بقية الحسنات والفضائل . وها هو الحد الفاصل بين أهل السنة والخوارج<sup>(٢)</sup> .

\*\*\*

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه الحديث رقم (٦٧٨٠) ، ومشكاة المصابيح : للتبريزي رقم ٣٦٢٥ ، طبعة المكتب الإسلامي .

(٢) انظر فتاوى ابن تيمية ج ٣ ، ص ١٥١-١٥٢ .

## المبحث الثاني

### قاعدة العدل والموضوعية

#### وفيه ستة مطالب

المطلب الأول : العدل في إرسال الرسل

المطلب الثاني : العدل في التمييز والتفاضل

المطلب الثالث : العدل بين المسلمين وغيرهم

المطلب الرابع : العدل والموضوعية في وسطية الأمة المسلمة

المطلب الخامس: العدل على أساس الحق لا على أساس القرابة والمصلحة

المطلب السادس: قاعدة العدل على أساس التقويم الفردي والطاقة الفردية

## تمهيد:

العدل والموضوعية كقاعدة رئيسة من قواعد التقويم القرآني تأخذ قيمتها من مصدرها وهو الله عزوجل، إذا قامت رسالته إلى البشرية ، وإرسال الرسل والأنبياء على مدار عمر البشرية لتحقيق هذه القاعدة، قاعدة العدل والقسط، وتأتي هذه القاعدة على صور عديدة نعرضها في المطالب التالية:

### أ) المطالب الأول : العدل في إرسال الرسل :

يقول الله تبارك وتعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ﴾ [ الحديد: ٢٥] ويقول كذلك ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل .. ﴾ [سورة النساء : ٥٨] يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في مجال إرساء هذه القاعدة في بنیان المجتمع الإسلامي : " ولهذا كان العدل أمراً واجباً في كل شيء ومع كل أحد ، والظلم محرم في كل شيء ولكل أحد ، فلا يحل ظلم أحد أصلاً ، سواء كان مسلماً أو كافراً ، أو كان ظالماً ، قال الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة : ٨] ومعنى شنآن قوم : أي بغض قوم وهم كفار " (١) .

ويقول في موضع آخر : " وأمور الناس إنما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون في الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق ، وإن لم تشترك في إثم ، ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة " (٢) ولذلك فإن تقويم أحوال الأفراد والجماعات والمجتمعات لا يكون إلا على أساس حجة ومعيار تفضل به المولى عز وجل لخلقه وهو إرسال الرسالات والرسل كي لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، يكون التقويم على ضوء معرفة وتنبيه وتبيين من الحق عز وجل . فالبينات والكتاب والميزان هي معايير التقويم القرآني لحياة الناس وأعمالهم وتصوراتهم .

(١) الفتاوى : أحمد ابن تيمية ج ١ ص ٣٥١-٣٥٢ طبعة فرج الله زكي الكردي.

(٢) رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ابن تيمية ، ص ٤٠ تحقيق صلاح الدين المنجد .

## ب) المطلب الثاني : العدل في التمييز والتفاضل :

وقد قامت هذه القاعدة على سنة الله في التمييز بين الخير والشر ، والخبيث والطيب . وسنن الله كما أنها تجري في كونه الفسيح وقوانينه الغالبة على جميع مخلوقاته غير الإنسان ، فإنها متمثلة وقائمة في دستورهِ لحياة الناس وميزانه في حكمهم وأفكارهم ، لينسجم ذلك مع ما فطروا عليه ابتداءً من ملكة التفاضل بين الصحيح والخطأ ، بين القبح والجمال ، وإن مال بهم الهوى أحياناً عن الجادة ، وطمس الانحراف المؤقت على سلامة الرؤية والتمييز في هذه الفطرة .

يقول د. عبد الكريم زيدان في كتابه "السنن الإلهية عند قول الله تعالى" ﴿ قل لا يستوي الخبيث ولا الطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث فاتقوا الله يا أولي الألباب لعلمكم تفلحون ﴾ [ المائدة : ١٠٠ ] . في هذه الآية حكم عام عن نفي المساواة عند الله تعالى بين النوعين : الخبيث والطيب من الأشياء والأعمال والفساد والصالح والحلال والحرام ، ولا يستوي الخبيث والطيب من الناس كالظالم والعاقل ، والمفسد والمصلح ، والبر والفاجر ، والمؤمنين والكافرين ، فلكل من الخبيث والطيب مما ذكرناه حكم يليق به ويناسبه ، فالمساواة منتفية بين النوعين الخبيث والطيب" (١) .

ويقول الإمام ابن كثير عند قول الله تعالى : ﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون ﴾ [الجاثية : ٢١] .

" أي لا يستوي المؤمنون والكافرون ، وساء ماظنوا بنا ، وبعد لنا أن نسوي بين الأبرار والفجار في الدار الآخرة ، وفي هذه الدار ساء ما يحكمون" (٢) .

## ج) المطلب الثالث : العدل بين المسلمين وغيرهم :

لقد حسم القرآن الكريم مراراً وعلى أكثر من صورة ، وفي أكثر من ميدان ، جولات الصراع في موازين الحكم والتقويم بين المسلمين وغير المسلمين ، وأعطى كل ذي حق حقه ، فلا رجحان في الميزان لصالح المسلمين لمجرد أنهم مسلمون ، ولا بخص لميزان

(١) السنن الإلهية : د. عبد الكريم زيدان ، ط ٣ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٩٣ ص ١٦٦ .

(٢) تفسير ابن كثير : مرجع سابق ، ج ٤ ، ص ١٥٠ .

غير المسلمين لمجرد أنهم غير مسلمين ، إنما كان عدل الميزان ، وصحة التقويم لجانب الحق وأهله فقط .

قال تعالى : ﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستونون عند الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [ التوبة : ١٩ ] .  
" إن المشركين قالوا : عمارة بيت الله والقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد ، وكانوا يفخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعمّاره ، فخير الله الإيمان والجهاد مع النبي صلى الله عليه وسلم على قيام المشركين بعمارة البيت وقيامهم بالسقاية ، ولم يكن لينفعهم ذلك عند الله تعالى مع شركهم به ، وإن كانوا يعمرون بيته . قال تعالى " لا يستونون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين " يعني الذين زعموا أنهم أهل العمارة ، فسمّاهم الله ظالمين لشركهم فلم تغن عنهم عمارة البيت شيئاً " (١) .

ومن الصور المشرفة في بيان قاعدة العدل في منهج التقويم القرآني ما قوّم به الله تعالى أعمال المؤمنين وميّر وفاضل بينها ، وذلك على ضوء بلاء أصحابها ومعاناتهم وجهدهم في سبيل الحق عدلاً منه وقسطاً ، فالجهاد بالمال والنفس مقدم على غيره ، والواجبات مقدمة على النوافل ، ومن آمن قبل الفتح وقاتل وهاجر أفضل عند الله ممن فعل ذلك بعد الفتح ، والإيثار مع الخصاصة أفضل من غيره وهكذا ... قال تعالى ﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكل وعد الله الحسنى والله بما تعملون خبير ﴾ [ الحديد : ١٠ ] .

وصنف القرآن الناس بناءً على تقويم أعمالهم على قاعدة العدل والقسط إلى ثلاثة أصناف ﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة ، فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة ، والسابقون السابقون ، أولئك المقربون ﴾ [ الواقعة : ٧-١١ ] .  
فكانت النتيجة وكان الجزاء وكان العقاب ، ومن ثم كانت درجات التفاضل ، أو دركات الهبوط.

(١) تفسير ابن كثير : مرجع سابق ج ٤ ، ص ١٧٥ - ١٧٩ .



## د) المطلب الرابع : العدل والموضوعية في وسطية الأمة المسلمة

وقد أورد القرآن صفة العدل والاعتدال للأمة المسلمة في إطار الوسطية التي ذكرت بها في قوله تعالى ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ [البقرة: ١٢٣].

يقول الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية الكريمة: " وكما أن الكعبة وسط الأرض كذلك جعلناكم أمة وسطاً ، أي جعلناكم دون الأنبياء وفوق الأمم ، والوسط العدل وأصل هذا أن أحمد الأشياء أوسطها ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم " وكذلك جعلناكم أمة وسطاً " قال عدلاً وفي التنزيل ﴿ قال أوسطهم ﴾ أي أعدلهم وخيرهم <sup>(١)</sup>. وإذا كانت الأمة الخاتمة الشاهدة على الناس قد وصفها الله بالوسطية والاعتدال ، وقومها بالاعتدال والخيرية ، لزم أن يكون هذا منهجها مع نفسها ومع الآخرين سواء بسواء .

يقول الأستاذ سيد قطب عند تفسير هذه الآية الكريمة ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً ﴾ "إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً ، فتقيم بينهم العدل والقسط ، وتضع لهم الموازين والقيم ، وتبدي فيهم رأيها ، فيكون هو الرأي المعتمد، وترن قيمهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها ، وتقول: هذا حق منها وهذا باطل" <sup>(٢)</sup>.

## هـ) المطلب الخامس : العدل على أساس الحق لا على أساس القرابة والمصلحة

قال تعالى ﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سمياً بصيراً ﴾ [النساء: ٥٨] .

" ثم يجيء التعقيب الأخير في الآية يعلق الأمر بالله ومراقبته ، وخشيته ورجائه ﴿ إن الله كان سمياً بصيراً ﴾ والتناسق بين المأمور به من التكليف وهو أداء الأمانات ، والحكم بالعدل بين الناس وبين كون الله سبحانه ﴿ سمياً بصيراً ﴾ مناسبة واضحة ولطيفة معاً ، فالله يسمع ويبصر قضايا العدل ، وقضايا الأمانة ، والعدل كذلك في حاجة إلى الاستماع

(١) تفسير الجامع لأحكام القرآن : للإمام القرطبي ج ١ ص ١٥٣ ، دار الغزالي ومناهل العرفان ، بيروت.

(٢) الظلال : مرجع سابق ج ١ ص ١٢٤-١٢٥.

البصير، وإلى حسن التقدير ، وإلى مراعاة الملابس والظواهر ، وإلى التعمق فيها وراء الملابس والظواهر ، وأخيراً فإن الأمر بها يصدر عن السميع البصير بكل الأمور" (١).

وإذا كان القيام بواجب الأمانات وتحقيق العدل يقترب بمعية الله ، وأنه يسمع ذلك ويراه ، فينتج عن ذلك الخشية والرجاء والمراقبة ، لدى أربابه ومنفذه ، وهذا مع كل خلق الله تعالى . فلا شك أنها مرتبة عالية ومنزلة رفيعة لهذا الذي يقوم بذلك ، ويطبقه بقربه من خالقه ، ورقبته في مسار الإنسانية الحقة، وذلك بالسير على منهج العدل والتقويم السليم للأحكام والمواقف بغض النظر عن أصحابها ، بعيداً عن المؤامرات والعوائق الذاتية والخارجية ، التي تعترى البشر عادة في هذا المضمار.

يقول الإمام القرطبي في تفسير قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وأن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ [ النساء: ١٣٥].

قوله تعالى ﴿ كونوا قوامين ﴾ "قوامين" بناء مبالغة ، أي ليتكرر منكم القيام بالقسط وهو العدل في شهادتكم على أنفسكم ، وشهادة المرء على نفسه إقراره بالحقوق عليها ، ثم ذكر الوالدين لوجوب برهما وعظم قدرهما ، ثم ثنى بالأقربين ، إذ هم مظنة المودة والتعصب ، فكان الأجنبي من الناس أحرى أن يقام عليه بالقسط ويشهد عليه ، فجاء الكلام في السورة في حفظ حقوق الخلق في الأموال" (٢).

"إنها أمانة القيام بالقسط على إطلاقه في كل حال وفي كل مجال ، القسط الذي يمنع البغي والظلم في الأرض ، والذي يكفل العدل - والذي يعطي كل ذي حق حقه من المسلمين وغير المسلمين - ففي هذا الحق يتساوي عند الله المؤمنون وغير المؤمنين - كما رأينا في قصة اليهودي - ويتساوي الأقارب والأباعد ويتساوى الأصدقاء والأعداء ويتساوي الأغنياء والفقراء " (٣) .

(١) الظلال : مرجع سابق ج ٢ ص ٦٨٩ - ٦٩٠ .

(٢) القرطبي : مرجع سابق ج ٣ ص ٤١٠ .

(٣) انظلال : مرجع سابق ج ٢ ص ٧٧٥ .

وتبرز قيمة المنهج وسموه في قاعدة العدل عند التقويم والعدل الاجتماعي أمام شرائح الناس وتصانيفهم ، وبذلك تسمو القيمة أكثر فأكثر عندما يكون الموقف مع اليهود والتقويم لليهود ، وهم من هم في عداوتهم للإسلام ، وكيدهم للمسلمين بل لرسول الناس أجمعين .  
يورد الظلال في هذا الصدد قصة عبد الله بن رواحة رضي الله عنه مع يهود خيبر فيقول :  
حدث أن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقَدِّر على أهل خيبر محصولهم ، من الثمار والزروع لمقاسمتهم إياها مناصفة ، حسب عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح خيبر ... أن حاول اليهود رشوته ليرفق بهم ! فقال لهم : " والله لقد جننكم من عند أحب الخلق إلي ، ولأنتم والله أبغض إلي من أعداءكم من القردة والخنازير ، وما يحملني حبي إياه وبغضي لكم على أن لا أعدل فيكم " فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض " (١) .

وفي هذا السياق ذكر القرطبي في تفسيره لقوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله بما تعملون خبير ﴾ [ المائدة : ٨١ ] .

إذ يقول " المعنى : أتممت عليكم نعمتي فكونوا قوامين لله أي لأجل ثواب الله ، فقوموا بحقه واشهدوا بالحق من غير ميل إلى أقاربكم وحيف على أعدائكم ... ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم ﴾ على ترك العدل واتباع العدوان على الحق ، و في هذا دليل على نفوذ حكم العدو على عدوه في الله تعالى ، ونفوذ شهادته عليه لأنه أمر بالعدل وأن أبغضه ، ولو كان حكمه عليه وشهادته لا تجوز فيه مع البغض له لما كان لأمره بالعدل فيه وجه " (٢) .

ويذكر ابن كثير " أي لا يجرمنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم ، بل استعملوا العدل في كل أحد صديقاً كان أو عدواً " (٣) .

ويحلّق صاحب الظلال في تعليقه على نفس الآية الكريمة ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ... إن الله خبير بما تعملون ﴾ فيقول :

" إنه الجزاء الذي يعوض الخيرين عما يفوتهم من عرض الحياة الدنيا ، وهم ينهضون بالتكاليف العليا ، والذي تصغر معه تكاليف القوامة على أهواء البشرية وعنادها

(١) الظلال : مرجع سابق ج ٢ ص ٧٧٦-٧٧٧ .

(٢) القرطبي : مراجع سابق ، جزء ٣ ، ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٣) ابن كثير : مرجع سابق ، ج ٢ ص ، ٣٠ .

ولجاعتها في هذه الأرض .. ثم هو العدل الإلهي الذي لا يُسوِّي بين جزاء الخيرين وجزاء الأشرار" ويضيف في ذلك معنى رائعاً لما قد سبق فيقول : " لا بد من تعليق قلوب المؤمنين وأنظارهم بهذا العدل ، وذلك الجزاء ، للتعامل مع الله متجردة من كل النوازع المعوقة، من ملابسات الحياة، وبعض القلوب يكفيها أن تشعر برضاء الله ، وتتذوق حلاوة هذا الرضى كما تتذوق حلاوة الوفاء بالميثاق .. ولكن المنهج يتعامل مع الناس جميعاً، مع الطبيعة البشرية ، والله يعلم من هذه الطبيعة حاجتها إلى هذا الوعد بالمغفرة والأجر العظيم ، وحاجتها كذلك إلى معرفة جزاء الكافرين المكذبين ، إن هذا وذاك يرضي هذه الطبيعة، ويطمئنها على مصيرها وجزائها ، ويشفي غيظها من أفاعيل الشريرين ، وبخاصة إذا كانت مأمورة بالعدل مع من تكره من هؤلاء بعد أن تلقي منهم ما تلقي من الكيد والإيذاء ، والمنهج الرباني يأخذ الطبيعة البشرية بما يعلمه الله من أمرها ، ويهتف لها بما تتفتح له مشاعرها وتستجيب له كينونتها، وذلك فوق أن المغفرة والأجر العظيم دليل رضى الله الكريم ، وفيهما مذاق الرضى فوق مذاق النعيم .<sup>(١)</sup>

ويظهر لنا من أقوال المفسرين السابقة حول جملة من الآيات الكريمات التي أمرت بالعدل والقسط في الحكم على الناس وتقويمهم أنها تطرقت إلى عدة مفاهيم :

- ١- العدل في التقويم لكل الناس دون تفریق أو تعصب على قاعدة إحقاق الحق.
- ٢- أن العدل في التقويم والحكم مرتبط الأطراف متصل المراحل فهو في الدنيا بين الناس على معايير العدل القرآنية ، وفي الآخرة من الله عزوجل لتكتمل الصورة بعدله المطلق، وتقويمه الكامل تمشياً مع نظرة الخلق في حب ذلك وطلبه إذ ربما بل من المؤكد أن تقف المؤثرات والعوائق البشرية أمام ميزان العدل ، فلا يطبق بالشكل الصحيح في الدنيا، فلا بد أن تكتمل صورته في الآخرة ، وهذا أساس عدل الله في حكمة الخلق كلها.
- ٣- أن العدل والتقويم كما أنه يصحح الأحكام والمواقف ويحض عليها أثناء حالاتها ، فإنه كذلك يرتفع بالنفس البشرية إلى أن ترتقي إلى سلم الكمال والارتفاع ، فالعدل وتطبيق العدل كما في الآيات الكريمات يقود إلى دائرة التقوى ويقرب منها، وهذه ثمرة عظيمة من ثمار المواقف، إذ سيكون الإنسان مع التقوى أكثر عدلاً وأصوب تقويماً، فتتحسن حاله من طور إلى طور ومن مستوى إلى آخر وهكذا .

(١) الظلال : مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ٨٥٤ .

## و) المطلب السادس: العدل على أساس التقويم الفردي والطاقة الفردية

من عدل الله وصواب منهجه في التقويم أن يكون على أساس ما يفعل الفرد بنفسه ولنفسه، حسب وسعه وطاقته ، فيقول تعالى ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتّي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان لا تكلف نفساً إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ [ الأنعام : ١٥٢ ].

والآية الكريمة تعالج عدة مسائل في منهجية التقويم فهي تذكر موضوع الأيتام وما يجب أن يتحرى فيه من عدل وتقويم سليم ، وتعالج إيفاء الكيل والميزان في معاملات البيع والشراء وما يدخل في ذلك من عدل في التوزين وتحديد قيمة الأشياء وتقويمها، وهي تعالج كذلك العدل مع النفس البشرية بتقويمها والعدل معها على أساس وسعها وطاقتها ، مما يمكن تقويمه والحكم عليه، وكذلك العدل في التقويم مع القريب والغريب. يذكر الإمام ابن كثير فيقول: " وقوله تعالى ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط... ﴾ يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ الإعطاء ".

وقوله ﴿ لا تكلف نفساً إلا وسعها ﴾ أي من اجتهد في أداء الحق وأخذه فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده فلا حرج عليه وقوله ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ﴾ يأمر تعالى بالعدل في الفعال والمقال على القريب والبعيد ، والله تعالى يأمر بالعدل لكل أحد في كل وقت وفي كل حال " (١).

يقول الإمام الطبري عند تفسير قوله تعالى ﴿ قل أغير الله أبغي رباً وهو رب كل شيء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾ [ الأنعام : ١٦٤ ].

" في قوله تعالى ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ﴾ لا تحاسب إلا بما عملت ، ولا تؤخذ بمعاصي غيرها. فكل عاص و آثم معاقب بإثمه ، مأخوذ بذنبه " ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ولا تأثم نفس آثمة بإثم نفس غيرها ، فهي تأثم بإثمها فقط ، وتحاسب على ما عملت فقط " (٢).

(١) تفسير القرآن العظيم : ابن كثير ، ج ٢ ، ص ١٨١ .

(٢) الطبري : ج ٣ ، ص ٥٦٢-٥٦٣ .

وقاعدة تقويم أعمال الفرد ومحاسبته عليها هي: قاعدة أساسية، وقضية مركزية ترتبط  
بفردية التكليف ﴿ وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾ (يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها) .  
ويظهر لنا هنا معنى دقيقاً في منهجية التقويم ، وهو ارتباط فردية التكليف وتقويم  
المرء على أساسها من جهة ، بضرورة التقويم الذاتي الفردي للإنسان من جهة ثانية، فإذا  
كان الأصل هو هذا في التكليف والتقويم ، فإن تقويم الإنسان لذاته وتهذيبها ، وإرجاعها إلى  
الجادة لها الخطوة الأولى والأساسية في سير حياته إلى منتهاها.  
ويعلق صاحب الظلال على الآية الكريمة الأخيرة من سورة البقرة ﴿ لا يكلف الله  
نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ [ البقرة: ٢٨٦ ] فيقول : فردية التبعة، فلا  
تنال نفس إلا ما اكتسبت ، ولا تحمل الأنفس إلا ما اكتسبت ورجعة كل إنسان إلى ربه  
بصحيفته الخاصة وما قيد فيها له أو عليه ، فلا يحيل على أحد ، ولا ينتظر عون أحد ،  
ورجعة الناس إلى ربهم فرادى من شأنها حين يستيقنها القلب ، أن تجعل كل فرد وحدة  
إيجابية لا تنزل عن حق الله فيها لأحد من عبادة إلا بالحق" (١).

\*\*\*

(١) الظلال : ج ١ ، ص ٣٣٩ .

## **المبحث الثالث**

### **قاعدة الوضوح والصراحة**

**وفيه مطلبان**

**المطلب الأول : ما ورد في سيرة الأنبياء والرسل**

**المطلب الثاني : ما ورد في مواقف متنوعة**

## تمهيد:

يمتاز الإسلام بشكل عام بمنهجية صريحة واضحة في طرح قضاياها .وتوضيح تعاليمه . والتقويم كأصل إسلامي ، ومنهج قرآني اتصف بالوضوح والصراحة في وصف الأمور ، والحكم عليها دون مواربة أو مدهانة، أو غموض ، وذلك بأدق الأوصاف ، وأبلغها بطريقة مباشرة مستقيمة. ونود مناقشة هذا المبحث من خلال المطالب التالية :

### أ) المطالب الأول : ما ورد في سيرة الأنبياء والرسل

يذكر لنا القصص القرآني فيما حكاه من حياة الأنبياء والرسل الشيء الكثير ، وقد ظهر منهج التقويم واضحاً في الحكم على مواقف الأنبياء وتصحيحها، ذلك أن منهج الله تعالى نزل لصالح البشرية إلى يوم القيامة، ونزل على حسب الحوادث والمناسبات ليقوم السلوك البشري ، والتفكير البشري حتى مع أصحاب الرسالات والكتب السماوية أنبياء الله ورسله .

يقول الشيخ المرحوم محمود شاكر في هذا السياق: " وكان الوحي يوجهها (أي الجماعة المسلمة) ويصحح مسيرتها، ويقوم رأيها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقى الوحي ، وينتو ما تلقى على أصحابه ، فيطبقون ما يتلقون ، وكان ذلك التوجيه العلوي أسمى من أن ينظر فيه ، أو يقوم لأنه من رب السماء خالق الكون ومن فيه ، إذ يعقب كل حادثة عتب ، أو توجيه ، أو رسم منهج ، أو بيان حكم.

ويذكر محمود شاكر في كتيبه "التوجيه والتقويم خلال التاريخ الإسلامي " صوراً من التقويم الصريح والتوجيه الواضح لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين والمعصوم من ربه نختصرها بالمواقف التالية:

أ - عتاب الله رسوله صلى الله عليه وسلم عند عدم قوله "إن شاء الله" حين وعد المشركين بالرد عليهم بخصوص أسئلتهم الثلاثة التي جاءوا بها من اليهود حول أصحاب الكهف وذي القرنين ، والروح، وقد ظهر ذلك في قوله تعالى : ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشدا ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤].



**ب -** الإعراض عن ابن أم مكتوم وقد ورد ذكر ذلك وعتاب الله لرسوله في صدر سورة عبس ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتفتحه الذكرى ﴾ [ عبس ١-٤ ] .

**ج -** قصة طلب المشركين من الرسول صلى الله عليه وسلم ، طرد بعض الصحابة حتى لا يتجروا على المشركين حسب قولهم ، وكيف أن وقع من ذلك شيء في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابهم عليهم من شيء فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾ [ الأنعام : ٥٢ ] .

**د -** قصة صلواته على عبد الله ابن أبي سلول ، وكيف نبهه عمر رضي الله عنه ، ثم نزل قول الله تعالى ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ [التوبة: ٨٤] .

**هـ -** ما نزل بحق الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر في موضوع الأسرى ﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ﴾ [الأنفال: ٦٧] .

**و -** ما نزل بحق الرسول صلى الله عليه وسلم من عتاب ، حين أذن للمنافقين قبل أن يتبين صدقهم من كذبهم في قوله تعالى ﴿ عفا الله عنك لما أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ [التوبة: ٤٣] .

**ز -** حادثة الإفك ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ (١) .  
ونقف من قصة حادثة الإفك وقفات تدل على ضخامة القضية وحساسيتها ، وقد أراد الله أن يسطرها في كتابه إلى الناس جميعاً إلى يوم القيامة ، ويقوم أحداثها تقويماً واضحاً جلياً لا يخفى منه شيء ولا يجمال حتى نبيه فيستر عليه مثلاً لصالح الدعوة والرسالة ، ومن ذلك :

(١) التوجيه والتقويم خلال التاريخ الإسلامي : الشيخ محمود شاكر ، طبعة المكتب الإسلامي ١٩٨٦م ص ١٢-٣٦ (بتصرف) .

١- الموقف صعب وشديد ومزلزل ، إذ هو في أكثر القضايا حساسية، وأهمية ، أنه في قضية العرض والشرف.

٢- وقع الموقف مع أهم بيتين من بيوت المسلمين ، وأسرتين من أعز أسر المسلمين، بيت النبوة، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها ، وبيت أبي بكر الصديق رضي الله عنه الرجل الثاني في القيادة الإسلامية ، ووالد عائشة زوج الرسول صلى الله عليه وسلم .

٣- حدث الموقف بعد رجوع المسلمين من غزوة بني المصطلق ، ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم ينتهي من حادثة اختلاف الرجلين حليف الأنصار وحليف المهاجرين ، وموقف زعيم النفاق عبد الله بن أبي بن سلول من الحادثة وما أحدث من بلبلة في الصف الإسلامي ومن توعد بطرد الرسول والمسلمين من المدينة .

٤- كان من آثار الحادث قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في حق مسطح الذي تكلم في الحادث وأشاعه : "والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً" وقد كان ينفق عليه ، لكن الله قوّم الموقف فقال عزوجل ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة .. ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ .

فقال أبو بكر رضي الله عنه : بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي " فأرجع نفقة مسطح ، وقال : والله لا أنزعها منه أبداً.

وأمام هذه المواقف والمناسبات مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نجد القرآن الكريم يعالجها معالجة مباشرة ويقومها تقويماً صريحاً لا لبس فيه ولا تستر فيصرح بأن :

• الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم : على رغم كل ما حدث فإنهم منكم أي من الصف المسلم .

• لا تحسبوه شراً لكم ( رغم كل الظاهر من أحكام الناس وانزعاجهم من ذلك ، وتوقف الوحي فترة من الزمن . بل هو خير لكم لحكمة يريد الله تعالى ، مثل تمييز الصف المسلم، وصلل النفوس وتثبيتها ، وثقتها بالقائد والمسيرة وغير ذلك مما لا يدركه البشر ) .

• تقويم الله للموقف بعمقه وآثاره أبلغ ولا شك وأشمل ، وأنفع للصف المسلم ، بل للبشرية المدعوة لرسالة الإسلام ، من تقويم الناس الظاهري الذي يتأثر بقدرة البشر ، وموازينهم ، وتفكيرهم العاطفي السريع . ويزيد الموقف بهاء إن يدل هذا الحادث على

أن هذا القرآن الكريم من عند الله قطعاً وحتماً ، ليس كما زعم بعض أهل الشبهات من الجهلة والمستشرقين ، أنه من عند محمد صلى الله عليه وسلم ، إذ بإمكان محمد صلى الله عليه وسلم أن يخفي من القرآن مثل هذه المواقف والتوجيهات ، والتقويم الذي يخصه هو نفسه في ذاته وبيته وصحبته . ولكنها النبوة والرسالة ، ومنهاج الله وأمانته لكل العالمين .

وعند ما يقوم القرآن موقف أبي بكر من مسطح بعد أن امتنع عن مساعدته ، وينزل في ذلك قرآناً يتلى إلى يوم القيامة ، وقد أذى مسطح أبا بكر في نفسه وعرضه ونبيه ، فيسمى امتناع أبي بكر إنتلاءً وارتفاعاً، فتتصاع نفس "أبو بكر" المؤمنة الكبيرة لهذا المنهج، ولهذا الميزان الذي يرتفع فوق كل شيء حتى فوق مقام النبوة والصحبة . إنها ولا شك قمة سامقة ، ومواقف في مصاف الخيال والاستحالة.

**ج -** وموقف آخر نذكره ورد كذلك مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في قصة زواج الرسول صلى الله عليه وسلم ، من زينب بنت جحش بعد أن كان قد تزوجها متبناه زيد بن حارثة رضي الله عنه ، وما تم من حديث الناس وتقولهم في الأمر ، حيث كانوا يعتبرون المتبنى ابناً ، ولا يجيزون زواج المتبنى من زوجة المتبنى لأنه ابنه ، فعدل الله الأمر ، وقومه ، وأبطل هذه العادة بزواج النبي صلى الله عليه وسلم من زينب ، فقال الله تعالى في ذلك ﴿ وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً ، ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له سنة الله في الذين خلوا من قبل ، وكان أمر الله قدراً مقدوراً ﴾ [الأحزاب: ٣٧-٣٨].

وقد قوم الله الأمر وعدله في شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يخشى ما يقوله الناس ويتقولونه في الموضوع ولكنها العقيدة والدين والقدوة ، والامتثال من محمد صلى الله عليه وسلم للأمر من أجل تغيير الأوضاع الاجتماعية وتقويمها ، ولو كان ذلك على حساب القائد ، ورأس المسيرة، فلا بأس ، فالأمر أمر الله وحكمته وإرادته لعباده المؤمنين بل ولكل الناس أجمعين .

وقبل أن نخرج من قاعدة الموضوع والصراحة في التقويم في ما يخص رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غيره من مواقف مع أنبياء آخرين ، نورد أقوال بعض المفسرين حول بعض ما سبق من آيات ومواقف .

يقول القرطبي في تفسيره لقول الله تعالى ﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤] .

قال العلماء: " عاتب الله نبيه عليه السلام على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والفتية وذو القرنين ، : غدا أخبركم بجواب أسئلتكم ، ولم يستثن من ذلك . فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوماً حتى شق ذلك عليه وأرجف الكفار به ، فنزلت عليه هذه السورة مفرجة ، وأمر في هذه الآية ألا يقول في أمر من الأمور إني أفعل غداً كذا وكذا ، إلا أن يُعلق ذلك بمشيئة الله عزوجل حتى لا يكون محققاً لحكم الخير، فإنه إذا قال : لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذباً، وإذا قال لأفعلن ذلك إن شاء الله خرج عن أن يكون محققاً للمخبر عنه <sup>(١)</sup> .

يقول صاحب الظلال عند تعليقه على قوله تعالى في تقويم موقف النبي صلى الله عليه وسلم من المنافقين ﴿ فإن رجعت الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج ، فقل : لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدواً ، إنكم رضيتم بالعودة أول مرة ، فاقعدوا مع القاعدين ، ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ [ التوبة : ٨٣-٨٤ ] :

" هذا هو الطريق الذي رسمه الله تعالى لنبيه الكريم ، و إنه لطريق هذه الدعوة ورجالها أبداً ، فليعرف أصحابها في كل زمان وفي كل مكان ذلك الطريق ، وكما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالألا يسمح للمتخلفين في ساعة العسرة أن يعودوا فينتظموا في الصفوف ، كذلك أمره ألا يخلع عليهم أي ظلال من ظلال التكريم ، ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون .

ولقد ذكر المفسرون حوادث خاصة عننها الآية ، ولكن دلالة الآية أعم من الحوادث الخاصة ، فهي تقرر أصلاً من أصول التقرير في نظام الجماعة المكافحة في سبيل العقيدة ، وهو عدم التسامح في منح مظاهر التكريم لمن يؤثرون الراحة المسترخية على الكفاح

(١) القرطبي : مرجع سابق ج ٥ ص ٣٨٥ .

الشاق ، وعدم المجاملة في تقدير منازل الأفراد في الصف ، ومقياس هذا التقدير هو الصبر ، والثبات والقوة ، والإصرار والعزيمة التي لا تسترخي ولا تلتين .

والنص يعلل هذ النهي في موضعه هنا " إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون " وهو تعليل خاص بعدم الصلاة أو قيام الرسول صلى الله عليه وسلم على قبر منافق ... ولكن القاعدة - كما ذكرنا - أوسع من المناسبة الخاصة ، فالصلاة والقيام تكريم ، والجماعة المسلمة يجب ألا تبذل هذا التكريم لمن يتخلف عن الصف في ساعة الجهاد ، لتبقى له قيمته ، ولتظل قيم الرجال منوطة بما يبذلون في سبيل الله ، وبما يصبرون على البذل ، ويثبتون على الجهد ، ويخلصون أنفسهم وأموالهم لله لا يتخلفون بهما في ساعة الشدة ، ثم يعودون في الصف مكرمين " (١) .

و أورد القرطبي عند تفسيره لقول الله تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم في شأن المنافقين ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ [ التوبة : ٤٣ ] :

" وأخبره بالعمو قبل الذنب لئلا يطير قلبه فرقاً ، وقيل : المعنى عفا الله عنك ما كان من ذنبك في أن أذنت لهم ... ثم قيل في الإذن قولان :

الأول : " لم أذنت لهم في الخروج معك ، وفي خروجهم بلا عدة ونية صادقة فساد . والثاني : " لم أذنت لهم في القعود لما اعتلوا بأعدار . ذكرهما القشيري قال : وهذا عتاب تلتف . إذ قال " عفا الله عنك " وكان عليه السلام أذن من غير وحي نزل فيه ، قال قتادة وعمرو بن ميمون : ثنتان فعلهما النبي صلى الله عليه وسلم ولم يؤمر بهما : إنه لطائفة من المنافقين في التخلف عنه ولم يكن له أن يمضي شيئاً إلا بوحي ، وأخذه من الأسارى الفدية ، فعاتبه الله كما تسمعون قال بعض العلماء : إنما بدر منه ترك الأولى فقدم الله له العفو على الخطاب الذي هو في صورة العتاب " (٢) .

### ب) المطلب الثاني : ما ورد في مواقف متنوعة

ينزل القرآن عموماً مع الحوادث والمناسبات الحاصلة في حياة المجتمع الإسلامي ليقول فيها رأيه تصحيحاً ، أو موافقة أو تحليلاً أو تحريماً أو غير ذلك ، وبطرح ذلك

(١) الظلال : مرجع سابق ج ٣ ص ١٦٨٣ - ١٦٨٤ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ج ٤ ص ١٥٤ - ١٥٥ .

بصراحة تامة ووضوح شديد ، إذ الأمر إضافة إلى أنه يعالج حالة بعينها ، إلا أنه يضع منهاجاً وميزاناً ، وتقويماً دائماً تعيش عليه الحالة الإسلامية بل العالمية ( إن شاعت ) حتى تؤول إلى ربها عز وجل ومن تلك المواقف التقويمية الصريحة :

(١) لقد عالجت سورة الممتحنة إحدى هذه الحالات ، قصة حاطب بن أبي بلتعة عندما أرسل رسالة مع امرأة إلى أهل مكة يخبرهم فيها بخطة الرسول صلى الله عليه وسلم في غزو مكة ، فنزل القرآن يقوم هذه الحالة ويقول فيها رأيه بكل وضوح قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ﴾ [الممتحنة: ١] .

يقول القرطبي عند تفسيره لهذه الآية : " وفي هذه الآية سبع مسائل : الأولى : قوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم " روى الأئمة - واللفظ لمسلم - عن علي رضي الله عنه قال : بعثنا رسول صلى الله عليه وسلم أنا والزبير والمقداد فقال " أنتوا روضة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب فخذوه منها " فانطلقنا تعادي بنا خيلنا ، فإذا نحن بالمرأة ، فقلنا : أخرجي الكتاب ، فقالت : ما معي كتاب ، فقلنا : لتخرجين الكتاب أو لتلقيين الثياب ، فأخرجته من عقاصها ، فأتينا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا فيه : من حاطب بن أبي بلتعة ... إلى ناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا حاطب ما هذا ؟ قال لا تعجل علي يا رسول الله ، إن كنت امرأ ملصقاً في قريش ، وكان ممن كان معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهلهم ، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله كفوراً ولا ارتداداً عن ديني ، ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : صدق ، فقال عمر : دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال : إنه قد شهد بدرأ ، وما يدريك لعل الله أطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ... فأنزل الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ﴾ <sup>(١)</sup> إلى أن يقول : الرابعة : من كثر تطلعه على عورات

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: الإمام مسلم ج ١٦ ، فضائل حاطب وأهل بدر ، رقم ٢٤٩٤ ص ٥٤ -

المسلمين وبنه عليهم ، ويُعرّف عدوهم بأخبارهم ، ثم يكن بذلك كافراً إذا كان فعله لغرض دنيوي ، واعتقاده على ذلك سليم ، كما فعل حاطب حين قصد بذلك اتخاذ اليد ولم ينو الردة في الدين " (١) .

ويورد صاحب الظلال معان جميلة حول تقويم القرآن لقصة حاطب وموقفه فيقول : " وأول ما يقف الإنسان أمامه فعلة حاطب ، وهو المسلم المهاجر ، وهو أحد الذين أطلعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على سر الحملة ، وفيها ما يكشف عن مُنحنيات النفس البشرية العجيبة ، وتعرض هذه النفس للحظات الضعف البشري مهما بلغ من كمالها وقوتها، وأن لا عاصم إلا الله من هذه اللحظات ، فهو الذي يعين ، ثم يقف الإنسان مرة أخرى أمام عظمة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو لا يعجل حتى يسأل : ما حملك على ما صنعت في سعة صدر وعطف على لحظة الضعف الطارئة في نفس صاحبه ، وإدراك ... بأن الرجل قد صدق ، ومن ثم يكف الصحابة عنه : " صدق لا تقولوا إلا خيراً " إلى أن يقول : والحادث متواتر الرواية : أما نزول هذه الآيات فيه فهو أحد روايات البخاري . ولا نستبعد صحة هذه الرواية ، ولكن مضمون النص القرآني - كما قلنا - أبعد مدى ، وأدل على أنه كان يعالج حالة نفسية أوسع من حادث حاطب الذي تواترت به الروايات ، بمناسبة وقوع هذا الحادث ، على طريقة القرآن كيف يعالج مشكلة الأواصر القريبة ، والعصبيات الصغيرة ، وحرص النفوس على مألوفاتها الموروثة لتخرج بها من هذا الضيق المحلي إلى الأفق العالمي الإنساني " (٢) .

ب) وذكرت سورة الحجرات عدة مواقف في تقويم النسيج الأخلاقي للمجتمع الإسلامي في عهد النبوة، ومن أبرز هذه المواقف قول الله عز وجل ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون ﴾ [ الحجرات : ٢ ] .

وقد ورد هذا الموقف الواضح كما روى البخاري في تقويم أفضل رجلين بعد الأنبياء والرسل واللذين قام عليهما بنيان الإسلام في عهد الخلافة الراشدة ، أبو بكر وعمر رضي الله عنهما ، يقول صاحب الظلال :

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : ج ٩ ص ٥٢ .

(٢) الظلال : ج ٦ ص ٣٥٣٨-٣٥٣٩ .

" قال البخاري : عن ... ابن أبي مليكة . قال : كاد الخيران أن يهلكا .. أبو بكر وعمر رضي الله عنهما رفعوا أصواتهما عند النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم عليه ركب بني تميم ( في شأن من يؤمر على بني تميم ) ... فأنزل الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ... ﴾ فما كان عمر رضي الله عنه يُسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية حتى يستفهمه!

وروي عن أبي بكر بعد نزول الآية قوله : يا رسول الله : والله لا أكلمك إلا كأخي السرار " (١) .

والموقف كما مرّ هو مع أفضل رجلين قدّمَا للإسلام والمسلمين ، وقد قوّم القرآن موقفهما ليبقى الحدث ميزاناً للمؤمنين إلى يوم الدين - وقد أثمر التقويم ، وأعطى نتيجته في سلوك الرجلين مباشرة بانخفاض الصوت ، والتأدب العظيم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .  
ويظهر مما سبق أن التقويم الصريح المباشر المؤدب المبني على الحق والعلم ، الهادف للإصلاح والتحسين منهج قرآني عظيم النفع قليل التكاليف ، إذا كانت النفوس عظيمة والمجتمع طاهراً والغايات نبيلة ، وذلك أفضل من المجاملات الخادعة ، والتقويمات الكاذبة ، والتربيت على الأخطاء ، والإعراض عنها بحجة الصبر ، وكسب القلوب ، فتبقى بذلك الأخطاء مستورة ، والهمم مخدرة ، والتغيير بعيد المنال .

\*\*\*

(١) الظلال : ج ٦ ص ٣٣٣٩ .



## **المبحث الرابع**

### **قاعدة العلم والخبرة وثبوت الدليل**

**وفيه مطلبان**

**المطلب الأول : التبين والتثبت من الأخبار والمرويات**

**المطلب الثاني : الوقوف عند الحد في مجال العلم والمعرفة**

## تمهيد:

يحتاج التقويم والحكم والتصحيح إلى أن يركز على قاعدة مهمة ضرورية ، هي : قاعدة التثبت والعلم والخبرة، كصفة أساسية فيمن يقوم بهذه العملية ويتصدر لها من جهة ، وحول المعلومات وثبوتها عن الموقف المقوم من جهة أخرى . فالارتجال والعفوية والعاطفة الزائدة ، وردود الأفعال لا تصدر أحكاماً سليمة ولا تقوياً إيجابياً يصح ويطور من الحالة موضع التقويم . والوصف والتشخيص ، ومن ثم التقويم والتعديل ، شروط أساسية ، وعمليات مهمة لا يمكن أن يعيها ويحيط بها ، ومن ثم يصدر نتيجة سليمة لها إلا العالم والخبير ، ومالك الأدلة ، والإثباتات على ما يقول : يقول الله تعالى: ﴿فوق كل ذي علم عليم﴾ ولقد سطر لنا القرآن الكريم هذه القاعدة عبر مواقف وآيات نعالجها لنرى أقوال العلماء فيها وما ورد عنها في هذا المجال حسب المطالب التالية:

### المطلب الأول : التبين والتثبت من الأخبار والمرويات

فالتثبت وتمحيص الأخبار صفة الواعين الفاهمين الذين يقدرّون الأمور ولا يحكمون بالعاطفة والاستعجال ، وهي صفة مهمة لوضع الحق في نصابه وحفظ الحرمات ، ونقاء المجتمع ، وصيانة البنية الاجتماعية ، وعدم الوقوع في المحذور من الأخلاق والأعمال .  
\* يذكر صاحب الظلال عند تعليقه على قول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتنبئوا ، ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً ، تبتغون عرض الحياة الدنيا، فعند الله مغام كثيرة، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليكم فتنبئوا إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ [ النساء : ٩٤].

وقد وردت روايات كثيرة في سبب نزول الآية الكريمة : خلاصتها أن سرية من سرايا المسلمين لقيت رجلاً معه غنم له ، فقال : السلام عليكم ، يعني أنه مسلم ، فاعتبر بعضهم أنها كلمة يقولها لينجو بها فقتله .

ومن ثم نزلت الآية الكريمة ، تُحَرِّج على مثل هذا التصرف وتنفض عن قلوب المؤمنين كل شائبة من طمع في الغنيمة أو تسرع في الحكم ، وكلاهما يكرهه الإسلام ، إن عرض الحياة الدنيا لا يجوز أن يدخل للمسلمين في حساب إذا خرجوا يجاهدون في سبيل

الله ،إنه ليس الدافع إلى الجهاد ولا الباعث عليه، وكذلك التسرع بإهدار دم قبل التبين ، وقد يكون دم مسلم عزيز لا يجوز أن يراق"<sup>(١)</sup>.

ويعنى ورود كلمة " فتبينوا "مرتين في الآية ضرورة التبين والتثبت قبل الحكم والتقويم على الأحوال والأشياء ، فكثيراً ما تطلق الأحكام والألفاظ والنقد جزافاً ، فيصيب مقتلاً ، ويعكر الصفو ويؤدي المسيرة ، ويخرب الأخلاق ، وتسري أمراض الألسنة والقلوب في الناس ، فيتطاول الصغار على الكبار باسم النقد والتقويم ، والطالحين على الصالحين باسم حرية الرأي والمراجعة . ولتنزيل الآية الكريمة بقوله تعالى : ﴿ إن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ دلالة وجوب توفر الخبرة والعلم فيمن يقوم ويحكم ، ومن أصدق من الله علماً ، وأكثر منه سبحانه خبرة ، وذلك معيار منه تقاس عليه الأمور والمواقف في الحكم والتقويم . وقد لمست الآية إيمان القوم ، وما عند الله لهم، ليكون ذلك مؤثراً في سلوكهم ، وتحسن تصرفاتهم ، وهذا هو هدف التقويم والتنبيه هنا.

\* ومن صور التنزيل في تقويم المواقف والحوادث على قاعدة العلم والتثبت

والتبين قبل الحكم والتقويم، قول الله عزوجل في سورة الحجرات ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ [ الحجرات:٦] .

وقد أورد ابن كثير إحدى الروايات في مناسبة الآية قال : قال مجاهد وقتادة: أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة إلى بني المصطلق يتصدقهم ، فتلقوه بالصدقة فرجع ، فقال : إن بني المصطلق قد جمعت لك لتقاتلك . زاد قتادة : وأنهم قد ارتدوا عن الإسلام . فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد رضي الله عنه إليهم ، وأمره أن يتثبت ، ولا يعجل . فانطلق حتى أتاهم ليلاً فبعث عيونه ، فلما جاءوا أخبروا خالداً رضي الله عنه أنهم متمسكون بالإسلام ، وسمعوا أذانهم وصلاتهم . فلما أصبحوا أتاهم خالد رضي الله عنه فرأى الذي يعجبه ، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر . فأنزل الله تعالى هذه الآية، قال قتادة : فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:التثبت من الله والعجلة من الشيطان"<sup>(٢)</sup>.

(١) الظلال : ج ٢ ص ٧٣٧.

(٢) ابن كثير : ج ٤ ، ص ٢١١.

وذكر القرطبي عند تفسيره لهذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ﴾ " وفي الآية دليل على فساد قول من قال : إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجرحه لأن الله تعالى أمر بالتثبت قبل القبول ، ولا معنى للتثبت بعد إنفاذ الحكم ، فإن حكم الحاكم قبل التثبت فقد أصاب المحكوم بجهالة ، فإن قضى بما يغلب على الظن لم يكن ذلك عملاً بجهالة ، كالقضاء بالشاهدين العدلين ، وقبول قول العالم المجتهد ، وإنما العمل بجهالة قبول قول من لا يحصل غلبة الظن بقبوله " (١).

إن منهجية التعامل مع المعلومات والأخبار أمر مهم وحساس ، ومطلوب في نفس الوقت ، من حيث نوعية العناصر ، والطاقت البشرية التي تتعامل معها في جانب علمها ، وخبرتها وأمانتها، ومن حيث نوعية الأخبار وحجمها وتصنيفها ، وقيمتها وصحتها وخطأها، ومن ثم توظيفها والاستفادة منها في مجالها المحدد ، ووقتها المحدد.

ومعروف كم للأخبار والمعلومات والإعلام بشكل عام من سلطة عظيمة على تشكيل موازين الناس ، وتصوراتهم حول أي وضع يراد تغييره ، بل قيل إن الإعلام هو السلطة الأولى التي تشكل السلطات الرئيسية الثلاث في المجتمعات البشرية .

ولذلك فقد اهتم القرآن بهذا الأمر وحدده وشدد عليه - فما أعظم المصيبة التي حدثت لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يتثبت خبر بني المصطلق - إذ كان ينوي محاربتهم حسب بعض الروايات . والحرب لا تعني هنا سوى القتل والدمار ، وسفك الدماء بغير حق . ولكنه المنهج القويم ، والتقويم السليم ، لأنه يخط موازين الناس وشروط حكمهم على المواقف إلى يوم الدين .

" ويخصص الفاسق لأنه مظنة الكذب ، حتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء ، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها ، فالأصل في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقته ، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذاً بها ، فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره ، وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطاً بين الأخذ والرفض لما يصل إليها من أنباء ، ولا تعجل الجماعة في تصرف بناء على خبر فاسق ، فتصيب قوماً بظلم عن جهالة ، وتتسرع فتندم على ارتكابها ما يغضب الله ... ومدلول الآية عام ، وهو يتضمن مبدأ التمحيص والتثبت من خبر الفاسق ، فأما الصالح فيؤخذ بخبره،

(١) القرطبي : ج ١٦ ، ص ٣١٣ .

لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة ، وخبر الفاسق استثناء . والأخذ بخبر الصالح جزء من منهج التثبت لأنه أحد مصادره . أما الشك المطلق في جميع المصادر ، وفي جميع الأخبار ، فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة ، ومعتل لسير الحياة وتنظيمها في الجماعة ، والإسلام يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي، ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها لا لتعطيلها ابتداء ، وهذا نموذج من الإطلاق والاستثناء في مصادر الأخبار " (١) .

\* ومن معالجات القرآن لهذه القضية ، قضية التثبت وتوفر العلم والخبرة في منهجية

التقويم، ما ورد في سورة النحل عن قصة سيدنا سليمان عليه السلام مع الهدهد، والتي أبرزت طريقة التعامل والتحوط والتثبت من قبل سيدنا سليمان - الذي كان ملكاً نبياً - في الحكم وتقويم موقف الهدهد الذي افتقده سليمان عندما تفقد مملكته من الطير .

يقول تبارك وتعالى : ﴿ وتفقّد الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحه أو ليأتين بسلطان مبين ، فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ نبأ يقين ، إني وجدت امرأة تملكهم وأتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون . ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون . الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم . قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين واذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴾ [ النمل : ٢٠-٢٧].

يورد صاحب الظلال في تعليقه على هذه القصة قوله : " ويتضح أنه غائب (أي الهدهد) ويعلم الجميع من سؤال الملك عنه أنه غائب بغير إذن ! وحينئذ يتعين أن يؤخذ الأمر بالحزم ، كي لا تكون فوضى ، فالأمر بعد سؤال الملك هذا السؤال لم يعد سراً . وإذا لم يؤخذ بالحزم كان سابقة سيئة لبقية الجند . ومن ثم نجد سليمان الملك الحازم يتهدد الجندي الغائب المخالف " لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحه... " ولكن سليمان ليس ملكاً جباراً في الأرض ، إنما هو نبي ، وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب ، فلا ينبغي أن يقضي

(١) الظلال : ج ٦ ص ٣٣٤١ .

في شأنه قضاء نهائياً قبل أن يسمع منه ، ويتبين عذره ... ومن ثم تبرز سمة النبي العادل:  
" أوليأتيني بسلطان مبين " أي حجة قوية توضح عذره وتنفي المؤاخذة عنه " (١) .

فيغيب الهدهد - على الأرجح - غير بعيد ليأتي سليمان بأخبار يقينية عن ملكة سبأ لم يحط بها سليمان من قبل رغم عظم ملكه ، وكثرة جنوده من الجن والإنس كما هو معروف .  
ويضيف صاحب الظلال حول الزيادة في تثبت سليمان عليه السلام فيقول : " ولا يتسرع سليمان في تصديقه أو تكذيبه ، ولا يستخفه النبأ العظيم الذي جاءه به ، إنما يأخذ في تجربته للتأكد من صحته ، شأن النبي العادل والملك الحازم :

قال : سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابي في هذا فألقه إليهم ، ثم تول عنهم ، فانظر ماذا يرجعون (٢) .

وألمح إضافة إلى ماسبق حول هذه القصة البديعة بين سليمان عليه السلام وبين الهدهد، أموراً حول منهجية سليمان والهدهد كليهما في عملية التقويم والتثبت ، أعرضها كالتالي:

\* فجملة "وتفقد الطير" تظهر أنه يراقب مملكته ، ويستطلع أمرها ، ولا يكون التفقد والاستطلاع إلا لهدف وغاية ، هي هنا معرفة سير المملكة ، ومعرفة قيام كل جندي بدوره حسب نظام وخطة الدولة ، التي تريد هنا تحقيق الملك العادل والنبوة الرحيمة ، وهذا نوع من التقويم البنائي لصرح مملكة سليمان عبر معرفة أدوار جنودها ، حتى لو كان هدهداً واحداً ضمن مملكة شاسعة واسعة الأطراف والحدود ، كثيرة الجند والإمكانات والمعجزات.

\* ودلالة أخرى : أن التفقد والتقويم تم لمخلوق صغير من هذه المملكة الشاسعة ، إذ ما يكون الاهتمام غالباً في الإدارة والملك لكبار القوم والقوى الفاعلة الكبيرة ، لما لها من تأثير ومكانة في إقامة الملك واستمرار المسيرة لتحقيق الأهداف والغايات ، لكن الأمر هنا أمر عدل ودقة وتثبت ، في مملكة راشدة ، نبوة كريمة ، لإعطاء الدرس بليغاً ، والعظة كاملة .

\* ونلمح كذلك ضرورة تقويم الأفراد القائمين على العمل ، ولو كانوا صغاراً فهم أساس العمل والنجاح ، ويشكل ذلك حلقة من حلقات منهج التقويم الشامل لكل من يشترك

(١) الظلال : ج ، ٥ ، ص ٢٦٣٨ .

(٢) الظلال : ج ، ٥ ، ص ٢٦٣٩ .

في بناء العمل والخطة ، ابتداء بالفكرة والهدف ، وانتهاء بالفرد ، ولوكان ذا دور محدود ، ومكانة بسيطة .

\* ونرى حكم القائد المتفاعل مع مسيرة شعبه ومملكته ، وتقويمه الشديد لحالة جندي من جنوده بقوله مباشرة " لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه " فلا هزل وتميع في التقويم والإدارة هنا.

وفي نفس الوقت لا يمنع هذا التفاعل والحزم من الوقوف عند الحد ، وضبط هذا التصرف بما يمكن أن يدفعه من سلطان وحجة مبنية تؤيد هذا الغياب من الهدهد يأتي بها أمام الملك النبي سليمان عليه السلام . ونجد في المقابل كثيراً من المواقف المانعة ، واللفظ الزائد عند الكثير ممن يتسلمون زمام القيادات ، فيخلطون بين الحزم والعدل والتثبت ، وبين العفوية والتميع واللفظ ، فتضيع بذلك المصالح ، وتهتز المقاييس ، وتضطرب مناهج التقويم ، ومن ثم التصحيح والتطوير .

\* ويدرك الجندي (الهدهد) مغزى قائده من التهديد الشديد له ، فيأتي بعد ذلك بأخبار يقينية هامة لم يكن يعلمها سليمان نفسه ، معلومات أساسها اليقين والتثبت ، لأن القصة كلها بُنيت على أساس التثبت والعلم والخبرة في صحة المعلومات ودقتها ﴿أحطت بما لم تحط به وجنتك من سبأ نبأ يقين﴾.

\* ويظهر اهتمام الجندي بإطلاع قائده على الأخبار التي تهمة وتتصل بأهداف ملكه ونبوته ، وهي عبادة غير الله ، وعدم توحيده ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ ويعرف هذا الجندي أن سليمان عليه السلام لا يهتم من أمر هذه الملكة إلا مقدار قريبها أو بعدها من توحيد الله وعبادته، ولم يندع بأي وصف آخر ، وتقويم آخر ، فأصل التقويم عند المؤمنين للآخرين بالدرجة الأولى هو إيمانهم أو ضلالهم . وهذا هو المعيار الحقيقي ، والميزان العادل الذي يخضع له الناس جميعاً يوم يقوم الناس لرب العالمين .

\* ومع كل هذه الأخبار ، وبهذا اليقين ، لا بد أن يكمل سيدنا سليمان منهج التقويم والتشخيص لهذا الوضع ، وبشكل فعلي عملي ليتسنى له بعد ذلك أن يشكل صورة تقويمه كاملة للتعامل مع وضع هذه المرأة ومملكته ﴿قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجع المرسلون﴾.

فكانت الخطوة الأخيرة تتمثل في التأكد من كلام الهدد في أخباره ، إضافة إلى تقويم حال المملكة وإصلاحه بالدعوة إلى الله وعبادته وحده ، ثم كان ما كان من أمر الملكة وإسلامها لله رب العالمين .

\* وأخيراً فإن قصة سيدنا سليمان مع الهدد تقع في دائرة منهج التقويم الإداري والقيادي، فسليمان ملك قائد يحكم مملكة هدفها عبادة الله ، ودعوة الآخرين لذلك ، والهدد عنصر مهم، له دوره في هذا البناء. قد تغيب عن نظام العمل والتخطيط ، ونتيجة للمراقبة والتقويم البنائي والتثبت من أمور المملكة افتقده القائد فكان ماكان . ومنهجية التقويم ضمن مفهوم الإدارة الحديثة ، قضية مهمة وجوهرية لا تكتمل العملية الإدارية إلا بها ، فالتقويم الإداري يختص بقياس النتائج على ضوء الأهداف الموضوعية ، ومعرفة مدى تحقيق هذه الأهداف، ومن ثم بحث أسباب النجاح والقصور ، لتفادي ذلك في المستقبل ، وتطوير الأداء لتحقيق أعلى نسبة من الأهداف والمقاصد المرجوة ، وفي المقابل تثبت أسباب النجاح في عملية التقويم وتمييزها. وأصبح التقويم الإداري والتوجيه والمتابعة، يطال الأفكار والأهداف، والأشخاص والإنجازات ، وكل ما يخص العمل بشكل عام .

وصار لذلك مؤسسات متخصصة فقط في عملية التقويم ، ودراسة الجدوى ، فإذا أردت معرفة مدى سلامة سير عملك ونسبة نجاحك أو قصورك ، فما عليك إلا أن تقدم لهذه الجهات المعلومات اللازمة عن أهدافك ووسائلك وميزانيتك ، وشرائح العاملين معك ، ونوع إدارتك ، وظروفك العامة والخاصة .. إلخ ، ليقوموا هم بعمليات الحصر المطلوبة، ومن ثم تحليلها ، وتحديد مستواك ، ثم المقارنة مع ماكنت وضعت من أهداف توقعت الوصول لها ، وما قد حققته فعلاً، وبعدها تحدد نسبة نجاحك، وما هي السلبيات والإيجابيات، والتوصيات من أجل التحسين والتعديل والتطوير ، وصولاً للهدف كاملاً.

ولقد برع أئمة الجرح والتعديل وأئمة الحديث الشريف عبر تاريخنا الإسلامي المديد في وضع منهج توثيقي تقويمي يقوم على أساس التثبت والعلم والدراية في علم الرجال والحديث وكان بحق أدق ما عرفته البشرية في هذا المجال .

وقد أشار بعض الباحثين إلى أنه قد : " بنى أئمة الحديث منهجاً متميزاً في الجرح والتعديل، يقوم أساسه على تمام الدقة والتثبت ، مع تمام العدل والإنصاف في تقويم الرجال



جرحاً وتعديلاً ، ولا يوجد بحمد الله منهج بشري على الإطلاق يملك عشر معشار هذا المنهج التوثيقي الدقيق الذي قدمه لنا أئمة الحديث رضي الله عنهم أجمعين<sup>(١)</sup>.

### المطلب الثاني : الوقوف عند الحد في مجال العلم والمعرفة

\* من أهم علامات الرقي البشري هو الوقوف عند الحد واحترام الطاقة والتواضع ، ومعرفة القدرة الذاتية . وقد ظهر ذلك مع الملائكة ، ومع الأنبياء ، ومع كل العقلاء والراشدين تؤكد آيات سورة البقرة في موضوع خلافة الإنسان في الأرض منهجية العلم والتثبت ، والوقوف عند الحد والطاقة عندما دار الحوار في ذلك بين الحق تبارك وتعالى وبين الملائكة يقول الله تعالى ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك . قال إني أعلم ما لا تعلمون ، وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، وقال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعمل ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٣].

يلحق صاحب الظلال على الآية الأولى فيقول : " ويوحى قول الملائكة هذا بأنه كان لديهم من شواهد الحال ، أو من تجارب سابقة في الأرض ، أو من إلهام البصيرة ، ما يكشف لهم عن شيء من فطرة هذا المخلوق ، أو مقتضيات حياته على الأرض ، ما يجعلهم يعرفون ، أو يتوقعون أنه سيفسد في الأرض ، وأنه سيسفك الدماء " <sup>(٢)</sup>.

وظهر أن الملائكة قد قوموا موقف الإنسان في الخلافة على ضوء ما عندهم من شواهد ، أو تجارب سابقة ، لكن الله أوضح أن ذلك غير كاف ، وأن القضية هي أكبر وأعمق من ذلك ، فهي تعتمد على علم الله وما حباه لهذا المخلوق من علم وإمكانات ، تمكنه من أن يكون خليفة لله في أرضه ، فقد علمه الله أسماء الأشياء ومدلولاتها مما لم تكن تعرفه الملائكة " قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا " وانتهى الأمر من بوضع الملائكة أمام آية التقويم الصحيحة من ضرورة توفر العلم والتثبت والوقوف عند الحد .

(١) منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم : أحمد محمد الصويان ، ص ٣٥ .

(٢) الظلال : ج ١ ، ص ٥٠ .

يتبين مما سبق معلم قرآني للمسلمين ، بل للبشرية قاطبة في معرفة الحد ، والوقوف عند الإمكانيات ، وعدم التعدي على حدود الطاقة ، وإدعاء المعرفة والعلم .

\* وتظهر ضرورة العلم ومعرفة الطاقة في تقويم الموقف والحكم عليه في موقف

سيدنا نوح مع ابنه ، وهذا ضرب من ضروب التنبيه على ضرورة معرفة الذات ( مالها وما عليها ) في قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام .

﴿ ونادى نوح ربه قال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين،

قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم إنني أعظك أن تكون من الجاهلين قال رب إنني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك وأمم سنمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم ، تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ [ هود : ٤٥ - ٤٩ ] .

ونرى عاطفة الأبوة تتحرك من خلال تقويم نوح لابنه إذ جعله من أهله مظنة أن

يكون من الناجين ، رغم ما دار بينهما من حديث حول رغبة نوح أن يركب ابنه معه في السفينة ، ليتمكن من النجاة مع من هم فيها ، ولكن ابنه أثر اختيار الجبل ، الذي سوف يعصمه من الماء كما قد ذكرت الآيات السابقة للآيات أعلاه . يقول نوح إن ابني من أهلي ودعوتك أن تنجيننا جميعاً، ولكن الله عز وجل يصحح لنوح تقويمه وحكمه على موقف ابنه فيقول " إنه ليس من أهلك ، إنه عمل غير صالح " وعلى اختلاف في تفسير الموقف من المفسرين إلا أن من المعاني الواردة أن قول نوح " إن ابني من أهلي " عمل غير صالح ، لأنه سؤال بدون علم وتثبت . ثم تكون الإنابة من نوح عليه السلام ، وطلب المغفرة والرحمة والاستعاذة من الله أن يسأله بدون علم ، إلى أن يقول الحق تبارك وتعالى ، هذه الأنباء غيب عليك ، وما كنت تعلمها أنت ولا قومك نوحياً إليك لتكون من المتقين .

فتكون النتيجة إرساء قواعد التقويم الصحيح من توفر العلم ، والتثبت في الأمر

الوقوف عند الحد والتي تقود إلى التقوى ، وهي أعمق مقياس ، وأقوى معيار من معايير التقويم الذاتية التي يحض عليها القرآن في تعديل المواقف ، وإصلاح الإعوجاج ، حتى وإن كانت المناسبات والأحداث تدور مع أنبياء الله ورسله عليهم الصلاة والسلام .

\* وتعرض كذلك سورة آل عمران جزءاً من معركة الحقيقة والعلم والوقوف عند

الطاقة بين أهل الكتاب من جهة ، وبين دعوة الإسلام في حلقتها الخاتمة التي قادها رسول

الله محمد صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى ، يقول تعالى : ﴿ يا أهل الكتاب لم تحتاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون ، ها أنتم حاججتم فيما لكم به علم فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين ﴾ [ آل عمران : ٦٥-٦٧ ] .

يقول ابن كثير عند تعليقه على هذه الآيات في ضرورة القول والحكم والمحااجة بعلم وتثبت قال تعالى " ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحتاجون فيما ليس لكم به علم " الآية ، هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به، فإن اليهود والنصارى تحاجوا في إبراهيم بلا علم ، ولو تحاجوا فيما بأيديهم منه علم مما يتعلق بأديانهم التي شرعت لهم إلى حين بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، لكان أولى بهم ، وإنما تكلموا فيما لا يعلمون ، فأنكر الله عليهم ذلك ، وأمرهم برد ما لا علم لهم به إلى عالم الغيب والشهادة الذي يعلم الأمور على حقائقها وجليلتها ، ولهذا قال " والله يعلم وأنتم لا تعلمون " (١) .

وتقوم معركة الإدعاء والجدال وعدم احترام النفس بين أهل الكتاب ( اليهود والنصارى) وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعدتهم الإدعاء بدون علم ، ولا تثبت ، يعصفون بمنطق العقل والنظر ، ويُبلغون منطق التاريخ ، وعدة رسول الله صلى الله عليه وسلم العلم والتثبت واليقين ، وإن موقف أهل الكتاب (ولا ريب) منطق الحاسدين والمعاندين في كل زمان ومكان ، يدعون العلم ، ويقبلون الحقائق ، لتظهر على غير وجهها ، فيتم تقويم الأمور والحكم عليها بذلك على غير وجهها ومسارها المطلوب.

\* ومما يدل على ضرورة توفر القدرة على التحليل والخبرة في عملية التقويم قول

الله تعالى : ﴿ وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ﴾ [ النساء : ٨٣ ] .

يقول سعيد حوى - رحمه الله - عند تعليقه على هذه الآية الكريمة في تفسيره "الأساس في التفسير" فانه عزوجل يريد من هذه الأمة أن تكون لديها المناعة ضد الحرب النفسية ، وضد حرب الإشاعات، وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به " الإذاعة " الإنشاء والنشر ، والأمن : السلامة والسلم ، والخوف : الخلل أو الخطر ، الهزيمة أو

(١) ابن كثير : ج ١ ، ص ٣٥٢ .

الإصابة ، والمراد أن هناك ناساً، إذا بلغهم الخبر عن سرايا المسلمين وجيوشهم ، كانوا يشيعونه ويذيعونه ، فيترتب على ذلك خلل في المجتمع الإسلامي ، ولذلك ربي رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين على التثبت ، ففي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن قيل وقال ، أي الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبر " (١).

ويضيف ﴿ ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم ﴾ : أي ولو ردوا الخبر، والإشاعة إلى رسول الله في حياته ، وكبار أصحابه البصراء في الأمور في زمانه ، أو لو ردوه إلى خلفائه وأمرء المسلمين من بعده ، " لعلمه الذين يستنبطونه منهم" أي لعلم تدبير ما أخبروا به الذين يستخرجون تدبيره ، وما ينبغي فعله ممن عندهم قدرة على ذلك بفتنتهم، وتجاربهم ومعرفتهم بأمور الحرب ، ومكايدها" (٢) وذكر هذا المعنى في جملة سياق الآيات حول السرايا والجهاد .

وذكر ابن كثير عن الآية قوله: وقوله ﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به﴾ إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها ، فيخبر بها ، ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة ، إلى أن يقول ابن كثير: "ولنذكر ههنا حديث عمر بن الخطاب المتفق على صحته ، حين بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق نساءه فجاء من منزله ، حتى دخل المسجد ، فوجد الناس يقولون ذلك ، فلم يصبر حتى استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فاستفهمه أطلقت نساءك؟ فقال : لا فقلت الله أكبر وذكر الحديث بطوله ، وعند مسلم، فقلت : أطلقتهن؟ فقال : لا فقلت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتي لم يطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه ونزلت هذه الآية ، وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف .." فكنت أنا أستنبطت ذلك الأمر ، ومعنى يستنبطونه أي يستخرجونه من معانده يقال : استنبط الرجل العين ، إذا حفرها واستخرجها من قعرها " (٣).

ويبرز موقف الرسول صلى الله عليه وسلم وتقويمه لأبي ذر رضي الله عنه عند ما طلب الإمارة من ضرورة معرفة المقوم للمقوم معرفة حقيقية ميدانية معرفة الخبير والمعاش . أخرج مسلم في الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه ، قال : قلت يا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ألا تستعملني؟ قال أبو ذر : فضرب الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) الأساس في التفسير : سعيد حوى ، دار السلام ، ج ٢ ص ١١٣٣ .

(٢) الأساس في التفسير : مرجع سابق ، ج ٢ ، ص ١١٣٤ .

(٣) ابن كثير : ج ١ ، ص ٥٠١ .

على منكبي ثم قال: يا أباذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزي وندامة ، إلا من أخذها بحقها ، وأدى الذي عليه فيها " (١).

انطلق هذا التقويم من التحليل الدقيق لعناصر الشخصية ومكوناتها حسب الواقع ، و معرفته والإحاطة به ، ثم إصدار القرار وفقاً لذلك ، وليس هذا طعناً بأبي ذر رض الله عنه ، كما قد يتوهم بعضهم ، وإنما اختيار الرجل للموقع الذي يناسبه ، ويتمكن من الإنتاج فيه ، وهذا أحد أغراض التقويم الهامة" (٢).

وتبين لنا آية سورة الإسراء قاعدة العلم والوقوف عند الإمكانيات وعدم تعديها ، فتذكر الآية الكريمة وسائل الحكم والتثبت والعلم ، وهي طاقات رئيسية وقدرات مهمة في التكوين البشري ، ولا يخرج عن إطارها ودائرتها أي موقف يريد الإنسان تقويمه ، أو الحكم عليه ، إنها السمع والبصر والفؤاد ، قال تعالى ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦] . إلى أن يقول : ﴿ كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها ، ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ﴾ [الإسراء: ٣٨-٣٩] .

يقول ابن كثير في ذلك : ﴿ ولا تقف ما ليس له بعلم ﴾ الآية ، وقال قتادة: ولا تقل : رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم ، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله . ومضمون ما ذكره أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم ، بل بالظن الذي هو التوهم والخيال ، كما قال الله تعالى ﴿ واجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ﴾ (٣).

و ورد ﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً ﴾ أي يسأل كل واحد منهم عما اكتسب ، فالفؤاد يسأل مما افترق فيه واعتقده ، والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع ، وقيل : المعنى إن الله سبحانه وتعالى يسأل الإنسان عما حواه سمعه وبصره وفؤاده ، ونظيره قوله صلى الله عليه وسلم " كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته " فالإنسان راع على جوارحه . فكانه قال : كل هذه كان الإنسان عنه مسئولاً .. وعبر عن السمع والبصر والفؤاد

(١) صحيح مسلم بشرح النووي: الإمام مسلم ، ج ١٢ ، كتاب الإمارة ، ص ٢٠٩ ، رقم ١٨٢٥ ، مكتبة الغزالي ومؤسسة مناهل العرفان .

(٢) مبادئ التقويم الأساسية في التربية الإسلامية الحديثة : أحمد جوهر محمد الحسن ، جامعة اليرموك ، الأردن ١٩٨٩م ص ٥٠ .

(٣) ابن كثير : ج ٣ ص ٣٩ .

بأولئك لأنها حواس لها إدراك ، وجعلها في هذه الآية الكريمة مسئولة فهي حالة من يعقل ،  
فلذلك عبر عنها بأولئك»<sup>(١)</sup>.

والعقيدة الإسلامية ناصعة واضحة لا تقوم على الظن والشبهة ولا تقف مالميس له به  
علم .. الآية .

هذه الكلمات القليلة تبرز منهجاً كاملاً للقلب والعقل ، يشمل المنهج العلمي المعاصر ،  
ويزيد عليه مراقبة الخالق ، فالتثبت من كل خبر أو ظاهرة أو حادثة قبل الحكم عليها هي  
دعوة القرآن الكريم . فإذا استقام القلب والعقل على ذلك ، لم يبق خرافة في دائرة العقيدة ،  
ولا مجال للظن في مجال الحكم والقضاء ولا مجال للأحكام السطحية ، والفروق الوهمية ،  
في مجال البحوث والتجارة والعلوم.

وهكذا يتقرر المنهج الكامل بين العقل والقلب في الأحكام والتثبت ، فلم يبق هناك شك ولا  
شبهة، إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم حقاً وصدقاً<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

(١) القرطبي : ج ١٠ ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٢) الظلال : ج ٤ ، ص ٢٢٢٧ (بتصرف) .

## **المبحث الخامس**

### **قاعدة الارتباط بالهدف والأخلاق**

## المبحث الخامس

### قاعدة الارتباط بالهدف والأخلاق

انطلاقاً من قاعدة ﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ وتقويم المجتمع عموماً والاهتمام به إلى الأحسن ، خاصة في نسيجه الاجتماعي ، وروابطه البنينة ، فإن قاعدة تحقيق الهدف والغرض عن طريق تعميق الأخلاق وسيادتها في المجتمع قضية جوهرية ، ومسألة أساسية في التقويم الذي يشكّل هنا أداة ووسيلة للوصول إلى التصحيح والنماء ، الذي هو الهدف من عملية التقويم كلها .

فعملية التقويم ليست غاية في حد ذاتها ، وإنما هي وسيلة يقصد منها تحقيق أغراض معينة من خلال الأخلاق الإسلامية ، سواء فيما يتعلق بالفرد أو المجتمع ، لأن كل ما في الكون له وظيفة يؤديها. وبخلاف هذا يكون العمل نوعاً من العبث ، لا قيمة له شرعاً وعقلاً، قال الله تعالى: ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لا عبين لو أردنا أن نتخذ لهم آيات فإنا لآخذونهم ﴾ [الأنبياء: ١٦-١٧] (١).

والسلوك العايب ، ومفهوم النقد لذات النقد ، والتقويم لذات التقويم ، والفن لذات الفن .. إلخ ، من المفاهيم المتداولة والمطبقة ، سلوك مرفوض ومفهوم مغلوط في التصور الإسلامي ابتداء ، يقول تعالى ﴿أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ فالخلق ذا غاية والوجود ذا هدف ، وما يدور ضمن ذلك في الدستور القرآني على هذا الأساس في إطار التقويم (ولا ريب) ذا غاية وذا هدف .

ولذلك يهدف التقويم إلى تطهير المجتمع من الفساد قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه، واتقوا الله إن الله تواب رحيم﴾ [الحجرات: ١٢].

والقرآن الكريم مليء بالآيات الكريمة والمواقف التي تقوّم السلوك البشري بمناسبات ، وغير مناسبات ليحقق الأغراض المجتمعية والفردية على حد سواء .

(١) مبادئ التقويم : ، مرجع سابق ، ص ٧٥.



ولارتباط غرضية التقويم بالأخلاق العالية ، يصف الله رسوله ويقوم أخلاقه بقوله ﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾ [ القلم: ٤ ] وقال الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يرويه أبو هريرة رضي الله عنه " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" <sup>(١)</sup> وكما أن التقويم غرضي يقصد به رقى المجتمع ، ورقى الأفراد نحو التكامل والرشاد، فإن انتهاج الأخلاق في التقويم ذاته صفة مطلوبة وقاعدة مهمة، إذ لا يُنتج الخلق إلا خلقاً والحسن إلا حسناً ، " فالرحمة والرفق وحسن المعاملة وغيرها من أخلاق الإسلام ، هي المنارة التي تضيء طريق العملية التقويمية أثناء تحركها لتحقيق أغراضها، إن تقويم الطباع يتوقف على نمو بذرة الخير والفضيلة فيها" <sup>(٢)</sup>.

والخلق عبارة عن هيئة راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير فكر وروية " <sup>(٣)</sup> وذكر بعضهم بأن الأخلاق أمر مكتسب" <sup>(٤)</sup>.

والأخلاق والخلق كثرة للتقويم يقصدها ويهدف إليها ، أو أنها لازمة من لوازمه ، وعنصر من عناصره ، قضية على ما نرجح مكتسبة فطرية في آن ، جبل الله الفطرة عليها، فالنفس البشرية تعشق الخير والجمال والفضيلة ، وإن مارست ضدها ، وهي كذلك يمكن أن تكتسبها بالتمارين والترويض والتربية والتقويم .

ويجد المنتبِع للقرآن الكريم في فترتيه المكية والمدنية ، وفي جميع مجالات الحياة مع كل الشرائح ، والمخلوقات ، أن الغرضية وتحقيق الهدف هو المقصود من عملية التقويم الجارية ، في مجال العقيدة والفكر ، وفي مجال الاجتماع البشري ، وفي مجال الأخلاق ، وفي مجال الحكم ، والإدارة، في الجهاد والقتال ، في الأحكام والحدود ، ... الخ . ولذلك فهي عملية شاملة غرضية هادفة ، مما تُشكّل خارطة واسعة متشابكة من منهجية التقويم في الحياة الإسلامية .

لذلك وجب على الذين يتولون عملية تقويم مفاهيم الناس وتصحيح سلوكهم ، وتهذيب طباعهم، أن يتصبروا على ما يلاقون ، وإن كانوا يقصدون طاعة الله والافتداء برسوله

(١) فيض القدير شرح الجامع الصغير : محمد عبد الرحمن المناوي ط ٢ بيروت دار المعرفة ١٩٧٣ .

(٢) مبادئ التقويم : مرجع سابق ، ص ٨٠ .

(٣) النظام الأخلاقي في الإسلام: د. محمد عقل ، عمان مكتبة الرسالة ، ص ١٣ .

(٤) الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة: أحمد السمراي ، بيروت ، دار النفائس ، سنة ١٩٨٨ ص ١٨ .

صلى الله عليه وسلم وتحقيق مصلحة الناس كما قال تعالى ﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ [آل عمران : ١٥٩].

وقال جل ذكره : ﴿ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴾ [آل عمران: ١٤٢] .

ومن صور التقويم المرتبطة بدلالة الأهداف وربط السلوك بالهدف :

روى الحارث بن مالك رضي الله عنه أنه عندما خرج المسلمون مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى حنين نظروا ، فرأوا شجرة سدر كبيرة خضراء ، فتذكروا " ذات أنواط " وهي الشجرة التي اعتاد المشركون من العرب أن يجلسوا تحتها ويذبحوا ذبائحهم ويعلقوا أسلحتهم عليها ، قال : فقلنا : يا رسول الله صلى الله عليه وسلم اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط فقال النبي صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، لقد قلتُم كالذي قالت بنو إسرائيل لموسى " أجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال بل أنتم قوم تجهلون " (١).

فلما نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى هذا الطلب الذي يتعارض مع هذه الدعوة ، أجابهم مستخدماً المثل الذي وقع لموسى عليه السلام مع قومه حينما طلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً مما تصنعه الأيدي ، كالقوم الذين مروا بهم ، وهم يعبدون الأصنام ، فكان لهم للمثل أكبر الأثر على تقويم ما في أنفس الصحابة ، وردهم إلى ما يتفق ومقاصد الاعتقاد والتحرر من مظاهر الشرك ، كيفما كانت وبأية صورة كانت (٢).

ويقوم الرسول صلى الله عليه وسلم الموقف لغرض تثبيت العقيدة الصحيحة في النفوس ، إذ هي المعيار الأول في تقويم التوجهات والأفكار ، ومن ثم السلوك والأخلاق في التصور الإسلامي .

إن القدرة على ربط السلوك بالأهداف التربوية هي أمور يجب توفرها لدى القائمين على عملية التقويم لنجاح العملية التربوية (٣).

ويستفاد من هذه الصور التقويمية العقديّة:

(١) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام : عبد الرحمن بن عبد الله السهيلي ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة سنة ١٩٦٧م.

(٢) مبادئ التقويم : مرجع سابق ، ص ٥٢.

(٣) مبادئ التقويم : مرجع سابق ، ص ٥٣.

أ- عدم الاكتفاء بظواهر الأمور ، بل يجب التعمق للتعرف على دوافع السلوك <sup>(١)</sup>.

ب - القدرة على تكوين الأحكام وإصدار القرارات <sup>(٢)</sup> وفي مقام توجيه الله لموسى عليه السلام عبر رسالته الدعوية مع فرعون وهو يَقُومُ وضعه وما هو عليه من تكبر وطغيان وتألّهه يقول عز وجل ﴿ اذهب أنت وأخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري ، اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولاً ليلاً لعله يتذكر أو يخشى ، قالوا ربنا إنما نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ، قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ﴾ [طه: ٤٢-٤٦] .

ويظهر هنا أن الله قد قوّم حال فرعون وحكم عليه بالطغيان وهو أعلم بحاله ، وقد بين الحق عز وجل وسيلة التقويم وهدفها ، فالقول اللين الذي لا يثير العزة بالإثم ولا يستجمع صفة الكبرياء والجبروت والعناد عند الفراعنة والطواغيت هو الأسلوب المناسب لتقويم فرعون ودعوته و تحض باطله ، وهدف ذلك هو مظنة أن يتذكر ويعتبر ويهتدي ويخشى .  
وعندها أفصح موسى وأخوه هارون تخوفهما من إفراط فرعون وطغيانه ، وجاء السند من الله عز وجل أنه معهما يسمع ويرى ما سيحصل ، وذلك طمأنينة لهما وتثبيتاً لإكمال جولتهما الدعوية بتقويم حال فرعون وإصلاحه ، والشاهد مما سبق أن تقويم فرعون وإصلاح أمره ارتبط بخلق اللين واللفظ معه وهدف ذلك هو هدايته وخشيته . فالأمر ليس مناقفة ومخاصمة ومعارك خاسرة مع المعاندين إنما خلق وهدف بارز معلوم .

\*\*\*

<sup>(١)</sup> دراسات في الفكر التربوي الإسلامي : عبد الرحمن صالح عبد الله ، عمان ، دار البشير ومؤسسة الرسالة ، ١٩٨٨م ، ص ١٢٤ سنة ١٩٨٨م .

<sup>(٢)</sup> البحث والتقويم التربوي : أحمد الخطيب وآخرون ، عمان ، دار المستقبل ١٩٨٥م ص ١٩٧ .

# الفصل الثاني

## مجالات التقييم

# الفصل الثاني

## مجالات التقويم

وفيه أربعة مباحث:

**المبحث الأول : مجال تقويم المخلوقات ( الإنسان ، الحيوان ، الجن ) وفيه ثلاثة مطالب:**

المطلب الأول: تقويم جنس الإنسان

المطلب الثاني: تقويم الحيوان

المطلب الثالث : تقويم الجن

**المبحث الثاني: مجال تقويم المعتقدات والمبادئ ، وفيه ثلاثة مطالب:**

المطلب الأول : تقويم عقائد أهل الكتاب

المطلب الثاني : تقويم العقائد والمبادئ في القصص القرآني

المطلب الثالث: تقويم عقائد مشركي العرب وأفكارهم

**المبحث الثالث: مجال تقويم الأفعال والأعمال ، وفيه ثلاثة مطالب :**

المطلب الأول : تقويم الأعمال في ميدان الجهاد

المطلب الثاني : تقويم الأعمال في ميدان الوزن والكيل والبيع والشراء

المطلب الثالث : تقويم الأعمال بشكل عام

**المبحث الرابع: مجال التقويم الذاتي ، وفيه ثلاثة مطالب :**

المطلب الأول : التقويم الذاتي في دائرة الإيمان وأهله

المطلب الثاني : التقويم الذاتي في دائرة الانحراف وأهله

المطلب الثالث : ضوابط ومعايير التقويم الذاتي

## **المبحث الأول**

### **مجال تقويم المخلوقات ( الإنسان ، الحيوان ، الجن )**

**وفيه ثلاثة مطالب**

**المطلب الأول: تقويم جنس الإنسان**

**المطلب الثاني: تقويم الحيوان**

**المطلب الثالث : تقويم الجن**

## تمهيد:

التقويم كمنهج قرآني يطال مجالات الحياة كلها ، وذلك لشمول منهج القرآن في معالجة الحياة وصلاحيته لحكمها وبنائها في كل زمان ومكان ، ولا نقصد هنا تقويم الإنسان وما يصدر عنه من أفكار ، وأعمال وإنجازات ، و خير وشر ، وإيمان وكفر إنما نهدف إلى تقويمه كمخلوق في ذاته وما جبل عليه من طبائع وملكات، وما أعطي له من قيمة ومكانة في خلق الله وكونه عموماً ، وسنأتي أثناء مباحث هذا الفصل على مجالات تقويم أخرى للإنسان ، في أفكاره ، وعقائده وأعماله وأساليبه وأقوامه ، وتقويمه لذاته ابتداءً ، بالأنبياء والرسل ، وانتهاءً بالإنسان كمكلف ببرنامج الأمانة الدنيوية .

ونعرض كذلك في هذا المبحث لتقويم بعض المخلوقات غير الإنسان ، لما لذلك من فوائد ووقفات تفيد في إثبات شمول منهج التقويم للحياة كلها.

ومعروف أن الله ضرب أمثلة في الحيوان على صور متعددة ، من البعوضة إلى الحمار ، إلى النملة فالنحلة ، فالهدد ، وكذلك ﴿الخنزير والبيغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾ ونعرض هذا المبحث حسب المطالب التالية :

### (أ) المطلب الأول: تقويم جنس الإنسان:

وردت منهجية تقويم الإنسان على اعتبار جنس الإنسان عبر آيات عديدة في سور عديدة من القرآن الكريم ، تحدد صفات وطاقت عديدة لهذا المخلوق ، فوصف بالعجلة ، والضعف ، والجدل ، والكرامة ، والكبر والبصيرة ، وأنه خلق من طين ، ومن نطفة من ماء مهين ، ومن نطفة أمشاج ، ووصف كذلك بالظلم ، والقنور والجهل ، بل إن سورة بأكملها سميت سورة الإنسان تحمل الرقم (٧٦) في ترتيب المصحف الشريف وآياتها ٣١ آية ، وهي سورة مدنية ، وسنطوف في ظلال هذه الآيات ونطلع على معانيها ، وما قاله العلماء والمفسرون بشأنها ، محاولين استنتاج ما يصب في مادة هذا المبحث في منهجية تقويم القرآن للإنسان كإنسان .

## ١- ما ورد في سورة الإنسان :

قال تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ [ الإنسان : ١-٣ ] .

يقول الإمام ابن كثير عند تفسيره للآيات السالفة: " يقول الله تعالى مخبراً عن الإنسان أنه أوجده بعد أن لم يكن شيئاً يذكر لحقارته وضعفه ، فقال تعالى ﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ﴾ ثم بين ذلك فقال جل جلاله ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه ﴾ أي أخلاط ، والمشج والمشيج الشيء المختلط بعبءه ببعض ، قال ابن عباس رضي الله عنه في قوله تعالى ﴿ من نطفة أمشاج نبتليه ﴾ يعني ماء الرجل وماء المرأة إذا اجتمعا واختلطا . ثم ينتقل بعد من طور إلى طور ، ومن حال إلى حال ، ومن كون إلى كون ، وقوله تعالى : " نبتليه " أي نختبره "فجعلناه سميعاً بصيراً" أي جعلنا له سمعاً وبصراً يتمكن بهما من الطاعة والمعصية ، وقوله تعالى ﴿ إنا هديناه السبيل ﴾ أي بيناه ووضحناه وبصرناه به ، وقوله تعالى ﴿إما شاكراً وإما كفوراً﴾ تقديره فهو في ذلك إما شقي وإما سعيد<sup>(١)</sup> .

" وقيل : أي كان جسداً مصوراً تراباً وطيناً ، لا يذكر ولا يعرف ، ولا يدري ما اسمه وما لا يراد به ، ثم نفخ فيه الروح ، فصار مذكوراً ... قال قتادة : إنما خلق الإنسان حديثاً ما نعلم من خليفة الله جل ثناءه خليفة كانت بعد الإنسان ... وقد قيل : الإنسان في قوله تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين ﴾ عني به الجنس من ذرية آدم ، وأن الحين تسعة أشهر ، مدة حمل الإنسان في بطن أمه " لم يكن شيئاً مذكوراً " إذ كان علقة ومضغة ، لأنه في هذه الحالة جماد ولا خطر له " <sup>(٢)</sup> .

ويورد صاحب الظلال إحياءات جميلة حول الآيات السابقة من سورة الإنسان نوجزها باختصاراً:

(١) ابن كثير : ج ٤ ، ص ٤٥٣ .

(٢) القرطبي : جزء ١٩ ، ص ١١٩-١٢٠ .



▪ واحدة منها ترجع بالنفس إلى ما قبل خلق الإنسان ، كيف ترى الكون كان بدون الإنسان ، وهذا الإنسان مغرور في نفسه وقيمته ، حتى إنه ربما ينسى أن كان الكون ، ولم يكن الإنسان .

▪ وأخرى تتوجه بالنفس إلى لحظة إيجاد هذه الخليقة ، ما دورها المقدر في خط هذا الكون الطويل.

▪ وأخيرة تتأمل قدرة الخالق سبحانه وهو يخلق هذا الإنسان لدور يعلمه ، مترابط مع الوجود كله مع رعاية وترابط مشدود مع خيوط هذا الوجود كله (١) .

إلى أن يقول : " ويشعر الإنسان بجديّة الأمر ودقته بعد هذه اللمسات الثلاث ، ويدرك أنه مخلوق لغاية ، وأنه مشدود إلى محور ، وأنه مزود بالمعرفة فمحاسب عليها ، وأنه هنا ليبتلى ، ويجتاز الابتلاء ، فهو في فترة امتحان يقضيها على الأرض ، لا في فترة لعب ولهو وإهمال ! (٢) .

وإنني ألمس إضافة إلى ما سبق حول الآيات الكريّمات نقطتين هما :

أ. كأن الله عز وجل أراد أن ينبه الإنسان إلى منشأه ، كيف كان ؟ وكيف أتى ؟ وما هي قيمته ؟ ومما يتكون ؟ وما ذا أنعم الله عليه ؟ وكيف كرم وجمل برنامج الاختبار الدنيوي ؟ ليعرف بذلك عمق الميزان ؟ ومعيّار التقويم الذي يجب أن يعرفه ابتداءً بنفسه قبل أن يعيشه حسب برنامجه في الابتلاء والاختبار الدنيوي ، والذي بدوره سيسهل عليه البرنامج إن هو فقه المسألة وفهم الحقيقة والدور .

ب. يقود ذلك إلى أن قمة النجاح في برنامج الابتلاء الدنيوي هو : الرجوع للذات على حقيقتها في ذاتها ، وعلى حقيقتها في فعلها ، ثم يكون التوسع الخارجي لما حولها في تقويم البرنامج، وتصحيح مسيرته الذاتية في نفسه ، ومن ثم خارج نفسه .

٢- ما ورد في سورة عبس :

لسورة عبس حسب رأينا ميزة خاصة في منهجية التقويم ، إذ بدأت ميزان التقويم الرباني عن طريق ما حدث مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقصته المشهورة مع ابن

(١) انظر الظلال: ج ٦ ، ص ٣٧٧٩ .

(٢) الظلال: ج ٦ ، ص ٣٧٨٠ .

أم مكتوم رضي الله عنه، بدأت به بشخص الرسول صلى الله عليه وسلم دون مواربة ولا غموض .

يقول تعالى في إحدى مقاطع السورة : ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ! من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره ، كلا لما يقض ما أمره ﴾ [عبس: ١٧-٢٣].

ومرة ثانية يقوم الله عز وجل الإنسان بلفت نظره إلى أصل منشأه ومما هو - وما هي نعم الله عليه من التيسير إلى الموت إلى النشور، مع أنه لم يقض ما أمره الله به ، لذلك أطلق عليه بتعجب شديد ما أكفره . يورد صاحب الظلال عند وقوفه مع هذا المقطع من السورة فيقول :

" يعجب السياق في المقطع الثاني من أمر هذا الإنسان ، الذي يعرض عن الهدى ، ويستغني عن الإيمان ، ويستعلى على الدعوة إلى ربه ... يعجب من أمر كفره ، وهو لا يذكر مصدر وجوده ، وأصل نشأته ، ولا يرى عناية الله به ، وهيمته كذلك على كل مرحلة من مراحل نشأته في الأولى والآخرة ، ولا يؤدي ما عليه لخالقه وكافله ومحاسبه . قتل الإنسان : فإنه ليستحق القتل على عجيب تصرفه ... فهي صيغة تفضيح ، وتقبيح ، وتشنيع لأمره ... .

ما أكفره : ما أشد كفره ، وجوده ، ونكرانه لمقتضيات نشأته وخلقه ، ولو رعى هذه المقتضيات لشكر خالقه ، ولتواضع في دنياه ، ولذكر آخرته .

والأفعال يتكبر ، ويستغنى ، ويعرض ؟ وما هو أصله وما هو مبدؤه ؟ من أي شيء خلقه ؟ ... إنه أصل متواضع زهيد ، يستمد كل قيمته من فضل الله ونعمته ، ومن تقديره وتدبيره .

من نطفة خلقه فقدره : من هذا الشيء الذي لا قيمة له ، ومن هذا الأصل الذي لا قوام له ... ولكن خالقه هو الذي قدره ، قدره من تقدير الصنع وإحكامه . قدره : من منحه قدراً وقيمة فجعله خلقاً سوياً ، وجعله خلقاً كريماً ، وارتفع به من ذلك الأصل المتواضع إلى المقام الرفيع الذي تسخر له فيه الأرض وما عليها .

" ثم السبيل يسره " فمهد له سبيل الحياة ، أو مهد له سبيل الهداية " (١) .

(١) الظلال : ج ٦ ، ص ٣٨٣١ .

### ٣- ماورد في سورة القيامة :

﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ [ القيامة : ١٤-١٥ ] .  
فأساس معرفة النفس ، وسبر غورها ، والعلم بحقيقتها ، والمروض الحقيقي لها ،  
ومالك زمامها ، وموجه فعلها نحو النجدين هو الإنسان نفسه ، فملازمته لها دائمة ، شهوده  
المادي والمعنوي عليها ثابت في الأولى والآخرة ﴿ يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم  
وأرجلهم بما كانوا يعملون ﴾ وكذلك الشهود الحاضر الواضح من نفسه عليه ﴿ اقرأ كتابك  
كفى بنفسك اليوم حسيباً ﴾ .

وتظهر هنا الحقيقة العميقة ، والميزان الأصيل في أهمية تقويم النفس الإنسانية لذاتها  
هي أولاً وقبل كل شيء ، لذلك " بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره " على  
الغير ، وخرج من دائرة اللوم والتقويم الذاتي ، إلى دائرة المعاذير والإلقاء على الخارج ،  
لما في ذلك من هروب مؤقت ترتاح له النفس قليلاً لتغطي نقصها ، وتستر عورتها ،  
وعجزها عن المواجهة الحقيقية ، والحل الأمثل الذي يسد الذريعة ، ويقوم الإعوجاج وهو  
الاعتراف بالخطأ وتقويم الذات .

وقد أورد القرطبي معنى مناسباً عند وقوفه على الآيتين السابقتين وهو يناقش أقوال  
العلماء حول الآيتين فقال : وقيل : أي لو اعتذر فقال : لم أفعل شيئاً لكان عليه من نفسه من  
يشهد عليه من جوارحه ، فهو وإن اعتذر وجادل عن نفسه ، فعليه شاهد يكذب عذره (١) .

### ٤- ما ورد في سورة الطارق :

وهي مكية من قصار السور ، قال الله تعالى لافتاً نظر الإنسان إلى تكوينه ومما هو ،  
على نفس منهج السورتين السابقتين سورة عبس وسورة الإنسان ﴿ فلينظر الإنسان مما خلق  
خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر  
فما له من قوة ولا ناصر ﴾ [الطارق : ٥-١٠] .

ولأهمية الانطلاقة الصحيحة في معرفة الإنسان نفسه ، وتقويمه لها ضمن منهج ربها ،  
تؤكد الآيات دوماً على النظر ، والتفكر في مادة الصنع الأولى ، من أين جاءت ؟ وكيف  
تكونت ؟ ولكنها عادت فسمت بعد مهانة وأكرمت بعد ضعف - لأن لها دوراً حاسماً ومكانة

(١) القرطبي: جزء ١٩ ، ص ١٠٠-١٠١ .

مرموقة في سجل الكون وميدان الحياة ، حتى ترجع إلى موجدتها ، وتُكشف سرانها ، فلا ناصر ولا معين ، إلا حسب ملف العمل ، وسجل التقويم .

و قوله تعالى " فلينظر الإنسان " أي ابن آدم " ممَّ خُلق " وجه الاتصال بما قبله توصية الإنسان في النظر في أول أمره وسنته الأولى ، حتى يعلم أن من أنشأه قادر على إعادته وجزائه ، فيعمل ليوم الإعادة والجزاء ، ولا يملي على حافظه إلا ما يسره في عاقبة أمره " (١) .

وقوله تعالى " فلينظر الإنسان مم خلق " تنبيه للإنسان على ضعف أصله الذي خلق منه ، وإرشاد له إلى الاعتراف بالمعاد ، لأن من قدر على البداءة فهو قادر على الإعادة بطريق الأولى كما قال تعالى ﴿ وهو الذي يبدأ الخلق يم يعيده وهو أهون عليه ﴾ (٢) .

#### ٥- ما ورد في سورة التين :

تبرز السورة هنا قيمة الإنسان وحقيقة فطرته القويمة ، وطبيعته المستقيمة مع الإيمان وسفوله حين يحيد عن الاستقامة والفطرة ، يقول تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن التقويم ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ [ التين : ٤-٥ ] .

يذكر صاحب الظلال - بعد تعليقه على بداية السورة - الحقيقة الرئيسية التي تعرضها السورة فيقول : " فأما الحقيقة الداخلية في السورة فهي هذه " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون " ومنها تبدو عناية الله بخلق هذا الإنسان ابتداء في أحسن تقويم والله - سبحانه - أحسن كل شيء خلقه ، فتخصيص الإنسان هنا وفي مواضع قرآنية أخرى بحسن التركيب ، وحسن التقويم ، وحسن التعديل ... فيه فضل عناية بهذا المخلوق ، وإن عناية الله بأمر هذا المخلوق - على ما به من ضعف وعلى ما يقع منه من انحراف عن الفطرة وفساد - لتشير إلى أن له شأنًا عند الله ، ووزناً في نظام هذا الوجود، وتتجلى هذه العناية في خلقه وتركيبه على هذا النحو الفائق ، سواء في تكوينه الجسماني البالغ الدقة والتعقيد ، أم في تكوينه العقلي الفريد ، أم في تكوينه الروحي العجيب " (٣) .

(١) القرطبي : جزء ٢٠ ، ص ٤ .

(٢) ابن كثير : ج ٤ ، ص ٤٩٩ .

(٣) انظلال : ج ٦ ، ص ٣٩٣٣ .

وعلى طريقة القرآن في اكتمال صورة العرض والتقويم للأشياء ، والمواقف ، والأعمال، والأحداث ، يُبرز هنا صفة الإنسان الحقيقية ، وميزته الربانية ، فيكتمل بذلك جانب الصورة الآخر، ووجها العلوي للإنسان ، هذا الذي بدأ من ماء مهين في قرار مكين، إلى أن أصبح في أحسن تقويم ، واعتدال ورقي ، وهذه المعادلة مرتبطة في أي جانب من جوانبها علواً ، أو تسفلاً مع رباط الإيمان والالتزام ، وحسن التقويم في العلو، ومع الانحراف والحيده عن رباط الإيمان في التسفل .

وقيل : المراد بالإنسان آدم وذريته " في أحسن تقويم " وهو اعتداله واستواء شبابه ، كذا قال عامة المفسرين ، وهو أحسن ما يكون، لأنه خلق كل شيء منكباً على وجهه ، وخلقته هو مستوياً، وله لسان ذلق ، ويد وأصابع يقبض بها ، وقال أبو بكر بن طاهر : مزيناً بالعقل ، مؤدياً ، للأمر مهدياً بالتمييز ، مديد القامة يتناول مأكوله بيده . ابن العربي : " ليس لله تعالى خلق أحسن من الإنسان ، فإن الله خلقه حياً عالماً ، قادراً مريداً متكلماً ، سميعاً بصيراً مدبراً حكيماً وهذه صفات الرب سبحانه ، وعنها عبر بعض العلماء .

وأرود القرطبي قصة لطيفة في مجال تكريم الإنسان وأنه أفضل المخلوقات وأحسنها " كان عيسى بن موسى الهاشمي يحب زوجته حباً شديداً فقال لها يوماً : أنت طالق ثلاثاً إن لم تكوني أحسن من القمر ، فنهضت واحجبت عنه ، وقالت: طلقنتي ! وبات بليلة عظيمة ، فلما أصبح غدا إلى دار المنصور ، فأخبره الخبر ، وأظهر للمنصور جزعاً عظيماً ، فاستحضر الفقهاء واستفتاهم ، فقال جميع من حضر : قد طلقنت ، إلا رجلاً واحداً من أصحاب أبي حنيفة ، فإنه كان ساكتاً. فقال له المنصور : مالك لا تتكلم ؟ فقال له الرجل : بسم الله الرحمن الرحيم ، والتين والزيتون وطور سنين وهذا البلد الأمين لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ، يا أمير المؤمنين ، فالإنسان أحسن الأشياء ولا شيء أحسن منه ، فقال المنصور لعيسى بن موسى : الأمر كما قال الرجل فاقبل على زوجتك ، وأرسل أبو جعفر المنصور إلى زوجة الرجل :

إن اطيعي زوجك ولا تعصيه ، فما طلاقك .

إلى أن يقول : " فهذا يدلك على أن الإنسان أحسن خلق الله باطناً وظاهراً .

جمال هيئة ، وبديع تركيب ؛ الرأس بما فيه ، والصدر بما جمعه ، والبطن بما حواه، والفرج وما طواه ، واليدان وما بطشتاه ، والرجلان وما احتملتاه .

ولذلك قالت الفلاسفة : إنه العالم الأصغر إذ كل ما في المخلوقات جمع فيه وقول الله تعالى ﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴾ أي إلى أرذل العمر ، وهو الهرم بعد الشباب ، والضعف بعد القوة ، حتى يصير كالصبي في الحال الأول ، قاله الضحاك والكلبي وغيرهما (١).

١- مارود في سورة العاديات :

قال تعالى ﴿ إن الإنسان لربه لكنود وإنه على ذلك لشهيد ، وإنه لحب الخير لشديد ﴾ [العاديات: ٦-٧] .

وتقويم آخر لهذا الإنسان العجيب الغريب ، الذي تجمع فيه المتناقضات في آن ، فمادته نطفة قدرة وجيفة مذرة ، وسمعه وبصره وعقله وقوامه وخلقته في أحسن تقويم ، ثم هو مرتفع المكانة عالي المنزلة بصفة الإيمان والالتزام ، مركوس القيمة، سافل المستوى ، بصفة الضلال والانحراف .

وهو هنا في سورة العاديات كنود ، جحود ، حسود ، غير شاکر ، كفور ، يشهد على نفسه بأفعاله السلبية هذه ، وترتبط صفة الجحود والبخل بحب المال حباً شديداً فيدخر ولا ينفق .

يقول القرطبي : " أي طبع الإنسان على كفران النعمة ، قال ابن عباس رضي الله عنهما لکنود : لكفور جحود لنعم الله ، وكذلك قال الحسن ، وقال : يذكر المصائب وينسى النعم ، وقيل : هو الذي يكفر اليسير ، ولا يشكر الكثير ، وقيل : الجاحد للحق ، وقيل : إنما سميت كندة كندة لأنها جحدت أباه .

وقيل : الكنود : من كند إذا قطع ، كأنه يقطع ما ينبغي أن يواصله الشكر ، وقال أبو بكر الوراق : الكنود : الذي يرى النعمة من نفسه وأعوانه ، وقال الترمذي : هو الجهول لقدره ، وقال ذو النون المصري : الهلوع ، والكنود : هو الذي إذا مسه شر جزوع ، وإذا مسه الخير منوع ، قلت: هذه الأقوال كلها ترجع إلى معنى الكفر وإلى قوله تعالى ﴿ وإنه على ذلك لشهيد ﴾ أي وإن الله عزوجل ثناؤه على ذلك من ابن آدم لشهيد .. وهو قول أكثر المفسرين .

قوله تعالى " وإنه " أي الإنسان من غير خلاف " لحب الخير" أي المال (٢).

(١) انظر القرطبي : ج ٢٠ ، ص ١١٤-١١٥ .

(٢) انظر القرطبي : ج ٢٠ ، ص ١٦٠-١٦٢ .

" إن الإنسان ليجحد نعمة ربه وينكر جزيل فضله ، ويتمثل كنوده وجحوده في مظاهر شتى تبدو منه أفعالاً وأقوالاً ، فتقوم عليه مقام الشاهد الذي يقرر هذه الحقيقة بالكنود والجحود ، وإنه على ذلك لشهيد ، ويوم ينطق بالحق على نفسه حيث لا جدال ولا مجال " وإنه لحب الخير لشديد " فهو شديد الحب لنفسه ومن ثم يحب الخير ، ولكن كما يتمثله مالا وسلطة ، ومتاعاً بأعراض الحياة الدنيا " (١).

#### ٧- ما ورد في سورة هود :

في قوله تعالى ﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤوس كفور ، ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته ليقولن ذهب السيئات عني إنه لفرح فخور ، إلا الذين صبروا ، وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ [ هود: ٩-١١ ] وتظهر طبيعة هذا المخلوق عند المنحة والمحنة جلية واضحة . لا يسترها ساتر ، ولا يخفيها خاف ، فهو يؤوس كفور في أجواء المحنة وينقلب إلى فرح فخور عند المنحة . فلا يثبت على الاستقامة في كلا الطرفين إلا صنف المؤمنين ، وهذا تقويم عادل من الرب تعالى ، إذ لو بقي الأمر على هذا التعميم لتبادر للذهن أن الإنسان جنس الإنسان لا خير فيه ولا سمو عنده أبداً . ويخبر تعالى عن الإنسان وما فيه من الصفات الذميمة إلا من رحم الله من عباده المؤمنين ، أنه إذا أصابته شدة بعد نعمة حصل له بأس وقنوط من الخير بالنسبة إلى المستقبل ، وكفر وجحود لماضي الحال ، كأنه لم ير خيراً ، ولم يرجُ بعد ذلك فرجاً ، وهكذا إن أصابته نعمة بعد نعمة ، ﴿ ليقولن ذهب السيئات عني ﴾ أي يقول ما ينالني بعد هذا ضيم ولا سوء ﴿ إنه لفرح فخور ﴾ أي فرح بما في يده بطرف فخور على غيره ، قال الله تعالى ﴿ إلا الذين آمنوا ﴾ أي على الشدائد والمكاره ﴿ وعملوا الصالحات ﴾ أي في الرخاء والعافية " (٢).

#### ٨- ما ورد في سورة يونس :

قال تعالى ﴿ وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ [ يونس: ١٢ ].

(١) الظلال: ج ٦ ، ص ٣٩٥٨ .

(٢) ابن كثير : ج ٢ ، ص ٤٢٠ .

وهنا صفة من صفات الإنسان يُقَوِّمُ بها من ربه فهو يدعو عند الضرر في جميع حالاته ، وعند ذهاب الضرر عنه بأمر الله يستمر على ما كان عليه ، وينسى ما كان تم له من عافية ودفع ضرر .

قيل المراد بالإنسان هنا الكافر ، وقيل هو أبو حذيفة بن المغيرة المشرك ، تصيبه البأساء والشدة والجهد .

قلت وهذه صفة كثير من المخلصين الموحدين ، إذا أصابته العافية مر على ما كان عليه من المعاصي ، فالآية الكريمة تعم الكافر وغيره " (١) .

ويؤكد صاحب الظلال على معنى تنذب الإنسان في ازدواجية عجيبة بين شدته ورخائه إلا (صنف المؤمنين) فيقول:

" إنها صورة مبدعة لنموذج بشري مكرور ... وإن الإنسان ليظل مدفوعاً مع تيار الحياة يخطئ ويذنب ويطنغى ويسرف ، والصحة موفورة ، والظروف مواتية ، وليس - إلا من عصم الله ورحم - من يتذكر إبان قوته وقدرته ، أن هناك ضعفاً ، وأن هناك عجزاً ، وساعات الرخاء تنسي ، والإحساس بالغنى يطغي ... ثم يمسه الضرر ، فأذا هو جزوع هلوع ، وإذا كثير الدعاء عريض الرجاء ضيق بالشدة ، مستعجل للرخاء .

فإذا استجيب الدعاء ، وكشف الضرر ، انطلق لا يعقب ولا يفكر ولا يتدبر ، انطلق إلى ما كان من قبل من اندفاع واستهتار " (٢) .

وتقويم الرب للإنسان بهذا الحال ، يرجع فيما نقدر إلى حقيقة ضعف الإنسان - وهو سبحانه خالقه - فيتذلل عند الضعف والحاجة ، وينسى ولا يبالي عند الرخاء .

#### ٩- ما ورد في سورة إبراهيم :

قال تعالى : ﴿ وَأَتَكُم مِّنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ فَإِن تَعَدَّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار ﴾ [ إبراهيم : ٣٤ ] .

" وإن تعدوا نعمة الله " أي نعم الله لا تحصوها ولا تطيقوا عدها ، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها ، كالسمع والبصر وتقويم الصور إلى غير ذلك من العافية والرزق ، وهذه النعم من الله ، فلم تبدلون نعمة الله بالكفر !؟

(١) القرطبي : جزء ٨ ، ص ٣١٧ .

(٢) الظلال : ج ٣ ، ص ١٧٦٩ .



هلا استعنتم بها على الطاعة؟! " إن الإنسان لظلوم كفار" الإنسان جنس وأراد به الخصوص ، قال ابن عباس : أراد أبا جهل ، وقيل جميع الكفار " (١) .

## ١٠- ما ورد في سورة النحل :

قال تعالى : ﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ [ النحل : ٤ ] .  
في إطار مواضيع السورة حول الخلق ، ومشاهد الكون في مجال تثبيت العقيدة ، ومعالجة موضوعاتها كما هي السور المكية ، يأتي الكلام هنا عن الإنسان ليعرضه كموضوع من مواضيع هذا المشهد الكبير فيذكر أصله ، ويقوم فعله المخاصم المبين لخالقه وربيه ، وإنه لأمر عجيب من هذا المخلوق المكابر المعاند المخاصم دوماً ، ولكنها الفطرة ، والحال الذي يظهر عبر فترات عمر هذا الإنسان منذ وُجد على وجه البسيطة ( إلا من رحمه الله ) يقول صاحب الظلال في هذا المجال :

" خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين " ويا لها من نقلة ضخمة بين المبدأ والمصير ، بين النطفة الساذجة ، والإنسان المخاصم المجادل الذي يخاصم خالقه ، فيكفر به ، ويجادل في وجوده ، أو في وحدانيته ، وليس بين مبدئه من نطفة ، وصيرورته إلى الجدل والخصومة ، فارق ولا مهلة " (٢) .

ويذكر ابن كثير : " قوله تعالى : " خلق الإنسان من نطفة " لما ذكر الدليل على توحيده ، ذكر بعده الإنسان ومناكذته ، وتعدى طوره . والإنسان اسم للجنس . وروي أن المراد به أبي بن خلف الجمحي ، جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم بعظم رميم فقال : أترى يحيى الله هذا بعد ما قد رمم " (٣) .

ونود هنا قبل الاستمرار في التنقل ، والتجوال بين سور القرآن لتحديد بعض الآيات التي قوِّمت هذا الإنسان ، وشخصت حقيقته ، ونقدت مادته وأصله ، وما آل إليه من فعل وعمل ، وكان عليه من صفات - وذلك على سبيل المثال لا الحصر - أن نقف وقفات في إطار مادة هذا البحث ، وهو تقويم الإنسان لمجرد أنه إنسان ، كمجال من مجالات منهج التقويم القرآني .

(١) القرطبي: جزء ٩ ، ص ٣٦٧ .

(٢) الظلال : ج ٤ ، ص ٢١٦٠ .

(٣) القرطبي : ج ١٠ ، ص ٦٨ .

أ- ابتداء فقد ركزنا على الآيات موضع الشاهد من المبحث ، وهو ذكر الإنسان وتقويمه فقط ، ولم نشأ ذكر الآيات التي سبقت ، أو تلت تلك الآيات المحددة ، خشية الإطالة والتوسع ، رغم أن بعض الآيات لها مساس بصورة أو أخرى في الشاهد المذكور .

ب- رغم أن الآيات المحددة قدر ركزت على تقويم الإنسان في مجال تحديد قيمته ، ومادته وصفاته بالدرجة الأولى كتشخيص وصفي ، إلا أنه من المعروف بأن القرآن يقوم بهذا من أجل الوصول إلى الهدف النهائي ، والنتيجة المقصودة التي تقود إليها مقاطع السور حول الأحداث والمواقف المقومة من أجل التحسين ، والتعديل والتطوير المطلوب ، فتحدد بذلك ضرورة غائية التقويم ومقصوده للخروج من مجرد النقد لذات النقد ، أو التقويم لذات التقويم .

ج- ركزت الآيات في تقويم الإنسان على أصل مادته وخلقه وتكوينه ، إذ يشكل ذلك عمق الحكم في مبداه حتى منتهاه - وهذا ما يقود إلى شمول منهج التقويم وعمقه وتوازنه في القرآن الكريم- فكثيراً ما يبتر الناس منهج الحكم والتشخيص والتقويم ، فيقومون الشكل وينسون الجوهر ، ويحكمون على النتيجة وينسون المقدمة ، فيأتي الأمر مشوهاً مبتوراً ساذجاً . ومع التركيز على أصل الإنسان في مادته في القرآن ، إلا أن ذلك لم يكن في معزل عن تطوره فيما أعطي من صفات، وكمالات نسبية ، وملكات وضعف في إطار " إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً " ثم يتم الاستثناء بعد ذلك لصنف الشاكرين المؤمنين أصحاب الملكات الملتزمة ، والصفات المطلوبة ، للخروج من دائرة التعميم ، والمبالغة في التقويم ، التي تزخر بها أذهان الناس ومخرجات أحكامهم ، وانتقاداتهم / لكافة الأحوال والأشخاص والأفكار .

د- ربطت الآيات تشخيصها لطبيعة الإنسان ومادته الأولى ، بقضية مهمة حاسمة في التصور والاعتقاد ، وهي : قضية الوجدانية والتوحيد لخالق الإنسان سبحانه وكذلك قضية المعاد والإرجاع بعد الموت ، لتقود إلى مهمة التقويم الأساسية ، وهي إرجاع الإنسان إلى ربه ، وتعريفه بذاته ، لمزيد من حثه على الالتزام ، وتحقيق الكمال والسمو ، والخلافة والعبادة المقصودة من خلقه ابتداء .

هـ- نهت الآيات كذلك في تقويمها للإنسان إلى أن رحلته رحلة ابتلاء ، واختبار وتقويم ، ولكنه زود (عدلاً من ربه ونعمة وحكمة ) بمتطلبات الرحلة ، ومستلزمات المسير

... فجعلناه سميعاً بصيراً " " ... وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها " " لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم "

و- ظهرت مخرجات عملية الخلق وتقويم الآيات لها على نمطين :

نمط السلب ، كنود ، ما أكفره ، ظلوم كفار ، خصيم مبين ، مر كان لم يدعنا الى ضر مسه ، ونمط إيجابي في حالة استثناء المؤمنين ، "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... " .  
ز- وقفة أخيرة مع ما يستنتج من الآيات في منهجية التقويم ، وهي : أن صنفاً من الناس يقفون عند صفات السلب ، وأصل الخلق ، فيجعلونها هي صفة الإنسان الدائمة ، فلا ينظر له إلا من خلالها ، فهو.... من نطفة مذرة وجيفة قذرة ، وبينهما العذرة ، وهو خصيم ، كنود ظلوم كفار صحراء قاحلة ، ووحش مفترس ، وجامد منكر . وبذلك يجففون منبع الخير والعطاء ، ويتعدون على صفته في خلافة الأرض . وهم في الحقيقة قد يُعذرون بعض الشيء ، لما يطفو على سطح الفعل البشري والإنجاز الإنساني من غناء وسوء وشر ، وصنف آخر من الناس في المقابل يمجدون الإنسان ، وينفخون في أوصاله الكبرياء ، يصفونه بالإبداع والاختراع ، ويألّهون فيه التفكير والعقل والإدراك ، ويجعلونه سيد الحذف والإبقاء ، والحكم والإلغاء ، فينحرف عن الجادة ، ويتعدى المدى ، ويُسخّر ما أعطي من صفات وملكات وقدرات في طريق هذا الانحراف ، ويزعم أنه القادر المبدع ، فيتصادم مع الكون ونواميسه ، والخلق وقوانينه ، فتكون النتيجة هي ما وصل إليه الصنف الأول من الحكم والتقويم المشار إليه سابقاً ، ويطفوا ذلك على سطح تفكير أغلب الناس ، ويبقى صنف الاستثناء الخَيْر المتوازن في تصوره للإنسان موجود وجود البشرية ، إلى أن ترجع إلى ربها هداية في الدنيا ، و مآلاً في الآخرة .

ونستمر في استعراض الآيات التي قوّمت الإنسان (جنس الإنسان ) كما أودع فيه ربه عدة سجايا وطبائع ، لاتنك عنه إلا بالاستقامة والرشد ، والالتزام ضمن شريحة "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... " .

١١- ما ورد في سورة الإسراء :

قال تعالى ﴿ ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير ، وكان الإنسان عجولاً ﴾

[ الإسراء : ١١ ] .

قال ابن عباس وغيره : هو دعاء الرجل على نفسه ، وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له ... أي كدعائه ربه أن يهب له العافية " وكان الإنسان عجولاً " أي طبعه العجلة ، فيعجل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير .

وقيل : أشار به إلى آدم عليه السلام حين نهض قبل أن تركب فيه الروح على الكمال .

وقيل : يؤثر العاجل وأن قل ، على الآجل وإن جل " (١) .

" ... الإنسان العجول الجاهل بما ينفعه وما يضره ، المنذفع الذي لا يضبط انفعالاته ، ولو كان من ورائها الشر .

ذلك أنه لا يعرف مصائر الأمور وعواقبها . ولقد يفعل الفعل وهو شر ، ويعجل به على نفسه ولا يدري ، أو يدري ، ولكنه لا يقدر على كبح جماحه وضبط زمامه ... فأين هذا من هدى القرآن الثابت الهادي الهادي ؟ ألا إنهما طريقتان مختلفتان : شتان شتان ، هدى القرآن ، وهوى الإنسان (٢) .

سبحان الله ! إن من عجلة الإنسان وتسارعه أحياناً أن يدعو على نفسه ، وذريته ، وماله بالخير والشر سواء .

وقال الله تعالى كذلك في سورة الإسراء : ﴿ وإذا مسك الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفوراً ﴾ [ الإسراء : ٦٧ ] .

" أي ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم " أي نسيتم ما عرفتم من توحيدته في البحر ، وأعرضتم عن دعائه وحده لا شريك له " وكان الإنسان كفوراً " أي سجيته هذا ، ينسى النعم ويجحدتها ، إلا من عصم الله " (٣) .

" ولكن الإنسان هو الإنسان ، فما أن تنجلي الغمرة ، وتحس قدماء ثبات الأرض من تحته حتى ينسى لحظة الشدة ، فينسى الله ، وتتقاذفه الأهواء ، وتجرفه الشهوات ، وتغطي على فطرته التي جلاها الخطر " فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ، وكان الإنسان كفوراً " إلا من اتصل قلبه بالله فأشرق واستنار " (٤) .

(١) القرطبي : ج ١٠ ، ص ٢٢٦ .

(٢) الظلال : ج ٤ ، ص ٢٢١٥-٢٢١٦ .

(٣) ابن كثير : ج ٣ ، ص ٥٠ .

(٤) الظلال : ج ٤ ، ص ٢٢٤٠ .

قال القرطبي في ذلك : " وكان الإنسان كفوراً " الإنسان هنا الكافر ، وقيل : وطُبع الإنسان كفوراً للنعم إلا من عصمه الله ، فالإنسان لفظ الجنس (١) .

وورد كذلك قول الله عز وجل في نفس السورة ﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يؤوساً ﴾ [الإسراء : ٨٣] .  
الإعراض بعد النعمة ، واليأس عند الشدة ، وهذا دليل تركيب النقص وقلة القدرة ، فهو تقويم لحالة نفسية تصيب الإنسان عندما يخضع للاختبار والشدة ، فيقنط ويستسلم وينهار ، لأنه لا يثق بعون الله وفضله .

يقول صاحب الظلال في ظلال الآية : " والنعمة تطغى وتبطر ، ما لم يذكر الإنسان واهبها فيحمده ويشكر ، والشدة تُئس وتَقنط ، ما لم يتصل الإنسان بالله ، فيرجو ويأمل ، ويطمئن إلى رحمة الله وفضله ، فيتفاعل ويستبشر " (٢) .

و وُصف الإنسان بالقتور والإمساك ، وقِيَمه ربه بذلك فقال :  
﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي إذا لأمسكنم خشية الإنفاق وكان الإنسان قتوراً ﴾ [الإسراء : ١٠٠] .

يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : قل لهم يا محمد : لو أنكم أيها الناس تملكون التصرف في خزائن الله لأمسكنم خشية الإنفاق ، قال ابن عباس وقتادة : أي الفقر ، أي خشية أن تذهبوها مع أنها لا تفرغ ، ولا تنفذ أبداً لأن هذا من طباعكم وسجاياكم ، ولهذا قال : " وكان الإنسان قتوراً " وقال ابن عباس وقتادة أي بخيلاً منوعاً " (٣) .

## ١٢- ما ورد في سورة الكهف :

قال تعالى : ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ [ الكهف : ٥٤] .

يقول تعالى : ولقد بينا للناس في هذا القرآن ، ووضحنا لهم الأمور ، وفصلناها كيلاً يضلوا عن الحق ، ويخرجوا عن طريق الهدى ، ومع هذا البيان وهذا الفرقان ، الإنسان كثير المجادلة والمخاصمة ، والمعارضة للحق بالباطل ، إلا من هدى الله ، وبصره لطريق النجاة . عن علي ابن أبي طالب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت

(١) القرطبي : ج ١٠ ، ص ٢٩١ .

(٢) الظلال : ج ٤ ، ص ٢٢٤٨ .

(٣) ابن كثير : ج ٣ ، ص ٦٥ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فقال : " ألا تصليان ؟ فقلت يارسول الله إنما أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا ، فانصرف حين قلت ذلك ، ولم يرجع إليّ شيئاً ، ثم سمعته وهو مولّ يضرب فخذة ويقول : " وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً " أخرجاه في الصحيحين" (١) .

ويعبر السياق عن الإنسان في هذا المقام بأنه " شيء " وأنه أكثر شيء جدلاً ، ذلك كي يطمئن الإنسان من كبريائه ، ويقلل من غروره ، ويشعر أنه خلق من مخلوقات الله الكثيرة ، وأنه أكثر هذه الخلائق جدلاً ، بعد ما صرف الله في هذا القرآن من كل مثل (٢) .

والجدل والمراء صفة مرافقة للإنسان ، وسجيته من سجاياه ، تنغص عليه وجوده ، وتخلخل بنيان العلاقات البينية ، وتخدش جدار الاخوة ، وتضيع ميزان العقول ، ومعيار الأفهام ، لأن مركب الجدل هو النفس والانتصار للذات غالباً . ولذلك من ترك الجدل وهو محق كان له بيت في ربض الجنة ( وسطها ) كما في الحديث الشريف ، وإنه لتقويم من الخبير العليم سبحانه لهذا المخلوق الشيء .

### ١٣- ما ورد في سورة النحل :

قال تعالى : ﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ [النحل : ٤] .

إنها نقلة شاسعة بين النطفة الساذجة ، والمخاصم المجادل لربه وخالقه ، وإنه يخوض معركة الخصومة ضد الخلق والخالق ، فيكلف نفسه وغيره خسارة ما بعدها خسارة ، على مستوى النفس والوقت والنتيجة في الدنيا والآخرة ، ولكنها الطبيعة ، وهذا هو الحكم والتقويم " خصيم مبين " رغم وضاعة أصله ومادته .

### ١٤- ما ورد في سورة الأحزاب :

قال تعالى : ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها فحملها إنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

والأمانة تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال ، وهو قول الجمهور .

وروى الترمذي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال الله تعالى لآدم: يا آدم ، إني عرضت الأمانة على السموات والأرض فلم تطعها ، فهل أنت حاملها بما فيها ، فقال : وما فيها يا رب قال : إن حملتها أجزت ، وإن ضعيتها عذبت ،

(١) ابن كثير : ج ٣ ، ص ٨٩ . ورواه البخاري ٦٢/٢ و ١١٠/٦ طبعة دار الفكر .

(٢) انظلال : ج ٤ ، ص ٢٢٧٥ .

فاحتملها بما فيها ، فلم يلبث في الجنة إلا قدر ما بين صلاة الأولى إلى العصر ، حتى أخرجته الشيطان منها " فالأمانة هي الفرائض التي انتمن الله عليها العباد " (١) .

إنها أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم ، القليل القوة ، والضعيف الحول ، المحدود العمر ، الذي تناوشه الشهوات والنزاعات والميول والأطماع ، وإنها لمخاطرة أن يأخذ على عاتقه هذه التبعة الثقيلة ، ومن ثم " كان ظلوماً " لنفسه " جهولاً " لطاقته ، هذا بالقياس إلى ضخامة ما زج بنفسه لحمله . فأما حين ينهض بالتبعة حين يصل إلى المعرفة الواصلة ، إلى بارئه ، والاهتداء إلى ناموسه ، والطاعة الكاملة لإرادة ربه ، منسجمة مع ناموس الله في الكون ، وتسخيره لإرادته طوعاً ، خدمة للإنسان تشريعاً وتكريماً . حين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة ، وهو واع مدرك مرید ، فإنه يصل حقاً إلى مقام كريم ، ومكان بين الخلق فريد " (٢) .

#### ١٥- ما ورد في سورة النساء :

قال تعالى : ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾ [النساء : ٢٨] .

يأتي التخفيف بعد شوط مع الآيات السابقة ، والكلام عن الأسرة ، وعن الزواج ، وعن الضوابط في العلاقات الاجتماعية ، وتخفيف العنت عن الإنسان المركب على النقص والضعف ابتداء . وخاصة في موضوع الإحصان والعلاقة بالنساء ﴿ يريد الله أن يخفف عنكم ﴾ في شرائعه وأوامره ونواهيه ، ومن ذلك ما أباحه لكم من إحلال نكاح الأمة وغيره من الرخص " وخلق الإنسان ضعيفاً " أي أمام الشهوات ، وعلى مشاق الطاعات ، ومن ثم خفف الله عليه بما يناسب ضعفه ، وهو في سياقه يفيد ضعفه في أمر النساء ، ومن ثم وسع عليه في شأنهن ، قال وكيع في ذلك : يذهب عقله عندهن " (٣) .

" وخلق الإنسان ضعيفاً " نصب على الحال ، والمعنى أن هواه يستميله ، وشهوته وغضبه يستخفانه ، وهذا أشد الضعف فاحتاج إلى التخفيف . قال طاووس : ذلك في أمر النساء خاصة (٤) .

(١) القرطبي : ج ١٤ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤ .

(٢) انظر الظلال : ج ٥ ، ص ٢٨٨٥ .

(٣) الأساس في التفسير : سعيد حوى ، ج ٢ ، ص ١٠٣٩ .

(٤) القرطبي : ج ٥ ، ص ١٤٩ .

## ١٦- ما ورد في سورة العصر :

قال تعالى : ﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ﴾ [ العصر : ١-٣ ] .

والمراد بالإنسان : الجنس ، واللام لام الجنس وهو الراجح ، وحكّم الله بالوعيد الشديد ، لأنه حكّم بالخسارة على جميع الناس ، إلا من كان آتياً بأشياء أربعة ، أو متصفاً بصفات أربع ، وهي : الإيمان والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر (١) .

وهنا تقويم مجمل وصف الإنسان بالخسارة ، وحكم عليه هكذا مطلقاً ، ثم يكون الاستثناء لشريحة الطائعين الفائزين ، وذلك أمر عظيم وقضية مصيرية ، وهي هنا من خالق الإنسان ومدبر أمره ، حكمه العدل وتقويمه الصواب ، فهلا انتبه الإنسان هذا المخلوق المكرم المتوقع في آن ، الرابع الخاسر في آن ، وقد يترأى للإنسان أن الفوز صعب ، وأن التقويم صريح ودقيق . فهو كذلك من جهة ضرورة العدل والوضوح والبيان من الخالق سبحانه ، وهو في المقابل ميسور وممكن لمن أراد وتوجه . ولقد نشأت أجيال كاملة على مساحة الفوز والنجاح تطبيقاً عملياً ، والتاريخ شاهد ، والحاضر زاخر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

## ١٧- ما ورد في سورة المعارج :

قال تعالى : ﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً ﴾ [ المعارج : ١٩-٢١ ] .

عن قتادة في قوله تعالى " هلوعاً " قال جزوعاً (٢) فالجزع والهلع والمنع جبلة لا تتفك عن الإنسان ، والمطلوب ترويضها ، وضبط ميزان الوسطية فيها .

## ١٨- ما ورد في سورة النجم :

﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى وأن سعيه سوف يُرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى وأن إلى ربك المنتهى ﴾ [ النجم : ٣٩-٤٢ ] .

(١) التفسير المنير : د . وهبة الزحيلي ، دار الفكر ، ط ١ بيروت دمشق ١٩٩١ م . ج ٢ ص ٣٩٤-٣٩٥ .

(٢) تفسير القرآن العزيز (تفسير عبد الرزاق) : أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني دار المعرفة ، بيروت ط ١ ١٩٩١ م ج ٢ ، ص ٢٥٤ .



بعد أن حددت الآيات السابقة لهذه الآيات فردية المسؤولية ، وأن لا وزر إلا على من عمله ، تأتي هذه الآيات مؤكدة على هذا المعيار العادل ، والتقويم السليم ، فحسبت المسألة ، فليس لأي إنسان إلا ما سعى وطلب وعمل ، وهذا مقومٌ محصي محسوب ، ثم تكون نتيجة الحساب والتقويم - الجزاء أو العقاب - والمهم هنا أن يقود هذا الحسم ، وهذا التقويم إلى نتيجة ، وهي : تنبيه الإنسان أن المنتهى هو لمن بيده كل ما سبق ، فلماذا أيها الإنسان لا تحسن حسابك ، وتطور استقامتك وسعيك ؟

"والمراد من الآية بيان ثواب الأعمال الصالحة وكل عمل ، فالخير مثاب عليه ، والشر معاقب به ، وعبر بصيغة الماضي في قوله " إلا ما سعى " لزيادة الحث على العمل الصالح " (١) .

#### ١٩- ما ورد في سورة يس :

قال تعالى: ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾ [يس:٧٧].  
والهمزة للإنكار والتعجب ... ولاريب في أن علم الإنسان بأحوال نفسه أهم ، وإحاطته بها أسهل وأتم . فالإنكار والتعجب من الإخلال بذلك ، كأنه قيل : ألم يعلموا خلقه تعالى لأسباب معيشتهم ، ولم يعلموا خلقه تعالى لأنفسهم أيضاً ... وقوله " فإذا هو خصيم " أي مبالغ في الخصومة والجدال الباطل " مبين " ظاهر متجاهر في ذلك ... كأنه قيل : أولم ير أنا خلقناه من أخس الأشياء وأمهنها ؟ ففاجأ خصومتنا في أمر يشهد بصحته مبدأ فطرته شهادة بينة " (٢) .

#### (ب) المطلب الثاني : تقويم الحيوان :

وقد وردت آيات تذكر فوائد بعض الحيوانات وتقومها ، وتظهر مزاياها للإنسان . فهي جزء من حياته ، ومقوم من مقومات وجوده ، وسر وجودها مجبول على الإذعان ، والطاعة ، والنفع دون اختيار منها ، فهي مسخرة فقط لنفع الإنسان ، ما دام يحسن إليها ، ويطبق قانون الخالق في معاملتها. فمعيار وجودها أنها نافعة مسخرة طائعة ، ذات حقوق في الحياة والطعام والشراب والرعاية ، لكن مهمتها تنتهي في الحياة الدنيا فقط . ففيها نفع

(١) التفسير المنير : ج ٢٧ ، ص ١٢٩ .

(٢) روح المعاني : شهاب الدين السيد محمود الألوسي ، دار الفكر ، بيروت ١٩٩٧م ج ١٣ ، ص ٧٨٨ .

مادي ، وفيها نفع معنوي ، من جمال ومنزلة لأصحابها ، وراحة في استعمالها والتغذية على ما هو جائز منها ... الخ . ومن الآيات الواردة في تقويم الحيوان ما يلي :

١- ما ورد في سورة النحل قال تعالى : ﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرجون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ، و الخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ [ النحل : ٥-٩ ] .

امتن الله سبحانه على عباده مما خلق لهم من الأنعام ... وبما جعل لهم فيها من المنافع ، من الأصواف والأوبار والأشعار ، لباساً وفراشاً ، ومن الألبان شراباً ، ومن الأولاد أكلاً " ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون " أي لكم في هذه الأنعام زينة حين تردونها بالعشي من مسارحها إلى منازلها التي تأوي إليها ، وحين إخراجها من مراحها إلى مسارحها " (١) .

وفي العموم فإن الآيات تحدد منافع الحيوان الأليف ، الذي سُخر للإنسان ، وارتبط بحياته ، ففيه الدفاء والغطاء ، والأكل والشرب ، والحمل والنقل ، والراحة والمتعة ، والجمال ، والمنزلة المعنوية بالافتناء ، والركوب والزينة ، واللفتة أن هناك من مخلوقات الله في هذا الإطار ما لا تعلمونه الآن . وهذا ما كان في حياة الناس من مراكب ومخترعات ، إلى أن طاف في الفضاء ، ونزل على القمر ، ويخلق ما لا تعلمون . ثم أن قصد السبيل ، وتحديد الطريق المستقيم على الله عز وجل فعلى الرغم من كل ما تقدم من وسائل ، ومن تسخير ، فالموصل للحق وإلى الاستقامة هو رب كل هذه الأشياء سبحانه .

وكان المراد أن الوسائل والأسباب مطلوبة ، والحاجة لها ماسة ، ولكنها بنفسها لا توصل إلى المبتغى والغاية ، وألمح من كل هذا : أن ما وصفت به هذه المخلوقات ، وما سخرت له من نفع للإنسان ، يجب أن يقود الإنسان إلى الاستقامة ، والشكر ، وتقويم سلوكه ومنهجه ، وتوجيهه إلى الأحسن في عبادة ربه الذي خلقه من نطفة ساذجة فأصبح الإنسان لربه خصيماً مبيناً .

(١) تفسير المراغي : الأستاذ المرحوم أحمد مصطفى المراغي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ط ٤ سنة ١٩٧١م ، ج ٤ ، ص ٥٦ .

ويقول تعالى في نفس السورة ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ، ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾ [ النحل : ٦٨-٦٩ ] .

وهنا لفت نظر الإنسان إلى مخلوق آخر ، خلقه ربه وألهمه حياة دقة في الحركة والعمل والبناء ، والهندسة وتقسيم الأدوار ، وينتج نفعاً عظيماً . وغذاء فريداً، العسل فيه طعام وشفاء للناس ، وذلك من النحل هذا المخلوق الصغير العجيب ، ولكنه سبحانه يخلق ما يشاء ويفدر ما يريد .

وعبرة هي حياة النحلة كلها ، من بيوتها في الجبال والشجر ، وما يعرشه الناس ، إلى أكل وامتصاص رحيق ما تريد من الثمرات ، إلى سلوك طريق الله بسهولة ويسر ، فلا يعجزها في ذلك شيء بإن ربها ، والعسل يخرج من البطن ، والبطون عادة وعاء (الأوساخ والفضلات ) وهو مختلف الألوان حسب نوع الرحيق الذي تناولته النحلة، وفيه كذلك شفاء للناس ، وطعام لذيذ ﴿إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ أي إن في إخراج الله عز وجل من بطون النحل هذا الشراب المختلف الألوان الذي فيه شفاء للناس ، لدلالة واضحة على أن من سخر النحل وهداها لأكل الثمرات التي تأكلها ، واتخاذ البيوت في الجبال والشجر والعروش، وأخرج من بطونها ما أخرج مما فيه شفاء للناس ، هو الواحد القهار الذي ليس كمثله شيء ، وأنه لا ينبغي أن يكون له شريك ، ولا تصح الألوهية إلا له <sup>(١)</sup> .

٢- ما ورد في سورة النمل قال تعالى ﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ، فتبسم ضاحكاً من قولها ، وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ، وتفقد الطير فقال مالي لا أرى الهدد أم كان من الغائبين ، لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أولياتيني بسطان مبين ، فمكث غير بعيد فقال أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ نبأ يقين ، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾ [ النمل : ١٨-٢٤ ] .

(١) المراغي : ج ١٤ ، ص ١٠٨ .

والكلام في الآيات السابقة عن حيوانين من مخلوقات الله ، أحدهما حشرة تدب على الأرض ذات نظام ودقة، والآخر طائر دقيق راصد للأخبار جامع للمعلومات ، وقصة كليهما مع نبي الله الملك سليمان عليه السلام . فقصة النملة على ضعفها ، وقلة قدرتها ، ذكرها الله وقدم أمرها ، وأظهر تدبيرها وتقديرها للموقف والمشكلة الحاصلة ، فقد قدرت الموقف وقومته ، وأعطت أوامرها ﴿ أن ادخلوا مساكنكم ﴾ فقد أتى سليمان عليه السلام وجنوده ومظنة أن يحطمنكم هو وجنوده واردة . ولكنها كانت عادلة صادقة، إذ قالت : فإن ذلك أن حدث من سليمان فإنه سوف يكون "وهم لا يشعرون " بكم ، ويدل هذا على معرفتها بعدل سليمان ، وعدم ظلمه ، وهذه ولا شك رسالة الأنبياء عليهم السلام ، العدل وعدم الظلم حتى مع الحيوان .

والهدد جندي ضعيف ذكي دقيق ، فبعد أن سمع غضبة سليمان عليه السلام ، تحرك حركته الذكية، ، وقال : أحطت بما لم تحط به ، وجئتك من سبأ بنياً يقين ، وذكر له شأن ملكة سبأ ، وتفاصيل أمرها ، وأهم ما ذكر من أمرها : أنها وقومها يسجدون للشمس من دون الله ، وهذه مهمة الجندي الواعي ، الفاهم لدوره - الحكم والتقويم بمعيار العبادة والفكرة - وهذا ما كان يهم سليمان ويحقق رسالته ، وكان من أمر القصة ما كان .

وذكر القرآن الكريم لهذه الحيوانات وتقويمه لها ، فيه عبرة لسيد المخلوقات ، الإنسان . هذا المكرم المهين في نفس الوقت ، ليستفيد وينتفع ، فالأمر بالنسبة له مع ربه جد لا هزل ، فهو إذاً لا بد أن يقوم نفسه ، وعمله وسلوكه ، ويحسنه دائماً ، فهو على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره.

ورجوعاً إلى النملة الدقيقة العارفة بعدل سليمان وجنده يظهر موقف النبي الشاكر " فتبسم ضاحكاً من قولها ، تعجباً من حذرها واهتدائها إلى تدبير مصالحتها ، ومصالح بني نوعها ، وسروراً بشهرة حاله ، وحال جنوده في باب التقوى ، والشفقة فيما بين أصناف المخلوقات التي هي أبعدنا من إدراك أمثال هذه الأمور ، وابتهاجاً بما خصه الله به من إدراك همسها وفهم مرادها " (١).

٣- ما ورد في سورة لقمان : قال تعالى ﴿ واقصد في مشيك واغضض من

صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ [لقمان: ١٩] .

(١) تفسير أبي سعود ( إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ) : أبي السعود محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ٤ ، ١٩٩٤ ، ج ٦ ، ص ٢٧٨-٢٧٩ .

قوله تعالى ﴿ اقصد في مشيك ﴾ لما نهاه عن الخلق الذميمة (يقصد فيما سبق من آيات) رسم له الخلق الكريم ، الذي ينبغي أن يستعمله ، فقال : واقصد في مشيك ، أي : توسط فيه ، والقصد ما بين الإسراع والبطء ، أي : لا تدب دبيب المتماوتين ، ولا تثب وثب الشطار ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن .  
فقوله تعالى " واغضض من صوتك " أي انقص منه ، ولا تتكلف رفع الصوت وخذ منه ، ما تحتاج إليه ، فإن الجهر بأكثر من الحاجة تكلف يؤدي .  
وقوله تعالى ﴿ إن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾ أي أقبحها وأوحشها ومنه أتانا بوجه منكر ، والحمار مثل في الذم البليغ ، والشتيمة ، وكذلك نهاه .  
وفي الآية الكريمة دليل على تعريف قبح رفع الصوت في المخاطبة والملاحاة ، بقبح أصوات الحمير ، لأنها عالية ، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " وإذا سمعتم نهيق الحمار فتعوذوا بالله من الشيطان ، فإنها رأت شيطاناً " .  
وهذه الآية أدب من الله تعالى بترك الصياح في وجوه الناس تهاوناً بهم ، أو بترك الصياح جملة " (١) .

وهنا وقفة مع تقويم الأصوات وآداب المخاطبة ، هي أن الله عزوجل (على صورة وصايا لقمان لابنه وهو يعظه ويقوم أخلاقه ) ينهى عن أخلاق سيئة ، كالكبر والخيلاء والتصعير ورفع الصوت لتحل مكانها أخلاق قويمه معدلة مطلوبة ، كالقصد في المشي ، وإخفاض الصوت . ومثل بشاعة ارتفاع الصوت ، كمثل بشاعة صوت الحمار ، الذي يشترك الشيطان كما ورد في الحديث في تحفيزه على مثل هذا الصوت . ولا شك أن ارتفاع الصوت يأتي من الغضب ، والغضب مبعثه الشيطان ، وانطلاق زمام النفس ، وذلك منهى عنه إلا في مواضعه المحمودة .

ووقفة ثانية هي : أن الله هنا قد قوم الحمير بالسيئ من صفاتها ، وهو النهيق المذموم المشين ، ونجده قد قومها في سورة النحل ، وذكرها في معرض الفائدة والمدح ، ففيها جمال وزينة ، وحمل للمتاع ، وذهاب لمشقة النفس ، وهذا نوع من شمول التقويم القرآني ، وذكر ما في الشيء من خير وشر في آن واحد .

(١) انظر القرطبي : ج ١٤ ، ص ٧١-٧٢ .

٤- ماورد في سورة الجمعة ، قال الله تعالى ﴿ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفراً ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ [الجمعة:٥].

ضرب هذا المثل لليهود لما تركوا العمل بالتوراة ، ولم يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿حملوا التوراة﴾ أي كلفوا العمل بها ، عن ابن عباس رضي الله عنه ، وقال الجرجاني : هو من الحملالة بمعنى الكفالة، أي ضمنوا أحكام التوراة ﴿كمثل الحمار يحمل أسفراً﴾ هي جمع سفر ، وهو الكتاب الكبير لأنه يسفر عن المعنى إذا قرئ .. . وفي هذا تنبيه من الله تعالى لمن حمل الكتاب أن يتعلم معانيه ، ويعلم ما فيه ، لنلايلحقه من الذم ما لحق هؤلاء.. ﴿ ثم لم يحملوها﴾ أي يعملوا بها . شبههم بالحمار يحمل كتباً وليس له إلا نقل الحمل من غير فائدة .. ﴿ بئس مثل القوم ﴾ المثل الذي ضربناه لهم " (١).

وأورد ابن كثير : يقول تعالى ذاماً لليهود الذين أعطوا التوراة وحملوها للعمل بها ثم لم يعملوا بها، مثلهم في ذلك كمثل الحمار يحمل أسفراً أي : كمثل الحمار إذا حمل كتباً لا يدري ما فيها فهو يحملها حملاً حسيماً . ولا يدري ما عليه ، وكذلك هؤلاء في حملهم الكتاب الذي أوتوه ، حفظوه لفظاً ولم يفهموه ولا عملوا بمقتضاه ، بل أولوه وحرفوه وبدلوه ، فهم أسوأ حالاً من الحمير ، لأن الحمار لا فهم له ، وهؤلاء لهم فهم لم يستعملوها ، ولهذا قال الله تعالى في الآية الكريمة الأخرى ﴿ أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (٢) ونقف بعد استعراض بعض الآيات في منهجية القرآن الكريم في وصف الحيوان وتقويم شأنه ضمن منظومة الحياة والخلق ، لنسطر بعض الملاحظات المستنتجة من هذا العرض الموجز.

أ- نلمس من تقويم القرآن الكريم ووصفه للحيوان في مواقف متعددة ، وأطر مختلفة ، أن الهدف من ذلك هو تذكير الإنسان ، وتنبيهه إلى ضرورة الاستفادة من هذا التقويم ، لصالح حياته وتقويم سلوكه ، ومنهجه ، لمزيد من الالتزام والاستقامة . فكل ذلك معرض تقويم الله ، وحكمه ووصفه خاصة عند المأب والرجوع ، عند ما يضع الله الموازين القسط ليوم القيامة .

(١) القرطبي : ج ١٢ ، ص ٩٤-٩٥

(٢) ابن كثير : ج ٤ ، ص ٣٦٤ .

ب- ورد التقويم في معرض ذكر نعم الله على الإنسان ، والتي من ضمنها خلق الحيوان ، وتسخير له ، لينعم بفوائده التي ستقوده إلى مزيد من معرفة نفسه وقدره ، وتكريم الله له ، مقابل الالتزام والشكر والإيمان .

ج- يمكن أن يستفيد الإنسان من الحيوان ليس فقط في النفع المادي المأمول من أكل وشرب وحمل وزينة ، وإنما كذلك في مجال تدبير الأمور ، والإطلاع على الأخبار ، وتحسن الأخلاق ، والصنع والدقة والتنظيم ، كما ظهر من قصة النمل والهدد والحمير .

د- على الرغم من أن مقصود خلق الله للحيوان والنبات وسائر المخلوق هو لاتزان الحياة ، وخدمة الإنسان المكرم المفضل بأداء الأمانة العبادية لله ، رغم ذلك إلا أن الإسلام أمر برحمة الحيوان ، وخدمته ، وعدم ظلمه ، لأنه كائن حي يحس ويتأثر ، فهو يجوع ويعطش ، ويتعب ويمرض ويحزن ، ولذلك وضعت قوانين رقابية دقيقة لخدمته والاحتفاء به ، وكُلف أناس بمراقبة ذلك في الدولة الإسلامية ، في إطار نظام الحسبة ، فحددت أعمال الحيوانات ، ومسافات سيرها ، ومعالجتها ، ونوع طعامها ، ومحاسبة من يظلمها .. إلخ .

وحسبنا هنا ما ورد في الحديث الشريف " دخلت امرأة النار في هرة حبستها ، لاهي أطعمتها ، ولا أسقتها ، ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض" (١) .

هـ - وفي المقابل نجد كثيراً من الناس قد بالغوا في خدمة الحيوان ، ورعايته ، وخاصة في بلاد الغرب ، حتى صار الأمر عادة مألوفة ، ونظاماً اجتماعياً فترى الكلاب والقطط والطيور وغيرها تعيش في حياة مدللة يصرف عليها ملايين الدولارات ، وتُخدم بأرقى أنواع الخدمة التي لا يحصل عليها ربما ٩٠% من بني البشر . ولعمري إن ذلك اختلال في الموازين ، واضطراب في المعايير البشرية ، وخلخلة في معنى الرحمة والإنسانية ، وتضخم في مفهوم الفردية والحرية التي تقود لمثل هذا التصرف المشين ، في حين أن الإنسان جنس الإنسان ، مطحون معذب منخور في جسمه ، محطم في مشاعره ومعنوياته ، مظلوم في حقوقه وأدميته .

فأصبحت بذلك المعادلة مقلوبة، وطبيعي أن نجد منظمات حماية الحيوان ورعايته ، منتشرة هنا وهناك ، وتجد من يوصي بتركته التي تبلغ ملايين الدولارات لكلبه المدلل ، أو لقطته الحبيبة، نعم هكذا يحصل في حياة الناس عندما تختل موازين الحكم ، وترتج معايير

(١) صحيح البخاري : الإمام البخاري ٤/١٥٧ طبعة دار الفكر، و رواية صحيح مسلم بشرح النووي :ج١٦ باب تحريم تعذيب الهرة ، رقم ٢٦١٩ . مكتبة الغزالي ، ومناهل العرفان .

التقويم والرشد . ولا ريب أن مرجع ذلك إلى خواء الفكر ، وظماً الروح ، وعبثية الهدف ، والغرق في الشهوة والمادة ، وانحدار العواطف ، وانطماس الفطرة السليمة ، وغلبة الطين على النفخة العلوية ، وتحكم الشهوة والشبهة في حياة الإنسان ، أكرم مخلوق ، وأعز موجود .

### (ج) المطلب الثالث : تقويم الجن :

الجن عالم مستقل ، وهو أحد الثقلين اللذين خلقهما الله عز وجل لعبادته ، قال تعالى ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ وهم يرون ولا يُرون ، وقد خلقهم الله من نار ، منهم المؤمنون ، ومنهم الكافرون ، وهبهم الله قدرة فائقة في الحركة والقوة والتشكّل ، ومنهم المردة والشياطين والجن...إلخ ، والمعركة مع الشيطان قديمة مستمرة ، بدأها إبليس عندما لم يسجد لآدم علواً واستكباراً وقد أمره الله بذلك .

والآيات التي عرضت حالهم ، وتكلمت عن أوصافهم ، وأخضعتهم للتقويم لمعرفة دورهم ، والحكمة من خلقهم ، كثيرة ، سنعرض بعضاً منها على سبيل المثال لا الحصر ، حسب السور كما مر معنا في تقويم الإنسان والحيوان سابقاً :

١- ماورد في سورة الأعراف ، قال تعالى ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا

للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ، قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ [ الأعراف : ١١-١٢ ] .

يبدأ المشوار مع إبليس حين أمر بالسجود لآدم فلم يسجد ، وقد أضمر في نفسه ذلك تكبراً وحسداً ، وعقد مقارنة ، وقاس قياساً ، وقوم تقويماً فاسداً جعله سبباً في عدم سجوده " قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين " .

فرأى أن النار أشرف من الطين ، لعلوها وصعودها وخفتها ، ولأنها جوهر مضيء ، قال ابن عباس والحسن وابن سيرين: أول من قاس إبليس ، فأخطأ القياس ، فمن قاس الدين برأيه قرنه الله مع إبليس ، قال ابن سيرين ، : وما عُبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس .

وقال الحكماء: أخطأ عدو الله في قياسه ، وإن كانت النار والطين جماداً مخلوقاً ، والطين أفضل من النار ، فمن جوهره الرزانة والسكون ، ومن جوهر النار الخفة والحدة والاضطراب ، وتراب الجنة مسك وأذخر وليس فيها نار ، والتراب مسجد وظهور ، والنار



تخويف وعذاب ، وقال ابن عباس رضي الله عنه : كانت الطاعة أولى إبليس من القياس فعصى ربه ، وهو أول من قاس برأيه ، والقياس في مخالفة النص مردود " (١).

ويظهر هنا نوعان من التقويم : تقويم الله سبحانه لآدم ونزيرته ، وأنه خلقه بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وكرمه وأسجد له الجميع تكريماً وتقديراً ، وهذا تقويم وقياس على اعتبار التكريم ، وحمل أمانة الخلافة في الأرض ، وليس تقويم على أصل التكوين فقط كما قاس إبليس . وتقويم إبليس وقياسه النابع من الحسد والتكبر ، فقام على الظاهر ، وعلى قوة الأصل وحدته وطيشه ، وهو المقارنة بين الطين والنار .

وهنا وقفة ، فكم يقع الكثير في فساد القياس والتقويم نتيجة الحسد والكبر ، والسطحية والحكم على الظاهر . والقياس مرحلة من مراحل التقويم الضرورية ، واستعملها إبليس لإصدار حكمه الناقص على خصمه الدائم آدم ونزيرته ، ثم كان من أمر الله معه ما كان ، طرده من الجنة وأهبطه إلى الأرض ، وجعله من الصاغرين . وإن حكم الله عليه بالصغار هنا نتيجة تكبره وعناده ، فذلك تقويم بالقياس الصحيح أولاً ، ثم كانت نتيجة الطرد والصغار ، وتحمل مشاق المعركة إلى يوم الدين ثانياً . وكان طلب إبليس أن ينظره ربه إلى يوم البعث ، فلبى الله طلبه ، لكنه توعد الناس بالإضلال ، وتوعده ربه بجهنم له ولمن تبعه ، فهو معيب مطرود ، وهذه هي قيمته الحقيقية ، وقيمة من تبعه إلى يوم الدين .

وتبدأ المعركة بوسوسة الشيطان لآدم وحواء ، ويستمر بمنهجية التقويم المنحرف ، والنقول على ربه وإظهار الحرص عليهما ، لخلخلة نظام الطاعة عندهما ، فكانت المعصية ، وكانت التوبة ، وكان التقويم الذاتي من آدم وحواء ، وكان أمر الله بالنزول من الجنة إلى الأرض ، لتستمر المعركة على أشدها . وقد قوّم الله العلاقة بين الشيطان وبين الإنسان بأنها علاقة عداوة لا تنتهي أبداً ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، ولكل مقوماته وأدواته والله غالب على أمره .

يقول تعالى في نفس السورة : ﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما ، إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يعقلون ﴾ [الأعراف: ٢٧] .

ويقول كذلك : ﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ، إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون ﴾ [الأعراف : ٣٠] .

(١) القرطبي : ج ٧ ، ص ١٧١ .

يحذر الله تعالى بني آدم من إبليس وقبيله ، مبيناً لهم عداوته القديمة لأبي البشر آدم عليه السلام ، في سعيه في إخراجهم من الجنة" (١).

وموازن تقويم المعركة بين الشياطين والإنسان هي القسط والإخلاص لله ، والناس فريقان : فريق هدى ، وفريق ضلالة ، وفريق الضلالة هم الذين اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله .

يلق صاحب الظلال تعليقاً مناسباً على قول الله تعالى من نفس السورة ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم وأعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها... أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ [الأعراف: ١٧٩] .

والذين يغفلون عما حولهم من آيات في الكون وفي الحياة ، والذين يغفلون عما يمر بهم من الأحداث والعبير فلا يرون فيها يد الله ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، فللأنعام استعدادات فطرية تهديها ، أما الجن والإنس فقد زدوا بالقلب الواعي ، والعين المبصرة ، والآذان الملتقطة ، فإذا لم يفتحوا قلوبهم وأبصارهم وأسماعهم ليدركوا ، إذا مروا بالحياة غافلين لا تلتقط قلوبهم معانيها وغاياتها ، ولا تلتقط أعينهم مشاهدتها ودلالاتها ، ولا تلتقط آذانهم إيقاعاتهم وإيحاءاتها ، فإنهم يكونون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية الهادية ... ثم هم يكونون من ذرء جهنم ! يجري بهم قدر الله إليها وفق مشيئته حين فطرهم باستعداداتهم تلك ، وجعل قانون جزائهم هذا . فكانوا - كما هم في علم الله القديم - حصب جهنم منذ كانوا ! " (٢) .

٢- ما ورد في سورة الناس ، قال تعالى: ﴿ قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس إليه الناس من شر الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس ﴾ [الناس: ١-٦] .

بعد توجيه نبيه والناس جميعاً للاحتماء بالرب والإله والملك من حملة التدسس والخنس المستمرة من شياطين الإنس والجن ، ﴿ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ﴾ والذين لهم جلبية بخيلهم ورجلهم ، ويشاركون الناس في الأموال والأولاد كما قررت آيات القرآن الكريم ، بعد هذا يؤكد ويقرر أن قيمة الموسوسين والخناسين من صنفي الجن والإنس ضعيفة ، وغير فاعلة أمام استعمال الأسلحة المتوفرة لدى الطائعين

(١) ابن كثير : ج ٢ ، ص ١٩٩ .

(٢) الظلال : ج ٣ ، ص ١٤٠١ .

المستقيمين من عباد الله المؤمنين ، وتقويم أسلحة الطرفين أمر مهم لنتيجة المعركة . فرغم قوة شياطين الجن والإنس ودبيهم وجريان الشياطين مجرى الدم ، ودخولهم من نوافذ الضعف البشري ( الشهوة والشبهة ) إلا أنهم لا ينشطون . ولا ينتصرون إلا خلسة ووسوسة ، فلا قوة عندهم للظهور ، ولا شجاعة عندهم للمواجهة أمام من يتنبه لمكرهم ، ويحمي مداخل صدره منهم .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الشیطان جائم على قلب ابن آدم ، فإذا ذكر الله تعالى خنس ، وإذا غفل وسوس " (١) .  
وهذا التصور لطبيعة المعركة ودوافع الشر فيها - سواء عن طريق الشيطان مباشرة ، أو عن طريق عملائه من البشر - من شأنه أن يشعر الإنسان بأنه ليس مغلوباً على أمر فيها ، فإن ربه وملكه وإلهه مسيطر على الخلق كله ، وإذا كان قد أذن لإبليس بالحرب ، فهو أخذ بناصيته ، وهو لم يسلطه إلا على الذين يغفلون عن ربهم وملكهم وإلههم ... هذا أكمل تصور للحقيقة القائمة عن الخير والشر، كما أنه أفضل تصور يحمي القلب من الهزيمة ويفعّمه بالقوة والثقة والطمأنينة " (٢) .

٣- ما ورد في سورة الجن قال تعالى : ﴿ قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجيباً ، يهدي إلى الرشد فأمانا به ولن نشرك بربنا أحداً ... ﴾ إلى آخر الآيات الكريمة المنتهية بالآية رقم ٢٨ آخر السورة وهي قول الله تعالى ﴿ ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً ﴾ [ الجن : ١-٢٨ ] .

والسورة خاصة بالجن من أولها إلى آخرها وقد كانت أكثر آياتها على لسان الجن ، وهي صورة رائعة لإيمان نفر من الجن ، وأتباعهم الحق والإيمان بالله ، ورسالته التي حملها رسوله محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق القرآن ، وقد كان ميزان هذا النفر ميزان راشد ، وتقويمهم للقرآن وما سمعوا ، وللرسالة وصاحبها ، وللخالق وقدرته ، تقويماً شاملاً سليماً قائداً للخير والرشاد والإيمان . فقد قَوْمُوا القرآن والرسالة والمرسل والمبلغ ، وقَوْمُوا سفيهم إبليس ، وقَوْمُوا بعضهم بعضاً ، فأقروا أنهم على أصناف، صنف صالح ، وصنف دون ذلك ، وآخر مسلم ، وغيره قاسط . وعرض القرآن لأسلوب الجن حين سمعوا الرسول يتلو القرآن ويرتلّه ، فأعجبوا به ، وآمنوا واتبعوا رسوله صلى الله عليه وسلم ، فيه

(١) أخرجه البخاري معلقاً .

(٢) الطلال : ج ٦ ، ص ٤٠١٢ .

درس ، وتنبيه إلى أن الأصل في المخلوقات (خاصة الثقيلين ) أن يزنوا بميزانه مباشرة، ويقوموا بمعياره توأ ، كما قد حدث مع الجن . وهنا إشارة إلى مدح هذا النفر من الجن ، وتقويم منهجهم في التعامل مع ما سمعوا تقويماً إيجابياً من قبل المولى عز وجل ، وقد وردت القصة في خضم معركة العقيدة مع المشركين ، وتوجيه الرسول صلى الله عليه وسلم ابتداءً أن يحاجج بها المشركين ، فبدأت بقول الله " قل أوحى إلي " أي قل يا محمد لأمتك أوحى الله إليّ على لسان جبريل ، أنه استمع إليّ ( نفر من الجن ) وما كان عليه السلام عالماً به قبل أن أوحى إليه"<sup>(١)</sup>.

يورد صاحب الظلال هنا تعليقات غاية في الروعة والجمال على السورة بمجملها ،

نختصرها بما يلي:

١- تشكل إيقاعات السورة ودلالاتها شهادة من عالم آخر بكثير من حقائق العقيدة

التي كان يجحد منها المشركون ويزعمون أحياناً أنها من الجن ، فتجيء الشهادة من الجن أنفسهم، بما أوردوا من اعترافات ، ونظرة صحيحة للأمور بتعجب وأنشدها .

٢- أنها تصحح كثيراً من التصورات عن عالم الجن الذي كان العرب يعتقدون

أن له سلطاناً على الأرض ، وأنه يعلم الغيب ، ويتعامل معه الكهان في معرفة الغيب ، والبعض قد عبد الجن ، وزعم البعض أن الله منهم زوجه تلد الملائكة ، ولا زالت بعض الأساطير على هذا النحو حتى أيامنا هذه.

٣- أن الجن حقيقة موجودة، وأنهم أصناف مؤمنة ، وأخرى كافرة ، وأنهم

قابلون بخلقهم لتوقيع الجزاء عليهم ، وتحقيق نتائج الإيمان والكفر فيهم .

٤- وأهم ما تقرره السورة عن لسان الجن هو حقيقة الألوهية ، وحقيقة

العبودية، وذلك قاعدة التصور الإسلامي بمجمله " .

ولقد وردت عدة آيات أخرى في الكلام عن الجن وتقويم صفاتهم ، وعرض أحوالهم ،

منها قوله تعالى ﴿ إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما حزبه ليكونوا من أصحاب

البحيم﴾ [فاطر: ٦] وقوله تعالى : ﴿ قال عفريت من الجن أنا أتيتك به قبل أن تقوم من

مقامك وإني عليه لقوي أمين قال الذي عنده علم من الكتاب أنا أتيتك به قبل أن يرتد إليك

طرفك فلما رآه مستقراً عنده ، قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ومن شكر

فإنما يشكر لنفسه ،ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾ [النحل : ٣٩-٤٠] .

(١) القرطبي : ج ١٩ ، ص ١ .

وقوله تعالى ﴿ فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ [سبأ: ١٤] وقوله تعالى ﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجن من مارج من نار ﴾ [الرحمن: ١٤-١٥] .

ونلاحظ أن الآيات حددت عدة صفات للجن ضمن منهجية القرآن في تقويمها كمخلوقات خلقت للعبادة ، ولها في أذهان البشر تصورات تصل إلى حد الأساطير ، ومن هذه الصفات الحقيقية:

- أن الشيطان عدو لآدم وهو هنا والله أعلم ، إبليس وذريته من العصاة الذين نذروا أنفسهم للغواية والإضلال كما هو رأي أغلب المفسرين .
- أن حزب الشيطان ضالون مضلون ، وهم من أصحاب النار .
- السرعة والقدرة الفائقة في إحضار ما يؤمرون به من مكان إلى مكان -
- كما هي جن سليمان - " أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك " .
- القوة والأمانة " وإني عليه لقوي أمين " .
- عنده علم من الكتاب ، وهو أسرع وأقدر ، " أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك " .

وبعد هذه الجولة مع منهجية القرآن الكريم في تقويم الجن ، ومعرفة بعض صفاتها ، يتأكد عندنا شمول منهج التقويم في القرآن الكريم لمخلوقات الله تعالى ، وهذا ما أردنا إثباته في هذا المبحث .

\*\*\*

## **المبحث الثاني**

### **مجال تقويم المعتقدات والمبادئ**

**وفيه ثلاثة مطالب :**

**المطلب الأول : تقويم عقائد أهل الكتاب**

**المطلب الثاني : تقويم العقائد والمبادئ في القصص القرآني**

**المطلب الثالث: تقويم عقائد مشركي العرب وأفكارهم**

## تمهيد

طرق القرآن قضية العقيدة والفكر والمبدأ طرقات واسعة ، وناقشها مناقشة مستفيضة ، وقومها تقويماً صريحاً شاملاً ، ذلك أنها تُشكّل الأساس والعمق الذي تُبنى عليه التصورات والسرور ، في المنظومة النظرية الفكرية للإنسان حول الإله والكون والحياة ، وارتباطها ببعضها البعض من ناحية ، وارتباطها بمسيرة الإنسان وتفاعله معها انسجاماً أو مناكفة من ناحية أخرى .

ومعيار القرآن بداية لهذا المجال من مجالاته الكثيرة ، وميزانه في تقويم العقائد والأفكار والمبادئ ، هو : الوجدانية ، القائمة على وجود إله واحد ، فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد .

وهو امتداد لخط الوجدانية الذي سار عليه كل الأنبياء والرسول ، من أرسل منهم بكتاب ورسالة لبني البشر ، أو من لم يكلف بذلك ، وهم الأكثرية .

ولقرآن الكريم جولات متعددة في مجال صراع العقيدة والفكرة مع الآخرين ، لا يمكن حصرها ، ولكننا سنناقشها في أمثلة متفرقة ، وفي أكثر من مجال ، خاصة في ميدان التداخُل مع أهل الكتاب والمُشركين من عرب الجاهلية ، وبعضاً مما عرضه القصص القرآني في سيرة بعض الأنبياء مع أقوامهم . وسيكون ذلك حسب المطالب التالية :

### أ) المطالب الأول : تقويم عقائد أهل الكتاب

ورد ذلك في آيات كثيرات من كتاب الله عز وجل نذكر بعضها ، وما ورد بخصوصها من أقوال العلماء والمفسرين كالتالي :

• قال الله تعالى في سورة النساء : ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا وأسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا وأسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ [النساء : ٤٦] .

ويقول كذلك : ﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً ﴾ [النساء : ٤٨] .

ويقول عز وجل : ﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً ﴾ [ النساء : ٥١ ] .

وتُشكّل الآيات جولة مع أهل الكتاب " اليهود " لتعرض أفكارهم واعتقاداتهم وتنقدها وتقومها، فهم يتأولون القرآن ، ويفسرونه على غير مراد الله منه افتراء منهم وقصداً ، ويستمعون ولا يطيعون ، ويلوون ألسنتهم طعناً في الدين ، وكان الأولى أن يسمعوا ويطيعوا ، وذلك هو الأقوم طريقاً والأهدى سبيلاً . وختم الله حكمه عليهم وتقويمه لهم ، أن اللعنة حاقة بهم ، وأن إيمانهم قليل لا يرقى إلى صفة الإيمان النافع .

ونلاحظ أن الله عز وجل لم يعمم حكمه على جميع أهل الكتاب ، بل قال " من الذين هادوا " وذلك عدلاً منه وإنصافاً .

ثم أنهم يؤمنون بالجبت والطاغوت ، عن ابن عباس قال : الجبت : الشرك ، وعنه الجبت : الأصنام . وقال العلامة أبو نصر بن إسماعيل بن حماد الجوهري في كتابه الصحاح : الجبت كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك <sup>(١)</sup> .

قوله تعالى : " من الذين هادوا ... " المعنى : من الذين هادوا من يحرفون ... " الكلم " لأنهم إنما يحرفون كلم النبي صلى الله عليه وسلم ، أو ما عندهم من التوراة ، وليس يحرفون جميع الكلم " <sup>(٢)</sup> .

• يقول الله عز وجل في سورة المائدة : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير، وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾ [ المائدة : ١٧-١٨ ] .

ويقول سبحانه في نفس السورة : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه

(١) ابن كثير : ج ١ ، ص ٤٨٥ .

(٢) انظر القرطبي : ج ٥ ، ص ٢٤٣ .



الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ، لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ، أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ، ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنا يؤفكون ﴿ [ المائدة : ٧٢-٧٥ ] .

ويقول كذلك : ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مسودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ [المائدة : ٨٢-٨٣] .

• ويقول تعالى في سورة النساء ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ [النساء : ١٧١] .

ولقد مرت معنا بعض هذه الآيات في معرض الكلام عن قاعدة الوضوح والصرامة في التقويم ، وهي تمر ههنا في معرض تقويم القرآن لعقائد هؤلاء ، وقد غالوا واشتطوا ، اليهود منهم والنصارى على حد سواء ، وتجاوزوا الحق ، وتقولوا على عيسى وأمه البتول مريم عليها السلام ، واعتقدوا بالتثليث . وكل ذلك عقائد باطلة قومها الله وحكم عليها بالضلال والكفر الصريح .

قوله تعالى ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ﴾ نهي عن الغلو ، والغلو التجاوز في الحق ... ويعني بذلك فيما ذكره المفسرون : غلو اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم ، وغلو النصارى فيه حتى جعلوه رباً ، فالإفراط والتفريط كله سينة وكفر .

" فآمنوا بالله ورسله " أي آمنوا بأن الله إله واحد خالق المسيح ومرسله وآمنوا برسله ومنهم عيسى فلا تجعلوه إلهاً... قال ابن عباس: يريد بالتثليث الله تعالى وصاحبته وابنه<sup>(١)</sup>.

(١) انظر القرطبي : ج ٦ ، ص ٢١-٢٢ .

وللشهيد سيد قطب - رحمه الله - وقفات رائعة حول موقف القرآن من أهل الكتاب وتقويمه لعقائدهم ، نلخص بعضها حسب ما ورد عن آيات سورة المائدة ، الآيات من (٦٧-٦٨) وهي قوله تعالى ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ ونرى ذكر هذه الوقفات هنا مفيداً ومدعماً لمنهج القرآن في تقويم أهل الكتاب .

١- إن كلمة الحق في العقيدة لا ينبغي أن تجمجم ! إنها يجب أن تُبلَّغ كاملة فاصلة ، وليقل من شاء من المعارضين لها كيف شاء وليفعل من شاء من أعدائها ما يفعل ، فإن كلمة الحق في العقيدة لا تتملق الأهواء ، ولا تراعي مواقع الرغبات ، إنما تراعي أن تصدع حتى تصل إلى القلوب في قوة ونفاذ وقوة الصدع هي التي تُكسِن القلوب القاسية ، والتلعثم لا يزيد القلوب القاسية إلا قساوة وتردداً .

٢- إن القوة والحسم في إلقاء كلمة الحق في العقيدة لا يعني الخشونة والفظاظة ، فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة .- وليس هناك تعارض ولا اختلاف بين التوجيهات القرآنية المتعددة - والحكمة والموعظة الحسنة لا تنافيان الحسم والفصل في بيان كلمة الحق .

فالوسيلة والطريقة إلى التبليغ شيء غير مادة التبليغ وموضوعه ، فلا مداهنة في العقيدة ، ولا النقاء في منتصف الطريق فالعقيدة ليس فيها أنصاف حلول .

٣- حينما كلف الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يواجه أهل الكتاب بأنهم ليسوا على شيء في الدين والعقيدة والإيمان ، بل ليسوا على شيء أصلاً يُرتكن إليه ، كانوا يتلون كتبهم ، ويدعون اليهودية والنصرانية والإيمان ، ومع ذلك لم يعترف لهم بشيء من ذلك ، لأن الدين ليس كلاماً وقراءة كتب ، إنما هو عقيدة صحيحة ، والتزام ونظام حياة .

٤- والله يعلم أن مواجهتهم بهذه الحقيقة الحاسمة - أنهم ليسوا على شيء - ستزيد كثيراً منهم طغياناً وكفراً ، ولكن الحق أولى أن يصدع به ، ولا يجب أن يأسى الرسول صلى الله عليه وسلم على إعراضهم وكفرهم ، فليعرض الحق واضحاً ، وليكن ما يكن من إيمان أو كفر من هؤلاء .

٥- إن التّلف في دعوة الناس إلى الله ، ينبغي أن يكون في الأسلوب الذي يبلغ به الداعية ، لا في الحقيقة التي يبلغهم إياها ... إن الحقيقة يجب أن تبلغ إليهم كاملة ، أما الأسلوب فيتبع مقتضيات القائمة ، ويرتكز على قاعدة الحكمة والموعظة الحسنة .

٦- قول الله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ .

فالذين آمنوا هم المسلمون ، والذين هادوا هم اليهود ، والصابئون في الغالب تلك الفئة التي تركت عبادة الأوثان قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم وعبدت الله وحده على غير نحلة معينة ، ومنهم من العرب أفراد معدودون ، والنصارى هم أتباع المسيح عليه السلام .

والآية تقرر أنه أياً كانت النحلة ، فإن الذين آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحاً - ومفهوم ضمناً في هذا الموضع ، وتصريحاً في مواضع أخرى أنهم فعلوا ذلك على حسب ما جاء به الرسول الأخير - فقد نجوا " فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون " ولا عليهم مما كانوا فيه قبل ذلك ، ولا مما يحملون من أسماء وعنوانات ... فالمهم هو العنوان الأخير .

٧- تُقرر الآيات مواقف الطوائف المذكورة من النبي صلى الله عليه وسلم ودعوته وأمته ، وذلك وفق منهج القرآن وتوجيهاته وتقويماته . فهذا الكتاب كان ولا زال موجهها ومرشدها ورائدها في نظام حياتها كله .

" لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا " ولعل تقديم عداوة اليهود للذين آمنوا على عداوة المشركين في الآية دليل على أنهم أشد عداوة من المشركين ضد الإسلام ودعوته .

ويشفع لهذا الرأي تاريخ اليهود مع دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم منذ البداية وحتى يوم الناس هذا .

فاليهود لم يراعوا وثيقة المدينة ، واخلفوا كل المواثيق والعهود ﴿ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم ، بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾ وكانت معهم معارك شرسة : مع بني قريظة ، وبني النضير وبني قينقاع ويهود خيبر ، وهم الذين ألّبوا الجزيرة في غزوة الخندق ، والذي ألّب العوام ، وجمع الشراذم وأطلق الشائعات في فتنة عثمان رضي الله عنه يهودي .

والذي قاد حملة الوضع والكذب في أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم يهودي ، ثم الذي أثار فتنة النعرات القومية في عهد الخلافة العثمانية مؤخراً وقضى على الخلافة بزعامة أتاتورك يهودي.

وكان وراء النزعة الإلحادية العالمية يهودي . وقاد الهجمة المعاصرة على طلائع البعث الإسلامي ، والحركات الإسلامية يهود . ولقد كانت الحرب التي شنّها اليهود على الإسلام والمسلمين قديماً وحديثاً أكبر مجالاً ، وأوسع نطاقاً من التي قادها المشركون من العرب قديماً ، وما قد يخوضونه حديثاً .

٨- قول الله تعالى ﴿ ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ، وذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وانهم لا يستكبرون .. والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴾ .

إن هذه الآية الكريمة تصور حالة معينة محددة ، تخص فريقاً من أتباع عيسى عليه السلام كانوا لا يستكبرون على اتباع الحق ، وهم قد آمنوا بما أنزل على رسول الله وبكوا خشية وإيماناً ، وتمنوا أن يكونوا مع الشاهدين على صدق رسالة الإسلام ، وطمعوا أن يكونوا مع الصالحين . وكان جزاء غيرهم من اليهود والنصارى الجحيم والنار . وينفي هذا زعم البعض من أن الآيات تشمل كل النصارى من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم ومن لم يؤمن ، وهي شبهة يتشبث بها البعض جهلاً وعناداً ، ويعتمدون في تقريرها على الآية الكريمة الأولى فقط ، ولا يعملون النظر في الآيات الأخرى التي تكمل الصورة وتجلي الحقيقة .

٩- نظراً لصعوبة تصور الأقانيم الثلاثة في واحد ، وصعوبة الجمع بين التوحيد والتثليث عند النصارى ، تم تأجيل النظر العقلي في هذه القضية . يقول القس " بوطر " في رسالة الأصول والفروع " قد فهمنا ذلك على قدر طاقة عقولنا ، نرجو أن نفهمه فهماً أكثر جلاء في المستقبل ، حين يكشف لنا الحجاب عن كل ما في السموات وما في الأرض . وأما في الوقت الحاضر ففي القدر الذي فهمناه كفاية .

١٠- لقد تكلم المسيح عليه السلام بنفسه كما أورد القرآن الكريم ، وأثبت إنسانيته ، وأنه رسول الله ، وإن الله واحد أحد ، وأنه كان وأمه صديقين ، وكانا يأكلان الطعام ، وأن

عبادة غير الله لا تملك ضراً ولا نفعاً ، ونصحهم بعدم اتباع أهواء الضالين ... إلخ إلا إنهم كذبوا وكفروا وثنثوا وأهوا عيسى عليه السلام .

١١- ونختم وفتنا مع تعليقات صاحب الظلال وفتاته حول آيات سورة المائدة ، المذكورة بتركيزه على ثلاث حقائق مهمة حول موضوع العقيدة ، وتوجيهها وتقويمها وتصويبها .

**الحقيقة الأولى :** هي حقيقة هذا الجهد الكبير الذي يبذله المنهج الإسلامي ، لتصحيح التصور الاعتقادي ، وإقامته على قاعدة التوحيد المطلقة ، وتنقيته من شوائب الوثنية ، والشرك التي أفسدت عقائد أهل الكتاب ، وتعريف الناس بحقيقة الألوهية وإفراد الله - سبحانه وتعالى - بخصائصها ، وتجريد البشر وسائر الخلائق من هذه الخصائص ، مما يدل على أهمية هذا التصحيح والتقويم .

**الحقيقة الثانية :** هي تصريح القرآن الكريم بكفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ، أو قالوا إن الله ثالث ثلاثة ، فلم يعد لمسلم - بعد قول الله سبحانه - قول ، ولم يعد يحق لمسلم أن يعتبر أن هؤلاء على دين الله ، والكفر لا يمكن أن يكون ديناً يرضاه الله عز وجل .

**الحقيقة الثالثة :** المترتبة على هاتين الحقيقتين أنه لا يمكن قيام ولاء وتناصر بين أحد من أهل الكتاب هؤلاء وبين المسلم ، ومن ثم يصبح التناصر بين أهل الأديان أمام الإلحاد كلاماً لا مفهوم له في اعتقاد الإسلام<sup>(١)</sup>.

ويمكننا بعد هذا العرض المقتضب لجزء من منهجية القرآن الكريم في تعامله مع أهل الكتاب وتقويمه لعقائدهم أن نجد النقاط التالية على ضوء ما مر من مفردات البحث السابقة :

١- أن تقويم عقيدة أهل الكتاب وأفكارهم وتصوراتهم قضية أساسية في منهج القرآن الكريم، وستبقى مستمرة إلى يوم القيامة ، كمجال واسع من مجالات التقويم القرآني الفريد .

(١) انظر الظلال : ج ٢ ، ص ٩٣٨-٩٦٤ .

٢- أن أهل الكتاب قد قوموا أنفسهم على معيارهم هم فقالوا " نحن أبناء الله وأحباؤه " فكان معيارهم فاسداً وتقويمهم أنانياً ، ولذلك رد عليهم القرآن الكريم " قل فلم يعذبكم بذنوبكم" كيف تكونون أبناء الله وأحباؤه وأنتم معذبون بسبب ذنوبكم ومعاصيكم وانحرافاتكم ، فقد كذبتكم الرسل ، وقتلتكم الأنبياء عليهم السلام . وهذه مفارقة عجيبة ، وادعاء يكذبه الواقع، فقصتكم مع موسى عليه السلام مشهورة ، واتهامكم لعيسى وأمه غير خاف .

٣- قوم الله رسوله صلى الله عليه وسلم بعدما أمره بالتبليغ ، إنه إن لم يفعل هذا فما هو بمبلغ ، ولا بقائم بالأمر الرباني . وهذا من باب الصراحة القرآنية في التقويم ، وعدم استثناء أياً كان من التصويب والتصحيح والتقويم ، وإن كان محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .

٤- الصراحة التامة : في تقويم أهل الكتاب " لستم على شيء " أي شيء ، بينما يتدسس البعض في التقويم والنقد ، وخاصة في باب العقيدة ، ولا يجرء على قول ما قاله الله بحق المنحرفين، خشية الاتهام بالشدة والتطرف ، والتشدد ، وهناك فرق بين قولة الحق وتبيان الحقيقة وبين الأسلوب في معاملة الخلق والتلطف معهم .

٥- هناك فرق بين أن تبلغ أهل الكتاب بكفرهم ، وأنت مرتفع الصوت منتفخ الأوداج ، تزيد وترغي وتملأ الدنيا صراخاً وتهديداً وعويلاً ، وبين أن تقولها صريحة بهدوء واتزان ، طالباً لهم الهداية والإيمان والاستقامة ، فقد قالها القرآن بعد أن وصف أهل الكتاب بالكفر الصريح قال تعالى : ﴿أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه ، والله غفور رحيم ﴾ .

٦- ومع أن طابع الآيات كان يحمل الوضوح والصراحة والمكاشفة بتقويم أهل الكتاب ، إلا أنه في المقابل لم يُعمم الحكم عليهم ، فقد استثنى منهم طائفة أمنت وبكت ، ورجت صحبة الصالحين ، والشهادة على الدين . وقد وردت عدة آيات دلت على أن التعميم ليس من أسلوب التقويم القرآني من مثل :

﴿ لعن الذين كفروا من بني إسرائيل ﴾ الذين كفروا هم الملعونون فقط ( ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا ) الكثير هم الذين يتولون ، ولربما أن هناك قليلاً لا يتولون ﴿ولتجدن أقربهم مودةً للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً ﴾ وليس كلهم أقرب مودةً للذين آمنوا .

## ب) المطلب الثاني : تقويم العقائد والمبادئ في القصص القرآني :

ركّز القصص القرآني على تقويم العقائد والأفكار والمبادئ ، وقد ظهر ذلك في دعوات الأنبياء والرسل مع أقوامهم مما يؤكد أن ذلك كان من أوسع مجالات التقويم القرآني ، ومن ذلك :

١- قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع أبيه وقومه في صدد الإيمان والعقيدة وعبادة الأصنام كما وردت في قول الله تعالى من سورة الأنعام ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ، وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين ، فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لنن لم يهديني ربي لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إني بريء مما تشركون ، إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، وحاجه قومه قال أتحاجوني في الله وقد هدان ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً أفلا تتذكرون ، وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون، الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون، وتلك حاجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم ﴿ [الأنعام: ٧٤-٨٣].

تعرض الآيات صورة رائعة موحية من صور التقويم ، والحكم على العقائد والمعبودات في موقف من مواقف نبي الله إبراهيم عليه السلام .

موقف تقويمي متدرج عاقل ، اعتمد المحسوسات من خلق الله كبداية للهداية ، بعد أن رفض الأصنام الآلهة التي عبدها أبوه وقومه ، وحكم على هذه العقيدة وهذا التصور بالضلال المبين .

فارتفع - عليه السلام - بتفكيره عن موجودات الأرض إلى موجودات السماء ، فلعلها هي الآلهة الحقّة التي تنسجم مع فطرة إبراهيم المتأججة نحو اليقين و الإله الحق ، وقد حدثت التجربة في الليل ، والليل أقرب إلى الهدوء والتفكير والمحاكاة ، فقاده تفكيره إلى عبادة الكواكب المضيئة في الليل الداجي ، ولكن الأقول والغيباب للكوكب الأول ، ثم للقمر

البازغ ، ثم للشمس البازغة التي تكبر القمر حجماً ، هذا الأفعال والغياب كان هو المعيار العملي ، والدليل العقلي على أن ما رآه من هذه المخلوقات لا يمكن أن يكون إلهاً يعبد ورباً يُوحَّد ، فمعيار التقويم الحقيقي لإثبات الألوهية والوحدانية، واهتداء الفطرة ، هو : ثبات الخالق والإله ، وعدم تغيره أو غيابه ، ولو للحظة واحدة - الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما الأرض ... وهو العلي العظيم ﴿ وبعد هذا المنطق وهذا المعيار الفطري السليم ، والتدرج في تقويم المعبودات، اهتدى إلى الوجهة الصحيحة ﴿إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾.

عند هذا التدرج في التقويم ، والاهتداء إلى فاطر السموات والأرض ، وخلع ربقة الشرك ، والتخلي عن المخلوقات بكل أشكالها ، بدأت رحلة المحاجة والجدال مع قومه ، وقد قابلهم بنفس المنهج الذي اهتدى به بالحجة والدليل ، أتجادلونني في أمر الله ، وهو صاحب الهداية . وبدأ معيار إبراهيم بصورة جديدة ، الله هو الهادي ، ولا أخاف مما تشركون به مما تزعمون ، إلا بإذن الله ، والله هو صاحب العلم بكل شيء ، فكل هذا لا يجعلكم ممن المتذكرين المفكرين بصورة سليمة ، لماذا أخاف وأنا الموحد ، ولا تخافون وأنتم المشركون ، فأنا أحق بالأمن والطمأنينة ، ثم حسم الله عز وجل معهم معركة التقويم هذه بقوة وحجة وحسم " الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون " فالهداية والأمن محققة ولا شك للذين لم يخطوا إيمانهم بظلم وشرك كما تفعلون .

ويختتم الحق تعالى موقف إبراهيم التقويمي لعقائد أبيه وقومه بتقويم رباني عظيم : أن إبراهيم هو صاحب الحجة على قومه بهذا المنطق ، وهذا المنهج ، والدرجات العالية هي لمن نشاء من عبادنا ، ونحن أعلم ، وأحكم بشئون الجميع .

ويعلق ابن كثير على منهجية إبراهيم عليه السلام مع قومه في هذه الجولة الحوارية التقويمية فيقول : " ... الحق أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كان في المقام مناظراً لقومه، مبيناً لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية ، التي هي على صور الملائكة السماوية ليشفَعوا لهم إلى الخالق العظيم ، الذي هو عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسلون إليه بعبادة الملائكة ، ليشفَعوا لهم عنده في الرزق ، والنصر وغير ذلك مما يحتاجون إليه .



وبين في هذا المقام خطأهم ، وضلالهم في عبادة الهياكل ، وهي : الكواكب السيارة السبعة ... وأشدهم إضاعة وأشرفهم الشمس ، ثم القمر ، ثم الزهرة ، فبين أولاً صلوات الله وسلامه عليه أن هذه الزهرة لا تصلح للتأليه فإنها مسخرة مقدره بسير معين ، لا تزيغ عنه يمينا ولا شمالاً... إلى أن يقول ... فلما انتفت الألوهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع " قال يا قوم إني برئ مما تشركون أي : أنا بريء من عبادتكم ، ومولاتكم ، فإن كانت آلهة فكيدوني بها جميعاً ثم لا تنظرون ﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ﴾ أي إنما أعبد خالق هذه الأشياء ، ومخترعها ومسخرها ، ومقدرها ومدبرها الذي بيده ملكوت كل شيء ، وخالق كل شيء ، وربّه ومليكه وإلهه " (١) .

ويورد صاحب الظلال على حلقة الموقف التقويمي الأخيرة في جولة إبراهيم مع أبيه وقومه في قوله تعالى ﴿ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ... إلى قوله ... نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم ﴾ فيقول : لقد كانت هذه هي الحجة التي ألهمها الله إبراهيم عليه السلام ، ليدحض بها حجته التي جاءوا بها يجادلونه ، ولقد كشف لهم عن وهن ما هم عليه من تصورهم أن هذه الآلهة تملك أن تسيء إليه . وواضح أنهم ما كانوا يجحدون وجود الله ، ولا أنه هو صاحب القوة والسلطان في الكون ، ولكنهم كانوا يشركون به هذه الآلهة . فلما واجههم إبراهيم عليه السلام بأنه من كان يخلص نفسه لله لا يخاف من دونه ، فأما من يشرك بالله فهو أحق بالمخافة .

لما واجههم بهذه الحجة التي آتاها الله له وألهمه إياها ، سقطت حجته ، وعلت حجته ، وارتفع إبراهيم على قومه عقيدة وحجة ، ومنزلة . وهكذا يرفع الله من يشاء درجات ، متصرفاً في هذا بحكمته وعلمه " (٢) .

وتستمر الآيات الكريمات بعد هذا المقطع بعرض صورة الرهط الكرام ، أنبياء الله الكرام ، وأنهم على نفس المنهج مع أقوامهم ومعبودات المشركين ، ثم يختتم الله هذا المشهد المبارك مع أنبيائه عليهم السلام بحكمه عليهم وتقويمه لهم فيقول : ﴿ أولئك الذي هدى الله فبهادهم اقتده ، قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾ [ الأنعام : ٩٠ ] .

(١) انظر ابن كثير : ج ٢ ، ص ١٤٣-١٤٤ .

(٢) الظلال : ج ٢ ، ص ١١٤٢ .

هذه هي النتيجة المطلوبة من هذه الجولة التقويمية ، أن يتجه الناس جميعاً ، وخاصة المشركين وأصحاب المعبودات من دون الله ، إلى خط الأنبياء والرسل عليهم السلام ، خط الهداية والاستقامة .

٢- قصة سيدنا يوسف عليه السلام مع صاحبي السجن كما وردت في سورة يوسف ، قال الله تعالى ﴿ ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله ، إنا نراك من المحسنين ، قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله وهم بالآخرة هم كافرون ، واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون ، يا صاحبي السجن أ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباءكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، يا صاحبي السجن أما أحدكما فيسقي ربه خمراً وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾ [ يوسف: ٣٦-٤١ ] .

قصة يوسف عليه السلام رحلة طويلة ، ذات مراحل وأطوار ، مختلفة الأحداث والعبر والدروس ، تمثل الابتلاء ، والصبر ، والدعوة ، والسجن ، والتمكين ، والشكر . بدأت مع الاخوة وكيدهم وحسدهم ، وما حاكوه من قصة مصطنعة بحق يوسف عليه السلام وشأنه مع الذنب ، ثم انتقلت إلى قاع الجب ، ثم حياة الرقيق والبيع ، ثم حياة الملك والحكم ، إلى حياة الفتنة والمرادة من امرأة العزيز في مصر ، إلى السجن ، إلى لقاء والده واخوته وندمهم على ما فعلوا ، إلى الإنابة والشكر ، إلى الاجتماع مع الوالدين في آخر المطاف .

تعرض الآيات السابقة مقطعاً من رحلة يوسف ، وهو ما يخص مادة هذا المطلب من مبحث تقويم العقائد والأفكار في قصص الأنبياء عليهم السلام .

وقد قام تقويم يوسف عليه السلام لمعبودات وعقائد هذين الفتيين صاحبي السجن على عدة مقومات دعوية ، إذ أن يوسف عليه السلام قد قام بدوره الدعوي التوحيدى داخل السجن ، رغم قيود السجن ومحنته وضيقه .

فقد كان محبوباً لأهل السجن ، ومطاعاً لديهم ، بسبب خدمته لهم ، ولطفه معهم ، وحسن خلقه وسيرته ، وعلمه وتأويله ، فقد قال له الفتيان : ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ وهذا تقويم ووصف حسن من قبل الفتيان ، يفتح الباب واسعاً أمام يوسف عليه السلام ليدخل منه بسهولة للدعوة إلى الله، وتقويم عقائد هؤلاء ، والحكم عليها ، ولذلك فإن من أهم الصفات التي يجب أن تتوفر لدى المقومين لأي شأن ، أن يكونوا مقبولين ، محسنين ، محبوبين بصفاتهم وخصالهم الطيبة الحسنة .

وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود ، والأمانة، وصدق الحديث، وحسن السمات ، وكثرة العبادة، ومعرفة التعبير والإحسان إلى أهل السجن ، وعبادة مرضاهم ، والقيام بحقوقهم ، ولما دخل هذان الفتيان إلى السجن تألفا به وأحباه حباً شديداً<sup>(١)</sup>.

وعرض يوسف عليه السلام كذلك قدرته على تفسير الأحلام ، لمزيد من فتح الباب أمام التقويم الدعوي ، والحكم على الآلهة ، الذي سيقوم به عليه السلام . وشبيه ذلك قوله للملك عبر قصته الطويلة ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ وهو تقويم ذاتي، ونوع من تركية النفس ، يقبل في مثل هذه المواطن الدعوية ، التي لا يقوم بها إلا يوسف ، وهدفها الدعوة إلى الله ، وتصليح العقائد ، والحكم بما أنزل الله . ثم هو مباشرة بعد تهيئة الجو ، يرجع كل ذلك إلى علم ربه وإلهه ، ولم يعزوه لنفسه فقط ، إذ أن التقويم الأصلي سينصب على تقويم العقيدة ، والفكرة والتصور لدى هؤلاء ، وليس المقصود به شخصه ، أو ذاته كإنسان يعيش مع مجموعة مسجونة محتاجة لقدراته ومؤهلاته . كلا ، إنها دعوة للتوحيد ونبذ للشرك والآلهة المتفرقة ، ثم يتقدم مرحلة أخرى في طريقه التقويمي ليقول : ﴿ إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله ، وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ وكأنه يقول : إن سبب ما أنا فيه من خير ومعرفة ، هو بسبب تركي لملة الشرك والكفر التي كان عليها قومي ، بل وعامة المشركين.

ويتدرج بخطوة أخرى هي البديل الذي هيا له السامعين فيقول ﴿ واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب .. ﴾ إن عقيدتي وتركي لملة الكفر هي : عقيدة وطريقة آبائي من موكب الأنبياء الكرام التي لا تقر لنا الإشراف بالله عز وجل ، وهذا الإيمان هو فضل الله

(١) ابن كثير : ج ٢ ، ص ٤٥٩ .

ونعمته علينا ، بل وعلى جميع الناس ، ولكن الجهل وقلة العلم بهذا الشأن هو الذي يصرف أكثر الناس عن الإيمان ، والتوحيد. ويقرع يوسف عقول أهل السجن وقلوبهم فهم من هؤلاء الناس المقصودين بهذه الدعوة والعقيدة فيقول لهم : وبعد أن عرفتم ما عرفتم من أمري ، وعقيدتي وديني ، وذلك لي ولكم ولكل الناس ، فماذا تنتظرون ؟

وأمام منهجية يوسف المتدرجة المقنعة ، الطارقة على وتر العقل والقلب والحاجة معاً ، ينتقل إلى نوع آخر من التقويم والحكم وهو المقصود أصلاً من دعوته وتفاعله مع محيطه في السجن ، إنه تقويم آلهتهم ، وخلع قيمتها من قلوبهم وعقولهم ، التي أصبحت مستعدة ومهيأة بشكل كامل لقبول ما يقول .

فبدأ بنداء جميل محبوب للنفس وهو " يا صاحبي السجن " والمناداة هنا بالصحبة مؤثر ولا شك ، وأعطى مزيداً من التهيئة والاستعداد عند الفتيتين . وقد استعمل في تقويمه أسلوب المقارنة العقلية المقنعة " ء أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار " أيهما أخير وأحسن ، الأرباب ( الآلهة ) الكثيرة المتفرقة المختلفة ، أم الله الواحد صاحب القدرة والغلبة . ثم بدأ يقوم هؤلاء الأرباب مباشرة ، فهم معبودات من دون الله وهي فقط أسماء وألقاب صنعتوها أنتم وآباءكم ، أي : أن كثير ذلك على الآباء كما هو على الأبناء ، وربما في ذلك تخفيف عليهم ، إذ لا يلامون وهدمهم على هذا الانحراف .

وطبيعة الإنسان دوماً راغبة في إشراك الآخرين بما قد تقع فيه من تقصير و خطأ ، وكل هذا الذي أنتم عليه ليس عليه حجة ولا دليل من الله .

فالتقويم السليم أن الحكم والأمر لله ، وهو الأمر بعبادته وحده ، وهذا هو الدين المستقيم الذي لا عوج فيه ولا انحراف ، ويختم بأن سبب عدم إيمان الناس أن أكثرهم يجهلون ولا يعلمون .

يقول ابن كثير في صدد ما قدمنا: " ثم إن يوسف عليه السلام أقبل على الفتيتين بالمخاطبة والدعاء لهما إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وخلع ما سواه من الأوثان التي يعبدها قومهما فقال : ﴿ ء أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴾ أي الذي نل كل شيء عز جلاله وعظمة سلطانه ... إلى أن يقول ... ثم قال تعالى " ذلك الدين القيم " أي هذا

الذي أدعوكم إليه من توحيد الله ، وإخلاص العمل له ، هو الدين المستقيم الذي أمر الله به ، وأنزل به الحجة والبرهان الذي يحبه ويرضاه " (١) .

ولصاحب الظلال لمسات نافعة حول تفسيره لآيات الكتاب العزيز نورد بعضاً مما خص به هذا المقطع من قصة يوسف عليه السلام ، يقول :

" وينتهز يوسف هذه الفرصة ليبيث بين السجناء عقيدته الصحيحة ، فكونه سجيناً لا يعفيه من تصحيح العقيدة الفاسدة ، والأوضاع الفاسدة ، القائمة على إعطاء حق الربوبية للحكام الأرضيين ، وجعلهم بالخضوع لهم أرباباً يزاولون خصائص الربوبية ويصبحون فراعين .

ويقول كذلك : ... وخطوة خطوة في حذر ولين ... يتوغل في قلبيهما أكثر وأكثر ، ويفصح عن عقيدته ودعوته إفصاحاً كاملاً ، ويكشف عن فساد اعتقادهما واعتقاد قومهما ، وفساد ذلك الواقع النكد الذي يعيشون فيه ... وبعد ذلك التمهيد الطويل ... " يا صاحبي السجن .... ولكن أكثر الناس لا يعلمون " .

لقد رسم يوسف - عليه السلام - بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة ، كل معالم هذا الدين ، وكل مقومات هذه العقيدة ، كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية ، هزاً شديداً عنيفاً " .

يقرر يوسف - عليه السلام - أن اختصاص الله - سبحانه - بالحكم تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة - هو وحده الدين القيم " ذلك الدين القيم " وهو تعبير يفيد القصر ، فلا دين فيما سوى هذا الدين الذي يتحقق منه اختصاص الله بالحكم ، تحقيقاً لاختصاصه بالعبادة " (٢) .

٣- قصة إبراهيم عليه السلام كما وردت في سورة الأنبياء ، قال الله تعالى : ﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين ، إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين ، قال لقد كنتم أنتم وأبائكم في ضلال مبين ، قالوا أجبنا بالحق أم أنت من اللاعبين ، قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن

(١) ابن كثير : ج ٢ ، ص ٤٦٠ .

(٢) انظر الظلال : ج ٤ ، ص ١٩٨٨ - ١٩٩١ .

وأنا على ذلكم من الشاهدين ، وتا الله لأكيدين أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين ، فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يرجعون ، قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين ، قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ، قالوا أنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون ، فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون ، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخرسين ﴿ [ الأنبياء : ٥١-٧٠ ] .

ومرة أخرى مع رحلة إبراهيم عليه السلام الدعوية التقويمية لعقيدة أبيه وقومه ، وهي هاهنا في سورة الأنبياء تختلف في أسلوبها بعض الشيء عنها في سورة الأنعام التي مرت معنا سابقاً .

ففي الأنعام انطلق التقويم من مرحلة الخطاب المباشر لأبيه وقومه ، ودم عبادتهم للأصنام ، ثم انتقل إلى البحث بإيحاء الفطرة للاستدلال على الخالق عن طريق مخلوقاته في السماء ، مترفعاً عن موجودات الأرض وهذا - والله أعلم - زيادة في ذم آلهتهم ، ثم مرحلة التوجه لفاطر السماوات والأرض ، ثم حاجته لقومه ، وكيف أنه انتصر عليهم بشهادة الله له في ذلك ﴿ وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه ﴾ وانتهى التقويم بوصف الآلهة على ما سبق ، ثم إقامة الحجة ، ورفع درجة من يشاء الله عز وجل ، بسبب اتباع الطريق القويم .

وأما في سورة الأنبياء هنا فقد بُني التقويم - والله أعلم - على ما انتهى عليه الأمر مع قومه في مرحلته معهم كما في سورة الأنعام ، إذ قَوّم الله إبراهيم بالرشد والاستقامة ، لما وفقه للنظر والاستدلال عندما جنّ عليه الليل ، فرأى النجم والشمس والقمر ، وأنه أعلم باستعداده لحمل الأمانة وصلاحه للنبوة " .

ثم بدأ إبراهيم عليه السلام بالتقويم المباشر لآلهتهم بالاستنكار الواضح الصريح ، على صيغة السؤال الاستنكاري ، فكان الرد والحجة منهم أن قيمة العبادة لهذه الأصنام آتية من كون أنها معبودات الآباء والأجداد ، وهو تقويم ورد يدل على التحجر العقلي والنفسي ، مقابل حرية الإيمان ومنهج النظر والاستدلال ، الذي نهجه إبراهيم عليه السلام

في معرفة ربه ، والإيمان به ، وتقويم الأشياء والأوضاع بقيمها الحقيقية لا التقليدية ، فالإيمان طلاقة وتحرر من القداصات الوهمية التقليدية . وما كانت عبادة الآباء لتكسب هذه التماثيل قيمة ليست لها ، ولا لتخلع عليها قداسة لا تستحقها ، فالقيم لا تتبع من تقليد الآباء وتقديسهم ، إنما تتبع من التقويم المتحرر الطليق <sup>(١)</sup>.

وتستمر جولة المحاجة بين إبراهيم وقومه ، ينطلق كل منهما في منهجية التقويم للآخر من تصوره للأشياء ، ومن مبادئه في التوزين والقياس ، ينطلق هو من قيمة الأشياء الحقيقية ، وربطها بخالقها وفاطرها ، وينطلقون من منطق المتشكك المتردد ، الذي يقلد السابقين دون روية أو نظر .

وعندها - يبدو والله أعلم- أن المحاجة الكلامية والتقويم بالنظر والحجة لم تنفع معهم ، ولم تفتح لذلك عقولهم وقلوبهم ، فيتحول إبراهيم - عليه السلام - إلى مرحلة من التقويم جديدة ، فهو لم يكتف بالمحاجة باللسان ، بل كسر الأصنام وهو واثق بالله تعالى ، موطن نفسه على مقاساة المكروه في الذب عن الدين <sup>(٢)</sup>.

ومرحلة استعمال القوة في التقويم واردة عند الاستطاعة ، مع أن إبراهيم قد وُصف في القرآن في موضع آخر بأنه أواه منيب ، حلِيم صبور ، ولكن الأمر - يبدو هنا - قد تعدى الحد المعقول في استطاعة البشر على الصبر والتروي لجمود الآخر ، ومحاجته وتحجره . ويعضد هذا حديث الرسول صلى الله عليه وسلم " من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان " وأراد إبراهيم توظيف هذا التقويم المرحلي بتكسير الأصنام ، وجعلها قطعاً لشوط آخر من التقويم النهائي الذي يختم به معركته مع أبيه وقومه ، فترك كبير الأصنام ليزيد به حيرتهم ، ويقوي به حجته ، ويلذعهم بنوع من النقد القاسي ، الذي يستخف به بعقولهم وألبابهم ، عند رجوعهم من الاحتفال بعيدهم ، واستفسارهم عما حل بأصنامهم . فكان ما فكر به إبراهيم عليه السلام تماماً ، وبمغالطة تقويمية متجاهلة للحقيقة والمنطق يقولون : ﴿ من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين ﴾ وهكذا ، مباشرة إن الذي فعل هذا ظالم جائر ، يتعدى على الآلهة المقدسة المعبودة . إنه منطق التقويم الضعيف الأعوج ، الذي لا يصمد أمام الحجة البالغة

(١) انظر القرطبي : جزء ١١ ، ص ٢٩٦ . والظلال : ج ٤ ، ص ٢٣٨٥ .

(٢) انظر القرطبي : جزء ١١ ، ص ٢٩٧ .

والدليل العملي . وكان الأولى أن يرجعوا إلى آلهتهم ، ويقومونها تقويماً سليماً منطقياً ، إذ لو كانت آلهة حقيقية تضر وتنفع لما حل بها ما حل ، ولدافعت عن نفسها ، فالمعبود قادر قاهر ، والعابد ضعيف محتاج ، ولازال تقويمهم سطحياً يحمل صفة الاستكبار والعنجهية . قالوا : سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم ، بصيغة الاستخفاف والتهمك ، وكأنه مجهول الهوية والمكانة ، مع أنه معروف لديهم ، وبينه وبينهم جولات في صراع العقيدة ، وتقويم الفكرة . ثم قالوا : ﴿ فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون ﴾ وكأنهم هنا أرادوا استخدام بعض المنطق في مقابله والتحقيق معه ، إما كنوع من التبين والتثبت من فعلته ، وهذا محمود ، أو كنوع من التظاهر بذلك ، هادفين إلى التشهير به ، وإخافة الناس جميعاً من طريقه ومنهجه ودعوته . على أية حال ، فقد تم هذا ولو ظاهرياً . وهنا يبهتهم إبراهيم عليه السلام بدليل تقويمي ملموس . " قال بل فعله كبيرهم هذا فسالوهم إن كانوا ينطقون " حجة دامغة محرجة ، ونقطة لصالح رصيده التقويمي الناجح . ثم هم بردة فعل عليها متسقة مع الفطرة البشرية ، أن رجعوا إلى أنفسهم وقوموا بعضهم تقويماً جماعياً ﴿ إنكم أنتم الظالمون ﴾ وكانت النتيجة نوع من الإفاقة ، وتنكيس الرؤوس ، والنطق بالحقيقة ، وتقويم الآلهة ﴿ لقد علمت ما هؤلاء ينطقون ﴾ عندها يستغل إبراهيم عليه السلام هذه الخلعة النفسية والعقلية التي انتابتهم ، ويطلق سهمه الأخير ليتحقق بذلك انتصار منهج التقويم السليم ، المنطقي الواقعي ، على منطق السذاجة والتقليد ، والتحجر والمكابرة ﴿ قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ﴾ وحيث أنكم اعترفتم بحقيقة آلهتكم ، فلا نطق عندها ، ولا قوة ولا مدافعة ، وهي لا تملك ضراً ولا نفعاً ، فكيف إذا اتخذونها آلهة ، وتعبدونها من دون الله ؟ وبنفذة حررى ، وزفرة غيظ وضجر مما يعبدون ، يختم معهم الموقف ، ويذكرهم باستخدام عقولهم إن كانوا يعقلون .

ويظهر هدف التقويم جلياً من جولة إبراهيم عليه السلام مع قومه ، وهو أن يعقلوا ويفتقدوا فيما تم ، لعل ذلك يكون سبيل هدايتهم ، وإنابتهم إلى ربهم ، ويؤكد ذلك على غرضية التقويم في التصور الإسلامي والقرآني .



## ج) المطلب الثالث: تقويم عقائد مشركي العرب وأفكارهم :

عرض القرآن الكريم جولات عديدة ، ومواقف مديدة ، مع مشركي العرب في تشخيص أحوالهم ، ووصف أفكارهم وتصوراتهم ، وتقويم عقائدهم وألهتهم . وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعيش أكثر هذه المواقف مباشرة في مناسبات وتحديات ، شملت كل مجالات التغيير المطلوبة في حياة هؤلاء المشركين ، الذين وجهت لهم رسالة الإسلام ، وخصهم الله بها . ونتناول هنا موقفين اثنين ، من مواقف القرآن الكريم معهم ، في مجال تقويم عقائدهم وأفكارهم ، ضمن مادة هذا المطلب ، موقف مع المشركين ، وآخر مع المنافقين .

١- قال الله تعالى في سورة النجم ﴿ أفر أيتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذا قسمة ضيزى ، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن ومن تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ، أم للإنسان ما تمنى ، فله الآخرة والأولى ، وكم من ملك في السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى ، ومالهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ، فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى ﴾ [النجم : ١٩-٣٠].

سورة النجم سورة رائعة الحبك والإيقاع ، في مفرداتها ومعانيها ، تطرق مقطعتها الأول لرحلة المعراج ، وما بها من حقائق العقيدة ، ومعالم الغيب ، ليدحض اتهام المشركين ، ويبطل زعمهم في وصفهم للرسول صلى الله عليه وسلم بالضلال والغواية ، وما إلى ذلك من الأوصاف . ثم يجيء المقطع الذي نحن بصدده لتكون المقارنة حقيقية ، والتقويم منطقي بين ما قد ثبت في رحلة المعراج ، وبين ما هم عليه من تصورات وعقائد وأفكار حول الأصنام وعبادتهم لها .

ويبدأ الوصف والتقويم بصيغة التعجب والتشهير ﴿ أفرأيتم اللات والعزى ﴾ ثم بصيغة الاستفهام الاستكاري المشوب بالاستهزاء ، وفيه تفرغ شديد وذم وتوبيخ لوضع الشيء في غير محله ﴿ ألكم الذكر وله الأنثى ﴾ أي إن تصنيفكم بأن تكون مواليد الذكور

لكم، ومواليد الإنساث الله حسب زعمكم ، اقتسام غير عادل ، وحائد عن الحق مجانيب للصواب.

ويستمر الوصف والتقويم والحكم على الآلهة ، فهي آلهة مزيفة ، لا قيمة لها ، ألبستموها أسماء وألقاباً من تراث آبائكم واختراع أنفسكم ، ليس تحتها ما ينبئ عن معنى الألوهية ، وخالية من المضمون والمسمى ، وليس عندكم من الله بها سلطان ، ولا حجة ولا دليل . ولا زال الحق يصف أفكارهم وتصوراتهم حول الآلهة ، فهم يعتمدون على الوهم والحدس والظنون في هذه الاعتقادات ﴿ إن يتبعون إلا الظن ﴾ ومقوم آخر من مقومات تصوراتهم الهشة الضعيفة ، وهو هوى الأنفس ( وما تهوى الأنفس ) ، والميل الشهواني وهذا نم لهم في اتباع الباطل ، وتأكيد أن لا برهان لهم .

إنما الحقيقة والهدى فهي التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم في رحلة الدعوة الطويلة معهم ومنها حقائق رحلة المعراج ، وتقوم كذلك تصوراتهم للآلهة على التمني والرجاء ، وهذا مقوم ضعيف ، فالتمني لا يأتي بشيء . وذنم تسميتهم الملائكة بالإنساث ، وأنها بنات الله سبحانه وهم لا علم لهم بذلك ، ولا برهان ، وإنما هو الظن والوهم ، وهو مقوم ضعيف ، لا يعتمد الحقيقة ولا يصمد أمام الحق ، ولا يغني منه شيئاً . ونتيجة هذه الجولة التقويمية هي توجيه الرسول صلى الله عليه وسلم بالإعراض عن هؤلاء المشركين الذين تولوا عن ذكر الله وعبادته ، همهم فقط الحياة الدنيا التي هي حدود علمهم ، ومبلغهم من المعرفة<sup>(١)</sup>.

وتثبتت حقيقة الهداية والضلال ، وقانونها ومرجعيتها بأنها لله وحده ، هي القضية المحورية في تقويم القرآن الكريم لعقائد الناس وأفكارهم عبر تاريخ الدعوة الطويل .

(١) انظر الميزان في تفسير القرآن : العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ، مؤسسة إسماعيليان ج ١٩ ، ص ٣٨-٣٩ .

وانظر التفسير الواضح : د. محمد محمود حجازي ، دار التفسير ، القاهرة ، الطبعة الثامنة ١٩٨٠م ج ٣ ، ص ١٠٨-١٠٩ . وانظر محاسن التأويل : محمد جمال الدين القاسمي ، مكتبة عيسى البابي الحلبي ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، جزء ١٥ ، ص ٥٥٧٦ . وانظر التفسير المنير : الأستاذ وهبة الزحيلي ، دار الفكر ، دمشق ، دار الفكر المعاصر ، بيروت ، الطبعة الأولى سنة ١٩٩١م جزء ٢٧-٢٨ ، ص ١٠٨-١٠٩ .

وليس لأي مخلوق غيره من الشفعاء والملائكة والآلهة المدعاة ، أي قدرة أو إرادة أو تدخل في القضية ، فعلمها ووقتها وكيفيةها له سبحانه دون سواه .

وختاماً لهذا الموقف التقويمي مع عقائد المشركين وتصوراتهم ، نلمس بعض الأفكار التقويمية نوجزها فيما يلي :

• إن أسلوب التعجب والاستفهام والاستهزاء قد يكون نوعاً من التقويم ، على صورة ذم معبودات المشركين ، لعظم افتراءهم ، وضحالة تصورهم ، وخطأ اعتقادهم ، وهو ما ظهر في تقويم القرآن الكريم لآلهة المشركين في سورة النجم.

• إن الدليل والحجة والبرهان مقومٌ وأساس مهم في منهجية التقويم وصوابيتها وعدلها، مصداقاً لقوله تعالى ﴿ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾ .

• إن من معوقات التقويم الصحيح ، والوصف الفعلي هو : اعتماد الظن والوهم ، وهوى النفس وميلاتها مع الشهوة ، ومجانبتها للحق والعدل والدليل والحجة ، قال تعالى ﴿ وإن كثيراً ليضلّون بأهوائهم بغير علم ﴾ [ الأنعام : ١١٩ ] . وقوله ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني عن الحق شيئاً ﴾ .

• إن العلم بالمقوم وظروفه وقيّمته قاعدة مهمة من قواعد أهلية التقويم والتصويب والحكم ، والمنحرفون عقائدياً غالباً ما يكون مبلغهم من العلم دنيوي مادي ، لا يتعدى المصالح والمنافع .

٢- قال الله تعالى : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون ، ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون ، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ، وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لوأ رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون ، سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدي القوم الفاسقين ، هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى يفضوا والله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون ، يقولون لننرجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل والله العزة ورسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾ [ المنافقون : ١-٨ ] .

رحلة القرآن الكريم في تقويم النفاق وأهله أعمالاً وأفكاراً وتصورات ونفسيات وأخلاقاً رحلة طويلة ، استمرت طيلة الفترة المدنية ، حين ظهر النفاق أول مرة ، وستستمر حركته وتتنوع بأساليب وألوان كثيرة ، حسب معطيات الواقع ومتطلبات العصر إلى آخر حياة البشرية ، ولقد عالجت سور كثيرة موضوع النفاق والمنافقين في مناسبات ومواقف متعددة ، وظهر ذلك بارزاً في سور مثل : التوبة والبقرة وغيرها ، واخترنا هنا سورة كاملة سميت باسم هذه الشريحة المنكودة ، الخائفة المختفية المتلججة، لنعالج من خلالها ونطّلع على منهج القرآن في وصف وتقويم هؤلاء القوم ، الذين يشكلون في الواقع نبتة ضارة ، وزمرة محرجة ، تأخذ من الجهود والإجهد أكثر بكثير مما تأخذها الجهود ضد العدو الواضح والخصم الصريح ، اخترنا سورة المنافقين .

وسبب نزول هذه الآيات أن النبي صلى الله عليه وسلم غزا بني المصطلق على ماء يقال له "المُريسيع" من ناحية "قُديد" إلى الساحل ، فزادهم أجير لعمر يقال له "جهجاه" مع حليف لعبد الله بن أبي يقال له " سنان " على ماء بـ" المُشَلَّل" ، فصرخ جهجاه بالمهاجرين، وصرخ سنان بالأنصار ، فلطم جهجاه سناناً ، فقال عبد الله بن أبي : أوقد فعلوها ! والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك ، أما والله لنن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز (يعني أبياً) منها الأذل ، يعني (محمداً) صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لقومه : كُفُوا طعامكم عن هذا الرجل ، ولا تنفقوا على من عنده حتى ينفضوا ويتركوه . فقال زيد ابن أرقم - وهو من رهط عبد الله - أنت والله الذليل المُنتقص في قومك، ومحمد صلى الله عليه وسلم في عز من الرحمن ومودة من المسلمين ، والله لا أحبك بعد كلامك هذا أبداً . فقال عبد الله : اسكت إنما كنت ألعب .

فأخبر زيد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله ، فأقسم بالله ما فعل ولا قال ، فعذره النبي صلى الله عليه وسلم قال زيد : فوجدت في نفسي ، ولأمني الناس ، فنزلت سورة المنافقين في تصديق زيد ، وتكذيب عبد الله ، فقيل لعبد الله : قد نزلت فيك آيات شديدة ، فاذهب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ليستغفر لك ، فألوى برأسه ، فنزلت الآيات . " خَرَجَ البخاري ومسلم والترمذي بمعناه " (١) .

(١) القرطبي : جزء ١٨ ، ص ١٢٧ .

وتحدد السورة هنا بعضاً من أفكارهم ، وتقوّم أقوالهم وأفعالهم ، وخلجات ضمائرهم ، وتصف تصوراتهم نحو النبوة والنبى ، والاتباع ، وقيم العزة والذلة التي يعتقدونها . ، ويقيسون الأمور على أساسها ، وقد ردّ القرآن وقوم شهادتهم بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم أنها كاذبة ، فهي قول ، دون اعتقاد وعمل وولاء ، وقولهم هذا وراءه مآرب ، وخفايا يبطنونها . " وسئل حذيفة بن اليمان عن المنافقين فقال: الذي يصف الإسلام ولا يعمل به ، وهم اليوم شرّ منهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانوا يكتُمونه ، وهم اليوم يظهرونه (١) .

ويظهر لي - والله أعلم - عدة نقاط في تشخيص حال المنافقين ، ووصف شأنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقويم موقفهم في مناسبة هذه الآيات الكريّمات :

١- يتخذ الذين لا يرتكزون على قواعد قيمة ثابتة صادقة في الحكم والشهادة - والشهادة نوع من التقويم - ستاراً وحماية مزيفة تقيهم شر الانكشاف والانفضاح ، أمام نور الحقيقة وبهاء الصدق والصراحة ، والمنافقون - دائماً - يقودون هذا النوع من البشر ، ويتربعون - ولا فخر - على كرسي الزعامة والسيادة لهذا الصنف الوجع المترجرج المتردد المتقلب . ﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾ .

٢- بالرغم من تشخيص الله وذمه لجوهر بنيانهم وحقيقة دواخلهم ، إلا أنه في نفس الوقت وصفهم بحسن الأجسام - لدرجة أنها توقع الإعجاب في نفس من ينظر إليهم - وحسن القول ، وتمميّقه ، وذلق اللسان وفصاحته . وهذا حقهم من الوصف والتقويم على ظاهرهم ، ولا يمنع ذلك الأطراء من الرجوع إلى كمال التقويم بحسب جوهرهم ، وحالتهم النفسية الداخلية - فهم مع هذا الجمال والفصاحة - خشب مسندة مصفوفة لا تعقل ولا تدرك. ترتعد فرائصهم مع كل خبر ، أو حركة أو حادثة أو صيحة ، فهي ضدهم وعليهم كما يتصوّرون .

"أي إذا نادى مناد في العسكر أن انفلتت دابة ، أو أشدّت ضالة ، ظنوا أنهم المرادون ، لما في قلوبهم من رعب " (٢) .

(١) القرطبي : جزء ١٨ ، ص ١٢٢ .

(٢) القرطبي : جزء ١٨ ، ص ١٢٥ .

هكذا يحسبون ، وبهذا يفكرون ، وعلى هذا يعيشون ، فهم بذلك أعداء - لاريب -  
فالحذر واجب تجاههم ، وكل هذا التقويم والوصف بسبب إفكهم وكذبهم " قاتلهم الله أنى  
يؤفكون " .

٣- وعادة المنافق وصاحب التردد والخور ، المكابرة ، وليّ الرأس والعنق استهزاء  
بالحق وإعراضاً عنه ، وصداً عن السبيل القويم .

٤- قيمُ المنافقين للأشياء وموازينهم للأمور دنيوية مادية بحتة ، فعدم الإنفاق على  
الأتباع يؤدي إلى انفضاضهم ، هكذا يشخّصون الأمور ، ويضعون أسباب التجمعات  
والروابط بين الأتباع والمتبوعين . ولكنهم بذلك عديمي الفقه والحكمة والفهم والإدراك .  
فالمال والغنى بيد الله ، والقيمة الحقيقية للتجمع (وخاصة مع الأنبياء ) هي قيمة الفكرة  
والعقيدة ، وإلا ما الذي حدا بزيد بن أرقم وهو من أقارب زعيم النفاق عبد الله بن أبي بن  
سلول لأن يقول في وجهه : أنت والله الذليل المنتقص في قومك ، ومحمد صلى الله عليه  
وسلم في عز من الرحمن ومودة من المسلمين ؟ .

٥- قد يقوم صاحب المال والأتباع نفسه بالعزيم المُهاب ، وغيره بالذليل المُعاب ،  
والحقيقة أن العز بجانب الحق والعقيدة والفكرة ، والذل بجانب الانتفاخ والتوهم الظاهري  
الزائف المدخول . وهذا لا يعلمه المنافقون حق العلم ولا يعرفونه حق المعرفة " ولكن  
المنافقين لا يعلمون " .

٦- وتقود نهاية السورة إلى الهدف من العملية التقويمية في سورة " المنافقين " وهي  
تثبيت القيم الحقيقية في النظرة إلى الأشياء ، وتوزينها بميزان العقيدة والفكرة . فالأولاد  
والأموال ملهاة عن ذكر الله ، والإنفاق ذخر لصاحبه يوم القيامة ، والأجال بيد الله محسوبة  
في مدتها ووقتها " لا يجليها لوقتها إلا هو " .

\*\*\*

## **المبحث الثالث**

### **مجال تقويم الأفعال والأعمال**

**وفيه ثلاثة مطالب :**

**المطلب الأول : تقويم الأعمال في ميدان الجهاد**

**المطلب الثاني : تقويم الأعمال في ميدان الوزن والكيل والبيع والشراء**

**المطلب الثالث : تقويم الأعمال بشكل عام**

## تمهيد

تتجلى حكمة الخالق وتفضله على خلقه ( بعد أن خلقهم ، وكرمهم وفضلهم على كثير ممن خلق ﴿ ولقد كرمنا بني آدم ﴾ ) بأن جعل مناط التكليف في الحياة هو : حرية الاختيار والتوجه ﴿ وهديناهم النجدين ﴾ التي ولا شك ينتج عنها العمل والفعل والسلوك ، وكل ذلك لصالح الإنسان في مقدمة حياته في الدنيا ونتيجتها في الآخرة تحقيقاً لمبدأ العدل والإنصاف الذي بُنيت عليه السموات والأرض . ولا يتحقق ذلك في الدنيا وحدها إذا حكمت بموازين الخالق ، وقُومت بمقياسه فقط ، وإنما لا بد من رجعة أخيرة كي يتحقق العدل المطلق ، والحق المطلق ﴿ أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ . لأن حياة الخلق في الدنيا نسبية العدل والتطبيق والتنفيذ ولو كانت حسب موازين الشارع وقوانينه ومعياري ذلك تقويم الأعمال والأفعال تقويماً دقيقاً ، وتوزينها توزيناً صحيحاً، بعيداً عن المعوقات البشرية، من أهواء وظنون وملابسات نفعية ، وتصرفات ذاتية مادية ﴿ فأما من ثقلت موازينه فهو عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وما أدراك ما هي نار حامية ﴾ ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ .

وإننا سوف نناقش هذا المبحث ضمن المطالب التالية :

### أ) المطالب الأول : تقويم الأعمال في ميدان الجهاد .

وهذا ميدان للعمل والفعل عزيز نبيل سامق ، بل يتربع على ذروة سنام الإسلام والدين ، كما جاء في الحديث الشريف . وقد أعد الله لأصحابه منازل رفيعة ، ومقامات عالية ، من رجع منهم منتصراً بعد المعركة والجهاد ، أو من قضى شهيداً في سبيل الله خلال المعركة . وقد تبادر ، للأذهان ويتبادر أن زمرة المجاهدين والمرابطين في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم هم صفوة الله من خلقه ، وزمرته من عبده ، لا يخضعون لتقويم ، ولا يقعون في دائرة النقد والوصف ، وإطار السلبيات والإيجابيات ، والمدح والذم ، ويبالغ في الأمر ليصل البعض في وصفهم وتقويمهم أن يضعهم في مصاف الملائكة الأنقياء الأنقياء الذين يتجاوز عن أخطائهم ، ويصبحون مقياساً ومعياراً يُقاس الآخرون على أساسه في جانب إيجابياتهم وسلبياتهم سواء .



ولكن الحال غير ذلك ، فالأمر موزون بدقة وصراحة وموضوعية متناهية ، كما ورد في الكتاب العزيز في أكثر من سورة ، وأكثر من موقف وموقعة ، وأهمها غزوات الرسول ووقائعه التي كان يقود فيها الصحابة الكرام ، ومن ذلك :

أولاً : ما ورد في تقويم أعمال المسلمين الجهادية في عزوة بدر كما جاء في سورة الأنفال ، فقد حصل التقويم من الله المقوم العادل سبحانه ، ووقع التقويم بحق الصحابة أفضل بني البشر بعد الأنبياء والرسل ، وفي أعز وأشرف ميدان وأبر عمل . فعرض الحق الموقف بكل جوانبه ، سلبياته وإيجابياته ، لتستبين الجادة ، وتُعرف الأقدار ، ويُثبت الميزان ، ويُحدد منهج التقويم . فلا مجاملة ، ولا اجترأء ، ولا نقص ولا إخفاء . (وسبحان الله) فلو كان الأمر يخضع لجهد الرجال وتضحياتهم لكان ظهر ذلك في حق الصحابة والسابقين ، ولتجاوز القرآن عن ذكر أخطائهم وتقصيراتهم . لكن الفكرة فوق البشر ، والمنهج فوق المجاملات ، ليقوم الناس بالحق والعدل . يقول الله عز وجل :

﴿ يسألونك عن الأنفال ، قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين ﴾ [ الأنفال : ١ ] . ويقول تعالى : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يُساقون إلى الموت وهم ينظرون ، وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ﴾ [الأنفال: ٥-٧].

ويقول كذلك : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير ، فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم ﴾ [ الأنفال : ١٥-١٧ ] .

معركة بدر أول معركة حاسمة في تاريخ الإسلام ، ولها مكانتها في التاريخ الإسلامي، وعُدَّ الاشتراك بها من علامات الإيمان والتميز لدى الصحابة ، وقال في أصحابها الرسول صلى الله عليه وسلم ما معناه : لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : افعالوا ما شئتم فإن الله قد غفر لكم . وكان قادة الفتح الإسلامي في العهد الراشدي يستهمون على الصحابة وخاصة أهل بدر ، كل منهم يريدهم إلى صفه ، وأطلق عليهم اسم " البدريون

" نسبة إلى اسم المعركة . رغم كل هذا فقد وقع الخطأ ، وقوم من قبل الحق تبارك وتعالى . وأشهر ما ورد في مناسبة السورة والأنفال التي تصدرتها حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهدت معه بدرأ ، فالتقى الناس فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وسلم لا يصيب العدو منه غرة ، حتى إذا كان الليل ، وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب . وقال الذين خرجوا في طلب العدو : لستم بأحق منا ، نحن منعنا عنه العدو وهزمناهم . وقال الذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فنزلت : يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فقسما رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المسلمين (١) .

وورد كذلك قول عبادة بن الصامت في نفس الشأن عندما سئل عن الأنفال " فينا معشر أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل وساءت فيه أخلاقنا " (٢) .

وأمام الآيات ومناسبتها نعرض بعضاً من موازين التقويم والحكم والوصف ، التي تمت من قبل العصابة المسلمة لأحداث المعركة وملابساتها قبل المعركة وبعدها ، وكذلك من قبل الله عز وجل لما أراد له هذه العصابة وما أرادوه لأنفسهم :

حكم الله بأمر الأنفال له ولنبيه صلى الله عليه وسلم ، ووجه المؤمنين إلى تقوى الله ، وإصلاح ذات البين ، ويدل هذا على أن أمر الخلاف حصل بينهم ، وساءت به أخلاقهم كما مرّ في المناسبة . وكان تقويمهم وميزانهم لأحقية الغنائم والفوز بها على أساس ما قدموه من جهد في المعركة ، ولكن الله رد الأمر له ولرسوله ، وكان الحكم الصائب ، والعدل هو : تقسيم الغنائم على كل من شارك في المعركة . وكانت نتيجة هذا التقويم والحكم هو الإنصاف أولاً ، ثم تذكيرهم بصفات أهل الإيمان كالخوف من الله ، وزيادة الإيمان بتلاوة آيات الله ، والتوكل عليه وعبادته . ويورث ذلك كله درجات ومغفرة ورزق كريم من الله يوم القيامة .

(١) ابن كثير : ج ٢ ، ص ٢٧٢ .

(٢) القرطبي : جزء ٧ ، ص ٣٦١ .

والصورة التقويمية السابقة تشبه ما تم قبل المعركة ، من كره فريق من المؤمنين للقتال ، وجدالهم في شأن المعركة ، وشعورهم بأنهم يساقون إلى الموت حتماً . رغم أن الأمر من الله ، وهو حق ، وأمر للرسول بالخروج ، والقتال بعد نجاة قافلة قريش التجارية . وتم هذا منهم رغم وعد الله للمؤمنين بأن إحدى الطائفتين ستكون لهم ، إما العير وأما النفير . وقد رغبوا أن تكون العير هي نصيبهم ، وليس النفير والمعركة ، ولكن الميزان الرباني أراد لهم الأخرى ، لأن في ذلك إحقاقاً للحق الذي يحملون ، وقطعاً لدابر القوم الذين يحاربون ويعادون ، وذلك ظهور الإسلام . وفيما سبق كذلك إنكار لمجادلتهم ، ورغبتهم في عدم القتال ، خاصة أن استعدادهم لم يكن كافياً حسب وجهة نظرهم فقالوا :

لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة ، رغم وعد الله الأكيد بأن إحدى الطائفتين ستكون للمسلمين ، فإذا أفلتت العير ، فلا بد من النفير ، والمعركة حتى يتم الوعد . رغم ذلك تَكشَّف من أمر المسلمين ما تَكشَّف ، وظهر من أعمالهم وأخلاقهم وأفعالهم ما ظهر . إنها النفوس البشرية ، والعقول البشرية ، ولو كانت مؤمنة حق الإيمان ، وكانت في رحاب الرسالة ، وتحت قيادة النبوة الكريمة ، ستبقى لها حساباتها البشرية ، وتأثيراتها البشرية ، ومقاييسها البشرية ، ولا ينفذها من ذلك إلا موازين محايدة ، ومقاييس عادلة ، هي مقاييس خالقها وربها سبحانه (١) .

يقول الشهيد سيد قطب : " وإنها لحال تتكشف فيها النفس البشرية أمام الخطر المباشر، ويتجلى فيها أثر المواجهة الواقعية - على الرغم من الاعتقاد القلبي - والصورة التي يرسمها القرآن هنا جديرة بأن تجعلنا نتواضع في تقديرنا لمتطلبات الاعتقاد في مواجهة الواقع ، فلا نغفل طاقة النفس البشرية وذبذباتها عند المواجهة ، ولا نئس من أنفسنا ولا من النفس البشرية جملة حين نراها في مواجهة الخطر - على الرغم من طمأنينة القلب بالعقيدة - فحسب هذه النفس أن تثبت بعد ذلك وتمضي في الطريق ، وتواجه الخطر فعلاً ، وتنتصر على الهزة الأولى . لقد كان هؤلاء هم أهل بدر ، الذين قال فيهم رسول الله

(١) انظر القرطبي : جزء ٧ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٩ ، وانظر ابن كثير : ج ٢ ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ ، وانظر

الظلال : ج ٣ ، ص ١٤٨٠ - ١٤٨٣ .

صلى الله عليه وسلم وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر اطلاعة ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم " (١) .

وكعادتنا نورد هنا بعض وقفات حول تقويم أعمال المؤمنين وآرائهم حول المعركة ابتداء ، والغنائم وما آلت إليه انتهاء .

١- لقد تم تقويم الصحابة ، وتوجيه أفعالهم على علو قدرهم ، وارتفاع منزلتهم بكل صراحة وموضوعية . وذكر الله ما اختلفوا فيه بشأن الغنائم وهي متاع من الدنيا قليل أمام موعود الله لهم في الآخرة . إذا كان هذا قد تم لتلاميذ الرسول وجنده ، فيكيف بغيرهم من علماء وقادة وزعماء حركات عاملة في ساحة المسلمين ؟ إن غيرهم ( ولا شك ) أحوج للتقويم والتسييد والترشيد ، بمنهج متكامل المعالم بين القسمات ، واضح الأسس والأهداف .

٢- يمكن أن تكون النفس البشرية مؤمنة صادقة مضحية ملتزمة ، ولكن حالة الضعف والقصور البشري لا تنفك عنها أبداً ، إذ ربما تسقط وتتعثر أمام جواذب الأرض وشهوات الفطرة . والميزان والتقويم السليم هو الاعتراف بذلك ، ولكن دون التسليم والاستسلام أمام هذا التعثر لتبرير الأخطاء والسقطات الدائمة والمستمرة ، لتكون دين النفس وعادتها . ولا يأس مع السقطة شرط الإفاقة والتحسن . ﴿ إنه لا يبيس من روح الله إلا القوم الكافرون ﴾ .

٣- تقويم البشر مهما ارتفعوا - بشكل عام - تقويم يعتريه القصور ، وتتجاذبه المصالح والحسابات الذاتية ، فكان تقويم الصحابة للموقف وتقديرهم للمصلحة هو كسب العير ، ومجانبة ذات الشوكة ، فكان منهم الجدل ، وكره المعركة ، وأنهم لا استعداد عندهم ... الخ ، وكان تقدير الله أن القضية مقدره ، وأن المعركة تحت إرادته وأن الهدف أكبر ، وأن المستقبل أعظم . فحسب تقدير الصحابة سيكون الأمر جولة اقتصادية من جولات الصراع ضد المشركين وانتهى الأمر ، ولكنه في حساب الخالق ورسوله معركة ، وصدام بين الحق والباطل ، وهي الفرقان الحاسم في مشوار الصراع الطويل ، وأن النصر بيد الله ، وأن التجارب منها والدروس عظيمة ، وإنها ستشكل أمة ، وتبني دولة ، وتنتج فكرة ، وتدحر أخرى .

(١) الظلال : ج ٣ ، ص ١٤٨٠-١٤٨١ . والحديث رواه الشيخان .

٤- فستان إذن بين التقويمين والتشخيصين ، تقويم البشر ، وتقويم رب البشر ، تقويم على أساس الحاجات الآنية المرغوبة للنفس ، وتقويم على أساس الحاجات الرسالية والفكرية التي بها يعيش البشر ، وتصح حياتهم وموازنهم في الدنيا ، وعليها زمام أمرهم في الآخرة.

ثانيا : ما ورد في تقويم أعمال المسلمين الجهادية في غزوة أحد :

وردت في سورة آل عمران آيات كثيرات في ظروف المعركة ، وتشخيصها ، وتقويم الله لها ، نختار بعضها خشية الإطالة ، قال الله تعالى : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتهم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ، إذ تصعدون ولا تلوون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غمماً بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون ، ثم أنزل عليكم من بعد الغم آمنة نعاساً يغشي طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتلى إلى مضاجعهم وليبتلي الله ما في صدوركم وليمحص ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور، إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلِيم ﴾ [ آل عمران: ١٥٢-١٥٥ ].

وقال تعالى ﴿ أولما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير ، وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ﴾ [ آل عمران: ١٦٥-١٦٦ ]. وقال عز وجل ﴿ الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم ، إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ [ آل عمران : ١٧٢-١٧٥ ].

معركة أحد وما ورد حولها في سورة آل عمران بشكل لوحة تقويمية دقيقة في مجال الأنفس والأعمال والتصورات.

عرضت التقصير البشري كما هو دون محاباة ، وعرضت في المقابل التميز والتفوق البشري كما هو دون انتقاص او تهوين ، وبينت أن السنة الإلهية والنواميس الربانية سائرة حسب خلق الله لها في نمط واحد يشمل حياة الناس كل الناس -إلا ما شاء الله -وظهر كذلك أن موازين الهزيمة والنصر لا يفصلها إلا خيط بسيط من الالتزام بها حسب شروطها الصحيحة ، أو التخلي عنها عند اختلال هذه الشروط .

ومما ورد في مناسبة الآيات في غزوة أحد ما رواه البخاري عن البراء : روى البخاري عن البراء قال : لقينا المشركين يومئذ -يوم أحد- وأجلس النبي صلى الله عليه وسلم جيشاً من الرماة ، وأمر عليهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه ، وقال : لا تبرحوا ، إن رأيتونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهرنا علينا فلا تعينونا ، فلما لقيناهم هربوا حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل ، رفعن عن سوقهن ، قد بدت خلاخلهن ، فأخذوا يقولون الغنيمة الغنيمة ، فقال عبد الله بن جبير رضي الله عنه : عهد إلي النبي صلى الله عليه وسلم أن لا تبرحوا ، فأبوا ، فلما أبوا صرف وجوههم ، فأصيب سبعون قتيلاً ، فأشرف أبو سفيان فقال : أفي القوم محمد ؟ فقال : لا تجيبوه ، فقال : أفي القوم ابن أبي قحافة ؟ قال : لا تجيبوه ، فقال : أفي القوم ابن الخطاب ؟ فقال : إن هؤلاء قتلوا ، فلو كانوا أحياء لأجابوا ، فلم يملك عمر رضي الله عنه نفسه فقال له : كذبت يا عدو الله ، أبقى الله لك ما يخرنك ، قال أبو سفيان : أعل هبل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : أجيبوه ، قالوا : ما نقول ؟ قال : قولوا : الله أعلى وأجل ، قال أبو سفيان : لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم أجيبوه ، قالوا ما نقول ؟ قال : قولوا : الله مولانا ولا مولى لكم ، قال أبو سفيان : يوم بيوم بدر والحرب سجال ، وستجدون مثله لم أمر بها ولم تسؤني<sup>(١)</sup>

وسنقف عند مجموعة من أقوال العلماء والمفسرين حول الآيات والغزوة بشكل عام ، لنرى منهجية القرآن الكريم في تقويم الموقف .

لقد صدق وعد الله للمسلمين ، وأراهم الفتح في بداية المعركة بقتل حامل لواء المشركين ، ومجموعة منهم حول اللواء ، وقد أعملتم بهم القتل وكدمت تستأصلونهم ، ثم دخلت عليكم عوامل الهزيمة ، من جبن ، واختلاف في موقف الرماة ، فترك بعضهم منازلهم لما رأوا هزيمة العدو طلباً للغنيمة ، وثبت بعضهم امتثالاً لأمر النبي صلى الله عليه

(١) الأساس في التفسير : ج ٢ ، ص ٩٠٦ . والحديث رواه البخاري ١٢٠/٥ طبعة دار الفكر .

وسلم . وألفاظ الآية الكريمة بحقهم تقتضي التوبيخ ، حيث أنهم رأوا مبادئ النصر ، فكان الواجب أن يعلموا أن تمام النصر في الثبات لا في الانهزام ، وكنتم فريقين ، فريق يريد الدنيا وهم الرماة الذين تركوا منازلهم طلباً للغنيمة ، وفريق يريد الآخرة وهم من ثبتوا في مراكزهم، ثم صرفكم الله عنهم بعد أن استوليتم عليهم فردكم عنهم بالانهزام ليختبركم ويمتحنكم ، ثم كان العفو من الله عنكم بعد استئصال الكافرين لكم . ومجمل عوامل الهزيمة كانت : الجبن والضعف والتنازع ، والمعصية واضطراب النية ، كل ذلك جعلكم تصعدون جبل أحد هاربين من أعدائكم ، لا يلتفت بعضكم لبعض من شدة الدهشة والخوف والرعب، وقد خلفتم الرسول صلى الله عليه وسلم وراء ظهوركم ، وهو يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء ، وإلى الرجعة والعودة والكرة ، وكان في آخركم مع الساقة، فأصابكم بذلك غم بعد غم ، تمثل الأول في القتل والجراح ، إذ قتل من المسلمين يوم أحد سبعون . وتمثل الثاني في الإرجاف وإشاعة قتل النبي صلى الله عليه وسلم .

وكل ذلك تمرين لكم وخبرة وامتحان ، كي لا تحزنوا على ما فاتكم من الغنيمة ، ولا ما أصابكم من الهزيمة ، ولا على ما سيفوتكم مستقبلاً من الغنائم الدنيوية . وتلطف بكم ربكم بعد كل هذه الغموم ، فأنزل عليكم النعاس سلاماً وأمناً . روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن أبا طلحة رضي الله عنه قال : غشنا الناس ونحن في مصافنا يوم أحد ، قال : فجعل سيفي يسقط من يدي ، وأخذه ، ويسقط وأخذه.

غشي هذا النعاس فقط طائفة المؤمنين الصادقين ، والمنافقين لم يكن لهم نصيب من هذه الأمانة عن طريق النعاس ، لأن همهم كان بأنفسهم فقط ، فلا يقين عندهم ، وظنهم بالله جاهلي ، يقولون مالنا ولهذا الأمر ، وظنوا بأنفسهم عن الموت مع أنه معهم ، ولوا كانوا في بيوتهم ، وإن الذين تولوا وذهبوا للمدينة أو انهزموا عند اللقاء مع المشركين إنما استدعي زللهم الشيطان ، وذكرهم ببعض ذنوبهم السابقة وعصيانهم ، فكرهوا الثبات لنلا يقتلوا .

ولقد تساءلتم عند وقوع الهزيمة بكم ، وقتلتم من أين هذه الهزيمة ولماذا ؟ فكان الأمر من عند أنفسكم ، فأنتم السبب وذلك بعدم التزامكم شروط النصر ، وإخلالكم بها كما مر . وهذا تقرير وتقريع لهم ، وكل ذلك وقع بأمر الله وحكمته ، وهو ميزان الاختبار للتمييز بين المؤمنين وغيرهم.

ومع أن هذه الجولة التقويمية تحتوي على سلبيات المعركة ونقائص الجند في أغلبها، إلا أن صورة تقويمية وضيئة قد ظهرت لصف ثبت واستمر وتحمل القرع والجراح ، واستجاب لشروط المعركة من البداية وحتى النهاية ، والمقصود بهذا الصنف هم من ثبت على جبل الرماة ، وحول الرسول صلى الله عليه وسلم عند الهزيمة . وكذلك الذين رافقوا الرسول صلى الله عليه وسلم في اليوم الثاني ، وتتبعوا المشركين إلى حمراء الأسد ، وقد نادى الرسول لا يلحقن بنا إلا من كان معنا بالأمس . وكان حالهم معلوم من الشدة ، والجراح والغم والتأثر والقرع. فهؤلاء جميعاً من المؤمنين الصادقين الثابتين ، وقد ظهر منهم قول عظيم ، واستعداد كبير ، فلم يخشوا الأعداء كما قد أراد البعض لهم ، إنما تحملوا على مصائبهم النفسية والجسدية ، وتحركوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .

فكان جزاء الله لهم أن انقلبوا بأربعة أشياء : نعمة من الله ، وفضل من الله ، ولم يمسهم سوء ، وحل بهم رضوان الله .

وتقويم معركة العقيدة أمر عظيم ، والحكم على أفعال العباد وتقويمها أمر دقيق ، فهي معركة في الميدان ، ومعركة في القلوب والمشاعر والضمان ، ولا انتصار في ميدان الأعمال والأفعال قبل انتصار في ميدان الضمان والقلوب والخفايا ، إنها معركة الله فلا انتصار فيها إلا لمن خلصت نفوسهم له <sup>(١)</sup>.

وأمام هذه المعاني العظيمة ، والإحاطة المختصرة لأقوال بعض المفسرين في تقويم القرآن الكريم لأحداث غزوة أحد ، وأفعال وهواجس الجيش الإسلامي وأعماله في المعركة، أسطر هنا بعض النقاط التي أرى أنها ضمن هذه المنهجية التقويمية ، استنتاجاً من ظلال هذه الآيات ، وهذه المعركة العظيمة .

١- تطرقت الآيات الكريمة إلى ذكر السلبيات والإيجابيات على حد سواء ، مما يؤكد شمول منهجية القرآن في تقويمه للأحداث والأشياء ، لتظهر بصورتها الكاملة الشاملة ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ عن عبد الله بن مسعود رض الله عنه قال

(١) انظر الظلال : ج ١ ، ص ٤٨٧ ، وانظر الأساس في التفسير : ج ٢ ، ص ٩٠١-٩٠٦ ، وانظر القرطبي: جزء ٤ ، ص ٢٣٤-٢٣٨ ، وص ٢٨٢ ، وانظر ابن كثير : جزء ١ ، ص ٣٨٩-٣٩١ ، وص ٣٩٥ .



: ما كنت أرى أن أحداً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى نزل  
فيها يوم أحد ﴿ منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾<sup>(١)</sup>.

٢- لا يجب أن يكون تقويم الأمور والحكم عليها حسب الظاهر والبداية والوهلة الأولى  
فقط ، إنما يجب أن يشمل ذلك الظاهر والباطن والبداية والنهاية على حد سواء، وإنما  
الأعمال بخواتيمها .

٣- لا يهتم القرآن الكريم كثيراً بالأسماء والأشخاص والأماكن عند التقويم والحكم  
والعرض والتشخيص ، إنما تهمة الفكرة والمنهج وعمومية الدرس والعبرة مما يحصل،  
لأنه منهاج الناس جميعاً يمتد عبر الزمان والمكان إلى قيام الساعة .

٤- لا تعارض بين التقويم السلبي والإيجابي في منهجية القرآن الكريم ، فلكل غرضه  
وهدفه ، ويشكل بطرفيه اكتمال الصورة ، ومن ثم اكتمال المعالجة والتوازن في المسيرة .  
فلا مثالية وكمال في حياة البشر ، وفي المقابل لا ارتكاس وهبوط وانحدار مستمر في حياة  
البشر أيضاً.

٥- ولصاحب الظلال تجليات ممتعة حول توازن منهجية التقويم ، وقانون الله الذي تُبنى  
عليه هذه المنهجية في القرآن الكريم على أساس الأعمال والضمائر سواء " لقد كتب الله  
على نفسه النصر لأوليائه ، حملة رايته وأصحاب عقيدته ، ولكنه علق هذا النصر بكمال  
حقيقة الإيمان في قلوبهم ، وباستيفاء مقتضيات الإيمان في تنظيمهم وسلوكهم ، وباستكمال  
العدة التي في طاقتهم ، وببذل الجهد الذي في وسعهم .. فهذه سنة الله لا تحابي أحداً .. فأما  
حين يقصرون في أحد هذه الأمور ، فإن عليهم أن يتقبلوا نتيجة التقصير ، فإن كونهم  
مسلمين لا يقتضي خرق السنة لهم وإبطال الناموس، وإنما هم مسلمون لأنهم يطابقون حياتهم  
كلها على السنن ، ويصطلحون بفطرتهم كلها مع الناموس ، ولكن كونهم مسلمين لا يذهب  
هدراً كذلك ولا يضيع هباء، فإن استسلامهم لله وحملهم لرايته وعزمهم على طاعته والتزام  
منهجه .. من شأنه أن يرد أخطاءهم وتقصيرهم خيراً وبركة في النهاية ، بعد استيفاء ما  
يترتب عليها من التوضيحية والألم والقرح ، وأن يجعل من الأخطاء ونتائجها دروساً  
وتجارب، تزيد في نقاء العقيدة ، وتمحيص القلوب ، وتطهير الصفوف ، وتؤهل للنصر

<sup>(١)</sup> رواه ابن كثير في التفسير : روى من غير وجه عن ابن مسعود ، ورواه ابن مردويه في تفسير . نقلاً  
عن الظلال ج ١ ، ص ٤٨٨.

الموعد، وتنتهي بالخير والبركة، ولا تطرد المسلمين من كنف الله ورعايته وعنايته، بل تمدهم بزاد الطريق ، مهما يمسه من البرح والألم والضيق في أثناء الطريق<sup>(١)</sup>.

٦- ونقطة أخرى مهمة ، ففي المنظور الإداري لمنهجية التقويم لا بد ابتداء من وجود أهداف وتخطيط وتنظيم وتنسيق وتوجيه ، ثم تقويم لأي عمل ونشاط إنساني . ليتم التقويم في الختام على هذا النسق المنضبط لمعرفة السلبيات والإيجابيات ، ومن ثم التحسين المطلوب ، والتعديل المناسب وصولاً للهدف . ومؤكد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خطط للمعركة ، وحدد أهدافها ومارس الشورى ، وقسم الجيش ، ووضع الرماة في مكان استراتيجي ، وقام بإعداد الجند تربوياً ، وتنظيمياً ، ومادياً وروحياً . بل وإن المعركة أصلاً هي نوع من تقويم الوضع الجاهلي الذي عليه عرب الجاهلية ، وحلقة من حلقات تغييره نحو الخير والعدل والسلام .

ومع كل هذا لم ترتفع هذه المجموعة البشرية رغم سمو أهدافها ، وسماقة قيادتها، وحسن تخطيطها عن نوازع البشر ، وسقطات البشر ، ولا عن تقويم الله لها ، وتعديله لسلوكها وأعمالها ، وخلجات نفوسها ، ومن ثم ترميم ذلك الشرخ ، وإصلاح ذلك الاعوجاج، بالرحمة واللطف وذكر المحاسن والمثالب على السواء ، مما يدل على واقعية هذا الدين ، ومنهجه في حياة البشر ، ليميز الخبيث من الطيب ، ولتستمر المسيرة على أساس من التوجيه والترشيد ، رحمة بعباده الذين سوف تقوم أعمالهم كاملة يوم القيامة ، وذلك هو التقويم النهائي ، والميزان الحقيقي ﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴾ ويخال إلى أن مسيرة البشرية منذ أن أراد الله لها عبادته ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ وهي في عملية تقويم مستمرة على فترات ، كلما حادت عن الفطرة ، وتنكبت الطريق ، وانحرفت عن المنهج ، وردت إلى ذلك المنهج بواسطة رهط الرسل الكرام ، منذ آدم وحتى محمد صلى الله عليه وسلم . فمنهج التقويم إذاً منهج سنني كوني ، وُضع رحمة ، بالإنسان وتعديلاً لمسيرته التي ستزل حتماً ، وكل ذلك حتى تكون نتيجة تقويمه النهائية على قاعدة ﴿فأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضية ، وأما من خفت موازينه فأمه هاوية ، وما أدراك ما هية ، نار حامية ﴾ وقاعدة ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال

(١) الطلال : ج ١ ، ص ٥٠٧.

ذرة شراً يره ﴿ مع مساعدة الله وعونه لعباده طيلة فترة حياتهم ، وابتلائهم في هذه الحياة تحقيقاً لهدف الخلق وهو العبادة .

**ثالثاً :** ما ورد عن تقويم الأعمال الجهادية في سورة الأحزاب :

غزوة الأحزاب في شوال للسنة الخامسة للهجرة (على أغلب الأقوال ) غزوة عظيمة ، تكالبت فيها جزيرة العرب على المسلمين في المدينة ، وتشكلت جبهة الأعداء من ثلاثة محاور : العرب المشركين بقيادة أبي سفيان ، ومحور اليهود خارج المدينة ، ثم بني قريظة بعد أن نقضوا العهد قرب المدينة ، وكان المحور الثالث محور الدس والخديعة والمراوغة والتذبذب والاحتتيال " محور المنافقين . ولقد شُخص القرآن الموقف تشخيصاً دقيقاً وقومته تقويماً شاملاً ، يقول الله تعالى في بعض آيات السورة ﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فارسنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً ، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً شديداً ، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ﴾ [الأحزاب : ٩ - ١٣] .

ويقول الله تعالى كذلك في وصف المؤمنين ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً ، ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً ، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً ، ليجزي الله الصادقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً ، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً ، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطأوها وكان الله على كل شيء قديراً ﴾ [الأحزاب : ٢١-٢٧] .

ولنمضي مع منهجية القرآن في تبين حال المسلمين وتشخيص أحوالهم ، فالجو جو معركة وحصار شديد ، وتكالبت شامل ، والهجوم والتقدم لهؤلاء الأعداء من الأعلى " من فوقكم " ومن الأسفل " ومن أسفل منكم " ووصل الأمر بكم إلى درجة زوغان الأبصار ، أي

أنها مشتتة لا تركز ولا تطمئن ، ووصلت القلوب إلى الحناجر ، كناية عن الرعب والخوف والكره . والأبلغ من ذلك والأخطر أن انتابتكم الظنون والأوهام ، وتزعزعت نَفَتكم بربكم وبنصره وتأييده ، وأحكمت حلقات المحنة بالابتلاء والزلزلة الشديدة الرهيبة . يا لله كل هذا حصل من تلاميذ الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وهم الأكثر إيماناً والتزاماً وتضحية . والوحي ينتزل عليهم ، والرسول قائدهم ، وهو قدوتهم في كل شيء ، يلوذون إليه ، ويحتمون به عند اشتداد الشدة وعظم الكرب . ولكنها النفس البشرية لها طاقتها ، ولها حدودها ، والقرآن يقومها ، ويشخصها كما هي ساعة الشدة والابتلاء وساعة السعة والرخاء .

يقول صاحب الظلال : " وطريقة القرآن الدائمة في مثل هذه الوقائع التي يتخذ منها وسيلة لبناء النفوس ، وتقرير القيم ، ووضع الموازين ، وإنشاء التصورات التي يريد لها أن تسود ، طريقة القرآن في مثل هذه الوقائع أن يرسم الحركة التي وقعت ، ويرسم معها المشاعر والظاهرة والباطنة ، ويسلط عليها الأضواء التي تكشف زواياها وخباياها ، ثم يقول للمؤمنين حكمه على ما وقع ، ونقده لما فيه من خطأ وانحراف ، وثنائه على ما فيه من صواب واستقامة ، وتوجيهه لتدارك الخطأ والانحراف ، وتنمية الصواب والاستقامة ، وربط هذا كله بقدر الله وإرادته ، وعلمه ومنهجه المستقيم ، وعلمه بفطرة النفس ونواميس الوجود" (١) .

ويمضي التنزيل بوصف وتقويم موقف النفاق وأهله ، وهو الأخطر والأشق على المؤمنين بعد نقض يهود بني قريظة للعهد . فالنفاق داء فتاك مستمر ، لا تدري متي يتحرك . ومعالجته صعبة حرجة في الصف المسلم ، يبدأ أصحابه بالإشاعة والتشكيك في وعد الله ورسوله للمؤمنين بالنصر ، ثم هم أرادوا إرجاع المقاتلين إلى بيوتهم ، وترك المقام أمام العدو إزاء الخندق ، وتحججوا بأن بيوتهم غير آمنة ، ومعرضة لهجوم الأحزاب . فرد القرآن عليهم ، وقوم كلامهم وإشاعتهم ، وكذبهم بما يقولون ، وبيّن أن هدفهم الفرار والهروب من تكاليف المعركة ، وليس حماية البيوت كما قالوا . وهم دائماً أذلاء خائفون ، أشحاء على الخير في ساعة الشدة والكره ، ذو أسنة حادة متفصحنة شحيحة ، لا خير فيها ولا منها ، ولا إيمان لهم ، ولا فائدة من أعمالهم ، ولا وزن لها ، فهي محبطة محقوقة . وفي المقابل يصف الله رسوله صلى الله عليه وسلم بأنه قدوة حسنة ،

(١) الظلال : ج ٥ ، ص ٢٨١٩-٢٨٢٠ .

ومثال كريم يدب على الأرض في صدقه ، وقوة ارتباطه بربه ، وحسن قيادته وشجاعته ، واطمئنانه لنصر الله في هذه المعركة وغيرها ، وعلى عكس موقف المنافقين المتخاذل يبرز دور المؤمنين وموقفهم من الحدث ، وتقويمهم لهذه الجولة من الصراع ، يزنون بميزان الحق ، ويقولون بمعيار الإيمان . قالوا : إنه وعد الله ورسوله ، وعد الصدق والوفاء ، وبذلك يزدادون إيماناً ، وطمأنينة وتسليماً للأمر برضا وقناعة . وتأتي خاتمة الموقف بالحكم العدل ، والتقويم الدقيق دون تعميم أو مبالغة ﴿ من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾ أي ليس كل الصف المؤمن يفي بما يعاهد الله عليه ، ولكن ثلثة منهم هي التي تميزت بصفتين في تقويم الله لها ، صفة الصدق وصفة الثبات ﴿ وما بدلوا تبديلاً ﴾ .

ونتيجة هذا الوصف والتقويم الرباني الصريح الشامل الدقيق تكون الجائزة ، فالتقويم غرضي في التصور الإسلامي ﴿ ليجزي الله الصادقين بصدقهم ﴾ وجزاء الصدق هو رضا الرحمن ، والعيش في الفردوس من الجنان ﴿ ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان غفوراً رحيماً ﴾ ويربط سبحانه العذاب بمشيتته ، ويعطي الأمل في التوبة لصف المنافقين ، فلربما كان ذلك مشجعاً لهم في تصحيح إيمانهم وتقويم حالهم ، فالمغفرة والرحمة هي ملاذ التائبين الراجعين وهي صفة الله سبحانه رب العالمين .

وتكمل الآيات تشخيص حال المنافقين عندما أنزلوا من حصونهم على حكم سعد بن معاذ رضي الله عنه وكان حليفهم في الجاهلية . فحكم أن تقتل مقاتلتهم وتُسبى نساءهم وأموالهم ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم " لقد حكمت بحكم الله تعالى من فوق سبعة أرقعة " أي سموات ، واستحكم فيهم الرعب ، وقطع نياط قلوبهم ، وكانوا بين السبعمائة والثمانمائة مقاتل ، ذُبحوا واحداً واحداً ، وورث المؤمنون أرضهم ، وديارهم وانتهت جولة الأحزاب وتكالبهم ضد المسلمين على أحسن ما يكون النصر والفلاح للمؤمنين، وأسوأ ما تكون الهزيمة والتراجع للمشركين والمنافقين واليهود .

ومن الدروس المستفادة من هذه الغزوة وهذه المحنة التقويمية في طريق الدعوة والحركة الإسلامية ما يقوله صاحب الظلال " وحين نرانا ضعفنا مرة ، أو زلزلنا مرة ، أو فزعنا مرة ، أو ضعفنا مرة بالهول والخطر والشدة والضييق ... فعلينا أن لا نياس من أنفسنا، ولا نهلع ونحسب أننا هلكنا ، أو أننا لم نعد نصلح لشيء عظيم أبداً ! ولكن علينا في الوقت ذاته ألا نقف إلى جوار ضعفنا لأنه من فطرتنا البشرية ! ونُصرَّ عليه لأنه يقع لمن هو خير منا ! هنالك العروة الوثقى ، عروة السماء ، وعلينا أن نستمسك بها لننهض من

الكبوة ونسترد الثقة والطمأنينة ، ونتخذ من الزلزال بشيراً بالنصر، فنثبت ونستقر، ونقوى ونطمئن، ونسير في الطريق، وهذا هو التوازن الذي صاغ ذلك النموذج في صدر الإسلام<sup>(١)</sup>

### ب) المطلب الثاني : تقويم الأعمال في ميدان الوزن والكيل والبيع والشراء

يعالج القرآن مختلف أنشطة الناس وأعمالهم ، ويقوم كل أفعالهم وسلوكياتهم دافعاً بها نحو الصواب والتحسين وصولاً إلى ربطها بأساسي العقيدة والتصور . ولقد عالجت سورة الأنعام جانباً من التصرف بالمال والنظرة إليه ، وتكلمت عن مقتنيات الإنسان من زروع وثمار وأنعام ، وقومت أفكاره حول هذه الأمور . ومن ضمن هذه المعالجة موضوع البيع والشراء ، وشروط الوزن والكيل ، وضوابطها المطلوبة ضمن مقدور الطاقة البشرية ، يقول الله تعالى : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ [ الأنعام : ١٥٢ ] .

تقوم الآية النظرة البشرية ، والتطبيق البشري نحو استعمال المال والتعامل معه في مجالين هامين ونشاطين إنسانيين ، النشاط الاجتماعي " مال اليتيم " والتحذير من استعماله ، والقرب منه وانتقاصه وأكله بما لا يجوز ، وإذا كان ولا بد من التعامل معه فبالتي هي أحسن : " أي بما فيه صلاحه وتثميته ، وذلك بحفظ أصوله وتثميته فروعاً " (٢) .

والنشاط الاقتصادي في البيع والشراء والكيل والوزن ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ﴾ أي بالاعتدال في الأخذ والعطاء عند البيع والشراء ، والقسط : العدل . ولا يكون ذلك إلا حسب وسع الإنسان وقدرته في إيفاء ذلك من التحرز ، والتحفظ في الكيل والميزان .

" قال بعض العلماء : لما علم الله سبحانه من عباده أن كثيراً منهم تضيق نفسه عن أن تطيب للغير بما لا يجب عليها له ، أمر المعطي بإيفاء رب الحق حقه الذي هو له ، ولم يكلفه الزيادة عليه من ضيق نفسه بها ، وأمر صاحب الحق بأخذ حقه ، ولم يكلفه الرضا بأقل منه ، لما في النقصان من ضيق نفسه " (٣) .

(١) الظلال : ج ٥ ، ص ٢٨٤٤ .

(٢) القرطبي : جزء ٧ ، ص ١٣٤ .

(٣) المرجع السابق : جزء ٧ ، ص ١٣٦ .

وفي جزء من رسالة شعيب عليه السلام مع قومه ، يربط إصلاح أحوالهم وتقويم شئونهم المالية والتجارية في الكيل والوزن بعبادة الله وحده ، فالنشاط التجاري مظهر من مظاهر الحياة البشرية الذي يحب أن يركز على تصور صحيح للمال ، اقتناء وإنفاقاً ضمن قاعدة العدل والإنصاف التي هي مقصوده عقيدة التوحيد المأمورين بها ، يقول الله تعالى :

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ، ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين ، وما أنا عليكم بحفيظ ، قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد ، قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ﴾ [ هود : ٨٤ - ٨٨ ] .

تعرض الآيات السابقة من سورة هود أحد أنماط السجال والمناظرة بين رسول الله شعيب وبين قومه في ميدان حساس من ميادين النشاط البشري ، ميدان يختص بالرزق والمال وحب الاقتناء والكنز والادخار لدى الإنسان ، وهي ملكة فطرية متغلغلة في كيان النفس البشرية لا تتفك عنها ، وتقويمها وتصويبها في اتجاه القسط والعدل اعتقاداً وتطبيقاً يحتاج إلى جهد ومعاناة من قبل المصلحين والمُغيّرين . ونبي الله شعيب يخوض غمار هذا التغيير ، إذ تميز قومه بالتلاعب في المكيال والميزان وانتقاص معيار العدل ، وقلة إيفائه ، وبخس الناس أشياءهم ، مما يورث فساداً في أرضهم وحياتهم . وكل ذلك مناقض لتوحيد الله وعبوديته المرتكزة أصلاً على العدل والقسط في كل شيء . ويُبين شعيب عليه السلام بعد أن استغرب قومه بنوع من التهكم والسخرية من أن صلاته تأمره بترك ألتهتهم ، وضرورة التصرف بأموالهم حسب معيار القسط والعدل ، وكيف يكون منه ذلك وهو الحليم الرشيد . يُبين لهم بعد ذلك هدفه وغايته من ذلك ، وهو : الإصلاح ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، بتوفيق الله وعونه ، دون نية في أن يقع خلصة فيما ينهاهم عنه من التطفيف وعدم الإيفاء .

ذكر القرطبي في قول الله تعالى ﴿ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴾ كانوا مع كفرهم أهل بخس وتطفيف ، كان إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد ، واستوفوا بغاية ما

يقفرون وظلموا ، وإن جاءهم مشتر للطعام باعوه بكيل ناقص ، وشحوا له بغاية ما يقفرون، فأمروا بالإيمان إقلاعاً عن الشرك ، والوفاء نهياً عن التطفيف " (١) .

وبعد نهيمهم عن التطفيف وأمرهم بالإيفاء في الأخذ والعطاء ، تعمم الآيات النهي عن صفة البخس عامة في كل ما يحوزه الناس ﴿ ولا تبخسوا الناس أشياءهم ﴾ يقول صاحب الظلال تعليقا على ذلك : " وهذه أعم من المكيلات والموزونات ، فهو يشمل حسن تقويم أشياء الناس من كل نوع ، تقويمها كيلاً أو وزناً أو سعراً أو تقديراً ، وتقويمها مادياً أو معنوياً ، وقد تدخل في ذلك الأعمال والصفات ، لأن كلمة " شيء " تطلق أحياناً ويراد بها غير المحسوسات ، وبخس الناس أشياءهم - فوق أنه ظلم - يشيع في نفوس الناس مشاعر سيئة من الألم أو الحقد ، أو اليأس من العدل والخير وحسن التقدير ... وكلها مشاعر تفسد جو الحياة والتعامل ، والروابط الاجتماعية ، والنفوس والضمان ، ولا تبقى على شيء صالح في الحياة " (٢) .

وتُسطر سورة الإسراء لوحة من أخلاق النظام الاجتماعي ، وأسس البنیان البشري ، وترصد وتقوم الجانب السلبي من هذه الأخلاق ، وتضعها في قائمة مرفوضة محظورة حسب التصور الإسلامي ، والحياة الإيمانية ، فلا تأفف ولا نهر للوالدين ، بل إحسان وقول كريم ، وإيفاء حق اليتيم والقريب والنهي عن التبذير والبخل ، والحث على التوسط ، وعدم قتل الأولاد من إملاق وفقر ، والبعد عن الزنا ، وعدم قتل النفس إلا بالحق . وأكثر ما يهمننا هنا هو الأمر بالوفاء بالكيل والميزان ، والوزن بالعدل وتحري الإنصاف والدقة فيه . وذلك نقطة بحثنا في هذا المطلب من مبحث تقويم الأعمال في فصل مجالات التقويم في القرآن الكريم ، إذ يقول تعالى : ﴿ وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ، ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ [ الإسراء : ٣٥ ] .

يذكر صاحب الظلال في تعليقه على هذه الآية : " وإيفاء الكيل والاستقامة في الوزن أمانة في التعامل ، ونظافة في القلب ، يستقيم بهما التعامل في الجماعة ، وتتوافر بهما الثقة في النفوس ، وتتم بهما البركة في الحياة ﴿ ذلك خير وأحسن تأويلاً ﴾ خير في الدنيا ، وأحسن مآلاً في الآخرة ... والطمع في الكيل والوزن قذارة وصغار في النفس ، وغش

(١) القرطبي : جزء ٩ ، ص ٨٥ .

(٢) الظلال : ج ٤ ، ص ١٩١٨ .



وخيانة في التعامل ، تنتزع بهما الثقة ، ويتبعها الكساد ، ونقل بهما البركة في محيط الجماعة ، فيرتد هذا على الأفراد ، وهم يحسبون أنهم كاسبون بالتطفيف " (١).

وجاء في سورة الرحمن ثلاث آيات يُذكر الميزان في كل منها ، ويذكر معه معيار استخدامه ، وشرط التعامل معه ، كما مر في آيات السور التي عالجناها سالفاً . وهذا المعيار هو القسط والعدل ، يقول الله تعالى ﴿ والسما رفعها ووضع الميزان ، ألا تطغوا في الميزان ، وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ [الرحمن: ٧-٩] وقد وردت عدة معان حسب ما ذكره بعض العلماء والمفسرون في معنى الميزان ، فمن مجاهد وقتادة والسدي : أي وضع في الأرض العدل الذي أمر به ، وقيل : هو القرآن ، لأن فيه بيان ما يحتاج إليه ، وهو قول الحسين بن الفضل ، وقال الحسن والضحاك وغيرهم : هو الميزان ذو اللسان الذي يوزن به ، لينصف به الناس بعضهم من بعض ، وهو بمعنى العدل ، وقيل : هو الحكم ، وقيل : أراد وضع الميزان في الآخرة لوزن الأعمال . والطغيان مجاوزة الحد ، فعلى ذلك ، فمن قال : الميزان العدل قال : طغيانه الجور ، ومن قال : إنه الميزان الذي يوزن به . قال : طغيانه البخس . قال ابن عباس : أي لا تخونوا من وزنتم له . ومن قال إنه الحكم قال : طغيانه التحريف .

" وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان " أي افعلوه مستقيماً بالعدل ، ولا تنقصوا الميزان ولا تبخسوا الكيل والوزن ، وقيل : ولا تخسروا ميزان حسناتكم يوم القيامة فيكون ذلك حسرة عليكم " (٢) .

وإن كان المعنى المقصود تحديداً من الميزان والوزن وعدم الطغيان في الميزان والوزن هو القسط ، وعدم إفسار الميزان ، فإن المعنى الكوني الواسع يستوعب كل هذه المعاني ولا شك . ميزان العدل العام التي قامت عليه السموات والأرض والكون مقصود ، والميزان ذو اللسان في البيع والشراء كما أفصحت عنه آيات سابقات مقصود ، وميزان الأعمال يوم القيامة مقصود . وكلها ترجع إلى مصدر واحد في نواميس الكون وأنظمته ، وفي حياة الناس في الأولى والآخرة سواء . إنها ترجع إلى خالقها وموجدتها الله رب العالمين .

(١) الظلال : ج ٤ ، ص ٢٢٢٦ .

(٢) انظر القرطبي : جزء ١٧ ، ص ١٥٤ - ١٥٥ .

ويذكر صاحب الظلال شيئاً من ذلك في تعليقه على الآيات فيقول :

" وإلى جوار هذه العظمة في رفع هذه السماء الهائلة الوسيعة " وضع الميزان " ميزان الحق ، وضعه ثابتاً راسخاً مستقراً ، وضعه لتقدير القيم ، قيم الأشخاص والأحداث والأشياء ، كي لا يختل تقويمها ، ولا يضطرب وزنها ، ولا تتبع الجهل والغرض والهوى ، وضعه في الفطرة ، ووضعها في هذا المنهج الإلهي الذي جاءت به الرسالات وتضمنه القرآن : وضع الميزان ﴿ ألا تطغوا في الميزان ﴾ فتعالوا وتفرطوا .. ﴿ وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان ﴾ ومن ثم يستقر الوزن بالقسط، بلا طغيان ولا خسران" (١).

ولعظم هذا الأمر وأهميته في الحياة البشرية ، وثقل تأثيره على النفوس ، أنزل الله سورة كاملة في كتابه العزيز هي " سورة المطففين " تكلم في مطلعها عن قضية الكيل والوزن ، والتطفيف والإخسار فيهما ، قال تعالى : ﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم، يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ [المطففين : ١-٦] .

روى النسائي عن ابن عباس قال : لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة كانوا من أخبث الناس كيلاً ، فأنزل الله تعالى ﴿ ويل للمطففين ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك . قال الفراء : فهم من أوفى الناس كيلاً إلى يومهم هذا ، وعن ابن عباس أيضاً قال : هي أول سورة نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ساعة نزل المدينة ، وكان هذا فيهم ، كانوا إذا اشتروا استوفوا بكيل راجح ، فإذا باعوا بخسوا المكيال والميزان ، فلما نزلت هذه السورة انتهوا ، فهم أوفى الناس كيلاً إلى يومهم هذا .

والمطفف : الرجل يستأجر المكيال وهو يعلم أنه يحيف في كيله فوزره عليه ، والمطفف مأخوذ من الطفيف وهو القليل ، والمطفف هو المقل حق صاحبه بنقصانه عن الحق في كيل أو وزن . قال الزجاج : إنما قيل للفاعل من هذا مطفف لأنه لا يكاد يسرق من المكيال والميزان إلا الشيء الطفيف الخفيف والمعنى : الذين إذا استوفوا أخذوا الزيادة ، وإذا أوفوا أو وزنوا لغيرهم نقصوا ، فلا يرضون للناس ما يرضون لأنفسهم (٢) .

وفي الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "خمس بخمس : ما نقص قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، ولا حكموا بغير ما أنزل

(١) الظلال : ج ٦ ، ص ٣٤٤٩-٣٤٥٠ .

(٢) انظر القرطبي : جزء ١٩ ، ص ٢٥٠-٢٥٢ .

الله إلا فشا فيهم الفقر ، وما ظهرت الفاحشة فيهم إلا ظهر فيهم الطاعون ، وما طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولا منعوا الزكاة إلا حبس الله عنهم المطر " خرج أبو بكر البزار بمعناه ، ومالك بن أنس أيضاً من حديث ابن عمر (١) .

ونلمح - بعد تسطير هذه المعاني حسب ما أورده الإمام القرطبي في تفسيره ، وما ذكره من أحاديث - معان هي في جو القضية المطروحة وظلالها .

١- البدء بالوعيد لأصحاب هذا الخلق الدنيء الذي يخدش المروءة والإيمان كليهما ﴿ ويل للمطففين ﴾ والويل الهلاك ، أو هو واد في جهنم فيما قاله البعض . ويدل هذا على عظم هذا الأمر في حياة الناس بالإفساد والجور ، وتعكير العلاقات ، وشحن النفوس بالضعائن والأحقاد ، وعظمه في العقوبة عند الله يوم القيامة ، مما يحتاج معه الأمر إلى تعديل وتصويب وتقويم .

٢- يربط منهج القرآن بين الأخلاق السلوكية ونظام المعاملات ، وبين عقيدة الإيمان وصفة التقوى والتخويف من نتائج هذه الأخلاق يوم يقوم الناس لرب العالمين . لذلك تعجب القرآن من أصحاب التطفيف بأنهم لا يصلون حتى إلى مستوى الظن في يوم البعث ذلك اليوم العظيم على الجميع ، وخاصة زمرة المطففين وأشباههم من المتجاوزين لحدود الله . وذكر الآخرة وأهوالها معيار أساسي من معايير التقويم الدنيوية في المنهج القرآني ، إذ كان له أبلغ التأثير في حياة أهل المدينة المنورة على ما مر ذكره في استيفاء الكيل حتى يومنا هذا .

وهذا أمر يشهد به الكثير ممن زاروا المدينة المنورة ، وتعاملوا مع أهلها في البيع والشراء والمعاملة، من الحجاج والمعتمرين وطلاب العلم وغيرهم .

٣- قد يتجاوز معنى التطفيف شأن البيع والشراء ليشمل أي سلوك أو عمل يتطلب الإيفاء والإكمال عند الأداء في العبادات والمعاملات والأخلاق والحكم وغير ذلك .

وهذا مرتبط بخلق الأمانة والمراقبة الذاتية ، وهي معيار ذا أهمية بالغة في منهجية التقويم، وكذلك يرتبط بخلق الإتقان والإجادة "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه" (٢) .

٤- يزعم كثير من المعارضين لتطبيق المنهج القرآني على حياة الناس قديماً وحديثاً، أن ذلك منهج ميدانه العقيدة والضمير ، فهم بذلك في الحقيقة يحصرونه بهذه الدائرة لعلمهم

(١) انظر القرطبي : جزء ١٩ ، ص ١٥٣ .

(٢) ورد في مجمع الزوائد للهيتمي ٤ / ٩٨ ، طبعة القدسي .

أنه يحاصر واقعهم ، ويقوم انحرافاتهم ، ويوقظ الناس من سبات سيطرتهم على الأموال والعقول ، واستحوادهم على حياة الناس كلها . وقد قاومه العرب قديماً بسبب ذلك ، ويقاومه الطغاة والجبارون والمنتفعون الآن ومستقبلاً بسبب ذلك . ومن هنا فإن منهج التقويم القرآني لأعمال الناس وتصوراتهم في الكيل والميزان والقسط والعدل وغيره ، هو وحده الذي ينظف حياتهم ، ويطهر واقعهم ، ويصوب أحوالهم ، بعيداً عن الطغيان والخسران والتطيف والاستحواذ .

### ج ( المطلب الثالث : تقويم الأعمال بشكل عام

الأعمال مرتبطة بالإيمان دوماً ، وهي علامة وجوده وحيويته وصدقه ، وعلى أساسها - مرتبطة بالنية - يتحدد حاضر الإنسان ومستقبله في الدنيا ، وخاتمة حياته في الآخرة ، وهي أنواع ودرجات ، منها الصالحات ومنها السيئات ومنها بين ذلك ، منها السهل ومن الصعب ، منها الواجب ومنها الناقله، منها الشخصي ومنها الجماعي ، منها السري ومنها العلني ، منها الموسمي ومنها الدائم ، منها المادي ومنها المعنوي ، وكلها أخضعها القرآن للتقويم والتصويب والتوجيه . وليس من المناسب هنا استقصائها وتتبعها ، إذ أنها أخذت مساحة عريضة واسعة من القرآن ، والأجدر هنا والأنسب ، ذكر بعض الآيات حولها كأمثلة متنوعة تؤكد وتثبت منهجية القرآن في تصنيفها ، وتقويمها ومعالجتها .

ونورد لذلك هنا بعضاً من آيات الكتاب الحكيم التي تتكلم عن مجموعة من الأعمال

وتقومها وتوزنها بميزان الحق تبارك وتعالى :

◎ قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مِنْ عَمَلٍ مِنْكُمْ سِوَاءِ بَجَاهِلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [ الأنعام : ٥٤ ] .

◎ ﴿ مِنْ عَمَلٍ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ [فصلت: ٤٦].

◎ ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ عَمَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيَحْذَرُكَ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠].

◎ ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسُنَ مَا أَجْرُهُمْ ﴾ [ الرعد : ٢٩ ] .

◎ ﴿ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ [الكهف: ٣٠].

◎ ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ، الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ، أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ

يوم القيامة وزناً ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً ، خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً ﴿ [ الكهف : ١٠٣-١٠٨ ] .

◎ ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم ﴾ [ التوبة : ١٠٢ ] .

◎ ﴿ تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير ، الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور ﴾ [ الملك : ١-٢ ] .

◎ ﴿ لنن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾ [ الزمر : ٦٥ ] .

◎ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴿ [ البقرة : ١٦٧ ] .

◎ ﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ [ الأعراف : ١٤٧ ] .

◎ ﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالاً وأولاداً فاستمتعوا بخلاقهم فاستمتعتم بخلافكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم وخضتم كالذي خاضوا أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون ﴾ [ التوبة : ٦٩ ] .

◎ ﴿ وإن كلاً ليوفيئهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير ﴾ [ هود : ١١١ ] .

◎ ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرון مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾ [ إبراهيم : ١٨ ] .

◎ ﴿ والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم ، ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبطت أعمالهم ﴾ [ محمد : ٨-٩ ] .

◎ ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ﴾ [ النور : ٣٩ ] .

◎ ﴿ وجوه يومئذ خاشعة ، عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ﴾ [ الغاشية : ١-٤ ] .

◎ ﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ [ الزلزلة : ٦-٨ ] .

﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فيبشروهم بعذاب أليم ، أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ﴾ [ آل عمران : ٢١-٢٢ ] .

﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين ، الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ﴾ [ التوبة : ١٩-٢٠ ] .

﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون ﴾ [ يوسف : ١٨ ] .

﴿ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدى الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سواء إلا أن يسجن أو عذاب أليم ، قال هي راودتني عن نفس وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين ، فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ، يوسف أعرض عن هذا واستغفري لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ [ يوسف : ٢٥-٢٩ ] .

﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ، ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ [ الإسراء : ٣١-٣٢ ] .

﴿ وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعرب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين ﴾ [ يونس : ٦١ ] .

﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾ [ إبراهيم : ١٨ ] .

﴿ قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ، فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أ خرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرأ ، قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً ، قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً ، فانطلقا حتى لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفساً زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكراً ، قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً ، قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد

بلغت من لدني عذراً ، فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه قال لو شئت لتخذت عليه أجراً ، قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ، أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفراً ، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ، وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما رحمة من ربك وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴿ [الكهف : ٧٠-٨٢].

◎ ﴿ إنه من يأت ربه مجرمًا فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ، ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى ، جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى ﴾ [ طه : ٧٤-٧٦ ] .

◎ ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ، لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ، فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ، تُلْفَح وجوههم النار وهم فيها كالحون ﴾ [ المؤمنون : ٩٩-١٠٤ ] .

بعد استعراضنا لمجموعة من الآيات التي تذكر الأعمال وتعالجها تقويماً وتصحيحاً ، قبولاً ورفضاً وتضع لذلك معايير وقواعد ، بعد ذلك نقف معها وقفات سريعة لنرى بعض أقوال أهل العلم فيها ، ونستخلص ما يمكن استخلاصه من منهجية القرآن في تقويم الأعمال والأفعال .

ففي الآية رقم ١٦٧ من سورة البقرة في القائمة السابقة في جو براءة السادة المُتَّبِعُونَ من الأتباع المُتَّبَعِينَ إذ تقطعت بينهم الأسباب والروابط فلا سلطان ولا أوامر ، ولا استخدام ولا تركيع ، ولا سيد ولا مسود انتهى كل ذلك ، والأمر يوم القيامة لله الواحد القهار .

تبرأوا عندما رأوا العذاب حقيقة عينية ، سواء في ذل الممات ، أو أليم العذاب والنكال في الآخرة ، ﴿وقال الذين اتَّبَعُوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبراؤا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما بخارجين من النار ﴾ [ البقرة : ١٦٧ ] .

وبذلك يحاول المُتَبِعُونَ ويتمنون فرصة ليردوا على سادتهم نفس الموقف في البراءة منهم ، كما فعلوا بهم ، ولكن الحال الآن حال حسم وجزاء ، فلا عودة ولا فرصة ، فكما رأوا جميعا العذاب ، يريهم الله أعمالهم الفاسدة حشرات عليهم ، فوجبت لهم بها النار ، قال ابن مسعود والسُّدي : الأعمال الصالحة التي تركوها ففانتهم الجنة ، وقال السُّدي : ترفع لهم الجنة فينظرون إليها وإلى بيوتهم فيها لو أطاعوا الله تعالى ، ثم تقسم بين المؤمنين ذلك حين يندمون <sup>(١)</sup> .

وقاعدة قبول الأعمال وصحتها هي وحدانية الله ، والخضوع والاستسلام له في الحياة الدنيا . وقد يعمل غير المُوحد أعمالاً نافعة لنفسه وللناس جميعاً فيجزى في حياته جاهاً ومالاً وسمعة وما إلى ذلك ، ولكنها لا ترقى أن تكون مقبولة ذات قيمة في الميزان الأخروي الذي توزن به الأعمال ، وتُقوَّم وتُصنَّف على أساس الواحدانية والخضوع لله رب العالمين .

ويُقدِّم الموحَّد الخاضع لله أعمالاً نافعة له وللناس في دنياهم ، فتحسب له جاهاً وسمعة ونفعاً ، وهي عظيمة مقبولة ترفع درجاته عند ربه في جنات أعدت للمتقين يوم القيامة . وتجيء الآياتان رقم (٢١-٢٢) من سورة آل عمران في جو الكلام عن أهل الكتاب وأعمالهم ، وانحرافاتهم العقديَّة والسلوكيَّة ، لتقرر ميزان الأعمال وحقيقتها وقيمتها في الدنيا والآخرة ، وأعمالهم هذه منكورة شنيعة في جميع المقاييس ، كفر بالله ، وقتل للأنبياء بظلم وعدوان وباطل ، وقتل للمصلحين أهل القسط والعدل . هذا الصنف من الأعمال محبوظ لا قيمة له ، ولأصحابه عذاب أليم شديد ومالهم من ناصرين ﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فيشرهم بعذاب أليم ، أولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين ﴾ [ آل عمران : ٢١-٢٢ ] .

يقول صاحب الظلال حول معنى الآيتين السابقتين : فهذا هو المصير المحتوم : عذاب أليم ، لا يحدده بالدنيا أو بالآخرة ، فهو متوقع هنا وهناك ، وبطلان لأعمالهم في الدنيا والآخرة في تعبير مصور .

(١) انظر القرطبي : جزء ٢ ، ص ٢٠٦-٢٠٧ .



فالحبوط هو انتفاخ الدابة التي ترعى نبتاً مسموماً ، توطئة لهلاكها ... وهكذا أعمال هؤلاء قد تنتفخ وتتضخم في الأعين . ولكنه الانتفاخ المؤدي إلى البطلان والهلاك ! حيث لا ينصرهم ناصر ولا يدفع عنهم حام !<sup>(١)</sup> .

وتوضح الآية رقم (٣٠) من سورة آل عمران والآية التي قبلها أن كل شيء مكشوف وظاهر لعلم الله ، في الزمان والمكان والظاهر والباطن ، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور . وتبرز كذلك أن سجل الأعمال يوم القيامة محسوب جاهز لكل نفس ، فعمل الخير مُحضَر مرغوب ، وعمل السوء جاهز مكروه ، تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً . وهنا تبرز قيمة الأعمال حسب نوعيتها وتصنيفها ، فالخير محبوب لأن نتيجه ثواب وجزاء، وعمل السوء مكروه لأن نتيجه عذاب وعقاب .

﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد ﴾ [ آل عمران : ٣٠ ] .

يقول ابن كثير " يعني يوم القيامة يحضر للعبد جميع أعماله من خير وشر ، ... فما رأى من أعماله حسناً سره ذلك وأفرحه ، وما رأى من قبيح ساءه وغيصه ، وود لو أنه تبرأ منه ، وأن يكون بينهما أمداً بعيداً ، ومع تحذير الله لعباده من سوء أعمالهم ، إلا أنه يرجيهم لئلا ييئسوا من رحمته ويقنطوا من لطفه ﴿ والله رؤوف بالعباد ﴾ قال الحسن البصري : من رأفته بهم حذرهم نفسه ، وقال غيره : أي رحيم بخلقه يحب لهم أن يستقيموا على صراطه المستقيم ، ودينه القويم ، وإن يتبعوا رسوله الكريم " <sup>(٢)</sup> .

وهنا نكتة في توازن منهجية التقويم القرآني للأعمال ، فالعمل الخير يقابله العمل السيئ ، ومعيار القبول في الخيرية التوحيد ونقاء العقيدة ، ومعيار رفض السيء الشرك والانحراف العقدي . وكذلك نظرة الرب لمتقابلات الأعمال ، تخويف لأصحاب السيء من الأعمال ، وتحذير ورجاء ورأفة ورحمة من الرب لعباده على مختلف شرائحهم في تسهيل طريق الاستقامة والالتزام لهم . والتوجيه والتحذير جزء من حب الخير لهم ، فكما أنه شديد العقاب ، فهو غفور رحيم . وترد الآية رقم (٥٤) من سورة الأنعام في ظلال مناسبة عظيمة قوّم فيها الله عز وجل موقفاً ، بل فكرة وقعت في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حول ما طلبه منه بعض سادة قريش في أن يفسح لهم مجلساً خاصاً لا يشرك فيه

(١) الظلال : ج ١ ، ص ٣٧٥ .

(٢) انظر ابن كثير : ج ١ ، ص ٣٣٨ .

بعض الصحابة الفقراء ، مثل بلال وصهيب وسلمان وابن مسعود وغيرهم ، ذلك أن منزلة سادة قريش أعلى من منزلة هؤلاء الأعبد، كما كانوا يصفونهم ، وذلك حتى يكون مكانهم متميزاً بارزاً لائقاً بهم أمام العرب . وقد نهت الآيات قبل هذه الآية رسوله عن فعل ذلك بعد أن همّ به ، ودعا علماً ليكتب صحيفة بهذا الأمر ، والآية التي أبرزت ذلك هي ﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ... إلى قوله تعالى ... فتطردهم فتكون من الظالمين . ﴾ [الأنعام : ٥٢] .

ثم تأتي الآية موضع الشاهد في تقويم الأعمال في هذا الجو المعدّل والمصحح لموقف الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوء بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم ﴾ [ الأنعام : ٥٤ ] .

ردّت الآية الاعتبار لهؤلاء النفر من الصحابة الكرام وسددت معيار التفاضل بين الناس ، وقوّمت ميزان التقديم والتأخير ، ومع من ؟ مع رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم خصّتهم - رضي الله عنهم - ببعض الأمور ، أن يبدأهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالسلام " قل سلام عليكم " وكتب الله رحمته لهم عند عمل السوء بجهالة ، شرطاً توفّر التوبة، وفعل الإصلاح ، وكل ذلك مغفرة ورحمة منه عز وجل .

ذكر ابن كثير " ثم تاب من بعده وأصلح " أي رجع عما كان عليه من المعاصي ، وأقلع وعزم على أن لا يعود ، وأصلح العمل في المستقبل " فإنه غفور رحيم " عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم لما قضى الله على الخلق، كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش، إن رحمتي غلبت غضبي" أخرجاه في الصحيحين<sup>(١)</sup>.

ومن المقارنات الموضوعية البارزة في تقويم القرآن الكريم للأعمال ما ورد في سورة التوبة ، عندما عبّر المسلمون المشركين بالكفر وقطيعة الرحم ، فردّ المشركون بذكر بعض الأعمال التي كانوا يقومون بها ، من سقاية الحاج ، وعمارة المسجد الحرام ، وخدمته ، وإطعام الحاج ، يقول تعالى : ﴿ ما كان للمشركين أن يعمرؤا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وأتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن

(١) انظر ابن كثير جزء ٢ ، ص ١٢٩ .

يكونوا من المهتدين ، أ جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين ، الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون ﴿ [ التوبة : ١٧-٢٠ ] .

وللإمام القرطبي تعليقات لطيفة عند تفسيره للآيات السالفة ، يقول : وظاهر هذه الآية أنها مبطلّة قول من افتخر من المشركين بسقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ، كما ذكره السُّدي ، قال : افتخر عباس بالسقاية ، وشيبة بالعمارة ، وعلي بالإسلام والجهاد ، فصدق الله علياً وكذبيهما ، وأخبر أن العمارة لا تكون بالكفر ، وإنما تكون بالإيمان والعبادة وأداء الطاعة ، وهذا بين لا غبار عليه ، ويقال : إن المشركين سألوا اليهود ، وقالوا : نحن سقاة الحاج وعمارة المسجد الحرام ، أ فنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟ فقالت لهم اليهود عناداً لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أنتم أفضل <sup>(١)</sup> .

ويقول في مقام مكانة الكفار ، ودرجة أعمالهم عند قول الله تعالى : ﴿ الذين آمنوا وهاجروا واجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك الفائزون ﴾ أي أعظم درجة من الذين افتخروا بالسقي والعمارة ، وليس للكافرين درجة عند الله حتى يقال : المؤمن أعظم درجة ، والمراد أنهم قدروا لأنفسهم الدرجة بالعمارة والسقي ، فخطبهم على ما قدره في أنفسهم ، وإن كان التقدير خطأ ، كقوله تعالى : ﴿ أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً ، وقيل ( أعظم درجة ) من كل ذي درجة ، أي : لهم المزية والمرتبة العلية ﴾ أولئك هم الفائزون ﴿ بذلك " <sup>(٢)</sup> .

وتوزن الأعمال في آية جلييلة أخرى من سورة إبراهيم ، بعد جولة قرآنية عبر مسيرة الأنبياء والرسل مع أقوامهم ، وإبراز بعض معالم الصراع ، وقواعد الهداية والضلال ، ووعد الله لأنبيائه ورسله بالنصر والتمكين ، ووعيده للظالمين بالهلاك والخراب ، والمآل البئيس في جهنم ، وما فيها من أنواع العذاب المادي منه والمعنوي .

يقول الله تعالى : ﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف لا يقدرّون مما كسبوا على شيء ذلك هو الضلال البعيد ﴾ [ إبراهيم : ١٨ ] .

(١) القرطبي : جزء ٨ ، ص ٩٠-٩٢ .

(٢) القرطبي : جزء ٨ ، ص ٩٣ .

إن ضرب الأمثلة في القرآن الكريم يُشكّل صوراً تعبيرية جميلة ، تظهر جمال الشكل اللغوي مع جمال المضمون والمعنى . وتوضح المراد في ذهن السامع بشكل سلس بسيط ، فأعمال الكفار هنا تشبه الرماد في مهب الريح العاتية لا قيمة له ولا وزن . يقول صاحب الظلال عند تعليقه على الآية " ومشهد الرماد تشتد به الريح في يوم عاصف مشهود معهود ، يجسم به السياق معنى ضياع الأعمال سدى ، لا يقدر أصحابها على الإمساك بشيء منها ، ولا الانتفاع به أصلاً ، يجسمه في هذا المشهد العاصف المتحرك ، فيبلغ في تحريك الشاعر له ما لا يبلغه التعبير الذهني المجرد عن ضياع الأعمال ، وذهابها بدءاً . هذا المشهد ينطوي على حقيقة ذاتية في أعمال الكفار ، فالأعمال التي لا تقوم على قاعدة من الإيمان ، ولا تمسكها العروة الوثقى التي تصل العمل بالباعث ، وتصل الباعث بالله ، مفككة كالهباء والرماد ، لا قوام لها ولا نظام . فليس المعول عليه هو العمل ، ولكن باعث العمل ، فالعمل حركة آلية لا يفترق فيها الإنسان عن الآلة، إلا بالباعث والقصد والغاية<sup>(١)</sup> . ويرد في سورة الإسراء كذلك مجموعة من الآيات الكريمة ، التي تعالج وتُقوم الأعمال والتصرفات في ميدان مهم من ميادين الحياة البشرية ، ميدان الحياة الاجتماعية والأخلاقية ، وقضية القتل والرزق والفاحشة التي تنشأ في هذه البيئة على أسس خاطئة ، وموازين منحرفة وتصورات ضالة .

نقتطف من هذه الآيات آيتين اثنتين ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا ، وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [ الإسراء : ٣١-٣٢ ] .

إن القتل والزنا من أشنع الأعمال وأبشعها ، تشمئز لها النفوس وتعافها الفطر السوية ، وتكرهها المروءات الزكية ، فهي تفكك بالأفراد والأسر والمجتمعات فتكاً ذريعاً ، وتورد الأمم والشعوب موارد الهلكة .

نقوض بنيانها ، وتحطم قيمها ، وتبعثر أخلاقها ، وتسومها سوء العذاب . ولقد نطق التاريخ وينطق أن ذهاب الأخلاق ، وشيوع الفاحشة وانتشار القتل ، وسفك الدماء ، معاول هدم رئيسة في زوال الأمم ، واندثار الشعوب . وحالة الغرب المادي اليوم دليل صادق ، وواقع شاهد على آثار هذه الأعمال والسلوكيات الشاذة .

(١) الظلال : ج ٤ ، ص ٢٠٩٤ .

لذلك حسم الإسلام والقرآن نظرتَه لهذه الأعمال حسماً قاطعاً ، في التصور والفهم والاعتقاد من جهة ، وفي التقويم والتصويب والعقوبة من جهة أخرى . حسمها على مستوى المشاعر والعقول ، وعلى مستوى التنفيذ والتصحيح والردع .

إن قتل الأولاد وخاصة البنات خشية الفقر وعدم القدرة على الإعالة ، عادة جاهلية ، مرتبطة بفساد التصور عن قضيتي الرزق والأجل ، إذ ربطهما الجاهليون بحالتي الفقر والغنى المنظور في حياتهم ، وليس بقدرة الخالق الرازق لهم جميعاً .

ولذلك أرجع القرآن في تقويمه لهذه الأعمال والتصورات القضية إلى فهمها الصحيح ﴿ نحن نرزقهم وإياكم ﴾ وعالج كذلك قضية الزنا ، وشدد على عدم الاقتراب منها ابتداءً ، وهذا أبلغ ، إذ سدّ بذلك أبواب ومنافذ اللوج إليها قبل فعلها . وهي فاحشة وسبيل سيء مقبوت ، مادياً ومعنوياً ، فردياً وجماعياً ، ﴿ إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ﴾ .

ومن المعالجات العملية والتقويم المؤثر المقنع الذي استخدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الردع عن خلق الزنا ، ما رواه الإمام أحمد عن أبي أمامة أن فتى شاباً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله انذن لي بالزنا ، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا : مه مه فقال " أدنه " فدنا منه قريباً ، فقال : " اجلس " فجلس ، فقال " أتحبه لأمك " قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لأمهاتهم ، قال : " أفتحبه لابنتك ؟ " قال : لا والله يا رسول الله جعلني الله فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لبناتهم ، قال " أفتحبه لأختك ؟ " قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لأخواتهم ، قال : " أفتحبه لعمتك ؟ " قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لعماتهم . قال " أفتحبه لخالتك ؟ " قال : لا والله جعلني الله فداك ، قال : ولا الناس يحبونه لخالاتهم ، قال : فوضع يده عليه وقال : " اللهم اغفر ذنبه ، وطهر قلبه ، وأحصن فرجه " قال : فلم يكن الفتى يلتفت إلى شيء " (١) .

وتطلع علينا سورة الكهف بنفائسها وكنوزها ، وعبرها القصصية الباهرة ، في ترتيب وسياق يأخذ العقول والقلوب ، لينقلها من واقعها المحسوس الملموس إلى عالم الغيب والملكوت . وذلك في قصة أصحاب الكهف وما فيها من معالم إيمانية وخوارق وآيات باهرات ، وقصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح في الآيات من (٧٠-٨٢) قال تعالى ﴿ قال فإن اتبعنتي فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ إلى قوله تعالى ... ﴿ وما

(١) ابن كثير : ج ٣ ، ص ٣٨ .

فعلته عن أمرٍ ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴿ . وما كان عبرها من تجارب الأنبياء والصالحين والأولياء . بعضها تجارب وأعمال وقيم ظاهرية معلومة مألوفة ، وبعضها تجارب وأعمال وقيم تعتمد على علم لدني خص الله به بعض عباده ، لحكم ومقاصد لا يعرفها غيرهم ، حتى ولو كانوا من الأنبياء والرسل .

ونحن إذ نورد هذه الآيات الكريمات في معرض معالجة منهج القرآن التقويمي للأعمال والأفعال ، لنذكر أن ذلك يقع ضمن فضاء قول الله تعالى ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [يوسف: ١١١] .

فنماذج قصص الأنبياء مورد نمير ، ونبع غزير لاستخلاص العلوم والمنافع والعبر ، وما تحتاجه حياة الناس وظروفهم المتجددة من حلول ومعالجات . ونقد وقعت في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح ، أو النبي ، أو الولي ، ثلاثة أعمال ، فعلها هذا العبد ، كلها كانت خارج دائرة مألوفات موسى ، وموازينه ومعاييره التي يزن بها الأعمال ، ويقومها ، خيرها وشرها ، صوابها وخطأها ، حسنها وقبحها .

وفي قولة العبد الصالح لموسى ﴿ وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً ﴾ ما يدل على أن الرحلة وأحداثها خارج نطاق معهود موسى ومألوفه ، وأنها تحتاج إلى عنصري الصبر والعلم اللدني . لذلك احتاط العبد الصالح واشترط لنفسه بقوله ﴿ فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ وتم الاتفاق بتعهد موسى بالصبر والطاعة ، وعدم عصيان الأوامر والتوجيهات ﴿ قال ستجدوني إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً ﴾ وبدأت الرحلة مباشرة ﴿ فانطلقا حتى إذا ركبا في السفينة خرقها قال أ خرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرأ " سفينة تحملهما وتحمل معهما ركاباً ، وهم في وسط اللجة ، ثم يجيء هذا العبد الصالح فيخرق السفينة ! إن ظاهر الأمر هنا أن هذه الفعلة تعرض السفينة وركابها لخطر الغرق ، وتؤدي بهم إلى هذا الشر ، فلماذا يقدم الرجل على هذا الشر؟

لقد نسي موسى ما قاله هو وما قاله صاحبه أمام هذا التصرف العجيب ، الذي لا مبرر له في نظر المنطق العقلي ! والإنسان قد يتصور المعنى الكلي المجرد ، ولكنه عندما يصطدم بالتطبيق العملي لهذا المعنى والنموذج الواقعي منه يستشعر له وقعاً غير التصور النظري فالتجربة العملية ذات طعم آخر غير التصور المجرد . وها هو موسى الذي نبه من

قبل إلى أنه لا يستطيع صبراً على ما لم يحط به خيراً ، فاعتزم الصبر واستعان بالمشيئة ، وبذل الوعد وقبل الشرط ، ها هو ذا يصطدم بالتجربة العملية لتصرفات هذا الرجل فيندفع مستكراً " (١) .

ومن نفائس سورة الكهف في منهجية تقويم الأعمال ما تعرض من مقابلة صريحة ، ومقارنة مباشرة في وصف وتوزين أعمال الكافرين ، وأعمال المؤمنين ، وبيان معيار التفاضل ، قول الله تعالى في السورة :

﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ، ذلك جزاؤهم بما كفروا واتخذوا آيتي ورسلي هزواً ، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً ، خالدين فيها لا يبغون عنها حولاً ﴾ [ الكهف : ١٠٣-١٠٨ ] .

أبرزت الآيات معيار التوزين والمفاضلة بين الأعمال ، إن أشد الناس خسارة يوم القيامة هم الذين ضل سعيهم في الدنيا ، وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً في عبادة سوى الله ، والحقيقة أنهم هم الأخسرون أعمالاً . روى البخاري عن مصعب قال : سألت أبي ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً ﴾ أهم الحرورية ؟ قال لا ، هم اليهود والنصارى . أما اليهود فكذبوا محمد صلى الله عليه وسلم وأما النصارى فكفروا بالجنة ، فقالوا : لا طعام فيها ولا شراب " .

والذي يوجب إحباط السعي : إما فساد الاعتقاد ، أو المراءاة . وعقاب الضالين على أعمالهم الباطلة ثلاثة أنواع : إحباط الأعمال ، وإهدار الكرامة والاعتبار ، والعذاب في نار جهنم . وقد ثبت في صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة ، ولا يزن عند الله جناح بعوضة اقرأوا إن شئتم ﴿ فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ " (٢) .

وفي مقابل الإنذار للكافرين كانت البشارة للمؤمنين ، فقوله تعالى ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً ﴾ يقابلها قوله ﴿ إنا أعدنا جهنم للكافرين

(١) الظلال : ج ٤ ، ص ٢٢٧٩ .

(٢) انظر التفسير المنير : جزء ١٦ ، ص ٣٧-٣٨ .

نزلاً ﴿ وهذا على عادة القرآن في ذكر البشارة بعد الإنذار والفرديوس هنا أعلى الجنان ، وهي الشجرة الملتفة ، وقد قيل إنها معربة عن الرومية<sup>(١)</sup> .

والإنسان بفطرته وطبيعته يدرك قيمة الأعمال وفضل الأفعال ، وهو كذلك مفطور على استقباح القبيح منها واستحسان الحسن وإن كان كافراً . ولكن أوهام التفكير ، وطغيان الشهوات والشبهات ، والعناد وظلمة الروح ، وإدعاء التَّور والتحرر ، والتمسح بشعار خدمة الإنسانية ... الخ ( وهذا في غالب الظروف ) يقف حاجزاً مانعاً أمام أن يكون معيار الاستقباح والاستحسان هو ما يفضي إلى رضا الله ونفع عباده . وإلا فلا يمكن أن يختلف اثنان ( مهما كان اعتقادهما ) أن الكذب والسرقة ورمي الوالدين في الشارع ، وإفناء شعوب كاملة ، وسلب أرضهم وديارهم وخيراتهم ليست أعمالاً رذيلة ، وأفعالاً شنيعة ، وأموراً ظالمة . مع أن فلسفة الظاهر ، وتبرير الواقع والمنفعة ، تجعلها في نطاق السياسة والذكاء ، والتميز في الإنجاز والسيطرة .

وفي دائرة تقويم الأعمال تسطر لنا سورة "المؤمنون" لوحة رائعة من موازين النجاة عن طريق الأعمال ، وتيقن الناس أنها هي الفيصل ، وهي معيار الحق والصدق والحقيقة ، يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون ، لعلي أعمل صالحاً فيما تركت ، كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون ، فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ، تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون ، ألم تكن آيتي تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون ، قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ، قالوا اأخسئوا فيها ولا تكلمون ، إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمانا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين ، فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون ، إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ [المؤمنون : ٩٩-١١١] .

يدرك الكافر عند الاحتضار ودنو الموت الحقيقة ، ومعيار العدل والنجاة ، إنه العمل الصالح ، فيقول : رب ارجعني لكي أتدارك ما قصرت فيه وأعمل العمل الصالح الذي ترضني عنه من الطاعات والخيرات ، وأداء حقوق الناس ، وذلك كما قال تعالى : ﴿ وأنذر الناس يوم يأتئهم العذاب ، فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب نجب دعوتك ونتبع

(١) انظر المرجع السابق : جزء ، ١٦ ص ٤٩-٥٠ .



الرسول ، أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴿ إبراهيم : ٤٤ ﴾ . وقال سبحانه ﴿ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ [ الأعراف : ٥٣ ] .

وقال عز وجل ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم : ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً ، إنا موقنون ﴾ [ السجدة : ١٢ ] . وقال تعالى ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ﴾ [ الأنعام : ٢٧ ] .

﴿ و ترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾ [ الشورى : ٤٤ ] ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ [ فاطر : ٣٧ ] .

وليس سؤال الرجعة إلى الدنيا مختصاً بالكافر ، وإنما يشمل كذلك المؤمن المقصر في الطاعات وأداء حقوق الله تعالى ، كما جاء في قوله تعالى ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لو لا أخرتني إلى أجل قريب ، فأصدق وأكن من الصالحين ﴾ [ المنافقون : ١٠ ] .

والحال هنا لا رجعة فيه إلى الدنيا مهما تمنى الناس ذلك ، فقد انتهى الأمر ، وختمت الصحائف ، وتيقن الناس بالحقيقة ، وعرفوا المقياس وقيمة الأعمال .

ويتجدد المقياس بتفاضل الأعمال حسب أساسها ، فالأنساب والقرابات لا تنفع مع اختلال الميزان وسوء الأعمال ، وإثقال الموازين بالأعمال الصالحة ، أو خفتها بالأعمال الطالحة ، هو وحده الميزان الذي يرفع إلى الفلاح والفوز ، أو يورد إلى المهالك والخسارة .

وعندها تخرج النفوس مكنوناتها الحقيقية ، وتنطق بفطرتها السوية ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ﴾ أي غلبت علينا شهوات نفوسنا وملذاتنا ، بحيث صارت أحوالنا مؤدية إلى سوء العاقبة ، واططانا طريق الحق والهدى .

ويود الكافرون العودة لعمل الصالحات ، فأجابهم الله تعالى : ﴿ قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ بينما فريق الله من عباده الطائعين الذين أتخذهم الكافرون مجال استهزاء وسخرية ، هؤلاء ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ وكل ذلك جزاء الصبر على الأذى ، وما سطرخوا في صحائف الأعمال من الصالحات .

الرسول ، أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال ﴿ إبراهيم : ٤٤ ﴾ . وقال سبحانه ﴿ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا ، أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل ﴾ [ الأعراف : ٥٣ ] .

وقال عز وجل ﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم : ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً ، إنا موقنون ﴾ [ السجدة : ١٢ ] . وقال تعالى ﴿ ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ﴾ [ الأنعام : ٢٧ ] .

﴿ و ترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾ [ الشورى : ٤٤ ] ﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل ، أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير ﴾ [ فاطر : ٣٧ ] .

وليس سؤال الرجعة إلى الدنيا مختصاً بالكافر ، وإنما يشمل كذلك المؤمن المقصر في الطاعات وأداء حقوق الله تعالى ، كما جاء في قوله تعالى ﴿ وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لو لا أخرتني إلى أجل قريب ، فأصدق وأكن من الصالحين ﴾ [ المنافقون : ١٠ ] .

والحال هنا لا رجعة فيه إلى الدنيا مهما تمنى الناس ذلك ، فقد انتهى الأمر ، وختمت الصحائف ، وتيقن الناس بالحقيقة ، وعرفوا المقياس وقيمة الأعمال .

ويتجدد المقياس بتفاضل الأعمال حسب أساسها ، فالأنساب والقرابات لا تنفع مع اختلال الميزان وسوء الأعمال ، وإثقال الموازين بالأعمال الصالحة ، أو خفتها بالأعمال الطالحة ، هو وحده الميزان الذي يرفع إلى الفلاح والفوز ، أو يورد إلى المهالك والخسارة .

وعندها تخرج النفوس مكنوناتها الحقيقية ، وتتنطق بفطرتها السوية ﴿ قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ﴾ أي غلبت علينا شهوات نفوسنا وملذاتنا ، بحيث صارت أحوالنا مؤدية إلى سوء العاقبة ، واخطأنا طريق الحق والهدى .

ويود الكافرون العودة لعمل الصالحات ، فأجابهم الله تعالى : ﴿ قال اخسئوا فيها ولا تكلمون ﴾ بينما فريق الله من عباده الطائعين الذين أتخذهم الكافرون مجال استهزاء وسخرية ، هؤلاء ﴿ إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون ﴾ وكل ذلك جزاء الصبر على الأذى ، وما سطوروا في صحائف الأعمال من الصالحات .

ولقد اعترف الكفار- حين لا ينفع الاعتراف- بأسباب عقابهم ، وهي غلبة الشهوات والأهواء. واقتضى عدل الله مجازاة المؤمنين جزاء عادلاً على ما صبروا وعملوا صالحاً<sup>(١)</sup>.  
وإنه من تمام عدل الله وحكمته في تقويم أعمال العباد أن يشهد الضالون على أنفسهم، ويقوموا أعمالهم بذواتهم ، حتى لا تكون حجة ولا شبهة .

ومن صور التمثيل الواردة في القرآن الكريم حول منهجية تقويم الأعمال وتوزيعها قول الله تعالى في سورة النور ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب ، أو كظلمات في بحر لحي يغشاه موج من فوق موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ [ النور : ٣٩-٤٠ ] .

بعد أن بين الله أحوال المؤمنين وأنهم يكونون في نور الله ، يستمسكون بالعمل الصالح، في الدنيا ويفوزون بالنعيم المقيم في الآخرة ، أردف ذلك بيان أحوال أصدادهم وهم الكفار. شبه الأعمال الصالحة التي يعملها من جحدوا توحيد الله ، وكذبوا بهذا القرآن ، وبمن جاء به ، ويظنون أنها تنفعهم عند الله، وتتجيبهم من عذابه، ثم تخيب في العاقبة آمالهم ويلقون خلاف ما قدروا ، شبه ذلك بالسراب يراه من اشتد به العطش فيحسبه ماء فيطلبه ، ويظن أنه قد حصل على ما يبغي ، حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. هكذا حال الكافرين يحسبون أعمالهم نافعة منجية لهم من بأس الله حتى إذا جاءهم العذاب يوم القيامة لم تنفعهم ولم تغنيهم من عقابه إلا كما ينفع بالسراب من اشتد ظمؤه ، واحتاج إلى ماء به يروي غلته .  
وخلص ما سلف - إن الخيبة والخسران في الآخرة لمن عملوا صالح الأعمال في الدنيا ، كصلة الأرحام وإغاثة الملهوفين ، وقرى الأضياف ونحو ذلك ، وظنوا أنها تتجيبهم من عذاب ربهم ، وهم مع ذلك جاحدوا وحدانيته مكذبون لرسله، فما مثلهم إلا مثل من اشتد أوامه ، ورأى السراب ، فخاله ماء، وظن أنه قد وجد ضالته، فسعى إليه حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً، ورجع بخفي حنين ، هذه حالهم في الآخرة . أما حالهم في الدنيا فكما قال تعالى : ﴿ أو كظلمات في بحر لحي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ﴾ أي مثل أعمالهم التي عملت على غير هدى مثل ظلمات مترادفة في بحر عميق، مأوه بعيد غوره ، يغيظه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، فالظلمات هي أعمال الكافرين، والبحر اللحي قلوبهم

(١) انظر التفسير المنير : جزء ١٨ ، ص ١٠٠-١١٠ بتصرف .

التي غمرها الجهل .قال الحسن : الكافر له ظلمات ثلاث : ظلمة الاعتقاد ، وظلمة القول ، وظلمة العمل ، وقال ابن عباس : هي ظلمة قلبه وبصره وسمعه . (١) .

ولقد عالجت سورة محمد صلى الله عليه وسلم طرفاً من تقويم الأعمال بعرض بعض أعمال المؤمنين ، وأعمال الكافرين قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾ ثم قال : ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثَخِنْتَهُمْ فَشَدُوا الوثَاقَ فَمَا مَنَّأَ بَعْدَ وَإِنَّمَا فَدَاءٌ حَتَّىٰ تَضَعَ الحَرْبُ أوزَارَهَا ، ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُو بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصَلِّحُ بِأَلْسِنَتِهِمْ ﴾ وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمُ الْاَعْمَالُ ، ذَلِكَ : بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [محمد: الآيات : ١، ٤، ٨، ٩] .

يقول الإمام الرازي في معنى الآيات عند قوله تعالى " ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم" ووجهه أن كيفية العمل الصالح لا تعلم بالعقل وإنما تدرك بالشرع ، والشرع بالقرآن ، فلما أعرضوا لم يعرفوا العمل الصالح وكيفية الإتيان به ، فأتوا بالباطل فأحبط أعمالهم (٢) .

وتستمر السورة في تقويم الأعمال كما في قوله تعالى ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ [٢٨] وقوله ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ القَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [٣٠] وقوله تعالى ﴿ إِن الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرِّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يُضْرَبُوا شَيْئاً وَسِيحِبُ أَعْمَالَهُمْ ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرِّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾ [٣٢-٣٣] وقوله كذلك ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلُونَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتْرُكَ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [٣٥] .

والآيات المتكلمة عن الأعمال تعقد جميعها مقارنة تقويمية بين نوعين من الأعمال ، أعمال المؤمنين ، وأعمال الكافرين والمنافقين . وتحدد نوعية هذه الأعمال ، وميزان قيمتها ، ومقياس نفعها لصاحبها وقبولها عند الله .

(١) تفسير المراغي : جزء ١٨ ، ص ١١٢-١١٤ .

(٢) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب ) : للإمام فخر الدين الرازي ، دار الكتب العلمية بيروت - لبنان .

الطبعة الأولى عام ١٩٩٠م ، جزء ٢٨ ، ص ٤٣ .

فمعيار ومقياس إحباط الأعمال وضلالها ، وعدم قبولها، وسخف قيمتها لدى الكافرين والمنافقين متنوعة أهمها : الكفر بالله والصد عن سبيله ، وكره ما أنزل الله ، وكره رضوان الله ، واتباع ما يسخطه ، وأنهم شاقوا الرسول بعد ما عرفوا الهدى .

وفي المقابل ، فإن معيار قبول أعمال المؤمنين وعلم الله بها، وتقويمها يكمن في الجهاد والاستشهاد في سبيل الله ، وإطاعة الله ورسوله ، وأنهم الأعلون بمعية الله لهم ، فأعمالهم محفوظة مقبولة غير منقوصة.

ويذكر صاحب الظلال في تعليقه على الآيات السالفات ﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ﴾ وما ذكرنا بعدها من آيات ، معان مناسبة منها :

وهذا الأعمال التي أضلت ، ربما كان المقصود منها بصفة خاصة الأعمال التي يأملون من ورائها الخير ، والتي يبدو على ظاهرها الصلاح ، فلا قيمة لعمل صالح من غير إيمان ، فهذا الصلاح الشكلي لا يعبر عن حقيقة وراءه . والعبرة في مقصد العمل وليس في شكله. وقد يكون عملاً طيباً لكن قاعدته ليست إيمانية ، وبالتالي ينقطع عن أساسه، ولا يدور في فلك ناموس يشد النفس إلى أصل تصدر عنه كل نشاطاتها وفي المقابل لن يضل الله أعمال المؤمنين ، فهي أعمال مهتدية ، واصلة مربوطة إلى الحق الثابت الذي صدرت عنه ، وانبعثت حماية له ، واتجاهاً إليه ، وإذا كان نصر المؤمنين لشرع الله والتزام دينه يورث نصر الله لهم ، وتثبيتهم بعد النصر ( إذ لا تنتهي معركة الإيمان والكفر بعد انتصار الإيمان على الكفر في المعركة ) تثبيتهم في عدم الزهو بالنصر والبطر به ، وفي عدم التراخي بعده والتهاون ، فكثير من النفوس تصبر على المحنة ، ولكن القليل منها هو الذي يصبر على النصر والنعماء . إذا كان هذا حال المؤمنين ، فإن الكافرين محبوبة أعمالهم ، فلا قيمة لها ، فالحبوط انتفاخ بطون الماشية عند تسممها ، وكذلك أعمالهم ورمت وانتفخت وتضاحمت ثم انتهت إلى الهلاك والبوار والضياع . وقد كانوا يعجبون بها اويتعاجبون ، ويحسبونها مهارة وبراعة ، وهم يتآمرون على المؤمنين ويكيدون، فتنتهي كل هذه الأعمال إلى لا شيء .

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم ﴾ ويوحى هذا التوجيه إلى أن في الجماعة المسلمة من لا يتحرى الطاعة الكاملة ، وتشق عليه التضحيات والتكاليف في مقارعة وجهاد هذه الطوائف الكافرة ، وقد ارتعشت لهذا التوجيه بعض النفوس المسلمة الصادقة ،خافت أن تقع فيما يذهب حسناتها ويُبطل أعمالها . قال الإمام

أحمد بن نصر المروزي حدثنا أبو قدامة ... عن أبي العالية قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب، كما لا ينفع مع الشرك عمل، فنزلت ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾ فخافوا أن يبطل الذنب العمل<sup>(١)</sup>. وفي سورة الغاشية المكية مقابلة كذلك بين أعمال الضالين وأعمال الطائعين ، ويبقى المعيار هو المعيار ، وتختلف فقط صور المعالجة والمقابلة والمناسبة ، يقول الله تعالى : ﴿هل أتاك حديث الغاشية ، وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة ، تصلى ناراً حامية ..﴾ إلى قوله ﴿وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية، في جنة عالية..﴾ [الغاشية: ١٠،٩،٨،٤،٣،٢،١] .

وفي ظلال هذه الآيات يجدر بنا أن نتوقف مع معان وتفسيرات معبرة عن غرض طرحنا لموضوع منهجية القرآن في تقويم الأعمال وتشخيصها .

"وجوه يومئذ خاشعة " أي يوم القيامة ، قال سفيان : ذليلة بالعذاب ، وقال ابن عباس : تخشع ولا ينفعها عملها ، وكذلك خاشعة : ذليلة متعبة مرهقة . هذا في الدنيا ، لأن الآخرة ليست دار عمل ، وقال أيضاً : هم الذين أنصبوا أنفسهم في الدنيا على معصية الله عز وجل، وعلى الكفر ، مثل عبدة الأوثان ، وكفار أهل الكتاب ، مثل الرهبان وغيرهم ، لا يقبل الله جل ثناؤه منهم إلا ما كان خالصاً له وعن قتادة " عاملة ناصبة " تكبرت في الدنيا عن طاعة الله عز وجل فأعملها الله وأنصبها في النار ، بجر السلاسل الثقال ، وحمل الأغلال والوقوف حفاة عراة في العرصات. وقال الحسن وسعيد بن جبير : لم تعمل لله في الدنيا ، ولم تنصب له ، فأعملها وأنصبها في جهنم ، وقيل : عملت لغير الله ، ونصبت في غير سبيله ، عملت لنفسها وأولادها ، وتعبت لدنياها وأطماعها ، وقيل : أي عملت عملاً كثيراً ونصبت فيه ، وصليت يوم القيامة ناراً حامية ، وروي عن الحسن قال: لما قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه الشام أتاه شيخ كبير مُتَقَهِّلٌ <sup>(٢)</sup> عليه سواد ، فلما رآه عمر بكى ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، ما يبكيك ؟ قال : هذا المسكين طلب أمراً فلم يصبه ورجا رجاء فأخطأه وقرأ قول الله عز وجل ﴿وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة﴾ وقوله ﴿وجوه يومئذ ناعمة لسعيها راضية﴾ أي ذات نعمة ، وهي وجوه المؤمنين ، نعمت بما عاينت من

(١) انظر الظلال : ج ٦ ، ص ٣٢٨٠-٣٣٠١ .

(٢) أي شعث وسخ ، يقال : أقهل الرجل وتقهل (النهاية لابن الأثير)

عاقبة أمرها وعملها الصالح الذي عملته في الدنيا ، راضية في الآخرة حين أعطيت الجنة بعملها .

وقيل : فهنا وجوه يبدو فيها النعيم ، ويفيض منها الرضى ، وجوه تنعم بما تجد ، وتحمد ما عملت ، فوجدت عقباه خيراً ، وتستمع بهذا الشعور الروحي الرفيع ، شعور الرضى بعملها حين ترى رضى الله عنها <sup>(١)</sup> .

وتظهر مناسبة بكاء سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه عند ما رأى الشيخ الهرم المتعب ( وكان راهباً ) أن العبادة والأعمال القاسية والانقطاع لها ورشاقة الحال وتحول الأجسام على غير قاعدة الإيمان والوحدانية الخالصة لله تعالى لا تعدل شيئاً ، ولا تساوي قظميراً ، وهي جهد ورهق في الدنيا ، خزي وعذاب في نار حامية يوم القيامة .

ونختم هذا المطلب من مبحث تقويم الأعمال والأفعال في فصل مجالات التقويم من بحثنا منهج التقويم في القرآن الكريم بآيتين عظيمتين من سورة الزلزلة هما قول الله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ [الزلزلة: ٦-٧] .

قال ابن جرير عن أبي قلابة عن أنس قال : كان أبو بكر يأكل مع النبي صلى الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ فرفع أبو بكر يده وقال يا رسول الله إني أجزى بما عملت من مثقال ذرة شر فقال : يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا مما تكره فمثاقيل ذر الشر ، ويدخر الله لك مثاقيل ذر الخير ، حتى توفاه يوم القيامة " <sup>(٢)</sup> وعن سعيد بن جبيرة في قول الله تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ وذلك حين نزلت كان المسلمون يرون أنهم لا يؤجرون على الشيء القليل إذا أعطوه فيجيء المسكين إلى أبوابهم فيستقلون أن يعطوه النمرة والكسرة والجوزة ، ونحو ذلك فيردونه ، ويقولون : ما هذا بشيء إنما نؤجر على ما نعطي ونحن نحبه . وكان آخرون يرون أنهم لا يلامون على الذنب اليسير ، الكذبة والنظرة والغيبة وأشباه ذلك . يقولون : إنما وعد الله النار على الكبائر ، فرغبهم في القليل من الخير أن يعملوه ، فإنه يوشك أن يكثر ، وحذرهم اليسير من الشر ، فإنه يوشك أن يكثر ، فنزلت ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة ﴾ يعني وزن أصغر النمل "خيراً يره" يعني في كتابه ويسره ذلك .

(١) انظر ابن كثير : جزء ٤ ، ص ٥٠٣ ، وانظر القرطبي : جزء ٢٠ ، ص ٢٦-٣٢ ، وانظر الضلال :

ج ٦ ، ص ٣٨٩٦-٣٨٩٧ .

(٢) رواه السيوطي في الدر المنثور ٦/٣٨١ ، دار الفكر - بيروت .

إنه ميزان شامل دقيق ، شامل لكل المخلوقات، في كل الظروف والأماد، والأجيال والأشياء ، دقيق جد دقيق ، ذرة هباء تحوم في فضاء الكون ، لا تلوي على شيء ، وهي ما يعلق من التراب على يد من يضعها على التراب الناعم فلا يراها ولا يحاسب عليها شراً أو خيراً ، إلا بعد تصنيفها، وتقويمها على ضوء معايير الخير والشر ، الإيمان والكفر ، التي وضعها الخالق لعباده . وفي جلال هاتين الآيتين قال ابن مسعود في قوله ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ﴾ هذه أحكم آية في القرآن . وقال كعب الأحبار : لقد أنزل الله على محمد آيتين أحصتا ما في التوراة والإنجيل والزيور والصحف : ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ (١) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يسمى هذه الآية الجامعة الفائزة . وأرود الماوردي : روي أن صعصعة بن ناجية جد الفرزدق أتى النبي ( صلى الله عليه وسلم ) يستقرئه ، فقرأ عليه هذه الآية ، فقال صعصعة : حسبي حسبي ، إن عملت مثقال ذرة شراً رأيتته . وقال محمد بن كعب القرظي : " فمن يعمل مثقال ذرة من خير من كافر ، يرى ثوابه في الدنيا ، في نفسه وماله وأهله وولده ، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله خير ، ومن يعمل مثقال ذرة من شر من مؤمن ، يرى عقوبته في الدنيا ، في نفسه وماله وولده وأهله ، حتى يخرج من الدنيا وليس له عند الله شر " . وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله " ما من أحد يوم القيامة إلا ويلوم نفسه ، فإن كان محسناً فيقول : لم لا ازددت إحساناً ؟ وإن كان غير ذلك يقول : لم لا نزعتم عن المعاصي " (٢) .

اكتملت جولتنا مع الآيات الكريمة السابقة في مطلب تقويم الأعمال بشكل عام ، ورأينا بعض أحوال وأراء أهل العلم ، وما حوته مما هو نافع في موضوع بحثنا ، وحسب رأي الباحث المتواضع فهناك استنتاجات حول منهجية هذه الآيات في تقويم الأعمال يسردها كالتالي :

(١) إن العبودية والحب والخضوع لغير الله على أساس تقويم فاسد ومقياس ناقص ، مدعاة لجعل الأعمال والأفعال ، حشرات ، على أصحابها ، حين تنقطع الأسباب بالتابعين والمتبوعين يوم القيامة، ويقلب كل من الطرفين ظهر المجن والبراءة للآخر . فيجعل الله قيمة الأعمال والاعترافات والمجادلة عندها لا شيء لكلا الطرفين . وكم يخسر الناس

(١) ابن كثير : جزء ٤ ، ص ٥٤٣ .

(٢) انظر القرطبي : جزء ٢٠ ، ص ١٥٠-١٥٢ .



وتخسر البشرية في اعتلال ميزان العبودية وميزان تقويم الأشياء والأشخاص في الدنيا والآخرة . كم يخسرون وهم يتعلقون بعلم أو بغير علم ، بأوهام القيم المادية ، والمعايير البشرية ، بعيداً عن منهج التقويم الرباني . وإن هذه الخسارة لتمتد عبر الأجيال والآماد ، وتُجَمَّل وتُزَيَّن كثيراً عبر العصور والأجيال بكثير من الفلسفات والنظريات والآراء والخطط والاختراعات ، التي تجعل انطلاقتها وخداعها وروغانها أكثر قبولاً واستحساناً عند أكثرية شعوب الأرض.

وعلى أية حال ، فلا قيمة لذلك كله في ميزان الحق ، وتقويم الخالق مهما تضخم وانتفش وتعملق . فإذا لم تظهر الحقيقة في الدنيا ، فهي ظاهرة باينة عند خاتمة حياة الناس أمام رب العالمين ، يوم: ﴿ يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ .  
(٢) تميز أهل الكتاب و(خاصة اليهود) بتحريف الكتب السماوية وقتل الأنبياء ، واتهامهم بأفضع التهم ، وقتل كل من يأمر القسط والعدل من الناس . ويحسب هؤلاء أنهم قد انتصروا ، وعظّم سلطانهم ، وكسبوا الجاه ، وقادوا الناس وحكموهم ، وزَيَّن ذلك لهم عزاً وقيمة ومكانة ، ولكن الحقيقة الناطقة والتقويم الصحيح يُزهق ذلك كله ، ويُحبطه بعد انتفاخ ، ويدحره بعد تعاضم في الدنيا قبل الآخرة ، وعلامة ذلك - استهزاء بهم - ﴿ فبشرهم بعذاب أليم ﴾ وكما ارتكب اليهود وأهل الكتاب عموماً من طغيان على موازين الحق والتقويم والعدل ، على مستوى الأفكار والنظريات ، ومستوى الحقوق والواجبات ، ومستوى التمييز والتعصب ، ومستوى الشعوب والأمم ، ومستوى الاقتصاد والخيرات ، ومستوى الاستعمار والاحتلال ، ومستوى الأخلاق والاجتماع ، بل ومستوى كل شيء في هذه الحياة . وإذا تسرب من خلال ذلك بعض الخير والنفعة للآخرين ، فمن أجل مزيد من الاختلال والطغيان، والتحكم والاضطراب ، تحت مفهوم فلسفة سيادة " الرجل الأبيض " ضمن منظومة الفلسفة المادية ، والحرية الكونية، والحياة العولمية .

(٣) يقدم الضالون أحياناً حجة ودليلاً عملياً على أن لهم أعمالاً حسنة ، وأفعالاً محمودة، وبياهون بذلك ، لذلك قدّم مشركو مكة أعمالهم من سقاية الحجاج وعمارة المسجد وإطعام المساكين .. الخ ، وهذا و- لا شك - عمل خير وِنفع ، كانوا يقدمونه بنوع من الاهتمام والتقديس والعبادة والتفاخر ، ولكن الرد الصريح ، والتقويم الصحيح لا يمهلهم أذ رد ذلك جميعه عليهم ، وحسبه محبوباً هباء لا قيمة له ، لماذا ؟ ﴿ ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر ﴾ و ﴿ إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله

واليوم الآخر .. ﴿ ثم كان التقويم الحق لهذه الأعمال ﴿ جعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستورون عند الله ﴾ .

٤) القصص القرآني كنز عظيم ، وتجربة صادقة ، تقوم على أحداث وممارسات في ميدان التغالب بين الحق والباطل في مسيرة الحياة البشرية منذ أن قال الخالق عز وجل إلى حواء وآدم ﴿ اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ﴾ [البقرة: ٣٦] . والأعمال التي رآها موسى عليه السلام في رحلته مع العبد الصالح أنكرها ، كلها واستغربها ، وقومها تقويماً ظاهرياً بناء على معايير المألوفة ومقاييسه المعهودة . ولكن العبد الصالح كان يهدف منها لما هو أعمق وأنفع على المدى الأبعد والمستقبل الأطول . وهكذا الإنسان ، كثيراً ما يأخذ الاستعجال - على ضوء خبرته البسيطة ، وعلمه المحدود في تقويم الأشياء والحكم عليها - إلى السطحية والاختلال ، فلا يحكم العقل ولا يستبين الأمر ، ليحكم بعمق ، ويقوم بتبصر ، ويستفيد ممن هو أعلم وأخبر وأكبر منه .

وكم هي المعاناة اليوم ظاهرة وعسيرة في أجيال الشباب المعاصر من جراء الاعتساف ، والعجلة والتهور في ميدان التقويم والحكم ، والجرح والتعديل ، وكأني - والله أعلم - ألمح أنه وعلى الرغم من التقدم التقني ، والذكاء الفني والتكنولوجي الباهر في الحياة المعاصرة ، وانتشار فلسفة السرعة والهرولة في كل شيء ، تحت مظلة الشهوة والنفع والسبق ، ضمن نظرية العولمة ، وشبكة المعلومات العنكبوتية ، ألمح على الرغم من ذلك ، أن رصيد الأجيال المعاصرة عموماً من التروي والتأمل والتعمق والتبصر والتقويم السليم والعدل والشفافية قد قل ، وتقرم إلى حد غير مقبول ، مما نتج عنه ردة فعل مُحقة في رفع شعارات الشفافية والتروي ، والعدل وحسن التقويم .. الخ . وذلك لإعادة الأمر إلى نصابه ، والأجيال إلى رشدها والعالم إلى إنسانيته .

وقريب من ذلك ما يصدر من موازين في التقويم والحكم على الطاقات البشرية ، فمثلاً : لأن تقنية المعلومات هي وسيلة العصر الكاسحة ، وأسلوبه الأسرع - ولا جدال في فائدتها العظيمة - تجد من مقاييس التفاضل الطاغية ، هو : مدى قرب أو بعد أو تخصص الفرد في هذا الميدان ، وأصبح كثير من الناس يخترعون مصطلحات جديدة مثل : أمية الكمبيوتر ، و الإنترنت والتكنولوجيا ... الخ ويفضّلون ربما تقني الكمبيوتر على المفكر المنظر المستقيم الذي يخط للأجيال طريقها في سبيل الاستقامة والنفع ، بعيداً عن طريق الضلال والانحراف . وليس القصد هنا مجانية التكنولوجيا أو التقليل من أهمية الوسائل ،

ولكن المطلوب وضع كل شيء في مكانه ، والفرد حسب عطائه . فحسب وجهة نظري ، فإن ألف تقني - مع الحاجة لهم - لا يعدلون مفكراً أو كاتباً أو عالماً واحداً في مجال التخطيط والتنظير ، والتعليم والتربية ، والإعلام وتصويب الطريق ، وتقويم مسيرة الأمة التي تعاني من ارتكاسة عميقة شاملة كما هو مشهود .

فالتكنولوجيا فن ووسيلة ، تحتاج إلى جوهر وبضاعة وفكرة سليمة تعمل لها وبها ، وتوصلها كهدف إلى الأجيال يرتفعون إليه ، ويجتهدون من أجله . والأجمل أن تتطابق الوسيلة مع مضمونها وهدفها ، وأن لا ننخدع بالوسيلة على حساب الهدف ، ولا نترك الوسيلة بحجة الهدف .

إن خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار بدون أجر أعمالاً غير صحيحة حسب تقويم موسى عليه السلام ، وهذا - للوهلة الأولى - حسب معايير وخبرته ، ولكن الأمر يختلف والتقويم يتغير حسب شروط العبد الصالح ومعايير . وقد نظر هنا إلى مآلات الأفعال والأعمال ، ونتائجها المستقبلية على ضوء المصلحة الراجحة . فخرق السفينة أولى من سرقتها ، وقتل الغلام اليافع الذي لم يظهر خيره من شره ، أولى من كفر والديه وانحرافه وانحرافهما ، وإقامة الجدار بدون أجره ومقابل ، أولى من ضياع كنز اليتيمين اللذين كان أبوهما صالحاً .

وإن النظر إلى مآلات الأفعال وتقويمها وتصويبها على هذا الأساس ، لهو أساس محترم ومقدر في ميزان الشريعة الإسلامية . قال الإمام الشاطبي في الموافقات : " النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً ، كانت الأفعال موافقة أو مخالفة " (١) .

٥) إن تقويم الأعمال والخطط والأشخاص بالقيمة الرقمية ، والمقياس العددي ، والنسبة المئوية ، أسلوب معاصر مستعمل ، يدل على الدقة والشفافية . فمقياس مستوى الطالب في الامتحان هي العلامة الرقمية بناء على معيار الأسئلة وقيمة كل منها نسبة إلى العلامة الكلية ١٠٠% . ووزن الإنسان المادي يقاس بالميزان ، فيقال : وزنه ٨٠ كغم مثلاً ، وكذلك قياس وتقويم الأعمال والخطط والنتائج ، فيقال : حصل ربحاً مقداره ٣٠% . ويقال : حقق من أهدافه المخطط لها ٧٠% ، وهكذا ، وهذا ولا شك أقرب للتقويم والعدل والشفافية . ولكن أن تحصى الأعمال والأفعال على مستوى الذرة ، وهي : الهباءة التي ترى في ضوء الشمس ، فهذا أمر غير مستوعب ، وغير ممكن في ميزان البشر وقدراتهم .

(١) الموافقات : لأبي إسحاق الشاطبي ، طبعة دار المعرفة - بيروت .

---

ولكنه الميزان المعتمد عند الله يوم القيامة . وهو مثل للإنسان للاحتياط والاعتبار في السير في طريق الاستقامة من جهة ، وللحكم والعدل والتقويم الدقيق على الأمور في حياته من جهة ثانية ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ .

(٦) إن ذكر مقابلات الأعمال ، الأعمال الصالحة للمؤمنين الطائعين ، والأعمال الطالحة للضالين الكافرين ، والتذكير بما سيؤول إليه أهل الأعمال الصالحة ، وفتح باب المغفرة والتوبة والرحمة ، والتلويح برغبة الخالق بتوبة عباده ، وأنه غفور رحيم ، كما أنه شديد العقاب ، إن ذكر ذلك ، ليثبت أن المقصود من ذلك هو : أن يكون التقويم والحكم هادفاً ، ذا غاية ومقصد ، في تعديل سلوك هؤلاء المخطئين ، وتصويب أعمالهم نحو الأحسن ، وفتح الطريق أمامهم لهذا المسلك الرشيد ، مما يؤكد غائية التقويم ، وهدفيته في التصور الإسلامي . نقد وتقويم وحكم وتشخيص ليس للتئيس والانتقام والإحباط والتشهير ، بل للعبرة والعظة والاستقامة ، والتصويب وإصلاح الإعوجاج .

\*\*\*

## المبحث الرابع

# مجال التقويم الذاتي

وفيه ثلاثة مطالب :

- المطلب الأول : التقويم الذاتي في دائرة الإيمان وأهله
- المطلب الثاني : التقويم الذاتي في دائرة الانحراف وأهله
- المطلب الثالث : ضوابط ومعايير التقويم الذاتي

## تمهيد

تنطلق فكرة الذات ونقدها عند الإنسان من صفة المسؤولية ، التي تشكل تميزه عن غيره من المخلوقات ، ووظيفة الأمانة التي حملها الإنسان ، في حين عجزت عن حملها السموات والأرض ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ [الأحزاب: ٢٧] ومقومات ذلك عنده توفر جهاز العقل ، كُرم به الإنسان دون غيره ، يحمل به صفات عليا من الاستعمال في التفكير والإدراك ، والنحليل والمقارنة ، والتقويم والتعديل . وكان شعار ذلك حرية الاختيار والتوجه ﴿وهديناه النجدين ﴾ و ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ وترتبت المسؤولية والأمانة على وجود المقومات ، وحرية الاختيار بشكل جلي واضح . ولقد حفل القرآن الكريم بمواقف وآيات تقويمية كما مر وسيمر معنا في مختلف مناحي الحياة ومجالاتها .

ويبقى تقويم الذات والنفس على المستوى الفردي والجماعي في جانب المحمود أو المذموم من الصفات والأعمال والأفكار هو أصل المسألة وعقدة الحل فيها ، ومفصل التغيير والتصحيح المأمول . وعند أصحاب الرياضات النفسية والروحية ، فإن ترويض النفس وتهذيبها ، وتربية الروح وتقويمها يُشكّل حجر الأساس في ترشيد مسار المرء ، ومن ثم مسار المجتمع . ويبدأ هذا بمعرفة جانبي تكوينها في نزعة الشر ، وجبلة الخير ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ ثم يكون بمعرفة مكونات صفاتها على هذين الجانبين ، فهي كريمة وبخيلة ، عزيزة وذليلة ، شجاعة وجبانة ، عاقلة وجاهلة ، حليلة وعضوبة ، صادقة وكاذبة ، وكلما زاد منسوب صفة من صفاتها نقص في المقابل منسوب ما يصاد هذه الصفة ، لأن زيادة صفة الكرم مثلاً تقابلها نقص صفة البخل ، وزيادة صفة الغضب أمامها نقص صفة الحلم وهكذا ، والأمر نسبي لا ينضبط بقاعدة مضطردة .

وتوالت الحكم والتجارب على مستوى النثر والشعر ، ومأثور الأقوال والنصوص الشرعية ، على أن قيادة النفس هي أعظم أنواع القيادات ، وتقويم الذات والسيطرة على الداخل هو أعلى الأعمال وأبرزها ، وهو بذلك بضاعة نادرة وعملة عزيزة . والحقيقة أن فلسفة تقويم الذات قديمة قدم التكليف الإلهي منذ أن خلق الله آدم وحواء عليهما السلام ، وما

حدث معهما في قصة إبليس والشجرة وإنزال الله لهما إلى الأرض ، لتجري سنة الله في اصطراع الحق والباطل إلى يوم القيامة .

ولذلك " فمهوم النقد الذاتي بمعنى مراجعة النفس ، أو النشاط فردياً كان أو جماعياً ثم محاسبتها هو روح القرآن المكتفة " (١) .

إن الفرق الحاسم الذي فتح طريق الخير للإنسان هو موقف آدم الصحيح من المشكلة التي حدثت حين اعترف من خلال عملية النقد الذاتي ، بل نطق هو وزوجته بلسان واحد ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ فهذا انطلاق من العالم الداخلي ، وليس بحثاً عن كبش فداء يُعلق الظلم الواقع من الخارج عليه ، إنه موقف كبير ، وهو صحيح ، وهو بنفس الوقت تعبير عن نضج النفس الإنسانية .

إن الذي فتح باب اللعنة على إبليس هو عدم الاعتراف بهذا الجانب ، بل ذهب يتبجح فيقول: ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴾ فأدم يقول بعد مراجعة نفسه إنني ظلمت نفسي والشيطان لا يراجع فيقول ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ ... ﴾ الأول استحق رحمة الله ، والثاني حلت به اللعنة الأبدية " (٢) .

ومفهوم الذات لغوياً: بمعنى النفس والشخص ، ويقال: جاء فلان بذاته: عينه ونفسه (٣) وقد وردت في القرآن الكريم على نحو : ﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴾ [الرحمن: ١١] و ﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ ﴾ [الرحمن: ٤٨] و ﴿ إِرْمِ ذَاتَ الْعِمَادِ ﴾ [الفجر: ٧] .

وفي اصطلاح التربويين فهي " القوة الإيجابية الداخلية التي تدفع بطاقات الإنسان وتوجه سلوكه نحو النجاح ، وتوجهه لتحقيق غاية معينة يشعر بالحاجة إليها، أو بأهميتها المادية والمعنوية " (٤) .

" ومفهوم التقويم الذاتي في التربية الإسلامية هو أن تُصدر الشخصية الإسلامية حكماً قيمياً على ذاتها ، أو على ما تقوم به من أفعال وأفكار ، ومشاعر وتصرفات ، وفق معايير

(١) النقد الذاتي : د.خالص جليبي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى ص ٢٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٣ .

(٣) انظر المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية ، مادة ذا ، باب الذال ج ١ ، ص ٣٠٧ .

(٤) انظر الميسر في علم النفس التربوي : د.أحمد بلقيس ، د.توفيق مرعي ص ٨٤-٩٣ .

التربية الإسلامية لتعزيز سلوك أو تعديله، أو تحقيق غاية منشودة من وراء هذا التقويم<sup>(١)</sup> .

و سنعرض هنا إلى بعض الآيات التي عالجت مواقف ومناسبات من التقويم الذاتي ، على مستوى الفرد والمجموعة، في إطار المؤمنين وإطار الكافرين والمعاندين ، في جانب الجرح وجانب التعديل ، أو قل جانب الخطأ وجانب الصواب . ونود أن نعرض ذلك حسب المطالب التالية:

### المطلب الأول: التقويم الذاتي في دائرة الإيمان وأهله

إن منهجية التقويم في القرآن شاملة لكل مخلوقات الله ، وخاصة " المكلفة منها " فهي تشمل أهل الإيمان والإسلام ، كما تشمل غيرهم من الضالين والمنحرفين ، ذلك أن الخلق أمام الخالق سواء، ومعايير المفاضلة والتمايز سارية عليهم جميعاً . ولو نجى أحد لنجى منها الأنبياء والرسل ، قال الله تعالى في حق نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى ﴾ إن صنف المؤمنين يمكن أن يخطئ ، ويزل ويقع في الكبيرة ، والصغيرة ، - وهذا من جبلته - ولكن عظمة الإيمان ، وعز التوبة ، والإنابة ، وتقدير الذات واحترامها وتقويمها ، توجب التذكر والاستغفار والاعتراف بالذنب ، وعدم الإصرار على الفعل . وكذلك خلع رداء التكبر والعناد ووجوب اللجوء إلى الله غافر الذنب ، وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول . وكل هذا يحل المشكلة ويقلبها إلى منحة ومغفرة وأجر عظيم . يقول تعالى ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ، أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين ﴾ [آل عمران: ٣٥-٣٦] .

والتقويم الذاتي كما هي صنوف التقويم ومجالاته الأخرى يحمل صفتي المدح والذم ، وإبراز الإيجابيات والاعتراف بالأخطاء والهفوات ، وقد قال الله على لسان يوسف عليه السلام ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ فقوّم يوسف نفسه ، وأبرز حفظها " بالأمانة " وعلمها " بالكفاءة " وهذا مدح وإطراء. وفي المقابل قال الله على لسان

(١) انظر التقويم الذاتي للشخصية في التربية الإسلامية : أكرم عبد القادر أبو إسماعيل - رسالة ماجستير /الجامعة الأردنية ، عام ١٩٩٣م ، ص ٨ .



موسى عليه السلام ﴿ قال رب إن ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ وهذا لوم للنفس ، واعتراف بوقوع الظلم منها ، في قضية مقتل عدوه عند ما استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه .

وتقويم الذات - ناهيك عن التقويم بشكل عام - قضية مهمة وحساسة ، ترتبط بعوامل إيمانية ، ونفسية ، واجتماعية ، وإدراكية ، وتغييرية ، وقيادية . وهي مؤشر " إن وجدت " على رقى الذات وارتفاعها والسيطرة على زمامها قال الشاعر :

والنفس كالطفل إن تتركه شب على حب الرضاع وإن تقطمه ينفطم

ويدور جدل كبير في وقتنا المعاصر على خلفية حال الأمة المسلمة ، وما يتغلغل في أوصالها من نقاط ضعف ، وأمراض فتاكة داخلية ، صنعتها ولا شك عوامل متعددة . يدور الجدل حول أهمية تقويم الذات ، ومصارحة الداخل ، وهل ما بنا داخلي من أنفسنا ، أم خارجي من أعدائنا ؟ وهل نحن أمة مدركة ، تحب التقويم والتشخيص والتصحيح والتعديل ، بناء على معايير علمية ، وموازن شرعية ، نربي ونترى عليها ؟

هل هذه مشكلتنا الأولى ، وألويتنا المهمة ؟ هل تقويم الذات ونقدها عامل تينيس

وإحباط وجلد للذات وتعذيب ؟ أم عامل تحفيز وتصحيح ؟ ومتى وكيف هو في الحاليتين ؟

هل نحن غارقون في " نظرية المؤامرة " بمعنى اعتبار الآخر " المؤثر الخارجي "

مشجباً نعلق عليه أخطأنا ، باسم العداوة التاريخية والمؤامرة العالمية ؟ أم أن الأمر صحيح ، فالآخر متأمر حاقد ، يؤيد ذلك الماضي والحاضر في أكثر من مجال ؟ وما نسبة هذه المؤامرة في ضعف كياننا ؟ وإذا كان للخارج نصيب من المشكلة وللداخل نصيب ، فكم نسبة كل طرف ؟ ومن هو المسبب للآخر ، وأيها أخطر ؟ وإذا كان ذلك كذلك ، فمن أين يمكن أن تكون نقطة الانطلاقة ، والاعتراف ، ووضع الإصبع على الخلل ؟ وأيها قبل الآخر ؟ إصلاح الداخل وتقويمه ، ونقده ، ومن ثم تصحيحه ، أم مجابهة الخارج ، وإدراكه ودفعه ؟

وما هي المعايير التي نعتمدها ابتداء لنحدد كل ما سبق على مستوى الذات ومستوى

الآخر ؟ هذه وغيرها محاور للجدال والحراك الفكري ، تدور في نطاق شعار التغيير ، والإفاقة المطلوبة للأمة العربية والإسلامية ، سنحاول معالجتها في الفصل الأخير من هذا البحث بعون الله .

يقول الإمام المودودي في نطاق التقويم الذاتي وضرورته في تفسيره لسورة النور عند الآية (٣٥) " الله نور السموات والأرض ... " ومدى تأثير المسلمين بالمنافقين وانخداعهم بهم يقول " بل كان كثير من المسلمين المخلصين لضعفهم وسذاجة طبعمهم ، يقعون في مكرهم ودجلهم ، فيستغلون سذاجتهم في بلوغ أغراضهم كما يشاؤون ويحتمون بهم " إلى أن يقول " والله بدل أن يؤنبهم ( أي المنافقين ) على أعمالهم الرذيلة ، وحملاتهم الشنيعة على أخلاق المسلمين ، أو يحرض المسلمين على رد حملاتهم ، وجه اهتمامه إلى دعوة المسلمين إلى سد ما في جبهتهم الخلقية من الثغر ومواضع الخلل ، وإحكامها وتوثيقها " (١).

ومن جوامع الكلم في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجال التقويم الذاتي قوله : " قل أمنت بالله ثم استقم " (٢) ولا تكون الاستقامة إلا بعد التقويم والنظر في حال النفس ، وأوضاع الذات . وللإمام النووي كلام جزل في هذا الباب يقول - رحمه الله - " والمحبوب في مدح الذات عند تقويمها أن يكون فيه مصلحة دينية ، وذلك أن يكون أمراً بمعروف ، أو ناهياً عن منكر ، أو ناصحاً ، أو مشيراً بمصلحة ، أو معلماً ، أو مؤدباً ، أو واعظاً ، أو مذكراً ، أو مصلحاً بين اثنين ، أو يدفع عن نفسه شراً أو نحو ذلك . فيذكر محاسنه ناوياً بذلك أن يكون هذا أقرب إلى قبول قوله ، واعتماد ما يذكر " (٣) .

ولنقترب في معالجتنا لهذا المطلب من بعض الآيات وما فيها من كنوز ودروس ، وما ورد فيها من أقوال العلماء والمفسرين حول منهجية التقويم الذاتي كما نريده من هذا المطلب في ساحة الإيمان وأهله .

إن أول مواقف احترام الذات ، وتقدير النفس ، ورفعة الحق وعدل الميزان ، هو موقف آدم وحواء عليهما السلام في تقويم ذاتي رائع صريح ﴿ قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ [الأعراف: ٢٣] .

وكان هذا الموقف إذ تصدر المسيرة البشرية منذ بدايتها ليؤكد جلال منهج التقويم الذاتي ، والرجوع ابتداءً للنفس والداخل ، لمعرفة ما لها وما عليها . ما لها من استقامة وجهد في تمثل الطاعة والسير على الطريق المحدد المطلوب تحقيقاً لغاية الخلق ومقصود الرب ، وما عليها من أخطاء وقصور واهتزاز وضعف أمام امتحانات الطريق وعوائق

(١) تفسير سورة النور : لأبي الأعلى المودودي ، انظر ص ٢٩ و ص ١٩٥ ، مترجم عن الأردية .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي : كتاب الإيمان ج ١ ص ٢١٣ ، طبعة دار الشعب / مصر ١٢٩٠هـ .

(٣) الأذكار : الإمام يحيى بن شرف النووي ، المكتبة القيامة ، القاهرة ، ص ٢٣٨ .

السير . وإن أقصر طريق للإصلاح والتقويم هو الاعتراف والرجوع للذات أولاً وقبل كل شيء ، فذلك أوفر للجهد ، وأقصر للإصلاح ، وأرقى للنفس ، وأقل للتكاليف ، التي من ضمنها البحث عن المبررات وحشد الأعداء ، وتجميع الحجج ، دفاعاً عن الذات ، وتحسيناً للنفس أمام روعة الحق ، ونصاعة الاعتراف ، ولذة الفضيلة .

ومن المؤثرات الثقيلة على نمو منهجية التقويم - وخصوصاً الذاتي منها - بعض أفكارنا الاجتماعية والمجتمعية ، التي ترى أن التقويم الذاتي - الفردي منه والجماعي - يُعد منقصة للذات ، وتقليلاً من الشأن ، وكشفاً للعوار ، مما يشكل بيئة خصبة للتنازب والتلاوم والغلبة - وهذا وإن وجد في بيئتنا - إلا أنه فكر ضيق وقيمة سلبية ، لا تركز إلا الانغلاق على الذات ، وتنمية جو الخوف من الحق ، وكره التغيير ، وامتهان الغموض والتخفي ، والتدري عن ضوء الشمس ، ونسيم الحقيقة ، وهواء العافية ، وقوة الجنان ، والثقة بالنفس . إن إخضاع الأعمال والاجتهادات البشرية للنقد والتقويم لا يعني إنقاص قيمتها أبداً ، إنما يكسبها ذلك إثراء لعقولنا ومرونة لأفهامنا ، وتقوية لممكتنا ودقة نظرنا ، لأن الأمور ليست ثابتة حتى عند الفرد الواحد على ضوء خبرته وعلمه ونضجه .

فالنقد والتقويم لذلك هو روح الحياة وتدققها على مستوى الذات ، ومستوى الآخر ، وهو وسيلة النمو والخصوبة والرشد لدى الحضارات ، ونؤكد أن عمليات التقويم والمراجعة لا تعني النقص والإلغاء والتراجع ، ولا هي سهام طائشة تؤدي بأصحابها ، ولا هي عبث أو تشهي ، إنما هي مجهودات ذهنية واجتهادات شرعية ، محكومة بمناهج وضوابط وآداب .

ولعلنا نقول: إن الإيمان بقيم الكتاب والسنة والاعتقاد بعصمتها ، يشكل الحارس الأمين المؤطر لعمليات النقد والتقويم والمراجعة ، وتبقى المعيار الأساسي لكل اجتهاد<sup>(١)</sup> . إن أولى فوائد التقويم الذاتي هو ترويض النفس على المراجعة والمحاسبة ، وقبول الحق ، ومعرفة نقاط الضعف ونقاط القوة ، والفرص المتاحة للتحسين ، وكذلك التهديدات والمعوقات التي تكتنف الذات أو العمل أو المجموعة . وإن أصدق أنواع التقويم وأقربها للنفس والذات - إذا اجتنب الهوى - أن يقوم المرء ذاته ، والمجموعة نفسها ، إذ لا يعقل عادة أن يكذب الإنسان على نفسه ، وأن يدهن ذاته ، فيغشها ويخدعها ، ولا يصارحها بما هي عليه من صواب أو خطأ . لذلك قال الله تعالى :

(١) فقه الواقع أصول وضوابط : أحمد بوعود : تقديم الأستاذ عمر عبيد حسنة ص ١٥-١٦ (بتصرف) .

﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره ﴾ [القيامة : ١٤-١٥] .

يقول صاحب الظلال عند تعليقه على الآيتين : " إنه مهما اعتذر الإنسان بثتى المعاذير عما وقع منه ، فلن يقبل منه عذر ، لأن نفسه موكولة إليه ، وهو موكل بها ، وعليه أن يهديها إلى الخير ، ويقودها إليه ، فإذا انتهى بها إلى الشر فهو مكلف بها وحجة عليها (١) .

ولقد قام رجل جاء يسعى من أقصى المدينة - كما في سورة يس - بتقويم نفسه إلى أن آمن بالله رب العالمين ﴿ وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجراً وهم مهتدون ... ﴾ إلى أن يقول : ﴿ إنني إذا لفي ضلال مبين ، إنني آمنت بربكم فاسمعون ﴾ [يس : ٢٠-٢٥] .

لقد استخدم هذا الرجل عملية التقويم الذاتي التي أمدته بالأحكام القيمية لطرفي المعادلة، وأعطته في النهاية الحكم القطعي على ذاته إن لم تتبع سبيل المؤمنين " إنني إذا لفي ضلال مبين " ووصل بعد هذا إلى الإيمان بالله رب العالمين " إنني آمنت بربكم فاسمعون " (٢) .

وجاء موقف هذا الرجل في جو تقويمي دعوي عام بين مجموعة المرسلين ، وبين أصحاب القرية كل يحاول فيه تقويم صاحبه حسب ما عنده من معايير ومصالح . يقول أصحاب القرية بعد أن عرض عليهم المرسلون الدعوة والرسالة ﴿ قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن أنتم إلا تكذبون ﴾ [يس : ١٥] ورد عليهم المرسلون بعد أن أكدوا أنهم مرسلون ، ومهمتهم البلاغ المبين ﴿ قالوا طائركم معكم أنن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون ﴾ [يس : ١٩] .

وقد تناسب منهجه التقويمي مع جو التقويم العام الذي فيه المرسلون وأصحاب القرية، وقاد تقويمه السليم الصريح ، وصدقه مع نفسه إلى الإيمان واتباع المرسلين . وما أجمل نتيجة هذا التقويم الصادق المباشر الصريح ﴿ قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين ﴾ [يس : ٢٦-٢٧] .

ولقد نهج أفضل خلق الله - الأنبياء والرسل - منهج التقويم في حياتهم الرسالية ، وطبقوه على أنفسهم في مواقف متعددة . فهذا يوسف عليه السلام ، وعبر مراحل حياته

(١) الظلال : ج ٦ ، ص ٣٧٦٩ .

(٢) التقويم الذاتي : أكرم أبو إسماعيل ، ص ١٠ .

المتنوعة ، يبرز ما عنده من صفات يقوم بها ذاته أمام مهمة قيادية ، وأمانة كبرى في تسيير أمور الدولة المالية والاقتصادية عندما وصل إلى مرحلة الرخاء والسلطان في مصر وما فيهما من ابتلاء وتمحيص .

يقول الله عز وجل على لسان يوسف عليه السلام : ﴿ قال اجعلني على خزان الأرض إني حفيظ عليم ﴾ [ يوسف : ٥٥ ] .

وقبلها قول الله تعالى : ﴿ وقال الملك انتوني به استخلصه لنفسي فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ [ يوسف : ٥٤ ] .

ونرى أن يوسف عليه السلام قد اقتنص تقويم الملك له ، واختار الفرصة المناسبة بعد أن أبرز الملك مكانته بأنه ذا مكانة ، وأنه أمين صادق برئ ، استفاد من هذه الفرصة في تقديم نفسه ، وإبراز تميزه ، ليبوء بالمكانة والمهمة التي تمكنه من خدمة الشعب ، والدعوة إلى الله بإقامة العدل ، وتصريف شئون الدولة على إثر تفسير الرؤيا في مجيء السنين الممحلة المجدبة التي تعم البلاد .

ويقوم يوسف نفسه هنا في جانب المدح والتزكية . ومعلوم أن التقدم للولاية وطلبها ، وكذلك تزكية النفس أمران محظوران في الفقه الإسلامي . فقد روى مسلم عن عبد الرحمن بن سمرة قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم " يا عبد الرحمن لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها " (١) . وقال الله تعالى في تجنب تزكية النفس ﴿ ولا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ [النجم : ٣٢] وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم " لا نستعمل على عملنا من أراده " أخرجه مسلم .

فكيف يتم على ذلك التوفيق بين المنع وبين إظهار القدرات والطاقات كما في موقف يوسف عليه السلام ؟

ولقد علق الإمام القرطبي على هذه المسألة فقال : " فالجواب أولاً : أن يوسف عليه السلام إنما طلب الولاية لأنه علم أنه لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح ، وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم ، فرأى أن ذلك فرضاً متعيناً عليه ، فإنه لم يكن هناك غيره .

وكذا الحكم اليوم ، لو علم إنسان من نفسه أنه يقوم بالحق في القضاء أو الحسبة ، ولم يكن هناك من يصلح ولا يقوم مقامه لتعين ذلك عليه ، ووجب أن يتولاها ويسأل ذلك ،

(١) انقرطبي : جزء ٩ ، ص ٢١٥-٢١٦ .

ويخبر بصفاته التي يستحقها بها من العلم والكفاية وغير ذلك ، كما قال يوسف عليه السلام ، فأما لو كان هناك من يقوم بها ويصلح لها وعلم بذلك فالأولى ألا يطلب . ثم يقول : الثاني : أنه لم يقل إني حسيب كريم ، وإن كان كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم " (١) ولا قال : إني جميل مليح ، إنما قال : " إني حفيظ عليم " فسألها بالحفظ والعلم ، لا بالنسب والجمال . الثالث : إنما قال ذلك عند من لا يعرفه فأراد تعريف نفسه ، وصار بذلك مستثنى من قوله تعالى " فلا تزكوا أنفسكم " ويقول : ودلت الآية أيضاً على أنه يجوز للإنسان أن يصف نفسه بما فيه من علم وفضل ، قال الماوردي : " وليس هذا على الإطلاق في عموم الصفات ، ولكنه مخصوص فيما اقترن بوصلة ، أو تعلق بطاهر مكسب ، وممنوع منه فيما سواه ، لما فيه من تزكية ومראה " (٢) .

ويجوز للرجل مدح نفسه إذا جهل أمره للحاجة ، إذ ذكر يوسف أنه ذو علم وبصيرة بما يتولاه . وقد سأل يوسف العمل لعلمه بقدرته عليه ، ولما فيه من المصالح للناس ، لما سيأتي من السنين الشديدة فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد " (٣) . ويؤكد صاحب الظلال جواز طلب الإمارة ، وتزكية النفس عند المصلحة العامة ، وتطبيق الشرع والعدل وعدم الخضوع للطاغوت في مجتمع غير المجتمع الإسلامي الكامل فيقول : " إنه - أي سيدنا يوسف - لم يكن يعيش في مجتمع مسلم تنطبق عليه قاعدة عدم تزكية النفس عند الناس ، وطلب الإمارة على أساس هذه التزكية ، كما أنه كان يرى أن الظروف تمكن له من أن يكون حاكماً مطاعاً ، لا خادماً في وضع جاهلي ، وكان الأمر كما توقع ، فتمكن بسيطرته من الدعوة لدينه ، ونشره في مصر في أيام حكمه ، وقد توارى العزيز وتوارى الملك تماماً " (٤) .

وتعرض سورة الأنبياء موقفاً تقويمياً لنبي آخر هو سيدنا يونس عليه السلام " ذا النون " أي صاحب الحوت ، فالنون هنا بمعنى الحوت يقول الله تعالى : ﴿ ذا النون إذ ذهب

(١) رواه البخاري ، ١٨١/٢ و ٩٥/٦ طبعة دار الفكر .

(٢) القرطبي : جزء ٩ ، ص ٢١٦-٢١٧ .

(٣) انظر ابن كثير : جزء ٢ ، ص ٤٦٣ .

(٤) الظلال : ج ٤ ، ص ٢٠١٣ .

مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ، فاستجبنا له ونجيناه من الغم وكذلك نجى المؤمنين ﴿ يونس : ٨٧-٨٨ ﴾ .

إن يونس لم يصبر على تكاليف الرسالة ، فضايق صدره بالقوم وألقى عبء الدعوة ، وذهب مغاضباً ، ضيق الصدر ، حرج النفس ، فأوقعه الله في الضيق الذي تهون إلى جانبه مضايقات المكذابين . ولولا أن تاب إلى ربه ! واعترف بظلمه لنفسه ودعوته وواجبه ، لما فرج الله عنه هذا الضيق ، ولكنها القدرة حفظته ونجته من الغم الذي يعانيه ... وإن في رجعة ذي النون إلى ربه واعترافه بظلمه ، لعبرة لأصحاب الدعوات ينبغي أن يتدبروها <sup>(١)</sup> .

وطبيعي أن ينفذ الصبر لدى بني البشر ، وأن ينفذ مخزون العمل ويضيق الصدر ، ويختار الإنسان مفارقة الشر وأهله والعناد وأصحابه ، وهذا ما حصل مع يونس - نبي الله - ولكن هذا الضيق وهذه الغيرة وهذا الانقطاع ، مرتبط بهدف سام ، وتوجه سليم ، هو حب الهداية والإيمان للمدعوين في مجال الدعوة ، إضافة إلى ارتباط صاحب هذه الدعوة بربه ، ولجونه إليه ، واعترافه بهفوته وخضوعه إليه ، وتقويم فعله وتصرفه بين يديه واعترافه بظلم نفسه وزلته . لذلك جاءت الاستجابة سريعة ، والنجاة قريبة من الله لسيدنا يونس عليه السلام ، فكشف ربه عنه الغم الذي اعتراه من ظلمات ثلاث حينما ابتلعه الحوت ، إذ تكالبت عليه ظلمة البحر ، وظلمة الليل ، وظلمة بطن الحوت ، إضافة إلى جولته الغاضبة مع قومه . إن الاعتراف بالخطأ شجاعة وفضيلة ورفعة والتزام ، لا يكون جزاؤه إلا الخير والفرج ، والوصول للهدف ولو بعد حين .

وحسب رأي البعض <sup>(٢)</sup> فيمكن أن يكون التقويم الذاتي قبل العمل وخلالها وبعده ، قبله كاستعداد وقائي ، وتأهيل احترافي ، فيسمى بذلك تقويم ذاتي قبلي - وهو جهد يقوم به الشخص أو المجموعة للحكم على النشاط الذي سيقوم به قبل الشروع فيه - قال تعالى: ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه ﴾ [البقرة : ٢٣٥] وترشد هذه الآية المسلمين لإضمار الخير دون الشر ، لأن الله توعدهم على ما يقع في ضمائرهم حتى لا يقدموا بعدها على فعل يخالف أمره وشرعه <sup>(٣)</sup> .

(١) انظر الظلال : ج ٤ ، ص ٢٣٩٣-٢٣٩٤ .

(٢) انظر التقويم الذاتي : أكرم أبو إسماعيل ، ص ١٣ .

(٣) انظر ابن كثير : جزء ١ ، ص ٢٧٢ .

ويشكل هذا النوع من التقويم الذاتي القبلي معياراً للحكم على مدى صلاحية الأمور ، وفائدة الأعمال والصفات ، وملائمتها لما يراد تحقيقه ، وإمكانية هذا التحقيق ، وما تحتاجه من استعدادات قبل البدء بالنشاط .

وعلى هذا النحو من التقويم الذاتي القبلي كان موقف سيدنا موسى عليه السلام كما ورد في سورة الشعراء قال تعالى: ﴿ قال رب إني أخاف أن يكذبون ، ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون، ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون ﴾ [الشعراء: ١٢-١٤] قدم سيدنا موسى عليه السلام بعض الأمور لتقييم الوضع قبل بدء الدعوة ، فهو يشعر بالمسئولية الكاملة ، ويريد نجاح المهمة . ولذلك يجب أن يستعد لها بما تستحق ، فقوّم نفسه وإمكاناته ، فهو يخاف من تكذيب بني إسرائيل له ، ويخاف أن يضيق صدره منهم عند تكذيبهم ، ويخاف من عدم انطلاق لسانه في قوة التعبير وبيان الدعوة . ولذلك طلب العون من الله بأن يسانده بأخيه هارون - الذي هو أفصح منه لساناً وتعبيراً - كما ورد في سورة القصص ، وكذلك كان عنده خوف من أن يقتلوه ، لأن له سابقة ذنب عندهم ، وذلك بقتل القبطي ، عندما استغاث صاحب موسى به عليه .

ومعنى " ولا ينطلق لساني " في المحاجة على ما أحب ، وكان في لسانه عقدة على ما تقدم في " طه " وقد طلب العون والمؤازرة بأخيه هارون ﴿ فأرسل إلى هارون ﴾ وفي سورة القصص ﴿ أرسله معي رداءً يصدقني ﴾ ففي هذا دليل على أن من لا يستقل بأمر ، ويخاف من نفسه تقصيراً ، أن يأخذ من يستعين به عليه ، ولا يلحقه في ذلك لوم ، وكذلك خاف موسى أن يقتلوه بالقبطي . ودل على أن الخوف قد يصحب الأنبياء والفضلاء والأولياء مع معرفتهم بالله ، وأن لا فاعل إلا هو ، إذ قد يُسلط من شاء على من يشاء ، ولذلك قال تعالى ﴿ قال كلا ﴾ فذلك ردع وزجر عن هذا الظن ، وأمر بالثقة بالله تعالى ، أي ثق بالله ، وانزجر عن خوفك منهم ، فإنهم لا يقدرّون على قتلك " (١) .

وهنا وقفة في منهجية التقويم الذاتي ، إذا كان الأنبياء والمرسلون يمكن أن يخافوا من ضعف تبليغ الدعوة، ومن قتل الأعداء لهم ، ومن التكذيب ، ويزجرهم الله عن مثل هذا الظن والتفكير ، ويعاتبهم عليه ، فكيف بغيرهم من المسلمين ، بل من الدعاة والعلماء والعاملين ! ألا يمكن أن يمروا بما هو أكثر تقصيراً ، وأضعف استعداداً ، وقلة حيلة . فما بالنا نصل أحياناً إلى مرتبة تقديس الذات ، وتقديس القيادات ، والمناهج والدعوات ، ونضع

(١) انظر القرطبي : جزء ١٣ ، ص ٩٢ .



من المبررات واللجاجات والمماحكات والجدال ، ما تضيع معه الأوقات ، والأعمار والتكاليف الكبيرة مادياً ومعنوياً . ألا يسعنا ما وسع موسى ، وهو كليم الله ونبيه ورسوله ، وأحد أولي العزم من الرسل . فلندع الأمور تمشي على فطرتها وبساطتها ونضع الأمور في نصابها ، فلا أحد فوق التقصير ولا أحد فوق التقويم . وقلنا ونقول أن تقويم الذات بمنهجية وعلمية ، ضمن شروط وضوابط شرعية وعملية ، لهو الخطوة الأولى في تحسين الحال الفردي والجماعي على حد سواء .

ويبرز الأستاذ سيد قطب هدف هذا التقويم القبلي والموقف الاحتياطي في موقف موسى السابق أمام تكاليف الدعوة والرسالة فيقول : " فهو الاحتياط للدعوة لا للداعية ، الاحتياط من أن يحتبس لسانه في الأولى وهو في موقف المنافحة عن رسالة ربه وبيانها ، فتبدو الدعوة ضعيفة قاصرة ، والاحتياط من أن يقتلوه في الثانية فتتوقف دعوة ربه التي كلف أداءها ، وهو على إبلاغها وإطرادها حريص ، وهذا هو الذي يليق بموسى - عليه السلام - الذي صنعه الله على عينه ، واصطنعه لنفسه " (١) .

وحول فوائد التقويم الذاتي القبلي ومعانيه يأتي حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم " من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت " (٢) .

يقول الإمام الشاطبي في معنى الحديث : " إذا أراد أن يتكلم فليفكر ، فإن ظهر له أنه لا ضرر عليه تكلم ، وإن ظهر له فيه ضرر أو شك فيه أمسك " (٣) وفي الحديث كذلك " الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله " (٤) .

وقال بعض الحكماء : " إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوى ، فلا تعمل بقضاء شهوة حتى تنظر العاقبة ، فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة ، قال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة " (٥) .

(١) الظلال : ج ٥ ، ص ٢٢٩٠ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان ج ١ ، ص ٢٢١ طبعة : دار الشعب ، مصر ١٣٩٠هـ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الإيمان ، ص ٢٢٢ ، طبعة : دار الشعب ، مصر ١٣٩٠هـ .

(٤) رواه الترمذي في سننه ، كتاب صفة القيامة . ج ٤ ، ص ٥٤ . ورواه أحمد في مسنده ٢٤/٤ . طبعة الميمنية .

(٥) إحياء علوم الدين : للإمام أبي حامد الغزالي ج ٤ ، ص ٣٩٦ طبعة دار الريان للتراث ، القاهرة (بتصرف) .

وتأتي الفائدة من هذه النصوص في سياق إبراز ضرورة التقويم القبلي ، وتقدير الموقف قبل الشروع في العمل ، وتنفيذ الخطة على المستوى الفردي والجماعي . وهذا يحدد مواطن القوة ، ومواطن الضعف في الشخصية أو الجماعة ، لتأخذ الأهمية اللازمة ، مما يخفف الإخفاق ، ويقلل التكاليف ، ويشجع القلوب ، ويقوي العزائم في الوصول للهدف خلال فترات الخطة ومراحل العمل المستقبلي .

ويقوم موسى عليه السلام نفسه كذلك كما في سورة القصص ، يقول الله تعالى : ﴿ قال رب إنني قتلت منهم نفساً فأخاف أن يقتلون وأخي هارون هو أفصح مني لساناً فأرسله معي ردءاً يصدقني إنني أخاف أن يكذبون ، قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون ﴾ [القصص : ٣٣-٣٥] .

ويظهر هنا تمام احترام سيدنا موسى لنفسه ، وتقديره للمسئولية ومعرفة تكاليف الدعوة ، وضرورة تقويمه لنفسه ، ومعرفة ما ينقصه في التخطيط لبلوغ الهدف ، وهو يعترف بالخوف من القتل حيث قد قتل منهم نفساً ، ويعترف بقلة فصاحته . والحل عنده أن أخاه هارون هو الذي سيبد هذا النقص ، بفصاحته البارزة ، فسيُعينه ويصدقّه بحسن بيانه ، وتعبيره في حالة تكذيب قومه له . وقد اعترف موسى عليه السلام هنا بوصفين سلبيين " الخوف " و "قلة الفصاحة " وهما صفتان قلما يعترف بهما الناس - إن وجدتا - لما يظن الكثيرون من أن فيهما منقصة شديدة لذات المرء وكرامة الإنسان . وتتشكل في المجتمعات - وخاصة الشرقية منها - مفاهيم اجتماعية ونفسية في رفض أن يوصف الشخص بهذا النوع من الصفات مهما كلف الأمر ، وحاد المعيار عن الصواب ، والتقويم عن المصادقية . ويمكن كذلك أن يكون التقويم خلال العمل والنشاط والبرنامج والحياة ، وذلك قبل إتمام العمل والبرنامج إلى نهايته المحددة ، ومدته المعلومة ، فيكون بذلك تقويماً بنائياً ، أي يساهم في ترميم العمل وقوة أدائه وبنائه بعد كل فترة زمنية أو خطة مرحلية ، ليضمن الفرد أو المجموعة على سيرها الذاتي ، ضمن المخطط له من أهداف وغايات . وفي ذلك يقظة ، ودقة أداء ، وتخفيف للنتائج السلبية والإخفاقات البرمجية في العمل . وهذا جانب معروف في المفاهيم الإدارية والقيادية في أطر التخطيط والخطة . و هو ما يسمى بالتوجيه والمراقبة المستمرة لمراحل العمل وخطواته ، والتي غالباً ما ترتبط ببرامج معدودة ، ضمن أوقات محدودة ، تُشكّل تراكمًا متناغماً ، وتدرجاً يوصل العمل إلى منتهاه ، لتأتي مرحلة التقويم النهائي أو الختامي ، الذي هو الأهم عند انتهاء فترة الخطة ، وبلوغ الهدف الأخير .

ويمكن أن تصنّف الآيات السابقة من قصة سيدنا موسى عليه السلام من الآية ٣٣-٣٥ من سورة القصص عندما قوّم نفسه ، وأثبت حالة الخوف وقلة الفصاحة لديه ، على أنها من هذا النوع التقويمي ، إذ أن ذلك حصل وهو في إحدى مراحل العمل والدعوة إلى الله تعالى ، وقد مر بتجارب قبل ذلك عندما قتل القبطي ، وعندما قوّم نفسه بالظلم . وهو هنا يتابع التقويم والاستعداد خلال العمل ، وتنفيذ الخطة الدعوية لمزيد من إحكام العمل ، وإتقانه عند ما سد نقصه التعبيري بفصاحة أخيه هارون ، ومساعدته له حال أن كذبوه .

ويُعرّف هذا النوع من التقويم الذاتي البنائي بأنه " الجهد الذي يقوم به الشخص ذاته للحكم على النشاط الذي بدأه في كل مرحلة من مراحلها ، حتى يصل إلى تمامه ، ذلك أن الانحراف يبدأ بزواوية حادة تستمر في الاتساع إلى أن تصير زاوية منفرجة ، وعندها يتسع الخرق على الراتق ، ويصعب العلاج " <sup>(١)</sup> يقول الله تعالى :

﴿إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون﴾ [الأعراف: ٢٠١].

ونختم مواقف التقويم الذاتي مع سيدنا موسى عليه السلام في قصة مقتل القبطي ، وتقويم ذاته بعد هذه الفعلة التي جاءت انتصاراً لأحد شيعته كما وردت في سورة القصص ، يقول الله تعالى على لسان موسى ﴿ قال رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم، قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين ﴾ [القصص: ١٦-١٧]. " قال رب إن ظلمت نفسي " بؤكز ترتب عليه القتل " فاغفر لي " ذنبي وإنما قال عليه السلام ما قال لأنه فعل ما لم يؤذن له به ، وليس من سنن آباءه الأنبياء عليهم السلام في مثل هذه الحادثة التي شاهدها، وقد أفضى إلى مقتل نفس لم يشرع في شريعة من الشرائع قتلها " <sup>(٢)</sup> .

وقد عزى موسى عليه السلام وكزه للقبطي ومن ثم قتله للشيطان ﴿ قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين ﴾ وذلك أن تركيبة الأنبياء وأخلاقهم ليست الاعتداء والقتل ، ومع هذا فقد نسب لنفسه الظلم ، حيث وسوس لها الشيطان بذلك . ويمكن أن نسمي موقف سيدنا موسى هذا مع نفسه وتقويمه لها تقويماً نهائياً ، وذلك بعد أن مر بأنواع التقويم الأخرى من تقويم قبلي ذاتي ، وتقويم ذاتي بنائي. وعلى أية حال فقد كانت حياة سيدنا موسى الدعوية الرسالية مليئة بمواقف التقويم الذاتي بجميع أنواعه . والمغزى أن أحد أولى

(١) التقويم الذاتي : أكرم أبو إسماعيل ، ص ١٥ .

(٢) الألوسى : جزء ٢٠ ، ص ٥٤ .

العزم من الرسل ، قد قوّم نفسه وحاسبها وراقبها ، ومرت عليه ظروف الرخاء والشدة ، والضعف والقوة . وكل ذلك درس بليغ لأصحاب الدعوات ، وأهل العمل الإسلامي للاستفادة والاعتبار . يقول الإمام المحاسبي " من كانت له عناية بنفسه ، وخاف عليها التلّف، طلب لطائف الأسباب بدقائق الفطن ، وغائص الفهم ، حتى يصل إليها ، فإذا وصل إليها تمسك بها ، وعمل عليها ، لأن المعرفة لآفات العمل تكون قبل العمل، ومعرفة الطريق قبل سلوكه ، وحاجة العبد إلى معرفة نفسه وهواها وعدوه ومعرفة الشر أشد إن كان كيساً ، وهو إلى ذلك أفقر إن كان فطناً معنياً بنفسه " (١).

ومن أنواع التقويم الذاتي - كما أشرنا - التقويم الذاتي النهائي ، ويأتي في نهاية العمل أو الخطة أو البرنامج ، وهو أهمها ، إذ ينبني عليه معرفة نسبة النجاح ، ومقدار تحقيق الأهداف ، كما هو الطالب - مثلاً - في نهاية السنة الدراسية ، أو المرحلة الجامعية ... الخ . ومن عجائب صور القرآن الكريم التقويمية أنه يركز على التقويم الذاتي النهائي في الآخرة ، ويعرضه وكأنه قد حصل ويحصل الآن ، مما يترتب عليه زيادة الاستشعار وأخذ العبرة ، والدرس ، بل والحرص على تقويم الذات ومحاسبتها وتعديل سيرها في الدنيا قبل الآخرة . وهذا معيار مؤثر ، وعامل رئيس ، ومحور تدور عليه الرؤيا الإسلامية ، والعقيدة الإيمانية . فالحياة كلها والخلق كله رحلة تقويمية لها بداية معروفة ، ومراحل متدرجة ، تؤول إلى نهاية معروفة ، وخاتمة متيقنة .

والتقويم الذاتي الختامي على مستوى الشخص يمكن تعريفه " بأنه الحكم النهائي الذي تصوره الشخصية الإسلامية على النشاط الذي قامت به بالنسبة للمعايير الإسلامية " قال تعالى : ﴿ واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ [البقرة: ٢٨١] فأمر سبحانه العبد أن ينظر إلى ما قدم لغد ، وذلك يتضمن محاسبة نفسه على ذلك ، والمحاسبة لا تتم في معزل عن التقويم . فليُنظر هل يصلح ما قدمه أن يلقى الله به أم لا يصلح ؟ " (٢) .

(١) آداب النفوس : أبو عبد الله الحارثي المحاسبي ، تحقيق : محمد عطاء ، ط ١٩٨٧م . دار الجليل ، ص ٩٣ .

(٢) انظر مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين . الطبعة عام ١٩٨٨م دار الفكر ، بيروت ، ج ١ ، ص ١٧٠ .

وقد قال بعض السلف : سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : " رحم الله أمراً حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره ، رحم الله أمراً أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به ، رحم الله أمراً نظر في مكيله ، رحم الله أمراً نظر في ميزانه " (١) .

ويعرض القرآن في سورة إبراهيم إحدى الصور التقويمية في نهاية الخلق يوم القيامة ، صورة ذات دلالات موحية ، عند ما تتكشف الحقائق ، ويزول الوهم ، ويعترف كل الخلق بما لهم وما عليهم ، ويعرفون أنفسهم بلا ستار ، ويقومونها بلا وهم ولا توهم . فالشيطان الذي سلك طريق الكبر والإغواء ، وحمل لواء الغواية والوسوسة ، يقف خطيباً مفوهاً ، ومقوماً صادقاً لنفسه ولأتباعه ، ولكن بعد فوات الأمر وانقضائه . يومها يكون الميزان حقيقي ، وتتكشف النفوس عن دواخلها ، فلا مجال إلا إلى الاعتراف والانتكشاف ، فالموقف أمام من ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ﴾ يقول الله تعالى : ﴿ وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص ، وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت ما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم ﴾ [إبراهيم: ٢١-٢٢] .

هذا الشيطان صاحب الحيل والأحبال والتزيين والوسوسة ، الذي قال للضعفاء والأتباع من زمرة ﴿ لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ﴾ هذا الشيطان يقرب ظهر المجن لزمرة ، ويختلف تقويمه للأمر ، فلا أسلحة لديه الآن ، ولا مقومات لحكمه وسيطرته أمام هول الحساب والعقاب ، والتقويم الحقيقي الختامي - لما قضي الأمر - ﴿ ففريق في الجنة وفريق في السعير ﴾ .

فهو هنا لا بد أن يقوّم الأمور كما هي سابقاً ولاحقاً ، لكنه تجبر في الأولى ، وتعالى وتكبر ، وذلاً وانخزي هو وأتباعه في الآخرة . فالله يمهل ولا يهمل . وقد بكت أصحابه ، وبهتهم وصفعهم ، بل طعنهم طعنة نجلاء ، لا يقومون بعدها أبداً .

إن هذه الصورة التقويمية الأخيرة الخاتمة لتأتي وتكرر في القرآن على صور شتى ، وهي لعمري حكمة إلهية ، ومنة ربانية ، وتحذير للناس في أن مقومات التقويم في الدنيا والآخرة يجب أن تكون موضوعية ، وشفافة وحقيقية ، بعيداً عن الزيف والوهم والتوهم ،

(١) إحياء علوم الدين : الغزالي ج ٤ ، ص ٤٠٥ .

والإخفاء والتزيين ، فهي وإن سُتُرت في الدنيا بظلم البشر ، وكيد البشر ، وكبر البشر ، وإغواء الشيطان ونزغه ، فإنها في الآخرة مكشوفة حقيقية عادلة شاملة ، بين الأصدقاء والفرقاء والأعداء ، والأفراد والجماعات ، والصغير والكبير ، والحاكم والمحكوم على حد سواء . وإن كانت في الدنيا على نطاق ضيق حسب شريحة الناس ، وحجم تجمعهم ، وعملهم ومنطقتهم وبلدهم ، فإنها في الآخرة أمام الخلاق كلها ، منذ أن كان التكليف والرسالات ، إلى آخر الخلق والنهايات .

### **المطلب الثاني : التقويم الذاتي في دائرة الانحراف وأهله**

النفس البشرية معدن واحد ، ونسيج واحد في جوهرها ومكوناتها عند بني البشر عموماً ، لها نفس المشاعر والصفات ، والمكونات والمقومات والحاجات . فهي تحزن وتفرح ، تكرم وتبخل ، تجبن وتُقدم ، تعلم وتجهل ، تقوى وتضعف ، تعدل وتظلم ، تلين وتقسو ، تصدق وتكذب . هذا أصل جبلتها . وهي مفطورة دوماً على النقص ، ومحدودية القدرة والعلم والإدارة . ويزيد منسوب ذلك أو ينقص حسب ما تتمسك به من أفكار وأخلاق وسلوكيات . فالنفوس المؤمنة بالله تتقوى عندها صفات الخير ، وهي غالباً معترفة بخطائنها مقومة لنفسها . والنفوس المنحرفة بعوامل الضعف والتكذب والإغواء ساهية لاهية دوماً ، لا تقوم نفسها ، ولا ترتدع عن خطائنها . وأكثر ما يجبر النفس على التقويم والاعتراف حين تنقطع عنها أسباب القوة والقدرة النسبية التي تملكها . إذ لا مفرّ عندها من الاعتراف وتقويم الذات كما هو حالها بالضبط . وأكثر ما ظهر تقويم النفوس المنحرفة الضالة لذاتها يوم القيامة أمام رب العالمين . إذ لا أسباب ولا إغواء ، وعندها يُنفض غبار الوهم وتراكم الضلال عن فطرتها ، إثر سخانة الموقف وحقيقة المآل . فتبدأ بتقويم ذاتها على أساس معايير أمرت باتباعها سابقاً لكنها رفضتها . فالتقويم الذاتي هنا والاعتراف بعد أن يشهد عليها كل شيء ، هو الذي تتأمل منه عفو ربها ، ورحمته وغفرانه .

ولقد قوّمت بعض النفوس المنحرفة نفسها في الدنيا قبل الآخرة ، ولعلها آمنت وعرفت الحقيقة والمنهج التقويمي الصحيح قبل أن تقوّم نفسها في الآخرة ولا فائدة . ونطرق هنا بعض هذه المواقف التقويمية حسب ما سنذكره من آيات في ظلال هذا المطلب :

(١) يقول الله تعالى في سورة يوسف عليه السلام ناقلاً موقف امرأة العزيز ، ومجموعة النسوة في قصتهن مع يوسف وهن يقوّمن أنفسهن ، ويعترفن بما حصل ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتهن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت امرأة

العزیز الآن حصص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ، ذلك ليعلم أنني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد الخائنين ، وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴿ يوسف : ٥١-٥٣ ﴾ .

يقول الإمام القرطبي : ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حصص الحق ﴾ لما رأت إقرارهن ببراءة يوسف ، وخافت أن يشهدن عليها إن أنكرت ، لذلك أقرت هي أيضاً ، وكان ذلك لطفاً من الله بيوسف و "حصص الحق " أي تبين وظهر . ويقول في قول الله تعالى ﴿ أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ وهذا القول منها - وإن لم يكن سأل عنه - إظهار لتوبتها ، وتحقيق لصدق يوسف وكرامته . لأن إقرار المقر على نفسه أقوى من الشهادة عليه . فجمع الله تعالى ليوسف لإظهار صدقه الشهادة والإقرار ، حتى لا يخامر نفساً ظناً ، ولا يخالطها شك . ويقول في معنى الآية ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ بل أنا راودته ، وعلى هذا هي كانت مقرة بالصانع ، ولهذا قالت " إن ربي غفور رحيم " .

وفي دلالة الآية الأخيرة في قول الله على لسان امرأة العزيز ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي لغفور رحيم ﴾ .

يذكر صاحب الظلال " وفي هذه الفقرة الأخيرة تبدو المرأة مؤمنة متحرجة تبرئ نفسها من خيانة يوسف في غيبته ، ولكنها تتحفظ ، فلا تدعي البراءة المطلقة ، لأن النفس أمارة بالسوء ﴿ إلا ما رحم ربي ﴾ ثم تعلق ما يدل على إيمانها بالله - ولعل ذلك كان اتباعاً ليوسف - ﴿ إن ربي غفور رحيم ﴾ .

وشاهدنا أن النفوس المنحرفة - كما ظهر من قصة امرأة العزيز والنسوة اللاتي راودن يوسف عنه نفسه - يمكن أن تتوب وتعتزف ، وترجع إلى الصواب ، وتقوم ذاتها تقويماً صحيحاً عند اشتداد الموقف ، وزوال الغشاوة ، وحجب الشهوة والخلوة .

ولقد ذكرت النفوس في القرآن الكريم على ثلاثة أنماط :

أ- الأمارة بالسوء ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾

ب- النفس اللوامة ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ، ولا أقسم بالنفس اللوامة ﴾

ج- النفس مطمئنة ﴿ يا أيها النفس مطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية ،

فادخلي في عبادي وادخلي جنتي ﴾ .

والنفس الأمارة هي " التي تميل إلى الطبيعة البدنية ، وتأمّر باللذات والشهوات الحسية ، وتجذب القلب إلى الجهة السفلية ، فهي مأوى الشرور ، ومنبع الأخلاق الذميمة " (١) .

والنفس اللوامة : هي التي لا تزال تلوم نفسها وإن اجتهدت في الإحسان (٢) قال ابن جرير الطبري : والأشبه بظاهر التنزيل أنها التي تلوم صاحبها على الخير والشر ، وتندم على ما فات " (٣) .

وعند ابن القيم " اللوامة نوعان : لوامة ملومة ، ولوامة غير ملومة ؛ فاللوامة الملومة: هي النفس الجاهلة الظالمة ، التي ينومها الله والملائكة . واللوامة غير الملومة : هي التي لا تزال تلوم صاحبها على تقصيره في طاعة الله " (٤) .

وظاهر أن العلاقة بين النفس اللوامة والتقويم الذاتي لازمة ودائمة ، ولا تكون النفس لوامة إلا بالتقويم الذاتي المستمر . فالعلاقة متلازمة ومطرودة بينهما ، فكما أن عملية المحاسبة مستمرة ، فكذلك عملية التقويم ، والأولى تتبع الثانية والتشديد في كلمة لوامة يدل على أن هذه النفس أصبح هذا الأمر لها عادة وخلقاً وطبعاً طبعت عليه . بمعنى أنها أصبحت من عمليات النفس غير الواعية ، فهي تقوم بدورها كعمل لاحق مرتبط بشكل عضوي بأي عمل إنساني واع ، وهذا أمر مهم ، فهي ليست أمراً يستغفر له بين حين وآخر، بل هي عملية روتينية تشكل أجزاء العمل الرئيسية " (٥) .

ويمكن أن تتدرج النفس البشرية في سلم الإرتقاء والصعود مقومة ذاتها من أن تكون أمارة بالسوء إلى أن تصبح لوامة ، واصله بعد ذلك إلى ذروة القمة والسعادة ، فتكون نفساً مطمئنة راضية مرضية .

(١) التعريفات : علي بن محمد الجرجاني - تحقيق وتعليق : عبد الرحمن عميرة ، مكتبة لبنان ، ١٩٨٥م ، ص ٣٦٣ .

(٢) الكشف : الزمخشري ، ج ٤ ، ص ١٩ .

(٣) ابن كثير : جزء ٤ ، ص ٤٨٤ .

(٤) تركيبة النفوس : د. أحمد فريد ، ص ٧٣ .

(٥) النقد الذاتي : خالص حلبي ، ص ٢١ .



والنفس المطمئنة عند الإمام الجرجاني هي " التي تم تنوّرها بالقلب حتى انخلعت عن صفاتها الذميمة ، وتخلقت بالأخلاق الحميدة " (١) .

(٢) ويبين جزء من قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ صورة من صور تقويم الذات بموضوعية ورشد ، فملكة سبأ كانت تملك كل مقومات الملك والقوة ، وقد سلكت مع قومها عندما وصلها كتاب سليمان مسلماً راشداً عاقلاً . فالأمر جد يحتاج إلى تقويم سليم ونظرة شاملة . ومن علائم رشدها وحسن تقويمها للموقف أن وصفت كتاب سليمان بأنه كتاب كريم ، ونطقت بما فيه من رسالة ومضمون بكل أمانة ، دون إخفاء عن قومها وتزييف ، ولا كبر وعنجهية . ثم أنها طلبت رأيهم وفتواهم في الأمر ، ثم أرادت أن تختبر موقف سليمان ونوعية سلطانه ، أهو ملك ؟ فالملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة ، أم هو رسول كريم ونبي مرسل ؟ فهو بذلك ذا مبادئ مختلفة ، وصفات حميدة ... الخ . إلى أن جاء الموقف المقصود من القصة وهو شاهدنا هنا بأن اعترفت بظلمها لنفسها ، و صدقت بذلك بموقف تقويمي ذاتي راق .

يقول الله تعالى فيما يخص موقفها الأخير ، وقد أراد سليمان عليه السلام كذلك أن يختبر رشدها، ومدى استجابتها للحق والهدى ، ويقوم شخصيتها في مثل هذا الموقف الرهيب .

﴿ قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون ، فلما جاءت قيل أ هكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين ، وصددها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين ، قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ [ النمل : ٤١-٤٤ ] .

وقد فاجأها سيدنا سليمان بعدة أمور ليضعها في موقف نفسي يقودها إلى الاستسلام ، والعودة إلى ربها والإيمان به . فكان أن نكّر عرشها ، وقد كانت ذكية فاهمة عند ما سئلت إن كان العرش عرشها أم لا ، قالت :كأنه هو ، جواب لا يحتمل النفي ولا الإثبات ، وكذلك عند ما دخلت القصر الذي صنع من زجاج شفاف ، وقد حسبت أنها ستخوض في الماء فكشفت عن ساقيها . ثم أخبرها سليمان أن القصر من قوارير وزجاج وليس ماء كما توهمت ، عندها كان تقويمها الذاتي السليم الصريح في اللحظة التي تخلت فيها عن كل

(١) التعريفات : الجرجاني ، ص ٣٦٣ .

مقومات ملكها وقوتها السابقة . فهذا هو الإنسان عند ما تزال عنه رواكم الزيف ، ومصطنع الأشياء ومؤقتها ، يرجع إلى فطرته وقيمته الحقيقية . وهذا درس لمن يتعجل في الحكم على الناس ، ويُقوّم حتى خواتيم أعمالهم ونهايات حياتهم ، أن يتروى ويجول في مواقف الحياة والنفس والتاريخ ، و أساسيات التقويم ، وشموله وموضوعيته .

(٣) ولما أنه يمكن أن يقوّم الإنسان نفسه ، يمكن كذلك أن تقوّم المجموعة نفسها .

وهنا صورة من صور الرجوع إلى النفس ، وتقويم الذات في مجال زوال النعمة والحرمان منها بعد أن جردها أصحابها ، وبخلوا وقصدوا قبض أيديهم ، ومنع حق الفقراء والمساكين، وقد كان لهم نصيب في النعمة والخير ، ويتجلى ذلك في قصة أصحاب الجنة كما وردت في سورة القلم قال الله تعالى : ﴿ إنا بلوناكم كما بلونا أصحاب الجنة إذا أقسموا ليعصرنّها مصبحين ولا يستثنون ، فطاف عليها طائف من ربك وهو نائمون ، فأصبحت كالصريم ، فتنادوا مصبحين ، اغدوا على حرثكم إن كنتم صادقين ، فانطلقوا وهم يتخافتون، أن لا يدخلنها اليوم عليكم مسكين ، وغدوا على حرد قادرين ، فلما رأوها قالوا إنا لضالون ، بل نحن محرومون ، قال أوسطهم ألم أقل لكم لو لا تسبحون ، قالوا يا ويلنا إنا كنا طاغين ، عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون ، كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾ [القلم : ١٧ - ٣٣] .

الجنة كما في أغلب التفاسير كانت لرجل صالح يطعم منها الفقراء والمساكين ، ولا يحرمهم من نصيبهم فيها ، ولما مات بخل بنوه وحاولوا منع الفقراء والمساكين من حقهم في ثمار الجنة ، وفعلوا ما فعلوه كما بينت الآيات ، ولكنهم بعد زوال النعمة والعقاب الذي ابتلوا به ، بأن تحولت جنتهم إلى سواد ورماد ، لا خضرة فيها ولا ثمر ولا خير ، انتبهوا وراجعوا أنفسهم ، وقوموا فعلتهم ، وقصدتهم وتبييتهم الذي بيتوه ، ويظهر ذلك من خلال ما أطلقوا على أنفسهم من نعوت وأوصاف ﴿ إنا لضالون ﴾ أي ضللنا الطريق إلى جنتنا ، قاله قتادة . وقيل : أي إنا لضالون عن الصواب في غدونا على نية منع المساكين ، فذلك عوقبنا، وقولهم ﴿ بل نحن محرومون ﴾ أي حرّمنا جنتنا بما صنعنا . وبعد أن ذكرهم أعقلهم وأعدلهم " قال أوسطهم " قالوا ﴿ إنا كنا ظالمين ﴾ لأنفسنا في منعنا المساكين ﴿ فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون ﴾ أي يلوم هذا هذا في القسم ومنع المساكين ، ويقول بل أنت أشرت علينا بهذا . ﴿ قالوا يا ويلنا إن كنا طاغين ﴾ أي عاصين بمنع حق الفقراء ، ثم قالوا

﴿ عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها ﴾ تعاقبوا وقالوا : إن أبدلنا الله خيراً منها لنصنعن كما صنعت آباؤنا ، فدعوا الله وتضرعوا فأبدلهم الله من ليلتهم ما هو خير منها " (١) .

وفي ما وقع بينهم من تلاوم يقول صاحب الظلال : " ثم ها هم أولاء يتركون التلاوم ليعترفوا جميعاً بالخطيئة أمام العاقبة الرديئة ، عسى أن يغفر الله لهم ، ويعوضهم من الجنة الضائعة على مذبح البطر والمنع والكيد والتدبير " (٢) . وأن تصف مجموعة من الناس نفسها بالضلال ( ضلال النية أو ضلال القصد ) والحرمان والظلم والتلاوم والطغيان ، فذلك إدراك للخطأ وتنبه للزلة ، واعتراف بالخطيئة والذنب ، وهو تقويم ذاتي موضوعي ، طرق نفوسهم على حرارة الحرمان ، وفجأة العقوبة ، فجاءت مستسلمة راجية ربها . وهذا كل ما في مقدورها أن تفعله في لحظات القصور الذاتي ، ومعرفة الحد وانقطاع الأسباب ، والرجوع إلى الفطرة .

وقد لاحظنا كما مر معنا في مواقف الاعتراف والتقويم المتجرد في قصص الأنبياء ، يوسف عليه السلام والنسوة ، وامرأة العزيز ، وسليمان عليه السلام ، وبلقيس ملكة سبأ ، والموقف الأخير مع أصحاب الجنة ، أن هذا التقويم الذاتي المتجرد أعقبه ندامة ، وتوبة ورشد وتصحيح . وهو طريق قصير وصحيح لو أدركه المخطئون المعاندون المكابرون ، لو ففروا الوقت والجهد والأعصاب ، ولأراحوا واستراحوا ، ونضجوا وارتقوا في سلم " رحم الله امرء عرف قدر نفسه "

(٤) وفي مشهد من مشاهد يوم القيام يعرض القرآن في سورة الأنعام صورة من صور الاعتراف والتقويم الذاتي للتقلين " الجن والإنس " على شكل حوار مع الحق تبارك وتعالى ؛ يقرر فيه ويسجل نتيجة مآلهم الذي سبق وحذروا منه بواسطة الأنبياء والمرسلين ، يقول تعالى : ﴿ يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ [الأنعام: ١٣٠] .

والصورة وإن كانت تعرض اعتراف الكافرين وتقويم أنفسهم يوم القيامة ، إلا أنها تشكل درساً لأولي الألباب والفهوم ، في أن أفضل أنواع التقويم والإنابة ما كان في الدنيا ، حيث المجال للتصحيح والتحسين ، وتقويم الإعوجاج - ممكن وهذا ولا شك - أبلغ في

(١) انظر القرطبي : جزء ١٨ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٢) الظلال : ج ٦ ، ص ٣٦٦٦ .

العظة والمنحة ، وأرحم بالعبد ، حيث يُنبئه إلى ما قد يؤول إليه يوم لا ينفع تقويم ، ولا اعتراف ، ولا ندامة .

وعلى أية حال فقد أدرك المسئولون من الجن والإنس أن السؤال ليس على وجهه ، إنما هو سؤال للتقرير والتسجيل ، كما أنه للتأنيب والتوبيخ ، فأخذوا في الاعتراف الكامل وسجلوا على أنفسهم استحقاقهم لما هم فيه : ﴿ قالوا شهدنا على أنفسنا ﴾ وهنا يدخل المعقب على المشهد ليقول ﴿ وغرثهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ﴾ وهو تعقيب لتقرير حقيقة حالهم في الدنيا ، فقد غرثهم هذه الحياة ، وقادهم الغرور إلى الكفر ، ثم ها هم أولاء يشهدون على أنفسهم به ، حيث لا تجدي المكابرة والإنكار ... فأي مصير أبأس من أن يجد الإنسان نفسه في هذا المأزق ، الذي لا يملك أن يدفع عن نفسه فيه ، ولا بكلمة الإنكار ! ولا بكلمة الدفاع ! .

ونقف لحظة أمام الأسلوب القرآني العجيب في رسم المشاهد حاضرة ، ورد المستقبل واقعاً مشهوداً ، وجعل الحاضر القائم ماضياً بعيداً !

إن هذا القرآن يتلى على الناس في هذه الدنيا الحاضرة وفي هذه الأرض المعهودة ، ولكنه يعرض مشهد الآخرة كأنه حاضر قريب ، ومشهد الدنيا كأنها ماض بعيد ! فننسى أن ذلك مشهد سيكون يوم القيامة ، ونستشعر أنه أمامنا اللحظة ماثل ! وأنه يتحدث عن الدنيا التي كانت كما يتحدث عن التاريخ البعيد ! " وغرثهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين " وذلك من عجائب التخييل ! (١) .

### المطلب الثالث : ضوابط ومعايير التقويم الذاتي

وللتقويم الذاتي جوانب إيجابية وأخرى سلبية ، والأصل في التقويم أن يورث نتائج إيجابية دائماً فيقلب المواقف السلبية في نظر الناس إلى إيجابية مطلوبة تقود إلى التحسين والتطوير .

وقد مر معنا كيف قوّم سيدنا يوسف نفسه عند ما شعر أن في ذلك نفع عام لا يقوم به إلا هو ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ وكان ذلك في جانب الإطراء والتميز ، فأدى إلى الملك والسيادة ، وتحقيق العدل والصلاح في حياة الرعية والشعب .

(١) انظلال ج ٣ ، ص ١٢٠٩ .

وفي المقابل قوّمت ملكة سبأ نفسها في إطار الاعتراف بالخطأ وظلم النفس ، فقادها ذلك إلى التوبة والإنابة والإيمان .

ولذلك يجب أن يكون التقويم الذاتي متوازناً يقود إلى وسطية وموضوعية لا يطغى فيه جانب السلب على الإيجاب ولا الإيجاب على السلب ، ويجب بذلك التنبيه على بعض المظاهر السلبية للتقويم الذاتي كي لا يقود ذلك إلى اليأس ، وتحطيم الذات ، ونزع الثقة منها كضابط ومعيّار يضع التقويم في مساره الصحيح وأهم هذه المظاهر :

(أ) **الخوف والإحباط** : إن الإفراط في التقويم الذاتي واللوم المستمر قد يولد نوعاً من جلد الذات وعذاب النفس الذي يؤدي إلى العجز ، واليأس وقلة الثقة بالنفس خوفاً من الإحباط ، ومن ثم الانعزال والتفوق على الذات تجنباً لتسفيه الناس ، وانتقاداتهم . ولا بد أن يكون الخوف وتقويم الذات معتدلاً يورث الإيجابية والتحسين !! فقد دلت الدراسات التجريبية الحديثة على أن الخوف إذا كان معتدلاً وغير شديد أو مسرف فيه ، فإنه يكون مفيداً في دفع الإنسان إلى حسن الأداء فيما يقوم به من أعمال. وأما إذا كان الخوف على درجة عالية من الشدة أدى ذلك إلى اضطراب الإنسان، وإلى سوء أدائه لما يقوم به من أعمال<sup>(١)</sup>.

فالخوف الإيجابي في التقويم يعطي النتائج المحمودة المقصودة كما في قوله تعالى ﴿ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١]. وقد ذكر ابن القيم في التفريق بين الخوف المطلوب والخوف المذموم " الخوف المحمود ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط " <sup>(٢)</sup> .

(ب) **العجب وطلب الرئاسة** : الإفراط في تقويم الذات مدحاً وإطراءً يوردها المهالك ، ويجعلها تتكبر على الآخرين ، وترى نفسها في مرحلة الكمال وعدم الحاجة للناس ، وذلك كما حصل مع إبليس الذي تكبر وقوم نفسه أمام ربه ، فأخرج بذلك من الجنة ، وأصبح من الصاغرين ﴿ قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ، قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فأخرج إنك من الصاغرين ﴾ [الأعراف: ١٢-١٣] <sup>(٣)</sup> .

(١) الدافعية والانفعال : إدوارد موارى ، ترجمة : أحمد عبد العزيز سلامة ، ص ١٢٨-١٣١ (بتصرف).

(٢) مدارج السالكين : ابن القيم الجوزية ، ج ١ ، ص ٥١٤ .

(٣) التقويم الذاتي : مرجع سابق ، ص ٢٦ (بتصرف) .

وقد أعجب قارون بنفسه وفرح بماله ، ونصحه قومه ووعظوه بعدم الفرح " فرح الزهو المنبعث من الاغترار بالمال ، والاحتفال بالثراء ، لا تفرح فرح الذي يستخفه المال ، فيشغل به قلبه ، ويطير له لبه ويتناول به على العباد " (١) .

ولكنه يقوم ذاته أمامهم معجباً بنفسه، مستخفاً بهم، قال ﴿ إنما أوتيته على علم عندي ﴾ أي أنا لا افتقر إلى ما تقولون ، فإن الله تعالى إنما أعطاني هذا المال لعلمه بأني أستحقه ، ولمحبته لي ، فتقديره إنما أعطيته لعلم الله في أي أهل له " (٢) .

وظهر مثل ذلك في قول الله تعالى مستكراً العجب من المسلمين يوم حنين ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم ... ﴾ [التوبة: ٢٥] .

وقال تعالى ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ [الكهف : ١٠٤] وهذا أيضاً يرجع إلى العجب بالعمل ، وقد يعجب الإنسان بالعمل وهو مخطئ فيه ، كما يعجب بعمل هو مصيب فيه " (٣) .

ولا بد أمام أن يكون للتقويم سلبيات وإيجابيات كما أسلفنا من ضوابط ومعايير تجعله باتجاه قطبه الإيجابي المحمود دائماً .

والمعيار من العيار : وهو نموذج متحقق أو تصور لما ينبغي أن يكون عليه الشيء . ومنه العلوم المعيارية ، وهي : المنطق والأخلاق والجمال ونحوها " (٤) .

ومعروف أن معايير الأمم تختلف باختلاف مرجعياتها التي تستمد منها قيمها وأحكامها، فالوجودية تتبع فلسفتها من ذات الفرد ، والفلسفة الشيوعية تتبع معاييرها من قيمها الاجتماعية ، والإسلام يحصر مرجعيته بقيم الكتاب والسنة ... وهكذا " (٥) .

ولذلك "فإن فقدان المعايير الثابتة بعملية التقويم الذاتي يوقع الشخصية الإسلامية في حيرة مؤرقة ، لأن العلاقة بين النص الديني المطلق وفهم الاجتهاد البشري المقيد بظروف

(١) الظلال : ج ٥ ، ص ٢٧١١ .

(٢) ابن كثير : ج ٣ ، ص ٣٨٦ .

(٣) انظر إحياء علوم الدين : ج ٣ ، ص ٣٦٩ .

(٤) المعجم الوسيط : إبراهيم مصطفى وآخرون ، مادة "عير" ج ٢ ، ص ٦٤٥ .

(٥) التقويم الذاتي : مرجع سابق ، ص ٣٩ (بتصرف)

الزمن والمكان ، والعلم المحدود في معرفة مراد الله من النص الديني المعيار ، ضرورة لا بد منها حتى يحقق التقويم الذاتي للشخصية الإسلامية الأهداف المتوخاة منه " (١) .

مما يؤكد التزام الثوابت والمعايير الإسلامية في التقويم " ذلك إن قيمة وجود تصور ثابت للمقومات والقيم هي وجود الميزان الثابت الذي يرجع إليه الإنسان بكل ما يعرض له من مشاعر وأفكار وتصورات ، وبكل ما يجد في حياته من ملاسبات وظروف وارتباطات، ميزتها الثوابت بهذا الميزان الثابت ، ليرى قربها أو بعدها من الحق والصواب ، ومن ثم يظل دائماً في الدائرة المأمونة لا يشرذم إلى التيه الذي لا دليل فيه من نجم ثابت ، ولا من معالم هادية في الطريق " (٢) .

وقضية أخرى لا بد من الإشارة إليها والتنبيه عليها ، هي أن وجود الثوابت الإسلامية كمعايير في عملية التقويم الذاتي من أهم الخصائص التي لا تتوافر في أمة من الأمم ، لأنها ليست من وضع العقل حتى تكون عرضة للاهتزاز والإلغاء ، والتعديل والتكرار لها ، لأنها تمكن لتسلط الآخر ، وإنما هي مستمدة من خالق الحياة والإنسان ، العالم بكيونته خلقه وما يصلحهم ، إضافة إلى أنها تمنح المؤمن بها الارتكاز إلى العقيدة والإيمان ، والارتكاز إلى المقدس يضمن الاحترام والالتزام " (٣) .

على اعتبار أن " القيم مجموعة القوانين والمقاييس التي تنبثق من جماعة ، وتكون لها من القوة والتأثير على الجماعة بما لها من صفة الضرورة والالتزام والعمومية ، وأي خروج عليها أو انحراف عنها يصبح بمثابة خروج عن أهداف الجماعة ومثلها العليا " (٤) .  
ولذلك فالمفهوم الإسلامي للقيم " أنها المعايير المعصومة المنبثقة عن الكتاب والسنة ، البعيدة عن الأهواء والرغبات ، والتي تكتسب صفة الالتزام والالتزام للمسلم ، وتكون بمثابة معايير للتقويم على مستوى الشخصية والأفراد والجماعات ، وأي تجاوز لها هو تجاوز لأهداف الجماعة ومثلها العليا " (٥) وأهم خصائص القيم الإسلامية التي تشكل المعايير التقويمية هي : الثبات والواقعية والوسطية .

(١) انظر تقديم كتاب مقومات الشخصية المسلمة : عمر عبيد حسنة ، ص ٢٥ .

(٢) خصائص التصور الإسلامي : سيد قطب ، ص ١٢٨ .

(٣) انظر الشاكلة الثقافية : عمر عبيد حسنة ، ص ٥٢ .

(٤) القيم التربوية : د.لطفى بركات محمد ، ص ٤ .

(٥) التقويم الذاتي : مرجع سابق ، ص ٤٨ (بتصرف) .

وقد ركز كثير من الكُتَّاب والمفكرين على ضوابط ومُحددات التقويم والنقد الذاتي ، وجعلوا من أهمها الموضوعية والدقة والاتزان . إن نقد الذات يمثل إحدى قمم الموضوعية، فهو إقرار ببشرية بني آدم التي لا تستطيع أن تخرج من دوائر الجهل والقصور ، والخطأ - إلا من عصم الله - ... إن نقد الذات سيظل مقياساً دقيقاً للوعي بالذات ، وللوعي بالماضي والحاضر ، والأمة التي تحرم منه تحرم من خير كثير .

ولذلك لا بد من فصل المنهج والمعيار الموضوعي عن الذاتية ، كونها تقع تحت سقف الأخطاء والقصور ، ومن ثم فالخطوة الأولى في البعد عن الذاتية هي وضوح المنهج على مستوى القيم والمناهج والأنظمة والإجراءات ، ( فيما لا يخضع لاختلاف الزمان والمكان ) وذلك لأنه لا بد من معايير يتعامل على أساسها الناس ، وحين يخفت صوت المنهج أو تشوه صورته ، فإن البديل جاهز ، وهو (المقاييس الذاتية ) المبنية على عبادة الناس لأنفسهم ، أو لبعضهم بعضاً ، وكان أكثر ما يحتاج إلى تحديد هو القيم المعيارية التي تحتل المركز ، وترسي قواعد التفاضل بين الناس ، وليس ذلك فحسب ، وإنما ترتيب القيم نفسها في نسق الكمال " (١) .

إن اتباع معايير القيم في التقويم والحكم الذاتي يخفف الذاتية ، وطابع النفس الذي تتحكم به المصلحة والهوى والتعصب ، قال تعالى : ﴿ ولئن اتبعت أهوائهم بعد الذي جاءك من العلم ما لك من الله من ولي ولا نصير ﴾ [البقرة : ١٢٠] .

وظاهر أن التفاعل النفسي مع التقويم والنقد ظاهرة بشرية تطفو حساسيتها حتى على شكل الإنسان ومقاطع وجهه . ويتأتى ذلك من اعتقاد الكمال للذات ونقصه عند الناقد ، أو عند عدم الفصل بين الفكرة المقصودة والشخص الذي يمثلها .

ونتيجة لهذا أصبح النقد يوجه إلى الخارج ، وقد تربت على ذلك أجيال ، مما أورث إلى مزيد من التوترات الاجتماعية والنفسية ، والمزيد من حوار الصم . فالنقد الذاتي معدوم، والنقد الخارجي مرفوض وتأتي هنا ازدواجية المعايير .

وختاماً لمبحث التقويم الذاتي ، فقد وضُح أن نقد الذات (فردية كانت أو جماعية ) قمة سامقة في الرقى البشري ، والتفكير الموضوعي، وهو رجوع لحدود الطاقة البشرية . فالنقص والحاجة قضايا مركوزة في عمق الفطرة البشرية ، ولا يتخطاها بشر كائناً من كان. وقد أظهرت النصوص السالفة في المبحث نماذج لذلك عند أكثر من شريحة بشرية

(١) انظر فصول في التفكير الموضوعي : مرجع سابق ، ص ٥٥-٨٠ .



ابتداءً بالأنبياء ، وانتهاءً بتطبيقات ذلك على أفراد المجتمع وجماعاته . وهو الذي يجب أن يُشكّل منطلقاً قيمياً ومعرفياً ووعياً بشرياً لنظرية التقويم والاعتراف . وقد ضرب الأنبياء مثلاً عملياً - وهم من هم عصمة وتأييداً واستقامة وريادة وسيادة للعالمين - في نفس الاتجاه على الرغم أن مواقفهم المقومة كانت في دائرة اجتهاداتهم المبرأة عن أي غرض أو هوى أو انحراف ، سوى تحرقهم وإخلاصهم لرسالة ربهم المكلفين بها . وقد رأينا كيف أن أصحاب السلطان والحكم (كما في قصة ملكة سبأ) وهم من هم منعمة وعلواً ، قد أذعنوا في لحظة من لحظات بشريتهم الفطرية إلى نداء الأعماق وحقيقة الواقع ، فرجعوا إلى حقيقتهم ، بعيداً عن المعينات الدنيوية ، وعوامل السلطان وقوته ، فأعلنوها بكل صراحة واستسلام ، أعلنوها تقويماً للنفس ، وإنابة ورجوعاً لله رب العالمين . وإن من متفقات الفهم عند بني البشر ، أن العدل مع الآخرين ينطلق من العدل مع النفس أولاً ، والانتصار على التعصب مع الغير مرده الانتصار عليه مع النفس أولاً ، وأن إصلاح حال الناس يبدأ من إصلاح الذات

﴿ أ تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب... ﴾ وقد قيل " أقيموا دولة الإسلام في نفوسكم تقم على أرضكم " وقد وجد مبعوث الروم لعمر بن الخطاب عمر - رضي الله عنه - نائماً تحت شجرة خارج المدينة متوسداً برده فقال قولته المشهورة : " عدلت ، فأمنت ، فممت "

**خلاصة :** تقويم النفس ونقد الذات منهج أصيل في حياة البشرية ، أصيل في التصور الإسلامي كما ورد في القرآن الكريم ، تقتضيه طبيعة التكوين البشري الناقصة ، وتقتضيه حاجاته العملية والحياتية على ضوء ذلك النقص والقصور ، وتقتضيه كذلك ضرورة نمو الحياة وتحسنها نحو الأفضل . ولما كان الإنسان هو محورها (إذ هي به وله ) كان لا بد من أن يعرف هو أولاً كفراد هذا الدور ، ويعتقد أن إصلاح الخلل في مسيرته يبدأ منه هو لا من خارجه .

ولما كان قاموس الأخلاق يحوي مفردات من الأخلاق متباينة ، صدق يقابله كذب ، أمانة تقابلها خيانة ، كرم يقابله بخل ، وكان " الإنسان " هو صاحبها بل هو مصنفها ومقومها ، كان لا بد من الرجوع لنفسه وذاته . ومعلوم أن من أشهر مذمومات الأخلاق ثلاثة كلها عالجه القرآن الكريم ، واشتهر على لسان البعض سردها ( من باب الحكمة والعظة ) وتقويم الذات ، فالكبر : أخرج إبليس من الجنة ، والحرص جعل آدم وحواء

يأكلان من الشجرة ، والحسد : قاد أحد ابني آدم إلى قتل أخيه . وكل ذلك منبعه النفس وليس الخارج .

وآية كريمة تشكل منهجاً ذاتياً ونفسياً واجتماعياً في التغيير ، والرجوع للذات على مستوى الفرد والجماعة يجدر ذكرها هنا ، قال تعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما أنفسهم ... ﴾ [الرعد: ١١] .

و نود أخيراً ذكر بعض الاستخلاصات والنتائج بعد مناقشة مبحث التقويم الذاتي نرى أنها تصلح أن تكون ضمن معايير التقويم الذاتي نختصرها في نقاط :

(أ) التقويم الذاتي من أساسيات التغيير والتصور الإسلامي .  
(ب) جواز التقويم الذاتي بالإطراء لجلب مصلحة (عامة أو خاصة ) ودفع مفسدة (عامة أو خاصة ) ضمن ضوابط ومعايير شرعية .  
(ج) ضرورة مراعاة التفكير الموضوعي ، والدقة والعدل في منهجية التقويم الذاتي ونقد النفس .

(د) التقويم الذاتي أداة فعالة للنشاط والإلتقان والمحاسبة والحماية من الانحراف والزلل .  
(هـ) يفود التقويم الذاتي إلى بناء شخصيات قوية واثقة من نفسها ، خالية من العُقد ومبالغات التفكير .

(و) يشكل التقويم الذاتي عملية تربوية مستمرة لا تنقطع طيلة حياة الإنسان .  
(ز) التقويم الذاتي حسب منهج القرآن قوة وقدرة وارتفاع ، وهو عند أغلب الناس منقصة وانهازم .

(ح) يقلل التقويم الذاتي مساحات السجال والمماحكة والتبرير السلبي أثناء العمل وإرادة التغيير .

(ط) يدل التقويم الذاتي على نضوج النفس ، وقزامة الهوى ، واندحار الظنون والتعصب .

(ي) تأتي نتائج التقويم الذاتي دائماً إيجابية ما لم تكن هناك حالات مرضية .

\*\*\*

الفصل الثالث  
فوائد التقويم

# الفصل الثالث

## فوائد التقويم

وفيه أربعة مباحث:

### المبحث الأول : تصحيح التصور والاعتقاد، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول : تقويم سيدنا نوح لعقائد قومه وتصوراتهم

المطلب الثاني : تقويم سيدنا هود لعقائد قومه وتصوراتهم

المطلب الثالث : تقويم سيدنا صالح لعقائد قومه وتصوراتهم

### المبحث الثاني: تربية النفس البشرية وصلاحها ، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : تربية النفس البشرية وتقويمها عبر المجال الوقائي

المطلب الثاني: تربية النفس البشرية وتقويمها في محيط التصور النظري والقيمي

المطلب الثالث : تربية النفس البشرية وتقويمها في محيط الأخلاق العملية

### المبحث الثالث: أخذ الدروس والعبر والعظات ، وفيه مطلبان:

المطلب الأول : الدروس والعبر في تقويم قصص الأنبياء

المطلب الثاني : الدروس والعبر في مناسبات التنزيل

### المبحث الرابع: إشاعة الشورى والحوار

## تمهيد:

إن النظر إلى مآلات الأفعال والأعمال أمر معتبر في التصور الإسلامي ، وهو المُحدد الرئيس لحركة الفقه والاجتهاد الشرعي . ومن ثم فإن تقويم الأشياء والأشخاص والأفكار والأعمال وغيرها ، لا بد أن يكون ذا غاية وهدف يوصل إلى فوائد ومصالح معتبرة ، فلا عبث ولا عشوائية في منهجية التقويم القرآني ﴿ أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ وبشكل عام فإن هدف التقويم حسب منهج القرآن الكريم هو : تصحيح المسار ، و إزالة الإعوجاج من حياة الناس على ضوء منهج الله ، وذلك وصولاً لتحسين العمل ، الذي يورث رضوان الله ، ومن ثم جنته يوم القيامة . ونعرض هذه الأهداف والفوائد في عدة مباحث كما يلي :-

## المبحث الأول

### تصحيح التصور والاعتقاد

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : تقويم سيدنا نوح لعقائد قومه وتصوراتهم

المطلب الثاني : تقويم سيدنا هود لعقائد قومه وتصوراتهم

المطلب الثالث : تقويم سيدنا صالح لعقائد قومه وتصوراتهم

## تمهيد:

أخذ الكلام عن العقيدة والاعتقاد والتصور لدى البشر ومسيرة حياتهم مع الأنبياء والرسول مساحة واسعة عبر مجالات ومناسبات متعددة . وقد تطرقنا لبعض ذلك في الفصل الثاني في مجالات التقويم مبحث المعتقدات والأفكار كـمجال رئيس ركز عليه القرآن في التقويم والنقد . ونركز هنا على الهدف والغاية من هذا التركيز ، إذ ليس المقصود سرد الموضوع كقصة ، أو حدث ، ومناسبة مرت سلط عليها القرآن الضوء فقط ، إنما كان ولا زال من المؤكد أن المقصود هو تصحيح وتصويب العقائد الفاسدة والتصورات المنحرفة حسب رأي القرآن ومبادئه ، وذلك بالرجوع إلى عمق النظرة في ذلك عبر مجمل الهدف الذي أرسل به الأنبياء وجاء به المرسلون ، وهو توجيه العبادة لمقصود واحد ، واتجاه واحد ، ومرجعية واحدة ، بعد أن استبد بالناس الشركاء والآلهة المدعاة المصطنعة ابتداء بالحجر وانتهاء بالبشر . حتى وصل السخف في قيمة الآلهة عند عرب الجاهلية قبل الإسلام أن يصنع أحدهم ربه من تمر ، فإذا جاع أكله .

وقد تحرك عقل أحدهم مرة عند ما وجد ثعلباً قد بال على ربه الحجري ، فقال شعراً يعبر عن إفاقة ذهنية ، وهزة نفسية استهزاء بهذه الآلهة ، واحتقاراً لهذه المعبودات ، فقال:

ورب يبول الثعلبان برأسه  
ألا ذل من بالث عليه الثعالب

وإن أبلغ صور التقويم للعقائد والتصورات في القرآن الكريم ما ورد في قصص الأنبياء والمرسلين مع أقوامهم ، ذلك إن الأولوية الأولى والقضية الكبرى في رسالات الأنبياء والمرسلين هو: تقويم إعوجاج عقائد الناس وإصلاح تصوراتهم ، فتلك هي البداية السليمة التي يبني عليها ما بعدها من بـنيان عقدي ، وتصور فكري ، لحياة الناس ومعاييرهم وموازينهم التي سيزنون بها الأشياء ، ويقومون بها الأمور .

ومن المؤكد أن المجال هنا ليس مجال استقصاء لتلك المواقف النبوية وحشدها بكاملها، إنما القصد هو إبراز هذا الهدف ، وذكر هذه الفائدة لتقويم العقائد والتصورات عبر بعض المواقف والآيات التي تكلمت عن سيرة بعض هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم . ولقد حفلت سور القرآن الكريم بآيات كثيرات سطررت هذا النوع من التقويم ، وأظهرت فائدته نعرض لبعضها في مادة هذا المبحث حسب المطالب التالية:

## المطلب الأول : تقويم سيدنا نوح لعقائد قومه وتصوراتهم

تمثل رحلة نوح عليه السلام أطول رحلة دعوية نبوية ، إذ بلغت ألف سنة إلا خمسين عاماً ، ومؤكد أنها حياة مليئة بأنواع التقويم والتصحيح لما عند قومه من أفكار وعقائد وتصورات. يقول الله تعالى في مسيرة نوح عليه السلام الدعوية ومدتها في سورة العنكبوت ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون ، فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين ﴾ [العنكبوت: ١٤-١٥] .

ونرى كيف تعرض سورة الأعراف نمطاً من مسيرة نوح عليه السلام مع قومه ، يبدأ فيه بتقويم تصوراتهم الاعتقادية يقول الله تعالى : ﴿ لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين ، قال يا قوم ليس بي ضلالة ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله من لا تعلمون ، أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتنتقوا ولعلكم ترحمون ، فكذبوه فأنجيناه والذين معه في الفلك وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوماً عمين ﴾ [الأعراف: ٥٩-٦٤] .

ويتضح من الآيات أن نوحاً قام بتشخيص واقعهم الاعتقادي فوجده واقعاً منحرفاً ، يعج بشتى المعبودات ، فبدأ بتقويمه وتصحيحه ، فناداهم برفق وليونة ، يا قوم اتركوا هذه الآلهة ، واعبدوا الله وحده فهو ربكم الوحيد الذي يستحق العبادة دون سواه . وفائدة ذلك لكم أنني خائف عليكم من عذاب يوم عظيم إذا لم تستجيبوا وتدعوا المعبودات الأخرى . وتبدأ جولة المحاجة بالضلال والتقويمات المتبادلة بينه وبين قومه ، فقد اتهموه بالضلال المبين ، ورد هو عليهم ذلك التقويم الخاطئ ، وأثبت لنفسه الرسالة والنصح لهم ، والعلم بما عند الله. ويأتي تقويمه لهم هنا على صورة النصح " وأنصح لكم " ويستمر في معالجة تصوراتهم ، التي تعجبوا من خلالها أن يأتيهم رجل منهم بهذه الرسالة وهذا الإنذار ، والذي يهدف منه نوح أن يصلوا إلى مرحلة التقوى الموجبة لرحمة الله - وكل ذلك مترتب على تقويم عقيدتهم لو استجابوا - وفائدة هذا التقويم ظاهرة بينة ، هي : اتقاء العذاب ، وحصول التقوى والرحمة. ولكنهم تنكبوا وكذبوا ، فأغرقوا ، ونجى الله نوحاً ومن معه في السفينة كما هو معروف .



ويلمس صاحب الظلال فائدة التقويم العقدي ، والنصح من نوح لقومه فيقول: " فهو الإنذار لتحريك القلوب بمشاعر التقوى ، ليظفروا في النهاية برحمة الله ... ولا شيء وراء ذلك لنوح ، ولا مصلحة ولا هدف ، إلا هذا الهدف السامي النبيل " (١) .

وحول فائدة إصلاح العقيدة وتقويمها يقول نوح عليه السلام ﴿ يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾ يقول صاحب الظلال " فهي الكلمة التي لا تتبدل ، وهي قاعدة هذه العقيدة التي لا توجد إلا بها ، وهي عماد الحياة الإنسانية الذي لا تقوم على غيره ، وهي ضمان وحدة الوجهة ووحدة الهدف ، ووحدة الرباط ، وهي الكفيل بتحرر البشر من العبودية والهوى ، والعبودية لأمثالهم من العبيد ، وبالاستعلاء على الشهوات كلها وعلى الوعد والوعيد " (٢) .

ونمط آخر من معالجات الآيات القرآنية لتقويم نوح عليه السلام لتصورات قومه وعقائدهم تعرضه سورة نوح عليه السلام ، يقول الله تعالى :

﴿ إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم ، قال يا قوم إني لكم نذير مبين ، أن اعبدوا الله واتقوه واطيعون ، يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون ﴾ [نوح : ١-٤] .

ثم تتابع الآيات عرض نوح لأسلوبه الدعوي ، ولتقويمه لما عندهم من آلهة ، ولكيفية ردهم عليه وعصيانهم له ، ومكرهم وتمسكهم بالآلهة ، ودأ وسواغاً ويغوث ويعوق ونسراً ، وكيف أنهم أغرقوا فادخلوا ناراً . وأخيراً دعا نوح عليهم وعلى ذريتهم . وطلب من الله أن لا يذر منهم على وجه الأرض أحداً . وفي المقابل دعا ربه بالمغفرة له ، ولوالديه وذريته ، وللمؤمنين والمؤمنات .

وجوهر دعوة الأنبياء واحد متكرر عبر تاريخ البشرية اللاحب الطويل ، تقويم العقائد وإصلاح التصورات " أن اعبدوا الله واتقوه واطيعون " لماذا وما الفائدة والنتيجة " يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى " وما أجمل أن تصحح العقيدة ، ويسمو التصور ، فيرتفع الإنسان بذلك من عبادة الأصنام الحجرية ، أو البشرية ، أو الفكرية أو غيرها ، إلى عبادة الله خالق كل شيء ، فترفرف روحه ، ويزكو عقله ، ويكبر اهتمامه ، ويرتفع شأنه وهدفه .

(١) الظلال : ج ٣ ، ص ١٣٠٩ .

(٢) المرجع السابق ج ٣ ، ص ١٣٠٨ .

ونوح جد الأنبياء وأحد أولى العزم من الرسل ، تحمّل كل ما تحمّل في سبيل تقويم عقيدة قومه ، وهدايتهم لا شيء آخر .

ويشير صاحب الظلال في تعليقه على السورة ، سورة نوح إلى شيء من ذلك فيقول: " ثم هي بعد هذا وذلك تعرض صورة من صور الجهد المضني ، والعناء المرهق ، والصبر الجميل ، والإصرار الكريم من جانب الرسل - صلوات الله عليهم - لهذه البشرية الضالة العنيدة العصية الجامحة ، وهم لا مصلحة لهم في القضية ، ولا أجر يتقاضونه من المهتدين على الهداية ، ولا مكافأة ولا جُعل يحصلونه على حصول الإيمان ! كالمكافأة أو النفقة التي تتقاضاها المدارس والجامعات والمعاهد والمعلمون في زماننا هذا وفي كل زمان في صورة نفقات للتعليم ! (١) .

ولما لموضوع تقويم العقائد والتصورات من أهمية وفائدة يذكر صاحب الظلال ، فيقول: " وما يمكن أن ترتقى البشرية ، ولا أن ترتفع عن طريق فلسفة ، أو علم أو فن أو مذهب من المذاهب ، أو نظام إلى المستوى الذي وصلت أو تصل إليه عن طريق استقرار حقيقة الإيمان بالله في نفوس الناس ، وحياتهم وأخلاقهم وتصوراتهم وقيمهم وموازينهم ... وهذه الحقيقة ينبثق منها منهج حياة كامل ، سواء جاءت مجملة كما هي في الرسائل الأولى ، أو مفصلة شاملة دقيقة كما هي في الرسالة الأخيرة " (٢) .

### **المطلب الثاني : تقويم سيدنا هود لعقائد قومه وتصوراتهم**

هود عليه السلام من ذرية نوح ، وكان بينه وبين نوح فيما ذكر المفسرون سبعة آباء ، وكانت عاد فيما روي ثلاث عشرة قبيلة ، وهم أهل بساتين و زروع و عمارة ، وكانت أرضهم بنواحي حضرموت إلى اليمن ، وهم من عبدة الأصنام " (٣) .

ويستمر هود عليه السلام على نهج أبيه نوح في تشخيص حال قومه ، وتقويم معتقدتهم، والنظر في تصوراتهم . وهي نفسها المقولة التي قالها وبدأ بها كل الأنبياء والرسل ، أمام ما وجدوا أقوامهم عليه من تعدد الآلهة ، وتنوع المعبودات ، وكثرة الأرباب، يقول الله تعالى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله

(١) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٧٠٦ .

(٢) المرجع السابق ، ج ٣ ص ٣٠٧٩ .

(٣) انظر القرطبي : جزء ٧ ، ص ٢٣٦ .

غيره أفلا تتقون ، قال الملائكة الذين كفروا من قومهم إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ، قال يا قوم ليس بي سفاهة ولكني رسول من رب العالمين ، أبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ، أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون ، قالوا أجننتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأنتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلونني في أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان فانتظروا إنني معكم من المنتظرين ، فأنجيناها والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴿ [الأعراف: ٦٥-٧٢] .

إن نقطة البداية السليمة في التصحيح والتسديد يجب أن تتجه إلى حيث مصدر الاعتقاد والفكر والمبدأ ، إذ من هنا تنطلق المعايير وتتشكل الموازين وتنشأ القيم . فلا قيمة - وهذا ما يشهد به رصيد الأنبياء والرسول مع أقوامهم - بأن يبدأ التقويم من ظواهر الأمور وإفرازاتها العملية ، ويترك جانب التصور والفكر والنظر والاعتقاد . كما يُعالج ارتفاع الحرارة بالمسكنات ومخفضات الحرارة ، دون أن يعرف سبب هذا الارتفاع . وهي قضية صعبة ، فغالباً ما يلجأ الإنسان إلى المحسوس ، ويترك جانب العقل والفكر لصعوبة إدراكه ووعيه ، فعمليات العقل من إدراك وتحليل ، ووعي وتقويم ، لا يهضمها إلا قلة قليلة من البشر . أما جانب التنفيذ وجهد العضلات ، فيتقنه أغلب الناس . لذلك " يميل الناس إلى المواقف ، لأن نقد المناهج شاق " (١) .

ويبدأ كل الأنبياء تقويم ما عند أقوامهم ، ونقد ما لديهم من هذه النقطة الحساسة ، نقطة العقيدة والمبدأ ، فالإنسان عادة ما يرتجف ، ويعاند وتشتد رده فعله ، عند الكلام على مبداه ومعتقده ، ولو لم يكن ملتزماً به وواعياً له .

فجُلُّ المسلمين اليوم تشتد ردات فعلهم ، وتثور عواطفهم إذا ما اعتديت على دينهم وسفّهت معتقداتهم ، على الرغم أن أغلبهم لا يلتزمون به ويتعاليمه حق الالتزام .

ولذلك تجد المعاندة الشديدة ، والخصومة الظاهرة بين الأنبياء وأقوامهم ، عند ما يدعونهم إلى توحيد مصدر العبادة ، وجعلها لله وحده ، فيردون الكيل صاعين ، ويبدأون بتقويم مضاد للأنبياء والرسول ، كردة فعل طبيعية أمام من يتهم على أسمى ما عندهم . وهذا ما يظهر سخانة المعركة وشدة التقويم . والذين يقومون بتقويم مضاد لتقويم الأنبياء هم

(١) فصول في التفكير الموضوعي : مرجع سابق ص ١٩٦ .

شريحة الملأ دائماً ، وهم الكبراء والأعيان ، وأصحاب المصالح والمنافع ، لأن تقويم الآلهة وتحقيرها يزلزل مصالحيهم ، ويكشف عن سُخف معتقداتهم وضعف تصوراتهم .

وقد كان نقدهم لسيدنا هود كما في الآيات شديداً قاسياً ﴿ قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين ﴾ .

- السفاهة : الحمق وصغر العقل ، وضعف النظر والفهم والإدراك .

الكذب : ضد الصدق ، التزوير وإخفاء الحق والحقيقة .

صفتان مذمومتان ، فماذا بعد أن يُقدح المرء في عقله وخلقه ؟ وهما مصدر قوته وقيمته . تقويم ونقد شديداً ولا شك " هكذا جزافاً بال ترؤ ولا تدبر ولا دليل " (١) .

ويذكر هود عليه السلام معايير تقويمه لمعبوداتهم ، فهو رسول من رب العالمين ، عليه تبليغ هذه الرسالة ، وهو ناصح أمين لهم ، ثم هو يذكرهم بنعم الله عليهم ، فهم خلفاء من بعد نوح ، وزادهم الله في الخلق بسطة ، فعمل ذلك يقودهم إلى الفلاح .

ثم هم يصدون ، ويبرزون معيار رفضهم لتقويمه ، وهو : أن عبادة الله وحده مخالفة لعبادة الآباء والأجداد . إنه إذاً معيار التقليد والتبعية ، وعدم الاستعداد للتفكير والتبصر ، والمقارنة السليمة بين القديم الموروث ، والجديد المشهود .

ثم تأتي الحلقة الأخيرة ، أن وقع عليهم غضب الرب ، بسبب عنادهم ومجادلتهم في أسماء ما أنزل الله بها من سلطان .

فكانت النجاة لهود ومن آمن معه ، وقُطع دابر الكافرين ، وانتهى أمرهم . والتعبير المتكرر في القرآن " ما نزل الله بها من سلطان " هو تعبير موح عن حقيقة أصيلة ... إن كل كلمة أو شرع أو عرف أو تصور لم ينزله الله ، خفيف الوزن ، قليل الأثر ، سريع الزوال ، إن الفطرة تتلقى هذا كله في استخفاف ، فإذا جاءت الكلمة من الله ثقلت واستقرت ونفذت إلى الأعماق ، بما فيها من سلطان الله الذي يودعها إياه ، وكم من كلمات براءة وكم من مذاهب ونظريات ، وكم من تصورات مُزوّقة ، وكم من أوضاع حشدت لها كل قوى التزيين والتمكين . ولكنها تتذابوب أمام كلمة الله التي فيها من سلطانه - سبحانه - سلطان ! " (٢) .

وتعرض كذلك سورة الأحقاف مشهداً آخر من مشاهد تقويم العقائد وتصويبها ، في قصة سيدنا هود مع قومه .

(١) الظلال : ج ٣ ، ص ١٣١٠ .

(٢) الظلال : ج ٣ ، ص ١٣١٢ .

يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم ، قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فاتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ، قال إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكني أراكم قوماً تجهلون ، فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم ، تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين ، ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء إذ كانوا يجحدون بآيات الله وحاق بهم ما كانوا به يستهزون ﴾ [الأحقاف: ٢١-٢٦].

والقصص القرآني ذا أغراض متعددة ، وفوائد متنوعة ، وثمار ذات مذاقات شتى ، وهو يزخر برصيد ضخم من تراث الأنبياء والمرسلين ، يعالج ألواناً من التصورات والمفاهيم والسلوك والمواقف .

يعالج العقيدة والتصور في أغلبه ، ويعالج الأخلاق ، ويعالج مصارع المعاندين ونهايات المؤمنين وإنابة المصدقين ، وقد لمسنا سابقاً بعض ذلك في ثنايا البحث ، وهنا تتمثل المعالجة في حياة هود عليه السلام مع قومه بجانب العقيدة والتصور ، ومعايير الهدى والضلال ، والفقہ والإدراك ، وكما ذكرت آيات سورة الأعراف تقويم العقيدة والفكرة أولاً ، تؤكد آيات الأحقاف المسألة نفسها وتبدأ بها " ألا تعبدوا إلا الله " وبدهي أن حصر التوحيد في العبادة لله ، كان على أساس تشخيص واقعهم العقدي ، والعبادي المبني على التنوع والإشراك في كثير من أنواع المعبودات ، وفائدة هذا التصحيح العقدي " إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم " .

أي : إن خوفي أن تكونوا في عذاب عظيم هو الذي جعلني أوجهكم لعبادة الله وحده . ولكنه العناد والتمسك بالمألوف من الآلهة والتقاليد " قالوا أجتنا لتأفكنا عن آلهتنا " أي لنزيلنا عن عبادتها بالإفك ، أو لتصرفنا عن آلهتنا بالمنع <sup>(١)</sup> .

تقويم من نبي كريم خوفاً على قومه من النار والعذاب العظيم ، وتقويم معاند ، واتهام بالإفك خوفاً على ترك الموروث وتمسكاً بالتقاليد ، ثم سخر زائد في طلب إنزال العذاب العظيم عليهم ، بحجة غبية ، وتبرير جاهل بنوع من التحدي " إن كنت من الصادقين " .

(١) انظر القرطبي : جزء ١٦ ، ص ٢٠٥ .

تصورات سخيصة مبنية على معايير فاسدة ، ثم زاد سوء حالهم تقويمهم بالجهل ، ويأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون ، على شكل عارض ( مطر ) وقد كانوا على حالة بنيسة من الجذب والمحل والجفاف ، فاستبشروا بقدوم الغيث وهماً منهم ، وقد انكشف الأمر عن ربح شديدة تحمل العذاب المهلك المدمر . وقد كانوا أكرموا ولم يحترموا النعمة التي منحت لهم للتدبر والشكر ، فعطلوا وسائل النعم ، وما استعملوها كالسمع والبصر والفؤاد ، وكانت النتيجة المرة المدمرة ﴿ فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ﴾ .

### المطلب الثالث : تقويم سيدنا صالح لعقائد قومه وتصوراتهم

لكل نبي صورة معينة في تقويم قومه ، وإن كان جوهر التقويم وموضوعه هو العقيدة والتصور . فمفردات قصصهم تتنوع ، وتتجدد حسب بيئاتهم وطبيعة شعوبهم . وصالح عليه السلام نطق بنفس العبارة في تقويم العقيدة والفكرة . ولكن حجته اختلفت عن غيره . ظهرت الحجة ومعيار التقويم والتصويب عن طريق الآية المعجزة " هذه ناقة الله لكم آية " وكانت النتيجة بعد التكذيب والعناد ، " فأخذتهم الرجفة " . يقول الله تعالى في مقطع من قصة صالح مع قومه ثمود :

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم ، واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتتحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ، قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون ، قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون ، فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين ، فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٩] .

لقد أظهرنا فيما سبق تركيز صالح عليه السلام في تقويم عقيدة قومه على منهج كل الأنبياء من قبله ، ولقد دعم ذلك ببينة وآية ، هي : ناقة غير طبيعية فأقر قومه أن يستفيدوا منها ، ويتركوا عبادة غير الله . وهم أنفسهم من طلب الآية والبينة . ولكنهم عقروها عن طريق أحد أشقيائهم . وقد كانت لهم نعم من الله وافرة : مكانة في الأرض ، عمارة

وقصوراً ، وبيوتاً في الجبال . ولقد ذكرت سور أخرى قصة صالح مع قومه بمفردات معينة " (١) .

ركزت الآيات على نفس المعاني والتصورات التي أراد صالح عليه السلام تقويمها وتصحيحها عند قومه.

والحقيقة أن القصص القرآني زاخر بمواقف التقويم العقدي في مسيرة الأنبياء والرسل على مر تاريخهم الممتد . ونكتفي هنا بما قدمناه من مواقف ، خشية الاستطراد ، إذ المقصود إظهار أهمية التقويم العقدي والتصوري في القرآن الكريم في مبحث تصحيح التصور والاعتقاد عبر مطالبه السابقة في فصل فوائد التقويم وأهدافه .

ومما سبق من هذا المبحث ، ومن خلال معالجتنا له عبر ثلاثة مطالب من قصص الأنبياء التقويمية نود أن نبرز النقاط التالية :

١- أن أساس دعوة الرسل وجوهرها واحد ، وهو الدعوة إلى التوحيد ونبذ المعبودات المتعددة ، وكل الأنبياء بدأوا بذلك عبر تشخيصهم وتقويمهم لمعتقدات أقوامهم وتصوراتهم المبنية على تلك المعتقدات .

٢- يبرز لنا أن تقويم التصورات والعقائد هو البداية السليمة ، التي تُبنى عليها كل جولات التقويم التالية ، مما قد ينبني على العقائد والتصورات من معاملات ، وسلوكيات وأخلاق وأفكار .

٣- اختلاف معايير التقويم بين الأنبياء في دعوتهم لأقوامهم وتشخيصهم لواقعهم وبين أقوامهم ، فمعايير الأنبياء : احترام العقول ، وطلب الاستقامة ، ونبذ المعبودات والآلهة المصطنعة ، والانسجام مع الفطرة ، والنظافة الأخلاقية والعقدية والسلوكية ، وبناء قيم العدل والحرية ، ورفض الاستعباد والذل والفرعنة . ومعايير الأقوام - خاصة الملائمة - هي: الاستعلاء ، والتقليد والمعاندة ، ورفض الجديد، وتلبية الشهوة ، واستعجال العذاب ، والتكذيب والتبجح .

(١) انظر الآيات :

- هود (٦١-٦٨) .

- الشعراء (١٤١-١٥٨) .

- النمل (٤٥-٥٣) .

- القمر (٢٣-٣١) .

- الشمس (١١-١٥) .

٤- يرد التقويم على شكل نصح ورغبة في إصلاح الأحوال ، دون مقابل ولا أجر ولا هدف ذاتي للأنبياء والرسل .

٥- غالباً ما يقابل تقويم الأنبياء لعقائد أقوامهم تقويم مضاد من ملأ الأقسام وزعمائهم للأنبياء والرسل ، يتهمون فيه الأنبياء بالسفاهة والجهل والكذب ، بل وإمعاناً في العناد يأتي جزء من تقويمهم المضاد بطلب استعجال العذاب ، ليتحققوا بنزوله من صدق ما تتوعدهم به الأنبياء .

٦- يظهر أن غالب نتائج تقويم المعاندين والمكذبين بعد كل البيانات والنصح والصدق والصبر والمعاناة من قبل الأنبياء يتمثل في الإهلاك والتدمير بالريح الشديدة تارة، وبالرجفة والصيحة تارة أخرى ، وهكذا .

٧- النتيجة السيئة بعد جولة التقويم والتقويم المضاد في الإهلاك والتدمير والعذاب تطال فقط المكذبين والمعاندين ، وينجي الله الأنبياء وأتباعهم على أساس الإيمان والعقيدة .

\*\*\*



## المبحث الثاني

### تربية النفس البشرية وصلها

وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : تربية النفس البشرية وتقويمها عبر المجال الوقائي

المطلب الثاني: تربية النفس البشرية وتقويمها في محيط التصور النظري والقيمي

المطلب الثالث : تربية النفس البشرية وتقويمها في محيط الأخلاق العملية

## تمهيد:

الإنسان هو محور الكون وسيده ، ونفسه هي مبعث سعادته أو شقاوته ، وملكة عقله هي مناط تكليفه ، وضابط توجهه وسيره . ومادته الجسمية هي الحامل والراحلة في مشواره الطويل ، وكلها تشترك في مزيج بديع متشابك لا يكاد ينفك ، فإذا مرضت نفسه انهد جسمه واضطرب عقله ، والقياس يصح عليها جميعاً في حال صحة أحدها أو اعتلاله . ومرجعية فهم ذلك وعمق تصوره تسطره آيات سورة الشمس قال تعالى :

﴿ ونفس وما سواها ، فألهمها فجورها وتقواها ، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها ﴾ [الشمس: ٧-١٠] .

"فجعل التزكية الموصلة إلى الفلاح من إرادة الإنسان وفعله ، كما جعل التدسية المفضية إلى الخيبة والضلال من فعله أيضاً . وبذلك تصبح معركة التزكية والتدسية هي ميدان الفعل التربوي في مسيرة الحياة " (١) .

وتؤكد آية سورة الرعد " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم " المعنى وتزيده تحديداً . ويأخذ التغيير المطلوب فضاء واسعاً ، فهو يستلهم دروس التاريخ في ميدان النفس وتربيتها وحضاريتها، ويشخص الواقع ويقومه ويرشده ، ويستشرف المستقبل ويتوقعه في خطة التغيير النفسي التربوي والحضاري المطلوب .

والتربية لغة تفيد معنى التنمية ، يقال رباه أي نماء ، وتربى تنشأ وتغذى وتتقف " (٢) . وقيل : إن التربية هي تبليغ الشيء إلى كماله . أو هي حسب رأي المحدثين : تنمية الوظائف النفسية بالتمرين حتى تبلغ كمالها شيئاً فشيئاً (٣) .

وتربية النفس وصلها وتقويمها سبيل مستمر شامل ، لا يتوقف على مستوى الفرد والجماعة ، وهي تتطرق من منظومة القيم المرتكزة على عقيدة التوحيد في بعدها الفلسفي التجريدي ، وتتبلور على شكل منظومة أخلاقية عملية سلوكية في واقع الفرد والجماعة الإجرائي . على ذلك فيمكن أن يأخذ قصد التقويم في تربية النفس الإنسانية بعداً نظرياً في

(١) القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر : عبد المجيد بن مسعود ، تقديم عمر عبيد حسنة ، ص ٩ .

(٢) انظر المعجم الوسيط ، ج ١ ، مادة ربي .

(٣) انظر المعجم الفلسفي : د. جميل صليبا ، دار الكتاب اللبناني ، ج ١ مادة تربية .

التفكير والتصور والقيم ، وبعداً عملياً في الأخلاق والسلوك والتطبيق . وقبلها بعداً احترازياً وقائياً مناعياً . ومن هنا فسنعالج هذا المبحث عبر المطالب التالية :-

### المطلب الأول: تربية النفس البشرية وتقويمها عبر المجال الوقائي

التقويم التربوي والتزكية النفسية الاحترازية خطوة سابقة ، ومنبهة للذات قبل وقوعها في دائرة الحكم والتشخيص بالخطأ أو الصواب . وهو نوع من الإنذار المبكر كما هو عمل مؤشر السيارة عند قرب انتهاء الوقود منها ، ويتمثل ذلك في آيات كثيرة في الكتاب العزيز فقول الله تعالى : ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾ [المؤمنون: ١١٥] تمثل تنبيهاً بأن عبثية الحياة غير واردة ، وأن المحاسبة هي الأصل ، والتقويم هو المنهج ، فالرجوع للخالق محتوم والنتيجة حاصلة . وهي على حسب ما كان عند الإنسان من رصيد شمل مفردات حياته الدنيوية ، ولذلك " فكان العقل المسلم الذي جاء ثمره لهدايات الوحي عقلاً يقظاً واعياً ، مسؤولاً ، غائياً ، تعليلياً ، برهانياً ، تحليلياً ، استقرائياً ، استنتاجياً ، يستكشف العلل والمقاصد ، ويتعرف على الأسباب ، ويدرك أن الله سبحانه وتعالى لم يخلقنا عبثاً " (١) .

ويرد في هذا المقام كذلك قول الله تعالى : ﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

ويتمثل النهي عن قول ما ليس للإنسان به علم هنا إشارة تحذيرية قبل ارتكاب الفعل كما هي شواخص الطرقات التي تشير إلى إرشادات يستفيد منها السائر في التحرك إلى الوجهة الصحيحة . وذكر وسائل المعرفة من سمع وبصر وفؤاد هي زيادة توضيح ، في أن الإقفاء المذكور في الآية يشملها جميعاً ، فلذلك يجب الاحتياط في تقويمها ، ولجمها عما لا يجوز لها ، قبل تورطها الفعلي بالمحذور .

وقد سبق وذكرنا أن القرآن الكريم ذكر أنواعاً من النفوس في مواقف متعددة من التقويم . فذكرت الأمانة بالسوء والمطمئنة واللومة . وكلها تمثل ما يعترى النفس من أحوال حسب التزامها ونسبة استقامتها أو انحرافها . والنفس اللومة تكاد تأخذ النسبة الوسطية في حياة أغلب المسلمين ، وصفتها الرئيسية هي اللوم والمحاسبة ، وقرع جرس الإنذار قبل الحدث وبعده .

(١) القيم الإسلامية التربوية : مرجع سابق : ص ١٠-١١ .

" وحتى لا يصيب التخلخل ذلك البنيان فإن هناك جهازاً دقيقاً يحرسه داخل كل فرد مسلم ، إنه جهاز المحاسبة للنفس ... هناك النفس اللوامة التي أقسم بها العزيز الجبار ، لعلوها وعظم شأنها ، ولضرورتها في استمرار الحياة سليمة ، واستمرار مجراها هادئاً صافياً من الأكدار " (١) .

وجانب تربية النفس البشرية عن طريق التقويم الوقائي الاحترازي مبعوث بشكل واسع في القرآن الكريم ، ضمن جوانب متعددة كثيرة ، لا نود الاستطراد فيها . ونذكر هنا نقطة قد تناسب هذا الموضوع ، ذلك أن هذا الاستشعار والوقاية في تفحص الوجهة لاستبانة صحتها من خطائها موجودة حتى عند الحيوانات ، فقد خصها الله تسهيلاً لما فطرت عليه من غريزة في شق حياتها ، فأوجد عندها أجهزة معينة تعينها وتمهد لها طرق الوقاية ، وهي ما تسمى عند بعض الحيوانات " بقرون الاستشعار " أو " المجسات " - فسبحان الله - إنه له في خلقه شؤون ، ليتكامل الخلق ، ويستمر قانونه ، وناموسه كما أراده عز وجل .

### **المطلب الثاني : تربية النفس البشرية وتقويمها في محيط التصور النظري والقيمي**

المنظومة الفلسفية والقيمية هي التي تضبط ميدان السلوك والأخلاق ، وبقدر نقائنها واتزانها وانسجامها مع فطرة الإنسان ، بقدر ما ينعكس ذلك على سلوكيات الإنسان وأخلاقياته ، وزكاوة نفسه وصقل ذاته . ومن فوائد التقويم في جانب القيم وتربية النفس على ذلك ، قول الله تعالى في عرض قيمة الدنيا بأسلوب التمثيل والتشبيه ، مما يورث قناعات نظرية ، ومن ثم عملية في التعامل مع الدنيا ، قال تعالى :

﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقنطراً . المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً ﴾ [الكهف: ٤٥-٤٦] " المال والبنون زينة الحياة ، والإسلام لا ينهي عن المتاع بالزينة في حدود الطيبات ، ولكنه يعطيها القيمة التي تستحقها في ميزان الخلود ، ولا يزيد ، إنها زينة ولكنها ليست قيمة ، فما يجوز أن يوزن الناس ولا أن يقدروا على أساسها في الحياة . إنما القيمة الحققة للباقيات الصالحات من الأعمال والأقوال والعبادات " (٢) .

(١) المرجع السابق : ص ١٣٣ .

(٢) الظلال : ج ٤ ، ص ٢٢٧٢ .

وأصل أصول القيم والتصورات هو انطلاقها من الفطرة البشرية ، وأساس هذه الفطرة هو التوحيد . فقد جبلت النفس على معرفة ربها ، وقد تحجبها الغفلة والبيئة والتقليد أحياناً ، ولكن جذور هذه المعرفة عميقة في النفس لا سبيل إلى إنكارها ، أو التخلص منها ﴿ و إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو تقولوا إنما أشرك آبؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون ﴾ [الأعراف: ١٧٢-١٧٣] <sup>(١)</sup> .

وتقويم المعرفة والعلم وإيرازهما خاصة ( بصفات الخالق وجلاله ) يربي النفس البشرية ويقوم نظرتها للأشياء مما يحدث عندها ملكة الرقابة الذاتية ، والتقوى والمحاسبة ، ومن ذلك قول الله تعالى : ﴿ وعند مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ [الأنعام: ٥٩] .

وقوله: ﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ، سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴾ [الرعد : ٨-١٠] .

فهو (سبحانه) مطلع على السرائر ، عليم بذات الصدور ، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، يستوي عنده السر والعلن . وتصور المؤمن لعلم الله على هذه الصورة يربي فيه الإحساس المرهف ، والشعور الكامل برقابة الله ، فيرى أنه مطلع على عمله محيط بسره وعلنه . والإنسان بطبعه يستحي من مخلوق يجله ، فكيف والله هو المطلع الرقيب ؟ <sup>(٢)</sup> .

وفي معية الله ونصره وقت الملمات تربي قصة موسى و قومه مع فرعون حس المؤمن على الثبات واليقين بنصر الله ، وتنمي عنده التصور الصحيح لميزان النصر والهزيمة .

خرج موسى بقومه من مصر وتبعهم فرعون بجنوده ، فلما لحق بهم عند ساحل البحر، ورآهم بنو إسرائيل ، ظنوا أنهم هالكون ، فلم يروا ملجأ ولا سبيلاً إلى النجاة ، ولكن موسى كان يشعر بمعية الله ويوقن بعونه وهدايته .

(١) منهج القرآن في التربية : محمد شديد . مؤسسة الرسالة ١٩٩٤م ، ص ٨٢ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٠٢-١٠٣ .

﴿ فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى إنا لمدركون ، قال كلا إن معي ربي سيهدين ، فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ، وأزلفنا ثم الآخرين ، وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين ﴾ [ الشعراء: ٦١-٦٦ ]<sup>(١)</sup> .

### المطلب الثالث : تربية النفس البشرية وتقويمها في محيط الأخلاق العملية

أخذ الاهتمام بالأخلاق نظرياً وعملياً مساحة كبيرة من تفكير علماء الأخلاق ودراساتهم . ونتجت عن ذلك نظريات ومفاهيم متعددة - خاصة في عصرنا الحاضر - وكان الحض الأوفر من هذه النظريات والدراسات لدى الغرب . الذي من مفاهيمه نحو المسألة الأخلاقية أن الطفل يولد مفطور على " الخطيئة الأصلية " وهي غريزة صارمة تنتج الفساد والانحلال ، ولذلك فلا فائدة من التربية الأخلاقية " <sup>(٢)</sup> .

ولقد بدأ الاهتمام بالتربية الأخلاقية بسبب تعقد المجتمع المعاصر ، وكثرة مشاكله وأمراضه النفسية والاجتماعية ، وانهيار منظومة القيم والموازين التي تحفظ الفرد والمجتمع على حد سواء .

والأخلاق الحسنة (عند الغرب ) هي الأعمال الحسنة التي تحقق الاتفاق بين الجميع ، وتصور القوانين الموجهة لهذه الأعمال " <sup>(٣)</sup> .

ونقطة الاختلاف الجوهرية في مفهوم الأخلاق بين المفهوم الغربي والمفهوم الإسلامي أن مفاهيم الأخلاق في التصور الإسلامي تنطلق من مرجعية الكتاب والسنة ورأي الأمة المؤمنة ﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ [التوبة: ١٠٥] .

وعموماً يتصف الشخص الناضج بصفات أربع ، هي :

الاستقلالية ، والعقلانية ، والإيثار ، والشعور بالمسئولية ، والسبب في وجوب هذه الصفات هو أن كل عمل تحت الإكراه لا يسمى عملاً أخلاقياً ... ويرتبط بالصفات الأربع المذكورة أعلاه صفة أخرى هامة هي - الحكم الأخلاقي - أي : الطريقة التي يحكم بها

(١) المرجع السابق : ص ١٠٥-١٠٦ .

(٢) انظر اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية : د. ماجد عرسان الكيلاني . دار البشير - الأردن ط ١ ،

١٩٩٢م ص ٩ نقلاً عن مرجع أجنبي .

(٣) المرجع السابق : ص ١٦ .

الفرد أو الجماعة على موقف ما ، أو سلوك ما ، حكماً أخلاقياً ، وقيمه تقييماً أخلاقياً ،  
والحكم والتقييم الأخلاقي له مظهران :

الأول : مفهوم " الحق " و " الخطأ " وهذا يتنوع بتنوع طبقات المجتمع ، الثاني :  
مستويات الحكم الأخلاقي <sup>(١)</sup> .

ولقد أجمعت غالبية النظريات الأخلاقية على أن التربية الأخلاقية المنشودة لا تستمد  
مصدرها من الدين المسيحي لسببين :

الأول : أن المسيحية تؤمن بـ " الخطيئة الأصلية " للإنسان ، وبالتالي لا يمكن تحسين  
أخلاقه وتركيتها . والثاني : أن التربية الدنيوية عقلانية تلائم العصر ، بينما التربية  
المسيحية غير عقلانية ، وتختلف مع طبيعة الإنسان <sup>(٢)</sup> .

وللقرآن - كمرجعية أولى للتصور الإسلامي - منهجه المتميز في فلسفة الأخلاق  
نظرياً وعملياً ، فهي أخلاق قيمية عملية تراعي مصلحة الفرد والجماعة على حد سواء ،  
وهي تشكل المشاعر الحية والضمير المتيقظ الذي ينطلق من رقابته للخالق ، إضافة إلى ما  
يغذي ذلك من ضوابط المجتمع والفرد والعرف ، وميزان الخير والشر ، والحق والباطل .  
وذلك ضمن منهج معتدل وسطي متزن .

لقد وردت آيات كثيرات تقوّم الأخلاق وتحض عليها ، قال الله تعالى في حق الرسول  
صلى الله عليه وسلم : ﴿ وإنك لعلی خلق عظیم ﴾ وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق  
رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : " كان خلقه القرآن " .

وتعرض سورة طه باقة عطرة من الآيات في تقويم الخالق عز وجل لأخلاق بعض  
الأنبياء كقدوة حسنة ، وتطبيق عملي تُرجم عبر حياتهم الدعوية ، وتبليغ رسالة ربهم عز  
وجل في حياة الناس .

- ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ﴾ [مريم : ٤١] .
- ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً ﴾ [مريم : ٥١] .
- ﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً ﴾ [مريم : ٥٤] .
- ﴿ واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً ﴾ [مريم : ٥٦] .

<sup>(١)</sup> المرجع السابق : ص ١٧ - ١٨ .

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق : ص ٢٠ نقلاً عن مرجع أجنبي .

اشترك هؤلاء الرهط الكريم بصفة الصدق والإخلاص والنبوة ، ولا شك أن الصدق والإخلاص يجتمعان في " الأمانة " والأمانة تتربع على قمة الهرم الأخلاقي الإنساني .  
ويجيء في سورة الفرقان آيات نيرات ، تعرض نموذجاً من الأخلاق ، تمثلت في المجتمع المسلم سلوكاً عملياً يصف الله بها عباده المنتسبين إليه ، يقول عز وجل ﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ، والذين يبيتون لربهم سجداً وقياماً ، والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ، والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾ [الفرقان: ٦٢-٦٨] .

ويقول كذلك : ﴿ والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً ، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً ﴾ [الفرقان: ٧٢-٧٣] .  
إلى أن يقول الحق في حقهم معلناً جائزتهم : ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً ، خالدين فيها حسن مستقراً ومقاماً ﴾ [الفرقان: ٧٥-٧٦] .  
باقية من الأخلاق العميقة التي تنبت في جنبات النفوس العظيمة المغيبة الراقية :  
المشي على الأرض هوناً - التواضع والسكينة - وذلك ضد الكبر والرعونة والتفاخر ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً ، كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروهاً ﴾ [الإسراء: ٢٧-٢٨] .

إن مخالطة الناس والصبر على أذاهم ، والحلم أمام رعونتهم وتجاوزاتهم أمر ليس سهلاً، يكلف المرء أعصاباً ووقتاً وجهداً ، خاصة عند ما يكون المخاطبون جهلة بسطاء ، لذلك قال تعالى ﴿ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس وبشر المحسنين ﴾ وقال لنبيه ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ وقوله ﴿ إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ﴾ قال مجاهد: معنى سلاماً : سداداً أي يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين <sup>(١)</sup> .

• ومن مقومات الأخلاق الاتزان والاعتدال في كل شيء ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾ لا إسراف ، ولا تقصير ومنع للانتفاع بنعمة المال . والإسراف والتفتير يحدثان اختلالاً في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي ،

(١) القرطبي : جزء ١٣ ، ص ٦٩ - ٧٠ .



وحبس الأموال يحدث أزمات ، ومثله إطلاقها بغير حساب ، وذلك فوق فساد القلوب والأخلاق <sup>(١)</sup> .

ويقوم القرآن أخلاقاً أخرى مهمة قال تعالى ﴿ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ﴾ توحيد الله هو أساس العقيدة الواضحة المستقيمة البسيطة خلافاً للاعتقاد الغامض الملتوي . والتخرج من قتل النفس " إلا بالحق " هو مفترق الطريق بين الحياة الاجتماعية الهانئة الآمنة ، وبين الحياة المضطربة الخائفة ، التي لا يطمئن فيها أحد ، ولا يقام له وزن .

والتخرج من الزنا كذلك هو المفترق بين الحياة النظيفة الطاهرة ، وبين الحياة الدنسة الهابطة ، التي تقوم على لذة الجسد والشهوة فقط <sup>(٢)</sup> .

وبعد الإشادة بهذه الأخلاق وتقويمها ، وإبراز نظافتها وطهارتها ، وذلك مقارنة بأخلاق الأقوام المعاندين الذين كذبوا الرسل والأنبياء ، وقد سردت السورة بعض أخلاقهم ، استهزاء بالرسول ، واتخاذ الهوى إلهاً ، وهم كذلك كالأنعام ﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٤] .

بعد هذا التركيز على الأخلاق الفاضلة ، يفتح الله باب التوبة والإنابة لمن يُحسّن أخلاقه ويقوم سلوكه ، فيبدّل الله سيئاته حسنات ، لأن التقويم العقدي والفكري ، ونتيجة لهما الأخلاقي والسلوكي ، ذا غاية ، هي : الاستقامة ، والهدى في فضاء الدنيا ، ومن ثم جائزة وخاتمة سعيدة في فضاء الآخرة ﴿ أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاماً . خالدين فيها حسنت مستقراً ومقاماً ﴾ .

\*\*\*

(١) الظلال : ج ٥ ، ص ٢٥٧٩ .

(٢) الظلال : ج ٥ ، ص ٢٥٧٩ ، بتصرف .

## **المبحث الثالث**

### **أخذ الدروس والعبر والعظات**

**وفيه مطلبان:**

**المطلب الأول : الدروس والعبر في تقويم قصص الأنبياء**

**المطلب الثاني : الدروس والعبر في مناسبات التنزيل**

## تمهيد:

الاستفادة وجلب المنفعة من جولات التقويم والنقد والحكم والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - بعد التشخيص والمعرفة - صفة العقول الحكيمة ، والفطر السليمة ، وقد قيل : " الشقي من وعظ بنفسه والسعيد من وعظ بغيره " وقد نطق بعض الأنبياء بكلمة النصح والتوجيه لأقوامهم من باب الاستفادة ، وأخذ الدرس من تجارب الآخرين وما حصل لهم . ومن ذلك قول الله عز وجل في قصة صالح عليه السلام مع قومه ﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ [الأعراف: ٦٨] . وذلك في رده على قومه عند ما وصفوه بالسفاهة .

وصفة الاعتبار والاتعاظ صفة محمودة تعانق الإدراك البشري ، والوعي الإنساني ولا تنفك عنه ، وذلك من مستلزمات رزانة العقل ، وحسن التفكير ، وعمق التفكير ، ومنطق الحكمة والرشاد " ومن يؤتى الحكمة فقد أتي خيراً كثيراً " ولا شك أن من معالم حسن الإدارة المعاصرة هو : الاستفادة مما عند الآخرين من خير ، واتقاء ما عندهم من شر ، بعد معرفة أحوالهم ، وتشخيص وتقويم أعمالهم .

وقد وردت آيات بينات للإشادة بالعبارة ، وأخذ الدروس من أحوال النفس ، وأحوال الآخرين ، فقد قال الله تعالى بعد تقويم وضع اليهود في سورة الحشر ﴿ ... فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾ [الحشر : ٢] فالاعتبار لا يكون إلا من العقلاء ، أصحاب الأبصار الواعية الناظرة بإدراك وروية ، وأصحاب البصائر الراشدة الحكيمة . قال تعالى كذلك في موطن آخر من مواطن الجهاد ﴿ قد كانت لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ﴾ [آل عمران: ١٣] وقال تعالى في قصص الأنبياء وسيرهم ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [يوسف: ١١١] .

" إن قصص القرآن الكريم هو قصص لأمر واقعة ، يساق للعبير وإعطاء المثالات ، وبيان مكان الضالين ومنزلة المهتدين ، وعاقبة الضلال وعاقبة الهداية ، وبيان ما يقوم به النبيون وورائهم كل الدعاة إلى الحق . فإذن هو قصص للعبرة لا لمجرد المتعة والتسلية ، وهذا ما يقرره الله عز وجل في كتابه حيث قال - بعد ذكر قصة يوسف - ﴿ لقد كان في

قصصهم عبرة لأولي الألباب .. ﴿ [يوسف: ١١١] <sup>(١)</sup> والقصص القرآني سفر عظيم و تاريخ مستقيم ، لأعظم شريحة بشرية نقية عابدة ، سطرت تعاليم الخالق سلوكاً في جميع جنبات الحياة ، وكانت وستبقى المثال الأكمل لبني البشر حتى قيام الساعة ، وقد مثل القصص أنواعاً متعددة من تقويم الانحرافات البشرية على مر العصور : قومت انحراف العقيدة والفكرة ، وقومت موازين الناس وعدلتها ضمن دائرة التمييز بين الخير والشر والحق والباطل ، وقومت كذلك مقومات الأخلاق ، وحسنت أسس السلوكيات والأفعال والأقوال والمعاملات في حياة الناس. ولقد مر معنا في فصول بحثنا السابقة جزءاً منها ، وسنعالج في ظلال القصص القرآني هذا المبحث من فوائد التقويم عبر المطالب التالية :

### أ) المطلب الأول : الدروس والعبر في تقويم قصص الأنبياء

الحقيقة أن قصص الأنبياء والرسل كلها عبر ودروس ، ونمثل هنا ببعضها . ففي قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه عبر ودروس ، تُستخلص من منهجية إبراهيم في تقويم عبادة أبيه ، ودعوته له إلى طريق التوحيد والهداية . يقول الله تعالى في سورة مريم : ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ، إذ قال لأبيه يأتى لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ، يا أبت إنى قد جاعني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ، يا أبت لا تبعد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصياً ، يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان ولياً ، قال أرأغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً ، قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيماً ، وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ، وأدعوا ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيماً ﴾ [مريم : ٤١-٤٨].

يبدأ إبراهيم طريق الدعوة بتقويم عقيدة أبيه، وتشخيصها بطريقة هادئة حانية (يا أبت) كلمة رقيقة مؤدبة رحيمة ، ليستميل بها قلب والده ، ويشعره بالصلة القلبية بينهما، لمزيد

(١) القصص القرآني : عماد زهير حافظ ، دار الفكر - الطبعة الأولى ١٩٩٠م - دمشق ، ص ١٣ ، وانظر المعجزة الكبرى " القرآن " : محمد أبو زهرة ، دار الفكر العربي ، ودار غريب ، القاهرة ص ١٦٢ -

من التأثير والاستجابة ، ويسلك معه الأسلوب الاستفهامي غير المباشر ، يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ، ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً (وهو استفهام إنكاري فيه معنى التوبيخ) <sup>(١)</sup> .  
وكانه يقول له : اعبد الذي إذا دعوته سمع دعائك ، وإذا أحيط بك أبصرك ، فنصرك، وإذا أنزل بك ضر دفع عنك <sup>(٢)</sup> .

ثم يستمر في تقويم الموقف ( يا أبت إنني قد جاعني من العلم ما لم يأتك ... ) ولذلك أرجو منك اتباعي حتى أدلك على الطريق المستقيم الموصل إلى نيل المطلوب والنجاة من المهروب <sup>(٣)</sup>

ثم يبين له أن طريقه معوج وهو طريق الشيطان الذي يُزين له عبادة الأصنام " يا أبت لا تعبد الشيطان ... " وهنا صيغة مبالغة في قوله " لا تعبد الشيطان " وأتى بالصيغة التي تدل على كثرة عصيانه لله للإشارة إلى أنه ينبغي الاحتراز منه كل الاحتراز <sup>(٤)</sup> .  
وتستمر القصة إلى أن يأتي رد والد إبراهيم رداً تقويمياً مضاداً " قال أراغب أنت على آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً " أنه يفاجئ أبه بهذا الاستفهام الإنكاري الذي يحمل في طياته كل التقرير والتوبيخ والتعجب <sup>(٥)</sup> .

دعاه إبراهيم للتوحيد بلطف ولين ، ورد أبوه بالتمسك بالآلهة ، جهلاً وتقليداً ، دونما دليل ، بل بالتهديد والرجم بالكلام والسب القبيح <sup>(٦)</sup> .

ونذكر بعض الدروس من تقويم إبراهيم لعقيدة أبيه وعبادته ، ورد أبيه عليه

بتقويم مضاد :

(١) انظر فتح القدير الجامع بين الرواية والدرابة في علم التفسير : علي بن محمد الشوكاني : بيروت - دار المعارف ج ٣ ، ص ٤٤٥ .

(٢) انظر تفسير الطبري : ج ٧ ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

(٣) انظر ابن كثير ج ٣ ص ١٢٣ .

(٤) انظر إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم : محمد بن محمد العمادي أبو السعود . بيروت دار إحياء التراث العربي ، ج ٥ ، ص ٢٦٧ .

(٥) انظر فتح القدير للشوكاني ، ج ٣ ، ص ٣٣٦ .

(٦) انظر تفسير الطبري ، ج ١٦ ، ص ٦٩ .

١- إن أول ما يجب أن يقوم قبل غيره هو الفكرة والعقيدة والتصور ، لما لذلك من أهمية في تقويم السلوك والتصرف البشري ، إذ العمل والجهد نتاج التصور والتفكير والاعتقاد . فبداية التقويم من الاعتقاد تسهل تقويم السلوك وتحسينه .

٢- يجب أن يعتمد التقويم على العلم والمعرفة ، ليملك المقوم رصيذاً من الحجة في إقناع الآخرين ، والتأثير في تقويم أحوالهم .

٣- لا بد أن يكون للتقويم قصد وغاية ، فهدف إبراهيم من تقويم والده هو خوفه عليه من العذاب ﴿إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن﴾ .

٤- ليس من السهل أن تتقبل النفوس البشرية النقد والتقويم ، ولذلك يحدث عندها رد فعل مضاد فتقوم بتقويم مضاد سريع ، وغالباً ما يكون ذلك عناداً وتعصباً . فالمطلوب توقع ذلك واستيعابه والصبر عليه .

٥- وتمام النتيجة بعد رد الفعل المضاد - ورد الفعل الحسن على هذا الرد المضاد- هو الالتزام بمعايير التقويم ، وعدم التراجع عنها ، ولو أدى ذلك إلى اعتزال الوالد وقومه ، كما حصل مع سيدنا إبراهيم .

ولقد استوعبت قصة موسى عليه السلام مساحة بارزة في القصص القرآني ، عرضنا لبعض أجزائها في ثنايا مواد البحث سابقاً . ونعرض هنا نمطاً منها نرى أنه يناسب موضع العبرة والعظة والدرس في هذا المطلب . وتبدأ القصة هنا مع فرعون وقومه في سورة الشعراء قال تعالى : ﴿ وإذ نادى ربك موسى أن إئت القوم الظالمين ، قوم فرعون الا ينقون ، قال رب إني أخاف أن يكذبون ﴾ إلى أن يقول الله عز وجل في نهاية القصة ﴿ وأنجينا موسى ومن معه أجمعين ، ثم أغرقنا الآخرين ، إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾ انظر الآيات من [الشعراء: ١٠-٦٧] .

تعرض الآيات قضية تقويم موسى لعقيدة فرعون وألوهيته المدعاة ، ومن ثم تقويم فرعون لموسى ورسالته ودعوته على شكل حوار طويل يُبين كل منهما فيه سلبيات الآخر وضعفه ، ويبرز تفوقه وقوته وحجته . وتختلف معايير التقويم والحكم عند كليهما ، معايير النبوة تتبع من الحق والعدل ، ورغبة الهداية والدعوة إلى الله . ومعايير الحكم والجبروت عند فرعون تتبع من الادعاء والتأله ، والانفاس الباطل ، والسيطرة على الجماهير وخذاعها ، والتلاعب بمصائرها .

وتكون النتيجة نجاة الحق وأهله ، وهلاك الباطل وأهله . ويحسن ختاماً أن نُبرز معايير التقويم عند كلا الطرفين ، لنجعلها موضع العبرة والدرس ، فذلك مقصود هذه الجولة القصصية من قصة سيدنا موسى عليه السلام .

• معايير موسى عليه السلام في دعوته لفرعون وقومه :

أ-التقويم الذاتي ومعرفة الذات والاعتراف بالطاقة والوقوف عند الحد . فقد اعترف موسى بخوفه من تكذيب وقتل قوم موسى له ، وأنه تأتبه حبسة اللسان أثناء تبليغ الدعوة . ﴿ قال رب إنني أخاف أن يكذبون، ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون ﴾ .  
ب-الاعتراف وتقويم النفس بالفعل التي فعلها وهي قتل القبطي ﴿ فوكزه موسى فقضى عليه ﴾ .

فعلت تلك الفعل وأنا بعد جاهل ، أندفع اندفاع العصبية لقومي ، لا اندفاع العقيدة التي عرفتھا اليوم بما أعطاني ربي من الحكمة <sup>(١)</sup> ﴿ قال فعلتها إذا وأنا من الضالين ﴾ .

ج- إبراز التوحيد كمعيار أساسي في الحكم على الأشياء وتقويمها وذلك عن طريق مخلوقات الله في الكون ﴿ قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون ﴾ .

د- الإتيان بالحجة والشئ المبين ، كدليل على قوة مغايرته وصحتها ﴿ قال أولو جنتك بشيء مبين ﴾ .

هـ- معيار التوكل في تقويم الموقف عند لحظات الشدة وإدراك فرعون لموسى ولحاقه به ومن معه .

• معايير فرعون في الصدود والعناد أمام دعوة موسى وحجته .

أ- الامتنان على موسى بالتربية والرعاية أثناء صغره عند ما عاش في قصر فرعون . وهو نوع من التعبير والتأثير المعنوي على موسى . وقد قابل موسى هذا الإحسان (كما هو نظر فرعون ) بفعلته الخاطئة ، وهي : قتل المصري .

ب- محاولة الاستهبال التي قام بها فرعون ﴿ قال فرعون وما رب العالمين ﴾ أنه تجاهل مفضوح مكشوف .

ج- استمالة من حوله لصفه ضد موسى ودعوته ، وذلك بوصف موسى بالجنون ، لأنه يعتدى على الآلهة المزعومة ، آلهة الآباء والأجداد ﴿ قال لمن حوله ألا تستمعون، قال ربكم ورب آبائكم الأولين ، قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ﴾ .

(١) الظلال ج ٥ ، ص ٢٥٩١ .

- د- استخدام التهديد والوعيد ، وهذه بضاعة الطغاة والجبارين الذين لا يتقنون غيرها ﴿ قال  
لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين ﴾ .
- ه- اتهام موسى بالسحر والشعوذة ، عندما بُهت أمام البينة والمعجزة . ﴿ قال للملأ حوله  
إن هذا لساحر عليم ، يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ﴾ وقد حاول  
إشراك القوم معه في الحكم على موسى بعد أن خوفهم و أبدى الحرص على مصالحهم .
- و- جمع الناس لتأليب الرأي العام على موسى ، وإعطاء السحرة ما يريدون تشجيعاً لهم ،  
واستخراجاً لخبرتهم السحرية ، فالموقف خطير والنتيجة حاسمة .
- ز- تهديد السحرة بعدما آمنوا برسالة موسى ، بعد أن أبطل الله سحرهم ، وهزمهم موسى  
ببينته ، ومعجزاته التي ظهرت عن طريق تحول عصاه إلى ثعبان مبین .
- ح- استمرار تهديد فرعون لموسى ومن معه ، ووصفهم بأنهم شرذمة قليلون . ثم أوحى الله  
لموسى أن يضرب بعصاه البحر ، فاجتازه هو وقومه ، وأغرق فرعون وقومه ،  
وكانت النجاة لموسى والغرق لفرعون . ويُختتم الدرس بأن كل ما سبق من قصة موسى  
وفرعون ما هو إلا آية من آيات الله ، وعظة من عظاته . لتكون نبراساً للسالكين ،  
ونوراً للسائرين على طريق الحق المبين ، وصراطه المستقيم ، ومنهجه القويم في دنيا  
الناس إلى يوم الدين .

### المطلب الثاني : الدروس والعبر في مناسبات التنزيل

القرآن الكريم دستور تقويمي لحياة الناس منذ آدم وحتى محمد صلى الله عليه وسلم ،  
ورد على صيغ متعددة في قصص الأنبياء ، ومناسبات تنزيل القرآن في حياة الرسول ،  
ومعالجة أحوال الجماعة المسلمة ، وذكر مقومات البناء النفسي والاجتماعي والأخلاقي  
للصف المسلم ، وغير ذلك من صيغ أخرى .

وقد عرضت سورة الحشر ما كان من أمر بني النضير معرض الاعتبار والدرس .  
ونزول السورة كان بمناسبة إجماع بني النضير كما هو معروف ، وذلك بعد نقضهم لعهد  
رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان بينه وبينهم ، عندما تأمروا على قتله بإلقاء حجر  
عليه وهشم رأسه به . فأخبره الوحي بذلك وأنجاه الله منهم .



عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس سورة الحشر؟ قال أنزلت في بني النضير .  
رواه البخاري ومسلم (١).

وعندما تنزل مناسبة ما ، لتقوم وضعا ما ، في عهد الرسالة فذلك منهج دائم ، دوام الحياة كلها ، فرسالة الإسلام ومنهجه يشكل الحلقة الأخيرة من دستور الله لعباده . ودرس الاعتبار والعظة للأجيال الحاضرة والقادمة ، هو المعنى المقصود من هذا السرد والتسجيل القرآني . فالتاريخ يعيد نفسه ، والحوادث غالباً ما تتكرر بمضامينها ، دون أشكالها وهيكلها .

قال تعالى : ﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾ [الحشر: ٢] (٢) .

"فاعتبروا يا أولى الأبصار " أي : البصائر النافذة ، والعقول الكاملة ، فإن في هذا معتبراً يعرف به صنع الله في المعاندين للحق ، المتبعين لأهوائهم ، الذين لم تنفعهم عزتهم ، ولا منعتهم قوتهم ، ولا حصنتهم حصونهم ، حين جاءهم أمر الله ، فوصل إليهم النكار بذنوبهم ، والعبرة بعموم المعنى لا بخصوص السبب . فإن هذه الآية تدل على الأمر بالاعتبار ، وهو اعتبار النظر بنظيره ، ومقياس الشيء على ما يشبهه . والتفكر فيما تضمنته الأحكام من المعاني والحكم ، التي هي محل العقل والفكرة .

وبذلك يكمل العقل ، وتتنور البصيرة ، ويزداد الإيمان ، ويحصل الفهم الحقيقي " (٣) .  
لقد اعتمد كل طرف في المناسبة على معايير في تقويم الحال ، فمعايير بني النضير هي اعتمادهم على حصونهم القوية ، وقد حسبوا أنها مانعتهم من الله ، وتشابه معيار المسلمين حينها مع معيارهم في تقويم الحال ومصدر القوة ، وحسب المسلمون أن اليهود في منعة وعزة ، ولا يمكن خروجهم من الحصون . وهذا معيار الناس -غالباً- للوهلة الأولى ، إنه ما يظهر من القوة المادية المحسوسة . ولكن معيار الحق ، معيار الإيمان لتقويم الموقف كان

(١) انظر ابن كثير : ج ٦ ، ص ٣٣٠ .

(٢) المرجع السابق : ج ٦ ، ص ٣٣٠ .

(٣) تيسير الكريم ، مرجع سابق ، ص ٧٨٨ .

---

غير هذا كله ، إنه سلاح الرعب الذي لا يُرى ولا يقاس إلا بنتائجه وآثاره ، وهو سلاح إلهي يفتك بالقلوب مصدر العزم والقوة فيُحيلها إلى خواء وضعف . ثم كان بعد ذلك تخريب البيوت بأيدي أصحابها ، وأيدي المسلمين . إنه درس الإيمان والتصور السليم في تقويم الظروف والأحوال . ثبته القرآن ليكون عبرة ومعلماً ، لتصح بذلك الموازين ، وتعتدل ، المعايير ، ويقس الناس بالمقياس الصحيح .

\*\*\*

**المبحث الرابع**  
**إشاعة الشورى والحوار**

## المبحث الرابع إشاعة الشورى والحوار

الحرية في التصور الإسلامي عافية وسعادة ، طمأنينة ونماء ، عز و إرادة، مسئولية واهتداء . وذلك على مستوى الأفراد والجماعات والشعوب. ومرتكز ذلك قول الله تعالى ﴿ لست عليهم بمسيطر ﴾ وقوله ﴿ لا إكراه في الدين ﴾ والأنبياء لم يرسلوا مسيطرين مُجبرين، بل أرسلوا دعاة مبشرين . وقد قدموا أروع الأمثلة في التأكيد على حرية الاختيار، وتزيين المعتقد والرسالة للناس ، ذلك ما لم يقف الجبارون والعتاة أمام دعوة الحق والهدى في أن تنتشر بين الشعوب والأقوام والأمم . وقد أكد ذلك الرسول الخاتم صلى الله عليه وسلم في حوارهِ ومناقشته مع المشركين في مواقف دعوية كثيرة .

ومن مستلزمات مفهوم الحرية مبدأ الشورى والحوار ، وتبادل الآراء التي يعقبها نضوج رأي ، وتكامل صورة ، وارتياح نفوس . ثم قرار يتبعه عمل ، فإنجاز فوصول للهدف والغاية .

ويقرر منهج التقويم القرآني في إحدى نتائجه مبدأ الشورى والحوار ، والسماع من الآخر. وظاهر أن التقويم في أصله ما هو إلا حوار ومتابعة ، ووقفة أمام المقدمات والمدخلات ، لمعرفة النتائج والمخرجات ، ليكون الحكم والتشخيص ، ومن ثم التقويم والتعديل .

وإذا شاع هذا المنهج في منظومات الفكر تنظيراً ، والعمل والتخطيط تنفيذاً ، فإن ذلك من شأنه أن يضاعف الإنتاج ، ويقدح العقول ، ويسعد الأرواح والنفوس ، فتزداد الثقة ويلتحم البنيان ويتعاضم الولاء ، وتُتمنّ التضحية ، وتُقدم بكل راحة وانسراح .

والعكس يحصل عندما تضرر الشورى وتخفت الآراء ، وتذوي المحاورات ، فيتحرك الناس دفعاً على وجوههم، وتكثر بذلك الشكاوى وتتعدد الجيوب ، ويدب الشك وتترعرع الريبة ، ويعقب ذلك موت الإرادات والأرواح، فتحتضر الكفاءات ، وتغيب التخصصات ، وتبهت الأهداف والغايات، ويكون الميزان " اللهم نفسي".

ولقد حُفرت مقولة الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه بماء الذهب على مر العصور والأزمان ، وأصبحت قانوناً يحترمه المسلمون وغير

المسلمين ، لما تحمله من معان راقية ، ومفاهيم سامقة ، قصرت عنها كل دساتير  
البشر وقوانينهم ، في معنى الحرية والكرامة الإنسانية .

قالها لحاكم مصر وفتحها عمرو بن العاص رضي الله عنه ، قالها انتصاراً لنصراني  
قبطي مصري " يا ابن العاص متى استعبدتم الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " .

ولقد تأثر غيرنا من الغربيين بهذه المقولة العظيمة ، التي تعمق احترام الحرية  
والحقوق الإنسانية للناس كل الناس . إن مما يؤكد تأثر الفكر السياسي والقانوني العالمي في  
منطلقاته الأساسية ومبادئه العامة من حيث جوهر المسألة الإنسانية بالأصول الإسلامية ، أن  
المادة الأولى في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان تكاد تكون ترجمة لقول الخليفة الراشد  
عمر بن الخطاب رضي الله عنه " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " .

إذ تقول المادة الأولى من هذا الإعلان بالحرف " يولد جميع الناس أحراراً ومتساوين  
في الكرامة والحقوق ، وهم قد وهبوا العقل والوجدان ، وعليهم أن يعاملوا بعضهم بعضاً  
بروح الإخاء " (١) .

ومن المواقف القرآنية التكوينية ضمن تربية القرآن الميدانية التي أورثت الحض على  
الشورى ، وإشاعة جو الحوار والنقاش ، ما حدث من تقويم لمعركة أحد ، هذه المعركة  
التي عالجها القرآن معالجة شاملة صريحة ، وقومها تقويماً واضحاً ، أظهر مكونات النفس  
البشرية بصفتيها ، صفحة السواد في جانب السلب ، وصفحة البياض في جانب الإيجاب ،  
قال تعالى :

﴿ حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من  
يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ﴾ وقال سبحانه ﴿ ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمانة نعاساً  
يعشي طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ﴾ إلى أن  
يقول عز وجل ، وهذا شاهدنا في هذا المبحث ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً  
غليظ القلب لانفضوا من حولكم فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت  
فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

ومتيقن أن المعركة ونتائجها أحدثت جواً من الأخذ والرد ، والتحاور والتقويم  
والتوصيف ، وما إلى ذلك مما يعقب الأحداث العظيمة ، والمواقف المزلزلة - وقد أورد  
القرآن جزءاً من ذلك - ولكن الدرس البالغ ، والنتيجة البارزة لهذا الجو ، ولهذه المنهجية

(١) جريدة الفرقان الأسبوعية الكويتية : إحياء التراث الإسلامي / الكويت ، العدد ١٦٤ ، ص ٢ .

القرآنية في التقويم ، هو حض الرسول صلى الله عليه وسلم على اللين والرحمة والعتف والاسْتغْفار ، ثم المشاورة التي تُنتج العزم والإرادة ، ومن ثم التوكل على الله ، الذي فيه حب الله للمتوكلين .

﴿ وشاورهم في الأمر ﴾ ما كانت لتكون إلا تأكيداً على هذا المبدأ العظيم ، إذ لقد شاور الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه قبل الخروج للمعركة كما هو معروف ، فأشاروا عليه بالخروج لمقابلة القوم ، مع أن رغبته كانت التحصن في المدينة ، ورغم أن نتيجة الشورى كانت سلبية ، إلا أن المبدأ محترم ، ويجب أن يُصان ولو أخطأ فيه أهله أحياناً .

ولصاحب الظلال تعليقات مناسبة عند الكلام على مبدأ الشورى في الآية السابقة يقول: ونجد أصل النظام الذي تقوم عليه الحياة الإسلامية - وهو الشورى يؤمر به في الموضوع الذي كان للشورى - في ظاهر الأمر - نتائج مريرة ! ونجد مع مبدأ الشورى مبدأ الحزم والمضي - بعد الشورى - في مضاء وحسم ، ونجد حقيقة التوكل على الله - إلى جانب الشورى والمضاء - حيث تتكامل الأسس التصورية والحركية والتنظيمية . ثم يقول " ثم يدعو أن يعفو عنهم ، ويستغفر الله لهم ، وأن يشاورهم في الأمر كما كان يشاورهم ، غير متأثر بنتائج الموقف لإبطال هذا المبدأ الأساسي في الحياة الإسلامية ، إلى أن يقول : " لقد كان من حق القيادة النبوية ، أن تنبذ مبدأ الشورى كله بعد المعركة أمام ما أحدثته من انقسام في الصفوف في أخرج الظروف ، وأمام النتائج المريرة التي انتهت . وكان الله يعلم أن خير وسيلة لتربية الأمم وإعدادها للقيادة الرشيدة ، أن تربي بالشورى ، وأن تدرب على حمل التبعة ، وأن تخطيء - مهما يكن الخطأ جسيماً وذا نتائج مريرة - لتعرف كيف تصحح خطأها ، وكيف تحتمل تبعات رأيها ، إذا كانت الحصيلة هي إنشاء الأمة المدربة المدركة المقدرة للتبعة (1) .

\*\*\*

(1) الظلال ، ج ١ ، ص ٤٩٤-٤٩٦ .

# الفصل الرابع

## أساليب التقويم

# الفصل الرابع

## أساليب التقويم

وفيه أربعة مباحث:

**المبحث الأول : الملاحظة والمعاشنة**

**المبحث الثاني: التشبيه وضرب الأمثال**

**المبحث الثالث: السجل التاريخي ، وفيه مطلبان :**

المطلب الأول: سجل أهل الكتاب وتقويم القرآن لهم

المطلب الثاني : سجل المشركين والمنافقين :

**المبحث الرابع: الإحصاء والتقدير الميداني ، وفيه مطلبان :**

المطلب الأول : التقرير والكشف الميداني

المطلب الثاني : الإحصاء ودقة الحساب



## تمهيد:

التقويم في القرآن منهج أصيل يقوم على أسس وقواعد ويدخل في عدة مجالات وجوانب وهو ذا غاية وهدف وقد ظهر ذلك في فصول البحث السالفة ، وهو كذلك يقوم على تنويع الأساليب التقويمية ، إذ لا يقتصر على أسلوب بعينه ، إنما يستعمل الأسلوب التقويمي المناسب حسب الموقف التقويمي محل النظر والاهتمام . وبذلك نؤكد أن التقويم ليس هدفاً بحد ذاته ، إنما هو وسيلة ، أو عدة وسائل حسب مواقفها للوصول إلى غاية ومقصد خير يطور الموقف ، أو الحالة أو الشخص إلى أحسن مما هو عليه ، وصولاً لما قد يصل إليه الأمر من مراتب الكمال والعلو .

ولقد استخدم العلم الحديث في مجال التقويم التربوي ، والتقويم الإداري وغيرها من أنواع التقويم، أساليب متعددة ، منها : المقابلة والملاحظة ، والاستبانة والامتحانات ، والحصر والتحليل وغير ذلك <sup>(١)</sup> وتكلمت عن ذلك مؤلفات متخصصة مفصلة لهذه الأساليب. إننا نستطيع من خلال نظرنا في القرآن الكريم أن نطرق هذا الفصل في المباحث التالية :

---

(١) انظر القياس والتقويم في العملية التدريسية : أ.د. أحمد عودة . دار الأمل - الأردن ط ٢ ، ١٩٩٣م ، ص ٢٠٤-٢٠٥ .

**المبحث الأول**

**الملاحظة والمعاشية**

## المبحث الأول الملاحظة والمعاشة

الملاحظة والمعاشة والخبرة الميدانية أسلوب تقويمي عملي ميداني ، يقوم على مشاهدة المقوم مباشرة دون واسطة ، وبذلك تشترك فيه أدوات التقويم الرئيسية التي ذكرتها الآية الكريمة في معرض التثبيت ، والتبين عند التقويم ، وهي قوله تعالى :

﴿ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً﴾  
فبالمشاهدة والمعاشة يستعمل الإنسان فيها أهم حواسه وأدواته في التبصر والنظر والحكم والتقويم . ويتعرف على المقوم في أكثر من موقف وحالة بالإضافة إلى سنة الله تعالى الجارية في تغيير القلوب وتبدل النفوس ، فإن مجمل الظروف الحياتية وتغير الزمان ، وتقلب الإنسان فيها ما بين طاعة ومعصية ، وشدة ورخاء ، وفقر وغنى ، وعزوبة وزواج ، وتلمذة وتخرج ، واستيطان وتغرب ، وحرية وقيود ، وفرج وتوح ، كل ذلك - ولاشك - يؤدي إلى تغير الإنسان بخصائصه النفسية والروحية . ويدرك ذلك أيضاً من بعض عبارات المحدثين الذين يروون عن شخص قبل اختلاله ، ويضربون على أحاديثه بعدها ، أو يوثقون روايته وهو في بلد ، مع تضعيف غيرها ، وما قد يأخذون في رواية محدث عن شيخ ما ، ويتركون روايته عن غيره وهكذا " (١) .

ومن المواقف المعبرة عن منهجية التقويم على أسلوب الملاحظة والمعاشة ، ما ورد في قصة سيدنا يوسف عليه السلام في سورة يوسف عند مرحلة من مراحل حياته عبر مسيرتها الطويلة المتنوعة ، وهي مرحلة معاشة الغلامين أثناء السجن . وقد ذكرنا بعضاً من ذلك كشاهد على تقويمه لعقيدة الغلامين ، ونذكر نفس الموقف كشاهد على تقويم الغلامين له عبر الاختلاط به والاحتكاك معه . يقول الله تعالى : ﴿ ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين ﴾ [يوسف: ٣٦] .

(١) التقويم الدعوي : أ.د. عبد الله يوسف الحسن : الرسالة الثالثة ، دار المنطلق بدبي ط ١ ، ١٩٩٢م ،

وقد ورد في بعض التفاسير أن تقويم الغلامين ليوسف بأنه من المحسنين ، كان نتيجة معاشته ومعرفة أخلاقه وصفاته الحميدة ، وما ظهر من صلاحه وإحسانه . مما وجه إليه الأنظار ، وجعله موضع ثقة المساجين . وقد كان يعود المرضى ، ويعزي الحزانى ، ويجمع للمحتاجين ، وهو من أهل العلم والعمل (١) .

وقد سأل عمر بن الخطاب رجلاً عن غيره ، قال أ تعرف فلاناً قال : أعرفه . قال عمر : هل سافرت معه . قال الرجل : لا . قال : هل عاملته بالدرهم والدينار ؟ قال : لا . قال : إذن أنت لا تعرفه . وهي قصة " حصلت أم لم تحصل " ذات دلالة على عمق فهم سيدنا عمر على أهمية أسلوب المعاشة ، والتجربة في معرفة الرجال ، وتقويمهم ، ومعرفة مكانتهم .

ويمكن للجماعة المسلمة وأميرها أن تسلك طريق الاختبار والامتحان بواسطة التكليف بالمهمات الخاصة ، وبمراقبة تنفيذ التكليف الدعوية ، والنظر إلى الممارسات الدعوية للداعية . وكذلك فإن معرفة تاريخه من خلال عمله هو نوع من الاختبار بالممارسة (٢) .

ويتناول التقويم عن طريق المعاشة جانبي التضعيف والتوثيق ، وبذلك تظهر الموضوعية والموازنة ، لذلك " يجب أن يكون التوثيق موضوعياً يُبنى على الخبرة والتجربة ، وعلى شهادات الاستفاضة ، أو على توثيق العدول من أصحاب الخلطة مع من يجري توثيقه . ومن أهم أنواع الخلطة التعامل اليومي مع ما يتضمن من تعامل بالدرهم والدينار ، والخلطة بالجوار ، وما يقاس عليه من خلطة العمل بنوعيه المهني والدعوي . وكذلك الخلطة بالأسفار . وما يشابهه من خروج الخلاء والرحلات ، والسفريات العائلية والسياحية إلى أقطار أخرى . إذ أن مثل هذه الأمور هي التي تكشف الإنسان على حقيقته " (٣) .

وتعرض سورة البقرة وصلة من معاشة موسى عليه السلام مع قومه في حادث البقرة ، التي أمرهم الله بذبحها كنوع من تقويم الله لصدقهم ، واختباره لطاعتهم واستقامتهم . وذلك بعد جولة طويلة من مماطلتهم ، وانحرافاتهم العقديّة والسلوكية في عبادة العجل ، وعدم صبرهم على طعام واحد ، واعتداءهم يوم السبت . يقول الله تعالى :

(١) انظر الظلال: ج ٤ ، ص ١٩٨٧ . وانظر القرطبي : جزء ٩ ، ص ١٩٠ .

(٢) التقويم الدعوي : مرجع سابق ، ص ١٢ .

(٣) المرجع السابق : ص ٣٥ .

﴿ وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أ اتخذنا هزواً قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك فافعلوا ما تأمرون ﴾ إلى أن يقول الله في حقهم ﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ [البقرة: ٦٧-٧٤] .

والآيات تظهر ملاحظة موسى ومعايشته لقومه في قصة البقرة . وتتم المناقشة بل للجاجاة والجدال من طرفهم ، والتتطع في التضييق على أنفسهم بذبح البقرة ، فطلبوا أوصافاً بعد أخرى حتى ضاق الأمر عليهم بعدما اتسع . واستعملوا أساليب جاهلة غير مؤدبة مع نبي الله موسى ، ثم ختم الله تقويمهم ووصفهم بأن قلوبهم قاسية جامدة لا ندامة فيها ولا حياة . فالحجر يقل عنها قساوة ، لأنه يشقق منه الماء . والجدلية من طبائع اليهود التي يجب أن تعرفها الأمة المسلمة، وقد قرعهم الله على الاستهزاء وترك الامتثال ، وقرعهم على قتل النفس المحرمة إلا بالحق . وقيل إن ذلك منهم على جهة الغلظة الطبيعية ، والجفاء والمعصية ، على نحو ما قال القائل للنبي صلى الله عليه وسلم في قسمة غنائم حنين : إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله . وكما قال له الآخر : اعدل يا محمد ، وفي هذا كله أول دليل على قبح الجهل وأنه مفسد للدين " (١) .

وسيدنا موسى قد عايش هؤلاء القوم (بنبي إسرائيل) وعرف أخلاقهم ، ومنحنيات نفوسهم ، وطبائعهم وجبالاتهم . وقد تكفل الله عز وجل بتقويمهم ، بناء على معايشتهم لنبيهم، وخبرته بهم ، وكأنما حصل ذلك تشنيعاً من الله لفعلهم وصفاتهم ، ورعاية لنبيه ودفاعه عز وجل عنه ، ومن ثم تحذيراً لأهل القرآن والإيمان من مثل هذه الصفات التي ظهرت عن تجربة ومعايشة . فالمعايشة والاحتكاك تظهران التقويم الصحيح ، والوصف الوافي .

\*\*\*

(١) انظر الأساس: ج ١ ص ١٥٨-١٥٩ . وانظر الظلال : ج ١ ص ٧١-٧٤ . وانظر القرطبي جزء ١

**المبحث الثاني**

**التشبيه وضرب الأمثال**

## المبحث الثاني

### التشبيه وضرب الأمثال

تقويم الأشياء والحكم عليها وبيان قيمتها وتصنيفها عن طريق التشبيه والأمثال أسلوب دقيق شيق، تتفاعل معه النفس البشرية نفسياً وعقلياً فهو يرضي النفس ويريحها، ويقنع العقل وينميها. ولذلك ظهرت الأمثال والتشابه وأصبحت ضرباً من ضروب الحكمة والرشد. وما من شعب ولا جنس على وجه الأرض إلا وله من الأمثال والتشابه المنوعات العديدة التي تغطي كل مناحي حياته. ولقد اشتهر أهل العربية بذلك أيما اشتهار، وخاصة الشعراء والحكماء منهم. ويغطي هذا النمط من الأساليب الفضائل والقبائح، في حياة الناس على حد سواء. ويأتي في جانب التجريح، كما أنه يعالج جانب التعديل. ويشكل بذلك كنزاً ثميناً من رصيد الشعوب والأمم تتباهى به وتفتخر. والمثل كذلك قول سائر، يُستعار للحال والصفة والقصة، وهو للكشف وتتميم المعنى (١).

وإننا لنجد أن القرآن الكريم قد تناول هذا الأسلوب واستعمله في منهجية التقويم على أكثر من لون، وبنوع من التوازن والشمول في شتى المواقف والمناسبات والمجالات. قال الله تعالى: ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [العنكبوت: ٥٣] فالقرآن يضرب الأمثال للناس ومن واقع الناس، للتفكر بها وعقلها والاستفادة منها، ويقول كذلك ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ [الكهف: ٥٤]. ونعرض هنا بعض مواقف التقويم على طريقة ضرب المثل حسب بعض الآيات، قال تعالى:

﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين، مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صم بكم عمي فهم لا يرجعون، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين، يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شيء قدير ﴾ [البقرة: ١٧-٢٠].

(١) انظر الأساس: ج ١، ص ٧٤.

عرضت مقدمة سورة البقرة لتقويم أصناف ثلاثة ، المتقين والكافرين والمنافقين . وكان نصيب المنافقين من التقويم أكثر من غيرهم ، فهم شريحة متلونة متعبة تختلط ظواهرها ببواطنها ، لا تكاد تستقر على حال . مشوشة التفكير قلقة النفوس ، مخدولة في حالها خاذلة لغيرها . لذلك نجد أن الله قد قومهم بتمثيل معبر عميق .

يضرب الله لنا مثلين نعرف بهما حال المنافقين معرفة تامة :

المثل الأول : لنوع من المنافقين وصلوا إلى النفاق الخالص بعد أن كانوا مؤمنين ،

والمثل الثاني : لنوع من المنافقين لا زالوا مترددين .

وكل ذلك عبر التمثيل ، فالمثل الأول : للصنف الأول كمن أوقد ناراً فلما أضاءت له

ما حوله ، وانتفع بها انطفأت وعاد إليه ظلامه ، وأصبح لا يسمع ولا يتكلم ولا يرى .

وهذه حالة المنافق يرجع إلى الضلال والظلام بعد أن تذوق الإيمان واستضاء بنوره .

والمثل الثاني : كمثل أصحاب مطر نزل من السماء في حال الظلمات ، وهي :

الشكوك والشبهات ، ورعد ، وهو : ما يزعج القلوب من الخوف ، وبرق ، وهو : ما يلمع

في قلوب ذلك الضرب من المنافقين في بعض الأحيان من نور الإيمان .

وقد شبه الإسلام بالصيب (أي المطر) لأنه يحيى النفوس والقلوب ، وشبه الشبهات

والشكوك بالظلمات في قلب المنافق (١) .

ويمكن أن يكون المعنى العام للمثال المضروب لتقويم المنافقين "وذلك أن ما

يظهرونه من الإيمان الذي تثبت لهم به أحكام المسلمين من المناكح والتوارث ، والغنائم

والأمن على أنفسهم وأولادهم وأموالهم ، بمثابة من أوقد ناراً في ليلة مظلمة فاستضاء

بها ، ورأى ما ينبغي أن يتقيه وأمن منه ، فإذا طفنت عنه أو ذهب ، وصل إليه الأذى

وبقي متحيراً ، فكذلك المنافقون لما آمنوا اغتروا بكلمة الإسلام ، ثم يصيرون بعد الموت

إلى العذاب الأليم " (٢) .

ومن المقارنات التقويمية الموحية في ضرب المثال والتشبيه ما عرضه الله في سورة

آل عمران - بعد جولة طويلة في قصص الأنبياء - من قصة مولد مريم ابنة عمران ،

ويحيى ابن زكريا ، ومولد عيسى ابن مريم ، وما سطره القرآن من حقائق ربانية تبين

طهارة الجميع وإبداع خلق الله لهم . ورد كل الشبهات المثارة في هذا المجال ، وما تضرع

(١) انظر الأساس : ج ١ ، ص ٧٣-٧٥ .

(٢) انظر القرطبي جزء ١ ، ص ٢١٣ .



به أنبياء الله من دعاء ولجوء إلى ربهم ، وما استغربوه من خلق الله فيما لم يألفوه . وتأتي الآية التي تقوم حقيقة خلق آدم من تراب بلا أب ولا أم .

يقول الله تعالى : ﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ، الحق من ربك فلا تكن من الممترين ﴾ [آل عمران: ٥٩-٦٠] .

لقد شاء الله أن يبدأ خلق آدم من تراب - سواء كان جبلة مباشرة من التراب أو جبل السلالة الأولى التي انتهت إليه من تراب - فإن هذا لا يقدم ولا يؤخر في طبيعة السر الذي لا يعلمه إلا الله . سر الحياة التي لا بست أول مخلوق حي .

المهم هنا أن الله يخبرنا عن نشأة سر الحياة ، وإن لم ندرك طبيعة هذا السر ، وكيفية نفخه في الموات . وقد شاء الله - بعد نشأة آدم نشأة ذاتية مباشرة- أن يجعل لإعادة النشأة الإنسانية طريقاً معيناً . طريق التقاء ذكر وأنثى، و اجتماع بويضة وخلية تذكير . فيتم الإخصاب ، ويتم الانسال ، والبويضة حية غير مية، والخلية حية كذلك متحركة . ومضى مألوف الناس على هذه القاعدة ، حتى شاء الله أن يخرق هذه القاعدة المختارة في فرد من بني الإنسان فينشئه نشأة قريبة وشبيهة بالنشأة الأولى . وإن لم تكن مثلها تماماً ، إنما عن طريق أنثى فقط تتلقى النفخة التي تنشئ الحياة ابتداء ، فتنشأ فيها الحياة .

إن ولادة عيسى عجيبة حقاً بالقياس إلى مألوف البشر . ولكن أية غرابة فيها حين تقاس إلى خلق أم أبي البشر ؟

وأهل الكتاب الذين كانوا يناظرون ويجادلون حول عيسى - بسبب مولده - ويصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ من غير أب ... أهل الكتاب كانوا يقررون بنشأة آدم من التراب ، وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه هذا الكائن الإنساني ، دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير التي صاغوها حول عيسى . ودون أن يقولوا عن آدم : إن له طبيعة لاهوتية . على حين أن العنصر الذي به صار آدم إنساناً هو ذاته العنصر الذي به ولد عيسى به من غير أب ، عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك وإن هي إلا الكلمة : " كن " تنشئ من تراد له النشأة " فيكون " .

وعندما يصل السياق بالقضية إلى هذا التقرير الواضح يتجه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يثبت على الحق الذي معه ، والذي يتلى عليه ويؤكد في حسه كما يؤكد في حس من حوله من المسلمين ، الذين ربما تؤثر في بعضهم شبّهات أهل الكتاب ، وتلبسهم

وتضليلهم الخبيث . وما كان الرسول صلى الله عليه وسلم ممترباً ولا شاكاً فيما يتلوه عليه ربه ، في لحظة من لحظات حياته ، وإنما هو التثبيت على الحق <sup>(١)</sup> .

مكانة عظيمة وقيمة جلية يعطيها القرآن للسيد المسيح -عليه السلام- عندما عقد بينه وبين سيد البشر آدم -عليه السلام- مقارنة تتجلى في أصل الخلق والإيجاد ، وتتجلى في أصل التكليف والرسالة. فآدم بدأ المهمة بعد نزوله إلى الأرض يقود المعركة ضد إبليس ورهطه ، وعيسى أكمل المشوار بعد أن اصطفاه الله كإخوانه من الأنبياء والرسل .بينما تجد بنو إسرائيل (وعيسى أحد أنبيائهم ) قد عاشوا محنة الريبة والشك والتلفيق في نبوة عيسى ، وكالوا له الشبهات واختلفوا فيه ، وأرادوا صلبه ولكن الله رفعه إليه . ومن ثم جعله بعضهم إلهاً وبعضهم جعله ابن الله ... الخ . فشتان شتان بين تقويم الله وعباده المؤمنين لعيسى عليه السلام المعتمد على معايير الاحترام والتقدير والنبوة البشرية . وبين معايير اليهود والنصارى في الحكم على عيسى وتقويم وضعه. فليت القوم يفقهون وليتهم يعدلون .

ونمط آخر من أنماط التقويم على أسلوب المثال في إبراز قيمة الإنفاق وتقويمها ومكانتها والحكم عليها أظهرته سورة البقرة ، يقول الله تعالى :

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبئت سبع سنابل في كل سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ [البقرة: ٢٦١] .

ونموذج آخر للإنفاق في سبيل الله ، ما ذا يساوي ، وما هي قيمته ، وما ذا يعدل عند الله ، وبماذا يشبهه؟ يظهر بقول الله تعالى : ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴾ [البقرة: ٢٦٥] .

والآيتان تدلان بشكل عام على قيمة الإنفاق في سبيل الله وابتغاء مرضاته ، فهو مضاعف الأجر والثواب كما هي الحبة التي تنبت سبع سنابل ، في كل سنبله مائة حبة ، ثم يضاعف الله ذلك لمن يشاء . وكما هو البستان في أعلى المرتفع طيب المنبت والثمار ، فإن جاءه وابل (مطر غزير) تضاعفت ثماره . وإلا فيكفيها القليل من المطر. فهذه قيمة ووزن الأعمال الصالحة على معيار مرضاة الله مضاعفة مباركة مزكاة مقبولة.

(١) انظر الظلال : ج ١ ، ص ٣٩١ - ٣٩٢ و ٣٩٨ - ٣٩٩ .

وفي ذلك إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها ، كما ينمي الزرع من بذره في الأرض الطيبة . ثم بين الله عز وجل أنه يضاعف الحسنات لمن يشاء بحسب إخلاصه بعمله . وكذلك مثل الله عز وجل نفقة هؤلاء في زكاتها عند الله بمثل هذه الجنة ، إما أنها تؤتي أكلها ضعفين بسبب الوابل ، أو تؤتي أكلها العادي بسبب الطل ، أو أنه جل جلاله مثل حالهم عند الله ، بالجنة على الربوة ، ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالوابل والطل . وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة ، فكذلك نفقتهم - كانت كثيرة أو قليلة - بعد أن يطلب بها رضى الله تعالى ، زاكية عند الله ، زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده " (١)

وفي مقابل قيمة الإنفاق في سبيل الله ومضاعفتها وتزكيتها ، وتمثيلها بسنابل الخير والبستان والمطر والطل ووفرة الثمار ، تُذكر صورة سلبية أخرى للإنفاق مردولة القيمة ، محققة النماء والبركة ، وذلك قول الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴾ [البقرة: ٢٦٤] .

ونحن هنا أمام قلب صلد ﴿ كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ فهو لا يستشعر نداوة الإيمان وبشاشته ، ولكنه يغطي هذه الصلادة بغشاء من الرياء . هذا القلب الصلد المغشي بالرياء يمثله "صفوان عليه تراب" حجر لا خصب فيه ولا ليونة ، يغطيه تراب خفيف يحجب صلادته عن العين ، كما أن الرياء يحجب صلادة القلب الخالي من الإيمان .

﴿ فأصابه وابل فتركه صلداً ﴾ وذهب المطر الغزير بالتراب القليل ! فانكشف الحجر بجذبه وقساوته ، ولم ينبت زرعة ، ولم يثمر ثمرة .... كذلك القلب الذي أنفق ماله رياء الناس ، فلم يثمر خيراً ، ولم يعقب مثوبة ! " (٢) .

إذن فلا قيمة ولا وزن للإنفاق ( ولو كان كبير الحجم ) مع المن والأذى ورياء الناس وعدم الإيمان بالله واليوم الآخر .

(١) انظر الأساس : ج ١ ، ص ٦١٣ و ٦١٧-٦١٨ .

(٢) الظلال : ج ١ ، ص ٣٠٢-٣٠٣ .

وتتعدد مشاهد التقويم على صورة التشبيه والتمثيل ، يقول الله تعالى في تقويم المعرض عن آيات الله ودينه وانسلاخه من ذلك ﴿ وائل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض وأتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ، ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٧] .

ويأتي هذا العرض الموحى ، والتقويم المعبر بالتصوير التمثيلي، بعد إسهاد الله على عباده بالإيمان والطاعة، على أساس الفطرة الأولى عندما كانوا في عالم الذر والمجهول . وشهدوا أنهم عباده لا محالة، ثم تتحرف الفطرة ويضل العقل . ويأتي هذا التقويم ليستمر في توضيح صورة الانحراف بمثال باهر مقنع ، لوضع الأمر على الجادة وليعرف المنسلخ بقيمته ومكانته .

وقد وردت روايات كثيرة في من هو المنسلخ من آيات الله . وأشهرها ما أورده ابن كثير عن عبد الله بن عمرو قال : هو صاحبكم أمية بن أبي الصلت ، وكأنه إنما أراد أن أمية بن أبي الصلت يشبهه فإنه كان اتصل إليه علم كثير من علم الشرائع المتقدمة ، ولكنه لم ينتفع بعلمه . فإنه أدرك زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغه أعلامه وآياته ومعجزاته، وظهرت لكل من له بصيرة . ومع هذا اجتمع به ولم يتبعه ، وصار إلى موالة المشركين ومناصرتهم وامتداحهم ، ورثى أهل بدر بمرثاة بليغة قبجه الله (١) .

قال ابن جريج : الكلب منقطع الفؤاد ، لا فؤاد له ، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، كذلك الذي يترك الهوى لا فؤاد له ، إنما فؤاده منقطع . وقال القُتَيْبِيُّ : فضربه الله مثلاً لمن كذب بآياته ، فقال : إن وعظته ضلّ ، وإن تركته ضلّ . فهو كالكلب إن تركته لهث وإن طردته لهث (٢) .

ثم بعد هذا التشبيه المُذَلِّ، من مرتبة أكرم الخلق وأعزهم ، إلى مستوى حيوان مطموس الفؤاد ، لاهناً في كل حال . بعد هذا ﴿ ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ وهل أسوأ من هذا المثل مثلاً؟ وهل أسوأ من الانسلاخ والتعري من الهدى ؟ وهل أسوأ من اللصوق بالأرض وأتباع الهوى ؟ وهل يظلم الإنسان نفسه كما يظلمها من

(١) ابن كثير : ج ٢ ، ص ٢٥٤ .

(٢) القرطبي : جزء ٧ ، ص ٣٢٢ .

يصنع بها هكذا ؟ من يعريها من الغطاء الواقى والدرع الحامى ، ويدعها عرضاً للشيطان يلزمها ويركبها ، ويهبط بها إلى عالم الحيوان اللاصق بالأرض الحائر القلق ، واللاهث لهاث الكلب أبداً ؟

إنه مثل لكل من آتاه الله من علم الله ، فلم ينتفع بهذا العلم ، ولم يستقم على طريق الإيمان ، وانسلخ من نعمة الله ، ليصبح تابعاً ذليلاً للشيطان ولينتهي إلى المسخ في مرتبة الحيوان (١) .

ومفردات هذا التقويم في هذا المثل للمنسلخ من آيات الله يتمثل في :

١- أنه نبأ وقصص قد حدث في الماضي ويؤخذ هنا عبرة واتعاضاً وتفكيراً ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ .

٢- إن الإيمان بآيات الله وتوحيده فطرة مركوزة في كيان الإنسان لا تنفك عنه ، وتكبتها يتم كمن ينسلخ من جلده - الذي يلصق به أشد الالتصاق - بصعوبة وشدة .

٣- مقومات الانسلاخ وأسبابه : أتباع الشيطان ، الغواية والميل ، الإخلاق إلى الأرض (ثقله الطين) وترك الارتفاع والعلو ، إتباع الهوى ، ظلم النفس والكذب عليها .

فهذه إذا قيمة ومكانة ووزن الشارد عن آيات الله اللاهث خلف دنياه ، حيوان مهان لاهث كلب دنيا .

والحياة الدنيا كلها وما فيها ومن فيها هي كذلك موضع التقويم ، والحكم والتمثيل ،

والتشبيه القرآني لمعرفة قيمتها وقدرها عند أهلها ، وعند الله عزوجل . يقول الله تعالى :

﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق يا أيها الناس إنما بغىكم على

أنفسكم متاع الحياة الدنيا ثم إلينا مرجعكم فننبئكم بما كنتم تعملون ، إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وزينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كان لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ، والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ [يونس: ٢٣-٢٥] .

(١) الظلال : ج ٣ ص ١٣٩٧-١٣٩٨ .

ضرب تبارك وتعالى مثلاً لزهرة الحياة الدنيا وزينتها وسرعة انقضائها وزوالها ،  
بالنبات الذي أخرجه الله من الأرض بماء أنزل من السماء ، مما يأكل الناس من زروع  
وثمار على اختلاف أنواعها وأصنافها ، وما تأكل الأنعام من أب وقضب وغير ذلك " (١) .  
وقد عرضت الآيات قبل هذا المثل صنوفاً من سلوكيات الإنسان السلبية فهو يكرر بعد  
أن أذاقه الله الرحمة إثر ضراء مسته ، وهو يبغى في الأرض بعدما دعا الله النجاة من  
موج البحر وعاصفته ، وقد وعد أن يكون شاكرًا لله إذا نجاه الله . وكل هذه السلوكيات بغى  
على النفس ، ومَتاع الحياة الدنيا . ولذلك جاء تشبيه الحياة الدنيا بهذا ومعنى الآية : التشبيه  
والتمثيل ، أي صفة الحياة الدنيا في فنائها وزوالها وقلة خطرهما والملاذ بها كماء ، أي مثل  
ماء " (٢) .

والتقويم هنا عميق وحاسم أمام قيم الإنسان وموازينه المادية ، واغتراره بنفسه ،  
وبالحياة من حوله ، عند تزينها وإقبالها وتضامخ ملذاتها وبهجتها . ولكنها فجأة على غير ظن  
مقدرة أهلها عليها يأتيها أمر مدبر الكون ، فنكون كأن لم تغن بالأمس . فهل نقوم الأمور  
بحقيقتها ونقدرها بقدرها ، ونزنها بحجمها ، ولو كانت الدنيا كلها؟.

ويعرض الله عز وجل مقارنة على صورة التمثيل بين صنفى المؤمنين والمكذبين في  
آيات من سورة هود ، يقول تعالى في حق المكذبين :

﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أولئك يُعرضون على ربهم ويقول الأشهاد  
هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين ، الذين يصدون عن سبيل الله  
ويبغونها عوجاً وهم بالآخرة هم كافرون ﴾ [هود: ١٨-١٩] .

ويقول في حق المؤمنين الصادقين : ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى  
ربهم أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ [هود: ٢٣] .

ثم يعقد المقارنة بعد ما بيّن صفات الطرفين ليكون التقويم واضحاً والتشبيه موحياً  
مؤثراً ، والمكانة معروفة ، يقول تعالى :

﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون ﴾  
[هود: ٢٤] .

(١) ابن كثير : ج ٢ ، ص ٣٩٥ .

(٢) القرطبي : جزء ٨ ، ص ٣٢٧ .

يقول ابن كثير : "ثم ضرب تعالى مثل الكافرين والمؤمنين فقال : ﴿ مثل الفريقين ﴾ أي الذين وصفهم أولاً بالشقاوة ، والمؤمنين بالسعادة ، فأولئك كالأعمى والأصم ، وهؤلاء كالبصير والسميع . فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا وفي الآخرة لا يهتدي إلى خير ولا يعرفه ، أصم عن الحجج فلا يسمع ما ينتفع به ﴿ ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ﴾ وأما المؤمن ففطن ذكي لبيب بصير بالحق يميز بينه وبين الباطل ، فيتبع الخير ويتبرك الشر ، سميع للحجة يفرق بينها وبين الشبهة ، فلا يرجع إليه الباطل ، فهل يستوي هذا وهذا ؟ ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أفلا تعتبرون وتفرقون بين هؤلاء وهؤلاء " (١) .

وتقريب التقويم للفهم البشري بهذا المثل لا يترك مجالاً للخلط والتحايل في تقويم صنف المؤمنين ، وصنف الكافرين ، فلا يمكن أن يختلف الناس على أن الأعمى ليس كالبصير ، أو أن الأصم الذي لا يسمع، كالسميع سليم السمع الذي ينعم بحاسة السمع التي تترجم الصوت إلى أفكار ومعان وغير ذلك . ولا أظن أن المقصود بالسمع والبصر هنا هو المعنى المتبادر للذهن فقط ، وهو أن ترى العين الأشياء ، وتسمع الأذن الأصوات . إنما الأمر مرتبط بالاعتبار بما يرى الإنسان ، وما يسمع ، مما قد يوصله إلى طريق الإيمان ، أو طريق الكفر والضلال ، قال الله تعالى ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أذان لا يسمعون بها ولهم أعين لا يبصرون بها أولئك كالأنعام ﴾ وصنوف الأمثلة التقويمية كثيرة ومتعددة في ثنايا السور والآيات ، وليس من قصدنا استقصائها بالكامل في القرآن الكريم ، وإنما هو عرض موجز لإثبات الدلالة على استعمال القرآن للتقويم على صورة المثل والتشبيه . وزيادة في لفت النظر لمثل هذه الأمثلة نعرض بعضاً منها عبر الآيات الكريمة التالية :

١- قال الله تعالى في سورة إبراهيم :

﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال لعلمهم يتذكرون ، ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٧] .

٢- وقال تعالى : ﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه مناً رزقاً حسناً فهو ينفق منه سراً وجهرأ هل يستون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ، وضرب

(١) ابن كثير : ج ٢ ، ص ٤٢٣ .

الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كَلُّ على موالاه وإنما يوجهه لا يأت بخير هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ﴿ [النحل: ٧٥-٧٦] .

٣- وقال تعالى : ﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً ﴾ [الكهف: ٤٥] .

٤- وقال عز وجل : ﴿ الله نور السموات والأرض مثل نور كمشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة الزجاج كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم ﴾ [النور: ٣٥] .

ويقول كذلك في نفس السورة : ﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب، أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾ [النور: ٣٩-٤٠] .

٥- وقال سبحانه: ﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حُمُر مستنفرة ، فرت من قسورة ﴾ [المدثر: ٤٩-٥١] .

وقد تناولت الآيات مواضيع مهمة قُومت عن طريق التمثيل والتشبيه . فالكلمة الطيبة كالشجرة الطيبة، والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة ، والكلمة ذات قيمة عظيمة عميقة في حياة البشرية . فالوحي بدأ بكلمة ، والرسالات كلام الله ، وعيسى عليه السلام كلمة الله ألقاها إلى مريم ، والمرء بأصغريه قلبه ولسانه، وقيل في المثل " ورب كلمة قالت لصاحبها دعني " وقال الشاعر :

لسانك لا تذكر به عورة امرئ فلكك عورات وللناس ألسن

وقال صلى الله عليه وسلم : " وإن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالاً ، تهوي به في نار جهنم سبعين خريفاً" .

والفكرة كلمات ، والأفكار نظريات ومناهج ، وكم من كلمة فتحت باب الهداية ، وكم من أخرى أجمت نار العداوة . والمهم أن تكون طيبة عميقة أصيلة ثابتة ، لتؤتي ثمارها خيراً وصلاً ، وأجراً نامياً في كل حين .

والحياة الدنيا كالماء ، يختلط بالنبات فيصبح إما نافعاً وإما غير ذلك . وتتشابه الدنيا مع الماء بعدم الدوام، وعدم الثبات على حد ، والكثير منهما ضار . والكفاف مناسب ونافع .



ونور الله وهداه يملأ السموات والأرض ، يُقَرَّب للفهم البشرى بصورة تشبيهية بديعة .  
فهو كمشكاة (هوة) فيها مصباح ، وهو في زجاجة ، والزجاجة مثل الكوكب الذري ،  
والكوكب متقد من شجرة يكاد زيتها يضيء ، وكل ذلك أنوار وهدايات مركبة رائعة العرض  
والنسيج ، باهرة التأثير ، ساطعة المعنى ، والله المثل الأعلى .

والأعمال وإن تضاخمت وتراكت وتعالقت ، فإنها سراب لامع خادع ، لا فائدة فيه  
ولا ارتواء ، ولا بهجة ولا نماء ، وذلك عندما يكون أساسها هامد ، وقصد صاحبها فاسد .  
أو هي طبقات كثيفة من الظلمة في بحر عميق مسود تعلوه الأمواج المرعبة . وهذه الأعمال  
على ضخامتها فإنها داكنة الحال داكنة النتيجة ، لا نور فيها . والنور لا يأتي إلا من  
مصدره ، والهداية لا تأتي إلا من واهبها ﴿ ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور ﴾  
ويشكل إعراض الناكبين عن الهداية وشرودهم عن الاستقامة ، حالة تشبه حالة الحمر  
المذعورة الهاربة من الأسد الكاسرة الجائعة المتعقبة لها .

هذه هي الأفكار الرئيسية المطروحة المقومة في الآيات عن طريق الأمثلة والتشابهية .  
وقبل أن ندلف عن هذا المبحث لغيره يحسن بنا - كالعادة - تسجيل بعض الأفكار

والملاحظات على أسلوب التقويم عن طريق المثل :

- (١) يحقق المثل والتشبيه صفة التفكير والاعتبار والإدراك .
- (٢) فيه متعة ودقة وزيادة تأثير .
- (٣) شامل لجوانب الحياة وقضاياها . فهو يقوم الحياة الدنيا ، ويقوم الأعمال ، ويقوم  
الكلمة ، ويقوم الناكبين عن الهداية ... الخ .
- (٤) تناول التقويم عن طريق المثل جوانب الإيجاب والسلب في الموضوعات المقومة .
- (٥) الأمثلة والتشابهية في تقويم القرآن واقعية معروفة مألوفة في حياة الناس ، وليست  
طلاسماً وألغاز ، وتهويمات غامضة .

\*\*\*

## **المبحث الثالث**

### **السجل التاريخي**

**وفيه مطلبان :**

**المطلب الأول: سجل أهل الكتاب وتقويم القرآن لهم**

**المطلب الثاني : سجل المشركين والمنافقين وتقويم القرآن لهم**

## تمهيد:

التاريخ جزء من الحياة البشرية ، وهو كنز عظيم من كنوزها ، ورصيد ضخم من أرصدها . فيه تصانيف الحياة وسننها ، ونواميس الاجتماع والحضارة والعلم . وفيه قوانين التقدم والتأخر ، وفيه سلبيات بني البشر وفيه إيجابياتهم . وهو المقياس والمرجع والمعيار لتنافس الحضارات ، ومدى حضورها وتفوقها ، وصلاحتها ورقبها ، أو انهزامها وفسادها وغيابها .

والقرآن الكريم حوى كل ذلك ، لا بطريقة المؤرخين الذين يصنفون التاريخ أحداثاً مجردة سرت من حياة البشرية وانتهى أمرها ، وإنما حوى سجلاً تاريخياً نابضاً حياً . فهو قد مضى ، ولكنه يعالج الواقع بحيوية فائقة ونداوة فريدة . وكما هو للواقع الزاهن يُحييه ويعالجه ، فهو كذلك للمستقبل يرشده ويستشرفه . لأنه يجمع حلقات الزمان كلها ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وذلك لأنه دستور الخالق للخلق وقانون الرب للعباد .

ومن مظاهر التاريخ في القرآن الكريم قصص الأنبياء ، ومناسبات التنزيل ، بل وحياة المسلمين أثناء الوحي ، وكذلك سجل أهل الكتاب وغيرهم من المشركين . ولأن التاريخ " يُعيد نفسه " كما هي المقولة المشهورة ، فإننا سنتلمس جوانب هذا المبحث " السجل التاريخي " كأحد أساليب التقويم القرآني عبر المطالب التالية :

### المطلب الأول: سجل أهل الكتاب وتقويم القرآن لهم

لقد أخذ الحديث عن أهل الكتاب من يهود ونصارى - على وجه الخصوص - مساحة غير قليلة من القرآن الكريم ، لما لسجلهم التاريخي من أهمية وعبرة ، ولما عانى منهم الرسول صلى الله عليه وسلم وخاصة اليهود ، ولما للمعركة معهم في كل حين من أهمية في حياة الأمة المسلمة . ونضرب على ذلك مثالين اثنين فقط مخافة الإطالة .

أولاً : قال الله تعالى : ﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً وقال الله إني معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسناً لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلكم جناب تجري من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل ، فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلاً منهم

فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ، ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون ، يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدي به من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم ، لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم ومن في الأرض جميعاً والله ملك السموات والأرض وما بينهما يخلق ما يشاء والله على كل شيء قدير ، وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يُعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ، يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير ﴿ [المائدة: ١٢-١٩] .

يأتي الأسلوب التقويمي القرآني في هذه الآيات عبر تسجيل جزء من تاريخ أهل الكتاب ، وكشف نقضهم لميثاقهم وما حل بهم نتيجة لذلك .

" لتكون هذه - من جانب - تذكرة للجماعة المسلمة ماثلة في بطون التاريخ ، ومن واقع أهل الكتاب قبلهم ، وليكشف الله - من جانب - عن سنته التي لا تتخلف ولا تحابي أحداً .

ومن الجانب الثالث ليكشف عن حقيقة أهل الكتاب وحقيقة موقفهم ، وذلك لإبطال كيدهم في الصف المسلم ، وإحباط مناوراتهم ومؤامراتهم ، التي يلبسونها ثوب التمسك بدينهم ، وهم في الحقيقة قد نقضوا هذا الدين من قبل ، ونقضوا ما عاهدوا الله عليه " (١) . وأظهر تقويم الله لهم في هذه الآيات عدة صفات دينية صبغت فترات تاريخهم ، وسجلت وقائعه . فقد نقضوا الميثاق والعهد ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ، ونسوا ما ذكروا به ، وكان بعضهم على خيانة ، ويخفون بعض الكتاب الذي أنزل عليهم ، وقالوا بأن الله هو المسيح ابن مريم ، وزعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنكروا مجيء الرسول البشير النذير لهم ... الخ . وتم ذلك وغيره عبر تسجيل دقيق ، وإحصاء موثق ، وتقويم شامل صريح .

(١) الظلال : ج ٢ ، ص ٨٥٦ .

والقرآن إذ يَقومُ بهذا الأسلوب ليقصد إلى عرض سنن الأمم الغابرة ، ونواميس ارتفاعها و عوامل انخفاضها ، ليقع موقع العبرة والدرس عند اللاحقين ، ليأخذوا بأحسنها ، ويتجنبوا أردنها ، في مضمار ما يودون من تغيير ، وما يقصدون من بناء وارتفاع في شتى جوانب الاستخلاف ، وبناء صرح الحضارة الربانية الراشدة .

ثانياً: قال الله تعالى : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون ، لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون ، ضربت عليهم الذلة أين ما تقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباعوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله أناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ، وما فعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين ﴾ [آل عمران: ١١١-١١٥]

وتُسجل هذه الآيات كذلك طرفاً من تاريخ أهل الكتاب - اليهود - بعدما يُقرر تقويم القرآن أن المسلمين خير أمة أخرجت للناس بتحقيق ثلاثة شروط ، أمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، وإيمان بالله ، ويحض أهل الكتاب على السير على نهج المسلمين .

" ثم يذكر الله عز وجل في مقابل الفسقة من أهل الكتاب من يؤمن بالله منهم ، فيقوم بآيات الله أناء الليل ، ويؤمن بالله ، ويأمر بالمعروف ، وينهي عن المنكر ، ويسارع في الخيرات ، فهؤلاء لا يستون مع الفاسقين منهم ، وهؤلاء من الصالحين الذين يعدهم الله أن يجازيهم على إحسانهم إحساناً ، والمراد بهم - قولاً واحداً - من دخل في الإسلام " (١) .

ويظهر هذا التسجيل التاريخي القرآني منهجية التقويم العادلة الموضوعية التي تذكر لأهل الكتاب شرهم وضلالهم ، ومناكفتهم للرسل والرسالات ، وأنهم أهل مسكنة وذلة ، إلا بحبل من الله ، و حبل من الناس (أي قوة ) وهم كذلك قتلة الأنبياء . وتذكر في المقابل الصفات الحميدة عند بعضهم ، من إيمان ، وأمر بمعروف ، ونهي عن منكر ، ومسارة في الخيرات .

ولعمري إن ذلك منهج ينقص ساحة العمل الإسلامي في هذه الأيام ، فالعدو عندنا عدو كله ، فهو صخرة صماء ، وكتلة واحدة ، لا نجد فيها أي ثغرة من خير ، أو بصيص من

(١) الأساس : ج ٢ ، ص ٨٤٧ .

أمل . فقاعدة التعميم جاهزة ، ومقياس المبالغة مُعد . ولنا أحياناً بعض العذر في ذلك لما يطّيح على سطح الأرض من ظلم وعسف ، وتجبر وهيمنة من هؤلاء ، من أهل الكتاب عامة واليهود خاصة . فلا يكاد يُبقي ظلمهم الشنيع ، وكيدهم الغاشم بصيص أمل في استراحة ذهنية ، أو لمسة عاطفية للنظر العادل والقياس الموضوعي ، والتقويم الشامل بحق من قد يخرج من بينهم من دائرة ظلمهم ، وبطشهم وجبروتهم ، بريئاً من معاداة الإسلام والمسلمين .

### ب. المطلب الثاني : سجل المشركين والمنافقين وتقويم القرآن لهم :

لقد سرد القرآن جولات تقويمية متعددة للمشركين والكفار ، وسجل أحداث ذلك بأساليب متنوعة ، شملت الكلام عن أفراد بعينهم ، وشملت الكلام عن أقوام أو مجموعات بعينها كذلك .

ومن الآيات التي تكلمت عن أفراد مُعينين كما جاء في مناسبة نزول هذه الآيات ما ورد في سورة المدثر عن الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش . قال تعالى : ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً ، وبنين شهوداً ، ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيد ، كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ، سارهقه صعوداً ، إنه فكر وقر ، فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدير واستكبر ، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، سأصليه سقر ﴾ [المدثر: ١١-٢٦] .

وهذا المذكور في هذا السياق هو الوليد بن المغيرة المخزومي أحد رؤساء قريش لعنه الله ، وكان من خبره في هذا ما رواه العوفي عن ابن عباس قال : " دخل الوليد بن المغيرة على أبي بكر بن أبي قحافة فسأله عن القرآن . فلما أخبره خرج على قريش فقال : يا عجبا لما يقول ابن أبي كبشة ، فوالله ما هو بشعر ، ولا بسحر ولا بهذي من الجنون . وإن قوله لمن كلام الله فلما سمع بذلك النفر من قريش ، انتمروا ، وقالوا : لنن صبا الوليد لتصبو قريش . فلما سمع بذلك أبو جهل بن هشام قال : أنا والله أكفيكم شأنه ، فانطلق حتى دخل عليه بيته ، فقال أبو جهل ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة ؟ فقال : ألسنت أكثركم مالا وولداً ؟ فقال له أبو جهل : يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة لتصيب من طعامه . فقال الوليد : أقد تحدث به عشيرتي ؟ فلا والله لا أقرب ابن أبي قحافة ، ولا عمر ، ولا ابن

أبي كبشة ، وما قوله إلا سحر يؤثر ، فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً ﴾ إلى قوله ﴿ لا تبقي ولا تذر ﴾ (١) .

ويظهر هنا أن القرآن قد سجل دقائق الموقف التقويمي لزعيم معروف ، بحادثة معروفة ، فأعطى إichاءات وجوانب تقويمية عدة منها : تسليية الرسول صلى الله عليه وسلم وتذكيره بأن يترك أمر مثل هؤلاء المعاندين لله ، ومنها عرض نعم الله على مثل هؤلاء المكابرين والتذكير بها عل ذلك أن يكون رادعاً لهم ولغيرهم ، ومنها التوعد والعقاب بسبب العناد والمكابرة . ومن أهم هذه الوقفات التقويمية الوصف الدقيق الذي يقوم حركة هذا الزعيم ، العضوية الشكلية وما يدور في خلداه وعقله . وتظهر هذه الحالة على شكل منهج في التفكير والتكبر ، ينتج عنه حركات بديية تنعكس على عبوس وجهه ، وكلاحة محياة ، وإدباره باستكبار وتعجرف . ثم بالنتيجة الممزوجة بالعناد والكبر ، وذلك عند وصف القرآن بالسحر ، وأنه قول بشر .

يقول صاحب الظلال في دقة الجانب الفني والنفسي لوصف الوليد بن المغيرة في هذه الآيات : " ثم يرسم تلك الصورة المبدعة المثيرة للسخرية والرجل يكذب ذهنه ! ويعصر أعصابه ! ويقبض جبينه ! وتكلح ملامحه وقسماته .. كل ذلك ليجد عيباً يعيب به القرآن . ثم يقول : إنها لمحات حية يثبتها التعبير القرآن في المخيلة أقوى مما تثبتها الريشة في اللوحة ، وأجمل مما يعرضها الفلم المتحرك على الأنظار ! وإنها لتدع صاحبها سخرية الساخرين أبد الدهر . وتثبت صورته الزرية في صلب الوجود تتملأها الأجيال بعد الأجيال ! (٢) .

وإضافة إلى تسجيل هذا الموقف التقويمي تاريخياً بطريقة فنية رائعة موثقة صادقة ، تبقى العبرة والدرس التقويمي ماثلاً للأجيال في الحاضر والمستقبل ، لمثل هذه النوعية من المعاندين وكيفية تقويمهم والحكم عليهم .

وقال تعالى في سورة الأحزاب يُسجل جزءاً من تاريخ النفاق ويقولومه :

﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستئذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً ، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سؤلوا

(١) ابن كثير : ج ٤ ، ص ٤٤٣ .

(٢) الظلال : ج ٦ ، ص ٣٧٥٧ .

## **المبحث الرابع**

### **الإحصاء والتقارير الميداني**

**وفيه مطلبان :**

**المطلب الأول : التقرير والكشف الميداني**

**المطلب الثاني : الإحصاء ودقة الحساب**



## تمهيد:

أسلوب الإحصاء والمسح الميداني والاستطلاع المباشر لتقويم الأمور ومعرفة قيمتها وحجمها ، وما هي عليه بالضبط ، أسلوب مشهور ومتعارف عليه . وهو يمتاز بالدقة والمصداقية والعدل والشمول . وقد قيل "ليس من رأى كمن سمع" .

ويكاد يستعمل هذا الأسلوب في جميع الأنشطة البشرية الخاصة بجمع المعلومات ، ومعرفة الواقع المراد تقويمه ، لما لذلك من فائدة كبيرة في وضع مستقبل أفضل على مستوى القرارات والأهداف وغيرها . وقد عرف هذا على مستوى جمع المعلومات وكتابة التقارير في جميع الميادين ، عن طريق العيون ومجموعات الاستطلاع الراحلة ، و حديثاً عن طريق تكنولوجيا المعلومات ، و الأجهزة الرابضة بشتى أنواعها، وتبقى المعاينة البشرية المباشرة هي الأدق والأصدق دائماً .

وعرف هذا الأسلوب على المستوى الإداري فيما يسمى التقارير الميدانية ، لتقدير الموقف وتقويمه في شتى فروع الإدارة ومجالاتها . والتي تشمل الإحصاء والرصد وجمع المعلومات ، ومن ثم التحليل والتعليل والتقويم والمقارنة ثم التحسين . وقد استخدم القرآن الكريم هذا الأسلوب وأشار إليه ، مؤكداً على قيمة الإحصاء والحساب والكشف الميداني في تقويم الأمور والحكم عليها . ونقسم هذا المبحث إلى مطلبين اثنين هما :

### المطلب الأول : التقرير والكشف الميداني

وقد ورد هذا الأسلوب في قصة سيدن سليمان عليه السلام مع الهدد . المخلوق الذكي الملهم بالتنقيب ومعرفة الأخبار ، والذي كان ضمن جنود سليمان المسخرة له . و ورد الكلام معنا سابقاً عن الهدد وسليمان في معرض تثبيت سليمان في تقويمه للهدد وعدم تسرعه في الحكم عليه . ونورد موقف الهدد هنا في تقويمه لملكة سبأ حيث أرسله سليمان عليه السلام ، وأمره بالذهاب لها واستطلاع أمرها ، وجمع المعلومات عنها ليتم تقويم وضعها بالشكل الدقيق الموثق . ويظهر ذلك في قول الله تعالى على لسان الهدد : ﴿ فمكث غير بعيد وقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين ، إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم ، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ﴾ [النمل: ٢٢-٢٤] . وكذلك

قول الله تعالى على لسان سليمان عليه السلام ﴿ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ، اذهب بكتابي هذا فאלقه إليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون ﴾ [النمل: ٢٧-٢٨]. وقد تحرك الهدهد إلى الميدان عندما سمع انزعاج وتهديد سليمان له بسبب غيابه ، ليعرف من الأخبار ويجمع من المعلومات ما يثبت أن غيابه كان في مهمة مفيدة لسليمان ومملكته ، وليكون ذلك سلطاناً ودليلاً أمام سليمان على حرصه ودقة أخباره . ثم أن سليمان يريد التأكد من المهمة ، ويوثق أخبارها بشكل أشمل ، فيرسل الهدهد مرة ثانية إلى ملكة سبأ ، ويرسل سعه كتاباً يدعو فيه ملكة سبأ إلى الإسلام . ليكون حكمه عليها وتعامله معها مبنياً على تقارير دقيقة ، ومعلومات صادقة ، وهذا ما تأكد في باقي القصة ، التي كانت نتيجتها إسلام ملكة سبأ ورجوعها إلى الله ﴿ قالت رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ [النمل: ٤٤] .

فضمن هذا الأسلوب الميداني المباشر نجاة الهدهد ، وصدقه ، وتحقيق منهج الدقة والاستطلاع ، مما أورث تقويماً سليماً للموقف . ومن ثم تحقيق مبدأ الدعوة والهداية والرسالة ، التي كُلف بها سليمان وجنوده .

### بالمطلب الثاني : الإحصاء ودقة الحساب

إن التعامل بالأرقام والإحصاءات والحسابات في تقويم الأنشطة والأعمال والمراجعات يعتبر أسلوباً حاسماً عادلاً دقيقاً . يحسم كثيراً من التخمينات والظنون والعموميات ، شرط أن يكون ذلك صحيحاً يُعبر عن الحال المراد تقويها فعلاً ، خال من التزييف والزيادة والتلاعب. وقد أورد القرآن كلمة الإحصاء والحساب في آيات كثيرات متعددة المعاني والمقاصد من مثل:

— الحساب بمعنى : العقاب ، كقول الله تعالى ﴿ أولئك لهم سوء الحساب ، وماؤهم جهنم وينس المهاد ﴾ [الرعد: ١٨] .

وقوله ﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾ [الزمر: ١٠] .

— الحساب: بمعنى: العَدَّ كقوله تعالى ﴿ ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾ [الأنعام: ٦٢] .

وقوله ﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين ﴾ [الأنبياء: ٤٧] .

إن الله سبحانه سريع الحساب ، لا يحتاج إلى عدّ ولا إلى عقد ولا إلى إعمال فكر كما يفعله

الحُساب ،ولهذا قال وقوله الحق : ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
' اللهم منزل الكتاب سريع الحساب ' (١) .

— الإحصاء : بمعنى العدّ . كقوله تعالى : ﴿ لقد أحصاهم وعدهم عدّاً ﴾ [مريم: ٩٤] .  
ونعالج هذا المطلب عبر بعض الآيات والمواقف التقويمية التي تعتمد وتشير إلى مبدأ  
الإحصاء وأهميته .

لقد تكلمت سورة الأنعام عن موضوع الحساب ودقة الإحصاء في معرض الكلام عن  
مقصد الرسالات والرسول في قوله تعالى :

﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم  
يحزنون ﴾ [الأنعام: ٤٨] .

وبعدها قال تعالى : ﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول  
لكم إن ملك إن أتبع إلا ما يوحى إليّ قل هل يستوي الأعمى والبصير أفلا تتفكرون ﴾  
[الأنعام: ٥٠] .

هذا توجيه من الله لرسوله في كيفية الرد على المعاندين والمشركين ، فخزائن الله  
عنده، وكلمة خزائن هنا تدل على الحساب والإحصاء . ثم كان التوجيه أن يسأل النبي أولئك  
القوم ، هل يستوي الأعمى والبصير؟ وهذا يدل على أن الأمر يخضع للتقويم ، إذ لا معرفة  
لمن هو أعمى ومن هو بصير إلا عبر معايير التقويم لمن هو أعمى ومن هو بصير، وذلك  
حسب معايير الهداية والضلال .

ثم تأتي الآيات موضوع الشاهد إذ يقول تعالى :

﴿ وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة  
إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ، وهو الذي  
يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضي أجل مسمى ثم إليه مرجعكم ثم  
ينبئكم بما كنتم تعلمون ، وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة حتى إذا جاء أحدكم  
الموت توفته رسلنا وهو لا يفرطون ، ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع  
الحاسبين ﴾ [الأنعام: ٥٩-٦٢] .

ويستمر القرآن في تثبيت منهجية الحساب والإحصاء ، لتفضي إلى حكم دقيق وتقويم  
عادل يوم القيامة كما هو في الآيات .

(١) القرطبي : جزء ٢ ، ص ٤٣٥ .

فعلم الله بما في البر والبحر ، وما تسقط من ورقة من أوراق الشجر إلا يعلمها ، وحبّة ( أي حبة ) في طبقات الأرض ، وأي رطب ويابس إلا محصى مسجل في كتاب . ثم كل ذلك لإخباركم يوم القيامة ، يوم الحكم والتقويم بهذا وبكل أعمالكم . ثم إن رسل الله ( ملائكته ) لا تفرط بشيء أبداً «توفته رسلنا وهم لا يفرطون» .

ثم يكون الرجوع لله صاحب الحكم والفصل والتقويم ، وهو سبحانه أسرع الحاسبين العادلين ، العالمين بكل دقائق ما ذكر في الآيات وغيرها . واعملوا وقولوا له الحكم وحده يوم القيامة ، أي القضاء والفصل ، ولا يحتاج إلى فكرة وروية ولا عقد يدي (١) .

ولا يفكر البشر أن تكون كل ورقة ساقطة ، وكل حبة مخبوءة ، وكل رطب وكل يابس في كتاب مبين ، وفي سجل محفوظ ، فما شأنهم بهذا ، وما فائدته ؟ وما احتفالهم بتسجيله ؟ إنما الذي يحصيه ويسجله هو صاحب الملك ، الذي لا يند عنه شيء في ملكه ، الصغير كالكبير ، والحقير كالجليل .. والمخبؤ كالظاهر ، والمجهول كالمعلوم ، والبعيد كالقريب ... إن الحساب والجزاء والحكم في الآخرة ، إنما يقوم على عمل الناس في الدنيا ، ولا يحاسب الناس على ما اجترحوا في الدنيا إلا أن تكون هناك شريعة من الله تعين لهم ما يحل وما يحرم ويحاسبون يوم القيامة على أساسه ، وتوحد الحاكمية في الدنيا والآخرة على هذا الأساس (٢) .

ورد كذلك أسلوب التقويم عن طريق الإحصاء والحساب في سورتَي مريم والجن ، قال تعالى في سورة مريم : « إن كل من في السموات والأرض إلا آتني الرحمن عبداً ، لقد أحصاهم وعدهم عدداً ، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً » [مريم: ٩٣-٩٥] .

ويقول تعالى في سورة الجن : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ، ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » [الجن: ٢٦-٢٨] .

ويأتي إحصاء الله عز وجل وعدّه للأحياء ، كل الأحياء ، يوم القيامة ومصير أعمالهم كما في آيات سورة مريم السابقة من أجل الفصل بينهم وتقويم نتيجة حياتهم ، وقد جاء ذلك - كما في الآيات السابقة للآيات المذكورة - في معرض إدعاء المشركين بأن الله - تعالى عن ذلك - ولدأ « وقالوا اتخذ الرحمن ولدأ » ولقد أحدث ذلك الإدعاء رجة عنيفة في الكون

(١) انظر القرطبي : جزء ٧ ، ص ٧ .

(٢) الظلال : ج ٢ ، ص ١١٢ و ١١٢٣ .

كله اعتراضاً وامتعضاً من هذا التعدي ، والقبح الشديد في حق ذات الله سبحانه . ولذلك أثبت عز وجل سلطانه وعبوديته على الجميع دون سواه ﴿ إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً ﴾ ومن مقتضى ذلك أن يجمعهم على صعيد واحد للتقويم الشامل الأخير عبر عملية إحصائية تقويمية دقيقة ، وعلى شكل سلسلة فردية يعجز الخيال عن تصورها ، وقوانين الحصر والحساب - في منظور البشر - عن الإحاطة بها .

" وإن الكيان البشري ليرتجف وهو يتصور مدلول هذا البيان ﴿ لقد أحصاهم وعدهم عدأ ﴾ فلا مجال لهرب أحد ، ولا نسيان أحد ، " وكلهم أتيه يوم القيامة فرداً " ، فعين الله على كل فرد . وكل فرد يقوم وحيداً لا يأنس بأحد ولا يعتز بأحد . حتى روح الجماعة ، ومشاعر الجماعة يجردهما ، فإذا هو وحيد فريد أمام الديان " (1) .

وتحدد آيات سورة الجن السابقة بعد الجولة الممتدة المدهشة في قصة الجن وأنواعهم ، وأحوالهم وما يجري عليهم من سنن الله وقوانينه في الهداية والضلال مما يشبه في طرف منه ما ينطبق على حياة البشر ، تأتي الآيات لتحدد أسلوب إحصاء وعد كل شيء في دعوة الرسل ، وحياة الرسل على شكل رصد وتتبع دقيق ، من أجل الدقة في إبلاغ الرسالة . وذلك كله من منطلق علم الله المطلق ، وإحاطته المطلقة ، وإحصائه المطلق لكل شيء . وما ذلك إلا من أجل الفصل - الحكم والتقويم - لأحوال المخلوقات كلها " المكلف منها وغير المكلف " يوم الرجوع الأخير ، والنهاية المحتومة .

وتصور هذا الحال والرسول محوط بالحراس والأرصاد ، وعلم الله على كل ما لديه ، كل ما حوله ، وهو يتلقى التكليف جندياً لا يملك إلا أن يؤدي ، ويمضي في طريقه ليس متروكاً لنفسه ، ولا متروكاً لضعفه ، ولا متروكاً لهواه ، ولا متروكاً لما يحبه ويرضاه ، إنما هو الجد الصارم والرقابة الدقيقة . وهو يعلم هذا ويستقيم في طريقه لا يتلفت هنا أو هناك . فهو يعلم ماذا حوله من الحرس والرصد ، ويعلم ما هو مسلط عليه من علم وكشف (2) .

وقبل أن نترك هذا المبحث الدقيق ، والأسلوب التقويمي عن طريق التقرير والكشف الميداني ، وكذلك الإحصاء والرصد والعد . نود أن نسجل بعض النقاط والفوائد على النحو التالي :

(1) الظلال : ج ٤ ، ص ٢٣٢١ .

(2) الظلال : ج ٦ ، ص ٣٧٣٨ .

١- إن من المتعارف عليه أن أولى خطوات التخطيط والبرمجة هو جمع المعلومات والإحصاءات الموثقة ، فذلك يشكل حجر الأساس السليم ، والخطوة الصحيحة في وضع تخطيط سليم متقن يوصل إلى أهداف مرغوبة . والذي من شأنه أن يجلي الصورة ، ويوضح المسيرة ويجعل السير واضحاً لا لبس فيه ، مما يقلل التكاليف على مستوى " الوقت والمال والجهد " . وأفضل طريق لجمع المعلومات والإحصاءات هو طريق التقارير الميدانية، التي يشاهدها المرء بنفسه ، فيراها ويسمعها ، ويحس بها ويبدل في سبيلها . ولذلك تعتمد وسائل الإعلام بجميع أنواعها أن تكون في ميدان الحدث دائماً ، وتتباهى وتتسابق أن يكون لها السبق في نقل الحدث ، ورفع تقاريرها مسموعة ومرئية ومقروءة بشكل حي ومباشر ، مما يكسبها مصداقية وقوة ، ودقة ومتابعة . ومن ثم حسن تقويم وإصدار رأي صائب . وما ذلك إلا بسبب المعاينة ، ونقل الحقيقة من مصدرها ، دون اللجوء إلى سلسلة العنونة التي تقود إلى إضعاف الخبر ، والتردد حياله .

٢- يستفاد من قصة سيدنا سليمان مع الهدد في أن الهدد تصرف بذكاء وسرعة بديهية ، فتحرك ميدانياً وجمع المعلومات بنفسه عن مملكة جديدة ، ليكون ذلك حجة له أمام غضب سليمان وتهديده . ومع ذلك نجد أن سليمان لم يكتف بذلك ، وأراد أن يتأكد من صحة هذا التقرير الميداني بإرسال الهدد مرة ثانية بكتاب رسمي إلى ملكة سبأ . وذلك ليتثبت من الأمر ، لما يترتب عليه من خطوة لاحقة في تقويم الموقف مستفيداً من المعلومات الميدانية التي جاء بها الهدد ، ليقود ذلك إلى اختيار الأسلوب المناسب في التعامل مع هذه الملكة .

٣- يستفاد من ذكر الإحصاء والحساب، ودقة علم الله وإحاطته ، ورصده لجميع المخلوقات منذ أن خلق الله الأرض ومن عليها ، في ضرورة الاعتماد على الإحصاءات والأرقام في كيفية التقويم ، كأسلوب حاسم دقيق ، لا يدع مجالاً للتعميم والمبالغة والتخمين . وذلك أدعى للعدل والموضوعية . وكلما استعمل الإنسان التقويم والنوصيف عن طريق الأرقام والنسب المثوية كلما اضطر أن يكون دقيقاً باحثاً جاداً عادلاً . وكلما تجاهل ذلك ومال إلى السطحية والاستعجال والتبسيط كلما وقع في التعميم والخلل وقلة العدل ، وبالتالي إلى ضعف التقويم والتحسين والتعديل المطلوب، وذلك بعض ما يُستفاد من الآيات ﴿ وكفى بنا حاسبين ﴾ و ﴿ وهو أسرع الحاسبين ﴾ وكذلك ﴿ لقد أحصاهم وعدهم عدأ ﴾ .

\*\*\*

**الفصل الخامس**  
**معلومات التقييم**

# الفصل الخامس

## معمولات التقويم

وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول : القوى والتعصب

المبحث الثاني: الظن والريبة والشك

المبحث الثالث: الظلم

المبحث الرابع: المبالغة والتقديس والتقليد ، وفيه ثلاثة مطالب :

المطلب الأول : المبالغة

المطلب الثاني : التقديس

المطلب الثالث : التقليد



## تمهيد:

إن من سنة الحياة في الأشياء والأحوال أن لا تسير على وتيرة واحدة ، وتيرة اليسر والتوفيق والنجاح فقط ، أو وتيرة العسر والإخفاق والفشل فقط . إنما لا بد أن يخضع الأمر إلى سنن الله ونواميسه في الكون . واليسر أو العسر ليس حتماً على الإنسان أو جبراً لا مفر له منه ، بل هي قضية تخضع لقاعدة قول الله تعالى ﴿وهديناه النجدين﴾ وقوله تعالى ﴿إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً﴾ .

وعلى ذلك ففي كل سبيل عوائق وموانع . ولو سار الطريق على وتيرة واحدة لما قامت الحياة ، ولما عرف الناس الفرق بين الأمور ، وكما قيل " وبضدها تتميز الأشياء " . والتقويم كمنهج قرآني أصيل - كما مر في فصول البحث السالفة - تقف في وجهه عوائق وموانع تعرقل مسيرته . وتطغى على نصاعته وشفافيته . والعوائق - في كل السبل - عادة إما داخلية وإما خارجية .

وعلى الرغم من تشبث النفس البشرية غالباً- وهذا طبعها - بالتبرير للفشل والإخفاق، وتحميل ذلك على العوائق الخارجية -الخارجة عن الطاقة والاستطاعة - إلا أن العوائق الداخلية هي الأهم ، والأكثر تأثيراً أمام مسيرة أي عمل و نشاط ، والحد من وصول المرء إلى هدفه ومبتغاه .

لذلك قال الله تعالى : ﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره ﴾ ولقد أرجع الله عز وجل خطوة التغيير الأولى عند الإنسان للإنسان نفسه ، عندما قال ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ وينطبق ما سلف على الفرد وعلى الجماعة ، وعلى المؤمن وغير المؤمن . ويشمل كذلك نواحي النشاط البشري كلها . ولأن التقويم يتطلب دقة وعدلاً وجهداً ، وشفافية وموضوعية ، فإننا نرى ابتداءً أن ساحته الرئيسية هي النفس البشرية ، وما يتعلق بها من صفات سلبية، تنطلق من ضعفها وقصورها الفطري ، وما يتشكل على ضوء ذلك من معوقات داخلية تمنع نتائج التقويم من الظهور ومن ثم الاستفادة منها في تقويم الأمر وتحسينه نحو الأفضل .

وسوف نطرق هذا الفصل " معوقات التقويم " من خلال المباحث التالية :

**المبحث الأول**

**الهوى والتعصب**

## المبحث الأول الهوى والتعصب

ذكرنا أن انطلاقة التغيير في التقويم والتوصيف والحكم مصدرها النفس البشرية في الأصل ، وقلنا أن معوقات ذلك مصدره النفس البشرية بالدرجة الأولى كذلك . وميلان النفس عن الجادة واتباع رغباتها وأغراضها قضية فطرية . ومن أهم مظاهرها : اتباع الهوى والتعصب في مسيرتها العملية وحياتها الفعلية . والهوى بمعنى الميل عن الحق ، واتباع الرغبات دون وجه حق . والتعصب بمعنى التجر ، والانتصار للنفس ، أو للعرق أو غير ذلك ، على حق أو على باطل ، عائق كبير ، ومانع ضخم أمام العدل ، وإحقاق الحق ، والتقويم نحو الأحسن والأفضل . ولذلك عرض القرآن الكريم المسألة بتوسع وعلى مجالات متعددة . ووصل الأمر إلى أن يقول فيه الله تعالى : ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ .

ولذلك يبلغ الأمر عند أصحاب الأهواء أن يصبح هوى أحدهم إلهه وربّه ومعبوده ، يحتكم إليه ويطيع أمره .

ولقد نزلت بعض الآيات تبين كيف يقف عائق الهوى والتعصب أمام النظر السليم ، وقبول الحق ، والحكم بما أنزل الله . فهو يعرقل منهج التقويم الصحيح والترشيد والهداية . ومن ذلك ما كان مع الرسول صلى الله عليه وسلم وطائفة اليهود ، عندما أرادوه أن يحكم لصالحهم ، وحسب رغباتهم وأهوائهم . فأرجع الله الأمر لحكمه ، ونبه رسوله لأهواء هؤلاء وأغراضهم المعوجة ، فكان الحق ، وكان المنهج الثابت في تقويم الأمور وتصويبها .

(١) قال تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهوائهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ، وأن احكم بينهم بما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون ، أ فحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾ [المائدة: ٤٨-٥٠] .

أخرج ابن جرير والبيهقي عن ابن عباس قال : قال كعب بن أسد ، وعبد الله ابن سوريا ، وشاس بن قيس من اليهود : اذهبوا بنا إلى محمد ، لعلنا نفتته عن دينه ، فأتوه ،

فقالوا : يا محمد إنك عرفت أنا أحبار يهود وأشرافهم وساداتهم ، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا ، وإن بيننا وبين قومنا خصومة ، فنخاصم إليك فتقضي لنا عليهم ، ونؤمن لك ونصدقك ، فأبى ذلك ، وأنزل الله عز وجل فيهم : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ﴾ إلى قوله : ﴿ لقوم يوقنون ﴾ .

يقول المراغي عند تفسيره للآيات ﴿ ولا تتبع أهوائهم عما جاءك من الحق ﴾ أي ولا تتبع ما يريدون ، وهو الحكم بما يسهل عليهم ويخف احتمالاه ، مائلاً بذلك عما جاءك من الحق الذي لا شك فيه ولا ريب .

ويقول في قوله تعالى : ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهوائهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ أي إنا أنزلنا إليك الكتاب فيه حكم الله ، وأنزلنا إليك فيه : أن احكم بينهم بما أنزل الله ، ولا تتبع أهوائهم بالاستماع لهم وقبول كلامهم ، ولو لمصلحة في ذلك كتأليف قلوبهم . وجذبهم إلى الإسلام ، فالحق لا يوصل إليه بطريق الباطل . واحذرهم أن يفتنوك وينزلوك عن بعض ما أنزل الله إليك لتحكم بغيره .

ويقول كذلك : وخالصة ذلك : توبيخهم والتعجب من حالهم ، بأنهم أهل كتاب وعلم ، ومع ذلك كانوا يبيغون حكم الجاهلية الذي يجيء به محض الجهل ، وصريح الهوى " (١) .

(٢) وقال الله تعالى في سورة البقرة في معرض الكلام عن مواقف أهل الكتاب مع النبي ، والتنبية إلى حيلهم وأهوائهم ، وزوغانهم عن الاستقامة والدين الحق ﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهوائهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير ﴾ [البقرة: ١٢٠] .

وقد ورد في تفسير المنار حول هذه الآية : مع موافقته - يعني الرسول - لأهل الكتاب في أصل دينهم، ومقصده من توحيد الله تعالى ، والإخلاص له ، وتقويم عوج الفطرة الإنسانية الذي طرأ عليها بسبب التقاليد ، وترقية المعارف الدينية إلى أعلى ما استعد له الإنسان من الارتقاء العقلي والأدبي ، مع ذلك لقد كان من الصعب - لولا إعلام الله تعالى - أن تعرف درجة فتك التقليد بعقول أهل الكتاب ، وإفساد الأهواء لقلوبهم . لذلك سلى الله تعالى نبيه عما كان يجده من عنادهم وإيذانهم بآيات كثيرة عرفه فيها حقيقة حالهم ، منها هذه الآية

(١) انظر تفسير المراغي: الأستاذ أحمد مصطفى المراغي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الرابعة - مصر ج ٦ ، ص ١٢٩-١٣٣ .

الناطقة بأن كلاً من اليهود والنصارى على اتحادهم في أصل الدين ، قد تعصب لتقاليدهم واتخذ الدين جنسية لا يرضيه من أحد شيء إلا الدخول فيها وقبول لقبها " (١) .

وما أشنع أن يتحكم الهوى في القلوب ، ويُعشش التعصب في العقول خاصة عند من عندهم علم من الكتاب ، فهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ويبشرون بنزول نبي آخر الزمان ، يعرفون أخلاقه وأوصافه ، خاتم الأنبياء ، ورسالته للعالمين كافة . ولكن إنكار الحق ، وطمس الحقيقة ، والمراوغة والتحريف ، وعبادة الهوى واعتقاد التعصب كانت ولا زالت تتحكم بمصائر أهل الكتاب ، وبالعلاقاتهم مع غيرهم ، خاصة مع رسالة الإسلام وأتباعها ، وقد أورث ذلك ما أورث من خسارة فادحة ، وجريمة عظيمة تجرعت كؤوس مرارتها ولا زالت شعوب الأرض كلها .

ويظهر ذلك في قرننا الجديد " القرن الحادي والعشرين " من حياة البشرية ما يظهر من اضطراع ، وتغالب وحرب شرسة في كافة المجالات من قبل أهل الكتاب ضد رسالة الإسلام ، التي ما أنزلها الله إلا لكافة خلقه على وجه أرضه كلها .

(٣) يقول الله عز وجل في سورة الأنعام ﴿ قل إني نهيته أن أعبد الذين تدعون من دون الله قل لا أتبع أهواءكم قد ضللت إذا وما أنا من المهتدين ، قل إني على بينة من ربي وكذبتم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين ﴾ [الأنعام: ٥٦-٥٧] .

والآيات توجيه للنبي صلى الله عليه وسلم في كيفية التعامل مع موازين التفاضل والتمييز بين الناس ، فقد كان جو الآيات ومناسبتها بأن : طلبت زمرة من كبراء المشركين طرد فقراء الصحابة ، وإبعادهم عن مجلس النبي ، وإفساح المجال لهؤلاء الكبراء ، لينالوا الحظوة والمكانة دون أولئك الصحابة . ولكن الله يقر المنهج ويثبت المعيار في أحقية التقديم والتأخير . ويدحض موازين الأهواء والمصالح ، التي تعرقل وتشل الحكم الصحيح ، والتقويم الصحيح .

وقد ورد في روح المعاني للألوسي عند قوله تعالى ﴿ قل لا أتبع أهواءكم ﴾ وفي هذا القول استجهاً لهم ، وتنصيب على أنهم فيما هم فيه من عبادة غير الله تعالى تابعون

(١) انظر تفسير المنار : جزء ١ ، ص ٤٤٤ .

لأهواء باطلّة ، وليسوا على شيء مما ينطلق عليه الدين أصلاً ، وإشعار بما يوجب النهي والانتهاؤ. وفيه كما قيل - إشارة إلى عدم كفاية التقليد الصرف في مثل هذه المطالب " (١) .

(٤) وفي مقطع من قصة موسى عليه السلام في القرآن الكريم يبين الله كيف أن الهوى يصد عن أتباع العقيدة السليمة والإيمان بالغيب وما فيه من عوالم أخفاها الله عن الإنسان كي يبقى مشدوداً إليه ، يتطلع إلى المخبؤ المُستشرف في الآخرة كالساعة (يوم القيامة) وغيرها ، مما هو في علم الله عز وجل ، يقول تعالى : ﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى ﴾ [طه:١٥-١٦] .

واتباع الهوى كما هو عائق عن توزيع الأمور وتقويمها بالشكل الصحيح ، فإنه يورد صاحبه مهالك الردى ، وموارد البوار والخسارة . ولقد حفلت قصة سيدنا موسى بالكثير من الآيات والمعجزات التي أنبهر أمامها القوم . وقد آمن بعضهم كزمرة السحرة الذين نطقوا بالإيمان والحق عندما قالوا ﴿ أما برب هارون وموسى ﴾ وذلك عندما بطل سحرهم بفعل معجزة العصا التي ألقاها موسى . ولكنَّ البعض يمتطي هواه، ويستفحل به تعصبه ، فيزل ويردى كما ذكرت الآيات . ذلك أن أتباع الهوى هو الذي ينشئ التكذيب بالساعة . فالفطرة السليمة تؤمن من نفسها بان الحياة الدنيا لا تبلغ فيها الإنسانية كمالها ، ولا يتم فيها العدل تماماً ، وأنه لا بد من حياة أخرى يتحقق فيها الكمال المقدر للإنسان ، والعدل المطلق في الجزاء على الأعمال " (٢) .

(٥) وتُسطر سورة المؤمنين صورة من الإعراض عن الحق ، والخلل في الحكم على الأشياء وتقويمها، وذلك في حكم المشركين على قول الله (القرآن) وشخص الرسول وهم يعرفونه حق المعرفة . ثم يقرر القرآن أن ذلك مرده الهوى والتعصب ، وكره الحق ، يقول تعالى ﴿ أ فلم يدبّروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين ، أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ، أم يقولون به جنة بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن بل آتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون ﴾ [المؤمنون:٦٨-٧١] .

(١) روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني : أبي الفضل شهاب الدين السيد محمد الأوسى البغدادي ، دار الفكر ١٩٨٨م / بيروت ، ج ٥ ، ص ٢٤٤ .

(٢) الظلال: ج ٤ ، ص ٢٣٣٢ .

" ولو اتبع الحق أهواءهم " وتقديره في العربية : ولو اتبع صاحب الحق . وقيل : المعنى ولو كان الحق ما يقولون من اتخاذ آلهة مع الله تعالى لتنافت الآلهة ، وأراد بعضهم ما لا يريد به بعض . فاضطرب التدبير وفسدت السموات والأرض . وإذا فسدتا فسد من فيهما، وقيل : لو اتبع الحق أهواءهم " أي بما يهواه الناس ويشتهونه لبطل نظام العالم ، لأن شهوات الناس تختلف وتتضاد ، وسبيل الحق أن يكون متبوعاً ، وسبيل الناس الانقياد للحق. وقيل : " الحق القرآن " (١) .

إن اختلال نفوسهم ، وفساد تقويمهم للحق والرسول والقول " القرآن " ، وكرههم للاستقامة والدين يورث فساداً عاماً في نظام الكون وناموسه ، فساداً في السموات كلها ، وفي الأرض كل الأرض ، وفي حياة كل من عليها . وكل ذلك بسبب الأهواء والانحراف عن الحق فتفسد موازينهم ، ونظرتهم للأمور ، وتقويمهم لها . "فالحق واحد ثابت ، والأهواء كثيرة متقلبة . وبالحق الواحد يدبر الكون كله ، فلا ينحرف ناموسه لهوى عارض ، ولا تختلف سنته لرغبة طارئة ، ولو خضع الكون للأهواء العارضة ، والرغبات الطارئة لفسد كله ، ولفسد الناس معه ، ولفسدت القيم والأوضاع ، واختلت الموازين والمقاييس ، وتأرجحت كلها بين الغضب والرضى ، والكره والبغض ، والرغبة والرغبة ، والنشاط والخمول ، وسائر ما يعرض من الأهواء والموارد والانفعالات والتأثرات ... وبناء الكون المادي واتجاهه إلى غايته كلاهما في حاجة إلى الثبات ، والاستقرار والإطراد على قاعدة ثابتة ، ومنهج مرسوم ، لا يتخلف ولا يتأرجح ولا يحدد " (٢) .

(٦) وتحكي الآيات رقم ١٨ ، ٢٣ من سورة الجاثية طرفاً من تحكم الأهواء بأصحابها، وإيعاققتها لعقولهم ، بل واتخاذهم إياها آلهة توردهم مهاوي الضلال ، وتطمس على سمعهم ، وتختم على قلوبهم ، وتغطي أبصارهم بغشاوة ، لا يرون الحق بسببها أبداً .

يقول تعالى : ﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾ [الجاثية: ١٨] ويقول كذلك : ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ﴾ [الجاثية: ٢٣] .  
بعد أن لا يساوي الله عزوجل بين الذين اجترحوا السيئات وفعلوها ، وبين الذين عملوا الصالحات ، وبعد أن يؤكد على أن كل نفس مرهونة بعملها ﴿ ولتجزى كل نفس بما كسبت

(١) القرطبي : جزء ١٢ ، ص ١٤٠ .

(٢) الضلال : ج ٤ ، ص ٢٤٧٥ .

وهم لا يظلمون ﴿ ولا يكون ذلك إلا بحكم وتقويم عادل شامل دقيق في الدنيا قبل الآخرة ، بعد ذلك كله تؤكد الآيات أن الأهواء هي التي تمنع الناس من الاهتداء ، وإتباع الحق ، والحكم والتقويم السليم ، ولو كان عندهم بعض العلم والمعرفة كما هي صفة أهل الكتاب من بني إسرائيل وغيرهم . ويصل ذلك إلى أن يصبح الهوى بمرتبة الرب والمعبود ، أي : إنما يأتى بهواه ، فمهما رآه حسناً فعله ، ومهما رآه قبيحاً تركه " (١) .

(٧) بعدما سردت سورة الفرقان جزءاً من معاناة الأنبياء والرسل مع أقوامهم في طريق الدعوة الطويل ، موسى وقومه ، ونوح وقومه وغيرهم ﴿ وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقرناً بين ذلك كثيراً ﴾ [الفرقان: ٣٨].

بعد ذلك تعرض السورة موقفاً لرسول الله محمد صلى الله عليه وسلم مع قومه في مجال معركة التقويم ، معركة الموازين والأهواء ، والتقاليد والتعصب والعناد . يقول الله تعالى : ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً أهذا الذي بعث الله رسولاً ، إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً ، أرايت من اتخذ إليه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً ﴾ [الفرقان: ٤١-٤٤] .

تبين الآيات منهج المعاندين المستكبرين عن آيات الله في وصف النبي وتقويمه ﴿ وإذا رأوك ﴾ يا محمد ، أي هؤلاء المكذبون لك ، المعاندون لآيات الله ، المستكبرون في الأرض ، استهزءوا بك ، واحتقروك ، وقالوا على وجه الاحتقار والاستصغار ﴿ أهذا الذي بعث الله رسولاً ﴾ أي غير مناسب ، ولا لائق ، أن يبعث الله هذا الرجل ، وهذا من شدة ظلمهم وعنادهم ، وقلوبهم الحقائق ﴿ وإن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها ﴾ فزعموا - قبحهم الله - أن الضلال هو التوحيد ، وأن الهدى ما هم عليه من الشرك ، ولما كان هذا حكماً منهم بأنهم المهتدون والرسول ضال - وقد تقرر أنهم لا حيلة فيهم - توعدهم بالعذاب . وهل فوق ضلال من جعل إليه هواه ، فما هواه فعله ﴿ أرايت من اتخذ إليه هواه ﴾ ألا تعجب من حاله ، وتنتظر ما هو فيه من الضلال ؟ وهو يحكم لنفسه بالمنازل الرفيعة ؟ ثم

(١) ابن كثير : ج ٣ ، ص ١٥٣ .



ختمت الآيات بأن من هؤلاء صفاتهم فقد سلبهم الله العقول ، والأسماع ، وشبههم في ضلالهم بالأنعام السائبة ، بل هم أضل من الأنعام منهاجاً وطريقاً ومسلكاً<sup>(١)</sup> .

وكل هذه التقويمات الجاحدة ، والميزان المختل ، مرجعه الهوى والاستكبار . لولا ذلك لكان تقويمهم للنبي صلى الله عليه وسلم تقويماً صحيحاً عادلاً وهم يعلمون سجل حياته كلها منذ كان صبياً يرعى الغنم ، وحتى أصبح رجلاً قبل البعثة يعرف عندهم بالصادق الأمين . ثم انقلب تقويمهم له بعد البعثة رأساً على عقب ، لما قد سببت دعوته ورسالته لهم من اندحار في مكانتهم ، وتدهور في سلطانهم وأفكارهم .

وهم يسمعون الهداية إضلالاً لسوء تقديرهم للحقائق ، وتقويمهم للقيم . ولذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يقصر في الدعوة ، ولم يقصر في الحجة ، ولم يستحق ما لا قوه به من تطاول ، إنما العلة فيهم أنفسهم ، فهم يجعلون من هواهم إلهاً يعبدونه ، ولا يرجعون إلى حجة أو برهان . وماذا يملك الرسول لمن يتخذ إليه هواه ﴿ أرأيت من اتخذ إليه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ وهو تعبير عجيب يرسم نموذجاً عميقاً لحالة نفسية بارزة ، حين تنفلت النفس من كل المعايير الثابتة ، والمقاييس المعلومة ، والموازن المضبوطة ، وتخضع لهواها ، وتحكم شهواتها وتتعبد ذاتها ، فلا تخضع لميزان ، ولا تعترف بجد ولا تقنع بمنطق ، متى اعترض هواها الطاغى الذي جعلت منه إلهاً يعبد ويطاع<sup>(٢)</sup> .

٨) يقول الله تبارك وتعالى في سورة النساء وعلى نفس سياق الآيات التي نعالج من خلالها مبحث الهوى والتعصب كأحد معوقات التقويم الصحيح:

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ [النساء: ١٣٥] .

وواضح أن الآية تقرر منهاجاً رصيناً محكماً في الحكم والشهادة ، والقسط والتقويم على النفس والوالدين والأقربين ، على الفقراء والأغنياء سواء . وتذكر أن من عوائق الحكم الصحيح بالحق والعدل والقسط هو إتباع الهوى الذي يمنع العدل والتقويم بحق .

" ومن أعظم أنواع القسط ، القسط في المقالات والقائلين ، فلا يحكم لأحد القولين أو أحد المتنازعين ، لانتسابه أو ميله لأحدهما ، بل يجعل وجهته العدل بينهما ، ومن القسط

(١) انظر تفسير تيسير الكريم ، مرجع سابق ، ص ٥٣٢ .

(٢) انظر الظلال : ج ٥ ، ص ٢٥٦٦ .

أداء الشهادة التي عندك على أي وجه كان ، حتى على الأحاب ، بل على النفس ... ويتعين على من نصح نفسه وأراد نجاتها أن يهتم لها غاية الاهتمام ، وأن يجعلها نصب عينيه ، ومحل إرادته ، وأن يزيل عن نفسه كل مانع وعائق يعوقه ، عن إرادة القسط أو العمل به . وأعظم عائق لذلك اتباع الهوى ، ولهذا نبه تعالى على إزالة هذا المانع بقوله ﴿ فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ﴾ أي فلا تتبعوا شهوات نفوسكم المعارضة للحق . فإنكم إن اتبعتموها عدلتم عن الصواب ، ولم توفقوا للعدل . فإن الهوى إما أن يعمي بصيرة صاحبه حتى يرى الحق باطلاً ، والباطل حقاً ، وإما أن يعرف الحق فيتركه لأجل هواه . فمن سلم من هوى نفسه ، وفق للحق ، وهدى إلى الصراط المستقيم " (١) .

وهوى النفوس ونزواتها ، وزوغان العواطف والمشاعر عن جادة القسط مرض مدمر يدمر صاحبه أولاً ، ثم يدمر المجموعة ، بل المجتمع كله ويدمر بعد ذلك - وهذا هو الأخطر - عالم القيم والضوابط ومرجعيات التقويم ، ولذلك نجده يتسع إذا استفحل ليشمل كل جوانب حركة الاجتماع البشري " والهوى صنوف شتى ذكر منها بعضها ... حب الذات هوى ، وحب الأهل والأقربين هوى ، والعطف على الفقير - في موطن الشهادة والحكم - هوى . ومجاملة الغني هوى ، ومضارته هوى ، والتعصب للعشيرة والقبيلة والأمة والدولة والوطن - في موضع الشهادة والحكم - هوى . وكراهة الأعداء ولو كانوا أعداء الدين - في موطن الشهادة والحكم - هوى .. وأهواء شتى الصنوف والألوان ... كلها مما ينهى الله الذين آمنوا عن التآثر بها ، والعدول عن الحق والصدق تحت تأثيرها " (٢) .

(٩) ومن روائع القرآن في إبراز خطر الهوى والظن عند النظر في المسائل والحكم بين الناس ، وتقويم الأمور ، ما جاء في سورة "ص" عن طرف من قصة سيدنا داود عليه السلام وحكمه بين الخصمين إذ تسورا عليه المحراب ، قال الله تعالى :

﴿ وهل أتاك نبا الخصم إذ تسوروا المحراب ، إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا سواء الصراط ، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب ، قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعاً

(١) تفسير تيسير الكريم : ص ١٧٢ .

(٢) الظلال : ج ٢ ، ٧٧٦ .

وأنا ، فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مأب ، يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ، وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ، أم نجعل الذي آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴿ [ص : ٢١ - ٢٨ ] .

يدور الموقف التقويمي كله كما في الآيات في مقام نبوة أحد أنبياء الله الكرام ، وهم الذين اختارهم الله على عينه لتبليغ رسالته ، وإقامة الحق والعدل والتقويم الصحيح ، الذي قامت عليه السموات والأرض ، وذلك جزء من قانون الله في كونه العظيم الفسيح . ومن هنا فلا أحد فوق التقويم والتصحيح والنقد ، ولو كان رسولاً يوحى إليه - وهذا في جانب بشريته - ومواقف تقويم الأنبياء وعتابهم على ما قاموا به من تصرفات في لحظات بشريتهم متعددة في القرآن الكريم كما مر معنا ، فالنبي داود قد فزع وخاف وهو نبي ، وناله التنبيه من الخصمين بأن يحكم بالعدل ولا يشطط ، وقد أعطى الحكم بسرعة - والأصل التروي كما هو المعتاد - لأحد الخصمين على ضوء ما سمع مباشرة بأن خصمه قد ظلمه - وواقع الحال يدل على ذلك - وأعطى داود قاعدة جليلة للخصمين في كيفية التقويم والحكم بأن البغي يأتي من الخلطاء ، ولكنه ضبط المسألة بأن الكثير منهم يفعلون ذلك وليس كلهم ، مجانية لسلبية التعميم التي تقع في مثل هذه المواقف التقويمية . والمستثنى هنا على قاعدة داود عليه السلام هم صنف المؤمنين " وقليل ما هم " .

ثم أدرك داود موقفه ، ودخل عنده بعض الظن والحدس أن الذي حصل معه هو نوع من الاختبار والفتنة .

وهنا يقوّم نفسه ويستغفر ربه وينيب إليه ويركع . وعادة لا يقع ذلك إلا بعد الشعور بوقوع ما لا يجب - وأنبياء الله كلهم على عصمة - وتأتي مغفرة الله له مباشرة على ما حصل ، خاصة أنه ذا مكانة ومنزلة وحسن رجوع وعودة إلى ربه الكريم .

ويأتي القول الفصل والتقويم الصريح من الحق تبارك وتعالى دون غموض أو لجاجة . يا داود أنت خليفة ودورك الحكم بالعدل والحق ، وإياك واتباع الهوى الذي يضل عن سبيل الله ، وهو عائق منيع أمام دورك ومهمتك . فعاقبة المضلين عذاب شديد يوم الحساب . والخطاب مباشر وصريح في مناسبة تقويمية لنبي الله داود . وهو ولاشك دستور قائم للناس

كل الناس على مر حياتهم ، ولا يقف عند قصة هذا النبي الكريم فقط، وذلك من باب أولى إذ أن في قصصهم عبرة لأولي الألباب .

ويذم الله الظن الذي يعتمد الكافرون ، وهم ينظرون إلى خلق السموات والأرض ، ويرون ويقيّمون أنها خلقت باطلاً بلا هدف ولا غاية . والظن أكذب الحديث ، وهو لا يغني من الحق شيئاً ، ويشوش إشراقه النظر ، واستقامة العدل ، وحسن التقويم . وهو عائق نفسي وعقلي يورث التردد والقلق ، وبعضه إثم كريمة مدمر . وذلك غير التروي والتحقيق والتدقيق الصادق عند مواقف الحكم والتوصيف والتقويم الذي يحمّد في مكانه ووقته المناسب . وتؤكد خاتمة الآيات على أن الهدف من هذه الوقفات التقويمية في قصة داود عليه السلام هو تأكيد مبدأ أن الله لا يمكن أن يساوي بين الذين عملوا الصالحات ، وبين المفسدين وبين المتقين والفجار . وهذا هدف منهجية التقويم كلها في الدنيا والآخرة .

ونقف - قبل أن نترك هذه الآيات الكريمات من قصة داود عليه السلام - بعض

وقفات مع تعليقات أهل العلم من المفسرين :

قول الله عز وجل ﴿ ولا تتبع الهوى ﴾ - وهو شاهدنا في هذا المبحث - فتميل مع

أحد لقرابة أو صداقة ، أو محبة ، أو بغض للأخر ، فيضلك الهوى ، ويخرجك عن الطريق المستقيم <sup>(١)</sup> .

يورد ابن كثير في تفسيره حول الآية : " يا داود إن جعلناك خليفة ... بما نسوا يوم الحساب " هذه وصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المنزل من عنده تبارك وتعالى ، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله ، وقد توعّد تبارك وتعالى من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد . قال ابن حاتم حدثنا هشام بن خالد ، حدثنا الوليد ، حدثنا مروان بن جناح حدثني إبراهيم أبو زرعة وكان قد قرأ الكتاب أن الوليد بن عبد الملك قال له : أ يحاسب الخليفة ، فأنت قد قرأت الكتاب الأول ، وقرأت القرآن ، وفقهت ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين أقول ؟ قال : قل في أمان الله ، قلت : يا أمير المؤمنين أنت أكرم على الله أو داود عليه الصلاة والسلام ، إن الله تعالى جمع له النبوة والخلافة ، ثم توعده في كتابه ، فقال تعالى ﴿ يا داود إن جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) انظر تفسير الكريم: ص ٦٥٨ .

(٢) ابن كثير : ج ٤ ، ص ٣٣ .

إذن "فهى الخلافة فى الأرض ، والحكم بين الناس بالحق ، وعدم اتباع الهوى - فىما يختص بنبى - وهو السىر مع الانفعال الأول ، وعدم الترىث والتثبىث والتبىن ... مما ىنتهى مع الاستطراد فىه إلى الضلال .

أما عقب الآىة المصور لعاقبة الضلال فهو حكم عام مطلق على نتائج الضلال عن سبىل الله ، وهو نسیان الله والتعرض للعذاب الشدىد یوم الحساب . ومن رعاىة الله لعبده داود أنه نبهه عند أول لفته ، ورده عند أول اندفاعه ، وحذره النهاىة البعىدة . وهو لم یخط إليها خطوة ! و ذلك فضل الله على المختارىن من عباده . فهم ببشریتهم قد تعثر أقدامهم أقل عثرة ، فىقبلها الله ، ویأخذ بىدهم ، ویعلمهم ، ویوفقهم إلى الإنابة ، ویغفر لهم ، ویغدق علیهم بعد الابتلاء ... (١) .

و ورد حول مفهوم الآىة ﴿ أم نجعل الذىن آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدین فى الأرض أن نجعل المتقىن كالفجار ﴾ أن لا نفعل ذلك ولا ىستون عند الله ، وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من دار أخرى ىثاب فىها هذا المطىع وىعاقب فىها هذا الفاجر ، وهذا الإرشاد ىدل العقول السلىمة والفطر المستقىمة على أنه لا بد من معاد وجزاء . فإنا نرى الظالم الباغى ىزداد ماله وولده ونعمیه ، وىموت كذلك ، ونرى المطىع المظلوم ىموت بكمده ، فلا بد فى حكمة الحكىم العلىم العادل الذى لا ىظلم متقال ذرة من إنصاف هذا من هذا ، وإذا لم ىقع هذا فى هذه الدار فتعین أن هناك داراً أخرى لهذا الجزاء والموساة . ولما كان القرآن ىرشد إلى المقاصد الصحیحة والمآخذ العقلیة الصریحة ، قال تعالى ﴿ کتاب أنزلناه إلیك مبارک لىدبروا آیاته ولىتذکر أولوا الألباب ﴾ أى ذوو العقول ، وهى الألباب جمع لب هو العقل " (٢) .

وجاء فى قوله تعالى ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بینهما باطلاً ... ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ ... ولىتذکر أولوا الألباب ﴾

إن خلق السماء والأرض وما بینهما لم یكن باطلاً ، ولم یقم على باطل . إنما كان حقاً ومقام على الحق . ومن هذا الحق الكبىر تتفرغ سائر الحقوق . الحق فى خلافة الأرض ، والحق فى الحكم بین الخلق ، والحق فى تقویم مشاعر الناس وأعمالهم ، فلا ىكون الذىن آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدین فى الأرض ، ولا ىكون وزن المتقىن كالفجار ، وهذه

(١) الضلال : ج ٥ ، ص ٣٠١٨-٣٠١٩ .

(٢) ابن كثیر : ج ٤ ، ص ٣٤ .

الحقائق لا يتصورها الكافرون ، لأن فطرتهم لا تتصل بالحق الأصيل في بناء هذا الكون ، ومن ثم يسوء ظنهم بربهم ولا يدركون من أصالة الحق شيئاً .. ﴿ ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾ (١) .

إن المتجول في دائرة الاجتماع البشري ، والملتطع في أحوال النفس البشرية ونسيجها الداخلي، وتجارب القصص القرآني ، ومواقف الكتاب الكريم التقويمية ليدرك أن الهوى والظن مركبان سيئان تمتطيها النفس الإنسانية للانزلاق في حماة الظلم والنجس والحيف ، عند مناسبات الحكم والتقويم ، وأشد ما يكون ذلك عندما يكون التقويم ذاتياً ، والنقد والحكم داخلياً .

١٠) ونختتم هذا المبحث من فصل عوائق التقويم بآية وردت في سورة الروم حول كيف يكون الهوى عائقاً أما اتباع الحق وتقويم الأمور على وجهها المطلوب . قال تعالى : ﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم من ما ملكت أيمانكم من شركاء في ما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ، بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدي من أضل الله وما لهم من ناصرين ، فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [الروم: ٢٨-٣٠] .

تجيء هذه الآيات بعد جولة متسعة في آيات الله ، ودلائل خلقه وقدرته في ضمير الكون ومشاهده ، وفي أغوار النفس وفطرتها ، وما في ذلك من آفاق وآماد ، وأعماق وأسرار ، وظواهر وأحوال عبر الآيات القرآنية السابقة للآيات أعلاه . تجيء هذه الآيات لتظهر أن المانع من الاعتبار ، وانتهاج المنهج القويم في توزيع الأمور ووضعها في نصابها الصحيح في إرجاع كل ذلك لخالقه وموجده ، هو الهوى ، وزوغان الفطرة ، وتراكم بعض الران عليها ، مما يورث تحكم ميزان الشهوة ، والطيش والنزوة .

والمثال المضروب في الآية الأولى يرجع الإنسان إلى الميزان الصحيح ، بعد أن أثبت أن المشركين لا يقبلون أن ينازعهم عبيدهم بما ملكت أيديهم وهم بشر ، فكيف يقبلون بأن يشارك الله في ملكه آلهة أخرى مخلوقة مدعاة . وإذا علم من هذا المثال أن من اتخذ من دون الله شريكاً ، يعبده ويتوكل عليه في أموره ، ليس معه من الحق شيء . فما الذي أوجب لهم الإقدام ، على أمر باطل ، توضح بطلانه ، وظهر برهانه ؟ لقد أوجب لهم ذلك ، اتباع

(١) انظر الظلال : ج ٥ ، ص ٣٠١٩ .

الهوى ، فلهذا قال : ﴿ بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ﴾ هويت أنفسهم الناقصة التي ظهر من نقصها ، ما تعلق به هواها ، أمراً يجزم العقل بفساده ، والفطر برده ، بغير علم دلهم عليه ، ولا برهان قادم إليه " (١) .

ولقد أظهرت الآيات ظلم هؤلاء ، وسبب الظلم من الهوى ، والهوى يحجب العلم والمعرفة ، أو يسيرها في غير طريقها الصحيح ، وكل ذلك يورث الضلال والانحراف . ولذلك كان التوجيه للرسول أن يوجه وجهه للدين القويم المستقيم الذي يضع الأمور في نصابها ، على أساس معاييرها ، وموازينها الخالية من تركيبة الشر والانطماس . الهوى مركب الظلم ، وحاجب العلم ، ومورد الضلال والشرك ، والهوى لا ضابط له ولا مقياس . إنما هو النفس المتقلبة ، ونزوتها المضطربة ، ورغباتها ومخاوفها ، وآمالها ومطامعها التي لا تستند إلى حق ولا تقف عند حد ، ولا تزن بميزان . وهو الضلال الذي لا يرجى معه هدى ، والشروء الذي لا ترجى معه أوبة " فمن يهدي من أضل الله " نتيجة لاتباعه هواه " وما لهم من ناصرين " يمنعونهم من سوء المصير " (٢) .

ومما سبق في مناقشتنا لمبحث عائق الهوى والتعصب كأحد عوائق التقويم الصحيح الأساسية نذكر بعض النقاط المهمة :

١- يعرقل الهوى منهجية التقويم السليم في كافة مناحي الحياة البشرية ، يعرقلها في مجال الفكر والعقل، ويعرقلها في مجال الإيمان والاعتقاد ، ويعرقلها في مجال الحكم والعدل، وفي مجال النفس واستقامتها ، وفي مجال الاجتماع البشري كله . إنه أساس الانحراف والميل عن الحق أبداً .

٢- لا أحد فوق ميلان النفس وهواها وشهوتها - ما دام بشراً - ولو كان من المرسلين الكرام ، والأنبياء البررة . وقد خاطب القرآن بعض الأنبياء بأن لا يتبع هواه - وحاشاهم ذلك - إنما هو المنهج الذي يجب أن يراعيه كل بني البشر ، وينطبق على كل بني البشر . ويتدارك الله رسله وأنبيائه في اللحظات المناسبة . ليؤكد عصمتهم ، ويدلل على بشريتهم ، ويعمم المنهج على جميع خلقه .

٣- يمكن علاج الهوى بتربية النفس وتقويمها ، وتوازن خطوطها المتشعبة ، ولا يكون ذلك إلا عبر مقاييس موجدتها ، وضوابط خالقها ( الله رب العالمين ) .

(١) تيسير الكريم : ص ٥٨٩-٥٩٠ .

(٢) الضلال : ج ٥ ، ص ٢٧٦٧ .

٤- الهوى والتعصب قد ينطلقان من بينات فقيرة في علمها ، فقيرة في تمدنها ، وحضارتها ومعيشتها ، وذلك نتاج الجهل والفقر والحرمان ، ونظرة النزق والغيبض تجاه الآخرين ، ممن هم في بينات أفضل علماً ، وحضارة وعيشاً. وقد ينطلقان في المقابل من بينات متمدنة متعلمة مترفة ، وذلك نتاج خواء الروح ، أو غلبة الطين ، ونظرة الاستعلاء والتكبر على الآخرين ، ممن هم في بينات أقل شأناً وعلماً وتمدناً . وكل ذلك لأن النفس البشرية واحدة بمقوماتها ، ومكوناتها عند الفقراء ، وعند الأغنياء سواء . ومعيار استقامتها واستوائها وتوازنها ووسطيتها هو انضباطها بموازين خالقها التي تجعلها تقدر النعمة فلا تبطرها ، وتصبر على المحنة فلا تقعدها ، وتهبط بها .

٥- أكثر ما يمتلك الهوى والتعصب أصحاب المصالح المتنفيذين ، الذين يخافون دائماً من النظر إلى الأمور بالشكل القويم المستقيم ، لئلا يكون ذلك سبباً في زوال مصالحهم . وخاصة من ركب منهم هواه ضد العقائد الصحيحة الربانية ، وتمسك بعقائد الآباء تقليدياً وهوى ، وتعصباً خوفاً على المكانة والمصلحة .

\*\*\*



## **المبحث الثاني**

### **الظن والريبة والشك**

## المبحث الثاني الظن والريبة والشك

الريبة والظن والشك صفات ذات معان مترادفة ، تكتنف النفس البشرية والقلب الإنساني ، فتكسبه التردد والحيرة وسوء التقدير ، وذلك يصدُّ عن صواب الرأي ، وسليم التقويم . وهي أمراض فردية تصيب الأفراد ، واجتماعية تصيب المجموعات والمجتمعات . وقد حصن التصور الإسلامي والمنهج القرآني الفرد المسلم والجماعة المسلمة من هذه الآفات ، وشدد على ضرورة تنظيف الضمائر والسلوكيات منها ، وورد ذمها في أكثر من موضع ، لما تشكله من مانع أمام العدل والاستقامة ، والحكم بالحق وحسن النظر والقياس . لذلك قال الله تعالى : ﴿ وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴾ .

فمصدر الريبة هنا هي القلوب ، ونتيجة الريبة هي التردد والحيرة . وما أسوأ أن يتأرجح القلب متردداً محتاراً ، لا يعزم على رأي ، ولا يصدر قراراً . ولا يصيب حقاً . وناقش هذا المبحث كأحد عوائق التقويم الصحيح عبر التطواف مع آيات الكتاب العزيز ذات العلاقة بالموضوع :

١- يقول الله تعالى في سورة الفتح واصفاً موقف المنافقين والمخلفين من الأعراب ، وسوء ظنهم بنتيجة المؤمنين يوم الفتح .

﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعدَّ لهم جهنم وساعت مصيراً ﴾ [الفتح:٦] .

ويقول تعالى : ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ [الفتح:١٢] .

لقد وقف الظن الحائك في صدور المنافقين والأعراب أمام تقديرهم السليم للموقف ، وتقويمهم لميزان المعركة، وجعلهم يقيسون بمقياس الكثرة والقلة العددية في الأشخاص والإمكانات . وطمس هذا الظن على قلوبهم وحجب على أفهامهم من أن ينظروا إلى مقياس الإيمان والبيعة ونصرة الله وتأييده . وبذلك سمى الله ظنهم بالسيئ ، إذ ربما يكون الظن حسناً إذا لم يتجاوز الحق ، ويتعدى على العدل . " لقد ظنوا ظنهم ، وزين هذا الظن في قلوبهم ، حتى لم يروا غيره ، ولم يفكروا في سواه ، وكان هذا هو ظن السوء بالله ، والناشئ من أن قلوبهم بور . وهو تعبير عجيب موح . فالأرض البور ميتة جرداء ، وكذلك قلوبهم ،

وكذلك هم بكل كيانههم بور . لا حياة ولا خصب ولا إثمار . وما يكون القلب إذ يخل من حسن الظن بالله ؟ لأنه انقطع عن الاتصال بروح الله ؟ يكون بوراً ، ميتاً مجرد نهايته إلى البوار والدمار ، وكذلك يظن الناس بالجماعة المؤمنة ، الناس من أمثال أولئك الأعراب المنقطعين عن الله . البور الخالية من الروح والحياة ، هكذا يظنون دائماً بالجماعة المؤمنة عندما يبدو أن كفة الباطل هي الراجحة " (١) .

وما أشنع وأعظم أن يتجه الظن إلى الحق تبارك وتعالى - كما كان شأن المنافقين والمخلفين من الأعراب- يظنون بالله ظن السوء ، إنها ولا شك ارتكاسة وانحدار بشري ، أن يظن المخلوق بخالقه ظن السوء، فيعتقد ويظن أن الله غير قادر على إرجاع الرسول والمؤمنون إلى أهلهم وديارهم أبداً . وذلك لظنهم بقوة عددهم ، ومقدرته عليهم . فاضطربت مقاييسهم ، واختلت تقويماتهم ونظرياتهم لمعايير الحفظ والحماية والغلبة . أنه الظن والتردد يفعل فعله في النفوس الهابطة المتعلقة بذيول الدنيا ، وموازن الحياة فقط .

٢- ويوجه القرآن توجيهاً كريماً عاماً للمؤمنين أن يجتنبوا كثير الظن كما ورد في سورة الحجرات ، وذلك في معرض تثبيت منهج القيم الاجتماعية والأخلاقية في المجتمع المسلم ، كيف تكون وما هي معاييرها وكيف تقومها وننظر لها ؟ ولذلك نهى عن الظن الذي يشوش ميزان التقويم ، والحكم الصحيح في الوسط الجماعي الأخلاقي ، الذي هو لحمة البنيان المجتمعي وروحه التي تسري في أوصاله . يقول تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ [الحجرات: ١٢] .

" يقول تعالى ناهياً عباده المؤمنين عن كثير من الظن ، وهو التهمة والتخوف للأهل والأقارب والناس في غير محله ، لأن بعض ذلك يكون إثماً محضاً ، فليجتنب كثير منه احتياطاً . وروينا عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أنه قال : "ولا تظن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيراً ، وأنت تجد لها في الخير محملاً" (٢) .

والظن هنا يجعلك تحكم على الطرف المقابل بدون علم وتحقق ، وتقومه بدون معيار ، فتزل قدمك في تقويمه ، وتضع فيه ما ليس فيه ، وتزرع عنه ما هو فيه خيراً كان أو شراً .

(١) الظلال : ج ٦ ، ص ٣٣٢٠ .

(٢) ابن كثير : جزء ٤ ، ص ٢١٤ .

والكثير من الظن هو المذموم، إذ ربما يكون بعضه مع وجود القرينة مناسب في مكانه. وكثير الظن يقودك إلى التجسس والتحسس لمعرفة ما تريد. وهذا خلق ذميم عامة، فهو يقود للغيبة، والغيبة خصلة ذميمة، تدمر النفوس والروابط، وصاحبها كمن يأكل لحم أخيه ميتاً، وذلك مكروه ممنوج لكل الطباع السليمة، والأخلاق الكريمة.

ولربما يحتاج الإنسان عند فساد الذمم وضعف الأخلاق أن يدقق في الأمور، ولا يحكم ويقوم بسرعة وسذاجة، وحسن ظن ونية طيبة دائماً، وخاصة عندما يتعلق ذلك بحقوق الناس، والمصلحة العامة، وعند الجرح والتعديل والتقويم لغرض ومصلحة جماعية، أو خيرية، أو إنسانية. وهذا غير سوء الظن الذي ليس له غرض شريف، مصدره التواء النفس وزوغانها عن الحق، بل والكيد للحق وأهله، كرهاً وبغضاً وعداوة.

" بهذا يظهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيئ، فيقع في الإثم، ويدعه نقياً بريئاً من الهواجس والشكوك، أبيض يكن لإخوانه المودة التي لا يخدشها ظن السوء، والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك، والطمأنينة التي لا يعكرها القلق والتوقع. وما أرواح الحياة في مجتمع برئ من الظنون!

ولكن الأمر لا يقف في الإسلام عند هذا الأفق الكريم الوضيء في تربية الضمائر والقلوب. بل إن هذا النص يقيم مبدأ في التعامل، وسياجاً حول حقوق الناس الذين يعيشون في مجتمعه النظيف، فلا يؤخذون بظنه، ولا يحاكمون بريبة، ولا يصبح الظن أساساً لمحاكمتهم، بل لا يصح أن يكون أساساً للتحقيق معهم، ولا للتحقيق حولهم. والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: " إذا ظننت فلا تحقق " ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء، مصونة حقوقهم، وحررياتهم، واعتباراتهم. حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤخذون عليه. ولا يكفي الظن بهم لتعقبهم بغية التحقق من هذا الظن الذي دار حولهم " (١).

٣- يقول الله تعالى في سورة الأنعام في توجيه نبيه صلى الله عليه وسلم بعدم طاعة أكثر من في الأرض بسبب إن ذلك يضلّه عن سبيل الله، فهم يتبعون الخرص والظن فيما يريدون حمله عليه ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم، وإن تطع أكثر من الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ [الأنعام: ١١٥-١١٦].

(١) الظلال: ج ٦، ص ٣٣٤٥.

والظن والحزر والتوقع يجعلهم يقيمون الأمور على غير حقيقتها ، وقد وصل الأمر بهؤلاء إلى أن يحاولوا زحزحة الرسول عن رسالته وانحرافه عنها .

" وهم في ضلالهم ليسوا على يقين من أمرهم ، وإنما هم في ظنون كاذبة ، وحسبان باطل ﴿ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ فإن الخرص هو الحزر ، ومنه خرص النخل ، وهو حزر ما عليها من التمر ، وذلك كله على قدر الله ومشيئته " (١)

إن نقبض الظن هو التيقن والصدق ، ونقبض الزوغان والتوهم الذي يقود إليه الظن هو : العدل وحسن التقويم ، وتمام الأمر .

لذلك قال الله تعالى - قبل ذكر الضلال والظن والخرص في حق أكثر أهل الأرض - قال : ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ﴾ وإلى جانب تقرير أن الحق هو ما تضمنه الكتاب الذي أنزله الله ، يقرر أن ما يقرره البشر وما يرونه إن هو إلا اتباع الظن الذي لا يقين فيه ، واتباعه لا ينتهي إلا إلى الضلال . وأن البشر لا يقولون الحق ولا يشيرون به ، إلا إذا أخذوه من ذلك المصدر الوحيد المستيقن ، ويحذر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يطيع الناس في شيء يشيرون به عليه من عند أنفسهم مهما بلغت كثرتهم " (٢) .

٤- وتعالج سورة يونس عليه السلام طرفاً من أوهام وظنون المشركين في مجال العقيدة والتصوير ، في الخلق والبعث ، وفي الهداية للحق ، وذلك بنوع من التهكم والتعريف بالشركاء ، الذين يتخذهم المشركون من دون الله تعالى ، ويعتمدون في ذلك على الظن والوهم الذي يطيش بعقولهم ، ويضعف أفهامهم ، و ينحرف بحكمهم وتقويمهم للأشياء ، والعقائد والتصورات . يقول تعالى : ﴿ قل هل من شركائكم من يبدؤ الخلق ثم يعيده قل الله يبدؤ الخلق ثم يعيده فأنى توفكون ، قل هل من شركائكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدي إلا أن يهدي فما لكم كيف تحكمون ، وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يُغني من الحق شيئاً إن الله عليم بما يفعلون ﴾ [يونس: ٣٤- ٣٦] .

قوله تعالى : ﴿ ما يتبع أكثرهم إلا ظناً ﴾ يريد الرؤساء منهم ، أي ما يتبعون إلا حدساً وتخريصاً في أنها آلهة وأنها تشفع ، ولا حجة معهم . ﴿ إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾

(١) ابن كثير : جزء ٢ ، ص ١٦٠ .

(٢) الظلال : ج ٣ ، ص ١١٩٥ .

قيل الحق هنا اليقين ، أي ليس الظن كاليقين ، وفي هذه الآية دليل على أنه لا يُكتفى بالظن في العقائد <sup>(١)</sup> .

واستقامة العقائد والتصورات البشرية ونقائنها من الظنون والتخرصات هي أساس الحق وركنه الركين . وما يجعل الإنسان ينحرف بها ، ويضطرب نظره واستدلاله الصحيح عليها، إلا الظن والحدس ، والتردد الذي يفضي إلى التشبث بالتقاليد وميراث الآباء والأجداد، أو إلى نزعة الهوى والتوهم والرجم بالغيب . ﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ ﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يُغني من الحق شيئاً ﴾ ولذلك عقب على التساؤل عن كيفية حكمهم على الأشياء بتهكم واستغراب ، وذلك بتقرير واقعهم في النظر والاستدلال والحكم والاعتقاد... فهم يظنون أن الله شركاء، ولا يحقون هذا الظن ولا يمنحونه عملاً ولا عقلاً... ولا يمتحنون هذه الخرافة ولا يطلقون عقولهم من إسار التقليد الظني .. وهكذا يظنون في كل شيء في القرآن ، والرسول والتوحيد ، ويعيشون في مجموعة من الظنون التي لا تحقق لهم من الله شيئاً <sup>(٢)</sup> .

٥- يقول الله تعالى في سورة النجم : ﴿ إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وأباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوي الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾ ويقول كذلك: ﴿ ما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يُغني من الحق شيئاً ﴾ [النجم: ٢٣، ٢٨] .

تعرض الآياتان كيف يقود سوء الظن إلى سذاجة التفكير ، وسخافة التصور ، إذ يجعل المشركون الملائكة بنات الله ، فينسبون لأنفسهم الذكور والبنين ، والله سبحانه البنات والإناث. ﴿ إن يتبعون إلا الظن وما تهوي الأنفس ﴾ فلا حجة ولا علم ولا يقين . إنما هو الظن يقيمون عليه العقيدة ، والهوى يستمدون منه الدليل .

والعقيدة لا مجال فيها للظن والهوى ، ولا بد فيها من اليقين القاطع والتجرد من الهوى والغرض ... ومتى انتهى الأمر إلى شهوة النفس وهواها فلن يستقيم أمر، ولن يجدي هدى ، لأن العلة هنا ليست خفاء الحق، ولا ضعف الدليل ، إنما هي الهوى الجامح الذي يريد ، ثم

(١) القرطبي: جزء ٨ ، ص ٣٤٣ .

(٢) انظر الضلال : ج ٣ ، ص ١٧٨٤

يبحث بعد ذلك عن مبرر لما يريد ! وهي شر حالة تصاب بها النفس فلا ينفعها الهدى ، ولا يقنعها الدليل " (١) .

أن من أهم أسلحة الرشد والحكمة ، وحسن الحكم والتقويم لدى الإنسان هي : حرية الفكر والتبصر ، ونبذ التقليد والتحجر أولاً ، وتوفير الحجة والدليل والمبرر المقنع ثانياً ، والعلم والمعرفة والخبرة ثالثاً . فإذا خلا رصيد الإنسان ، وفرغت جعبته منها ، فإنه سينقاد لظنه ويستسلم لهواه ، فيصل بذلك إلى اعتقاد الخرافات ، وتصور السذاجات ، وتلعب بعقله ورشده وبصيرته ، أحابيل الشيطان ، وظنون النفس وتهويماتها .

٦- يقول الله تعالى مبيناً كيف يكون الشك والارتياب مانعاً لحسن النظر ، والتصديق بالبينات ، واتباع الرسل ، وذلك في سورة غافر ﴿ ولقد جاءكم يوسف بالبينات فما زلتم في شك مما جاءكم به حتى إذا هلك قلتم لن نبعث الله من بعده رسولاً كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ، الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ [غافر: ٣٤-٣٥] .

الشك يطمس على البصائر أن ترى البينات الواضحات من دلائل الحق وبراهين الرسالة . فتمادي هؤلاء وأسرفوا في شكهم ، بأن نفوا أن يبعث الله من بعد يوسف من نريته رسولاً ، وذلك إسراف وارتياب يقود إلى الضلال ، وكل ذلك لسوء تقويمهم وضعف استقامتهم على الحق ، وجدالهم في آيات الله بغير حجة ولا سلطان ، ولذلك حل بهم مقت الله ووصفوا بالكبر والجبروت . والشك والارتياب ومجادلة الحق والإسراف والتكبر والجبروت ، صفات مرذولة تحيد بالفكر عن الاستقامة ، وبالعقل عن الإدراك الحسن والتقويم السليم .

ولذلك " فالحسد والبغي والظلم ، والكبر والعناد ، واتباع الهوى ، والغلو والاستهزاء بدين الله ، والقول على الله بغير الحق ، واتباع الشيطان وكرهية الحق ، وإرضاء الناس في سخط الله ، واتباع الظن ، والجهل وعدم العلم ، والنفاق ، وتكذيب الحق من أول وهلة دون تدبر أو نظر ، والغرور بالحياة الدنيا ، وسوء الظن بالله ، وطول الأمد ، وقسوة القلب ، واتخاذ أعداء الله أولياء توهماً لتحقيق منفعة أو دفع مضرة ، واتباع الباطل والركون

(١) الظلال: ج ٦ ، ص ٣٤٠٨ - ٣٤٠٩ .

إلى أهله ، كل ذلك وغيره من الشرور والمفاسد والعلل التي تصرف الناس عن الحق ،  
وتبعدهم عن استحباب الهدى والرشاد (١) .

وكذلك فإن منهج التقويم والحكم في النفس البشرية ينحرف ، ويتعطل ويختل ، ويميل  
عن الصواب لنفس الأسباب السالفة ، لأن التقويم والحكم على الأشياء يجب أن يكون خالياً  
من العوائق ، والشوائب ضمن الحق والعدل الذي مصدره الحق تبارك وتعالى .

٧- والآيات المتكلمة عن الشك والريب والظن كثيرة تُعد بحوالي (٦٩) آية ، وليس  
القصْد هنا استقصاء كل ذلك وبيانه ، وإنما الاكتفاء بما يُثبت بيان ما نحن بصددِه من علاقة  
الشك والريب والظن بالتقويم ، وأنه يشكل عائقاً من عوائقه . ونسرد هنا بعض الآيات  
المدعمة للموضوع . قال تعالى :

- ﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم  
وإنهم لفي شك منه مريب ﴾ [فصلت: ٤٥] .
- ﴿ يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ولكن  
أعبد الله الذي يتوفاكم وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ [يونس: ١٠٤] .
- ﴿ ألم يأتكم نبيّ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا  
الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ،  
وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴾ [إبراهيم: ٩] .
- ﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياءهم من قبل إنهم كانوا في شك مريب ﴾  
[سبأ: ٥٤] .

\*\*\*

(١) كلمة الحق في القرآن الكريم : د.محمد عبد الرحمن الراوي ، جزء ٢ ، ص ٥٩٥ طباعة جامعة  
الإمام محمد بن سعود الإسلامية - الرياض - السعودية .



# المبحث الثالث الظلم

## المبحث الثالث الظلم

الظلم ظلمات يوم القيامة ، وهو ستار كثيف يُصد عن كل خير ومنفعة ، وهو يعطل ملكات الناس وطاقاتهم ، ويطمس على تفكيرهم ويهضم حقوقهم . ولذلك نعت الله الظلم والظالمين بأشنع الصفات وأبشعها . والظلم يحجب المرء عن حسن النظر ، وسليم الحكم ، وصحيح التقويم في شأنه كله ، فيراه يرفع وينزل بغير ضابط . ويمنع بغير معيار ، ويحرم ويحل بدون ميزان . ولكنه مع ذلك قصير العمر ، هش البنيان ، لا يصمد أمام الحق والعدل إلا قليلاً . ولقد سطر القرآن مصارع القوم الظالمين والمتجبرين والطاغين ، فكانت مصارع سيئة ونتائج مفزعة . ويهمننا هنا أن نبرز بعض الآيات التي نستوحي منها أن الظلم يشكل أحد عوائق التقويم الصحيح الأساسية ، ومن ذلك ما يلي :

١) قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾ [الأعراف: ٢٣] .

- وقال تعالى : ﴿ قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبته لجة وكشفت عن ساقيها قال إنه صرح ممرد من قوارير قالت رب إنني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ [النمل: ٤٤] .

- وقال تعالى : ﴿ قال رب إنني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [القصص: ١٦] .

مرت معنا هذه الآيات الكريمات في معرض معالجتنا لمبحث التقويم الذاتي ، وبيننا أن مواقف أصحابها كانت مواقف لتقويم الذات واحترامها بالاعتراف بالخطأ . كان موقف سورة الأعراف هو موقف آدم وحواء عندما ذاقا الشجرة بإغواء الشيطان لهما ، ثم ندما على ذلك ، وقومًا نفسيهما . وشاهدنا هنا أنهما وصفا ما وقعا فيه بأنه نوع من الظلم ، وهو ظلم النفس ، وبذلك يكون سبباً رئيساً في زلتهما ، ومانع من موانع التقويم الصحيح للموقف ابتداءً - حسب أوامر ربهما - وذلك قبل الخطأ الذي عقبه التقويم الذاتي والاعتراف به . فكم هو الظلم سيء النتيجة ، وخاصة عندما يكون للذات ، فيظلم الإنسان

نفسه بما يحجزه عنها من خير وحسن تقدير والتزام وطاعة . وكان موقف سورة النمل هو موقف ملكة سبأ مع نفسها ، عندما أظهر لها سليمان عليه السلام من غرائب الأمور ، ومن آلاء الله عليه وعلى وقومه ، فاعترفت بتقويم نفسها وموقفها ، وبينت أن سبب ما كانت عليه من سوء التقدير في عبادتها لغير الله، إنما كان سببه الظلم ﴿ ربي إني ظلمت نفسي ﴾ بما كنت عليه من إعراض وسوء نظر ، ولما أنا عليه من ضلال وانحراف في العبادة والعقيدة . والموقف الأخير في سورة القصص كان مع أحد أنبياء الله الكرام ، أحد أولى العزم من الرسل ، موسى عليه السلام . وذلك عندما أخطأ في قتل القبطي ، الذي استعانه عليه أحد بني إسرائيل ، فقتله ، ثم قَوْمَ موقفه واعترف بزلاته ، وقال ﴿ ربي إني ظلمت نفسي ﴾ فظلم النفس هو الذي جعله يستعجل ، ولا يحسن تقدير الموقف ، ويقتل ذلك القبطي المصري . وإضافة إلى أن كل صاحب موقف قد قَوْمَ نفسه ، واعترف بزلاته ، وهذا في مجال التقويم الذاتي كما مر ، فإن ذكر ظلم النفس هنا يدل على أن من ظلم نفسه فإنه سوف يصرفها عن حسن التقدير والتقويم .

(٢) وقال عز وجل في سورة البقرة في جزء من قصة موسى مع بني إسرائيل وسوء تقديرهم ، وإعوجاج طبعهم ، وضلال تقويمهم ﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ وقال ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم ﴾ وقال: ﴿ وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [البقرة: ٥١، ٥٤، ٥٧].

وقصة بني إسرائيل في القرآن قصة طويلة عجيبة ، مليئة بالانحرافات والتبريرات ، والتجاوز، وسوء الطبع والتقدير والنظر ، وما كان لهم - إلا ما ندر - تقويم سليم ورأي سليم . وهنا يوصفون بالظلم في كل آية ، فظلمهم لأنفسهم جعلهم يتخذون عبادة العجل في غيبة موسى ، ويؤكد هذا موسى عليه السلام ﴿ إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾ أي بعبادتكم العجل من دون الله . وظلموا أنفسهم عند نكران نعمة الله من المن والسلوى في الصحراء القاحلة اللاهبة .

قال ابن كثير : " أي أمرناهم بالأكل مما رزقناهم ، وأن يعبدوا كما قال ﴿ كلوا من رزق ربكم واشكروا له ﴾ فخالفوا وكفروا ، فظلموا أنفسهم ، هذا مع ما شاهدوه من الآيات البينات ، والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات " (١) .

وهذا حال اليهود في كل عصر وفي كل مكان ، أصحاب مكر ، ونكران وإعوجاج . لا منهج مستقيم لهم ، ولا عدل عندهم ، ولا تقويم صادق للأمور لديهم .

" والآيات الكثيرة ، والنعم الإلهية ، والعمو والمغفرة ... كلها لا تُغير من تلك الطبيعة الجاسية ، التي لا تؤمن إلا بالمحسوس ، والتي تظل مع ذلك تجادل وتماحك ، ولا تستجيب إلا تحت وقع العذاب والتنكيل ، مما يوحي بأن فترة الإذلال التي قضوها تحت حكم فرعون الطاغية أفسدت فطرتهم إفساداً عميقاً . وليس أشد إفساداً للفطرة من الذل الذي ينشئه الطغيان الطويل ، والذي يحطم فضائل النفس البشرية ، ويحلل مقوماتها ، ويغرس فيها طباع العبيد .

استخداء تحت سوط الجلال ، وتمرداً حين يرفع عنها السوط ، وتبطلاً حين يتاح لها شيء من النعمة والقوة ... وهكذا كانت إسرائيل ، هكذا هي في كل حين " (٢) .

٣- ويعرض القرآن جزء من مواقف المنافقين ، وسوء تقديرهم في رفض حكم الله ورسوله في سورة النساء ، قال الله تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً ﴾ .

ويقول عز وجل : ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويُسلموا تسليماً ﴾ [النساء: ٦١ ، ٦٤ ، ٦٥] .

وموضوع الآيات تحاكم المنافقين لغير حكم الله ورسوله ، وهم يعرضون عن ذلك أشد الإعراض . وأثبت لهم القرآن ظلم أنفسهم بهذا الإعراض ، وعدم قبول حكم الرسول وتقويمه للأمور .

وقد نفت الآية الأخيرة عنهم الإيمان إلا بالتحاكم للرسول صلى الله عليه وسلم فيما يكون بينهم من شجار ، ويرضوا بذلك طواعية وقناعة .

(١) ابن كثير : ج ١ ، ص ٩٣

(٢) الظلال : ج ١ ، ص ٦٦ .

---

وحكم الرسول نوع من تقويم الأمور التي تعترضهم ، وظلم أنفسهم يمنع من تحاكمهم ورضاهم بتقويم النبي ونظرة وتقديره . وأمام الذين ﴿ ظلموا أنفسهم ﴾ بميلهم عن هذا المنهج - منهج التحاكم لله ولرسوله - يجيء أخيراً ذلك الإيقاع الحاسم الجازم . إذ يقسم الله - سبحانه - بذاته العلية ، أنه لا يؤمن مؤمن حتى يحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمره كله ، ثم يمضي راضياً بحكمه ، مسلماً بقضائه ، ليس في صدره حرج منه ، ولا في نفسه تلجلج في قبوله " (١) .

\*\*\*

---

(١) المرجع السابق : ج ٦ ، ص ٦٩٦ .

## **المبحث الرابع**

### **المبالغة والتقديم والتقليد**

**وفيه ثلاثة مطالب :**

**المطلب الأول : المبالغة**

**المطلب الثاني : التقديم**

**المطلب الثالث : التقليد**

## تمهيد:

المبالغة والتقديس والتقليد (في حدها المذموم) أمراض نفسية وعقلية شائعة وهي عوائق للتقويم السليم ملموسة التأثير ، ومن معانيها اللغوية:

المبالغة : الزيادة على الحد و مجاوزته .

التقديس : التنزيه عن الخطأ والأدناس ، وقال ابن جرير : هو التعظيم والتطهير .

التقليد : المحاكاة ، وفعل نفس الأمر .

والمبالغة أو الإفراط أمر يحمل الزيادة على الحد المطلوب ، وهو بذلك غير محمود . حتى في الأمور الحسية المطلوبة ، فالأكل مثلاً ، مفيد ولكن زيادته والمبالغة فيه تنقلب إلى تخمة ، فكسل ، ثم إلى فساد جسمي و حركي .

ومن أشنع مضار المبالغة إعطاء الأمر ما لا يستحقه ، أو ما ليس فيه من موازين وقيم وسلوكيات ، اجتماعية أو أخلاقية ، فردية كانت أو جماعية ، وفي مختلف الأنشطة والمجالات .

والتقديس والتنزيه أمر يحمل نفي الخطأ والقصور عن المقدس ، وتنزيهه وتعظيمه لدرجة عدم قبول أي لوم ، أو نقد ، أو حتى نصيحة أو تقويم .

ولقد وصل سخف العقل البشري أن قدس الحجارة ، والمعبودات التي شكلها بيده ، وصنعها بعضلاته . ثم جاء دور تقديس الأشخاص ، والأحزاب والأفكار ... الخ . وكل ذلك مذموم ، بل ساقط من دائرة التفكير العادي ، ناهيك عن التفكير السليم الحكيم . ولا يستثنى من ذلك إلا ما استثناه الخالق عز وجل من تقديس ذاته ، وكتابه ورسالته الخاتمة .

والتقليد والمحاكاة أمر يستوجب فعل ما قد سلف ، لشخص أو مجموعة أو فكرة أو عشيرة ... الخ ، وفيه ، جانب محمود في ثوابت السنن وأساسيات الأخلاق ، وجوانب المنافع ومحرمات الدين ، وما تنفع المحافظة معه على ضروريات الحياة . وما عداه يكون تكبيلاً للتفكير ، وسجناً للإبداع ، ومصادرة للعطاء والإنجاز .

وسنطرق هذا المبحث عبر المطالب التالية :

## المطلب الأول : المبالغة :

المبالغة في تحميل الأمور أكبر مما تحتل عائق فكري ، وشعوري ، وعملي أمام العدل ، والإنصاف والتفكير الموضوعي ، والتقويم والنقد الإيجابي . وقد انتشر هذا الأمر في حياة الناس بسبب خلل التفكير ، وازدواج المعايير ، واختلال الموازين ، والضعف الشديد في الفصل بين حدود التماس في متقابلات الأشياء .

ومن صور المبالغة في الحياة الإسلامية :

- المبالغة في وصف وتقويم الأشخاص : مما يكسبهم هالة وكبرياء موهومين . فالتقهر السياسي مثلاً يولد مداحين يرتزقون من وراء النفاق ، والمبالغة هنا تصبح فناً لإدامة المهزلة ، وتوسيع دائرة الارتزاق الدليل . فيمدح المرء ويبالغ في مدحه حتى يظن أنه وليّ نعمة المداحين ، فينتفش ويتعاضم ، ولا يطيق بعد فترة من يتفوه أمامه بكلمة إلا مدحاً وإطراءً ومبالغة ونفاقاً . فتضيع بذلك موازين الحق ، والتقويم والنصيحة ، وتضيع كذلك أقدار الرجال ، ويصبح الروبيضة هو السيد المطاع .

- الوله بحب الغرائب : فالناس تستروح للأخبار الغريبة الشاذة خاصة عند غياب خاصية الإدراك في طبائع الأشياء الدنيا والعليا . ومن ذلك - الإسرائيلية - التي شكلت جزءاً من تراثنا لما حشاه كثير من المفسرين منها في تفسيره للقرآن الكريم .

- ومن ذلك الميل للصناعة اللفظية : فالعرب يعشقون البيان واللفظ المنمق ، لذلك فقد سكت شيطان الشعر كثيراً في عهد النبوة والراشدين ، وتطور الشعر بعدها فظهر علم البديع ، حتى قيل "إن أحلى الشعر أكذبه" .

- ضعف ملكة التحقيق والتمحيص ، وقلة إمكانية التحقق مما يعرضه المسرفون ، والمبالغون والكاذبون .

" والمبالغة تقوم عند الانحباس الحضاري بوظيفة اجتماعية ، فهي تمثل من خلال تعظيم بعض بوارق الأمل ، ومن خلال تقزيم بعض المشكلات الكبرى نافذة لاستعادة بعض الثقة بالنفس ، وبعض التفاؤل بالمستقبل . لكن ذلك - مع الأسف - لا يكون إلا مؤقتاً ، كما أنها تصبح حلية لمجالس العاطلين عن العمل .

وفي حالات التحامل ضد بعض الأشخاص قد يكون الدافع إلى المبالغة شعوراً بنوع من أنواع النقص ، مما يجعل بخس الناس أشياءهم وسيلة للتخلص من ضغط ذلك المتحامل



إلى تأويل مناقب الآخرين تأويلاً يحيلها إلى مثالب ، وكل ذلك لردم الهوة القيمية بينه وبين الآخرين " (١) .

ومن صور المبالغة في المدح ما ذكره أحد طلاب الشعراي في مقدمة كتاب لوائح الأنوار ، حيث قال: " قال سيدنا ومولانا ، وقدوتنا إلى الله ، إمام المحققين ، وقُدوة العارفين ، ومربي الفقراء والمريدين ، بأقوى قواعد التمكين ، فاتح أفعال غوامض معنويات إشارات المحققين ، ومعبر رموز مشكلات العارفين ، واسطة عقد السالكين ، وريحانة وجود الواصلين " (٢) .

وسيظل صنف من الناس يفودون دفة المبالغة ، ويتكيفون معها ويشكلون عقلية الناس وأمزجتهم لا باتجاه ضرورياتهم وحاجاتهم ، إنما تجاه التهويل والتضخيم المقصود لإبهار الناس ، والاسحواذ على طاقاتهم لصالح نفع المبالغين . وما مبالغات الدعاية وإطلاقاتها المعاصرة ببعيدة . وهي تعتمد على السرعة والمعلومات والتكنولوجيا ، والنجومية والشهرة والشبهة ، وتصيغها بأوتار الخيال وأحلام المثالية . إن المبالغة تتركز على شقين من المقومات ، إما مقومات ساذجة يولدها اندهاش الجماهير وخداعهم من قبل الخداعين والدجالين وماسكي زمام الدعاية والتهريج . وهذه مقومات مصدرها العامة مثل الجهل والسطحية ، والعوارج العقلية ، وقلة الحيلة والاسترزاق . وإما مقومات فرعونية مثل الكبر والسلطان ، والتحكم بموارد الرزق ، وأساليب الترهيب والترغيب . والآيات التالية تبين التأصيل الشرعي القرآني لما نحن بصدده ، من أن المبالغة تُشكل أحد عوائق التقويم الأساسية ، قال الله تعالى ﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين ، واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾ [القصص: ٣٨-٣٩] .

وقال تعالى : ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ [غافر: ٣٩] .  
" يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ... كلمة فاجرة كافرة ، يتلقاها الملأ بالإقرار والتسليم ، ويعتمد فيها فرعون على الأساطير التي كانت سائدة في مصر من نسب

(١) انظر فصول في التفكير الموضوعي ، ص ١٧٢-٢٧٠ بتصرف .

(٢) لوائح الأنوار : للشعراي طبعة القاهرة ص ٣ .

الملوك للآلهة. ثم على القهر الذي لا يدع لرأس أن يفكر ، ولا للسان أن يُعبر ، وهم يرونه بشراً مثلهم يحيا ويموت ، ولكنه يقول لهم هذه الكلمة فيسمعونها دون اعتراض ولا تعقيب ! ... فلما توهموا عدم الرجعة إلى الله استكبروا في الأرض بغير الحق ، وكذبوا بالآيات والنذر ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ﴾ ... نبذ كما تحذف الحصاة ، أو كما يرمى بالحجر " (١) .

ملك فرعون مقومات المبالغة من إدعاء الصعود إلى إله موسى ، والاستكبار في الأرض ، وإذلال الملأ (زمرة الحكم) ومنع منطق التفكير والتقويم ، والرد والتعبير ، فتفرعن وبالغ ، وادعى بذلك الألوهية والجبروت ، فمنعه ذلك من أن يرضخ للحق ، ويستسلم للمنطق ، ويقوم التقويم السليم لقصته مع موسى وما يدعوه إليه من خير وإيمان . وكذلك في قول الله تعالى ﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ مبالغة في تضخيم النفس والمكانة ، وادعاء مبطن بالمصلحة العامة لقومه ، فهو يهديهم فقط إلى سبيل الرشاد .

فحجب الخير عن نفسه بنفسه ، وما أحقر النفس - وإن كان صاحبها حاكماً - عندما تقود صاحبها إلى الانتفاخ الموهوم الفارغ ، فلا يقدرها قدرها الحقيقي ، فيهوي بها إلى مهاوي الردي ، ولو بعد حين.

" هنا يأخذ فرعون ما يأخذ كل طاغية توجه إليه نصيحة . تأخذه العزة بالإثم ، ويرى في النصح الخالص افتياتا على سلطانه ، ونقصاً في نفوذه ، ومشاركة له في النفوذ والسلطان ... إنني لا أقول لكم إلا ما أراه صواباً ، وأعتقد نافعاً ، وإنه لهو الصواب والرشد بلا شك ولا جدال ! وهل يرى الطغاة إلا الرشد والخير والصواب !؟ وهل يسمحون بأن يظن أحد أنهم قد يخطئون؟! وهل يجوز لأحد أن يرى إلى جوار رأيهم رأياً؟! وإلا فلم كانوا طغاة!؟ " (٢) .

(١) الظلال : ج ٥ ، ص ٢٦٩٥ .

(٢) المرجع السابق : ج ٥ ، ص ٣٠٨٠ .

## المطلب الثاني : التقديس :

إن تقديس المقدس الحقيقي أمر محمود ، وهو موافق للفطرة البشرية في جبلتها الأولى. والإنسان يميل إلى تقديس شيء عظيم قادر قاهر ، يلجأ إليه عند حاجته ، فهو ناقص القدرة والحيلة ، مهما أبدع ، واكتشف سنن الكون حوله . وهذا هو الجانب الإيجابي في مفهوم التقديس والمقدس .

وإذا أعطي التقديس لغير المستحق له قدرة وعظمة وعلماً ، انحرف المعنى ، و طاش التفكير والفعل فيه ، فأحدث اضطراباً ، وشكل عائقاً أمام وضع الأمور في نصابها ، وإضافة الشيء لمصدره . وبالتالي فهو يحدث زلزلة في القوانين والمعايير التي توزن بها الأشياء ، وتقوّم بها الأمور .

إن ارتباط الأشخاص بالأفكار والمناهج أمر واقع ، ولكنه دقيق لا يميزه كل الناس ، فالمنهج الإسلامي: أن الفكرة فوق الأشخاص ، وأن الناس يخطئون ويصيبون ، والأنبياء في جانب الاجتهاد يقعون في ذلك . ولقد ميز أبو بكر رضي الله عنه هذه الحقيقة، وفهمها وبلغها للناس، عندما تأثروا وترددوا عند موت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر قولته المشهورة :

" من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ."  
وقد أدرك القضية عمر رضي الله عنه فعزل خالد رضي الله عنه لماً ساد عند الناس أن النصر حليفهم دائماً شرط وجود خالد رضي الله عنه معهم .

وفي المقابل فإن البعض ينتقل من تقويم الأشخاص - وهم غير مقدسين - إلى تجريح أفكارهم وعقائدهم المقدسة المصونة ، كما هو الحال عند كثير من منتقدي العمل الإسلامي وأصحابه ، فإنه يتسلل من خلال نقد أخطاء الأفراد والجماعات - وذلك موجود - إلى نقد الدين والعقيدة واتهامها بما لا يليق .

ولذلك قال حسن البناء - رحمه الله - : " إن الانتقال من تجريح الأشخاص إلى الطعن بالفكرة نفسها هو مكنم الخطر ، وهو أسلوب مكبر ، يحطم صاحبه قبل أن يحطم الناس " (١) .

(١) رسائل العاملين : د. جاسم مهلهل الياسين ، جزء ١ ، دار الكلمة ص ٥٢-٥٣ نقلاً عن : من حسن البناء إلى قيادات العمل ، ص ٦٦ .

ولقد وردت كلمة القدوس ومشتقاتها في القرآن الكريم عشر مرات في سور متعددة .  
 ثلاث منها بلفظ " روح القدس " بشأن عيسى عليه السلام . واثنان بلفظ " الملك القدوس " في حق الله سبحانه ، واثنان بلفظ "الواد المقدس طوى" وذلك بشأن موسى عليه السلام ، وواحدة بلفظ " الأرض المقدسة " بشأن بني إسرائيل مع موسى عليه السلام كذلك . وواحدة بلفظ " ونقدس لك " بما يخص الملائكة . وكل مناسباتها ومعانيها جاءت في مقام الخالق عز وجل ، وصفاته وتعظيمه وتنزيهه ، ومنزلة أنبيائه ، وتكريم الله لبعضهم في دائرة الرسالة ، وما يتعلق بها من تعظيم وطهارة وتنزيه . ولم يرد أي شيء آخر في إضفاء القداسة على غير ذلك من أمور تخص البشر ، أو الأفكار ، أو غيرها خارج دائرة المقدس الحقيقي كما أشرنا .

وتوضيحاً لذلك نذكر الآيات التي أشرنا إليها كالتالي :

-قال تعالى : ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ [البقرة: ٣٠] .

-وقال تعالى : ﴿ ولقد أتينا موسى الكتاب ووقفنا من بعده بالرسل وأتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ﴾ [البقرة: ٨٧] .

-وقال عز وجل : ﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴾ [البقرة: ٢٥٣] .

-وقال سبحانه ﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس في المهدي وكهلاً ﴾ [المائدة: ١١٠] .  
 -وقوله ﴿ قل نزله روح القدس من ربك بالحق ليثبت الذين آمنوا وهدى وبشرى للمسلمين ﴾ [النحل: ١٠٢] .

-وقوله ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين ﴾ [المائدة: ٢١] .

وقوله ﴿ إني أنا ربك فأخضع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴾ [طه: ١٢] .

- وقوله تعالى : ﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون ﴾ [الحشر: ٢٣] .
- وقول الله عز وجل ﴿ إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ﴾ [النازعات: ١٦] .
- وأخيراً قوله تعالى : ﴿ يسبح لله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ [الجمعة: ١] .

وبذلك يتقرر أن التعظيم والتطهير والتنزيه ، والخروج من دائرة الخطأ والنقصان لا يكون إلا لله ، وما خص به من شاء من مخلوقاته . وإضفاء صفة التقديس على غير ذلك اختلال وسفه ، يُرْكِعُ البشر لغير خالقهم ويخدعهم ويستخف بعقولهم ، ومن ثم يقودهم إلى مرتبة أدنى في التفكير والعطاء .

ومن نتائج تقديس الأفراد أن تعلق المشكلات وحلها على فرد ، أو قائد أو حاكم بعينه . وهذا ضعف في معرفة المشاكل وآليات حلها بل وأسبابها ومسبباتها . ويحمل هذا الأمر كذلك أن يصبح الأفراد فوق المنهج ، والقانون ، والمصالح العامة ، باسم الرموزية والأسبقية وما شاكل ذلك . ولا شك هنا أن الرموزية والأسبقية لها وزنها وقيمتها ، ولكن خارج دائرة التقديس ، والتعظيم التي تمنع التقويم والنصح ، وتجهز عليهما . ويتولد من حالة التقديس خوف الناس من نقد المقدسين وتقويم أعمالهم لأن البسط ( الإغداق ) على الناس يقابله البغي ﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ﴾ [الشورى: ٢٧] . وهذا البغي يتوجب النقد والتمحيص ، ولا يستغني العدول والثقات عن مراجعة أعمالهم ، فضلاً عن مراجعة غيرهم لهم .

لأنه يتعاقب على حياة البشر نوعان من العمل بناءً ونقد ، والنقد يرقى العمل وينضجه ، ويوجهه ، ولكن هالات التقديس التي ترسم حول الشخص تحول بين الناس وبين نقدهم له . والأخطاء حين لا تجد من يُصححها تتجمع ، لتتضاعف كما يتضاعف البخار حتى إذا طفح الكيل انداحت في صورة انفجار مروع يذهب بالصالح والطلح. وفي حالة المجتمعات الشيوعية اليوم عبرة لمن يعتبر<sup>(١)</sup> .

(١) انظر فصول في التفكير الموضوعي ، مرجع سابق .

## المطلب الثالث : التقليد

التقليد كأي مفهوم يحمل معنيين ، معنى محمود وهو : الإتيان بما قام به الآخرون في جانب العطاء والخير ، وثوابت الأخلاق ، ومحكمات الأديان ، ومنافع البشر التي لا تختلف عليها العقول السليمة ، والفطر القويمة. وهذا ينسجم مع الاتباع والقدرة الحسنة كما هو موقفنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ . ومعنى آخر مذموم وهو: الإتيان بما قام به الآخرون بغض النظر عن مساوئه ومخالفته للثوابت الأخلاقية والدينية والمنافع العامة وهذا الثاني هو الذي يحجب منهجية التمحيص والتقويم ، واستعمال العقل ، ومملكة التمييز التي خص الله بها الإنسان دون مخلوقاته الأخرى .

وبذلك تكون حياة المرء في -مذموم التقليد - و أعماله وأكله وشربه ، ولباسه وذوقه ومشاعره ، مرهونة بما يتجدد على حياة الناس في ما يسمى " حضارة الإبداع والموضة" فتجد اللهات الرهيب خلف كل شيء ، وتنشأ بذلك قيم اجتماعية، وأخلاقية ثقيلة مرهقة، تتعب الإنسان على كل المستويات، تتعبه اقتصادياً، ونفسياً، وعائلياً ، وعقلياً ... الخ . وتجدد أحيانا أمام سباق المحاكاة والتقليد ، يضطر إلى أن يقع في ساحة المحرمات ، فيتعامل بالربا مثلاً ، من أجل تغيير أثاث بيته ، الذي في أغلبه كماليات ووجاهات ، وتجدد يستقرض مُحرجاً - وهو فقير - حتى يوفر لباس - الموضة - لزوجته أو بنته وهكذا . والأخطر من ذلك أن يتمثل التقليد في مجال العقائد والأفكار والتصورات ، ولذلك فقد ذم القرآن الكريم كل مبررات المعرضين عن اتباع الرسالات السماوية ، والإيمان بها عندما كانت مجرد تقليد للأباء والأجداد ، دون روية و تفكير ، أو تقويم وتمحيص .

ولقد ذكرت آيات كثيرات هذا المنهج التبريري ورفضته ، لأنه يشكل قيماً خادعة مخدرة أمام مسيرة الإيمان والعقل والتفتح والهداية ، ومن هذه الآيات:

- قال تعالى : ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا

حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾

[المائدة: ١٠٤] .

- وقال تعالى : ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها

قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ [الأعراف: ٢٨] .

- وقال عز وجل : ﴿ قالوا أجنبتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما

الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ [يونس: ٧٨] .

- وقال سبحانه ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ [الأنبياء: ٥٢-٥٣] .

- وقال تعالى : ﴿ نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ﴾ إلى قوله ﴿ قالوا وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ [الشعراء: ٧١-٧٤] .

- وقوله عز شأنه ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ [لقمان: ٢١] .

- وقوله سبحانه ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون ، وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون ، قل أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباؤكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾ [الزخرف: ٢٢-٢٤] .

واستنتج من الآيات السابغات مبررات التقليد ، والمحاكاة كما أبرزها أصحابها ، وبرروا بها إعراضهم واستمرارهم على ما هم عليه كالتالي :

(أ) أن ما عندهم يكفيهم - حسبنا ما وجدنا عليه آباؤنا - وكأنهم كانوا على خير واستقامة ، ولا يريدون الزيادة على ذلك . ولكن القرآن فتح أسامهم إمكانية التفكير والتقويم لما كان عليه الآباء ، فقال في صيغة التشكيك - أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون - مما يحدث عندهم صورة من التردد والتفكير في مدى ما كان عليه الآباء من علم وهداية .

(ب) الدفاع والتبرير بفعل الآباء أمام وقوعهم بالفواحش والرذائل والشهوات . ثم كان التماذي والتستر المفضوح ، بقولهم إن ذلك من أمرائه لهم . وكان رد هذه الفرية مباشراً - فانه تعالى - لا يمكن أن يأمر بالفواحش ، وكان ذلك تقوّل منهم ، بلا علم ولا بصيرة .

(ج) كان التبرير كذلك بحجة عدم الانحراف عن رصيد الآباء ، وأن لا تُسرق الكبرياء منهم وتتحول إلى غيرهم ، ولذلك حجبوا قلوبهم وعقولهم بالكلية عن الإيمان ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ .

(د) برروا عبادة التماثيل والأصنام - وهي جمادات لا تضر ولا تنفع - وقد صنعوها بأيديهم . برروا عبادتهم لها بأن هذا دين آباءهم ، وعادة وتقليد أجدادهم .

(هـ) وألمح القرآن إلى أن الشيطان هو الذي يقودهم ويؤزّن لهم تبريرهم في اتباع الآباء ، والإعراض عما أنزل الله .

(و) يبررون إتباعهم وتقليدهم لأبائهم - وهذه حجة الأمم من قبلهم - بأن آبائهم كانوا على أمة - أي على دين - وإنما فعلهم هذا هو اقتداء حسن ، بأولئك الآباء .  
ز) وأحياناً يكون هذا تبرير المترفين- والتترف غالباً ما يقود إلى فساد في التصور ، وفساد في الأفكار والسلوك - لأن اتباع الحق يذهب عنهم ما هم فيه من ترف وشهوة . ولذلك أصروا على الإعراض ، وثبتوا على الكفر .

والتقليد الأعمى الممزوج بالجهل والتعصب يقعد الأفراد والأمم عن ركب التطور ، والازدهار والهداية، ويقتل فيها ملكات الحضارة والإبداع ، واكتشاف السنن والنواميس. وقد ذاقت الأمة الإسلامية في جزء من حياتها العلمية مرارة التقليد ، والتعصب للرأي والاجتهاد، ونشأت مدارس فقهية كثيرة ، وطوائف ومذاهب تناحرت فيما بينها ليس في تنقية التراث والعلم وتطويره و تقويمه ، وإنما في إثبات رأي الشيخ أو المدرسة أو المذهب وهكذا ... حتى جاء وقت - ارتبط بالخلل السياسي ، والضعف العام الذي طال الأمة - ينادي فيه البعض بوقف الاجتهاد وسد بابه ، وإغلاق مجراه ، وتلك كارثة أفقدت الأمة أبرز ميزات في التطور والإبداع ، واحترام العلم والاكتشاف والمعرفة ، بل هزت أمانة الاستخلاف التي تعني عمارة الأرض بالخير والنماء ، ولا تقوم إلا على الاجتهاد ، واكتشاف أسرار الله ، وسننه في كونه الفسيح .

وكنت ترى كيف يفسر التلميذ متون شيخه ويسطرها بالحواشي ، ثم يأتي تلميذ التلميذ، فيملأ الحواشي بحواشي أخرى ، ويأتي تلميذ تلميذ التلميذ ، و يوجد بما يخرج الأمور عن نصابها بحواشي جديدة ، تطرز حواشي الحواشي ، ويستمر الأمر في سلسلة من المبالغات وهكذا ... حتى استيقظت الأمة ، ونفضت غبار التقليد الأصم عن كاهلها ، وجاءت الدعوة إلى التجديد، وفتح باب الاجتهاد ، والتمحيص والتقويم الذي مهد الطريق لمثل هذه الدراسات التي نراها اليوم تحاول أن تجدد ، وتقوّم وتثري .

وأرى ختاماً لهذا الفصل وهو " عوائق التقويم " أن أشير إلى نقاط وملاحظات أراها مهمة في هذا الموضوع :

١- هناك ولا شك معوقات أخرى للتقويم - ربما لم تتضمنها الآيات القرآنية ولم تشر إليها بشكل مباشر - لم نجليها ونخصها بالمعالجة ولكنها تقع في ظلال الموضوع وتبرز عملياً مثل:



(أ) تحاشي التقويم خوفاً من ظهور نتائج السلبية ، وذلك إما بسبب ضعف نفس وخور داخلي ، وإما بسبب ما يترتب على ذلك من محاسبة مادية أو معنوية .

(ب) الضعف في معرفة قيمة التقويم وفوائده على كل المستويات .

(ج) قلة التعود والتدريب عليه ، وخاصة في مرحلة الطفولة .

(د) القهر والكبت والمؤثرات السلبية عند استعماله والعمل به .

(هـ) ضعف اهتمام التربية في معالجة هذا المنهج ، وبيانه والتدريب عليه، وطرح التاريخ بصفحته البيضاء دون السوداء فقط .

(و) تعليق المشاكل والتراجع والقصور على المؤثرات الخارجية ، وعدم الرجوع للذات والداخل .

(ز) ربط البعض مفهوم التقويم والنقد وتنفيذ آلياته والعمل به بالفتنة ، وشق الصف وعرقله العمل ، وتوسيع الشقة بين الدول والشعوب الإسلامية .

٢- من الأمور التي تعيق منهجية التقويم وتأخر نضوجها ، الالتباس الحاصل في تحديد خط التماس بين متقابلات الأشياء .

فكل شيء في الوجود له متقابل ، وذلك على سنة الزوجية التي خلق الله الخلق عليها. ولكن قلة الثقافة ، واعتلال الصحة النفسية ، وخور الإرادة ، والرضا بتسطيح الأمور وتسذيجها ، والرغبة في الحل السريع ، والانبهار بظواهر الأشياء ، يجعل الأمر حساساً وصعباً يحتاج إلى مرونة وخبرة وبصيرة .ومن هذه المتقابلات التي يمكن أن نذكرها هنا على سبيل المثال وليس الحصر ، والتي يمكن أن تكون مواد علمية لدراسات مستفيضة تعالجها ، فهي بحق فواصل في الفهم وحسن التطوير ، وتعميق النظر والتقويم ، تسحق كل اهتمام . وذلك مثل:

- العاطفة والحماسة ← التعقل والواقعية .
- التعصب ← الموضوعية .
- القطرية ← العالمية .
- التفوق ← الانفتاح .
- الرجعية ← العصرية
- المصلحة الخاصة ← المصلحة العامة .
- الارتجال والعشوائية ← التخطيط والبرمجة

- السذاجة والسطحية ← العمق والروية
- المثالية والمبالغة ← الواقعية والاعتدال
- التضحية والفداء ← الأثرة والإحجام
- الدبلوماسية ← الصراحة والوضوح
- الشكل والقشرة ← المضمون والجوهر
- الكم ← الكيف
- النظرية ← التطبيق
- الحرية ← العبودية
- السعادة ← الشقاء
- الكرم والجود ← البخل والشح

وغير ذلك الكثير والكثير والمطلوب دراسة ما هو الفاصل بينهما ، فمثلاً متى يكون السراء شجاعاً ومتى يكون جباناً ؟ وهل كل بذل شجاعة ، وكل أحجام جبن وخور ؟ وهل كل تنظير وتأصيل صحيح ، وكل تطبيق وعمل صحيح ؟ متى يكون كل واحد صحيح في مكانه ووقته ، ولماذا ؟

وهل نحتاج إلى نوعية الأشياء وكيفية فقط ؟ أم نحتاج إلى كمها وحجمها فقط ؟ أم نحتاج إلى الكم والكيف معاً ؟ ومتى نحتاجهما معاً ؟ ومتى نحتاج أحدهما بنسبة أكبر من الآخر ؟ وهكذا .

ولقد قيل لعمر بن العاص رضي الله عنه يوماً " نراك فنقول هو أشجع الشجعان ، ونراك فنقول جبن عمرو - يقصدون في المعارك - فقال عمرو : " هي فرصتي إذا سنحت، وإلا انتظرتها " .

وروي أن مجموعة من الصحابة اجتمعوا وفيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال لهم عمر رضي الله عنه تمنوا . فقال أحدهم : أتمنى أن تكون هذه الدار مليئة بالمال . فأنفقها في سبيل الله ، وقال الآخر : أتمنى أن يمّد الله في عمري لأجاهد في سبيل الله ، وقال غيرهم كذا كذا .. فقالوا وماذا تتمنى يا خليفة رسول الله . فقال عمر : أتمنى أن يكون ملء هذه الدار رجالاً كأبي عبيدة". وأحياناً يكون سواد الناس " كمهم " مطلوباً " من كثر سواد قوم فهو منهم " وأحياناً يحتاج الأمر إلى نوعيات خاصة ، فعالم ذرة مثلاً يعدل

---

أولفاً مؤلفة ، والعصيان المدني مثلاً يحتاج إلى الجماهير الهادرة . ولكن التخطيط والبرمجة والتنظير قد لا يحتاج إلى أكثر من أحاد معدودة .

وانسجاماً مع سنة الزوجية ﴿ ولقد خلقنا من كل زوجين اثنين ﴾ فإن الأمر في غالبه لا يُستغنى فيه عن حديه الاثنين تمثيلاً مع وسطية الأمور " خير الأمور أوسطها " والوسطية التقاء الحدين . والأصل أن لا يتمترس الناس ويتشبثوا بإحدى طرفيه إلى درجة الاستمالة ، فإما شكل وإما مضمون ، أو إما مثالية ومبالغة ، وإما واقعية وتفريط .

والمهم هو الترجيح الصحيح بين المتقابلات حسب الظروف والأحوال والمصالح ، وتخفيف حدة التباعد والتنافر ، لأن سنة الله في الاختلاف موجودة ، ولا يمكن أن يكون الناس على نسق واحد أبداً ، وإنما المقصود هو أن تكون غالبية الناس على نحو متقارب من الفهم والانسجام .. " وكذلك خلقهم ولا يزالون مختلفين " .

\*\*\*

# الفصل السادس

## توظيف منهج التقويم القرآني

# الفصل السادس

## توظيف منهج التقويم القرآني

وفيه أربعة مباحث :

### المبحث الأول : تحديد المنهج وتوضيحه من قبل العلماء والمفكرين وفيه مطلبان

المطلب الأول : وقفة مع منهج الجرح والتعديل وعلم الرجال

المطلب الثاني : جهد العلماء في تحديد منهج التقويم والنقد

### المبحث الثاني: تربية المسلمين على منهج التقويم القرآني فهماً وسلوكاً

المطلب الأول : معالجة معوقات منهج التقويم القرآني

المطلب الثاني : تربية المسلمين على منهجية التفكير التقويمي في القرآن

### المبحث الثالث : تقويم تجارب العمل الإسلامي على ضوء منهج التقويم القرآني

### المبحث الرابع : ربط المنهج بعالمية الإسلام ، وفيه مطلبان

المطلب الأول: تقويم بعض المفكرين والكتاب لغير المسلمين

المطلب الثاني : فقه العصر وعالمية التقويم القرآني

## تمهيد:

إن فلسفة التنظير ، ومنهجية التأصيل ، وتحديد مرجعيات التصور والفكر أمر مهم ، وأساس رئيس ، تتشكل عبره الأفكار وأطر الفهم ، والتي من خلالها نحكم ونقوم ، ونقدر ونثمن ، ونزن ونعمل .

ولقد حاولنا استجلاء وتحديد هذه المنهجية عبر فصول بحثنا السابقة حول منهج التقويم في القرآن الكريم .

وإذا كان ذلك يُعد بداية سليمة ، ومقدمة لازمة لأي نتاج بشري ، فإن توظيف ذلك في واقع الحراك البشري والإنجاز العملي ، والتداول الإجرائي لهو الثمرة الحقيقية ، والنتيجة المرجوة من هذا التنظير والتأصيل . وبدون ذلك يبقى الأمر ضنكاً ذهنياً ، وجهداً بحثياً بارداً لا يعدو أن يكون خزين الكراريس ، والأذهان المستريحة .

ومن هنا كان الفصل السادس والأخير من بحثنا ، لعل ذلك أن يكمل الموضوع بحلقة عملية توظيفية، تُذكر أولى العلم والدراسة والتغيير أن يُتموا الأمر ، فيزيدوا ويُعدّلوا ، مساهمة في رفق المشروع الحضاري الإسلامي المنشود .

وانطلاقاً من أن القرآن الكريم دستور ونظام حياة، تناول منهجية التأصيل وتحديد المرجعيات ، وحض على التطبيق العملي والإجراء الفعلي لذلك التأصيل وتلك المرجعيات، وأن منهج التقويم جزء من هذا الدستور الخالد ، كان لا بد أن نحاول من خلال هذا الفصل معالجة كيفية توظيف هذا المنهج في حياة المسلمين أولاً ، ومن ثم كيفية توظيفه بينهم وبين الآخرين ثانياً .

ولقد بينا أن تواجد هذا المنهج بشموله وكماله في حياة المسلمين الذهنية والسلوكية يكاد يكون مفقوداً . فبات الأمر ضرورة ملحة ، ولازمة لا غنى عنها في آليات مشروع النهضة الإسلامية المأمولة .

وعلى ذلك فإننا سنقسّم هذا الفصل إلى عدة مباحث نعرضها كالتالي :

## **المبحث الأول**

### **تحديد المنهج وتوضيحه من قبل العلماء والمفكرين**

#### **وفيه مطلبان**

المطلب الأول : وقفة مع منهج الجرح والتعديل وعلم الرجال

المطلب الثاني : جهد العلماء في تحديد منهج التقويم والنقد

## تمهيد:

الأصل أن العلماء والمفكرين هم نجوم سماء الأمم والشعوب ، وهم هدايتها ، وقرون استشعارها ، يكشفون لها طريق العزة والمجد ، ويمهدون لها طريق العقل وميدان السلوك ، ويحددون لها مناهج الإبداع والاجتهاد والازدهار، ويضبطون سيرها بالتأصيل والموضوعية ، ويهذبون إنجازها ، ويقومون اعرجاجها، وهم يشكلون مع الأمراء - إذا اتفقوا على الخير - طرفي الصلاح والسؤدد والتقدم .

ولقد امتدح القرآن العلماء والمفكرين في مجال الخير والنفعة ، ورفع من قيمتهم ومنزلتهم فقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ وقال ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ وقال ﴿ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ .

وإن أول آية نزلت في القرآن الكريم قول الله عز وجل ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ والقراءة طريق العلم والفكر ، والتطور والازدهار .

وإذا صلح رهط العلماء في أمة صلحت الأمة ، وإذا فسدوا فسدت الأمة ، كما كان علماء بني إسرائيل طريقاً لانحرافهم ، وضلالهم وتحايلهم ، مع أنهم يعلمون الكتاب والرسالة ، ولكنهم تنكبوا الطريق وحرفوا الكتب وقتلوا المرسلين .

ولم تقدم أمة نموذجاً صالحاً من علمائها ومفكريها كما قدمت الأمة الإسلامية . خاصة وقت همود الأمة وتراجع سيرها . فكان المصلحون والمفكرون والعلماء دواء علتها ، وضيء ظلمتها ، وباذلي ثمن عزتها وحياتها .

فكان أبو بكر رضي الله عنه قاصم ردتها ، وكان ابن حنبل بطل محنتها ، وكان العز بن عبد السلام بائع ملوكها ، وكان ابن عبد الوهاب منقي عقيدتها ، وكان البناء مصحح فكرها ، ومصلح حالها ، وشهيد عزتها ، وكان المودودي داحض شبهاتها ومفكرها ، وكان الندوي أديبها ومصلح شبه قارتها ، وكان غيرهم الكثير الكثير في مجال التغيير ، والعلوم بمختلف المجالات الشرعية والكونية وغيرها . وقوائم علماء الشريعة بصنوفها لا تكاد تحصى . ففي الفقه نجومه الأربعة ومدارسهم وتلاميذهم معروفة ، وفي التفسير مدارسه وعلمائه ، وفي الحديث ومصطلحه وعلومه ورجاله كذلك ، والجهاد وقادته ورجاله



عصيون على العد والإحصاء . وكل الذي قدمه هؤلاء إنما هو عبر منهجية تغيير الواقع إلى ما هو أحسن منه ، على أساس معايير التقويم والإصلاح التي آمنوا بها ، وتربوا عليها . وهذا منسجم مع إعلان القرآن الكريم الذي منه نهلوا ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أحسن ﴾ . والتزاماً بمعالجة موضوع المبحث " تحديد منهج التقويم القرآني من قبل العلماء والمفكرين " فإننا سنناقشه عبر المطالب التالية :

### (١)المطلب الأول : وقفة مع منهج الجرح والتعديل وعلم الرجال .

ظهر منهج علم الرجال والجرح والتعديل على خلفية الاهتمام بالسنة النبوية ، وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم وتنقيته وضبطه في جو حركة الوضع والدس والتدليس ، التي وقعت في عصر الانفتاح الإسلامي على الآخرين ، والحراك السياسي ، ونشوء نزعات الشعوبية والتعصب ، والانتصار للمذهب ، والجنس والفرق ، وأهواء السلطان والحكم .

ولقد كان هذا العلم وما حوى من قواعد ومعايير وضوابط مفخرة علمية إسلامية على مر العصور، إذ لم يصل إلى مستواه حتى الآن أي علم في باب الموضوعية والدقة والتوثيق والتقويم فيما يخص هذا المجال .

ولقد شهد بذلك غير المسلمين من مثل د. سبرنجر في مقدمة كتاب الإصابة في تمييز الصحابة : يقول: يحق للمسلمين أن يفتخروا بعلم الرجال كما شاءوا . فلم توجد أمة في الماضي ولا في الحاضر دونت تراجم وسير العلماء خلال اثني عشر قرناً كما فعل المسلمون ، فبإمكاننا الحصول على تراجم خمسمائة عالم من المشهورين من كتبهم " (١) .

وعلم الجرح والتعديل يشكل طرفاً متخصصاً في منهجية التقويم والنقد الإسلامية ، وقد ركز على توثيق أو تضعيف رجال الحديث ، وذلك في مجال الأسانيد والرواة . وألفت بذلك كتب كثيرة تناولت منهجية الجرح والتعديل ، قواعدها وشروطها وأحوالها ، وتناولت رجال الحديث ، ومصطلحه ورواته ونقاده ، بشكل تفصيلي دقيق لا مثيل له .

ومن الكتب المهمة التي تخصصت في هذا المجال على سبيل المثال كتاب " الرفع والتكميل في الجرح والتعديل " للإمام أبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي الهندي.

(١) العلل ومعرفة الرجال: الإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق : وصي الله عباس ، المكتب الإسلامي ، ط ١ ١٩٨٨م، ج ١ ، ص ١٧ .

وكمثال على قوة ودقة هذا المنهج أود تسطير بعض النقول المدللة على جهود هؤلاء الجهابذة في هذه المنهجية الرائدة النوعية .

يقول اللكنوي في حدود الجرح الجائز : " وإنما جُوزَ للضرورة الشرعية ، وحكموا بأنه لا يجوز الجرح بما فوق الحاجة " (١) .

ويقول الإمام السخاوي : " وإذا أمكنه الجرح بالإشارة المفهومة أو بأدنى تصريح ، لا تجوز له الزيادة على ذلك " (٢) .

وللسخاوي أيضاً " لا يجوز التجريح بشيئين إذا حصل بواحد " (٣) .

وأورد الإمام اللكنوي في شرط الجراح والمعدل :

يشترط في الجراح والمعدل : العلم والتقوى ، والورع ، والصدق ، والتجنب عن التعصب ، ومعرفة أسباب الجرح والتركية . ومن ليس كذلك لا يقبل منه الجرح ولا التركية " (٤) .

وقال أحمد بن حجر المصري " إن صدر الجرح من غير عارف بأسبابه لم يُعتبر به " وقال " تقبل التركية من عارف بأسبابها لا من غير عارف ، وينبغي أن لا يقبل الجرح إلا من عدل متيقظ " (٥) .

وقال اللكنوي فيما يقبل من الجرح والتعديل وما لا يقبل " اعلم أن التعديل - كذلك الجرح - قد يكون مفسراً ، وقد يكون مبهماً ، فالأول لا يذكر فيه المعدل أو الجراح السبب . والثاني ما لا يبين السبب فيه .

وقال العلماء في قبول الجرح المبهم والتعديل المبهم :

- يقبل التعديل من غير ذكر سببه لأن أسبابه كثيرة .

(١) الرفع والتكميل في الجرح والتعديل : أبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي ، تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، مكتبة المطبوعات الإسلامية ط ٣ ١٩٨٧م سورية ، ص ٥٧ .

(٢) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التورخ : محمد بن عبد الرحمن شمس الدين السخاوي ، ص ٦٨-٦٩ كما في التكميل ص ٥٧ .

(٣) الرفع والتكميل : ص ٥٧ ، نقلاً عن كتاب فتح المغيب بشرح ألفية الحديث للسخاوي ، ص ٤٨٢ .

(٤) الرفع والتكميل : ص ٦٧ .

(٥) لقط الدرر بشرح متن نخبة الفكر : للحافظ محمد بن حجر بن علي المصري ، ص ١٣٥-١٣٧ .

- أما الجرح فإنه لا يقبل إلا مفسراً مبين سبب الجرح ، لأنه يحصل في أمر واحد فلا يشق ذكره . ولأن الناس مختلفون في أسباب الجرح . فمثلاً : أنه قيل لشعبة : لم تركت حديث فلان ؟ قال : رأيتَه يركب على بردون فتركتَه ، ومعلوم أن هذا ليس بجرح يوجب الترك " (١) .

- وقالوا : يجب بيان سبب العدالة ، ولا يجب بيان أسباب الجرح ، لأن أسباب العدالة يكثر التصنع فيها ، بخلاف أسباب الجرح .

- وقالوا : إنه لا بد من ذكر سبب الجرح والعدالة كليهما .

- وقالوا : لا يجب بيان سبب كل منهما إذا كان الجرح والمعدل عارفاً بصيراً بأسبابهما " (٢) .

- وقال الحافظ بن حجر في نخبته : " إن التجريح المجمل المبهم ، يقبل في حق من خلا عن التعديل ، لأنه لما خلا عن التعديل صار في حيز المجهول . وإعمال قول المجرح أولى من إهماله في حق هذا المجهول " (٣) .

- كما نجد في كتاب الله تعالى أصولاً للنقد والجرح والتعديل . قال تعالى : ﴿ قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين ﴾ [النمل: ٢٧] .

وقال في الجرح : ﴿ والله يشهد إن المنافقين لكاذبون ﴾ [المنافقون: ١] .

وقال في التعديل : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ [الحشر: ٨] (٤) .

- وقال الإمام الذهبي في ترجمة ( أبي بكر الصديق ) في كتابه " تذكرة الحفاظ " حق على المحدث أن يتورع فيما يؤديه ، وأن يسأل أهل المعرفة والورع ليعينوه على إيضاح مروياته ، ولا سبيل إلى أن يصير العارف - الذي يزكي نقلة الأخبار ويُجرحهم - جهبذاً إلا بإدمان الطنب والفحص عن هذا الشأن ، وكثرة المذاكرة والسهر والتيقظ والفهم ، مع التقوى والدين المتين والإنصاف ، والتردد إلى العلماء والإتقان ، أو لا تفعل .

فدع عنك الكتابة لست منها ولو سُددت وجهك بالمداد

(١) انظر الرفع والتكميل ، مرجع سابق ص ٧٩-٨٠ .

(٢) انظر المرجع السابق : ص ٩١-٩٢ .

(٣) انظر المرجع السابق : ص ١١٠ .

(٤) العلال ومعرفة الرجال : مرجع سابق ، موجز في الجرح والتعديل ، ص ٢٢-٢٣ .

فإن أنست من نفسك فهماً وصدقاً وديناً و ورعاً، وإلا فلا تفعل. وإن غلب عليك الهوى والعصبية لرأي ولمذهب ، فبالله لا تتعب ، وإن عرفت أنك مُخَلِّطٌ مُخَبِّطٌ مهمل لحدود الله ، فأرحنا منك " (١) .

ونستطيع القول أن منهجية التقويم والنقد والحكم على الأشياء قد بدأت كمنهج إسلامي تطبيقي مع بداية منهج الجرح والتعديل وعلم الرجال ، وإن كان قد ورد منها أقوالاً ومواقف تدل على أنها قضية موجودة في الحس والواقع الإسلامي منذ الصدر الأول للإسلام .ومن ذلك ما ورد في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه عند توليه الخلافة " أيها الناس ، إني قد وليت عليكم ولست بخيركم فإن رأيتُموني على حق فأعينوني ، وإن رأيتُموني على باطل فقوموني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم".

وجاء في مقدمة كتاب الجرح والتعديل للإمام الرازي حول أهمية منهج الجرح والتعديل ، ومواصفات من يقومون به " ليس نقد الرواة بالأمر الهين ، فإن الناقد لا بد أن يكون واسع الإطلاع على الأخبار المروية ، عارفاً بأحوال الرواة السابقين ، وطرق الرواية، خبيراً بعوائد الرواة ومقاصدهم ، وأغراضهم ، وبالأسباب الداعية إلى التساهل والكذب ، والموقعة في الخطأ والغلط . ثم يحتاج إلى أن يعرف أحوال الراوي متى ولد؟ وبأي بلد؟ وكيف هو في الدين والأمانة ، والعقل والمروءة والتحفظ؟

وورد كذلك في كشف الظنون " ... والكلام في الرجال جرحاً وتعديلاً ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عن كثير من الصحابة والتابعين من بعدهم ، وجوز ذلك تورعاً وصوناً للشريعة ، لا طعناً في الناس ، وكما جاز الجرح في الشهود جاز في الرواة. والتثبت في أمر الدين أولى من التثبت في الحقوق والأموال ، فلهذا افترضوا على أنفسهم الكلام في ذلك " (٢) .

وظاهر من المقتطفات السابقة في منهج الجرح والتعديل ، أنه منهج رائد دقيق، ولكنه تخصص في موضوع علمي إسلامي واحد ، ولم يتوسع ليشمل جميع العلوم والجوانب النظرية والتطبيقية الأخرى في رسالة الإسلام قرآناً وسنة وسيرة ... الخ .

وحسبنا هنا ما لمسناه من هذا المنهج إشارة إلى جهد الأقدمين من علماء الأمة ، فذلك يُعين اللاحقين على إكمال المسيرة في توسيع المنهج ، واستيفاء أطرافه في باقي العلوم

(١) انظر الرفع والتكميل مرجع سابق ، ص ٦٨-٦٩ .

(٢) كشف الظنون : حاجي خليفة ج ١ ، ص ٣٩٠ .

الإسلامية الواسعة ماضياً ، وحاضراً ، ومستقبلاً ، وخاصة الاهتمام بمصدرنا الأول "القرآن الكريم" .

وقد تبين أن منهجية علم الجرح والتعديل والرجال قامت على شروط وقواعد وضوابط، ومقاصد وأساليب ، لا بد من توفرها فيمن يتصدى لهذا الأمر ، فهو أمانة وواجب، وتخصص وعلم ، وفن له رجاله وعلماءه .وليس مشاعاً سهلاً لكل صاحب هوى و تعصب ، أو جهالة لا يقصد به خدمة الرسالة ، وحراسة الدين ، تعبداً لله رب العالمين .

## (٢)المطلب الثاني : جهد العلماء في تحديد منهج التقويم والنقد .

إذا كان منهج التقويم قد تبلور عملياً في جانب متخصص من علوم الشريعة في مجال علم الرجال والجرح والتعديل في أسانيد ورواة الحديث الشريف . فإن علماء الأمة قد لمسوا المنهج ، وطرقتوا بعض أطرافه في جوانب أخرى من حياة الأمة في مجال التنظير ومجال الواقع والميدان . وقد وردت جهودهم في أكثر من ميدان ، وأكثر من مصطلح يترادف معناه مع معنى التقويم، كالقضاء والحكم والنصح ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والنقد الذاتي ، والحسبة وغيرها . ومن ذلك :

(أ) القضاء بمعنى الحكم : جاء لفظ القضاء بمعنى الحكم ، والحكم يأتي بمعنى : العلم والفقه ، والقضاء بالعدل ، وهو مصدر حكم يحكم (١) .

"يذهب بعض الفقهاء إلى أن الحكم أوسع دائرة من القضاء ، فالحكم يتمثل في كل ما يصدر من الحاكم لتحقيق العدالة في محيط الأمة ، ولا يتطلب ما يتطلب القضاء من دعوى وخصومة ، فإن فصل الحاكم في خصومة بشروطها كان الحكم والقضاء مترادفان . أما من يوليهم الفصل في خصومات الناس فإنهم لا يُسمون حكاماً بل يسمون قضاة فقط ، ولا يفصلون إلا في دعاوي الناس " (٢) .

"والقضاء : هو وسيلة الفصل بين المتنازعين في الخصومات " (٣) .

(١) القضاء ونظامه في الكتاب والسنة : د. عبد الرحمن إبراهيم عبد العزيز الحميضي ، ط ١ ، جامعة أم القرى ١٩٨٩م ، ص ٢٣ ، نقلاً عن اللسان ج ١٠ ، ص ١٨٦ .

(٢) تاريخ القضاء في الإسلام : أحمد عبد المنعم البهي : ، ص ٢٢ .

(٣) المعارضة السياسية بين النظرية والتطبيق في الإسلام: يحيى عوض الخلايلة: رسالة ماجستير، الجامعة الإسلامية العالمية/باكستان ، ص٢٣٨ .

ونلمح مما ذكر أن القضاء الإسلامي ، ومنهج الجرح والتعديل ، وما شابهها من علوم ما هي إلا تطبيق عملي لمنهج التقويم القرآني في حياة المسلمين في نواحي محدودة متخصصة . فالقضاء مثلاً : يعالج باب المشاكل والنزاعات في حياة الأمة ، والجرح والتعديل اختص بالحديث ورجاله ، وبذلك فإن منهج التقويم يعتبر أصلاً لهما ؛ لأن التقويم منهج متكامل للحكم والتوزين لجميع جوانب النشاط البشري في إطاره التكاملي الشامل .

(ب) ونجد في مجال الرقابة الإدارية : وهي سابقة ومتسقة مع منهجية التقويم الإداري الذي يشكل الحلقة الأخيرة من حلقات العملية الإدارية الرئيسية في مفهوم القيادة والإدارة العامة ، وهي : التخطيط ، والتنظيم ، والتنسيق ، والرقابة ، والتقويم . تجد في الرقابة : والرقيب : الحارس ، يقال : هو رقيب نفسه ، أي ينتقد أعماله ، فلا يدع سبيلاً للناس إلى لومه <sup>(١)</sup> .

ومن صفات الرقيب الذي يمارس الرقابة : العلم ، والقدرة ، والعدالة . وفي الكلام عن عدالة الرقيب "وعند العلماء أن هداية الغير فرع للاهتداء ، وتقديم الغير فرع للاستقامة ، وإن العاجز عن صلاح نفسه ، أشد عجزاً عن إصلاح غيره " <sup>(٢)</sup> .

ومن أهم عناصر الرقابة وضع المعايير والمقاييس التي تحدد العمل ، فكلما اضطربت المعايير و الموازين فقدت الرقابة فعاليتها ودورها .

وتمر الرقابة بثلاث مراحل من الوجهة الإدارية :

١. الرقابة الوقائية : وتهدف منع الانحراف قبل تسيير العمل .
٢. الرقابة المتزامنة : وتجرى أثناء تنفيذ الخطط ، وتوجه الأنشطة وتصوبها كلما لزم الأمر .

٣. الرقابة التقويمية : يتم فيها تحليل البيانات والتقارير عن العمل ، وتقويمها لدفع العمل وتحسينه ، وتفادي انحرافه ، وذلك في مراحلها النهائية <sup>(٣)</sup> .

(١) المنجد في اللغة والأعلام : ط ٢٦ ، دار المشرق ، بيروت . انتشارات إسماعيليان ، طهران ، ص ٢٧٤ .

(٢) انظر المعارضة السياسية بين النظرية والتطبيق في الإسلام: مرجع سابق : ص ٢١٣-٢١٦ .

(٣) انظر دليل التدريب القيادي : د. هشام الطالب ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، الاتحاد العالمي للمنظمات الطلابية ط ١٩٩٥م ، ص ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .

ويرى د. محمود مصطفى أن الرقابة الإدارية هي "قيام جهات الإدارة بمراجعة أعمالها ذاتياً، لتصحيح ما قد يشوبها من أخطاء ، تتعلق بمخالفة المشروعية ، أو بعدم الملائمة من خلال سحبها ، أو إلغائها أو تعديلها أو استبدالها بأخرى تكون سليمة " (١) .

(ج) وظهر معنا في باب علم التفسير من جهد بعض المفسرين والعلماء - مما قد عالجناه خلال فصول البحث السابقة - الشيء الكثير وإن كان لم يُبلور المنهج بشكل منهجي جلي محدود واضح إنما كانت - والله أعلم - إشارات هنا وهناك حسب مدلولات الآيات ومناسباتها، ومدى تقبلها لاستخراج واستنباط هذه المنهجية . وقد ظهر لنا أن " في ظلال القرآن لسيد قطب " وذلك - حسب اطلاعنا - كان أبرز هذه التفاسير في الإشارة إلى منهجية التقييم ، عبر تركيزه على المعايير والموازن التي يجب أن تحكم حياة الناس وتقومها وتصوبها نحو الغاية والهدف. وهو الالتزام بدستور الله وشرعه . ولذلك تجدنا قد اعتمدنا عليه كثيراً في معالجة فصول البحث ومواده . وكذلك كان الاعتماد بنسبة ما على تفسير القرطبي وابن كثير ، وغيرها من التفاسير التي استفدنا منها قدر الطاقة، والاطلاع والعتور على ما يدخل في مادة الدراسة ومنهجيتها .

وخشية التوسع في هذا المجال - إذ قد توسعنا خلال فصول البحث السابقة- نذكر فيما يلي أمثلة من أقوال بعض المفسرين كدليل تذكيري على إسهامهم في تحديد منهج التقييم وتوضيحه .

• ينقل أبو عبد الله محمد المحمود النجدي عن الشيخ الشنقيطي (٢) في كتابه "أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن" قوله : " ... ومعلوم أن الحق حق ، ولو كان قائله حقيراً، أ لا ترى أن ملكة سبأ في حال كونها تسجد للشمس من دون الله هي وقومها لما قالت كلاماً حقاً صدقها الله ، ولم يكن كفرها مانعاً من تصديقها في الحق الذي قالته ، وذلك في قولها فيما ذكر الله عنها ﴿ إن الملوك إذ دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة ﴾ فقد قال تعالى مصداقاً لها في قولها ﴿ وكذلك يفعلون ﴾ وقد قال الشاعر :

(١) القضاء الإداري : د. محمود مصطفى ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٧٥م ، ص ١٨ .

(٢) محمد الأمين بن محمد المختار الجكني الشنقيطي أحد العلماء المشهورين من بلاد شنقيط في موريتانيا.

حكم الصواب إذا أتى من ناقص

لا تحقرن الرأي وهو موافق

ماحط قيمته هوان الغائص<sup>(١)</sup>

فالدر وهو أعز شيء يقتنى

وهذا ضرب من التفسير يبرز منهج التقويم المرتكز على شرط العدل والإنصاف. وقد مرّ ذلك في الفصل الأول من بحثنا هذا . وهي سمة سامقة يُعلمنا إياه القرآن ، ويبرزها علماؤنا في كيفية انضباط النفس والتزام المنهج عند الحكم على الأعداء ، والمخالفين لنا بالفكرة والعقيدة والتصور. ولعمري إن ذلك نوع من النواقص التي نحتاجها في تربية الأمة، وتصحيح مسارها النفسي، والفكري تجاه ذاتها وتجاه الآخرين .

• يقول الإمام القرطبي عند قول الله تعالى ﴿ أ تجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ [البقرة: ٣٠] . " فقيل : المعنى " أنهم لما سمعوا لفظ خليفة فهموا أن في بني آدم من يفسد ، إذ الخليفة المقصود منه الإصلاح وترك الفساد ، لكن عمموا الحكم على الجميع بالمعصية ، فبين الرب تعالى أن فيهم من يفسد ومن لا يفسد ، فقال تطيباً لقلوبهم ﴿ إني أعلم ﴾ وحقق ذلك بأن علم آدم الأسماء ، وكشف لهم عن مكنون علمه " (٢) .

وحسب هذا الرأي فإن حكم الملائكة وتقويمهم للجميع بالإفساد وسفك الدماء فيه تعميم وقول بدون علم ، وذلك أن من بين هؤلاء من لا يفسد في الأرض ، ولا يسفك الدماء، مثل: الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين وغيرهم . فأراد الله بذلك أن ينبههم أن علمه محيط ومطلق، وأن رأيهم وتقويمهم ناقص وفيه تعميم . وهذا يخالف شرط التقويم القائم على عدم التعميم ، والتثبت والعلم بالموقف، والحالة المراد تقويمها . وكم تجنح بالناس عن الحق ، وحسن التقويم ، سرعة الحكم وتعميم الرأي ، وإصدار ذلك عن فورة غضب ، أو هوى ، أو امتعاض نفس طارئ .

• وورد في الظلال عند تعليقه على قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ [الحجرات: ٦] " ومدلول الآية عام ، وهو يتضمن مبدأ التمهيص والتثبت من خبر الفاسق ، فأما الصالح فيؤخذ بخبره لأن هذا هو الأصل في الجماعة المؤمنة. وخبر الفاسق استثناء ، والأخذ بخبر

(١) القول المختصر المبين في مناهج المفسرين : أبي عبد الله محمد محمود النجدي ، ص ٩٠ .

(٢) القرطبي : جزء ١ ، ص ٢٧٤ .



الصالح جزء من منهج التثبث لأنه أحد مصادره. أما الشك المطلق في جميع المصادر ، وفي جميع الأخبار ، فهو مخالف لأصل الثقة المفروض بين الجماعة المؤمنة، ومعطل مسير الحياة وتنظيمها في الجماعة. والإسلام يدع الحياة تسير في مجراها الطبيعي ، ويضع الضمانات والحواجز فقط لصيانتها لا لتعطيلها ابتداء ، وهذا نموذج من الإطلاق والاستثناء في مصادر الأخبار ... إلى أن يقول " وهل من اليسير أن يتصور الإنسان أن تتصل السماء بالأرض صلة دائمة حية مشهودة ، فنقول السماء للأرض وتخبر أهلها عن حالهم وجهرهم وسرهم ، تقوّم خطأهم أول بأول، وتسير عليهم في خاصة أنفسهم وشئونهم " (١) .

إن ثبوت الدليل ، وصحة المعلومة المراد من ورائها حكم وتقويم لحالة أو موقف ما ، فردي كان أو جماعي ، بين المسلمين وغير المسلمين ، أمر حاسم ، ومبدأ رئيس في الوصول إلى تقويم عادل سليم ، وهو شرط من شروط هذا التقويم ، الذي سينبني عليه تحسين وتصحيح لذلك الموقف ، مع ضرورة الحذر عن التراخي والتفويت ، وعدم الحسم والبت في الأمور ، وإن كانت مرة النتيجة غير مألوفة .

ويلاحظ في كلام صاحب الظلال إشارة إلى بعض قواعد الجرح والتعديل في نقل الأخبار والمرويات، فالأصل أخذ خبر الصالحين في الجماعة المؤمنة ، ورفض خبر الفاسق يجب أن يكون استثناء من هذا الأصل. وأكد كذلك على التثبث ، وعدم تعميم منهج الشك ، وأشار إلى أن منهجية التقويم في القرآن دائمة مستمرة في كافة شئون أهله وخاصة أنفسهم.

• ويقول صاحب الظلال عند قوله تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا

معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ... إن الله قوي عزيز ﴾ [الحديد: ٢٥] .

" والميزان مع الكتاب ، فكل الرسائل جاءت لتقرر في الأرض وفي حياة الناس ميزاناً ثابتاً ترجع إليه البشرية ، لتقويم الأعمال والأحداث والأشياء والرجال ، وتقويم عليه حياتها في مأمّن من اضطراب الأهواء، واختلاف الأمزجة ، وتصادم المصالح والمنافع ، ميزاناً لا يحابي أحداً ، لأنه يزن بالحق الإلهي للجميع ، ولا يحيف على أحد لأن الله رب الجميع . هذا الميزان الذي أنزله الله في الرسالة هو الضمان الوحيد للبشرية من العواصف والزلازل والاضطرابات ، والخلخة التي تحيق بها في معترك الأهواء ، ومضطرب العواطف ، ومصطخب المنافسة وحب الذات . فلا بد من ميزان ثابت يثوب إليه البشر ، فيجدون عنده الحق والعدل والنصفة بلا محاباة ﴿ ليقوم الناس بالقسط ﴾ وبغير هذا الميزان الإلهي الثابت

(١) الظلال : ج ٦ ، ص ٣٣٤١ - ٣٣٤٢ .

في منهج الله وشريعته لا يهتدي الناس إلى العدل ، وإن اهتدوا إليه لم يثبت في أيديهم ميزانه ، وهي تضطرب في مهب الجهالات والأهواء " (١) .

ولا بد لهذا الميزان من نماذج راضية مؤمنة به أولاً ، متمثلة به في حياتها مربية عليه أجيالها ، رافعة لواءه ، مقدمة الإنصاف والعدل ولو على نفسها ، أمام الناس كل الناس ثانياً .

والحق أن البشرية قد أنتجت صوراً وأشكالاً من الموازين والمقاييس تقيس بها كل شيء في حياتها، ولكنها تتجح مرة ، وتفشل مرات . ومكمن الضعف والنقص عندها أن ضوابط الميزان ، وكوابح الزيف في تطبيقه إنما هي صناعة بشرية ، وتقنين إنساني ، إذ فمهما ارتفع الإنسان وتألق فإنه لا محالة واقع في أساس نقصه وتقصيره وشهوته وهواه ، خاصة عند ما ترجح الكفة لغير صالحه ، ويكون الحق عند سواه .

• وورد في تفسير الأساس لسعيد حوى عند تعليقه على الآيات التي تعالج أحداث معركة أحد وتقومها في قول الله تعالى ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أركم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إن الذين تولوا منكم يوم النقي الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور رحيم ﴾ [آل عمران: ١٥٢-١٥٥] .

" ... ثم ذكر الله - عز وجل - بعض ما حدث في يوم أحد ، وبعض دروس معركته، وذلك أن يوم أحد حدث فيه نوع هزيمة للمسلمين ، فما أسباب هذه الهزيمة مع قيام وعد الله بنصرة أوليائه ؟ يذكر الله - عز وجل - أسباب ذلك : الجبن ، وعصيان الأمر ، والخلل في نية طلب الآخرة ، ومع هذا كله فإن الله ما تولى عنهم ، بل تولاهم ، بأن أحاط الهزيمة بكل لطف ، وتوج هذا كله بالعفو عما حدث ، وعرض خلال هذه حالات وسواقف للمنافقين والمؤمنين ، وبيّن أسباب الزلل " (٢) .

ويظهر أن الشيخ حوى قد لمس منهجية القرآن في تقويم النشاط الجهادي لدى المسلمين في أحد ، وإن لم يبرز هذه المنهجية ، وما ذكره من أسباب الهزيمة ما هو إلا نوع من التقويم الصريح الذي تميز به منهج القرآن ، ثم يتلطف الله بعباده ويعفو عما سلف .

(١) الظلال : ج ٦ ، ص ٣٤٩٤ .

(٢) تفسير الأساس : ج ٢ ، ص ٨٩٧ .

فتقويم القرآن ليس تشفياً وحنقاً تقوده شهوة أو مصلحة ، إنما هو تبصير وتسديد من غفور رحيم .

وحقاً إن الله يتولى عباده ، وينصرهم ، ويلطف بهم ، ويجبر ضعفهم ويعفو عنهم ، ولكنه سبحانه في المقابل يبين زللهم ، ويوضح خطأهم ، ويقوم إعوجاجهم بكل صراحة ، ودون مواربة أو مجاملة . ولو كان من منهجية التقويم القرآني أن يجامل ويتغاضى لكان ذلك مع رسل الله الكرام ، ومع صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين تربوا على عينه ، وكانوا يعيشون التنزيل وبناء المجتمع المسلم معه لحظة لحظة . فإذا كانوا وهم أفضل جيل أنتجه القرآن ، وربته النبوة تعرضوا للتقويم والتسديد، فكيف بغيرهم ؟ إن غيرهم أخرج إلى منهاج تقويمي كامل لكل شئون حياتهم ، وذلك من بدهيات التفكير وأولويات التغيير .

وهنا كلمة : أنها الحقيقة الكبرى ، والقضية الأساسية ، والميزان الصحيح ، إنها النفس البشرية التي تنطلق منها الانتصارات والانكسارات على حد سواء ، فالتغيير منها وإليها ، والتقويم منها وإليها ، والنتيجة منها وإليها ، ولذلك رد الله تساؤل المؤمنين عندما قالوا " أنا هذا " أي من أين حصلت نتائج المعركة ، ما سبب الهزيمة ؟ رد تساؤلهم عليهم مباشرة فقال: ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ هكذا مباشرة بدون مقدمات ، أو تعليقات .

إنها منهجية القرآن وصراحته التي تهدف إلى ضمان سير القافلة إلى نهاية الزمان ، وعبر جغرافية المكان ، على معالم بينة ، وأحكام جلية ، وتقويم ناصع لأعمال العباد مهما كانوا ، وكيف كانوا، وأين كانوا .

وإرجاع الأمور للنفس هو بداية الحل ، ومقدمة التصحيح من آدم عليه السلام وحتى يرث الله الأرض ومن عليها .

والنفس كالطفل إن تركه شب على حب الرضاع وإن تظمه ينفطم

وسنة الله الخالدة ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما أنفسهم ﴾ .

(د) احتوت كتب ومؤلفات متعددة معاصرة على محاولات مقدرة في عرض منهج التقويم والتشخيص وتحديد نقطة البداية في مسيرة التغيير المنشودة منها - حسب اطلاعنا - ما يلي :

١- كتاب " فصول في التفكير الموضوعي " للدكتور عبد الكريم بكّار ، وهو محاولة نوعية في طرح معالم وأطر فكرية وشرعية ، وتطبيقية ونفسية ، لضبط منهجية التفكير ،

واكتمالها نظرياً وعملياً ، وقد أفدت من الكتاب كثيراً في ثنايا البحث - فجزى الله كاتبه خير الجزاء - ومما أورد في نطاق منهجية الحكم والتقويم عند المسلمين - على سبيل المثال - الآتي :

• يذكر د. بكار حول ما أسماه " ابن خلدون والنقد الداخلي " بعض النقاط نوجزها كالتالي :

- ركز المحدثون في النقد الداخلي على الحديث النبوي - فيما صرف ابن خلدون عنايته بنقل الأخبار .

- قياس الغائب من الأحوال على الشاهد ، لأن الماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء ، أي أن ما تحكيه العادة الآن يكون من قبل مستحيلاً ، فإذا ما روي شيء من ذلك وجب رده والإعراض عنه .

- يرى ابن خلدون أن التشيع للأراء والمذاهب قد أعمى بصائر المتعصبين عن نقد الأخبار التي يرونها ، فيقول نصاً " فإن النفس إذا كانت على حال من الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر ، حتى يتبين صدقه من كذبه ، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة ، قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة (1) .

- إن من أسباب انطماس الحقائق هو : المبالغة في مدح السلطان من قبل بعض الناس ، فيشيع هذا ، وينقل دون تمحيص ، ويصبح تاريخاً تتناقله الأجيال دون تمحيص .  
- يقرر ابن خلدون أن كل حادث من الحوادث ذاتاً كان أو فعلاً طبيعة ، تخصه في ذاته ، وفيما يعرض من أحواله . فإذا كان السامع عارفاً بطبائع الحوادث والأحوال في الوجوه ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصدق من الكذب ، وهذا أبلغ في التمحيص من كل وجه يعرض .

- لا ينظر ابن خلدون في عدالة الرواة إلا إذا كان الخبر المروي جائز الوقوع ، فإذا كان مستحيلاً فإنه لا فائدة من النظر في توثيق الرواة وتعديلهم ، وهو بهذا يلتقي مع المحدثين .

(1) مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ، ٥٦/١ .

ويعقب د. بكار على هذه النقاط في أن هذه الأفكار تجعل المسلم ذا بصيرة نقدية ،  
ووعي يحميه من أسر الدعايات المضللة حول الحوادث والأفكار والأشخاص ، سيما عند  
قلة دراسات الإسناد ، وموازن الجرح والتعديل كما هو واقعنا المعاصر (١) .

ويتبين مما سبق أن العديد من علماء الأمة - مثل ابن خلدون - قد طرَقوا موضوع  
المنهج التقويمي عبر اهتماماتهم وفهمهم لواقعهم الذي عاصروه ، معتمدين على خلفيتهم  
الإسلامية ، ومعاناتهم لحركة مجتمعهم وما فيه من معايير وموازن . ومنهجية النقد الذاتي  
أو التقويم الذاتي أو ما أطلق عليه د. بكار النقد الداخلي عند ابن خلدون جزء أساسي ،  
وضرب من ضروب التقويم المهمة التي يجب أن تأخذ رأس الأولويات في سلم بناء هذا  
المنهج بشموله وكماله ، كما ناقشناه في ثنايا البحث .

\* يقول د. بكار في إبراز منهجية الدقة والإنصاف ، والنظرة التفصيلية للأفكار  
والمواقف والأشخاص عند الجرح والتعديل والتقويم والوصف " ومن جميل ما سطره يراع  
أهل السنة والجماعة جعلهم البدعة درجات ، وذلك اتساقاً مع منهجهم في النظرة التفصيلية  
للأفكار والمواقف والأشخاص ، وفي هذا ورد قول الذهبي معلقاً على قول ابن قتيبة : "  
بشر المريسي كافر " حيث قال : هو بشر الشر ، كما أن بشراً الحافي بشر الخير ، ومن  
كفر ببدعة وإن جلت ليس هو مثل الكافر الأصلي ، ولا اليهودي ، ولا المجوسي . أبى الله  
أن يجعل من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر ، وصام وصلى وحج وزكى ، وإن ارتكب  
العظائم ، وضل ، وابتدع كمن عاند الرسول وعبد الوثن ، ونبذ الشرع ، وكفر ، ولكن نبهاً  
إلى الله من البدع وأهلها " (٢) .

• ويقول كذلك : " ومن جملة مظاهر الإنصاف عدم اعتدادهم بكل قول يقال ، فقد  
يكون القائل مغرضاً ، أو جاهلاً ، وقد يكون طعنه في غير مُعلل ، والمطعون فيه  
موثق . وقد يكون عاب ما ليس موضع عيب ، أو ما عيب نسبي لا يستدعي الإعراض  
عنه ... " (٣) .

وفي ذلك مما سبق دقة وتحرز ، واحتياط وإنصاف للضال والمهتدي ، للمؤمن  
والكافر . وكم تدفعنا عاطفة الولاء والبراء أحياناً ( والتي تفهم بشكل مضطرب ) إلى غمط

(١) فصول في التفكير الموضوعي ، مرجع سابق . ص ١٦٠-١٦٢ بتصرف .

(١) المرجع السابق : ص ١٣٣ .

(٢) المرجع السابق : ص ١٣٥ .

حق العدو ، والإعراض عن زلة الصديق وخطأه ، بل عن الإنصاف فيما بيننا نحن أهل القبلة الواحدة والكتاب الواحد والرسول الواحد. وذلك مرده إلى عقلية الانتصار الطائش ، والتقويم المجزؤ ، وفتان ضوابط العواطف ، وقلة الوعي في استعمالها بالنسب المطلوبة في المواقف المناسبة ، والأوقات المناسبة. والبارز عندنا ، إما عواطف هائجة مدمرة تعيش على الأزمات والمواقف الطارئة المؤقتة ، والتي سرعان ما تخبو ، وإما برود ذهني وحسي جامد ، لا حراك فيه ، ولا سخونة في أجزائه وقلما تجد الوسطية في هذه التركيبة .

والمطلوب هنا عاطفة عاقلة حية يقظة منضبطة، وتفكير موضوعي عاطفي ساخن ، وزمام ذلك منهج متكامل راشد ، ضمن برنامج محدد، يوصل إلى هدف بين واضح مفيد .

٢- كتيب التوجيه والتقويم خلال التاريخ الإسلامي : للعلامة المرحوم محمود شاکر ، وفيه نقاط مقدرة حول منهجية التقويم التاريخي ، وعرض لمفاصل من تاريخ الأمة عبر نظرة تقويمية ناقدة . يقول المؤلف كمنظرة تقويمية لحال الأمة بداية من عهد الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية على إثر مقتل عثمان رضي الله عنهم جميعاً " وإن كل منهم مجتهد ضمن نظرة شرعية " ثم أن جاء عهد الأمويين وكثرت الفتوحات والأموال وأقبلت الدنيا ، وضعفت بعض النفوس ، خاصة في نطاق الحكام والخلفاء ، مع بقاء المجتمع إسلامياً والشريعة سائدة ، وبعدهم جاء العباسيون ، فازداد التفلت مع ازدياد إقبال الدنيا ، ودخول أخلاط متنوعة من الناس في حضيرة الإسلام والخلافة ، وكان الحكم مطلباً لكثير من الجهات ، ولم يزل المجتمع مسلماً والشرعة محترمة ، والقضاء مسيطر تماماً . ثم جاء المماليك على نفس الشاكلة مع ازدياد التلفت ، والنزاع على الحكم ، ثم جاء الصليبيون ، وردهم صلاح الدين ، ثم ضعف الأيوبيون لنفس الأسباب السالفة ، وتحرك المغول من الشرق ، وجاء معهم البطش والقتل والتخويف والرعب . ثم قبض الله لهم قطز و الظاهر بيبرس فردهم في عين جالوت ، ثم عهد العثمانيون والأتراك إثر عاطفة قوية للإسلام والشريعة على جهل منهم . واتسع الإسلام جغرافياً ، واهتموا بالجانب العسكري على غيره لرد الأعداء الأوروبيين ، ثم ضعفوا تدريجياً في حين تقدم الأوروبيون ، خط صاعد في أوروبا وتقدم وازدهار ... وخط نازل عند الأتراك المسلمين ، إلى أن جاء الاستعمار الحديث فاستمال بعض الطامحين والطامعين ، وأثر الغالب في المغلوبين، فقلد المسلمون

أعدائهم في كل شيء، وتمزقوا بعد زوال دولة الخلافة، ولا زال الحال كما هو معروف حالياً<sup>(١)</sup>.

ولقد أبرز الشيخ محمود شاكر فيما سبق ضرورة تقويم التاريخ الإسلامي بصفحتيه ، البيضاء: وهي الغالبة الواسعة ، والسوداء : وهي الضيقة الصغيرة .وتقويم التاريخ مُهم ، جد مهم ، ففيه الإنجاز وفيه الفشل، وفيه الانتصار وفيه الانهزام ، وفيه استنباط السنن ونواميس التغيير ، وفيه مراحل الحراك الاجتماعي، فيه عوامل الازدهار وعوامل الانحطاط ، وفيه معايير التفاضل ومقاييس التنافس . فيه جبهة الحق ، وفيه جبهة الباطل . والتاريخ يكاد أحياناً يعيد نفسه . والشرط أن يعرض التاريخ كي يستفاد منه - بعد الاستقصاء والتوثيق - كما هو مادة خامة على آلية التقويم ، بعقول منفتحة ، وعواطف متزنة مستعدة لتقبل نتائج التقويم والتشخيص أنا كانت ، فلا تُحدث إحباطاً وانهزاماً إذا كانت النتائج سلبية ، ولا تحدث زهواً وتفاخراً إذا كانت إيجابية . بل تحدث شحذاً للهمم ، ورفعاً للخمول والغفلة، وتوقداً للتغيير إذا كانت سلبية ، وتحدث تواضعاً ووعياً ، ومتابعة وتجديداً وإبداعاً إذا كانت إيجابية .

ومما يذكر في مجال دراسة التاريخ وعرضه وتقويمه ، وتربية الأجيال عليه ، أن اتسم منهج الأعمال التربوية ، والنشاطات التنقيفية، وآليات التأهيل الشبابية في ساحة العمل الإسلامي عموماً بطرح مآثر العصور الإسلامية ، ومناسبات ارتفاع الأمة وازدهارها في الغالب الأعم ، وأجل أو ترك طرح مثالب العصور الإسلامية ومناسبات انخفاض الأمة وتراجعها على مستوى الأشخاص والمواقف، ومختلف أوجه النشاط ومجالاته في جسم الأمة وتاريخها الطويل . وسواء حصل ذلك عن قصد أو عن غير قصد ، بوعي ، او جهل، فإن محصلة ذلك أن ولد - في الغالب - نظرة أحادية لتربية الأجيال الإسلامية ، نظرة تعتمد على المآثر والمثاليات وبياض صفحة الأمة فقط . مما سبب نقصاً في التركيبة المتزنة لمنظومة التربية الكاملة التي يجب أن تكون عليها الأمور ، وذلك فيما لو طرح التاريخ بشقيه ، وتربت عليه الأجيال بصفحتيه البيضاء والسوداء سواء .

وعلى سبيل المثال ، فلم أطلع على مناهج تربوية وتنظيمية في ساحة العمل الإسلامي تُدرّس الأجيال والشباب فتنة الإسلام الكبرى الأولى بين علي ومعاوية رضي الله عنهم، ولم

(١) انظر التوجيه والتقويم خلال التاريخ الإسلامي : العلامة محمود شاكر . المكتب الإسلامي ، ط ١ ١٩٨٦م ، ص ٥٣-٦٠ بتصرف .

يدرس الشباب أسباب زوال الحكم الإسلامي في الأندلس ، ولم تتطرق المناهج إلى أسباب اكتساح التتار للشرق الإسلامي واحتلال عاصمة الخلافة بغداد ، ولم ترد مناقشة الانفصام بين العلماء والسلطان في أغلب العصور الإسلامية ، ومدى صحة ما قيل من أن توافقاً ضمناً قد حصل بين الطرفين في استيلاء الأمراء على السلطان ، والعلماء على القضاء وحراسة الشريعة ، وهل هذا هو الصواب إن كان قد حصل .؟

وهل وضع ضمن هذه المناهج ما يربي الأجيال على كيفية النظر ، والحكم والتقويم لما قمنا به ، وما نقوم ، وما سنقوم ؟ كحلقات مترابطة (الماضي والحاضر والمستقبل ) وهي فواصل الزمن التي يجب أن نربي الأجيال ونؤهلها في كيفية النظرة إليها ، والعمل على أساسها .

ومن نتائج التربية ذات الوجه الواحد (المآثر والمثاليات ) دون المثالب والانحدارات . أن عشنا فقط على المآثر وإنجازات الأجداد ردحا من الزمن وشكلاً ذلك عامل تخدير وتنويم ، واتكال وسلحفة في الحركة والعمل ، بات البون بيننا وبين غيرنا على أساسه واسعاً وعميقاً ، ومسافة السبق لصالحهم لا يتوقع أن تُسد في المنظور القريب . وطرحنا هذا لا يقصد منه إلغاء الأمجاد ، وترك السير على بريقها ، وروحها وبياضها ، إنما القصد إكمال الصورة واتزان الطرح وشمول التقويم . الذي يورث خطأ تربوياً وتأهلياً متزناً ، لا يقعد أصحابه عند الهزيمة حيارى خانري القوى والعزائم ، ولا ينفث أهله فيركبوا مركب المبالغة والعاطفة الطائشة عند الانتصار والتقدم . ومثال معاصر لا زال غصاً طرياً لم تنتهي مراحلها بعد ، نذكره هنا لنؤكد على ضرورة اتزان الطرح ، وشمول النظرة ، والتقويم والمعالجة . (قضية الجهاد الأفغاني ) فالقضية الأفغانية عموماً مدرسة عظيمة متنوعة المواد ، والقضايا والدروس ، وسفر عظيم زاخر بالمعلومات ، والموضوعات والسلبيات والإيجابيات ، من عاشها ولم يستفد منها ، ولم يأخذ العبرة والدرس والخبرة ، فإنه لن يكون أهلاً للاستفادة من غيرها . فهو ولا شك مختل التفكير ، ضحل الفهم ، مشتت الإدراك والبصيرة . لأنها قضية - ولا شك - متشعبة المسالك والدروب ، متنوعة الأنشطة ، متعددة التجارب ، كثر فيها اللاعبون ، وتعددت فيها الأهداف والوسائل ، على المستوى المحلي والإقليمي والدولي . وما يهمنا هنا بالدرجة الأولى هو منهجية تقويمها والنظرة إليها . فكان الظاهر على سطحها ، الغالب في ساحتها ، فكر الحماس والعاطفة ، والمدح والإطراء ، والمبالغة والتفديس للجهاد والمجاهدين ، على خلفية أنهم يقفون أمام



ثاني قوة في العالم ، وأشرس جيش في الأرض ، وأنهم أيقظوا الأمة الإسلامية من سباتها ، وبعثوا فيها الحياة من جديد ، فبدأت ترفع رأسها بالجهاد ، وأضحى منسوب العزة والشجاعة وحب الموت والشهادة يرتفع عندها ، وسار خطها البياني نحو الصعود .

فبدأ إعلام الجهاد ينقل البطولات ، والكرامات والانتصارات . وتشكلت أفكار جهادية تنادى بها الجميع عبر العالم كله ، وانتظر الجميع الخلافة الإسلامية ، واستبشر الكل بتصدع قطب الكتلة الشرقية ممثلة بالاتحاد السوفيتي سابقاً . والحقيقة أنه قد حدث من ذلك الشيء الكثير . ولكن في المقابل لم تُعرض الصورة الثانية ، والوجه الآخر للحركة الجهادية ، وعُمل على التغاضي والتغافل عن معالجة أو مجرد طرح ومناقشة الوجه السلبي المضطرب ، لهذه الحركة الهائلة . فأخفي الخلاف والتناحر ، وتبادل الأدوار ، وأمراض النفوس ، وألغى السياسة والتحالفات ، والمصالح الحزبية ، والعصبية القبلية واللغوية ، والجغرافية ، وسوء التخطيط والتربية والتأهيل وغيرها . أخفي كل ذلك بحجة أن الوقت لا يسمح بذكر ذلك ومعالجته ، فالأمة ناهضة من سبات عميق ، والجهاد في أوله ، والثمار قريبة يانعة ، فلا بد من بث الأمل ، وتشجيع القلوب، ورفع المعنويات ، والحديث عن الكرامات ، وتشجيع شباب الأمة ، والتحفيز نحو فرضية الجهاد وعينينه ، ودفع الأمة للجهاد بالمال والنفوس والوقت والولد ، لأن المعركة معركة الأمة ، وهي فرصتها الوحيدة ، وقدرها المحتوم ، كل ذلك حصل ، وغيره الكثير ، فماذا حدث ؟

حدث أن ذاب الثلج وظهر ما تحته ، وانقشع الغبار فظهرت أرض المعركة ، وخمد الحماس ، وبان الدرس ، وبرزت الحقيقة .

انهزم الروس ، وتفكك الاتحاد السوفيتي ولا شك ، وساهمت حركة الجهاد بذلك إسهاماً كبيراً ، وعرف الناس اللاعبين ، وعددهم وأهدافهم ، وتميزت الشخصيات والأحزاب ، ونال الشهادة من نالها ، وارتكب سفك الدماء بغير حق من ارتكبها ، وعف من عف ، واستفاد من استفاد ، كل حسب هدفه ومبتغاه ، وساعد الصديق الصديق ، والعدو عدو العدو ، وساعد الكل الكل ، عبر شبكة من المصالح معقدة لم تُفك بعض الغازها بعد . ارتفع الصغار ، وأخر الكبار أحياناً ، ومُدح الطائش ، وذُمّ المتعقل الخبير ، وقُدّمت الجزئيات ، ونُسيت الأولويات ، واختلطت المفاهيم على أكثر من مستوى .

والمهم في ذلك كله أن نتيجة الجهاد آلت إلى ثمرة مرة ، وخاتمة مخجلة ، على مستوى النظرية في فكر الجهاد ، ومفهوم الحكم والدولة ، والخلافة المنشودة ، وعلى

مستوى التطبيق والفشل في السيطرة على زمام الأمور ، وإقامة الدولة عملياً في أرض أفغانستان . وطُعن بذلك أعز المفاهيم والمبادئ الإسلامية - ليس بسبب أنها بذاتها ضعيفة أو غير صالحة - ولكن بسبب فشل دعائها وحاملها . لقد طعن الجهاد الإسلامي كآلية إسلامية للتمكين ، وتكلم بذلك المتربصون المخالفون للفكرة الإسلامية ، ووجدوا بذلك مادة للطعن والهجوم على الإسلام وأهله ، بعد أن انطفت نارهم ، وذهب زمانهم .

وطُعن كذلك مبدأ الحكم الإسلامي كنتيجة لآلية الجهاد ، وذلك بسبب فشل أصحابه في إقامته والمحافظة عليه ، ولاكت السنة اللانكين بذلك ولا زالت . ولو أن الأمر ابتداء سار ولو بشكل متدرج على قاعدة الاتزان ، والوضوح والمصارحة الحكيمة ، إعلامياً وجهادياً ، وانتبه القوم إلى شروط النصر ، وسنن التغيير التي لا تحابى أحداً ، وحاولوا تطبيقها ، لما كانت النتيجة كما نرى ، ولما أصبحت القضية مشجياً يعلق عليه الأعداء ما يريدون ، ويبررون بسببه كل ظلمهم وعدوانهم ، ليس على أفغانستان وقضيتها في مرحلتها السابقة و مرحلتها الحالية ، وإنما على الأمة الإسلامية كلها ، في حدود الزمان والمكان ، والفكرة والأنتباع والثروات ، حاضراً ومستقبلاً . وكل ما يمكن أن نبرر به الحال ، وندافع به عن الأخطاء لا يمكن أن نلغي ضرورة تكامل النظرة ، واتزان المنهج ، وشمول التقويم ، وسنن التغيير والنصر التي تعمل عملها في حياة الناس ، كل الناس إلى أن يرث الله الأرض وما عليها .

٣- كتيب منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم : للأستاذ أحمد بن محمد الصويان. وقد تخصص عبر الاعتماد على مواقف عملية ، وآراء في الجرح والتعديل ، في الحكم على الرجال ، وتقويم مؤلفاتهم وأفكارهم ، وذلك جهد ولا شك مطلوب يشكر عليه الكاتب ، وكمثال على ما طرح نورد الآتي:

- يقول في معرض تأكيد شرط العدل والموضوعية عند التقويم :

" محاولة تقويم أي رجل من الرجال ، ومؤلف من المؤلفات بمفردات سابقة ، وخلفيات مبيتة ، تجعل الإنسان يميل عن الحق ميلاً واضحاً ، فهو لا ينظر إلى المرء بمجموع أعماله ، بل يتغاضي عن المحاسن ، ولا يقع بين عينيه إلا الهفوات ، بل قد يعطيها أكثر مما تستحق من النقد والتجريح . ولذا كان التجرد في التقويم من الأسباب المهمة التي تجعل الحكم صواباً ، أو قريباً من الصواب . قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً

فإنه أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون بصيراً ﴿ [النساء: ١٣٥] .

إلى أن يقول : " ولهذا أوصى الله عز وجل نبيه داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام بالحدز من الهوى . فقال ﴿ يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فلا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ... ﴾ [ص: ٢٦] . وحينما يطغي الفساد على القلب يقع الإنسان في شرك الهوى ، فتقلب الموازين ، وتنتكس الأحكام ، ويصبح الحق باطلاً والباطل حقاً <sup>(١)</sup> . وأشار المؤلف كما هو واضح إلى شرطين بارزين مهمين من شروط التقويم ، وهما: العدل في التقويم ، وعدم اتباع الهوى . ولا شك أن العدل عزيز عظيم ، مبارك الثمرات طيب النتائج . وقد قامت السموات والأرض على العدل ، والعدل أساس الملك ، ويستمر السلطان الكافر بالعدل ، ويزول السلطان المسلم بدونه . وذلك سنة الله في الخلق إلى قيام الساعة .

والهوى عائق كثيف يُعرقل مسيرة التقويم الصحيح نحو الأفضل ، وهو يتحكم بصاحبه - أحياناً - وكأنه إله ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه ، أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ .

- ينقل الصويان في معرض الكلام عن توازن التقويم بذكر السلبيات والإيجابيات ، وعدم التعصب، والتمييز بين المسلمين وغيرهم ، كلام ابن تيمية الذي يقول فيه : " ويعلمون - أي أهل السنة والجماعة - أن جنس المتكلمين أقرب إلى المعقول والمنقول من جنس الفلاسفة ، وإن كان الفلاسفة قد يُصيبون أحياناً ، كما أن جنس المسلمين خير من جنس أهل الكتابين ، وإن كان يوجد في أهل الكتاب من له عقل وصدق ، وأمانة لا توجد في كثير من المنتسبين إلى الإسلام، كما قال الله تعالى : ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك .. ﴾ [آل عمران : ٧٥] <sup>(٢)</sup> .

وقال تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما... ﴾ [البقرة: ٢١٩] . فإله سبحانه وتعالى أثبت المنافع في الخمر والميسر ، ولكنه حرمهما لغلبة المفساد على المحاسن " <sup>(٣)</sup> .

<sup>(١)</sup> منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم : أحمد بن محمد الصويان ، دار الوطن للنشر ، الرياض ، ط ١ ، ١٤١٠ هـ ، ص ١١-١٢ .

<sup>(٢)</sup> درء تعارض العقل والنقل : ابن تيمية ٩/٢١١ . تحقيق محمد رشاد شاکر .

<sup>(٣)</sup> منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم : مرجع ، سابق ص ٢٨ - ٢٩ .

وذكر السلبيات والإيجابيات في آن منهجية قرآنية ، وشرط بارز في منهجية علماء الجرح والتعديل خاصة ، وعلماء الأمة كما مر معنا عامة . وهي تعتمد على الوعي الإدراكي ، والسلامة النفسية ، والصحة الفقهية ، والخبرة التغييرية ، والعمق في فهم سنن الدعوة والهداية .

وليت مسلمي اليوم ، بل ودعاتهم ومصلحيهم يقفون عند كلام ابن تيمية شيخ الإسلام ومجده ، وقفة اقتناع وتطبيق .

٤- كتيب منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين : هشام بن إسماعيل الصيني .

ويعتمد المؤلف في طرح أفكاره حول منهجية النقد والتقويم على أقوال وآراء علماء السلف ، وما امتازوا به من دقة وموضوعية ، خاصة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله . وهو كتيب مفيد في دراسة منهجية التقويم بشكل عام ، نورد منه تمثيلاً ما يلي :

- ينقل الصيني في باب المفاضلة بين الناس ما أورده ابن القيم في بدائع الفوائد<sup>(١)</sup> عن ابن تيمية - رحمهما الله - قوله " فعلى المتكلم في هذا الباب :

(أ) أن يعرف أسباب الفضل أولاً .

(ب) ثم درجاتها ونسبة بعضها إلى بعض ، والموازنة بينهما ثانياً .

(ت) ثم نسبتها إلى من قامت به - ثالثاً - كثرة وقلة .

(ث) ثم اعتبار تفاوتها بتفاوت محلها رابعاً .

فرب صفة هي كمال لشخص وليست كمالاً لغيره ، بل كمال غيره بسواها ، فكمال خالد بن الوليد بشجاعته وحروبه ، وكمال ابن عباس بفقهه وعلمه ، وكمال أبي ذر بزهده وتجرده عن الدنيا ، فهذه أربع مقامات يضطر إليها المتكلم في درجات التفضيل .

وتفضيل الأنواع على الأنواع أسهل من تفضيل الأشخاص على الأشخاص ، وأبعد من الهوى والغرض ، وههنا نكتة لا ينتبه لها إلا من بصره الله .

وهي : أن كثيراً ممن يتكلم بالتفضيل يستشعر نسبته ، وتعلقه بمن يفضله ولو على بعد ، ثم يأخذ في تقريره وتفضيله ، وتكون تلك النسبة مهيجة له على التفضيل ، والمبالغة فيه ، واستقصاء محاسن المفضل والإغضاء عما سواها ، ويكون نضره في المفضل عليه

(١) انظر بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية : ١٦١/١ - ١٦٤ .

بالعكس . ومن تأمل كلام أكثر الناس في هذا الباب رأى غالبه غير سالم من هذا ، وهذا مناف لطريقة العلم والعدل التي لا يقبل الله سواها ، ولا يرضى غيرها .  
ومن هذا تفضيل كثير من أصحاب المذاهب والطرائق واتباع الشيوخ في كل منهم لمذهبه وطريقة شيخه . وكذلك ممن لا يُشك في علمه وورعه خيف عليه من جهة أخرى ، وهو أنه يشهد حظه ونفعه المتعلق بتلك الجهة ، ويغيب عن غيره بسواها ، لأن نفعه مشاهد له أقرب إليه من علمه بنفع غيره ، فيفضل ما كان نفعه وحظه من جهته باعتبار شهوده على تلك الواحدة " (١) .

- ويقول المؤلف : " والتفاضل بين الناس يكون على وجهين :

(أ) تفاضل مطلق ب) تفاضل مقيد . أما التفضيل المطلق بين الناس فيكون على أساس التقوى ، وقوة الإيمان - ولنا الظاهر والله يتولى السرائر - فمن ظهر لنا أنه على تقوى أعظم من غيره كان أحب إلينا .

وأما التفضيل المقيد : فهو بحسب قيده . فإن الناس يتفاضلون في أمور ومواهب وقدرات ، فالناس يتفاضلون في العمل ، وفي الذكاء ، والفهم ، وفي قوة الحفظ ، أو حسن الإدارة والتنظيم وأمثال ذلك .

فهنا المفاضلة تكون بحسب الحاجة إليها ، وهي مفاضلة مقيدة لا علاقة لها بالأفضلية عند الله تعالى . فهذا السهروردي يقول عنه الذهبي - رحمه الله تعالى - " كان يتوقد ذكاء ، إلا أنه قليل الدين " (٢) .

-ويقول الصيني بعد ذكر الآية الكريمة ﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم ﴾ [التوبة: ١٠٢] .

" فمن أخطأ أو زل لا نبغضه ونذمه بإطلاق - كما فعلت الخوارج - فكفرت مرتكبي المعاصي ، كما أننا لا نمدحه مطلقاً ، ولا نوصله إلى درجة أبي بكر وعمر ، بل وجبريل

(١) منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين : هشام بن إسماعيل الصيني ، المنتدى الإسلامي ، لندن ، ط ١ ، ١٤١٢هـ ، ص ٣٨ .

(٢) سير أعلام النبلاء : الإمام الذهبي ٢١/٢٠٧ . وانظر منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على آخرين : مرجع سابق ص ٣٥

وميكائيل عليهما السلام - كما فعلت المرجئة - وإنما دين الله وسط بين الغالي فيه والجافي عنه " (١) .

وأما أروع هذه النقول والقواعد في التقويم والمفاضلة لو وقف عندها جيل الصحوة الإسلامية ، وهي ولا شك ترجمة تطبيقية عملية ميدانية لكثير مما عالجنه من مواد بحثنا في الفصول السابقة . ولنا كلمة في ما ذكره المؤلف حول مفهوم التفاضل المطلق والمقيد ، إذ قد يجتمع الأمران ( التفاضل المطلق والمقيد ) في شخص واحد عند المفاضلة ، وليس شرطاً أن ينفصل الإيمان والتقوى عن الصفات الذاتية الأخرى .

٥- كتاب ظاهرة المحنة محاولة لدراسة سننية : للدكتور خالص جلبي . والكتاب من جزئين . وهو كتاب عميق الطرح ، نوعي المادة . يركز على سننية المحنة وحميتها لأهل الأفكار والدعوات ، ويؤكد على ضرورة الفصل بين حميتها كسنة في مجال الثبات على الفكرة والعقيدة ، وبين خطأ أصحابها حين الوقوع بها كمجال للنشاط البشري في ميدان الصدام بين الحق والباطل ، وظروفه المحيطة بأقطاب الصراع المواتية وغير المواتية .

ومما ورد في جزء الكتاب الأول كمثال لما طرح به في محاولة لتحديد منهج التقويم قال صاحب الكتاب تحت عنوان العلاقة بين المحنة والخطأ :

" وعندما كانت الجماعة المسلمة - بعد أن أقامت نظامها السياسي في المدينة - تخوض تجارب من نوع جديد ، كان محنة معركة أحد - مثلاً - خطأ ، وبينما هي في هذه المحنة كانت المعالجة تختلف تماماً عن معالجة حالتها الأولى - يقصد الاضطهاد العقائدي الذي يواجه بالصبر والتحمل ولا يواجه بالعنف المضاد - فلم يسكت القرآن عنها ، ولم يقل بارك الله فيكم كانت محنة لكم ، وليس عليكم إلا الصبر والتضرع إلى الله ، بل قام فوراً بعمل تحليلي لما حدث وأشار إلى نقاط الخطأ ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر ... منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ... ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فهل من الغريب - على عقليتنا - أن يشير القرآن إلى أنه كان من بين المؤمنين - وبقوا مؤمنين عفا الله عنهم مع تقصيرهم - من يريد الدنيا ؟ ومع أن ما حدث كان بإذن الله ﴿ وما أصابكم يوم التقى الجمعان فإذن الله ﴾ [آل عمران: ١٦٦] . حتى يعرف المؤمنين من المنافقين ﴿ وليعلم المؤمنين وليعلم الذين نافقوا ﴾ [آل عمران: ١٦٦-١٦٧] .

(١) منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين : مرجع سابق ، ص ٢٧ .

مع كل هذا قال إن المصيبة كانت من عند أنفسهم ﴿ أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير ﴾ [آل عمران: ١٦٥].  
فإذن يجب التفريق بحسم بين صنفين من المحنة ، صنف من أنواع الاضطهاد يحدث بسبب عقاندي (تكذيب وإيذاء ) تعذيب بدني وما شابهه ، وصنف يحدث فيه مصائب بواعثها أخطاء العمل ، والصنف الأول يُعالج الموقف فيه بزيادة شحنة الصبر والمصابرة ، والثاني بالصبر مضافاً إليه تعديل خطأ ما حدث كدرس لن يتكرر في المستقبل " (١) .

٦- كتاب النظرية العامة للدعوة الإسلامية (نهج الدعوة ) وخطة التربية والبناء :  
للدكتور عدنان علي رضا النحوي ، وهو كتاب قيم فيه تجربة الكاتب وخبرته الدعوية ، وقد حدد موضوعات دعوية ، وأطر فكرية مهمة وضرورية في ترشيد الحركة الإسلامية ، وإطارها الأوسع الصحوة الإسلامية ، ومما ورد فيه على سبيل - التمثيل - تحت عنوان " التقويم الدوري " وهو ما يخص موضوعنا هنا " ويُنهي المؤمن عمله عند تحقيق الهدف بأمرين هما :

الدراسة والتقويم ... وقد غاب التقويم كذلك عن حياة المسلمين زمناً طويلاً ، وغابت خصائصه ، و لا بد أن يعود التقويم إلى حياة المؤمنين في كل ميادينها حتى نرسي قاعدة إيمانية عظيمة توفر للمؤمنين فرص النمو والتطور ، والعلاج والسلامة ، وتجمع في الوقت ذاته قواعد إيمانية هامة متعددة كلها ضرورية للعمل ، والسعي في حياة الفرد والجماعة والأمة ، ويذكر من قواعد التقويم :

١- رد الأمور إلى منهاج الله رداً أميناً منهجياً .

٢- محاسبة النفس بالنظر فيما قدمت لغد من عمل وسعي .

٣- إنزال الناس منازلهم .

٤- النصيحة وإبداء الرأي والحوار .

٥- الشورى المسؤولة المثمرة المباركة .

٦- تحديد الأخطاء ومعالجتها .

ومن أهم فوائد التقويم عنده :

(أ) الاستجابة لأمر الله ﴿ ... اتقوا الله ولتنتظر نفس ما قدمت لغد ... ﴾ .

(ب) التدريب على الممارسة الإيمانية .

(١) انظر ظاهرة المحنة : د. خالص جلبي . دار البشير ، عمان ط ٢ ، جزء ١ ، ص ٦٨-٦٩ .

ج) نمو العمل وتطوره بكشف الأخطاء ومعالجة المشكلات .

د) إغلاق المنافذ التي يلج منها الأعداء ، وسد أبواب الفتنة .

ومن الضروري أن نؤكد هنا أن التقويم يوفر فرصة عظيمة لممارسة الشورى على أسس منهجية إيمانية، وعلى أسس من المسؤولية المحددة، تجتمع فيها المواهب والطاقات في نطاق الاختصاص والمسئولية<sup>(١)</sup>.

والواقع أن هناك كتباً كثيرة لمست موضوع التقويم وأشارت إليه من مثل ، كتاب النقد الذاتي للدكتور خالد جلي ، وكتاب نظرات في مسيرة العمل الإسلامي للأستاذ عمر عبيد حسنة ، وكتاب الحركة الإسلامية بين الجحود والتطرف للأستاذ الدكتور القرضاوي ، وكتاب " حتى يغيروا ما أنفسهم " للأستاذ جودت سعيد ، وقدمت كذلك مجموعة من الكتاب والمفكرين - إضافة إلى ما سبق - طروحات قيمة عبر مؤلفاتهم وكتبهم ، لإبراز منهجية التقويم والتشخيص ، والحث على ضرورتها للعمل الإسلامي المعاصر ومشروعه الحضاري المنشود من مثل : أبو الأعلى المودودي ، والندوي ، و سيد قطب ، ومالك بن نبي ، وعمر عبيد حسنة ، وعماد الدين خليل ، وعبد الحميد أبو سليمان ، والشيخ القرضاوي، والأستاذ فتحي يكن ، والشيخ محمد أبو الفتح البيانوني ، وما صدر كذلك من سلسلة كتب الأمة التي يقدم لها غالباً الأستاذ عمر عبيد حسنة ، وكذلك إصدارات المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، وكتب أخرى تناولت سرد جزء من محنة الحركة الإسلامية ، وإنجازاتها وما لها وما عليها - ولو عبر انطباعات فردية خاصة - مثل أقسمت أن أروي لروكس معكرون ، والبوابة السوداء ، والإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ ، ومحاولات أخرى من مثل ما كتبه د. عبد الله النفيسي وآخرون .

وهذه - ولا شك - محاولات جاءت في صميم فكرة التقويم ، والتصويب المطلوبة ، وهي مصنفة - حسب رأي الكاتب- كمحاولات وقعت في دائرة الاجتهاد بصفة ما ، ربما في الانتباه إلى الجانب الإجرائي، وميدان الإنجاز - ما له وما عليه - أكثر من الجانب التنظيري التأسيلي الذي يعتمد على مرجعيات الفكر ، والعقائد في القرآن الكريم أساساً . وما الإجراءات إلا شواهد ودلائل تدعم الطرح النظري وتقويه .

(١) النظرية العامة للدعوة الإسلامية : د. عدنان علي رضا النحوي دارالنحوي ، ط ٣ ص ٣٠١-٣٠٣ ،

بنصرف .



## المبحث الثاني

تربية المسلمين على منهج التقويم القرآني فهماً وسلوكاً

وفيه مطلبان

المطلب الأول : معالجة معوقات منهج التقويم القرآني

المطلب الثاني : تربية المسلمين على منهجية التفكير التقويمي في القرآن

## تمهيد:

انطلاقاً من ضرورة التأصيل والتنظير لأي دستور ومنهج يراد له أن يعيش ويستمر ، وأن ذلك لا يفيد إلا إذا اكتملت حلقات المعالجة ، بإنزال هذا المنهج إلى واقع الناس وحياتهم، ليعرفوه واقعاً ملموساً ، يتفاعلون معه ، ويسيروا على هدايته ، ويقطفون ثمراته ، ويستفيدون منه في تحسين ظروفهم ، وأحوالهم نحو هدفهم المنشود ، وغايتهم المقصودة . ومنهج التقويم القرآني كي يصبح فاعلاً مفيداً مساهماً في تغيير حال المسلمين ، لا بد أن يترجم على شكل برامج ، وآليات تغذي الفكر والقلب ، وتصلح السلوك والفعل . ويحتاج ذلك إلى جهد ودأب ، ومكابدة وإرادة ، ومراجعات ومتابعات على جميع الأصعدة والمجالات ، بدءاً بالطفل والأسرة ، إلى مؤسسات التأهيل والتعليم ، وصناعة الرأي ، والإعلام والإدارة وغيرها . وهو موضوع قيمى تربوي سلوكي يحتاج إلى تدرج ، وزراعة وتعهد وتعديل ، إلى أن يصبح قيمة فكرية وسلوكية في حياة الأمة ، ولو بنسبة النجاح في حدها المقبول .

و من هنا فإننا سنعالج هذا المبحث عبر المطالب التالية :

### ١)المطلب الأول : معالجة معوقات منهج التقويم القرآني .

تقف المعوقات والموانع حجر عثرة في سير أي منهج أو فكرة أو نشاط بشري ، وهي إما داخلية ، وإما خارجية في الغالب الأعم . وقد بينا بعض معوقات منهج التقويم في القرآن الكريم بشكل مجمل في الفصل الخامس من هذا البحث . ونطرق هنا بعض المعالجات والأفكار التي تسهم في معرفة هذه المعوقات ، ومحاولة إزالتها والتعامل معها عبر تجارب وتشخيصات المفكرين والكتاب والعلماء ، ومن ذلك :

١) لأن أصل التقويم ينطلق من كينونة النفس البشرية ، وقطبي التجاذب فيها ، فقطب الإيجاب يقود سلامة التقويم والفعل ، وقطب السلب يقود إلى التشويش وتنمية المعوقات . يقول صاحب المنار " يشعر كل من فكر في نفسه ، ووازن بين خواطره عندما يهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن في نفسه تنازعا ، كأن الأمر قد

عُرض فيها على مجلس شوري ، فهذا يورد ، وهذا يدفع ، وأحد يقول افعل ، وآخر يقول لا تفعل ، حتى ينتصر أحد الطرفين ويترجح أحد الخاطرين " (١) .

وما هذه المحاكاة وتنازع الخواطر إلا نوع تقويم فطري على أساس قاعدة ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ .

(٢) ويقول د. دراز " ... فضلاً عن إحياء السلوك القويم والتضامن الفكري الذي يجمع بين رسل الله جميعاً ، فإن القرآن الكريم يؤكد دائماً في كلا المجالين العقدي والعملي على ما في نفس الإنسان من عنصر مشترك هو الحكم الفعلي والسليم الذي يميز به الإنسان بين الخير والشر " (٢) .

ويقول كذلك " لقد غرس الله في داخل كل منا بصيرة أخلاقية غريزية ، إذ مهما بلغت درجة الانحراف والفساد الذين قد نسقط فيهما - وفيما عدا حالات استثنائية خاصة بضلال الضمير - فإننا نعتزف ونحب ونقدر الفضيلة في ذاتها ، وفي غيرنا حتى إن أعوزتنا الشجاعة للارتفاع إلى مستواها . ولا شك في أن مشهد سلوك هابط يثير نفورنا ، حتى ولو راودنا الإغراء لاقتراف نفس العمل الذي نلوم عليه غيرنا .

إننا نكره في أنفسنا عيوبنا الذاتية ، وإذا كنا لا نبذل من الجهد المتواصل ما يكفل تصحيحها ، فإننا نتلمس لأنفسنا المعاذير لتبرئة أنفسنا منها . فمن هو الرجل الذي يقبل أن يوصم بالكذب ، أو النفاق ، أو الخيانة ، أو الغش أو السكر ، أو أي رذيلة أخرى .

فعلى هذا الشعور العام القادر على التمييز بين العدل والظلم ، وبين الخير والشر ، يستند القرآن في أغلب الأحيان ليؤسس نظامه الخلفي ، ويعتمد عليه في تعريف فكرته العملية " (٣) .

وهذا يؤكد فطرية المعيار التقويمي في نفس الإنسان ، أي إنسان ، ومن ثم معالجة القرآن لذلك عبر نزعة الخير وحب الفضيلة ، في دستور الأخلاقي ، على طريق تربية المسلمين على منهجية التقويم المستقيمة عقيدة وسلوكاً .

(١) التفسير والمفسرون : الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي ، ج ١ ، نقلاً عن تفسير المنار ، ج ١ ، ص ٢٦٧-٢٦٨ .

(٢) مدخل إلى القرآن الكريم: د. محمد عبد الله دراز ، دار القلم ، الكويت ، تقديم الكتاب ، ص ١٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ٨٩-٩٠ .

٣) وورد في تفسير المنار عند الآية ﴿ ولئن اتبعت أهوائهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين ﴾ [البقرة: ١٤٥] حيث يشكل اتباع الهوى عائقاً أساسياً للتقويم .  
" هذا خطاب بهذا الوعيد لأعلى الناس مقاماً عند الله عز وجل وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو أشد وعيد لغيره ممن يتبع الهوى، ويحاول استرضاء الناس بمجازاتهم على ما هم عليه من باطل ، فإنه أوردته بالخطاب للرسول صلى الله عليه وسلم مع أن المراد أمته ، ليعلم المؤمنين أن اتباع الهوى ولو لغرض صحيح هو من الظلم العظيم ، الذي يقطع طريق الحق ، ويردي الناس في مهاوي الباطل " (١) .

وظهر أن ذلك تقويماً للرسول صلى الله عليه وسلم وتنبهياً قبل وقوع ما يمكن أن يقع من اتباع أهواء المعاندين ، وما أشنع من الهوى في طريق التقويم السليم واتباع الحق ؟ فنتيجته صرف المرء عن حسن الحكم ، وإيقاعه في دائرة الظلم والجور . ومع عصمة النبي صلى الله عليه وسلم من اتباع الهوى ، فإن ذلك يشكّل معلماً ومرشداً لأمته في الاستقامة والتربية. وهذا ما يسمى التقويم الوقائي أي التحذيري قبل وقوع العمل والبدء بالنشاط . وبهذا تتبين معالجة عائق الهوى في سبيل منهج التقويم .

٤) وحول منهجية وضرورة النقد الذاتي وتقويم الداخل يقول د. عبد الكريم زيدان :  
" إن مما ابتلى به المسلمون أفراداً وجماعات أنهم يلومون غيرهم لا أنفسهم ، وإذا وقعت عليهم نكبة أو مصيبة فتراهم يفتشون على من يحملونه مسئولية ما وقع عليهم من نكبات ومصائب ، وينسون أنفسهم ، فلا يحملونها شيئاً من مسئولية ما وقع ... وهكذا فقد تأصلت هذه العادة عند المسلمين .. وهذا مرفوض عقلاً وشرعاً .

أما عقلاً فلأن من يلقون عليهم اللوم من المستعمرين والكفار واليهود ، يعرف المسلمون عداوتهم لهم ، والعدو لا يريد خيراً لعدوه ، وهل في قولهم " هذا من فعل المستعمر شيء جديد ، أو اكتشاف جديد؟

أما أن موقفهم هذا مرفوض شرعاً ، فلأن الله تعالى بين ذلك بأن ما أصابنا بسبب منا، قال تعالى : ﴿ وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير ﴾ .

ويقول في فائدة التقويم الذاتي وتربية النفس عليه " ولوم النفس لا الغير عند حلول المصيبة يفيد جداً، لأنه يحفز المصاب على السعي الجاد لإزالة ما قام في النفس ، أو ما

(١) تفسير المنار: رشيد رضا ، ج ١ ، ص ١٨ .

صدر عنها من أسباب أدت إلى وقوع هذه النكبات والمصائب ، وإعداد ما يلزم لرفعها ولمنع وقوعها في المستقبل .

وهذا هو المنهج السليم لرفع ما حصل بالمسلمين من نكبات بسبب منهم ، وهو ما يخيف الكفرة المستعمرين (1) .

وهذا أصل ضروري في معالجة معوقات التقويم ، إذ كثيراً ما يقف الخوف من تقويم الذات ، والتردد في ذلك عائقاً أمام معرفة الحال وتشخيصها ، وبذلك يتم لوم الآخرين كدفاع تبريري ، وحيلة لا شعورية نستمر بها ونحاول إقناع أنفسنا بها ولو إلى حين . وقد يدل ذلك على ضعف نفس ، أو خلل تربوي ، أو قلة منسوب الثقة بالذات . وهذه من جروح التربية النفسية والروحية خاصة في سن الطفولة . ولربما دل ذلك على وجود أنماط من القيم الاجتماعية التي تعود الناس على إخفاء أخطائهم ، خوفاً من أن يعييبهم الغير بكذا وكذا ، أو أن يخسر بها الإنسان موقفاً أو حاجة ما ، أو يقال عنه أنه غير لبق وذكي وحسن التصرف ، وأنه أخرج ولم يستطع تخليص نفسه ، ولم يستعمل أساليب الدبلوماسية والهرب - هذه الأساليب الزائفة الموصوفة زيفاً بالقدرة والحكمة، وحسن التدبير - مما ينشأ معه النفاق الاجتماعي ، ويكثر الغموض والتملق ، وخبث الطوايا ، وما شابه ذلك .

ومن ضروب التعليقات الطائشة في رفض أو تأجيل التقويم والنقد الذاتي ، ما يراه بعض العاملين في الحقل الإسلام في أن كونهم يعملون للإسلام وينشطون له - في وقت قصر فيه الكثيرون - يجعلهم فوق النقد والتقويم ، وأن ذلك أولى بالمفرطين والقاعدين .

وأرى أن الأولى في ذلك هو أن يوجه التقويم إلى أولئك العاملين للإسلام ، لأن ذلك أفضل للعمل الإسلامي وللعاملين فيه ، فضعف التقويم أو فقدانه عندهم سيجعل أخطاءهم تكرر ، وربما تزيد وهم بذلك يشكلون مطعناً للعمل الإسلامي وكذلك لأنفسهم ، فأعداء العمل وجهلة المسلمين ، والباطالون جالسون في سوق البطالة الفكرية والسلوكية ينتظرون الخطأ والهفوة والزلة ، ليقوموا بتكبيرها، والنفخ فيها عبر منهجهم التقويمي العاجز المعوج .  
(5) وللاعتبارات الشخصية والمصلحية دورها في إعاقه التقويم السليم ، يقول القرضاوي : " فالاعتبارات الشخصية والوقتية والمحلية والمادية لها ضغطها وتأثيرها على

(1) انظر السنن الإلهية في الشريعة الإسلامية : د . عبد الكريم زيدان . مؤسسة الرسالة بيروت ط ٣ ،

١٩٩٤م ، ص ٢١٤-٢١٥ .

تفكير البشر ، لهذا يجب الانضباط والتحري عند النظر في المصالح وتقويمها تقويماً سليماً عادلاً " (١) .

٦) حظيت معالجة قضية المحاباة ، وعدم العدل - ولو مع العدو - باهتمام بالغ في القرآن ، تربية للمسلمين ، وإزالة لها من طريق الحكم الصحيح ، والتقويم السليم ، لصالح جنس الإنسان لمجرد أنه إنسان . وقد ورد في الظلال عند قول الله تعالى ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ [المائدة:٨] .

"فها هم أولاء ينهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل ... وهي قيمة أعلى مرتقى ، وأصعب على النفس وأشق . فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده ، تتجاوزها إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض ! إن التكليف الأول أيسر ، لأنه إجراء إيجابي يحمل النفس على مباشرة العدل والقسط مع المبعوضين المشنوثين! (٢) .

والميل الشخصي بسبب قرابة أو مصلحة أو عداوة أو جهل أو نظرة جزئية أو غير ذلك ، عائق دائم الحدوث ، ملازم للإنسان - إلا ما ندر - في طريق النظرة الصحيحة ، والتقويم العادل ، والتجرد الأبيض . ولذلك فإن منهج القرآن التقويمي ينظر إلى قضية الاستقامة - في كل شيء - نظرة عبادية، مرتبطة بالخالق ابتداءً ، وهي مجردة من نوازع البشرية وميلانها ، لا لعدم الاعتراف بها أو نفيها وإنما لتربيتها وتهذيبها، وارتفاع منسوب النفخة العلوية على القبضة الطينية فيها. وهذا ما ينمي منهج التقويم ، ويزكيه ويعمقه في حياة الناس كل الناس .

٧) قلنا في ما سبق أن الظن من أضخم معوقات التقويم السليم ﴿ ولو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ .

"إن عدوي العلم هما الظن والهوى، فتوليد القطعيات من المقدمات الظنية ضعف في العلم، وسيطرة الأهواء على كيفية استخلاص النتائج والأحكام ضعف في الأخلاق والنزاهة " (٣) .

وتقف كذلك العجلة والارتجالية وسطحية الحكم منغصات في طريق التقويم ، تعرقله وتذهب بهائه. كما هو إنضاج الثمرة إنضاجاً قسرياً قبل أوانها ، فقد ترى شكلاً مليحاً ، ولكن الجوهر والمذاق شيء آخر.

(١) مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية : د. يوسف القرضاوي ، مؤسسة الرسالة - بيروت ، ص ١٥٢ .

(٢) الظلال : ج ٢ ، ص ٨٥٢ .

(٣) فصول في التفكير الموضوعي : مرجع سابق ، ص ٤٤ .

" ومهما يكن من أمر فإن الأناة في إصدار الحكم ، والصياغة الدقيقة له أمر في غاية الأهمية. وقد لوحظ أن الإنسان البدائي أقل صبراً على البحث والملاحظة، وأكثر مسارعة إلى إصدار الأحكام العامة الكبيرة . أما المتحضر فهو أكثر صبراً على الملاحظة والتجربة " (١) .

(٨) ويتربع الكبت والاستعباد على قمة سلم عوائق النظر التقويمي ، والتميز الموضوعي، بين ما هو جميل وما هو قبيح ، وبذلك تُسرق العقول بشلها ، والإرادات بطمسها ، وينقلب الأحرار عبداً ، بل قروداً مقلدة .

ويخوِّف الناس أن يقولوا شيئاً ، فسلحي الترهيب والترغيب على استعداد دائم، ترهيب بتجفيف ينبوعي الرزق والأجل - وأنا يكون ذلك إلا الله - وترغيب باستمرار تدفق الرزق والأجل - وأنا يكون ذلك إلا الله - ولكن يتم ذلك بسلب الإرادة وزرع النفاق ، وأخلاق القرده .

" فإن أردنا على سبيل المثال أن نحل مشكلة كساد سوق الحوار والنقد البناء في أكثر بلدان العالم الإسلامي وجب علينا أن نبحث في حل مشكلة الحرية ، التي لا يمكن للمرء بدون حلها أن يقول الحقيقة كاملة ، والتي تجعل الناقد في خطر . وأن نبحث في المفاهيم الخاطئة التي تجعل من نقد الأفكار نقداً لصاحبها ، مما يجعل المرء يبتعد عن النقد ، حرصاً على التماسك الاجتماعي والأسري " (٢) .

(٩) والمبالغة في تقديس الأفكار والأشخاص والجماعات وإخراجها من دائرة الخطأ ووضعها في دائرة الكمال عائق نفسي وإجرائي أمام التقويم والنصيحة . يذكر أحمد الصويان نقلاً عن ابن الأثير الجزري قوله : " وإنما السيد من عدت سقطاته ، وأخذت غلطاته فهي الدنيا لا يكمل فيها شيء " وعن ابن القيم قوله " وكيف يُعصم من الخطأ من خلق ظلوماً جهولاً ؟ ولكن من عدت غلطاته أقرب للصواب ممن عدت إصاباته " وقديماً قال أحد الحكماء :

المرء يعجب من صغيرة غيره	أي امرئ إلا وفيه مقال
لسنا نرى من ليس فيه غميمة	أي الرجال القائل الفعّال (٣)

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٨ .

(٣) انظر منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم : مرجع سابق ، ص ٢٦ .

١٠) ومن عوائق التقويم وشمول النظرة والحكم ، النظرة الأحادية المجردة ، التي لا يرى صاحبها إلا بعين واحدة ، والألوان عنده بياض أو سواد ، وهو بذلك يجافى التوازن والاعتدال . وقد ورد معنا في شروط التقويم أن الموضوعية والاعتدال وذكر ما للمرء وما عليه سواء شرط أساس أو قاعدة رئيسة في ذلك ، ومن هنا وجب دحر النظرة النصفية والجزئية للأمر .

قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه عن الشيطان الذي علمه آية الكرسي لتحفظه من الشيطان " أما إنه صدقك وهو كذوب " (١) .

" فالنبي صلى الله عليه وسلم أثبت الصدق للشيطان الذي ديدنه الكذب ، فلم يمنع ذلك من تقبل الخير الذي دل عليه . وذكر ابن حجر العسقلاني من فوائد هذا الحديث " أن الحكمة قد يتلقاها الفاجر فلا ينتفع بها وتؤخذ عنه فينتفع بها ... وبأن الكذاب قد يصدق " (٢) .

ومن بدهيات الفهم أن ليس هناك خير محض ، وشر محض ، والأمور نسبية ، والمطلق فقط هو من صفات الخالق سبحانه ، في علمه وإرادته وقدرته وغيرها . ولذلك استعمل القرآن صيغة " ومنهم " التي تدل على البعض لا الكل وصيغة " أكثرهم " فقال ﴿ ومنهم من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك ﴾ وقوله ﴿ ولا تجد أكثرهم شاكرين ﴾ أكثرهم وليس جميعهم ، وقال ﴿ وقليل من عبادي الشكور ﴾ فأصحاب الشكر قلة ، والأكثر غير ذلك ، ولكن نسبة الشكر مثبتة وهكذا .

قال ابن القيم " ... فلو كان كل من أخطأ أو غلط ترك جملة ، وأهدرت محاسنه ، لفسدت العلوم والصناعات والحكم ، وتعطلت معالمها " (٣) .

١١) وفي معالجة عائق الاجتزاء ونظرة العين والواحدة، وتشويشها على التقويم الشامل المتوازن يقول الإمام الذهبي " ... وغلاة المعتزلة ، وغلاة الشيعة ، وغلاة الحنابلة، وغلاة الأشاعرة ، وغلاة المرجئة ، وغلاة الجهمية ، وغلاة الكرامية، قد ماجت بهم الدنيا وكثروا، وفيهم أذكىاء وعباد وعلماء . نسأل الله العفو والمغفرة لأهل التوحيد ، ونبرأ إلى الله

(١) أخرجه البخاري رقم (٢٣١١) .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري : لابن حجر العسقلاني ج ٤ ، ص ٤٨٩ .

(٣) مدارج السالكين : ابن قيم الجوزية ج ٢ ، ص ٣٩ .



من الهوى والبدع ، ونحب السنة وأهلها ، ونحب العالم على ما فيه من الاتباع والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سانغ ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن (١) .  
والإمام الذهبي من أئمة المسلمين في الجرح والتعديل، ونقد السير والأخبار وعلم الرجال ، نراه هنا يُثبت منهجاً متزناً دقيقاً في حكمه على طوائف الغلاة ، من كل مذهب وفرقة من فرق المسلمين ، وهو بذلك يضع ميزان الحب وعدمه في الاتباع والابتداع . وكثرة المحاسن لا كمالها هو معيار التقويم الحسن عنده لأهل الابتداع الذين يبتدعون بمسوغ جائز .

ونحن كثيراً ما نعصر الناس - كل الناس - من الخير عسراً ، ولا نرى فيهم إلا كومة من التجاوز والفسوق والعصيان ، مما يمنعا من ترشيدهم والقرب منهم ، بحجة أنهم أهل معصية وإنكار ، فنخسر بذلك ثمرة التقويم ومقصده وهو الإصلاح والتصويب، والصبر والمثابرة عليه .

فلا التغافل واللامبالاة وترك الأمور على غاربها مطلوب ، ولا النقد المقذع المؤذي التجريدي هو السبيل . والتقويم في جوهره هو دعوة إلى سبيل الله، فيجب بذلك أن يكون بالحكمة والموعظة الحسنة .

وكمثال على التركيز على التوازن والاتزان في النظرة للأمور كتبت يوماً عن انسحاب اليهود من جنوب لبنان وانتصار المقاومة الإسلامية ، حيث قد كثر الحديث ، وسالت الأقسام بمداد التحليل والتقويم ، فبالغ من بالغ ، وغمط من غمط ، وكان مما كتبت مما قد يفيد ذكره في هذا المقال ما يلي :

" إن تقويم الموقف والاحتفاء بالنصر يحتاج إلى مزيج من القدرات والطاقات العاطفية، والعقلية والتاريخية والتحليلية ، ودراسة ما قبل النصر وخلاله وبعده ، وما هو مستقبل الحدث، وكيف نستشرفه...لمزيد من تحقيق انتصارات مماثلة ، تشكل في مجملها النصر النهائي ، الذي هو نهاية الموقف والصراع مع يهود لا محالة .

ومن مواقف الدرس عند الانتصار ، درس فتح مكة ، فهو درس التواضع الأول ، ودرس الشكر الأول ، ودرس غلبة المبدأ على شهوة النفس . إنه درس أبلح محفور في ضمير التاريخ إلى الأبد. ونحن نعرف - ولا شك - أن الفرحة وشكر نعمة النصر كانت تملأ جنبات نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم وتملأ قلوب أصحابه بعد رحلة طويلة شاقة

(١) سير أعلام النبلاء : الإمام الذهبي ، ج ٢٠ ، ص ٤٥-٤٦ .

من الصراع ، والابتلاء والإمساك على الجمر في سبيل الفكرة والرسالة ، ولكنه دخل متواضعاً واعياً للدرس مخططاً لما هو آت .

ولقد علمتنا التجارب والتاريخ على مستوى الجهاد ، والدعوة ، والسياسة وغيرها ، أن التوازن في الفرح والترح هو عنصر الاستقرار والاستمرار، والأساس في عملية الصراع ومسيرة الحياة ، فكم من موقف فرحنا فيه حتى لم يبق في جعبتنا ذرة فرح ، وطاش تفكير كثير منا، ورقص على أنغام الإعلام الموجه - فلا زلنا نتجرع مرارة حرب الخليج الثانية - التي كانت مزاداً للبيع ، ولا زال البيع مستمراً ، وسوقه مفتوحة ، وكم من موقف في المقابل حزنا فيه ، حتى عدنا كأننا لا نعرف الفرح؟ بل جفت عروق عواطفنا وقلوبنا ، وتربع الحزن واليأس وسكن فيها. حتى نفطنا يدنا، وتراخت قبضتنا عن الحق ، فجاءت الانتفاضة الأولى في فلسطين عام ١٩٨٧م فعاد نبع الخير والفرح والسرور يتدفق من جديد، وبالغنا كالعادة ، ثم وصل الأمر إلى ما نعرف جميعاً .

مهم جداً أن نتوازن عند النعمة والنقمة ، عند الانحدار والصعود . فالطريق طويل لاحب ، فلا السرعة والمبالغة في الركض توصل إلى آخره ، ولا الموات والتسلحف يبلغنا نهايته . فربما يكون درس التوازن والاعتدال هو أحد دروس الجنوب الأساسية ، أما تفاصيل الأمور، وتحليلات الموقف وإيقاعاته ، فحدث عن ذلك ولا حرج ، ولكل وجهة هو موليتها (١) .

(١٢) ومن أهم عوائق التقويم السليم هو التعصب، واحتكار الصواب لجهة ما . والتعصب من العصب ، والعصب هو إيقاف الشيء على صورة ما ، ومنه العصابة وهي ما يعصب أي يربط به الشيء . فنقول عصب فلان رأسه أي ربطه ، ويأخذ معنى الحجز والمجموعة . والانتصار للشيء على حق ووعي أو على جهل وسذاجة يدخل في معنى التعصب .

والتعصب اعتقاد الحقيقة كاملة لما يتعصب له شخصاً أو مجموعة أو فكرة ، وهو ضد التوازن والالتزام الذي غالباً ما يكون في دائرة القطعيات والعقائد وفضائل الأمور . ويكون بذلك التعصب في دائرة المنافع والآراء والاجتهادات . وللتعصب أسباب ظاهرة وأخرى خفية . فيكون أحياناً بسبب الواقع وظلمه ، فيكون التعصب للأصالة والعراقة والأمجاد السالفة دون نظر وتمحيص كما هي أنشودة العالم الثالث . وقد يكون التعصب

(١) كان ذلك في ٢٧/٧/٢٠٠٠م .

قهرياً لا حيلة للمرء فيه ، كالتنشئة الاجتماعية المنحرفة ، والتربية الدينية القاصرة ، والتي تشكل مع التعصب مركباً عقلياً أحادياً ، تحجب عنه الرؤية العامة الشاملة للأشياء . ومن مظاهر ذلك :

أ- التعصب للمذهب : يختلف الناس في إدراكهم للحقائق ، حسب فهمهم ومناهج تربيتهم ، ولذلك تشكلت مدارس ومذاهب في العصور الإسلامية للعلوم الشرعية ، ثم تدرج الأمر إلى أن تعصب لها كثير من أصحابها ، وبدل أن تكون أماكن حوار وإثراء فكري ، وتنقيح للعقل نحو الاجتهاد والتجديد ، أصبحت أماكن للتعصب والتقليد الأعمى ، وانطفاً بذلك النظر والتقويم ، واتباع الحق . وقد واكب ذلك انتكاسة حضارية شلت العقل المسلم ، ولا زالت آثار ذلك ماثلة حتى يومنا هذا وقد قيل مثلاً في مدح الشافعي : لا أعلم هاشمياً ولدته هاشمية إلا علي بن أبي طالب والشافعي (١) .

ومن مبالغات التعصب " صار العلم من الله إلى محمد ، ثم صار إلى التابعين ، ثم صار إلى أبي حنيفة وأصحابه ، فمن شاء فليرض ، ومن شاء فليسخط " (٢) .

ومن التعصب للمذهب الحاجب عن النظر والترشيد والنقد، ما قاله بعضهم شعراً :

أنا حنبلي ما حييت وإن أمت فوصيتي للناس أن يتحنبلوا (٣)

وإنني حياتي شافعي وإن أمت فوصيتي بعدي بأن تتشفعوا (٤)

ب- التعصب للتخصص : فالاقتصادي يرى حل الأوضاع عن طريق الاقتصاد . والتقني يرى الحل في التقدم العلمي والتكنولوجي ، والفلسفي وصاحب الدراسات يرى الحل في ذلك وهكذا ... مع أن التاريخ والواقع ، ومنطق الاتزان يقتضي بأن لكل مجال تأثيره . ولا تقوم الأمم والحضارات إلا على الجانبين المادي والإنساني .

ج- التعصب للوطن : التعصب للوطن أمر فطري ، وقد يُعد من باب الوفاء ، وشرطه أن لا يكون ذلك على حساب الدين، والمبدأ والفكرة ، التي تجمع الناس على اختلاف أوطانهم وأسننتهم وألوانهم .. إلخ.

(١) طبقات الشافعية الكبرى : تاج الدين السبكي ، بيروت . دار المعرفة ط ٢

(٢) تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، ج ١٣ ، ص ٣٣٦ .

(٣) مفتاح دار السعادة : ابن قيم الجوزية ج ٢ ، ص ١١٧ .

(٤) أعلام الموقعين : ابن قيم الجوزية ، ج ٣ ، ص ٢٠٤ .

ويساعد في تخفيف هذه الأمثلة من العوائق إشاعة الحريات ، وائتزان التربية ووسطية الفهم وتنمية منهجية الاتباع المبصر ، ورفض الظلم والكدب ، وتحسين مستوى فهم الحقوق والواجبات وإشاعة الشورى والحوار وتقوية النفس بالاعتراف بالخطأ ، والفصل بين مفهوم الأمل واليأس ، والواقع والتنظير ، وكل ذلك ضمن شبكة متكاملة في الفهم والعمل والتخطيط والبرمجة ومن ثم التقويم .

### **المطلب الثاني : تربية المسلمين على منهجية التفكير التقويمي في القرآن**

العقل مناط التكليف ، والتفكير واستقامته وظيفة العقول السليمة ، ومقدار نزوج التفكير واستخدامه لجميع عملياته العليا الراقية ، دليل إبداع وتقدم ، وتمدن وحضارة . وذلك أدعى لاكتشاف السنن الكونية في شطر صفحة الكون المادية ، وشطر صفحته في حياة الناس الاجتماعية ، مما يوصل إلى تناسق الفهم والربط ، ومن ثم التوظيف والممارسة لكلا الشطرين . فلا مغالبة بين الطبيعة وسننها ونواميسها من جهة ، وبين الإنسان وحياته عليها وقيمه فيها من جهة أخرى ، كما يعتقد الماديون . إنما هو انسجام وتكامل ، لنظامين متوازيين ، هما من صنع خالق واحد - سبحانه - كما هو التصور الإسلامي .

إن انضباط التفكير وعلميته ومنهجيته لهو من معالم الرؤيا الإسلامية الشاملة الصحيحة ، المقدمات تتلوها النتائج ، ولا نتيجة بدون مقدمة ، وصحة النتيجة مرتبطة بصحة مقدمتها ، وكل حادث له محدث ، وكل سبب له مسبب ، والعقائد أساس الأديان ، والتوحيد أصل العقائد السماوية ، وأساس البيت قبل طوابقه ، والكليات قبل الجزئيات ، والفروض قبل النوافل ، وهكذا . ومع فلتان الحياة الإسلامية ، وتصدع وحدتها ، وتقاطع خطوط مقوماتها ، والانفصام بين سلطانها وحياة الناس فيها ، وخفوت معالم الأخلاق فيها معرفياً وسلوكياً ، وقلة المحافظة على ضرورات الشريعة الخمسة ، والخلط بين الضرورات ، والحاجات ، والتحسينات حسب تصنيف الفقهاء . بسبب كل هذا فقد اضطربت منهجية التفكير السليم ، وجنحت عن مسارها لتنتج عوراً في التفكير ، وضبابية في الرؤيا ، نتج عن ذلك غمط الحق ، واختلال موازين الحكم ، ومعايير التقويم . ولهذا لا بد من معالجة ذلك في إحياء التفكير السليم ، الذي يقود إلى تقويم سليم ، حسب منهج التقويم في كتاب الله العزيز .

والهدف من تربية المسلمين على هذه المنهجية التقويمية في التفكير على أساس منهج القرآن التقويمي هو تحقيق مرتكزات الفهم السليم ، المنضبط في الالتزام السلوكي ،

والأخلاقي ، وتقويم أعمالنا ووضعنا ،ومن ثم وضع غيرنا . ليس على قاعدة قضائية التقويم، للحكم على الناس بالكفر أو الإيمان ، كما قد يتصور البعض ، وبالتالي ينفر من التقويم والنقد ، إنما ليكون ذلك من أجل خطوة تشخيصية تقويمية سليمة، من أجل تحصيل بداية سليمة ، في رحلة البناء والتغيير المنشود للمشروع الحضاري الإسلامي .ونعرض لذلك مادة فكرية من آراء علماء الأمة قديماً وحديثاً ، تقود إلى تربية المسلمين على منهجية التفكير ، والتقويم الصحيح كما قد ناقشناها في ثنايا بحثنا سابقاً .

١- يقول الإمام ابن قيم الجوزية " غاية العقل أن يدرك بالإجمال ما أتى الشرع بتفضيله أو قبحه ، فيدركه العقل جملة ، ويأتي الشرع لتفضيله ، وهذا كما أن العقل يدرك حسن العدل . وأما كون هذا الفعل المُعين عدلاً ، أو ظلماً ، فهذا مما يعجز العقل عن إدراكه في كل فعل وعقد ، وكذلك يعجز عن إدراك حسن كل فعل وقيمة ، فتأتي الشرائع بتفضيل ذلك وتبينه " (١) .

ويقول في ضرورة معرفة المفتي والمجتهد لأحوال الناس وظروف الحكم والفتوى والخبرة والنباهة في ذلك "... هذا أصل عظيم يحتاج إليه المفتي والحاكم ، فإن لم يكن فقيهاً فيه ، فقيهاً في الأمر والنهي ، ثم يطبق أحدهما على الآخر ، وإلا كان ما يفسد أكثر مما يصلح ، وتصور له الظالم بصورة المظلوم ، والمحق بصورة المبطل ، وعكسه راج عليه المكر والخداع والاحتتيال ... بل ينبغي له أن يكون فقيهاً في معرفة مكر الناس وخداعهم ، واحتيالهم وعوائدهم ، وعرفياتهم ، فإن الفتوى تتغير بتغير الزمان والمكان ، والعوائد والأحوال ، وذلك كله من دين الله " (٢) .

وأراء ابن القيم هذه تعضد بناء منهجية التفكير المنشودة في معرفة حدود العقل ، ودور الشرع في ترشيده وتربيته ، إذ كثيراً ما يخرج البعض العقل عن حدوده ، ويجعله السيد المطاع الذي لا يعترضه نقص ، فعند هؤلاء أن العقل أساس المعرفة والإبداع والاختراع إذاً فكيف لا يتصدر برأيهم هذه المنزلة ؟ ونسوا أن دوره إذا استغل بالشكل الصحيح هو فقط في اكتشاف السنن والنواميس ليس إلا . والكلام في هذا الباب يطول لا نريد الاستطراد فيه إلى خارج حدود المقام .

(١) مفتاح دار السعادة : ابن قيم الجوزية ، ١١٧/٢ .

(٢) إعلام الموقعين: ابن القيم الجوزية . ج ٣ ، ص ٢٠٤ .

ومعرفة أحوال الوقائع وأسبابها ومسبباتها ، ونوعيات الناس وأخلاقهم وبيئاتهم ، ومدى تسيبهم والتزامهم ، أمور مهمة يجب أن يدركها كل من يقوم بدور الحكم والتقويم والتشخيص - أو الاجتهاد والفتوى - كما أشار ابن القيم . ويُقاس عليه ما يجب أن يتصف به المقوم من صفات ليكون تقويمه شاملاً عادلاً موضوعياً ، يقود للبناء والنماء ، ويسير في خط التغيير المطلوب . وبذلك لا يجوز تقويم الأفكار والأعمال ، والخطط وحال الأمم ، والأفراد والجماعات من قبل الجهلة ، والسطحيين والمتسرعين ، وأصحاب الغفلة والسذاجة ، الذين يعتمدون أحياناً على مبدأ عزيز في الإسلام - لو استخدم في مكانه الصحيح - هو حسن الظن ، والحكم على الظاهر . ولكن كثيراً - وللأسف الشديد - ما يحتال الناس ويتلونون ، ويظهر أحدهم مظهر المظلوم المكلوم الفقير المُعدم ، أو يتزي بزِي الوقار والهيبة ، وهو ثعلب محتال ، وثعبان أرقط . فلذلك لا بد من أن يكون المقوم فطناً ذكياً ، عالماً خبيراً بما يقوم ، ورعاً تقياً مخلصاً ، لا يخدع ولا ينخدع ، وذلك لا يتناقض أبداً مع حسن المعاملة ، واحترام الآخرين ، ومن هنا قال عمر رضي الله عنه " لست بالخب ولكن الخب لا يخدعني " أي لست بالمخادع ، ولكن المخادع لا يخدعني . وهذا يبني ما نقصده من تفكير متزن سليم في الحكم والتقويم .

٢- يقول د. مصطفى الزرقا - رحمه الله - في ضرورة وجود مقياس واحد توزن به وتقوم حاجة الناس في حفظ الضرورات الخمس " لذلك وجب أن يُتخذ للمصالح والمفاسد التي يبني عليها التشريع العام مقياس واحد ، يعتبر به الشارع مصلحة الفرد والمجتمع معاً ، ويوازن بين عاجل الحوائج وأجل النتائج ، فلا يعتبر عندئذ مصلحة أو مفسدة إلا ما اعتبره الشارع كذلك ، قطعاً لفوضى المقاييس الشخصية وتضاربها ، فتكون العبرة في ذلك إنما هي للاعتبار الشرعي " (١) .

إن من أهم ما تبنى عليه منهجية التفكير عند الإنسان المسلم هو فهم قاعدة المفاسد والمصالح ، التي غالباً ما تتناول المستجدات في دائرة باب الاجتهاد ، وهي المساحة الغالبة في الحياة الإسلامية . وكذلك الوعي بخطوط التماس بين مصطلحات الفقهاء في ترتيبهم لسلم الأولويات في مستلزمات الحياة البشرية من ( ضروريات ، وحاجيات ، وتحسينات ) والحقيقة أن هناك ما يشبه الفوضى الفكرية ، واضطراب المفاهيم في أغلب ساحات العمل الإسلامي . مما أحدث إرباكاً لخطط العمل ، وترتيب مقدماته وأولوياته ، وتقديم ما حقه

(١) الاستصلاح والمصالح المرسله : د. مصطفى الزرقا ، ص ٤٠ .

التأخير ، أو تأخير ما حقه التقديم ، أو تضخيم ما هو صغير ، وتصغير ما هو ضخيم كبير ، وتكبير الحسنة هنا وتصغيرها هناك ، وإبصار الخطأ هناك ، والإعراض عنه هنا ، ويرى البعض القذاة في عين الغير ، ولا يرى الجذع في عينه .  
ولذلك قال الشاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليله      كما أن عين السخط تبدي المساويا .

٣- يقول الكاتب طه عبد الرحمن حول معيار التقويم كأحد معايير تحديد العقلانية :

" معيار التقويم مقتضاه أن الإنسان لا يركن إلى ما هو كائن وما هو واقع ، بل يسعى دوماً أن يكون موجّهاً بقيم معينة تملي عليه ما يجب أن يكون وما يجب أن يقع ، ومشدوداً إلى معاني تعلق بهمته إلى الخروج عن حاله الحاضر ابتغاء أحوال أفضل منها ، ولا أدل على ذلك من كونه يطلب الكمال في كل أفعاله ، فلا يصل إلى مرتبة حتى يطلب مرتبة فوقها ، ولا يزال أخذاً في هذا التدرج من كامل إلى أكمل منه فالأكمل ، ولو لا هذا التعلق بما ينبغي أن يكون ، لما خرج الإنسان إلى طلب الكمال ، واستفرغ الجهد في تحصيله " وبالتالي فهو يُحدد المقاصد ويهتم بالقيم والمبادئ " .

ويخلص الكاتب أنواع العقلانية (العقول) بثلاثة أنواع هي :

أ- العقلانية المجردة : وهي - بوجه خاص - عبارة عن صفة الفعل الذي يطلب صاحبه تحصيل مقاصد لا يقين في نفعها ، بطريق وسائل لا يقين في نجاعتها ، وهي عقلية الغرب عموماً .

ب- العقلانية المُسدّدة: وهي - بوجه خاص - عبارة عن صفة الفعل الذي يطلب صاحبه تحصيل مقاصد نافعة ، بطريق وسائل لا يقين في نجاعتها ، وقد رأينا أنها تقع في آفتي التظاهر والتقليد .

ج- العقلانية المؤيَّدة : وهي - بوجه خاص - عبارة عن صفة الفعل الذي يطلب صاحبه تحصيل مقاصد نافعة ، بطريق وسائل ناجعة ، ولا يتم هذا الجمع بين نفع المقاصد في ثباتها وشموليتها ، وبين نجاعة الوسائل وخصوصيتها ، إلا بدوام الاشتغال بالله ، وبلوغ الغاية فيه " (١) .

(١) مجلة الإنسان : دار الأمان ، باريس العدد (٥) ص ٦١-٦٢ بتصرف .

ويقول أخيراً " ما لم ننشئ منهجية عقلانية متصفة بأوصاف تحقق هذا الجمع ، فلن يستقيم لنا بناء علم نظري أو طبيعي إسلامي ، ولا تشييد فكر إسلامي ، علم وفكر نأتي فيهما بما لم يأت به غيرنا ، ونصيب فيهما حيث لم يُصب غيرنا " (١) .

إن التركيز على صياغة العقل المسلم ومنهجيته على أساس تحقيق المقاصد الشرعية ، بالوسائل الشرعية ، على أساس مصطلح العقلانية المؤيدة كما أشار الكاتب ، ليصلح أن يشكل لبنة مناسبة في بناء الرؤية الإسلامية المأمولة ، لصياغة العقل الجمعي والفردى الإسلامي ، وتأصيله وترشيده ، وذلك يكون خطوة عزيزة ، وأساساً مباركاً في استيعاب منهج التقويم القرآني عبر آيات الكتاب العزيز ، الذي يؤكد ضرورة تكامل العقل ونضوجه ، وخبرته وعلمه ليقوم بوظيفته في مكابدة هذه المنهجية العزيزة ، وتقريرها في واقع الأمة ، بل في حياة الناس أجمعين .

٤- ومن أطر التفكير السليم حسب طرح د. بكار لتقوية منهج النظر والتقويم

والتحليل:

- التفكير من أجل اكتشاف السنن ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين ﴾ [آل عمران: ١٣٧] .

- تجسيد القيم في أشكال وأساليب عملية .

- الاهتمام بالشورى والوحدة، وإغاثة الملهوف ﴿ ومن أحيائها فكأنما أحيى الناس جميعاً ﴾ [المائدة: ٣٢] .

- إن بداية الطريق منهجية صحيحة لتفكير مجد ، صبور ، مرن ، بعيد عن الذاتية، والارتجالية والانفعالية .

- إن أبرز صفات المفكر أنه يمتلك رؤية نقدية شاملة ينقل من خلالها تناقضات مجتمعه ، والصعوبات التي يعاني منها إلى حس الناس وأعصابهم .

- التفكير العلمي : هو نشاط عقلي هادف مرن منظم لحل المشكلات ، وتفسير الظواهر والحكم عليها ، بمنهج يلاحظ ويحلل ويجرب ، ليصل إلى نظريات وقوانين .  
وصفات التفكير العلمي هي :

• هو نشاط مقصود وليس تلقائياً .

• وهو نشاط منظم وليس مفككاً .

(١) انظر المرجع السابق ، ص ٦٧ .



- وهو نشاط متراكم
- وهو نشاط شامل
- وهو نشاط يقيني

• وهو نشاط موضوعي حيادي عادل

- والتفكير الموضوعي : هو مجموعة أساليب وخطوات تمكنا من الوقوف على الحقيقة كما هي بعيداً عن المؤثرات الذاتية والخارجية <sup>(١)</sup> .

٥- وحول خطوط التفكير التي يجب أن تعدل لصالح منهج التقويم وشمولة وانضباطه، ما يدور حول فكرة المسؤولية الفردية والجماعية عن النتائج ، كقولنا أن النتائج بيد الله ، وكذلك مفهوم مراعاة المشاعر ، وتقدير حال الأمة ، ورفع معنوياتها ، والتخفيف من إحباطها ، انسجاماً مع المنهج النبوي في التبشير والتيسير في قوله " بشروا ولا تنفروا، يسروا ولا تعسروا " أقول :

إن من معالم عقيدة المسلم ومرتكزاتها أن أقدار الله غالبية ، وأن الأسباب لا تفعل فعلها فتحيل الأعمال إلى نتائج وإنجازات ، إلا بإرادة الله وقدره ، وقاعدة علماءنا - في ذلك - معروفة " الأخذ بالأسباب واجب ، والاعتماد عليها شرك " ولكن في المقابل ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ والمقصود أن النتائج مرهونة بحسن الأخذ بالأسباب ومستوى الإلتقان فيها . فلو أن طالباً مثلاً : قرأ ٩٠% من مادة معينة قراءة متقنة ممتازة ، ولكنه لم يقرأ النسبة المتبقية وهي ١٠% وعند الامتحان جاءه سؤال من هذه النسبة ١٠% ولم يستطع الإجابة عليه، بينما جاوب كل الأسئلة الأخرى من نسبة ٩٠% وجاءت علامته ٩٠% ، فإننا نقول في هذه الحالة أنه قصر ، ولم يأخذ بالأسباب كاملة، ولا تعفيه علامة الامتياز من تقصيره . وكان بإمكانه لو قرأ المادة بنسبة ١٠٠% أن يحصل على علامة ١٠٠% . ولا شك أن مراعاة ما ذكر من حال الأمة ، وضرورة بعث الأمل ورفع المعنويات ، والتأسي بتبشير رسول الله صلى الله عليه وسلم وتيسيره ، أمر مطلوب ، ولكن هذه الأمور يجب أن تقدر بقدرها ، ولا تزيد عن الحد المطلوب ، لتشكل بذلك حكماً استثنائياً طارئاً ، يساعد في مشروع الحل ، والحكم الصحيح الصريح الصادق على الواقع . كما لو أنك ترفع طفلاً قد سقط على الأرض وجرح ، وأصبح يبكي ، فلا بأس

(١) فصول في التفكير الموضوعي : مرجع سابق ، ص ٢٠-٥٨ بتصرف .

أن تطمئنه ببعض كلمات طيبة تخفف عليه المشكلة مثل قولك : لا بأس ، بسيطة ، أنت بطل ، لم يحصل شيء والحمد لله ... الخ .

ولكن هذا لا يحل المشكلة ، ولا يداوي الجرح ، ويقطع الدم النازف . فلا بد من أن تعالجه ، وتعطيه الدواء المر ، أو المطهر الحار ، الذي لا يستسيغه . وربما تضطر أن تجري له عملية جراحية ، ولا يمنعه كل ذلك - أخيراً - أن يعرف وضعه كما هو تماماً .  
فالتشخيص الأخير ، والعملية الجراحية ، والدواء هو الأساس في معالجة الطفل ، ورفع المعنويات والكلمات الطيبة هو العلاج المؤقت الاستثنائي . ومثل ذلك الطبيب الذي يخفي عن المريض إصابته بمرض السرطان في البداية ، وذلك خوفاً على مشاعره ، حتى إذا استفحل مرضه ، واحتاج إلى عمليات ، ومعالجات شاقة صريحة ، أخبره بحالته كما هي ، فتكون عندها المفاجأة ، التي ربما تكون صدمة شديدة تؤدي بحياته .

ومن مبالغات التفكير ، وسوء التقويم ، وعدم صراحته أن تظهر في الأمة خطوط ذهنية أساسها المجاملات والإخفاء ، بحجة أن يكفينا نقداً وتجريحاً وإحباطاً ، نريد بعث الأمل ، ورفع المعنويات ، خاصة إذا مزج ذلك بحالة عاطفية جماهيرية ، نحو مفاهيم إسلامية صحيحة أساسية ، مثل : الجهاد ، والولاء والبراء وما شاكل ذلك ، ولكن الفشل وسوء التقدير لهذه المفاهيم ، يأتي من جانب توظيفها ، وإسقاطها على الواقع بسطحية ، واستعجال وقلة عمق ودراية .

لا بأس - كما سبق - أن تنتهي حالات المواساة وتطبيب الخواطر عند حدها المطلوب ، ونسبتها المعقولة . فالميت أو حتى الشهيد تأخذ حالته بداية نسبة عالية من العواطف والمواساة ، كردة فعل أولي عند الحدث ، ولكن الأمر يتغير بعد ذلك إلى معرفة وضع أسرته ، وما يترتب على فقد الميت من أمور قد تكون شاقة صعبة ، أو سهلة ميسورة في حياة أبنائه وزوجته .

والأصل أن يكون من مستلزمات التطور والتغيير ، وتصحيح الأخطاء - بل هي الحقيقة - التشخيص الواضح ، والتقويم الشامل الدقيق الصريح ، ولو كان مرأ ، وظاهره مُحبطاً ، فذلك أساس متين لشحن الهموم ومضاعفة الجهد ، واستخراج الطاقات الفردية والجماعية بكامل نسبها في حياة الأمم ، لتقريب الهدف والوصول إليه . وقد سنل صلاح الدين الأيوبي - رحمه الله - لماذا لا تضحك ؟ - وقد كان الحزن والهم هو سمته الظاهرة - قال : كيف أضحك وبيت المقدس في يد الصليبيين ! فعدم الضحك وقلة الفرح ، ليس

إحباطاً وعجزاً كما قد يتوهم البعض ، إنما هو تصميم واستخراج لإرادة النفس ، وقوتها للوصول للهدف ، وهو عند صلاح الدين تحرير بيت المقدس من يد الصليبيين .  
ويقودنا ذلك إلى مفاهيم التربية ومدارسها . إذ يُركز البعض على التدليل وتلبية الرغبات ، ورفع المعنويات ، ولو كان عبر الأخطاء المتكررة ، وانحراف التفكير والفوضى الحياتية ، وسوء التقدير في الأمور ، ويربطون ذلك بالحرية ، وقوة الشخصية ، والصحة النفسية ... الخ .

وفي المقابل يركز البعض على الكبت ، والحصار الشديد ، والتشجيع التربوي ، وذلك خوفاً من الخطأ وضرورة الضبط والربط ، والنضوج المبكر ، وتحمل المسؤولية .. الخ .  
ولأن خطوط التماس والفهم بين هذه الآراء والتصورات دقيقة متلاصقة ، وليس من سبيل إلى فصلها بالكلية ، لزم أن تكون صياغة تصورات وسطية متوازنة منهجية أمراً ليس سهلاً - مع ضرورته ووجوب إيجاده - في تناول الجميع ، ومرد ذلك إلى اختلاف الخبرات ، والبيئات والمؤثرات ، وأهداف التربية ، ومدى إنسانيتها ، واتساعها أو ضيقها .  
وأعمق من ذلك تقويم الفطرة البشرية ، وخطوط النفس الإنسانية المتشابهة ، وتقاطعاتها الكثيرة . وكل ذلك ليس بالأمر السهل ولكنه ليس بالمستحيل وهو يتعلق بالنظرية والمنهج الذي لا بد منه ، والاعتدال والوسطية التي قامت عليها الخليفة ، وأرادها الخالق سبحانه لمخلوقاته في رحاب كونه الفسيح وحكمته البالغة ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ .

ويؤكد د . بكار على ضرورة التقويم بصراحة ووضوح ، فقد تكون الحقيقة عند التقويم والبيان مرة ، فيتجاهلها الإنسان ، أو يؤجلها أو يخفيها ، ولكنه لا يستطيع إلغاؤها ، ومن ثم فإن القرآن يغرس في حس المسلم مواجهة الحقائق بوضوح وصراحة وثبات ، إذ يقول تعالى : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون .. ﴾ [الفتح: ١٦] فبين أن بني حنيفة قوم أشداء ، حتى يدخل المسلمون المعركة على بصيرة دون مجاملة ، وهذا تقويم للموقف بكل صراحة ووضوح <sup>(١)</sup> .

٦- ومما يساعد على التفكير التقويمي المنهجي معرفة أن تقويم الأشخاص ونقدهم قد يشكل مزلقاً خطراً عن الموضوعية ، وذلك لما يلي :

(١) فصول في التفكير الموضوعي : مرجع سابق ص ٩٦ ، بتصرف .

أ) عدم ثبات مواقع الأشخاص ناقدين ومنتقدين . فالإنسان متأرجح بين الخطأ والصواب ،  
والهداية والعماية ، والغلو والاعتدال .

ب) الاعتماد على العناصر العاطفية والروحية في التقويم على شدة تنوعها وتغايرها .

ج) اختلاف المستويات الثقافية للناقدين مما يجعل المعايير شخصية .

د) عدم امتلاك أدوات ومقاييس مادية توصل لأحكام كالتى تصدرها على الطبيعة من  
حولنا .

هـ) صعوبة التفريق بين أحكام مصدرها فناعات عميقة من أصحابها ، وأخرى مصدرها  
الهوى والحسد <sup>(١)</sup> .

"و قد يحدث ذلك عن أهل بلد واحد ، وملة واحدة ، وفي فترة واحدة ، وظروف  
واحدة ، كما حصل بين الناس في تقويمهم ليزيد بن معاوية ، فمنهم من كفره ، ومنهم من  
اعتقد بنبوته ، ومنهم من توسط في ذلك " <sup>(٢)</sup> .

٧- ومعلوم أن قطاع التربية والتعليم قد اهتم بمنهجية التقويم وركز عليها حتى  
يخلص إلى النتائج التربوية والتعليمية ، ومن ثم يقوم العملية التعليمية بأطرافها الرئيسية ،  
الإدارة ، والمعلم ، والمنهج ، والطالب . وقد زخرت مكتبة التعليم والتربية بآلاف الكتب  
والمؤلفات بهذا الشأن ، وحيث أن التربية من وسائل إعداد الإنسان المسلم الصالح ، فإن  
ذلك يصب في تكوين منهجية التقويم المطلوبة استفادة من حض القرآن على ذلك ، ونرى  
أن نمثل لذلك ببعض الأفكار الواردة في هذا المجال :

#### فمن أغراض التقويم مثلاً :

أ) التنبؤ : الكشف عن درجة استعداد الفرد أو قدرته على النجاح مستقبلاً . فالسلوك  
البشري ثابت ومرن في نفس الوقت .

ب) تحديد وضع الفرد في المكان المناسب ، حسب كفاءته ورغبته .

ج) التوجيه والإرشاد : لتعريف الفرد بقدراته وإمكاناته .

د) تعديل الخطط والبرامج وتصويبها نحو الأحسن <sup>(٣)</sup>

ومن أسس التقويم :

<sup>(١)</sup> المرجع السابق ، ص ١١٧-١١٨ ، بتصريف .

<sup>(٢)</sup> الفتاوى : الإمام ابن تيمية ٤/٤٨٢ .

<sup>(٣)</sup> انظر مبادئ الفياس والتقويم : د. عزت جرادات وآخرون ، ص ١٩-٢٠ .

أ) أن يكون شاملاً لجميع جوانب الشخصية أو الموقف .

ب) أن يكون وسيلة لا غاية .

ج) عملية مستمرة تعاونية يشترك فيها كل من له علاقة بالموقف ومؤثراً فيه .

د) أن يحدث أثراً إيجابياً عند المقوم .

هـ) أن يراعي الفروق الفردية ، وظروف الزمان والمكان والحال <sup>(١)</sup> .

ومن العوامل المؤثرة في التقويم :

أ- النظرة الشاملة لمفهوم التقويم وفلسفة التربية السائدة .

ب- ظروف المجتمع وحاجاته وبرنامجه للناشئة .

ج- الشورى والديمقراطية ومفهومهما عند من يقوم بالتقويم .

د- مدى فهم وسائل التقويم والتدريب عليه .

هـ- المقدرة على استخلاص نتائج سليمة بأسلوب علمي سليم <sup>(٢)</sup> .

٨- ومن الشرائح التي يجب أن يهتم بتربيتها على منهجية التفكير التقويمي كما هو

منهج التقويم القرآني هم شريحة الأطفال والشباب ، ولذلك قوّم الله موقف سيدنا نوح عليه

السلام عندما نادى ربه أن ابنه من أهله . قال تعالى ﴿ ونادى نوح ربه قال رب إن ابني

من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين ، قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه

عمل غير صالح فلا تسألني ما لي لك به علم إن أعظك أن تكون من الجاهلين ﴾

[هود:٤٦-٤٧] .

وهذا عرض للتقويم الأبوي المحموم بعاطفة الأبوة أمام رابطة العقيدة والدين مما

يجب أن يُعلم للأجيال والأطفال بأن العلاقة الحقيقية بينهم وبين ذويهم هي علاقة الدين قبل

كل شيء ، وبذلك يتربوا على المنهجية الصحيحة في تقويم الأمور ، والعلاقات في دائرة

القرابة والدم على أساس الدين .

يقول د. عبد الله الدنان في مدى تأثير تأخر تعلم الأطفال للغة العربية الفصحى بعد

سن السادسة على طريقة تفكيرهم ، وحكمهم على الأشياء " ولقد نتجت عن هذا الوضع

أضرار اجتماعية وتربوية أثرت في الرأي على مستوى الحكم على الأشياء . وأكد أقول

<sup>(١)</sup> انظر المناهج : د. عبد اللطيف فؤاد إبراهيم ، ط ٦ ، مكتبة مصر / القاهرة ١٩٨٤م ، ص ٦١٠-

٦١٣ بتصرف .

<sup>(٢)</sup> انظر المناهج ، مرجع سابق ، ص ٦١٤ ، بتصرف .

أن مستوى أحكامنا على الأمور في هذا العصر الذي لا بد للأحكام فيه من أن تصدر بأسلوب علمي يبدأ بجمع المعلومات من منابعها ، ثم التدقيق فيها والاستفادة منها ثم إصدار الأحكام " (١) .

ومؤكد أن عملية تشرب اللغة الأم والتدريب على صحة الحكم ، والاستنتاج والتقويم، ومنهجيته وموضوعيته ، تبدأ من عهد الطفولة ، إذ لا بد أن تتعمق في طور التعلم الأساسي الذي يسبق التعلم المعرفي والسلوكي .

" وكلما بدأت بالتقويم مبكراً زادت أمامك فرصة الإصلاح ، ولكنك أن تركتها حتى تستفحل فقد يصعب الأمر عليك ، ولكن الذي نريد أن نؤكد هنا ( مع ذلك ) أن التقويم في أي سن وفي أية ظروف ليس مستحيلاً على الإطلاق . وإن اقتضى المزيد من الجهد ، وشهادة التاريخ الكبرى في هذا الشأن هي التحول الضخم الذي حصل في نفوس المسلمين الأوائل حين انتقلوا من الجاهلية إلى الإسلام " (٢) .

\*\*\*

(١) مجلة المجتمع الكويتية : مقابلة مع د. عبد الله الدنان .

(٢) منهج التربية الإسلامية : الأستاذ محمد قطب ، دار الشروق ، ج ٢ ، ص ٩١ .

## **المبحث الثالث**

**تقويم تجارب العمل الإسلامي على ضوء منهج التقويم القرآني**

## المبحث الثالث

### تقويم تجارب العمل الإسلامي على ضوء منهج التقويم القرآني

العمل الإسلامي المعاصر حلقة من حلقات صحوة الأمة عبر كفاحها المرير للنهوض من رقدتها وهمودها الذي تسبب به ثلوث الهجوم الغربي " الاستعمار ، والاستشراق ، والتبشير " في القرنين الماضيين ، ولقد تنوعت أشكال هذا العمل وتعددت إنجازاته ، وشكل منذ منتصف القرن الماضي صحوة إسلامية عامة، وحضوراً فاعلاً لا ينكر في كافة المحالات ، ورغم أن هذا العمل قد حقق انتصارات في أكثر من مجال إلا أنه في المقابل تعرض لأنواع متعددة من القصور على مستوى الذات " القصور الذاتي " - وهو الأهم - وعلى مستوى الخارج " الهجوم الخارجي " .

وعبر حركة اكتشاف الذات - ما لها وما عليها - تقدم الكثيرون يتلمسون مراجعة العمل ، ومحاولة تقويمه . ولقد ذكرنا آنفاً طرفاً من هذه المحاولات عبر مؤلفات وكتب ، وطروحات ناقشت هذا الجانب . ولكنها - حسب رأي الكتاب - لم ترق إلى أن تكون شاملة منهجية عبر تشخيص وصفي إحصائي ، ومن ثم تحليل تقويمي تصويبي تحسيني .

إنما جاءت في أغلبها على شكل ردود فعل ، ووقفات أملت بها بعض الظروف الشخصية، أو العاطفية جرحاً أو تعديلاً . وكان الأصل - فيما أحسب - أن تكون على أساس تأصيل المنهج من القرآن الكريم ، ثم محاولة تطبيقه عبر دراسة شاملة دقيقة على خريطة العمل الإسلامي بعد معرفة الأهداف والخطط والوسائل ، وقاعدة ماذا كنا ؟ وكيف أصبحنا ؟ وما ذا نريد ؟ وتطبيق منهجية التقويم القرآني التي ناقشناها على ذلك شروطاً ، ومجالات ، وفوائد ، ووسائل ومقومات ، ثم محاولة توظيف ذلك في حياة الأمة ، والصحوة الإسلامية والعمل الإسلامي بكل أطيافه ، ومجالاته وأهدافه ، وإنجازاته .

ولقد كتب الكثيرون عن إنجازات الحركة الإسلامية بكل أطرافها ، كنوع من تقويمها، ورد الشبه عنها، ووقف الأمر عند هذا الحد في جانب التعديل . وقام آخرون - كردة فعل - بتقويمها من ناحية إخفاقاتها في جانب الجرح . ونحن هنا لا نستطيع استقصاء هذا الموضوع بكامل جوانبه ومجالاته جرحاً وتعديلاً . ويكفينا إشارات لبعض من طرق الموضوع لندلل على ضرورة استيفائه من قبل المعنيين ، ولكن بمنهجية كاملة على ضوء منهجية التقويم القرآني شمولاً وعمقاً ، جرحاً وتعديلاً ... الخ .



وإذا كنا قد حاولنا إبراز منهجية القرآن قدر الاستطاعة فيما سبق ، فإن ضرورة التقويم لكل ما نقوم به ، وما قمنا به، وما سنقوم به ، أصبحت قضية واجب لازم ، وأمانة شرعية ، ومهمة ميدانية ، ولا غرو من أن تكون جزءاً من نظام تربية الأجيال والأمة بشكل عام ، كما قد أشرنا لجوانب من ذلك في مبحثنا السابق .

ونحن ها هنا نقدم أمثلة من محاولة تقويم العمل الإسلامي من قبل بعض الكتاب والمفكرين والدعاة وهو ما يقود إلى الاقتراب من تأصيل المنهج ، وضرورة توضيحه بتوسع ، وعمق ، ثم تطبيقه كما أشرنا . ونعرض ذلك كما يلي :

١- يقول الأستاذ عمر عبيد حسنة : " إن وسائل العمل الإسلامي وطرائقه، وأساليبه وهايكله وعناوينه التي أصبحت عند بعضهم ديناً لا يمكن تجاوزه ، إنما هي أمور اجتهادية تخضع لقانون التغيير والاستبدال ، وليست لها صفة القداسة والثبات " إلى أن يقول " لا بد أن تكون عملية المراجعة وإعادة النظر دائمة على ضوء المستجدات ، ولا بد من الاستمرار بانتهام أنفسنا بالتقصير عن إدراك الصور المثلى ، ويبقى شعارنا أن عدم تحقيق النتائج هو بسبب منا ﴿ قل هو من عند أنفسكم .. ﴾ .

إن من فساد النظر والاعتقاد ، بأن عملية النقد والمناصحة ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، تحدث تشويشاً في الصف الإسلامي ، واضطراباً في العمل ... مما يُغلب عملية صناعة التبرير على عقلية دراسة أسباب التقصير . ولا تعالج هذه القضية إلا من خلال ممارسة الحرية الفكرية ، والحوار الشامل ، والالتزام بأدب الخلاف الإسلامي ، وجعل المشروعات للمبادئ والأفكار وليس للوسائل والأشخاص .

ولذلك ونتيجة للسقوط تحت وطأة هذه الضغوط أفضت مجالات الحوار التي شرعها الإسلام ، وتوقفت عمليات المناصحة والنقد ، والدراسة والتقويم بالحجم والقدر المطلوب ، وسادت عمليات التبرير ، والإطراء والمديح، فتكرست الأخطاء ، وافتقدنا الصواب والتصويب .

ولذلك فإن فلسفة التبرير ، وتوقف المناصحة وتعطيل الحوار ، وعدم دراسة جوانب التقصير لا يقتصر على تكريس هذه الأخطاء ونموها ، وإنما يؤدي إلى تكرارها ، ولا بد أن يدرك دعاة الإسلام على مختلف مواقعهم أن الخطورة كل الخطورة في التستر على الخطأ والقبول بالإبقاء عليه ، فتنمو العلل في جسمنا ، وليست الخطورة في بيانه ومعالجته.

ولكن الخطأ في المعالجة وغياب الحكمة في عمليات النقد والمناصحة ، لا يجوز بحال من الأحوال أن يؤدي بأصل القضية . ويقود إلى إلغاء المناصحة بحجة فقدان الحكمة وجهل وفضاظة الذين يمارسونها، وإنما يتطلب ذلك إلغاء الوسيلة غير المجدية أو تهذيبها أو استبدالها، والاحتفاظ بضرورة استمرار القضية للمجتمع الإسلامي، والعمل الإسلامي<sup>(١)</sup> .

وأذكر هنا ما يمكن أن يكمل الصورة أعلاه محاكاة لشمول منهجية التقويم القرآني ، لا غرو فيما ذكره الأستاذ حسنة ، ولكن لا يجب أن يترك الأمر مشاعاً ، لا حرمة له ولا هيبة - ليست هيبة القداسة والمبالغة - إنما هيبة التقوى ، والعدل والمعرفة ، والخبرة والمراس والمعاناة والوعي ، والإدراك الكامل للأهداف والوسائل ، والعوائق والمحن والمضايقات .

فكثيراً ما يأتي حَدَثٌ قليل البضاعة الفكرية والسلوكية ، فينبري بتجريح كل شيء - ولا يعجبه العجب ولا الصيام في شهر رجب - كما يقال . فيهدم أكثر مما يبني ، و يوغر بفعله هذا الصدور، ويُشجع الأحداث من أمثاله ، فيصبح العمل الإسلامي علكة يلوكها كل عاشق للمضغ والثرثرة.

لذلك فيجب أن ينضبط الأمر بأهله ، ورجاله حتى يؤتي ثماره امرجوة ، عدلاً ونصيحة ، وإصابة وتصويبا .

ولنا في منهج علماء الأمة في علم الرجال والجرح والتعديل خير أسوة ، إذ لم ينبري لهذا العلم إلا رجاله ، بعد أن ضبطه علماء الرجال بضوابط غاية في الدقة ، ضوابط إيمانية وتربوية ونفسية ، وضوابط كفاءة وعلم وخبرة ومعرفة . وعندما اقتحمه الصغار علماً وعملاً وسلوكاً وتقوى ، زادوا ونقصوا ، وشرقوا وغربوا ، وكبروا وصغروا ، وتعصبوا وركبوا مركب الهوى والطيش ، فكان ما كان .

ويحتاج الأمر فيما أحسب إلى منهج تربوي ذا مراحل يتربى عليه الجيل عبر مائدة القرآن ، ومنهجه في التقويم ، كي ينسجم الأمر كله عبر بداياته ونهاياته ، وآلياته ونتائجه ، ويؤتي ثماراً يانعة منشودة ، ويتخرج من مدرسة هذا التأهيل من يتصف بصفات الناقد الباني ، والمقوم المطور ، الذي يُعدل ويجرح في أن ، فيلغي المجروح ويعدله ويصوبه ، وينمي المعدل ويزيده ويكمّله .

(١) نظرات في مسيرة العمل الإسلامي : الأستاذ عمر عبيد ، حسنة ، ص ٣٥ ٤٧ .

ونشاطر الكاتب القول عندما يقول " إن المكتبة الإسلامية الحديثة تكاد تكون خالية أو شبه خالية من الدراسات النقدية التقويمية للمراحل التي مرت بها الدعوة الإسلامية ، والتجارب التي عانتها رغم كثرتها " .

(٢) ويذكر د. محمد أمين المصري نوعاً من الحيل اللاشعورية التي نبرر بها تقصيرنا وفشلنا ، ونرمي به الآخرين الذي من شأنه تقوية فلسفة التبرير لدينا من مثل :

أ- أن ما يقع لنا هو من فعل القدر - ولا حول وقوة لنا به - .

ب- أن ما يقع لنا هو من الماضي والتاريخ، وليس لنا به دخل، فهو من صنع غيرنا.

ج- أن ما يقع لنا هو نتيجة لتضافر الناس جميعاً علينا .

إلى أن يقول " هذا الدفاع عن أنفسنا ، وهذه الأعدار كلها مغالطات نفسية ، وحيل شعورية. ذلك أنها تريد أن تبرئنا من كل خطأ، وتزيح عن كواهلنا الاعتراف بالتقصير" (١).

(٣) ومن المنهجية المطلوبة في تقويم العمل الإسلامي ما ذكره أحمد الصويان ، قال:

" ثم إن الحركة الإسلامية المعاصرة مدعوة بإلحاح إلى ضرورة إحياء الملكة النقدية عند رجالها، وتربيتهم على وزن البراهين والأدلة ، والحكم عليها قوة وضعفاً ، لكي يتم ترميم البناء من الداخل ، وهذا سوف يقطع الطريق - بلا شك - أمام الفكر الدخيل و الرأي العقيم . وقد يرى بعض الاخوة الكرام أن النقد وتقويم الآراء سوف يفرق الصف ، ويشتت الكلمة ، ويشغلنا ببعضنا عن عدونا ... وهذا حق إذا كان منهاج الطرح هو التشهير، وتصيد العثرات ، وتتبع السقطات ، والتغافل عن الحسنات ! بل إن هذا منهاج قد يستفز المخالف ، ويثير فيه كوامن التحدي والمكابرة " .

ورحم الله الإمام أبا حامد الغزالي إذ يقول: " اعلم وتحقق أن المناظرة الموضوعية لقصد الغلبة والإفحام ، وإظهار الفضل والشرف والتشدد عند الناس ، وقصد المباهاة والمماراة واستمالة وجوه الناس ، هي منبع الأخلاق المذمومة عند الله المحمودة عند عدو الله إبليس" (٢).

ولكن النقد في الوقت ذاته يُعتبر ضرورة ملحة لا يُستغنى عنها ، إذا كان مبنياً على تمام العدل والإنصاف والتجرد ، وهو من باب النصيحة والتواصي بالحق المأمور بهما شرعاً ، وهذا سوف يؤدي جزماً إلى صفاء الصف ونقاؤه ، ثم إلى ثباته وتماسكه . وفي

(١) انظر المسئولية : د . محمد أمين المصري ، دار الأرقم ، الكويت ، ط ٤ ، ١٩٨٤م ، ص ٥٩-٦٠ .

(٢) إحياء علوم الدين : الإمام أبي حامد الغزالي ، ٤٥/١ .

هذا الزمان الذي عز فيه الإنصاف ، واضطربت فيه موازين النقد ، وأصبحت الأهواء هي السائدة ، أصبح لزاماً علينا أن نعود بكل عزيمة وجد إلى منهج أهل السنة والجماعة بشموله وكماله ، يحدونا قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم " إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل ، وكلتا يديه يمين ، الذين يعدلون في حكمهم ، وأهلبيهم وما ولّوا " (١) .

٤) ومن مستلزمات منهجية التقويم القرآني لتصويب العمل الإسلامي بالشكل المطلوب المرونة الذهنية وعدم الانغلاق والتحجر .

" تعتمد المرونة على الإحاطة وسعة الاطلاع بالمواقف ، وشمول النظرة إليها ، ويكسب هذا دقة الخيارات في التقويم والحكم ، والاستفادة في معرفة الشر مثلاً وما هو أشر ، والخير وما هو أخير منه ( شر الشرين ، وخير الخيرين ) .

- فعدم اتباع هارون لأخيه موسى عندما ضل بنو إسرائيل كان مخافة أن يتفرقوا ويتشتت شملهم كما في الآيات ﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ، إلا تتبعن أم عصيت أمري ، قال بانبؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي ﴾ [طه: ٩٢-٩٤] .

- وسفينة معيبة وقتل نفس أقل ضرراً من ضياع السفينة ، وقتل نفسين اثنين كما في قصة الخضر مع موسى عليه السلام كما في الآيات ﴿ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر فأردت أن أعيبها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصياً ، وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فأردنا أن يبدلها ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً ﴾ [الكهف: ٧٩-٨٠] .

- وانتصار الروم - على شركهم - وهم أهل كتاب أحب للمؤمنين من انتصار الفرس المشركين بالكلية ، وليسوا أهل كتاب كما ورد في سورة الروم: ﴿ غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ [الروم: ٢-٥] (٢) .

(١) منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال ومولفاتهم ، مرجع سابق ، ص ٦١ والحديث أخرجه مسلم ، رقم (١٨٢٧) .

(٢) فصول في التفكير الموضوعي : مرجع سابق ، ص ٥٠ ٥٨ ، بتصريف .

وفي قصة موسى مع الخضر - على ذكرها هنا - عند خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار ، وما تم تفسيره من قبل العبد الصالح لموسى عليه السلام ، وقفة حول عمق النظرة ومرونة التفكير واتساعه :

قد يحكم البعض ويقوم إنجازات العمل الإسلامي باستعجال وسطحية وجمود - حسب خبرته والمعهود لديه - على ما يظهر لهم من مواقف بشكل مباشر ، وذلك دون تقدير التجربة والعلم والإدراك عند غيرهم ، ويبررون ذلك بمقولة " كفى انتظاراً ، وكفى تدليساً على الآخرين ، وتمويها للحقيقة ، وهم - ولا شك - يقولون ذلك لظهور بعض المواقف التبريرية للقادة والكبار حول بعض الأخطاء والإخفاقات . ولكن هذه النظرة وهذا الحكم لا يجب أن يكون شريحة ناقدة يائسة جاحدة لجهود الآخرين وإنجازاتهم . مع مراعاة إزالة هالة القداسة التي يضيفها البعض على الأشخاص والآراء والجماعات ، فيصنعون بذلك سياجاً من الهيبة الزائدة ، التي تُصدّر الآراء ، وتُحجّم التقويم ، وتأدُّ التصحيح والتجديد المنشود .

ونرى كذلك أن عقولاً نشأت على الأسباب المادية . والتفكير المنطقي البارد فحسب . لا ترى إلا عبر بوابة المادة ، والأسباب والحسابات والأرقام فقط ، ولا مساحة عندها للشعور القلبي، والتعلق بالله والتوكل عليه في تسيير الأمور ، فبرفضون البتة ما قد يقال من كرامات، وتيسيرات ، وتوفيقات غير متوقعة في نظام الأسباب . وفي نفس الإطار ترى عقولاً وقلوباً مرهفة ، تسير بعفوية وعاطفية جامحة لا تُعبر الأسباب أدنى اعتبار، ولا تحسب لها أي حساب ، وتضع النتيجة ، كل النتيجة في دائرة التوكل ، بل التواكل بدون إعداد ولا بذل ، مصادمة بذلك قول الله تعالى ﴿ واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ... ﴾ وقوله : ﴿ وهزي إليك بحدع النخلة ... ﴾ وقول الرسول صلى الله عليه وسلم " اعقلها وتوكل " <sup>(١)</sup>.

٥) ومما يجب أن يُنتبه له في الاستفادة من منهج القرآن في تقويم العمل الإسلامي وهو الحكم على الجوهر ، والنفاذ للحقيقة ، دون الاكتفاء بالمظاهر والشكليات .

فقد وصف الله المنافقين بالخشب المسندة مع أن أجسامهم تعجب الرائي ، وقولهم مُنمق يُسمع له قال تعالى ﴿ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع

<sup>(١)</sup> فتح الباري شرح صحيح البخاري : ابن حجر العسقلاني ٢١٢/١٠ ، طبعة دار الفكر .

لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴿ المنافقون: ٤ ﴾ .

" وبسبب الغفلة عن هذه الحقيقة سفهت في أيامنا هذه جماعات وحركات، ومذاهب ، وعدّ كل ما عندها باطلاً انطلاقاً من اسمها ، أو مواخذة لها ببعض أعمال من ينتسب إليها. وليس هذا من الموضوعية ، لأن التقويم لا يتم بناء على الأسماء والمصطلحات ، لكن على النفاذ للحقائق ، وتحكيم المعايير الشرعية والعقلية " (١).

ومن أمثلة الحكم على الظاهر والشكل في بعض التجارب ، وتقويم الأشخاص على هذا الأساس . أن اللحية والعمامة دليل التدين والأمانة - وهذا ولا شك معتبر محترم عند المسلمين - شرط أن يكون الجوهر يحمل نفس الصفات من الأمانة والوعي والتدين . ولكن الصورة تنعكس عندما يكون الظاهر مخالفاً تماماً للباطن والداخل ، بل قد يكون أحياناً خدعة مقصودة ، ومكر مُدبر . وفي المقابل قد لا تجد لحية ولا عمامة ، ولكنك تجد جوهرًا ثميناً ، ومعدناً غالياً . وقد لا تجد عند البعض لا مظهراً ولا مخبراً والأمور نسبية، وليست قاعدة ثابتة .

(٦) ومن أمثلة التركيز على منهجية النقد والمراجعة قاعدة آدم وحواء ﴿ ربنا ظلمنا أنفسنا... ﴾ في التقويم الذاتي أولاً ، حول دور الإسلاميين المعاصر " إذن فمنطقة العالم الإسلامي اليوم تعيش حالة فراغ ، وتفكك مزر ، فكل الشعارات التي رفعت على الرغم من بريق بعضها قد فرغ محتواه ، وأثبتت التجارب فشلها .

والإسلاميون - أو بعضهم - يعيشون في وهم . فالحقيقة أنهم يبصرون عورات الآخرين وعجزهم ، لكنهم لا يلتفتون إلى عجزهم هم بالذات .

ومرجع هذا كله إلى نقطة جوهرية حاسمة في التفكير وهي عدم وجود عقلية المراجعة أو " النقد الذاتي " .

ثم أنهم - وهم يبصرون عجز الأنظمة التي يعيشون في ظلها - يجب أن يدركوا أمرين :

(١) فصول في التفكير الموضوعي : مرجع سابق ، ص ٩٤ .

الأول : أنهم أعجز من هذه الأنظمة التي يعيشون في ظلها .

والثاني : أنهم ما لم يرتفعوا بمستوى جهدهم حيث يكونون قادرين على أن يتجاوزوا طاقة الأنظمة القائمة ، فلا أمل لهم في إقامة حياة إسلامية " فالمجتمع الإسلامي اليوم وبكل أسف يعيش حالة " اللاقانون " أي حالة الهوى ، فالإنسان ، وكرامته ، وضماناته كلها على كف عفريت " (١) .

وأرى أن الأستاذ د. جلبي قد بالغ في الأمر ، فالوضع ليس بهذا المستوى الذي يطرحه ، وهناك نوع من معالجة الأمر ، لكنه لا يرقى إلى مستوى القصور الحاصل ، وجهده وجهود غيره في هذا الذي ينشده من منهج تقويمي رشيد لعلها تُشكّل لبنة في البناء الذي نشاركه الرأي في ضرورة تشييده ، بل لقد تأخر تشييده كثيراً ، وأرجو أن يكتمل بتضافر الجهود ، والتوازن في الطرح ومن ذلك :

(أ) ما أورده الأستاذ محمد قطب : قال : هناك ظاهرتان في ساحة الصحوة، ظاهرة تدعو إلى التفاؤل ، وثانية تثير الأسى والحزن ، الأولى: اتساع قاعدة الصحوة ، وإقبال مزيد من الشباب على الإسلام بشكل شبه ذاتي . والثانية: تبعثر العمل الإسلامي وتفارقة وكثرة الجماعات العاملة وتنايها " (٢) .

ويقول حول تقويمه لمنهج حسن البنا - رحمه الله - " لم يكن شيء من ذلك سهلاً على أي إنسان يتصدى لهذه المهمة ... ولكنه كان ينساب سهلاً من بين يدي ذلك البناء العظيم ، الذي وهب الله له ما وهب من صفات الداعية البناء ... من إشرافه الروح ، وصفاء القلب ، والتجرد لله ، والحب الفياض ، والجلد على العمل ، والصبر على الكد ، والقدرة على التجميع ، والقدرة على القيادة ، والقدرة على التنظيم .

ولكن هذا البنا الضخم الذي أقامه كان يشتمل على ثغرات ظلت تعطي تأثيراتها بصور شتى في خط السير ... وأغلب الظن أن هذه الثغرات لم تكن بادية للبناء العظيم في بداية السير ، إلا أنها بدت واضحة فيما بعد قبيل مقتله كما سيجيء ، وإن كان ثم يمهل لترسيخها في قلوب أتباعه .

(١) انظر ظاهرة المحنة : مرجع سابق ، ص ٣٠ - ٣٢ .

(٢) واقعنا المعاصر : الأستاذ محمد قطب ، مؤسسة المدينة المنورة ، ط ١٩٨٨ م ، ص ٤٣٤ .

كانت الثغرة الأولى هي الاستعجال في التجميع الجماهيري قبل موعده الذي ينبغي أن يجيء فيه<sup>(١)</sup>.

ويقول في تقويم مستوى الحركة الإسلامية القيادي " لقد كان الإخوان جنوداً فائقين نعم ... ويتحركون بأمر قائدهم الحركة المضبوطة التي يكفهم بها ، وعلى النحو الذي يوجههم إليه ، ولكنهم لم يكونوا بعد قد تهيأوا ليكونوا قادة ، ومعلمين لتلك الأفواج كلها التي تجمعت قبل أوانها حول الدعوة لأنها - كما قال الإمام الشهيد - لم تكن تعرف حقيقة الدعوة . كما أنهم - وهو الأخطر - لم يكونوا قد تهيأوا بعد لتسلم القيادة من بعده ، والمضي بها في الطريق الطويل الشاق . فكان لهذا أثره في خط السير فيما بعد ، كما شهدت الأحداث . وكما حدث التعجل في دعوة الجماهير للتجمع قبل أن يتم بناء الأعمدة الراسخة بالمواسفات المطلوبة ، حدث التعجل بالتحرك قبل الأوان المناسب سواء في الساحة الداخلية ، أو في ساحة المعركة في فلسطين " <sup>(٢)</sup> إلى أن يقول : لقد كان الجيل الذي رباه البناء جيلاً فائقاً على الأقل في ناحيتين هما : الروح الفدائية العالية وحب الشهادة، والاخوة العميقة السابغة التي تربط بينهم .

ولكن ذلك الجيل كان مفتقراً إلى كثير من الوعي السياسي ، والوعي الفكري الذي يعرف به وسائل الأعداء في حربهم معه ، وكان ذلك الجيل مفتقراً كذلك إلى النفس الطويل الذي يصمد به للضربة تلو الضربة دون أن يتعب من المواجهة والصراع " <sup>(٣)</sup> .

وأرى أن توازناً قد وقع ولمس به الكاتب من خلال تقويمه السريع لشريحة من أبناء العمل الإسلامي وذلك أساس رئيس من أسس التقويم القرآني وشروطه يلزم أن يرافق كل من يقوم بالتشخيص والتقويم بجميع أنواعه .

ب- فقد المسلمون مكانتهم مؤخراً إثر تهاونهم في أمرين مهمين ، وهما : الجهاد ، والاجتهاد . في الجهاد عندما سقطت قبضتهم عن بعض بلاد المسلمين ، وفي الاجتهاد عند توقف حركة العقل الإسلامي. مما أورث الجهل والتخلف والانكماش ، وجاءت الحركة الإسلامية تصلح الأحوال فكانت تطلعاتها أحياناً أكثر من طاقاتها ، فجاءت حركتها سريعة

<sup>(١)</sup> واقعنا المعاصر: مرجع سابق ، ص ٤١١ .

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق ، ص ٤١٧ .

<sup>(٣)</sup> المرجع السابق ، ص ٤٣٣ - ٤٣٤ ، بتصرف .



في جانب ما ، ناقصة في جانب آخر . مما جعلها محل نقد للمتربصين في الداخل والخارج، رغم أن بعض فصائل الحركة كان معذوراً بسبب أنواع التضيق ، والسجن والنفي التي تعرض لها .

والحركة الإسلامية بكل فصائلها لا تختلف على الهدف وهو إقامة شرع الله في دنيا الناس ، ولكنها تختلف غالباً في الوسائل وطرائق العمل المؤدية للهدف العام . وهذا الاختلاف الأصل أن لا يمنع من التواصل والتنسيق في حال العافية ، والبلاء على حد سواء.

ولا مانع من مراجعة الخطوات ، ومعرفة أوجه القصور للانتقال إلى أساليب وخطوات أخرى للعمل مع جميع شرائح المجتمع <sup>(١)</sup> .

إن رفع الشعارات والتعلق بالأهداف الضخمة ، دون أن يكون لذلك مستلزماته الواضحة الحقيقية المتوفرة ، سيقود قطعاً إلى التورم الوهمي ، والانتفاش الظاهري ، والشعارات هنا أشبه بالأمنيات والطموحات والرغبات أكثر منها مقومات ودراسات ، ومعرفة بخطوات الطريق ، ومراحل العمل .

وذلك جزء من نقص المعرفة ، وتقويم الحال ، والجو العام الذي يجب أن يُدرك بكل أبعاده .

ومطلوب أن يحلم الناس ويطمحوا ، ويثبتوا على الطريق . فغالباً ما تتحقق الأحلام ، وتطبق الطموحات، ولكن لا بد أن يكون لذلك رصيد عملي فعلي عند الحالمين والطمحين وأهمه الوعي والفهم ، والحركة الدائبة ، والتقويم المستمر . وغالباً فإن واقع أي جهد بشري - إسلامي وغير إسلامي - يهذب الحلم والطموح ، ويقسمه إلى أهداف ومراحل صغيرة - لكنها مدروسة - ليُشكل منها لقمأ يمكن بلعها بسهولة ، أما أن يبقى الطموح كتلة واحدة ، ولقمة كبيرة واحدة ، فإنه لا يمكن بلعها ، ومن ثم الاستفادة منها .

يقولون " أحلام اليوم حقائق الغد " وهذا صحيح ، ولكن حسب سنة التدرج، ووعي التدرج ، والتقدم والتأخر ، حسب أحوال الزمان والحال والمكان .

(١) مجلة المحسم الكويتية د جاسم المهلهل الياسين : العدد (١٤١٩)

لقد ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتراجع عن جوهر رسالته وعبوديته لله ، فعندما اشتدت المراودة على ذلك قال قولته المشهورة ، التي لا أروع ، ولا أعمق ، ولا أبلغ ولا أثبت " والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، أو أن تنفرد سالفتي " أي عنقي ولكنه في المقابل ، هادن ، وعقد الأحلاف ، وكتب صحيفة المدينة ، وطاف بالبيت وحوله منات الأصنام والحجارة ، وأراد أن يدفع ثلث ثمار المدينة لليهود ... الخ . وأخيراً أقام الدولة وحكم الشرع وطبق دين الله .

ج- يقول د. خضير جعفر " إن مسنولية المثقف لا تكمن في مراجعة الذات فحسب ، وإنما في تقويم ما أعوج في المجتمع من أفكار وممارسات أيضاً ، وإن تطلب ذلك المزيد من المعاناة ، والاستحقاقات التي هي بعض ضرائب الوعي وفواتير التصدي . ولا شك أن مراجعة الذات تؤهلنا للتعارض مع الرأي الآخر باحترام واهتمام ، وبذلك تسود ساحة الفكر أجواء من المرونة والإيجابية ، المفضية إلى التلاحق الثقافي والتعاطي الفكري السليم ، وهو ما من شأنه تموين الحياة بمزيد من العطاء الثقافي المطلوب ، لكي لا نبئلى ثانية بظاهرة الصراع ، والتدافع المقيت التي شهدتها ساحات الفكر الإسلامي ، بين الذين لو قدر لهم قبول الرأي الآخر أولاً ، وإعادة النظر بما لديهم من آراء وأفكار قبل إلباسها ثوب القداسة ، وهالة الثبات الأصيل ثانياً ، لأغدقوا على ميادين الفكر والثقافة ألواناً رائعة من الإبداع ، والتطوير للحياة الإسلامية كلها . ولما تحول الاختلاف في الرأي حول مسألة ما إلى مبررات للاستئصال وذرائع إبادة ، ولما كان بإمكان مؤثرات البيئة والمزاج أن يقفزا على أسوار البحث العلمي ، ويتسلقا فوق حصون المنهج السليم لتغتال المعرفة ، وتحرم الأمة من أساطين العطاء ، ونتاج المبدعين <sup>(١)</sup> .

وهذا ما يؤكد أن مرونة التفكير ، وتقويم الذات أولاً ، و نفي رغبة الإبعاد ، وإحلال رغبة التلاحق على القواسم المشتركة تقع في أولويات وشروط تصويب العمل الإسلامي ، وتقوية منهجية التقويم القرآني في جنباته .

د- جاء في معالجة موضوع النقد والنصيحة للدكتور سيد محمد نوح ، وذلك من مسدات هذا المنهج الذي هو أحد أطراف منهج التقويم القرآني العام ، والذي يشكل

(١) مجلة المجتمع : العدد ١٤٠٨ ، ص ٤٥ .

مرتكزات وقواعد مهمة في توظيف هذه المنهجية في ساحات العمل الإسلامي ، ما نلخصه  
بالتالي :

١- النقد اصطلاحاً: إما إظهار عيب الشيء وفساده ، أو مناقشة الأمر لإظهار ما  
فيه من جودة ورداءة ، وحسن وعيب .

٢- والنصيحة اصطلاحاً : الإرشاد بالأسلوب المناسب ، والوسيلة الملائمة إلى  
تخلي المرء عن كل ما فيه من عيب وفساد ، مع تحليه ومحافظته على كل ما ينبغي من  
خير وصلاح ، شريطة ألا يتعارض الأسلوب والوسيلة مع الشرع .

٣- لقد حض الشارح الحكيم على النقد والنصيحة ومن ذلك :

﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو  
كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾ [المائدة: ١٠٤] .

٤- ومن أسباب وبواعث رفض النقد والنصيحة عند الناس:

١) خلو النقد والنصيحة من شروط القبول ، ومنها : تخير أنسب الظروف ، وأحسن  
الأحوال والألفاظ، وإبراز المحاسن ، ودقة التحري والتثبت ، ومراعاة السرية ، وترك  
الجدل واللجاج ، وإرادة وجه الله ، ثم الخير للمُنقَد والمنصوح .

٢) الغرور والتكبر من قبل المنصوح ، بأن يرى نفسه أكبر من النصيحة والنقد ، قال  
تعالى ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا  
يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشداً لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً ﴾  
[الأعراف: ١٤٦] .

٣) الخصومات والعداوات ، فالعادة أن المتعادين لا يقبلون من بعضهم النقد والنصيحة .  
قال تعالى ﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك وما أنت بتابع قبلتهم  
ما بعضهم بتابع قبلة بعض ﴾ [البقرة: ١٤٥] .

٤) المراء والجدال بالباطل ﴿ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فاتنا بما تعدنا إن كنت  
من الصادقين ﴾ [هود: ٣٢] .

٥) اتباع الهوى ، قال تعالى : ﴿ ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون  
عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب ﴾ [ص: ٢٦] .

٦) البيئة التي ينشأ فيها المرء ، من أسرة وصحبة ، ومدرسة ومجتمع ، خاصة عندما لا يعود فيها على النقد والنصيحة .

٧) الغفلة والجهل بعواقب رفض النصيحة والنقد ﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ﴾ [يونس:٣٩] .

٨) شعور المنصوح بدونية الناقد ، كأن يكن صغيراً ، أو أدنى منه منزلة وعلماً.. إلخ .  
ومن آثار رفض النقد والنصيحة :

١- الاستمرار على الخطأ وما أشنع أن يستمر الإنسان على خطأه ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ﴾ [الكهف:١٠٣-١٠٤] .

٢- التعرض للسخرية ، و الاحتقار ، فإن من لم يقدر نفسه حق قدرها ، ويعرف قيمتها فلا قدر له ولا قيمة عند الناس .

٣- فتح باب التقليد أمام الناشئة ، وبذلك يحمل وزرين : وزر نفسه ، ووزر غيره .

٤- إيقاف العمل الإسلامي عن التنمية والتطور ، وتشويه صورة العمل أمام الآخرين بسبب صفات بعض أتباعه .

ومن طرق معالجة رفض النقد والنصيحة :

أ- التعريف بالنفس والذات : فالنفس البشرية عموماً صاحبة خطأ وتقصير . قال تعالى: ﴿ وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا من رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴾ [يوسف:٥٣] .

ب- التذكير بعواقب الرافضين : وذلك كثير حكاه القرآن من قصص الأنبياء مع أقوامهم، نوح ، صالح ، موسى، إبراهيم ، لوط ... الخ .

ج- التربية على التواضع ، وقوة الشخصية ، ونبذ الهوى والمراء ، وعدم التجريح والشماتة ، ومراعاة شروط النقد ، وعرض سير السلف في منهجية النقد والنصيحة . وتنمية ملكة المراقبة لله عز وجل ، وعرض القدوات التي تقبل النصيحة والنقد ... الخ (١).

(١) مجلة المجتمع: الكويت العدد ( ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ) د. سيد محمد نوح (بتصرف) .

وهذه من المعالجات التربوية المفيدة في تقوية منهجية التقويم ، التي نريدها أوسع من ذلك في ترشيد العمل الإسلامي وتصويبه حسب اتساع منهجية القرآن وشمولها ، وبذلك تشمل التنظير والتأصيل ، ومن ثم تقويم الإنجاز والأداء ، بدقة وتوسع .

د- وحسب رأي د. خالص جليبي في التأكيد على النقد الذاتي أولاً :

" النقد الذاتي حركة ديناميكية حية متطورة نامية ، وأداة إنضاج للوعي ، إنها أداة نفض مستمر للوعي كي يبقى نشيطاً حياً ، إنها أداة يقظة للوعي الداخلي ، وتطهير للوسط السياسي من الإرهاب والتسلط ، وبناء علاقات حسنة بين الجماعات البشرية . المسلمون اليوم يخلطون بين ذواتهم وبين الإسلام ، ويعتبرون أنفسهم استثناء للقانون البشري ، في نعال أحرق يدفعون ثمنه يومياً . إنها كارثة عندما يختلط الإلهي بالبشري . الإسلام مبدأ من لدن حكيم عليم ، والمسلمون بشر يخطئون ويصيبون ، ويقربون ويبعدون ، ويصعدون ويهونون إلى أسفل سافلين ، فهل نعقل هذه القاعدة ؟

وعندما نعطل آلية النقد الذاتي نعطل الوعي ، ونزيل أي إمكانية لتصحيح الخطأ والنمو للمستقبل وهي كارثة ، ونحن على كل في وضع أكبر من الكارثة ! .  
إن العلماء اليوم هم أصحاب القلم ، والمفكرون ملح المجتمع ، فإذا خانوا مهمتهم كانوا كما وصفهم الإنجيل : إذا فسد الملح فيماذا يُمَلح ؟! (1) .

وودت لو أن د . جليبي قد ركز على الجانب الإيجابي للتقويم والنقد كما هو قد ركز على الجانب السلبي فيه ، مع إدراكي أن ما يهيمه هو إنضاج منهجية النقد ، وإيجادها لدى الإسلاميين ، إذ هي في حكم المفتقد . وأن من الوارد كذلك أن سرد الإيجابيات في آلية التقويم والنقد قد قام بها آخرون مع مجانبة سرد السلبيات في تلك المنهجية . وهو ما قد يجعل الكاتب يميل إلى إنضاج وإبراز ما قد تجاهله الآخرون .

وإن كان الأصل هو مسك زمام المنهجين ، وطرحهما سوية ، تحاكياً مع منهجية القرآن الكريم في طرح متقابلات الأشياء .

ونحن عندما نعالج منهج التقويم كما قد اخترناه في القرآن ، فإن القصد والقناعة أن ذلك سيساهم في خصوبة العمل الإسلامي المعاصر ، وإنضاجه عبر خطه الحضاري وخطته الميدانية . وذلك إجماع في أنه خط يرتكز على تقويم رصيد الماضي بشقيه الصاعد والهابط ، كما أنه يشخص الحاضر ويقومه بشمول واتزان ، ويمزج بين التقويمين

(1) مجلة المجلة : العدد (٩٩٤) د. خالص جليبي .

" كمنهج واحد متكامل " مزجاً علمياً عميقاً ، يستخلص منه خطة المستقبل على المستوى الإستراتيجي والتكتيكي في النظرية والتطبيق على حد سواء .

والقناعة ثابتة أن أولى خطوات الاستفادة من هذا المنهج هو نفض الغبار عن العقل المسلم ، والروح المسلمة ، والجسد المسلم ، وتضميد جروح هذه الثلاثية الأساسية . وهي عملية جد واسعة وعميقة وصريحة .

فبالعقل ومنتجاته ، والروح وإشراقاتها ، والجسد وطاقاته - بعد إزالة الرواسب وتضميد الجروح ، والوصول إلى العافية -نصنع الطريق والزاد ، والمقومات الأساسية لتنفيذ الخطة ، وصولاً للغاية والمقصد النهائي .

وكصورة من صور تقويم جزء من التاريخ الإسلامي في الأندلس - بشقيه الإيجابي والسلبى -- يذكر د. عبد الله بن عطية الرداد الغامدي في تحقيقه لكتاب منتخب الأحكام لابن زمنين المالكي ناقلاً ذلك عن كتاب نفح الطيب للمقريئ عن تدين أهل الأندلس " ... الأغلب عندهم إقامة الحدود ، وإنكار المتهاون بتعطيلها، وقيام العامة في ذلك . وإنكاره إذا تهاون فيه السلطان ، وقد يلج السلطان في شيء من ذلك ولا ينكره فيدخلون عليه قصره المشيد ، ولا يعباون بخيله ورجله حتى يخرجوه من بندهم . وهذا كثير في أخبارهم .

وأما الرجم بالحجر للقضاة والولاة للأعمال إذا لم يعدلوا فكل يوم ، وكان للمحتسب سلطته ومهابته عند الجميع . فكان يطوف بالأسواق راكباً وأعوانه بين يديه ، فيفحص الموازين ، ويراقب الأسعار، ويعاقب المخالفين بالحبس والضرب ،والنفي من البلد . وأهل الأندلس أشد خلق الله اعتناءً بنظافة ما يلبسون وما يفرشون ، وغير ذلك مما يتعلق بهم ، ومنهم من لا يكون عنده إلا ما يقوته يومه ، فيطويه صائماً ، وبيتاع صابوناً يغسل به ثوبه "

ومع أن كل ما تقدم يرسم للمجتمع الأندلسي صورة مشرقة لا يكاد يوجد لها مثيل ، إلا في صدر الإسلام ، إلا أن الأمانة تقتضي ذكر الجوانب السلبية في هذا المجتمع حتى تكون الصورة واقعية صادقة ، إذ أن هذه الحضارة الإسلامية التي نشأت وترعرعت في أرض الأندلس صاحبتهما تجاوزات وشطحات ، خرجت عن خط المجتمع الإسلامي خروجاً يتفاوت من حين إلى آخر .

فقد فُتن بعض الخلفاء - ولا سيما في القرن الرابع - بالبذخ والتنافس في بناء القصور ... فهذا الخليفة عبد الرحمن الناصر المجاهد الذي أعلن الخلافة الإسلامية في

الأندلس ، يبذل الغالي والرخيص ليبنى بناء لم تستطعه الأوائل ، فيبني مدينة الزهراء لسكناء التي قيل فيها " ... هي من عجائب الدنيا .. وكان عدد الفتيان بالزهراء ثلاثة عشر ألف وسبعمائة وخمسين فتى لهم من اللحم كل يوم ثلاثة عشر ألف رطل غير أنواع الطير والحوث ، وعدد النساء بالقصر ستة آلاف وسبعمائة وثمانون ... وفي زمن المنصور بن أبي عامر أراد أن ينافس بناء الزهراء فبنى الزاهرة، وتفنن في تزيينها والإنفاق عليها<sup>(١)</sup>. ويهمننا هنا منهجية الطرح إذ ذكر سلبيات وإيجابيات ما كان عليه مجتمع الأندلس ، ولا يهمننا التدقيق في الأرقام الواردة عن فتيان ونساء قصور بعض خلفاء تلك الفترة . ولفتة هنا نقولها : في أنه قد نُقل الكثير عن انحراف وتعدي بعض الخلفاء في تصرفاتهم الشخصية ، ولا ننكر ذلك ، إلا أن السيادة كانت للشريعة ، وسلطان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونظام الحسبة مسيطر له احترامه وهيبته ، والناس يطيعونه ، بل يقفون معه كما ذكر .

هـ- ومن الطروحات في نطاق تقويم العمل الإسلامي والحركة الإسلامية ما ذكره الأستاذ فتحي يكن في محاضرة بعنوان الإسلام والعولمة . وكانت أهم النقاط المطروحة في نقده وتقويمه:

- ١- تراجع الحركة الإسلامية في خطابها السياسي ، وتأثرها بالمفاهيم والطروحات الغربية .
- ٢- تراجع الاهتمام بوظيفة الدعوة إلى الله .
- ٣- اتساع مساحة الأخذ بالرخص على حساب الأخذ بالعزائم .
- ٤- اتساع ظاهرة التأثير بالدبلوماسية والمسايرة على حساب المفاهيم الإسلامية، والثوابت الشرعية .
- ٥- غلبة استعمال المصطلحات الغربية ذات المضمون الفكري على خطاب الحركة السياسي .
- ٦- كان الهدف من الدخول في المجال السياسي تديين السياسة ، فإذا بنا نسئس الدين!<sup>(٢)</sup>.

(١) انظر منتخب الأحكام : لابن زمنين المالكي : تحقيق د. عبد الله بن عطية الغامدي ، ص ٢٠-٢٢ بتصرف .

(٢) مجلة منبر الداعيات ، : د. فتحي يكن ، العدد (٤٢) ، بتصرف .

وأرى أن شيئاً مما نقد به الأستاذ د. يكن للحركة الإسلامية - فيما سبق - أمر ظاهر، ولكن نسبة هذا التراجع وهذا القصور هي التي يمكن أن يختلف عندها المؤمنون والناصحون .

والترجيح أن أهل العمل الإسلامي حين يخوضون أي تجربة جديدة في دائرة - المستجدات والاجتهاد - يقدرون بين المصالح والمفاسد العامة للعمل الإسلامي ، ونجدهم عموماً يخطئون ويصيبون ، والمعول عليه هو الرجوع عن الخطأ ، وتنمية الصواب وهكذا . - ويذكر د . جاسم بن مهلهل الياسين بعض الأسس والشروط التي تراعي عند تقويم الآخرين في إطار ترشيد العمل الإسلامي .

" وليس تقييم أعمال الآخرين أمراً ميسوراً لكل من أحب ، لأنه يحتاج - أول ما يحتاج - إلى المعرفة التامة المحيطة بهؤلاء الناس ، وإلى معرفة توجهاتهم الفكرية والاجتماعية والسياسية ، ومدى تمسكهم بمبادئ الدين أو تخليهم عنها ، ومدى تأثيرهم في محيطهم بهم، ومدى تأثيرهم بالتيارات الحديثة ، والرياح الغربية أو الشرقية التي تهب في كل موسم، وتحمل من الخير أو الشر الكثير . ويحتاج التقييم إلى نوع من التجرد يجعل صاحبه بمنأى عن الهوى ، غير واقع تحت تأثير الترغيب أو التهيب ، بل يجعل الحق دليلاً ، والعدل ميزانه ، والقول الهادئ أداة التوصيل ، بغية الوصول إلى الهدف ، من غير الدخول في جدل لا يفيد ، وقد يضر، فهل يملك كل واحد هذه المقومات اللازمة للحكم على أعمال الآخرين ؟

وإذا ما توافرت هذه المقومات فإن الكلمات المختارة ، والمصطلحات الخالية من الرنين المبالغ فيه ، لا غنى عنها ، إذا أردنا أن نصل إلى الحق ، ونقنع به غيرنا دون أن تشتبك الأرقام ، أو تشجر الآراء ، أو تضطرب الأمزجة ، وتتعكر النفوس، غير غافلين عن الخلفية التي أثرت في صاحب رأي ، أو صاحب فكر ، ليتخذ فكراً معيناً ، أو منهجاً في الحياة خاصاً ، ثم يأتي التحليل الصحيح للأمور في ضوء ملامساتها ومقتضياتها لنحصل من ذلك على المعرفة اللازمة التي نقيم عليها الحجة في التقييم ، والحكم على أعمال الآخرين .



وكثير من أصحاب الآراء - إلا من رحم ربي - يصعب عليه أن يتلقى نقداً من أحد، أو تقييماً من الآخرين ، ولو أنصف لاعتبر ذلك عوناً ، ساقه الله إليه ، ليقف على جلية أمره ويراجع نفسه إن كان هناك تقصير. ويزداد خبرة وبصيرة إن كان من المحسنين<sup>(١)</sup> . وأرى أن د . الياسين قد أورد بعض شروط التقويم مثل المعرفة والعلم وذلك مؤكداً في قوله تعالى ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ وكذلك التجرد والموضوعية ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ وذلك يبعد عن الهوى ﴿ ولو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السموات والأرض ﴾ وكذلك الأسلوب الأمثل في اللين وعدم المبالغة ﴿ فقولاً له قولاً لنا لعلنا لعلنا لعلنا لعلنا لعلنا ﴾ وكل ذلك قد وردت مناقشته .

ز- وفي إطار تقويم الفكر الإسلامي المعاصر ، وذلك ضمن خريطة المناقشات والمحاولات في هذا الإطار نلخص ما أورده د. محمد عبد الحميد في مقال له في مجلة فلسطين المسلمة : انطلاقاً من أن المجتمع الإسلامي سقط سقطة حضارية في كافة مناحي الحياة :

- ١- البعد عن هداية القرآن ، والانشغال بتدقيق ألفاظه دون الغوص في معانيه ، والاستفادة من سننه الكونية والاجتماعية .
- ٢- التعصب المذهبي المقيت الذي يهتم بالجزئيات ، ويقف عندها ، ولا يتعداها إلى النظريات الكلية التي تستطيع مزاحمة النظريات القانونية الأوروبية التي غزت البلاد الإسلامية تحت أسنة المستعمرين .
- ٣- فقدان وحدة الأمة الواحدة على مستوى العرب والأمة الإسلامية ، وتغلغل عصبية الجنس والبلد واللغة .
- ٤- خمود جذوة الإبداع في الفكر الإسلامي الذي عدّ الفكر القديم مقدساً لا يجوز أن يُمس، ووضع بدل الإسلام نفسه .
- ٥- توقف الحركة العلمية والعقل العلمي ، الذي كان له رصيده العظيم ثقافة وتجريباً وإنجازاً ، استنار به المسلمون وغيرهم .
- ٦- انهيار الحياة وانتشار ثلوث الخطر الشرس ( الجهل ، الفقر ، المرض ) في ربوع الأمة كلها .

(١) مجلة المجتمع : العدد (١٣٣٢) .

أدى ذلك إلى غزو الغرب لبلاد الإسلام ، مما نتج عنه ردة فعل ولدت فكراً تغييرياً حاول أن يعرف مكامن التقدم والتأخر في جسم الأمة ، وفكرها وخط سيرها .  
وبذلك فإن المجتمع الإسلامي عليه ألا ينتظر المعجزات والمفاجآت الكونية لإصلاحه ، وسد الخلل في حياته . وإنما لا بد أن ينظر في حياته ويحدد أمراضه ، ويجدد أسباب ضعفه وتفركه ، وانهياره ، ثم يلتفت إلى ما حوله فيعي سنن الله تعالى في نهضة الأمم ، وقوانين تقدمها وانتصارها ، ثم ينظر في أسباب الترقى المادي ، والتقدم الحضاري في الحياة ليضع أسبابها " (١) وكلمة لا بد منها في نهاية الكلام عن تقويم العمل الإسلامي وأهله (حركات ، رموز ، مؤسسات ، صحوة وغيرها) وهي أن العمل الإسلامي ميدان فسيح متشعب المجالات والإنجازات والإخفاقات على مدى الزمان والمكان ، وثبت أن له من الإنجازات والنجاحات ما يفوق كثيراً ما عنده من جوانب القصور والتعثر ، ويجب أن ينظر لذلك عبر كل الظروف والمناخات التي مر بها ويمر وسيمر ، من كبت للحريات وتشريد للطاقت ، وتعسف وتعدي على الحقوق والحرمان ، وتكالب داخلي وخارجي يكاد يكون سمة المجتمعات الإسلامية وظاهرته البارزة ، فمراعاة الحال والإمكانات والمؤثرات والضعف بجميع أنواعها عند تقويم العمل الإسلامي ضرورة موضوعية ومعيار لا بد من مراعاته . وكل ذلك لا يبعث على الاحجام عن تقويم هذا العمل ومحاولة تصويبه وبيان ما له وما عليه على أساس قواعد التقويم القرآني السالفة .

\*\*\*

(١) مجلة فلسطين المسلمة : العدد (١٠) ١٩٩٩م ، ص ٥٩ - ٦٠ بتصرف .

## المبحث الرابع

### ربط المنهج بعالمية الإسلام

وفيه مطلبان

المطلب الأول: تقويم بعض المفكرين والكتاب لغير المسلمين

المطلب الثاني: فقه العصر وعالمية التقويم القرآني

## تمهيد:

انطلاقاً من التصور العقدي الإسلامي الراسخ فإن الخلق عبيد الخالق، ومن مستلزمات العبودية الخضوع والطاعة، ولا خضوع ولا طاعة إلا على أساس ودستور وبيان. فكانت بذلك رسالات الخالق لخلقه على مر عمر البشرية كلها. تتألت هذه الرسالات بتصور واحد، هو: العبودية للخالق عبر منهجه، ودستوره لخلقه، واكتملت الرسالات كلها بحلقته الأخيرة دين الإسلام، دين العلم والعالمين كلهم "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين".

ومنهج التقويم جزء من هذا المنهج الشامل لحياة البشرية، وبذلك لزم أن يربط منهج التقويم القرآني بعالمية الرسالة، ومن ثم معالجة شؤون الناس، كل الناس، على أساس مفردات هذا المنهج، في شروطه وأسس، ومجالاته، وفوائده ومعوقاته... الخ.

ولا يستساغ حصر المنهج الإلهي -بمساحته التي تسمح بذلك- بالمسلمين فقط، وتطبيقه عليهم دون سواهم، فالأمر أوسع من ذلك، فهو للعالمين مسلمين وغير مسلمين. ورغم أن غير المسلمين خاصة أهل الكتب السماوية "أهل الكتاب" قد وقفوا منذ البداية مواقف في أغلبها سلبية مأكرة مخاصمة، من بعثة النبي صلى الله عليه وسلم وحتى يومنا الحاضر. إلا أن ذلك لا يغير ثبات المنهج، واستقامته، وشموله وعدله.

فقد عدل معهم التنزيل كما مر معنا في ثنايا فصول البحث السابقة، وعدل معهم المسلمون في التطبيق العملي السلوكي عبر عصور الإسلام كلها. ومن أمثلة ذلك العهدة العمرية التي أعطاها الخليفة الراشد الثاني عمر بن الخطاب أهل إيليا من النصارى ونصها "هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيليا من الأمان. أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبرينها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، لا ينقض منها ولا من حيزها، ولا من صلبهم، ولا من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء أحد من اليهود.

وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية. و من أحب من أهل إيلياء أن

يسير بنفسه وماله مع الروم ، و يخلي لبيعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم حتى يبلغوا مأمَنهم، ومن كان بها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله، لا يؤخذ منهم شئ حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهدالله وذمة رسوله، وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين إذا اعطوا الذي عليهم من الجزية. عمر بن الخطاب كتب وحضر سنة ١٥هـ .  
شهد على ذلك :

خالد بن الوليد عمر بن العاص عبد الرحمن بن عوف معاوية بن أبي سفيان .  
ولزم بذلك أن نطبق منهج التقويم القرآني في علاقتنا مع الآخر كي نبقي في إطار تصورنا الإسلامي، وهذه حاجة معاصرة من خلال احتكاكنا بالآخر ، واحتكاك الآخر بنا ، في مساحات الاختلاف ، و مساحات الاتفاق. وبما أن مساحات الاختلاف – وهي مفروضة علينا– من قبل الآخر استعماراً وهيمنة وظلماً واستعباداً هي الأكبر، فلا بد أن تظهر ردود فعل عارمة من طرفنا قد تقودنا غالباً – وهذا هو الحاصل – إلى رفض الآخر بالكلية ، وجعله أساس كل بلاء يصيبنا ، حتى ولو كان هذا البلاء من أنفسنا نحن. وبذلك تصبح ثقافة التبرير ، ونظرية المؤامرة – كما هو الحاصل الآن – وغيرهما مشاجب وعلاقات نُعلق عليها أخطاءنا وفشلنا الذاتي،ناهيك عن قصورنا في الصمود أو الهجوم على الآخر. لا هجوم المدافع والطائرات، ولكن هجوم الحضارة و المدنية والانجاز والقيم والأخلاق.

وهنا سنتجول في آراء بعض الكتاب والمفكرين في النظرة إلى الآخر ، والحكم عليه، و تقويمه . وقبل ذلك نُصدر الموضوع بأية كريمة في هذا الشأن ، يقول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ [النساء: ١٣٥] .

والقيام بالقسط والشهادة على الناس صعبة، جد صعبة، لما تحتاجه من دقة وقوة نفس عالية ، ومراقبة لمن نقوم له بالشهادة والقسط – سبحانه – فكيف عند ما يكون القسط والشهادة على النفس لصالح غيرها ، لاشك أنها مرتبة سامقة ، وقمة شاهقة ، لا يصل إليها إلا القلة.

يقول صاحب الظلال : "إنها أمانة القيام بالقسط.. بالقسط على إطلاقه، في كل حال ، وفي كل مجال ، القسط الذي يمنع البغي والظلم في الأرض، والذي يكفل العدل بين الناس ،

والذي يعطي كل ذي حق حقه من المسلمين وغير المسلمين .. ففي هذا الحق يتساوى عند الله المؤمن وغير المؤمن، ويتساوى الأقارب والأباعد، ويتساوى الأصدقاء والأعداء، ويتساوى الأغنياء والفقراء "كونوا قوامين بالقسط شهداء لله".

حسبة الله ، وتعاملاً مباشراً معه. لا لحساب أحد من المشهود لهم أو عليهم، ولا لمصلحة فرد أو جماعة أو أمة ، ولا تعاملاً مع الملابسات المحيطة بأي عنصر من عناصر القضية ، ولكن شهادة لله، وتعاملاً مع الله ، وتجرداً من كل ميل، ومن كل هوى ، ومن كل مصلحة ، ومن كل إعتبار. " ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين " وهنا يحاول المنهج تجنيد النفس في وجه ذاتها، وفي وجه عواطفها تجاه ذاتها أولاً، وتجاه الوالدين والأقربين ثانياً، وهي محاولة شاقة ، أشق كثيراً من نطقها باللسان ، و من إدراك معناها ومدلولها بالعقل. إن مزاولتها عملياً شئ آخر غير إدراكها عقلياً. ولا يعرف هذا الذي نقوله إلا من يحاول أن يزاول هذه التجربة واقعياً.

ولكن المنهج يجند النفس المؤمنة لهذه المهمة الشاقة، لأنها لا بد أن توجد. لا بد أن توجد في الأرض هذه القاعدة. ولا بد أن يقيمها ناس من البشر . ثم هو يجند النفس كذلك في وجه مشاعرها الفطرية و الاجتماعية، حين يكون المشهود له أو عليه فقيراً، تشفق النفس من شهادة الحق ضده، وتود أن تشهد له معاونة لضعفه، أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده بحكم الرواسب النفسية والاجتماعية كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية. وحين يكون المشهود له أو عليه غنياً، تقتضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته. أو قد يثير غناه وتبطره النفس ضده فتحاول أن تشهد ضده! وهي مشاعر فطرية ، أو مقتضيات اجتماعية لها ثقلها حين يواجهها الناس في عالم الواقع.. والمنهج يجند النفس تجاهها كذلك كما جندتها تجاه الذات، وحب الوالدين والأقربين . "إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما"

وهي محاولة شاقة .. ولا نفثاً نكرر أنها محاولة شاقة. وأن الإسلام حين دفع نفوس المؤمنين — في عالم الواقع — إلى هذه الذروة التي تشهد بها تجارب الواقع التي وعها التاريخ ، كان ينشئ معجزة حقيقية في عالم البشرية، معجزة لا تقع إلا في ظل هذا المنهج الإلهي العظيم القويم<sup>(١)</sup> .

ويبرز في الساحة الإسلامية — عموماً — ثلاثة اتجاهات في تقويم الآخر والنظرة إليه:

(١) الظلال : ج ٢، ص ٧٧٥-٧٧٦ .

الأول: تكفير الآخر، و وصفه بالعداوة والتآمر ، وذلك على خلفية تاريخية وشرعية و سياسية.

الثاني: قبول الآخر بكل ما له وما عليه، خيره و شره، حلوه ومره ، كما كان يقول طه حسين و أمثاله.

الثالث: قبول خيره، ورفض شره، فالحكمة ضالة المؤمن، أنا وجدها فهو أحق الناس بها.

وثالث هذه الاتجاهات هو المنسجم مع منهجية الرسالة ، ومن ثم منهجية القرآن في تقويم الآخر. لأن المقصود ليس الحكم بالتكفير والتقويم بالإيمان أو الكفر بالدرجة الأولى ، إنما المقصود هو إبراز مقاييس ومعايير الحكم والتغيير التي تنبه على الخطأ ، وتعلم الناس، وتقر بهم من النجاح والفهم ، والتغيير والتحسين المطلوب. أما الحكم على الناس بالكفر أو الإيمان فهذه قضية لم تخدم العمل الإسلامي في ذاته ولا مع غيره لا سابقاً ، ولن تقيده حاضراً ولا مستقبلاً، إلا ضمن دوائر ضيقة جداً ، كاستثناءات ضاغطة لتوضيح الصورة ، وعدم إخفائها – عند اللزوم – مخافة الوقوع في التلبس ، والتلاعب بالمفاهيم ، والمقاييس من بعض أصحاب السلطان ، والفكر والمصلحة ، وممن اختار طريق الضلال ، والكفر بعناد و علم وإصرار.

ونعرض هذا المبحث من خلال مطلبين اثنين هما:

### أ) المطلب الأول: تقويم بعض المفكرين والكتاب لغير المسلمين

تتبع منهجية تقويم الآخر من المعايير والمقاييس الإسلامية العالمية الشاملة. والتي تركز أول ما تركز على العدل والموضوعية والدقة والتبين . ومن صور تقويم الآخر ما يلي:

١- من برامج التقريب المطروحة في واقعنا المعاصر – منذ ثلاثين سنة- بين المسلمين والأديان الأخرى – وخاصة المسيحية- برنامج الحوار الإسلامي المسيحي .  
وضمن محاولات تقويم البرنامج يقول د. عبدالعظيم المطعني :

"إن مسألة الحوار بين الأديان قد حسمها القرآن منذ عهد النبوة ومن شواهد ذلك :

– مبادرة القرآن لخطاب اليهود والنصارى بقول الله تعالى:

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [آل عمران: ٦٤] .

— إعلان الإسلام وحدة الدين بين جميع الرسل قال تعالى: ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك و ما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ﴾ [الشورى: ١٣] .

— إعلان الإسلام أن الإيمان شامل لجميع الرسل والرسالات ، قال تعالى : ﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ﴾ [البقرة: ١٢٦] .

— إباحة الإسلام طعام أهل الكتاب اليهود والنصرى للمسلمين، وإباحة طعام المسلمين لأهل الكتاب قال تعالى: ﴿ اليوم أحل لكم الطيبات، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم.. ﴾ [المائدة: ٥] .

— إباحة الإسلام للمسلمين التزوج من أهل الكتاب دون غيرهم من الكوافر قال عزوجل ﴿ والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتوهن أجورهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان ﴾ [المائدة: ٥] .

— حث الإسلام المسلمين على البر والإحسان إلى مخالفيهم في العقيدة والدين إذا لم يوذوا المسلمين ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ [الممتحنة: ٨] .

— نهى الإسلام المسلمين عن مجادلة أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن مسلمون ﴾ [العنكبوت: ٤٦]

— تسمية الإسلام اليهود والنصارى بأنهم أهل الكتاب أو "الذين أوتوا الكتاب " دون الإسراف في وصفهم بالكفر ومشتقاته.

— إقرار الإسلام حرية الاعتقاد دون إكراه أحد على اعتناق مذهب دون اختيار.



ويضيف وعلى اليهود والنصارى أن يعاملونا بالمثل، وأن يخطوا نحو الإسلام خطوات مماثلة لخطوات الإسلام نحوهم، ونحن حتى الآن لم نحظ منهم بشيء من التعامل الإيجابي القائم على الصفاء والتودد.

ويجمل د. السيد محمد الشاهد معوقات الحوار كتقويم لفكرة التقارب المطروحة بثلاثة نقاط.

**الأولى:** معوقات تاريخية سياسية نتيجة صراعات وحروب بين طرفي الحوار، الإسلام والغرب المسيحي لم تنته حتى عهد قريب.

**الثانية:** معوقات تأويلية عند بعض المسلمين والغربيين المسيحيين تتمثل في عدم اعتراف أحد أطراف الحوار بسماوية الدين الآخر، فالإسلام يعترف بسماوية مصدر اليهودية والمسيحية، بينما لا نجد ما يقابل ذلك من اليهود والنصارى.

**الثالثة:** معوقات فردية تتعلق بمدى أحقية الشخص المشارك في الحوار للحديث باسم دينه، واعتبار نفسه ممثلاً للقاعدة العريضة لهذا الدين أو ذاك.

ويقول د. محمد فاروق النبهان في منهجية الإسلام الحوارية: ويجب أن نفرق بين الحوار الذي يقع بين متكافئين وبين الحوار المستسلم، فنحن لا نقول بالاستسلام والتنازل، أو أننا نحاور الآخر من منطلق الضعف. بل نحاوره من منطلق الثقة بالنفس والتعبير عن الذات، والحقوق المشروعة لنا. والآخر يمكن أن يتقبل منا بمنطق الحوار ما لا يتقبله منا بمنطق العنف أو التطرف. ومن الآراء الواردة في تقويم برنامج تقارب الأديان والحوار الديني:

- عشرات المؤتمرات والندوات وآلاف الدراسات ذهبت أدراج الرياح.
- تشبث الغربيون بمورثات العصور الوسطى أفسد الحوار.
- حتى الآن لم يأخذ الغرب قصة الحوار مأخذ الجد.
- أهل الكتاب يريدون أن نترك ثوابتنا كما تركوها من زمن بعيد لنلتقي على لا شيء.
- المخطط الكنسي يستعين بالحوار لكسب الوقت للتسلل بلا مقاومة.

- يؤكد بعض العلماء أن الغرب لا يريد من وراء حوارهِ إلا محاولة فرض نظام واحد (النظام العالمي الجديد) ودين واحد (الدين المسيحي) وحضارة واحدة (الحضارة الغربية) على العالم حتى يسهل ترويضه وقيادته " (١) .

وقضية حوار الأديان وتقاربها قضية حساسة معاصرة . ذهب الناس بها مذاهب شتى ، وقوموها تقويمات متباينة ، وذلك على أساس نظرتهم للأخر " اليهود والنصارى " تحديداً . وقد ظهر - كما سبق - أن آراء علماء المسلمين قد أجمعت على قلة جدوى هذا الحوار بسبب عدم جدية الغرب ، ورغبتهم في صياغة العالم صياغة واحدة غربية ، ولكن ذلك لا يجب أن يكون أو يشكل نظرة صماء واحدة تجاههم ، فهم ليسوا كتلة صماء واحدة ، وإنما يتخلل هذه الكتلة مسارب ، وفراغات يمكن أن تتجاوب وتنصف ، وتقترب ليس من الإسلام لتدخل فيه - وإن كان ذلك ما نريده - وإنما لمنهج الإنصاف ، والعدل والموضوعية ، التي يدعون إليها ، ويفتخرون أنها من إنتاجهم ، وإحدى مفاخرهم . وكل ذلك مع الوعي والإحاطة والتدرج ، وعدم التنازل .

٢- ومن مواقف الإنصاف وعدل التقويم للحضارة الغربية - رغم ما أحدثته في بنيان المسلمين من اختراقات في كافة المجالات - ما كتبه الأستاذ محمد قطب " وحقيقة إن الحضارة الغربية المسيطرة اليوم على البشرية لن تتهار بالسرعة التي يتخيلها بعض الناس حين نتكلم عن الإنهيار ، لأنها تحمل من أسباب القوة والإيجابية ما يؤخر الانهيار المحتوم . تحمل قوة العلم ، وقوة الصبر والجلد على العمل ، وعبقورية التنظيم ، والروح العلمية في دراسة المشاكل ، والبحث لها عن حلول ، وتحمل تيسيرات نافعة في كثير من جوانب الحياة . تحاول أن ترفع الجهد عن كاهل الإنسان وتحمله الآلة . كل هذه قوى تمسك بالكيان المتساقط ، تمنعه من السقوط السريع رغم كل الأوزار التي تدفع به إلى الانهيار (٢) . ولذلك فإن أي جهد بشري ارتكز على أي مرجعية كانت - لا شك - يقوم على بعض المقومات الحسنة ، والأسس الخيرة ، التي تطيل في عمره إلى حين . ومطلوب في منهج التقويم للأخرين وانسجاماً مع عالمية منهج الإسلام وعدله للجميع ، أن نبرز ما عند الغير من المحاسن وأن لا تطغى كثرة المثالب على هذا الخير النافع .

(١) مجلة الرابطة : رابطة العالم الإسلامي ، مكة ، العدد ٤١٧ أكتوبر - نوفمبر ١٩٩٩م ملف العدد ص

١٧ - ٢١ بتصرف .

(٢) واقعنا المعاصر ، مرجع سابق ، ص ٥٣٧ .

٣- وفي نفس الإطار في مجال إنصاف الغرب ، والعدل في تقويمهم في الجانب الإداري ، كذلك : " ونحن نعتزف لهم بالسبق في هذا المضمار ، إلا أننا لا نعتقد بأن كل ما يعرضونه ويجربونه جيد ، لأنهم ينطلقون من غير ضوابط دقيقة ، فإذا نجحت التجربة كان بها ، وإذا لم تنجح وأساعت وأتلفت ، انتقلوا إلى غيرها (١) .

٤- من مظاهر منهج التقويم القرآني التوازن في ذكر الإيجابيات والسلبيات في ساحات الصراع ، ومن أساليب الغرب مع عالمنا الإسلامي حالة الاستشراق . يقول د. مصطفى الشكعة في تقويمه لدور المستشرقين " ينبغي التنبيه إلى نشأة الاستشراق والهدف منه ، فلقد نشأ الاستشراق مستهدفاً عدة أغراض أهمها عرضان :

- الأول : محاولة استكشاف ثغرة في ديننا لكي ينفذ منها إلى النيل من معتقداتنا، ولقد حاول ذلك كثير من المستشرقين ذوي الأسماء المعروفة مثل : جوزيف شاخنت، وأجناس جولد تزيهر ، ومرينهارت دوزي ، وليفي برو فنسال ، ومرجليوت ، وهؤلاء على الرغم من أنهم حققوا بعض الكتب التراثية النفيسة ، فإن عداوتهم للإسلام كانت معلنة.

- الثاني: التعرف على الحياة العامة والخاصة للمسلمين حتى يمكن إخضاعهم ، واستعمار بلادهم. وهاتان حقيقتان ينبغي أن تكونا مائلتين في ذهن كل دارس مسلم للأدب الغربي . ولكن على الرغم من هذه المواقف غير الأمانة ينبغي أن نشير إلى أن عدداً آخر من المستشرقين لم يضع بين أهدافه الإساءة للعرب والمسلمين ، وإنما اصطنع موقفاً محايداً يذكر بالخير. وفي كلمات قصار ينبغي أن نعتزف للمستشرقين بأنهم بذلوا جهوداً واضحة في مجال دراسة الأدب العربي واللغة العربية ، وإن كانوا قد خانوا الأمانة عندما تكلموا عن الإسلام (٢) .

٥- وفي منهجية واضحة عادلة يضع الإمام حسن البنا معياراً للحكم على الغرب والنظرة إليه ، فيقول لطالب مغترب " كن مع القوم ناقداً بصيراً ، ومنصفاً خبيراً ، لا تستهوينك محاسنهم فتنسى مساوئهم ، ولا تؤلمنك مساوئهم فتنسى محاسنهم ، بل أدرسهم دراسة الفاحص المدقق ، وأحظ بكل ما تستطيع من شؤونهم علماً ، ثم أنقد مظفراً مؤيداً ،

(١) القيادة والتعبير : د. بشير شكيب الجابري ، دار حافظ ، جدة ، ط . ١٩٩٤م ص ٢٠٨ .

(٢) صحيفة العالم الإسلامي : العدد ١٦٥٩ عام ٢٠٠٠م ، ص ٩ .

وما كان غير ذلك فألقه إليهم ، ولا تقم له وزناً ، ولا تأت إلا وقد نفضت منه يدك ، وفرغت خاطرِكَ " (١) .

إذا كان العقل والبصيرة مناط التكليف في الإسلام ، ولا تكليف بدون عقل . لزم أن يكون العقل أداة رشد وتفكير ، وتمييز ، وفقه وتقويم . ولقد زخرت آيات الكتاب العزيز بمخاطبة القوم الذين يعقلون ، ويتفكرون وأولى الأبواب ... الخ . والعقل المسلم يجافي العفوية والتقليد، والانقياد الأعمى ، لأن الإسلام يؤكد ويشترط فقه العقل ، وبصيرته وانشغاله ، وتشغيله بمجريات الأحداث ، والحكم عليها سلباً وإيجاباً، لدى العدو والصديق ، القريب والبعيد ، وها هو البنا -رحمه الله - يضع موازين ثابتة، لينقد بها الطالب المغترب الغرب بعين البصيرة والعدل . فما كان جيداً أخذهُ وأفاد به أمته، وما كان غير ذلك تركه وعافه .

٦- ويصل التقويم إلى مرتبة عالية من الإنصاف عند ما يقول الياسين " ولسنا نشط في القول أن الحركة الصهيونية - برغم جرائمها ووسائلها وأهدافها - كانت أنشط من الحركة الإسلامية في عملها وتغطية كل الشرائح التي يمكن أن تدعم .

فلا مانع من أن يستفاد من ذلك في برنامج الحركة الإسلامية بإشراك كل شرائح المجتمع في برنامج التغيير المنشود وحسب الإمكانية .  
والمثل يقول " قدر لرجلك قبل الخطو موضعها " (٢) .

ومعروف أن الحركة الصهيونية أسوأ حركة عنصرية مضللة مهيمنة في التاريخ كله، وخاصة ضد الإسلام والمسلمين ، ومع هذا فلا مانع من تقويمها بالشكل الصحيح العادل ، والاستفادة من أساليبها إن كانت تنفع العمل الإسلامي .

٧- ومن تعليقات الشيخ السعدي الضابطة في تفسيره للآية : ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ [المائدة : ٨] .

" بأن تنشط للقيام بالقسط ، حركاتهم الظاهرة والباطنة ، وأن يكون ذلك القيام لله وحده ، لا لغرض من الأغراض الدنيوية " ، وأن تكونوا قاصدين للقسط ، الذي هو العدل ، لا الإفراط ولا التفريط ، في أقوالكم ، ولا في أفعالكم ، وقوموا بذلك على القريب ، والبعيد والصديق والعدو ... لا يحملنكم بعضهم ( على أن لا تعدلوا ) كما يفعله من لا عدل عنده ،

(١) مجلة المجتمع: العدد ١٤١٦ .

(٢) مجلة المجتمع: العدد ١٤١٩ .

ولا قسط ، بل كما تشهدون لوليكم ، فأشهدوا عليه ، وكما تشهدون على عدوكم فأشهدوا له ، فلو كان كافراً أو مبتدعاً ، فإنه يجب العدالة منه ، وقبول ما يأتي به من الحق لا لأنه قاله ، ولا يرد الحق لأجل قوله ، فإن هذا ظلم للحق ، فإن تم العدل كملت التقوى" (١).

ومؤكد أن شعار القرآن في التقويم ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ... ﴾ . فذلك منتهى ضبط النفس ، وإلزامها العدل وحسن التقويم ، مع الناس عامة ، شنآن قوم : أي قوم . وهذا يقود لنتيجة غالية عزيزة ومعيار كريم في حياة المسلم ، يقود إلى مرتبة التقوى التي من وصلها لا شك أنه عدل ، وأنصف وقدم الميزان على كل ما عداه . وهذا من فوائد التقويم القرآني ، وهو الوصول إلى مرتبة التقوى ، وتربية النفس عليها ، وقد مر معنا ذلك في فصل فوائد التقويم .

وأن يرتبط تقويم الآخرين وحسن الحكم عليهم ، وعدم بخسهم أو ظلمهم - وإن كانوا أعداء - بتقوى المسلم وإيمانه وصلاحه ، فذلك ولا شك أمر لم تعرفه البشرية ، ولن تعرفه إلا بميزان الإسلام ، ومنهج القرآن . لذلك كان شعار القرآن الخالد وتقويمه الحق في النظر إلى كل الناس " إن أكرمكم عند الله أتقاكم " وكل ما عدا ذلك من الموازين فهو غير معتبر ولا مقدر ، إلا على أساس التقوى والاستقامة .

(٨) ويوضح صاحب الظلال المسألة في النظرة إلى الذين لا يعادون المسلمين في الدين ، وتقويم أمرهم والعدل فيهم بالبر والقسط عند قول الله تعالى ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ [الممتحنة: ٨] .

" وإلى أن يتحقق وعد الله الذي دل عليه لفظ الرجاء ، رخص الله لهم في موادة من لم يقاتلهم في الدين ، ولم يخرجوهم من ديارهم ، ورفع عنه الحرج في أن يبروهم ، وأن يتحروا العدل في معاملاتهم معهم ، فلا يبخسونهم من حقوقهم شيئاً " (٢) .

(٩) وفي إطار ذكر ما على المستشرقين من سلبيات وما لهم من إيجابيات يقول د.محمود حمدي زقزوق: " ونحن بادئ ذي بدء لا ندخل على المستشرقين هنا دخول المعاند الباحث عن المثالب ، وإنما ندخل عليهم دخول الباحث الذي يتوخى الوصول للحقيقة . وهذا سيجعلنا نتعرف على ما للمستشرقين من إيجابيات تذكر لهم ، وما لهم من سلبيات تسجل

(١) تيسير الكريم : مرجع سابق ، ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) الظلال : ج ٦ ، ص ٣٥٤٤ .

عليهم، وهذا منهج حثنا الإسلام على اتباعه إحقاقاً للحق، ووضعاً للأمور في نصابها ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾

فكل من " الثناء المطلق والتحامل المطلق يتنافى مع الحقيقة التاريخية التي سجلها هؤلاء المستشرقون فيما قاموا به من أعمال ، وما تطرقوا إليه من أبحاث <sup>(١)</sup> وهناك حقيقة يعرفها كل من خالط المستشرقين وهي : إن المستشرق المتمكن لا تأخذه العزة بالإثم ، إذا نبهته إلى خطأ وقع فيه نتيجة لعدم فهمه لروح اللغة العربية .

ولقد شكك المستشرقون في صحة مصدر القرآن وصحة نصه " ... ولهذا نحن نرفض - ومعنا كل الحق - منهج المستشرقين في دراسة الإسلام لأنه منهج مصطنع، جاء وليد اللاهوت الأوروبي ، ولأنه منهج يقصر عن فهم طبيعة الأديان السماوية ، ويحاول أن يضعها في صعيد واحد مع الاتجاهات الفكرية والإنسانية .

ومن إجحافهم قول وزير المستعمرات البريطاني (أو رمسي غو) : إن الحرب علمتنا أن الوحدة الإسلامية هي الخطر الأعظم الذي ينبغي على الإمبراطورية أن تحذره وتحاربه ... ولفرحتنا فقد ذهبت الخلافة .. وأتمنى أن تكون إلى غير رجعة.

ومن إنصافهم للإسلام قول المستشرق (رونسون) : ولم ير المستشرقون في الشرق إلا ما كانوا يريدون رؤيته ، فاهتموا كثيراً بالأشياء الصغيرة والغريبة ، ولم يكونوا يريدون أن يتطور الشرق ليبلغ المرحلة التي بغلتها أوروبا ، ومن ثم كانوا يكرهون النهضة فيه .  
ومن سلبياتهم قول " موير " إن سبة محمد والقرآن هما أكثر الأعداء الذين عرفهم العالم حتى الآن عناداً ضد الحضارة والحرية والحقيقة <sup>(٢)</sup>.

يبرز ما تقدم منهجية الطرح الإسلامي للأخرين ، وهذا ولا شك منطلق من الرؤية الإسلامية في تقويم الآخرين المعتمدة على العدل ، والموضوعية والشمول كما قد أشرنا .  
(١٠) ومن الطروحات الموقفة في المقارنة بين مبادئ التقويم الإسلامي ، ومبادئ التقويم الحديث عموماً ما ذكره أحمد جوهر الحسن في رسالته مبادئ التقويم التربوي الأساسية في التربية الإسلامية والتربية الحديثة نلخصها بالتالي :

(١) الاستشراق والمستشرقون : د. مصطفى السباعي : ص ١٥ .

(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري : د. محمود حمدي زقزوق ، طبعة كتاب الأمة ١٤٠٤ هـ ، ص ٥٨-١١٧ ، بتصرف كبير .

## مبادئ التقويم الإسلامي

- ١- تناول جميع نواحي الحياة
  - ٢- مبادئ عامة تفرغ عنها غيرها
  - ٣- غير متعارضة ومفتوحة النهاية
  - ٤- تتطابق في كثير منها مع المبادئ الحديثة
  - ٥- يقوم بما جميع الأفراد حسب الطاقة والصلاحية
  - ٦- سورية سهلة متعددة أوجه التطبيق
  - ٧- الاستمرارية ولهاية التقويم لله عز وجل
  - ٨- الموضوعية عبادة وعقيدة
  - ٩- الأخلاق سراج مهم فيها
- ١- تناول الجانب التعليمي والتربوي حسب التخصصات
  - ٢- يقوم بما المتخصصون وأصحاب الخبرة
  - ٣- ديمقراطية بشرية بالافتراع للأكثرية
  - ٤- الاستمرارية في الدنيا وللإنسان فقط
  - ٥- الموضوعية وظيفة وعمل ومنفعة
  - ٦- الهدفية مرتبطة بالإنسان وأغراضه
  - ٧- العرضية بأي طريق لا تزجج الإنسان
  - ٨- الأخلاق غير معتبرة مثل الحياء ، إكرام الضيف .. الخ
  - ٩- متغيرة حسب رأي المسئولين والمقومين

ومن المبادئ الإسلامية الأخرى ، أن التقويم يعتمد على الملائمة بين حجم البرنامج

التقويمي والإمكانات المتوفرة ، ويؤيد ذلك قول الله تعالى:

- ﴿ لا يكلف الله نفساً إلى وسعها ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .
- ﴿ لا تكلف نفس إلا وسعها .... ﴾ [البقرة: ٢٣٣] .
- ﴿ ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .
- ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ﴾ [الطلاق: ٧] <sup>(١)</sup>.

## ب) المطلب الثاني : فقه العصر وعالية التقويم القرآني.

قامت رسالة الإسلام على العلم والفقه ، وعلى الحرية والإنسانية ، وهي ربانية المصدر ، كاملة التعاليم ، شاملة لكل الناس ، صالحة لكل زمان ومكان . قوامها العدل والنظافة ، وعماراة الحياة بالخير ، وإقامة الحق ، وموازينها ومعاييرها شاملة لبني البشر مؤمنين وغير مؤمنين . وقد وازنت بين متطلبات الجسد ، وأشواق الروح ، ونتاج العقل ضمن تركيبية ثلاثية متماسكة . وجعلت العبادة لله وحده. وبذلك ارتفعت عن شهوات البشر، وشبهاتهم التي يغذيها الشيطان عبر رحلته الملاصقة لبني الإنسان .

<sup>(١)</sup>مبادئ التقويم التربوية الأساسية في التربية الإسلامية والتربية الحديثة : أحمد جوهر الحسن ، رسالة الماجستير، ص ٨٣-٩٠ ، وص ١١٩-١٢٠ ، بتصرف.

وأصول الشر في حياة البشر - عموماً - هي الشهوات والشبهات ، وهي نفسها لم تتغير في شعاب النفس البشرية قال تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال تعالى : ﴿ فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه من ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ... ﴾ [آل عمران: ٧]. والمتغير هنا هو أساليب الناس ووسائلهم في كيفية تحقيقها ، والحصول عليها .

والمفزع في حياة الناس أن يُختزل التطور البشري ، والإبداع العالمي في كافة وجوه النشاط البشري - في الأغلب - ليصبح أداة وستارا تمويهياً لإشباع الشهوات ، وتميرر الشبهات، وبذلك يقع الزيف وتتم الكارثة، ويصبح فقه العصر عملة صعبة قاسية ، تحتاج إلى تكامل في النظرة ، وشمول في المعالجة والإطلاع ، وعلى سبيل المثال :

أ- من الخواطر والأفكار التي تضغط على الكاتب أحياناً - في فقه العصر وتقويمه في أن - ما يمكن أن يعرض به تراكيب اللغة ومصطلحاتها ومعانيها، على دورة التزييف الحاصلة في ساحة الإنتاج البشري كيف قد اضطربت مفردات اللغة ، وفقدت معانيها ، وأصبحت كأنما نستطيع الاستغناء عنها ، أو حشوها عبر بوابة التزييف المذكورة .

فالأصل في اللغات البشرية: أن تكون أداة للتعبير عن الأفكار في ميدان العقل والتفكير والتأمل من جهة ، والمشاعر والعواطف في ساحة الضمير والقلب والروح من جهة ثانية ، وذلك ضمن مزيج متفق متناغم مُتسق .

ومفرداتها ومصطلحاتها - في الغالب - على نوعين ، نوع يعبر عن سيئ الأفكار والمشاعر والأفعال في جانب فجور النفس البشرية الفطري ، ونوع آخر يعبر عن جيد الأفكار والمشاعر والأفعال في جانب تقوى النفس البشرية الفطري كذلك .

ونتيجة لحراك البشرية عبر تاريخها العميق تتولد حالات من الارتفاع والانخفاض في حياة الأمم والشعوب ، تفرز بدورها - عبر منظومة اللغة واللسان - مصطلحات ومفردات جديدة تناسب وتعالج ما جد من أوضاع وتغيرات ، على مستوى الأفكار والمشاعر على حد سواء .

وهذا ما يدل على حيوية اللسان ، واللغة وغناها ورحابتها ، وهي سمة حضارية تشكل في جانب "تقوى النفس" عامل حياة واستمرار ، بل وانتشار لها ولأصحابها .



ومما حصل في هذا المجال في جانب " فجور النفس" من خلال رحلة التزييف الشهوانية ، يتم إلغاء بعض مدلولات اللغة ، ومعاني مفرداتها عملياً، دون إعلان من مجامع اللغة ، أو مؤسسات الألسن ، وذلك تحت لافتات جذابة - وهي جزء من دورة التزييف الحاصلة - من مثل الحرية ، الرفاهية ، الإبداع ، الفن ، التقدم ، العصرية ... الخ ففي جانب الأخلاق والبيئة الاجتماعية ، إذا كان العرى والشذوذ والرذائل تصرفات مستساغة ، ومباحة ومرخصة ، ولها ما يحميها من الدستور ، فما هي المواقف التي تدل عليها كلمة العرى مثلاً ، وعندها فما معنى : الأدب ، والحشمة ، والعفة ، والطهر ، والكرامة ، والحياء ، والمحارم ، والغيرة ... الخ . وهل أُلغيت مفردات : العهر ، الزنا، البغاء، الديانة، الخيانة ، من قاموس اللغة؟

وبمعنى آخر ، متى يكون الإنسان عفيفاً ، وعاهراً ، وغيوراً ، وديوثاً ، وطاهراً ، ونجساً ، وكريماً ، ووضيعاً ، ومؤدباً ، ووقحاً .. الخ .

وأحسب أن موجة التحرر ، وتزيين دوائر الشبهات والشهوات تحت شعار الثقافة والأدب والتنوير والفن ... الخ قد أحدثت، وستستمر في إحداث خلخلة رهيبه، واضطراب عميق في بنية التراكيب اللغوية ، ومتقابل المفردات ، بحيث تُلغى عملياً نسبة كبيرة من كلمات اللغة وألفاظها ، أو تصبح كلمات وتراكيب حيادية تستعمل حسب السزاج والهوى والمصلحة ، والوضع النفسي . لا مدلول لها ثابت ، ولا قيمة لها محددة .

فنلغى بذلك ونستهتر برصيد أمم العالم اللغوي والأدبي والأخلاقي. وكأننا لا نؤمن بقيمة التاريخ وترابط حلقاته ، ككائن حي له جولات تتراكم فيها حضارات الأمم وإنجازاتها. ونحدث بذلك إرباكاً غائراً في مرجعيات الحياة ، وثوابتها عند كل الشعوب وأمم الأرض ، والتي تنطلق عادة من قيمها ودينها وأفكارها .

والخلط عند الكثيرين يقع بين مدلول المصطلحات اللغوية ، وما يمكن أن يُحدد كمنطقة للتحرر والتطوير والإبداع ، هي في حدود قدرات الإنسان ، ونتيجة الإبداع فيها لصالحه وصالح بني البشر ضمن المرجعيات البشرية التي تجمع عليها تحت سيطرة الطباع السليمة ، والفطر القويمة . وبين ما يتخطاه هذا الإنسان خارج دائرة طاقته ، وقدرته في ميدان العلم المطلق ، والقدرة المطلقة ، والحياة المطلقة .

ويترجح عند البعض أن ما يكتشفه الإنسان من قوانين الحياة ، ما هو إلا طريق طويل يصل به إلى مستوى العلم المطلق والقدرة المطلقة ، وهذا خلل ومكابرة يجب أن يثوب

أصحابها إلى رشدهم . فكل ما يصل إليه الإنسان من قوانين ، ونواميس ومعارف " وهي قليلة جداً " في طريق سنن الحياة، ومخبواتها ونواميسها يجب أن يرده إلى الجادة ، ويعرفه بقدره، ومحدوديته . فينسجم مع اكتشافاته، وإبداعاته في التعرف على القوانين المودعة في الكون ، بأن تكون حياته الذاتية والقيمية أكثر ثباتاً وارتياحاً لمصدر القدرة والعلم والإدارة المطلقة ، وهو واضع النواميس والقوانين ومسيرها كلها ، الله رب العالمين .

وما أجمل قصة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - في الاهتداء إلى خالقه عن طريق التفكير بجميل صنع الله في الكون ، وقوانينه في الحياة ، فاستعمل قيمة الحجم والشكل (هذا أكبر) واستخدم قيمة الثبات والدوام ﴿ فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ واستخدم أخيراً القيمة الحقيقية ، قيمة الهداية وطلب العون ﴿ لأن لم يهدي ربي لأكون من الضالين ﴾ .

وبذلك يخرج الإنسان ولو نسبياً من تزييف الشهوات والشبهات، ويشبع فطرته منها عن طريق " تقوى النفس" دون الاعتداء على اللغات والتاريخ فيسلم بذلك من شقاء نفسه ، وشقاء غيره .

إن منهج التقويم البشري ينبغي أن يكون ضمن حدود طاقته، وقدرته على الإحاطة والمعرفة ، ولأن ذلك ناقص وغير كامل ، ويمكن أن تزل به قدمه . لا بد له إذن من أن يستند إلى مرجعية محيطية حيادية قادرة على العدل والإنصاف ، بدون أغراض ، ولا أهواء ولا أطماع . وذلك هو منهج الخالق لخلقه ، منهج الله رب العالمين .

ب- ومن المعالجات الدالة على فقه العصر ، وتقديم الحلول لتقويمه ومعالجته ، ما قيل تحت عنوان جبهة تحرير الكلمة " ما تحتاج إليه حرية الكلمة في العالم استراتيجية جديدة تقوم على توسيع جبهة التفاهم بين الذين تجمعهم قيم ومفاهيم إنسانية تصب في مصلحة الناس بغض النظر عن انتماءاتهم ، الذين يعانون كما نعاني من تزوير الحقائق ، وكتابة التاريخ بانتقائية تضخم أحداثاً وتهمل أخرى ، وتشوه هنا وتُجمل هناك . ومثل هؤلاء كثر ينتظرون خطوة عملية ، تستطيع مواجهة عواصف الضغط والإرهاب الفكري لأصحاب النفوذ الاقتصادي والإعلامي المعاصر . قد يرى البعض في ذلك وعورة تعوق التنفيذ ، لكن الخطوة العملية هي السبيل الوحيد لاكتشاف ذلك . في الجامعات ومؤسسات الدراسات الغربية علماء ، وباحثون ومفكرون ، موزعون هنا وهناك ، ويبدون الاستعداد للتعاون ، ولكنهم ينتظرون من يبدأ الخطوة ، فهلا تعاوننا وإياهم بما يحقق ذلك" (١) .

(١) مجلة الوسط : د . صلاح الدين أرقه وان ، العدد (٤٤٧) .

ج- وفي نفس السياق حول ضرورة توحيد الطرح ، وجمع الكلمة الواحدة لصالح البشرية المعذبة ، والتشجيع على ثقافة الحوار والتلاقح في ساحة العمل الإسلامي، وغيره من الساحات، وتحت عنوان " حوار منقوص " ورد ما يلي : " والحركات الإسلامية في بلاد الإسلام تعتبر مؤسسات غير صغيرة ولا قليلة ، وهي بحمد الله لا تقوم على التسلط وفرض الكلمة ، ولكنها تفتقر إلى الحوار الجاد للبناء بين أفرادها أولاً ، وبينها وبين الجماعات الأخرى ثانياً ، ثم بينها وبين المؤسسات والهيئات الأخرى، وعلى رأسها مؤسسات الحكم ثالثاً، وإن كانت هذه تصد وتعرض ... ثم أن الحوار قد يكون مفقوداً بين أصحاب المشروع الإسلامي وبين غيرهم من المؤسسات والهيئات الأخرى .

وهذا أحد الأسباب لسوء الفهم بين الطرفين ، مما يتسبب في أضرار تلحق الطرفين معاً. ومن الممكن تلاشيها لو كان هناك حوار ، فقد يكون الحوار سبباً في توضيح غامض ، وإزالة لبس ، ومحو شك ، ومنع ضربة مفاجئة ، أو نقمة مؤجلة .

فلماذا لا يقوم حوار بين الطرفين ؟ قد لا تكون أسباب ذلك تعود بالدرجة الأولى إلى الحركة الإسلامية، لكنها بغير شك تتحمل شيئاً من وزر افتقاد الحوار ، وضياح التقارب الذي يفيد الأمة والحركة على السواء .

إن الحوار سمة أصيلة في الإسلام حتى بين الجيوش المتحاربة ، فقد كان الجيش الإسلامي يدعو الآخرين قبل أن يحاربهم إلى إحدى ثلاث : الإسلام ، أو الجزية ، أو الحرب، فهل كانت تتم هذه الدعوة وهذا البلاغ دون حوار ؟ (١) .

إن ما سبق - ولا شك - يدل على فقه العصر ، وضرورة التقارب على أساس القواسم المشتركة التي يدعو لها الجميع في رفع الحيف ، والظلم عن الإنسان ، جنس الإنسان . والحوار والنقاش وتلاقح الأفكار ، والتعايش ضمن مساحات الخير ، يعتبر أمراً مطلوباً، وبدون تأخير. وهذا ما دعى له الإسلام والقرآن في دعوته للغير، وشعاره في ذلك معروف ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم... ﴾ وفقه الواقع أو العصر - عموماً - مطلب إسلامي تمشياً مع رسالة الإسلام وذلك من وجهين :

(أ) الدعوة المفتوحة للعلم والتفقه، ومعرفة الواقع بكل جوانبه ، ومستجداته في الإسلام بأصلية الأساسيين " القرآن والسنة " ولا نعم ديناً دعى إلى العلم والفقهاء والمعرفة، ورفع من منزلة ذلك كما فعل الإسلام . وهذا أمر بدهي ومشهور . وقد وضع لذلك قواعد

(١) مجلة المجتمع : د . جاسم الياسين ، العدد (١٤٢٤) .

وأحكاماً وضوابط . وإنجازات علماء المسلمين في هذا الباب كثيرة كثيرة لا نستطيع عدّها هنا ، وعلى سبيل المثال كانت هناك : علوم أصول الفقه ، وأصول التشريع ، وأصول مصطلح الحديث ، وأصول التفسير ، وغيرها من العلوم الكونية . وفي مجال تطوير هذه العلوم وغيرها ، كان الباب مفتوحاً للاجتهد ، والإفتاء ومواكبة العصر ومستجداته . ومن شروط ذلك :

١- العلم بنصوص الشرع وأدلته .

٢- فهم هذه النصوص وإزالة التعارض - إن وجد - والاستفادة من التوافق .

٣- تطبيق هذه النصوص على الواقع . ولا يكون ذلك إلا بمعرفة العصر ومتطلباته وتخصصاته. لذلك كانت ولا زالت المناداة الآن بضرورة الاجتهاد والفقه الجماعي. فلا يقتصر الأمر على علماء الشريعة فقط ، إنما لا بد من أصحاب التخصصات الأخرى . في علوم الطب ، والإحياء ، والاقتصاد، والعسكرية ، وكل ما له علاقة بحياة الناس المعاصرة . ب- عالمية رسالة الإسلام ، فهي رسالة الناس كل الناس إلى يوم الدين ، ومعاييرها في التقويم والهداية والتصحيح عالمية ، يستفيد منها المسلم وغير المسلم ، كل حسب مساحه حقوقه وواجباته .

ولهذا الاعتبار كان لا بد من أن يفهم الواقع والعصر على ضوء أنواع من الفقه والمعرفة والوعي نمثل لها بالآتي :

١- فقه المصالح والمفاسد : وهذه قاعدة جلييلة ، ومفخرة عظيمة للفقه الإسلامي ، وقد تناولها العلماء بالدرس والتأصيل . ومن روائع ذلك كتاب " قواعد الأحكام في مصالح الأنام " للإمام المحدث الفقيه سلطان العلماء ، أبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي ، الذي عرض فيه قواعد عملية ، ومفاهيم غاية في الدقة وحسن المعالجة ، وحسن الحكم والتقويم .

٢- فقه الأولويات : وهذا باب عظيم مهم ، لأن الأشياء التي نرجو تغييرها كثيرة ومتشعبة ، وتكاد تكون في كل المجالات . فبأيها نبدأ ؟ وماذا نقدم وماذا نؤخر ؟ ولما ذا ؟ وما هو المهم ؟ وما هو الأهم ؟ وهكذا ، وقد عالج ذلك علماء الأمة معالجات كثيرة . ومن علماء الأمة المعاصرين الذين اهتموا بهذا النوع من الفقه الأستاذ د. يوسف القرضاوي . وتجد ذلك مبثوثاً في أغلب مؤلفاته .

٣- فقه الموازنات : وهذا باب رشيد لا بد من فهمه والوعي به ، فكما مر معنا في شرط الموازنة في منهج التقويم القرآني ، لا بد من أن يكون هناك فقه في موازنة الأمور ، وطرح مثالبها ومحاسنها، ليتم بعد ذلك الترجيح فيما يتبع منها ، أو يستمر عليه ، أو يغير ، أو يفتى و يجتهد به .

٤- فقه المفاهيم : إن الفهم والوعي والإدراك أساس التطبيق والاختناع ، ومن ثم الثبات أو النكوص . وكلما زاد منسوب الفهم والوعي لدى الإنسان كلما تهذبت طباعه ، وزادت نسبة الألفة والتقارب بينه وبين الأفكار الأخرى ، ولو بالحد الأدنى الذي يبقى العلاقات دون الصدام ، والصراع والتناحر . والفهم يحتاج ثقافة عالية ، وصحة نفسية ، وإدراكاً للنفس والغير .

ونتيجة لضعف تلك الأنواع من الفقه في حياة الأمة نجد التباين والاختلاف في تقويم الأمور ، وتشخيصها وبذلك تتعدد المدارس ، وتكثر أساليب التغيير ، وتتنوع وسائل الحل والمعالجة . وذلك لا يمنع فطرية الاختلاف بين بني البشر ، وهي سنة وفطرة أودعها الله في خلقه . ولكن المطلوب هو التلاقي على القواسم المشتركة والعمل بالكليات والاهتمام بما يجمع ويوحد وهكذا . وإننا لنجد دعوة الإسلام - كما ذكرنا - لغير المسلمين في التلاقي على الخير لصالح الإنسان - جنس الإنسان - فكيف بأن يكون الأمر داخل البيت الإسلامي والمشروع الإسلامي ؟ لا شك أن ذلك ألزم وأوجب . ومن هنا كان طابع الإسلام الإنساني أساساً لطبيعة العالمي ، فهو عالمي لأنه إنساني ، لأنه لا يفرق بين الإنسان والإنسان داخل المجموعة الإنسانية كلها ، أياً كان وطنه أو موقعه في الكرة الأرضية ، وأياً كانت علاقة الناس بهذا الإنسان .. رضوا عنه أو كرهوه ، سالموه أو حاربوه ، احتفظ بحريته أو استرقوه ، فإنه يبقى إنساناً ، وللإنسان حقوق لا تسقط ، تتصل بحريته وكرامته <sup>(١)</sup> .

- ومن أمثلة التباين في الفهم ، وارتجاج فقه الموازنات والأولويات في حالة الأمة الإسلامية الراهنة من قبل دعاة التغيير ومن ثم التقويم الصحيح المطلوب لهذه الحالة : أن يرى البعض أن المصلحة الآن هي إظهار الشجاعة والعزة ، وبذل الدم والتضحية في سبيل رفعة الأمة ورفع منسوب الجراءة لديها ، ومحاربة حبها للدنيا وإزالة كابوس الذل والخوف من عدوها لديها . ولا يهم هذا البعض - أولاً يفقه - نتائج ذلك الأمر، إن لم تكن الأمة مستعدة ، وعندها ولو بعض المقومات لذلك .

(١) من فلسفة التشريع الإسلامي : الأستاذ فتحي رضوان ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ص ١٥٤-١٥٥ .

ويرى غيره أن صحاحات الجهاد وتحفيز الأمة وتربيتها على ذلك واجب ومطلوب ، ولكن شرط أن يكون الجهاد والبذل والعمل بمفهومه الشامل الكامل، الذي يعالج كامل أوصال الأمة ومشاكلها - ولا يقتصر ذلك على الجهاد بمعنى - القتال واستعمال السلاح - إلا في حالة الاعتداء السافر على أراضي المسلمين ، واحتلالها كما هو حاصل في فلسطين وغيرها.

وأمام هذه الحالة تتباين الرؤى والخطط ، وتتلاطم ، ويعطل بعضها على بعض . وتتساقط حملات الاتهام والتكفير والتخوين ... الخ .

ومن ذلك ينشأ التفكير المجزؤ، الذي لا يقوّم التقويم السليم ، ولا يقدر التقدير الشامل ، فيحشر الأمة - أو يساعد في حشرها - كلها بشخص أو حركة أو مجموعة واحدة ، ويجعل قدر الأمة بقدر هؤلاء فقط .

وذلك أمر يحتاج إلى معالجة وتعديل . فمستقبل الأمة لا يجب أن يُربط بجولة من جولات الصراع ، ولا بانهزام واحد أو مجموعة من الناس ، على أثر نوع من العناد والتهور . والمشكلة أن هذا يطرح على أساس من برنامج التغيير الإسلامي المنشود .

- ونرى أن من أهم القضايا المعاصرة التي يجب أن تربط بمنهج التقويم وعالميته، والتي تشكل مادة اهتمام وبرنامج معالجة على المستوى العالمي . على اعتبار إيماننا بعالمية رسالتنا الإسلامية ، ومن ثم منهجية التقويم الإسلامي العالمي كجزء من عالمية الرسالة ، نرى طرح هذه القضايا ، ومعالجتها بعدل وتقويم ، كي نرى الذي لها ، والذي عليها ، ونخرج منها برؤية صافية مدروسة منسجمة مع كليات الرسالة . وذلك من شأنه أن يمهّد الطريق لوضع خطط عملية للمساهمة في تقديم ما يمكن تقديمه إسلامياً لهذه القضايا ، ومن أبرزها:

(أ) قضية تقارب وحوار الأديان . وقد لمسنا جزءاً من تقويم ونظرة بعض العلماء لها . ولكنها تحتاج إلى مزيد من الدراسة والاهتمام . لأنها ستساهم ولا شك في وصول الدعوة الإسلامية لغير المسلمين، ولعلنا نكون جبهة الكلمة ، أو الإصلاح العالمية مع غيرنا لصالح البشرية المعذبة . والعدة في ذلك الانطلاق هي : الندية مع الغير ، واستشعار قوة ما نحمل من فكر وعقيدة ، والرغبة في هداية الآخرين ، والمساهمة في تنظيف الجو العالمي من التلوث الفكري والعقدي والأخلاقي والسلوكي . واحترام إنسانية الإنسان ، لمجرد أنه إنسان .

(ب) قضية محاربة الإرهاب : والإرهاب مصطلح مشين ، وأمر مفزع ، وهو إفراز ظلم الظالمين ، وجبروت المتجبرين ، والطغاة ، ومستغلي الإنسانية .

فالأصل أن الإرهاب مذموم ، فهو لا دين ، ولا وطن ، ولا لغة ، ولا لون ، ولا جنس ، ولا مكان واحد له . إنه ينطلق من ساحات الظلم والجور وميادين الشهوة والشبهة ، وقد يكون إرهاب فرد ، أو مجموعة ، أو دولة ، أو دين ، أو غير ذلك .

ويجب أن يُفَرَّق بينه في أصوله الظالمة المعتدية ، وبين الدفاع عن النفس ودفع المعتدي ، دولة كان أو فرداً أو مجموعة ، وبذلك لا يجب أن يساوى بين القاتل والضحية ، والمعتدي والمُعتدى عليه . وفرق بين إعداد القوة ، والاستعداد لحماية الحق ، وتشكيل ردع للعدو . وبين أن تصنع الإرهاب ضد كل من لا يطيعك ، أو يستنيم أمام أطماعك وأهدافك .

(ج) قضية صدام الحضارات : الأصل أن يتقارب الناس ويتفاهموا رغم اختلاف أجناسهم ، ولغاتهم ، وألوانهم ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾ [الحجرات: ١٣] .

وفي المقابل فإن الصراع بين الحق والباطل سنة دائمة . لأن الناس في الدنيا على فسطاطين ، فسطاط إيمان ، وفسطاط ضلال . وكل يتحرك بأدواته ومقوماته ضد الآخر إلى آخر الحياة . الشيطان ملازم لأعوانه على الضلال والاستهواء ، والرحمن منتصر لفريقه على الإيمان والهداية والدعوة . ولا مانع أن تجتمع الحضارات الراشدة على ما تتفق عليه من تعايش لصالح البشرية . ولكن الغالب على الساحة العالمية ، وساحة المنافع والاستقطاب العالمي ، هو التنافر والصدام ، ووراء ذلك لا شك مجموعات بشرية منكودة ، لا تريد سوى تدمير البشرية واضطرابها ، عبر آلتها الاقتصادية والإعلامية الضخمة . ولا أظن غير الصهيونية العالمية - والتي ابتدعها اليهود - يستطيع أن يقوم بهذا الدور ، ويتصدر لهذا الإثم العالمي ، والخبث الكوني .

(د) قضية العولمة : وهي كذلك مصطلح حديث ويسمى كذلك - النظام العالمي الجديد - يقصد منه السيطرة على العالم ، بجعله تحت مظلة واحدة ، ودولة واحدة ، وحضارة واحدة ، وفكرة واحدة ، هي الفكرة الغربية ، وتحديداً الأمريكية وذلك ضمن بوابة الاقتصاد ، والفنون ، والثقافة ، وتكنولوجيا المعلومات ، والشبكات الإلكترونية وغيرها ، فتتزاح الحدود ، وتذوب الفواصل ، وتلغى الثقافات ، وينمط العالم بنمط واحد ، وبذلك يصار إلى

أن يكون العالم واحداً في كل شيء في المطعم والمشرب ، واللباس والعادات ، واللسان ،  
والذوق والشعور ... الخ .

ونحن المسلمون أهل العالمية وأصحاب الانفتاح ، فرسالتنا عالمية ، ومطلوب منا معرفة  
الأخر لدعوته إلى الحق ، ولا قيمة عندنا للحدود والسدود ، والألوان والأعراق . وكلها يجب  
أن تذوب في رسالة واحدة ، ولكن ضمن ضوابط العدل ، والرحمة والخير لنا ، و لجميع  
خلق الله أجمعين .

هذه مفاهيم ومصطلحات تتفاعل معها الثقافات العالمية ، ويُبشر بها من يُبشر ، كل  
حسب دوافعه وأهدافه ، ويجب أن نتخذ منها موقفاً ، ونقومها حسب مفاهيمنا ، ويُجمع الناس  
حولها على شيء - خاصة شريحة العلماء - ثم نطرح فيها طرحنا وتقويمنا ، مادة لنا  
ولغيرنا .

وعلى هذا الأساس فإن ما يمكن أن نقره بعد ما نظرنا إلى هذه المفاهيم والمصطلحات ،  
وقومناها تقويماً موجزاً ، أن مستقبل الأمة وتأثيرها بغيرها ، مرتبط بتقويمها لنفسها ،  
وإصلاح حالها . وأول وأهم قضية يجب أن يلتقي عليها الكل أمام هذه المصطلحات الكونية،  
هو : وحدة الأمة أفراداً وشعوباً ، وحكاماً وعلماء ومفكرين . وأنه - والله أعلم - ليس  
باستطاعة طرف من الأطراف الصمود أمام هذه الحركة العالمية لوحده ، وأن التقاطع في  
الأعمال والخطط والبرامج سيكون - كما كان سابقاً - سيئ الأثر ، من النتيجة على الجميع ،  
ولا يظن ظان أن الأمر لا يخصه ، وأن عليه أن يتمترس وراء سلطانه ، أو ماله ، أو  
جاهه أو نفاقه ... الخ .

وبذلك لا بد من نبذ ضيق التفكير والأنانية ، وتقليد استمرار العائلة والعشيرة، أو الحزب  
والطائفة ، لأن كل ذلك لا يصمد أمام العولمة ، وإرادة ذوبان الكل بالكل .

وأمامنا - مع كل ذلك - فرصة ذهبية لشرح الإسلام للغير ، وعرضه أمامهم باعتداله ،  
وتوازنه ، وشموله ، فالناس مرضى والدواء عندنا ، فهل نقدمه لهم ؟ والإحصائيات تدل  
على أن الإسلام هو الديانة الأولى الأسرع انتشاراً في العالم كله .

وقضية مهمة نطرحها هنا ، هل نظرتنا وتقويمنا للآخرين ينطلق من شعور التنقز ،  
والحقد والكراهية ؟ أم ينطلق من شعور الرأفة والرحمة وحب الهداية ؟ على أساس أن ذلك  
من صلب رسالتنا ودعوتنا للآخرين .



فالمأمول أن تكون نظرتنا لهم نظرة الطبيب لمريضه ، وحامل الهداية للضال المنحرف .  
ويجب الفصل بين جور السياسات ، وأنظمة الحكم والإدارات الظالمة ، ومن يدعمها  
ويوجهها صوب الصدام والظلم ، وبين الشعوب والجماهير المضللة التي تنتظر الهداية ،  
والإفلات من جحيم حياتها وسطوة مصاصي الدماء الذين يسومونها سوء العذاب . ويمكن أن  
الخص أخيراً بعض المعالم والأساليب التي من خلالها نستطيع توظيف منهج التقويم القرآني  
كما عالجنه في ثنايا البحث في حياة المسلمين أفراداً وجماعات ، أنظمة وشعوباً بما يلي :

أ- من خلال قطاع التربية والتعليم - بكل مراحل - وأن يكون هذا المنهج مبرمج  
المراحل ، والمستويات والأهداف ، وبذلك نبدأ العملية بالشكل الصحيح من سن الطفولة  
حتى مرحلة التعليم العليا ، فينشأ الجيل عارفاً لنفسه مقوماً لها " التقويم الذاتي " مقوماً لغيره  
مسلماً أو غير مسلم ، ضمن شروط التقويم وضوابطه ، ومجالاته وأساليبه ، هادفاً إلى  
تحقيق أهدافه ، متجنباً معوقات ذلك ومثبطاته .

ب- تشكيل مجالس الشورى والحوار ، وفتح باب الحريات المنضبطة ، ضمن دساتير  
عادلة ، تسمح بالتعددية ، وتبادل السلطة على أساس رسالة الإسلام . وأن تكون هذه  
الآليات فاعلة شجاعة يسمع لها ويطاع ، وتحترم تقويماتها وأحكامها ما دامت ضمن  
المشروع الإسلامي الوطني الصادق .

ج- فتح مراكز أبحاث ومؤسسات حكومية ، وشعبية للتقويم والتشخيص الصحيح ،  
في شتى المجالات عبر تشغيل متخصصين ، وناقدين أمناء ، وعلماء عاملين أوفياء .

د- فتح أقسام في الجامعات خاصة بتدريس منهج التقويم القرآني ، وذلك ضمن  
التخصصات الشرعية ، والإدارية ، والاجتماعية .

هـ- إعداد دورات وبرامج تدريبية في مؤسسات البلدان الإسلامية ، لتنمية هذا  
التخصص بشكل مدروس ، من أجل تحسين الأداء ، وسد الخلل .

\* \* \*

## الخاتمة

الحمد لله حمد الشاكرين ، وأفضل الصلاة والسلام على سيد المرسلين وآله أجمعين .

وبعد :

فقد أكملت هذا البحث (منهج التقويم في القرآن الكريم) - بعون الله وتوفيقه - وعشت معه فترة من الزمن ليست بالقليلة، تجولت من خلاله في كتاب الله الكريم ، فوجدت أنه النبع الذي لا ينضب ، والمنهل الذي لا يجف. ولا غرابة، فهو كلام رب العالمين ، ومنهج خالق البشر أجمعين ، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . فهو تبيان لكل شيء ، وهو روح الأمة وريحانها ، وعماد عزها وسلطانها . وإني قد وجدت نفسي مبتدئاً أمام هذا البحر الزاخر ، والسلطان الغامر . حاولت بذل جهدي فيما نذرت نفسي إليه من بحث وموضوع ، لعلني بذلك قد خطوت خطوة تكون بمثابة البداية لخوض هذا المجال الدراسي الجديد . من قبل الدارسين ، والباحثين، والمتخصصين . كان موضوع هذا البحث فكرة تراودني منذ زمن طويل ، وكدت أن أطرقها في تقويم بعض التجارب الإسلامية المعاصرة تحديداً ، ولكن قادني التفكير إلى أن أي دراسة تقويمية لتجربة ما لا بد أن يسبقها منهاج ، وميزان . ومعيار يستطيع الإنسان من خلاله أن يقوم . فهداني الله لما قمت به في هذا البحث . وكتاب الله المجيد دستور حياة يتناغم مع دستور الكون وقوانينه المودعة فيه من قبل الحق تبارك وتعالى ﴿ ما فرطنا في الكتاب من شيء ﴾ [الأنعام: ٣٨] وكل ذلك يقود إلى أن يتجه الكل إلى عبادة الخالق عز وجل . وشاءت الحكمة الربانية أن تكون الحياة مرحلة ابتلاء واختبار للإنسان ، وبعدها يكون الحساب ، فإما ثواب وإما عقاب .

وانسجماً مع قوله عز وجل ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ [القمر: ٤٩] فقد كانت معايير الحساب ومقاييس التقويم دقيقة منضبطة عادلة شاملة مفيدة ، يمكن تطبيقها والالتزام بها ، حيث قد راعت الطاقة البشرية في حدها المطلوب شرعاً ، وحدها في مجال التسابق بالخيرات والأخذ بالعزائم والدوام على النوافل . وقد وجدت من خلال بحثي أن منهج التقويم كنز عظيم من كنوز كتاب الله عز وجل ، له قواعده وشروطه ومجالاته المتعددة ، وأهدافه القيمة وأساليبه المتنوعة ، وكذلك عوائقه ومثبطاته في حياة الناس كل الناس ، ذلك أنه منهج الله لكل الخلق أجمعين ﴿ وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

وقد ظهر أن للتقويم قواعد أهمها قاعدة الشمول والموازنة في تقويم الأمور من جميع الوجوه سنيا وإيجاباً وهي قاعدة جليلة بارزة في كتاب الله عز وجل قال عز وجل: ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ [البقرة: ٢١٩] .

فقد قوّم الله الخمر والميسر بشمول ، فذكر منافعها ومضارها ، ثم كان التحريم لغلبة المضار لتعلقها بالعقل والدين . وظهرت قاعدة الشمول والموازنة في تقويم الأشخاص ، ومن ضمن ذلك شريحة الأنبياء والرسل عليهم السلام ، فقد عرض القرآن تقويم الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم فقال عز وجل ﴿ وإناك لعلى خلق عظيم ﴾ [القلم: ٤] مادحا له مبرزاً ما عنده من عظمة الأخلاق وتميزها ، وفي المقابل قال الله في حقه ﴿ عبس ﴾ وتولّى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنتعه الذكرى. [ عبس: ١-٤ ] معاتباً وموجهاً له إلى ميزان النظر والتفاضل بين الناس في قصة ابن أم مكتوم رضي الله عنه . وتظهر هذه القاعدة في تقويم غير المسلمين عدلاً وشمولاً ، قال تعالى ﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً ﴾ [آل عمران: ٧٥] فشملت القاعدة صنفى أهل الكتاب الأمانء منهم وغير الأمانء .

وبرزت قاعدة العدل والموضوعية كقاعدة رئيسة من قواعد التقويم ابتداءً في إرسال الرسل وتحديد مهمتهم في دنيا الناس قال تعالى ﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾ [الحديد: ٢٥] فالبينات والكتاب والميزان لتقويم الناس كل الناس وتصنيفهم على قاعدة العدل معهم والتجرد والموضوعية . ويرد في نفس السياق كذلك قوله تعالى ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ فالمطلوب هو الحكم بين الناس ، وتأدية الأمانات على أساس التقويم والعدل فيه . ومن العدل في التقويم والموضوعية فيه ضرورة التمايز والتفاضل على أساس الصحيح والخطأ والخبيث والطيب ، وعدم التسوية بين الضدين ، قال تعالى ﴿ قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ [ المائدة: ١٠٠ ] وقال كذلك ﴿ قل لا يستوي الخبيث ولا الطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ﴾ ويتحقق العدل والموضوعية في وسطية الأمة المسلمة وشهادتها على الناس ﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ﴾ [البقرة: ١٢٣] .

يقول صاحب الظلال : " إنها الأمة الوسط التي تشهد على الناس جميعاً ، فتقيم بينهم العدل والقسط وتضع لهم الموازين والقيم ، وتبدي فيهم رأيها ، فيكون هو الرأي المعتمد ، وتزن قيمهم وتقاليدهم وشعاراتهم فتفصل في أمرها ، ونقول : هذا حق وهذا باطل ."

والعدل والموضوعية في التقويم على أساس الحق لا على أساس المصلحة أو القرابة أو حتى الدين قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ﴾ [النساء: ١٣٥] .

وجاء كذلك العدل والتقويم بالموضوعية على أساس طاقة الإنسان ووسعه ومسؤوليته الفردية قال تعالى : ﴿ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

فلا يكون التقويم عادلاً ولا موضوعياً إلا على أساس طاقة الإنسان ووسعه على قاعدة الحقوق والواجبات ، وقاعدة ﴿ ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ [الأنعام: ١٦٤] .

يقول الإمام الطبري عند قول الله تعالى ﴿ ولا تكسب كل نفس إلى عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى ﴾ لا تحاسب إلا بما عملت ، ولا تؤخذ بمعاصي غيرها ، فكل عاص وأثم معاقب بإثمه ، مأخوذ بذنبه ، ولا تأثم نفس أئمة بإثم غيرها . والقرآن يحكم ويقوم بكل جلاء ووضوح وصراحة دون موارد أو غموض أو مجاملة ، وقد تبين ذلك بمواقف متعددة مع الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ، ومن ذلك تقويم القرآن لحادثة الإفك التي تعلقت بأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم وابنة الرجل الثاني في صرح الدولة الإسلامية أبو بكر الصديق رضي الله عنه . ولو كان من أسلوب القرآن الإخفاء والمواربة والتعاضّي لفعل ذلك في مثل هذا الموقف الحساس الذي هز المجتمع المسلم وزلزل أركانه ، ولم تزل غمة المسلمين وينقطع دابر المنافقين في التشويش والدعاية ، إلا بوحى السماء الذي حسم المسألة وقومها وبرأ عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قال تعالى : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم كل امرء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولى كبره منه له عذاب عظيم ﴾ [النور: ١١] .

وظهرت صراحة تقويم القرآن كذلك فيما أنزل بحق النبي في أسرى بدر ، وذلك قوله تعالى : ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ﴿ [ الأنعام: ٦٧] مما يثبت أن الوضوح المتمزن ، والصراحة المؤدبة هي ميزة التقويم القرآني التي يجب أن تعم حياة المسلمين بعيداً عن الغموض

والتزلف والنفاق الذي يخلط الموازين ويضيع الحقوق ، ويغمت أقدار الناس ، ويكثر المشاكل بينهم .

وتبين أن العلم والخبرة وثبوت الدليل قاعدة جليلة من قواعد التقويم ، إذ بدونها سيكون الحكم ناقصاً طائشاً ، والتقويم مجزوءاً قاصراً . وكما يتصدر لتقويم الآخرين والحكم عليهم أناس لا علم ولا دراية ولا دليل لديهم ، فيفسدوا أكثر مما يصلحوا ، وبالتالي لا يصدر عن حكماء صحيحاً ولا تقويماً إيجابياً يحسن الوضع ويصححه . ولذلك قال تعالى ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ وقال سبحانه ﴿ وفوق كل ذي علم عليم ﴾ .

ومن صور التنزيل في تقويم المواقف والحوادث على قاعدة العلم والتثبت ، قول الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾ [الحجرات:٦] وقد ذكر القرطبي عند تفسيره للآية الكريمة : وفي الآية دليل على فساد قول من قال : إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجرحه لأن الله تعالى أمر بالتثبت قبل القبول ، ولا معنى للتثبت بعد إنفاذ الحكم ، فإن حكم الحاكم قبل التثبت فقد أصاب المحكوم بجهالة .

ومن معالجات القرآن لهذه القضية ما ورد في قصة سليمان عليه السلام مع الهدهد قال تعالى : ﴿ وتفقذ الطير فقال ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين ، لأعذبه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ [النمل:٢٠-٢١] وعلى الرغم من غياب الهدهد بدون إذن وأن سليمان عليه السلام الملك الحازم يتهدد هذا الجندي المخالف ﴿ لأعذبه عذاباً شديداً ... ﴾ إلا أنه ليس ملكاً جباراً في الأرض ، إنما هو نبي ، وهو لم يسمع بعد حجة الهدهد الغائب ، فلا ينبغي أن يقضي في شأنه ويقوم فعلته تقويماً نهائياً قبل أن يسمع منه ، ويتبين عذره ، ومن ثم تبرز سمة النبي العادل في التبين ﴿ أو ليأتيني بسلطان مبين ﴾ أي حجة قوية توضح عذره وتنفي المؤاخذه عنه .

وبرز كذلك من قواعد التقويم القرآني أنه تقويم هادف يراعي جانب الأخلاق ويهتم بها، فعملية التقويم ليست غاية في ذاتها لمجرد التجريح أو الإطراء ، إنما هي وسيلة لغاية، يقول الله عز وجل : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ [الإسراء :٩] فكل تقويم له غاية ومصلحة قد تكون فردية ، وقد تكون جماعية حسب الحالة والموقف . فعندما يُقيم القرآن غزوة أحد وما حصل فيها من نجاحات أو اخفاقات إنما يريد من ذلك التركيز على دروس وأخلاق وقيم لا زالت الجماعة المسلمة بحاجة لها ، قال تعالى ﴿ أولمأ أصابكم مصيبة قد

أصبتُم مثلها قلتُم أنا هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير ، وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين ﴿ [آل عمران : ١٦٥-١٦٦] .

فهدف التقويم إذن هو : لإظهار أن الهزيمة هي من قبل المسلمين وليس من خارجهم ﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾ وأن الأمر بقدر الله وإذنه ، وليظهر الله المؤمنين من غير المؤمنين ، ويكون هذا الأمر تمحيصاً وفرزاً لنوعيات الناس . وليبرز في النهاية الدرس الأكبر وهو ضرورة الطاعة والالتزام بالأمر ، وعدم العصيان واتباع المصلحة والمنفعة الشخصية ، وذلك ما حصل مع رماة الجبل .

ووجدت أن منهج التقويم في القرآن قد شمل مجالات عدة ، فقد شمل المخلوقات كلها من إنسان وحيوان وجان فهو منهج الله للتقلين الإنسان والجن ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ [الذاريات: ٥٦] فنراه قد قوّم الإنسان في أصله وصفاته الفطرية في جانب الطين ، وقوّمه في جانب تكريم الله ونفخه فيه من روحه وإسجاد الملائكة له . فوصف بالأولى بالعجلة والضعف ، والجدل والكبر ، وأنه ماء مهين ، وأنه من طين وأنه ظالم جاهل قتور ... الخ .

قال تعالى : ﴿ هل أتى على الإنسان حين الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً ، إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إن هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾ [الإنسان: ١-٣] .

ويقول عز وجل ﴿ قتل الإنسان ما أكفره ، من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ، ثم السبيل يسره ﴾ [عبس: ١٧-٢٠] .

وقال في معرض كرامته وتميزه وارتفاع منزلته ، حيث قد كُلف بحمل الرسالة وعبادة الله تعالى ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ وقوله تعالى ﴿ ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلى إبليس ﴾ [الأعراف: ١١] وقال تعالى ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾ [التين: ٤] .

وقد ورد كذلك تقويم الحيوان وبيان منافعها وتسخيرها لخدمة الإنسان ، فقال تعالى ﴿ ولله الأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا باليغى إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم ، والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون ، وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ [النحل: ٥-٩] .

وقد أظهر هذا التقويم منافع الحيوانات من دفاء وغطاء ، وأكل وشرب ، وحمل ونقل ، وراحة ومنتعة وجمال ومنزلة وزينة وغير ذلك مما عرف حديثاً من مراكب ومخترعات أوصلت الناس إلى القمر . وقوم القرآن موقف النملة مع سليمان عليه السلام قال تعالى « حتى إذا أتوا على واد النملة قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون » [النمل: ١٨] فأظهر قيادة هذا النملة ونباهتها لحماية بني جنسها من سليمان وجنوده مع عدلها فيما قالت بحق سليمان ﴿ لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون ﴾ أي بدون ظلم وشعور منهم بكم . وقوم القرآن النحلة والهدد والحمار ، وأظهر ما لها وما عليها عبرة للإنسان ، وشمولاً لهذا المنهج الرباني .

وقوم المنهج القرآني الجان كذلك فقال تعالى ﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين ، قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين ﴾ [الأعراف: ١١-١٢] وهذا في جانب التقويم السلبي في موضع عصيان الله ومخالفة أمره . وقال تعالى في موضع رشد الجن والإذعان لأمر الله والإيمان بكتابه وذلك في سورة الجن ، قال تعالى ﴿ قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجياً ، يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحد ﴾ [الجن: ١-٢] .

وقد قوم القرآن المعتقدات والمبادئ كمجال رئيس من مجالاته فقال في تقويم عقائد أهل الكتاب ﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وأطعنا واسمع غير مسمع وراعنا لياً بألسنتهم وطعياناً في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾ [النساء: ٤٦] وقال في تقويم عقيدة النصارى ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ﴾ [المائدة: ١٧] وقال في التمييز بين العقائد المشركة وبيان أشدها عداوة للمسلمين ﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون ، وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾ [المائدة: ٨٢-٨٣] .

ولقد خاض الأنبياء معركة التقويم مع أقوامهم في مجال العقائد والتصورات بشكل واسع ومن ذلك قول إبراهيم عليه السلام لأبيه وقومه ، قال تعالى ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه أزر أنتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين ﴾ [الأنعام: ٧٤] .

وقال الله على لسان يوسف في تقويم آلهة صاحبي السجن ﴿ يا صاحبي السجن أ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ، ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ [يوسف: ٣٩-٤٠] وقوم الله عقائد المشركين العرب كذلك، قال تعالى : ﴿ أفرايتم اللات والعزى ، ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله الأنثى ، تلك إذا قسمة ضيزى، إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ [النجم: ١٩-٢٣].

وقوم منهج القرآن عموم الأفعال والأعمال التي يقوم بها الإنسان من مثل : الأعمال الجهادية ، قال تعالى في غزوة بدر ﴿ كما أخرجك ربك من بيت بالحق وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ، يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ﴾ [الأنفال: ٥-٧].

بينت الآيات في تقويمها للمسلمين أن الخروج للقتال كان حقاً ، وأن بعض المؤمنين كرهوا ذلك ، وأنهم جادلوا الرسول صلى الله عليه وسلم في هذا الحق ، وكان بعضهم يحب القافلة وليس المعركة . وبذلك يتقرر أن لا أحد فوق التقويم والتوجيه ، ولو كان نبياً مرسلأ أو صحابياً جليلاً . وإن البعض ليبالغ في أن من جاهد في سبيل الله عز وجل هو فوق النقد والتقويم والتصويب ، فالمجاهدون أفضل خلق الله ، وهم يجودون بأعلى ما يملكون فكيف نفومهم ونتكلم عليهم ؟ إن ما سبق من تقويم ينفي ذلك ويقرر أن لا أحد فوق التقويم ما زال بشراً يعتريه النقص والقصور .

وقوم القرآن كذلك أعمال البيع والشراء وأوجب الإيفاء بها وتحقيق شروطها وضوابطها المطلوبة قال تعالى ﴿ ولا تقربوا ما اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفساً إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون ﴾ [الأنعام: ١٥٢] .

ويقوم المنهج القرآني أعمال الكافرين الذين يظنون بها الخير والإحسان ولو كانت على أساس الكفر قال تعالى ﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً ﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].



ويقول تعالى ﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴾ [الزلزلة: ٧-٨] وقاعدة قبول الأعمال وصحتها هي وحدانية الله والخضوع والاستسلام له في الحياة الدنيا، وتحقق شرط الإخلاص له ، والصواب على أساس كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد يعمل غير الموحد أعمالاً نافعة لنفسه وللناس جميعاً فيجزي بها في حياته جاهاً ومالاً وغيره ، ولكنها لا ترقى أن تكون مقبولة ذات قيمة في ميزان الله الأخرى الذي يوزن الأعمال ويقومها على أساس العبودية لله وحده .

وعموماً فإن النظر إلى مآلات الأفعال وتقويمها وتصويبها على هذا الأساس لهو أمر محترم مقدر في ميزان الشريعة الإسلامية قال الإمام الشاطبي رحمه الله " النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعاً كانت الأفعال موافقة أو مخالفة " .

ولقد ظهر أن التقويم الذاتي من أبرز مجالات التقويم القرآني وأهمها ، فهو نقطة البداية في حياة البشرية كلها ، وهو منطلق من صفة المسؤولية والأمانة التي حملها الإنسان ، يقول تعالى ﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾ [الأحزاب: ٧٢] وأساس التقويم الذاتي وجود نزعتي الخير والشر لدى الإنسان ، قال تعالى ﴿ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها ﴾ [الشمس: ٧-٨] وبذلك كانت النفوس أمارة بالسوء ولوامة ومطمئنة . وقد كان آدم وحواء عليهما السلام أول من قاد لواء التقويم الذاتي ، عندما قوماً نفسيهما بعد الزلّة الأولى والأكل من الشجرة ، قال تعالى ﴿ قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن الخاسرين ﴾ [الأعراف: ٢٣] فقد انطلقا من داخلهما ، ولم يبحثا عن مبرر خارجي يلومانه ويعلقان عليه الخطأ. وبذلك فالتقويم الذاتي بمعنى مراجعة النفس والأعمال فردية كانت أو جماعية يكاد يشكل روح القرآن المكثفة . وقد قوّم يوسف عليه السلام نفسه فقال كما في قول الله تعالى ﴿ قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾ [يوسف: ٥٥].

وقوّم يونس عليه السلام نفسه بعد ما حصل له مع قومه وذهب غاضباً ضيق النفس محزوناً من عدم استجابتهم لدعوته ، قال تعالى ﴿ وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ﴾ [الأنبياء: ٨٧] أنه رجع لذاته وعرف تقصيرها ، فقومها بعد ما امتحنه الله في اليم وظلماته . ثم كان نتيجة ذلك الرجوع والإنابة والاعتراف بالزلّة والتوبة والحفظ والنجاة والإيمان .

وقالها موسى عليه السلام صريحة في تقويم نفسه كذلك عندما قتل القبطي انتصاراً للذي من شيعته على الذي من عدوه ، قال تعالى ﴿ قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم ﴾ [القصص: ١٦].

ونطقت بذلك التقويم الذاتي امرأة العزيز بشأن مرادتها ليوسف عليه السلام ، قال تعالى ﴿ وما أبرئ نفس إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم ﴾ [يوسف: ٥٣] وقومت ملكة سبأ نفسها في قصتها مع سليمان عليه السلام بعد تفاصيل رحلتها معه ، وذلك عندما انبهرت بما لم تعهده من شواهد وعجائب ، قال تعالى ﴿ قالت ربي إني ظلمت نفسي وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين ﴾ [النمل: ٤٤].

وكم يوفر الإنسان على نفسه وعلى الآخرين مؤونة المشاكل والاحتكاكات ، وضياح الأوقات وتعكير العلاقات ، وإشاعة الفتن والظلم والظن والتنايز ، عندما يقوم نفسه ويتعهدا ويعترف بأخطائها ، ويملك زمامها ويكون شجاعاً في لجمها وإظهار نقصها وعيوبها . ومن قاد نفسه كان أقدر على قيادة غيره . ولذلك قيل إن قيادة النفس هي أعظم أنواع القيادات . وكل ذلك ضمن معايير منضبطة متزنة لا تغط النفس حقها ، ولا تركيها بما ليس فيها . فالله يقول ﴿ فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى ﴾ [النجم: ٣٢].

وأظهرت الدراسة أن للتقويم القرآني فوائد وغايات معتبرة ، وأنه غائياً أخلاقياً ، وليس عبثياً لمجرد التجريح والنقد والانتقاص ﴿ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم لا ترجعون ﴾ [المؤمنون: ١١٥] .

فإذا قومت العقائد فذلك لتصحيحها وتصويبها ، وإخراج أهلها من الظلمات إلى النور ، قال تعالى ﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم إله غيره أفلا تتقون ﴾ [الأعراف: ٦٥] فعبادة الله تورث التقوى والاستقامة . وعموماً فإن تقويم الأنبياء والرسول لعقائد أقوامهم وتصويبها يهدف إلى أن تدخل هذه الأقوام في حظيرة الوحدانية ، والإيمان وترك الشرك وتعدد الآلهة والمعبودات ، مما ينتج عنه الاستقامة والتقوى ، والدخول في مقام العبودية ، ونظافة الذات ومن ثم المجتمع بأسره .

وإذا قومت النفس والذات فمن أجل تهذيبها واستقامتها ، قال تعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما أنفسهم ﴾ [الرعد: ١١] ولا يكون تغيير ما بالنفس إلا بعد تقويمها ومعرفة أخطائها لتزكو بعد ذلك وتطهر .

ومراتب النفس في دائرة التقويم أنها أمانة بالسوء في مستواها الأدنى ، ثم هي لومة بعد أن تتضح وتتبنى آلية التقويم والمراقبة ، ثم هي أخيراً مطمئنة بعد أن تملك زمامها وترتقى في سلم الروحانية الغامرة ، والظهر الدائم .

وعندما تقوم الحياة وما فيها ، وينظر لها بميزان الآخرة فإن ذلك يُعرف النفس البشرية بقيمة هذه الحياة ، ومن ثم تتربى على ذلك وتزن بالميزان الصحيح ، قال تعالى ﴿ المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾ [الكهف: ٤٦] .

وعندما يُقومُ الأنبياء في ميدان الأخلاق فذلك للعبرة والاعتداء والتطبيق ، وإثبات صدق الرسالة والمرسلين ، قال تعالى ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ﴾ [مريم: ٤١] وقال ﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً ﴾ وقال: ﴿ واذكر في الكتاب إريس إنه كان صديقاً نبياً ﴾ [مريم: ٥٦] .

وبفيد التقويم عموماً في أخذ الدروس والعبر والعظات وذلك وافر في قصص الأنبياء بشكل خاص ، لذلك قال تعالى ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ [يوسف: ١١١] ومعروف أن جولات القصص القرآني بين أنبياء الله وأقوامهم ما هي إلا جولات تقويمية لمختلف أحوالهم وأفكارهم وأخلاقهم وأديانهم وما إلى ذلك .

وبذلك تظهر قيمة الدروس والعبر المستفادة من ذلك . ولقد قال الله على لسان موسى عليه السلام في إحدى جولاته مع قومه ﴿ قال رب إنني أخاف أن يكذبون ، ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون ﴾ [الشعراء: ١٢-١٣] ولقد ذكر موسى من نفسه صفات بشرية ولم يخفها وهو النبي المؤيد من ربه ، ذكر الخوف ، وضيق الصدر ، وعدم طلاقة اللسان . وإنها لعبرة أن نستفيد من شجاعة هذا النبي وصدقته ووضوحه مع ربه ومع نفسه . والشورى وإشاعة الحوار والحرية هي إحدى نتائج التقويم القرآني وفوائده الجلية ، وقد ظهر ذلك في تقويم القرآن لغزوة أحد ، فبعد أن قومها القرآن بكل تفاصيلها سلباً وإيجاباً ، قال لحبيبه المصطفى صلى الله عليه وسلم ﴿ فيما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنه واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمنا فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

ومن المؤكد أن المعركة ونتائجها أحدثت جواً من الحوار والأخذ والرد والتقويم والنقد ، وذلك عادة ما يعقب الأحداث العظيمة ، والمواقف المزلزلة ، ورغم أن المعركة كانت بعد

مشورة النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه كما هو معروف ، وقد أفضى ذلك إلى ما نعرف من نتيجة المعركة ، إلا أن مبدأ الشورى بقي محترماً ، وتأكد بعد جولات التقويم والحوار والنقد التي تمت ، وذلك لعظم هذا المبدأ في الإسلام وبركته في وسط الجماعة المسلمة . ويفيد التقويم عند تقويم الأشخاص أن يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، ويُفيد التقويم في مجال الإدارة والتخطيط أن يعرف الخلل والقصور ، ومدى تحقيق الأهداف ، ونسبة ذلك من الخطة ، ثم يعمد إلى التحسين والتطوير والتجويد . ويفيد التقويم كذلك في استشراف المستقبل والتخطيط بعيد المدى ، ويورث في مجال نقد الذات والآخرين -بضوابط ومعايير سليمة - إلى إشاعة جو الثقة وتقوية روابط الاخوة ، والتناصح وإراحة النفوس ، وتعويدها على الشجاعة الأدبية ، والاعتراف بالخطأ .

وبرز من خلال الدراسة أيضاً أن التقويم القرآني يأتي على أساليب متنوعة ، وآليات متعددة ، وهو كوسيلة وواسطة لتحقيق هدف معين يستعمل النمط المناسب حسب الحالات والمواقف محل النظر والاهتمام ، وصولاً إلى الهدف المنشود في ما يمكن من مراتب الكمال والعلو .

وقد استخدم العلم الحديث في مجال التقويم الإداري والتربوي وسائل متعددة من مثل : المقابلة والمعاشية والاستبيانات والامتحانات ، والحصر والتحليل والتقارير الميدانية وغيرها ، ونجد أن التقويم القرآني قد استخدم أساليب ووسائل تقويمية متنوعة ومثال ذلك : استخدام أسلوب المعاشية والملاحظة العملية ، وظهر ذلك في موقف الغلامين مع يوسف عليه السلام ، فقد اعتمد تقويمهما له على العيش معه في السجن ، وملاحظة أحواله عن قرب ، قال تعالى ﴿ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾ [يوسف: ٣٦] فطلب الغلامين من يوسف تأويل رؤياهما كان بسبب معاشيته ومعرفة أخلاقه وتقويمه بقولهما إنا نراك من المحسنين . وورد التقويم على شكل ضرب المثل والتشبيه ، وهو أسلوب تكرر في القرآن كثيراً ، ونراه يبعث التفاعل في النفس ، والقناعة في العقل ، ويدل على الرشد والحكمة .

ومن أمثلة ذلك في منهج التقويم القرآني قول الله تعالى ﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبئت سبع سنابل في سنبله مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ [البقرة: ٦١] فقيمة إنفاق المال في سبيل الله ومضاعفة أجره كمثل حبة واحدة تنبت

سبع سنابل على كل منها مائة حبة ، وذلك كله يمكن أن يضاعف أضعافاً مضاعفة . إن ذلك ولا شك يهز النفس ، ويقنع العقل فيتقدم بالبذل عن طيب وارتياح. ويقول تعالى في قيمة أعمال الكافرين: ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجد شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب﴾ [النور: ٣٩] وقال في قيمة الحياة الدنيا ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً﴾ [الكهف: ٤٥] ومثل الذي كفر وانسلخ من آيات الله كمثل الكلب ، قال تعالى ﴿ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض وأتبع هواه فمثل كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وورد التقويم بأسلوب السجل التاريخي لأهل الكتاب والمشركين وتحدث بإحصاء وتتبع دقيق من مثل قول الله تعالى ﴿ولقد أخذنا ميثاق بني إسرائيل وبعثنا منهم اثني عشر نقيباً..﴾ [المائدة: ١٢-١٩] وقصة بني إسرائيل مع موسى عليه السلام ذات مراحل وفصول مبنوثة في القرآن الكريم ، كلها تقوم هؤلاء الناس ، وتبين أخلاقهم بتسجيل تاريخي معبر عميق . وجاء التقويم كذلك على شكل الإحصاء والتقرير الميداني وظهر ذلك في قصة الهدد مع سليمان عليه السلام حين جاء له بتقرير ميداني عن أحوال ملكة سبأ قال تعالى ﴿وجئتك من سبأ بنباً يقين﴾ [النمل: ٢٢] وأخبره بعد ما زارهم واطلع على أحوالهم ، أنهم يعبدون الشمس من دون الله ، وأن امرأة تحكمهم ولها عرش عظيم ، ثم أرسله سليمان ثانية بكتاب قال تعالى ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم إلا تعلوا علي وأتوني مسلمين﴾ [النمل: ٣٠-٣١] إلى آخر القصة وتقريرها النهائي حيث أسلمت الملكة مع سليمان لله رب العالمين. وتظهر دقة الحساب والتقويم في حساب الأمور ومعرفة الأسرار وصغر الأشياء من الله عز وجل كأسلوب من أساليب التقويم في قوله تعالى ﴿وإن كان متقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وظهر أيضاً أن لمنهج التقويم القرآني في حياة الناس معوقات وموانع تقف أمام عدله وشموله ، وموضوعيته ونتائجه . وقد تبين أن من أبرز هذه العوائق وأهمها الظلم ، والهوى والتعصب ، والظن والشك والريبة ، وكذلك المبالغة والتقديس والتقليد . ولا شك أن هذه موانع كثيفة صعبة إذا استولت على النفوس والقلوب نزعت منها كل نظرة سليمة ، وتقويم عادل وبعد نظر وفهم وإدراك .

وما أشد أن يسيطر الهوى وهو " الميل عن الحق " على النفس البشرية فإنه يتملكها ويوردها موارد الهلاك والضلال إلى درجة أن يصبح الهوى إلهاً . قال تعالى ﴿ أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً ﴾ [الفرقان: ٤٣] ولقد وجه الله نبيه وأمره بأن يحكم بين يهود ، ويقوم موافقهم بما أنزل الله عدلاً وحقاً ، ولا يتبع أهوائهم التي يريدون بها غير الحق ، قال تعالى ﴿ فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهوائهم عما جاءك من الحق لكن جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ﴾ [المائدة: ٤٨] وقال سبحانه ﴿ وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهوائهم وأحذرهم يقتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك ﴾ [المائدة: ٤٩] وقد طاش تقويم المشركين وحكمهم على القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم مع معرفتهم التامة بهما ، وكانت أهوائهم وتعصبهم هي السبب في ذلك ، فحسم القرآن المسألة ، قال تعالى ﴿ ولو اتبع الحق أهوائهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ [المؤمنون: ٧١] يقول الإمام القرطبي: " وقيل لو اتبع الحق أهوائهم ، أي بما يهواه الناس ويشتهونه لبطل العالم . لأن شهوات الناس تختلف وتتضاد ، وسبيل الحق أن يكون متبوعاً ، وسبيل الناس الانقياد للحق" . وبذلك فإن التعصب والهوى يمكن أن يبطل آلية الحكم والتقويم ويشل التفكير السليم على مستوى العقل والنفس والمجتمع بأسره ، فتضطرب بذلك الموازين والقيم والأحكام في حياة الناس بكاملها . وكذلك يشكل الظن والريبة والشك عائقاً كبيراً أمام صواب الرأي وسلامة التقويم وتوزين الأشياء ، فهو يكسب النفس البشرية الحيرة والتردد وسوء التقدير لذلك قال الله تعالى ﴿ وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون ﴾ ولقد عاب القرآن على المنافقين والمشركين وهددهم بالعذاب والغضب والسوء ، نتيجة لظنهم السيئ بالله ووجدانيته ، والشك في نصرته للمؤمنين ، قال تعالى ﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء ﴾ [الفتح: ٦] وقال تعالى ﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً ﴾ [الفتح: ١٢] وذلك عندما قوموا الأمور يوم الفتح بمقاييس الكثرة والقلة ، ولم يقوموها بميزان الإيمان ونصر الله عز وجل ، والظن مرض خطير يصيب العلاقات الاجتماعية فيحيلها إلى فتن ومشكلات ، وتقاطع وتدابير لذلك قال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً ﴾ [الحجرات: ١٢] وهو هنا يجعلك تحكم على الناس ، وتقوم أحوالهم بدون علم أو تحقق وتبين ، وذلك ضروري للتقويم السليم والحكم العادل . ووجه القرآن النبي صلى الله عليه وسلم بأن إطاعة أكثر أهل الأرض

ضلال عن سبيل الله ذلك أن ميزانهم للأمر مختل ، وتصورهم للأشياء مشوش ، وهم يتحزرون الأمور ، ويتوقعونها دون دليل، قال تعالى ﴿ وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلى الظن وإن هم إلا يخرصون ﴾ [الأنعام: ١١٦] ويقول كذلك ﴿ وما يبيع أكثرهم إلا ظناً إن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ [يونس: ٣٦] ولذلك فإن استقامة العقائد والتصورات البشرية ونقائنها من الظنون والتخرصات هي أساس الحق وركنه الزكين . والظن والهوى قرينان يحجبان حسن التصور، والتقويم قال تعالى: ﴿ إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ﴾ [النجم: ٢٣] .

إن من أهم أسلحة الرشد والحكمة وحسن الحكم والتقويم لدى الإنسان: حرية الفكر والتبصر ، ونبذ التقليد والتحجر أولاً ، وتوفير الحجة والدليل والمبرر المقنع ثانياً ، والعلم والمعرفة والخبرة ثالثاً ، فإذا خلا رصيد الإنسان وفرغت جعبته من ذلك فإنه سينقاد لظنه ويستسلم لهواه ، فيصل بذلك إلى اعتقاد الخرافات ، وظلم الناس ، واضطراب الحال ، وتلعب بعقله وبصيرته أحابيل الشيطان ، وظنون النفس وتهويماتها .

والظلم وبخس النفس والناس في مكانتهم وحقوقهم مسار كثيف من السوء ، يعطل الحياة ويوغر الصدور ، ويزلزل ميزان الحق والعدل الذي بُنيت عليه السموات والأرض ، وهو بذلك يهز معيار العدل والنظر السليم للأمر ووضعها في نصابها . ولقد نعي القرآن على الظالمين والطاغين والمتجبرين وسرد مصارعهم ونهاياتهم فكانت أسوء ما يكون . وقد كان اتخاذ بني إسرائيل العجل من بعد موسى ظلماً وسوء تقدير قال تعالى ﴿ وإذ اعدنا موسى أربعين ليلة ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون ﴾ وقال تعالى ﴿ وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ﴾ وقال الله عنهم ﴿ كلوا من طيبات ما رزقناكم وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ [البقرة: ٥١، ٥٤، ٥٧] .

ويأتي التقديس والتقليد من أشد عوائق التقويم ومثبطاته ، فتقديس من لا يستحق ، وتقليد الآباء بغير سلطان ، والمبالغة في الزيادة عن الحق ، أمور تشل التقويم والحكم على الأشياء . ولقد بالغ فرعون في مكانة نفسه فادعى الألوهية والقداسة والجبروت ، فحجبه ذلك عن النظر الصحيح والميزان السليم في نفسه وقومه وكل شيء .

قال تعالى ﴿ يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ [غافر: ٣٩] وقال تعالى

• وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ﴿ [القصص: ٣٨] وكانت نتيجة هذه المبالغة والاستكبار والتأله ﴿ فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم ﴿ وتقديس الأشياء والأشخاص وإضفاء صفة الكمال لهم خلل مستكر . وهذا ما يظهر في المجتمعات المعاصرة حيث تربط مصائر الناس والشعوب بمصائر أفراد من البشر لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً ، سوى ما يصنع لهم من دعاية مأكرة وتطويل وتزوير . ولذلك فالميزان الصحيح أن كل شيء خاضع للتقويم والنقد . والقدوس والمقدس هو فقط ما ورد في كتاب الله عن ذاته ، أو ما خص به من أشياء ، قال تعالى ﴿ يسبح الله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم ﴾ وقال ﴿ وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ﴾ [البقرة: ٨٧] وقال ﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم ﴾ [المائدة: ٢١] وقوله ﴿ إني أنا ربك فألعب نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴾ [طه: ١٢] وتقليد الآباء والأجداد بدون علم وبينه يحجب عن الحق وعن تقويم الأمور على حقيقتها ، قال تعالى ﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون ﴾ [المائدة: ١٠٤] .

والتقليد مذموم ومحمود ، مذموم عندما يكون أعمى بلا بصيرة أو تمحيص ، كما قال تعالى ﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ، قالوا إنا وجدنا آباءنا لها عابدين ﴾ [الأنبياء: ٥٢-٥٣] وفي قوله تعالى ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ [لقمان: ٢١] ومحمود عندما يكون تقليداً حسناً واتباعاً مبصراً راشداً كما قال تعالى في ضرورة اتباع النبي وتقليده واتخاذ أسوة حسنة ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ [الحشر: ٧] وقال تعالى : ﴿ قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يُحببكم الله ﴾ [آل عمران: ٣١] وقوله ﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ﴾ [الأحزاب: ٢١] وكثيراً ما يُقعد التقليد الأعمى الممزوج بالتعصب والجهل والهوى الأمم والأفراد عن ركب التطور والازدهار ، ويقتل فيهم ملكات الحضارة والإبداع ، واكتشاف السنن والنواميس . ويظهر من معوقات التقويم كذلك تحاشيه ومجانبته خوفاً من ظهور النتائج السلبية لضعف نفسي ، أو خسارة مادية أو معنوية ، أو للجهل به وبفوائده ، وعدم التدريب والتعود عليه منذ سن الطفولة ، أو القهر والظلم من الجهات المتنفذة عند استعماله والجهل به . وكذلك عدم وجود مناهج تعليمية تربوية تعلمه للأجيال وتنشئها عليه ، ثم تعليق المشاكل والتراجع والقصور على الغير والخارج وعدم



استعمال التقويم الذاتي الذي يشكل حجز الزاوية في الإصلاح ، وتحسين الأحوال وتطويرها والوصول إلى الأهداف المرجوة .

ولقد حاولت في الفصل السادس من البحث أخيراً أن أشير إلى كيفية توظيف هذا المنهج التقويمي القرآني في حياة الأمة مع نفسها ومع غيرها ، فعرضت لبعض الجهود في تحديد هذا المنهج وتبينه وأظهرت قيمة منهج الجرح والتعديل في مدرسة أهل الحديث ورجالها كنوع من أنواع منهجية التقويم الإسلامية في علم من علوم الشريعة وهو علم الحديث والسنة ورجالها ، وما كان هذا ليكون لو لا اهتمام هؤلاء العلماء بشأن الأمة ومصدر تشريعها ، على خلفية حركة الوضع والتدليس التي حصلت للسنة المطهرة في جو سياسي مذهبي معروف . وهذا يشجع بشكل كبير على دراسة منهجية التقويم القرآني وتأصيلها واستخراجها من كتاب الله عز وجل . والمحت إلى جهد العلماء في باب القضاء وعلاقته بمنهج التقويم كجزئية في الحكم بين المتخاصمين وفض نزاعاتهم ، وكذلك التقويم في ميدان الإدارة والقيادة في مفهومها الحديث ومدى أهميته فيها لمعرفة الوصول إلى الأهداف وقياسها . وبينت بعض الجهود المعاصرة في دراسة موضوع التقويم في مجالات مختلفة من مثل دراسة التفكير الموضوعي وعلاقته بالمعايير والموازين الإسلامية في التقويم والحكم ، ومنهجية دراسة التاريخ وتقويمه وعرضت لبعض الكتابات في منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم وكذلك تقويم الآخرين مسلمين وغير مسلمين ، وقد ذكرت هذه الدراسات في مقدمة البحث . وتأكد عندي أن هذه الدراسات قد عالجت الموضوع بصفة ما ولكنها لم تعالجه معالجة شاملة كما قد حاولنا عبر كتاب الله عز وجل . وحاولت إظهار كيفية تربية المسلمين على هذا المنهج فكراً وسلوكاً ، وذلك عبر معالجة معوقاته في حياة الأمة وأبنائها ، وكذلك عن طريق فهمه والافتناع به كخطوة لا بد منها على طريق النهضة المنشودة للأمة المسلمة . وركزت على أن منشأ التقويم والتصحيح هو النفس البشرية أولاً ، ثم ميدان الأخلاق الإسلامية والفهم لواقع الأمة وأمراضها ، ومن ثم التخطيط لذلك بعد وضوح الأهداف والوسائل والمراحل لهذا التغيير وثبت أن التقويم الذاتي هو أهم أنواع التقويم وأعمقها في عملية التغيير ، قال تعالى ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ [الرعد: ٤١١] ولمست شيئاً من تقويم العمل الإسلامي في جانب السلب والإيجاب ،

وأظهرت بعض الجهود المبذولة في ذلك . وظهر أن الأمر يحتاج إلى مزيد من الدراسة والتوازن والشمول في الطرح . وبينت أخيراً ضرورة ارتباط منهج التقويم القرآني بعالمية الإسلام وأنه دين الخلق أجمعين ، وكتبت عن بعض المحاولات في النظرة إلى غير المسلمين ومعالجة بعض القضايا كتقويم العمل مع أهل الكتاب في تقارب الأديان والحوار في ذلك ، ونظرة الإسلام لأهل الكتاب وغير المسلمين ، أو منهجية تقويمهم والعدل معهم ، وإظهار سلبياتهم وإيجابياتهم سواء . ثم أبرزت بعض المفاهيم التي تساعد على فهم العصر وفقهه من أجل إبراز عالمية منهج التقويم القرآني من مثل : فقه الأولويات ، والموازنات ، والمفاسد والمصالح وفقه المفاهيم وغيرها ، وضرورة تقويم ودراسة بعض المفاهيم العالمية لإخضاعها للتقويم القرآني وإصدار رأي تجاهها من مثل : قضية تقارب وحوار الأديان ، ومحاربة الإرهاب ، والعولمة ، وأساليب التغيير المنشود ، ووحدة الأمة وغير ذلك . وتيقنت أن توظيف هذا المنهج بشكل كامل لا يمكن إلا بجهود الجميع منذ سن الطفولة وحتى سن العطاء والإنجاز عن طريق كافة دوائر التأثير ، وفي مختلف مجالات النشاط البشري ، وأن يكون زمام ذلك وأساسه شعار القرآن الكريم ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ﴾ [الإسراء: ٩] وأن يعمل الجميع على هذا الأساس بقناعة وتخطيط وتصويب .

ومن خلال دراستي لهذا الموضوع أستطيع أن أخص أهم النتائج والمقترحات التي توصلت إليها - حسب رأيي المتواضع - بما يلي :

#### (١) نتائج البحث ، وهي :

أ- الموضوع جديد الطرح حديث المعالجة - وحسب إطلاعي - فإني لم أجد من عالجه وبحث فيه بهذه الصورة " منهج التقويم في القرآن الكريم " أو ما شابه ذلك من عناوين.

ب- بحث موضوع التقويم ، وكتبت فيه بعض الدراسات المتخصصة في مجالات محددة ، كتقويم الشخصية ، وتقويم الرجال ومؤلفاتهم ، والنقد الذاتي ، وتقويم التاريخ والعمل الإسلامي ، وتقويم الغير ... الخ . وكانت ولا شك دراسات مفيدة ، ولكنها لا تشكل منهجاً متكاملأ ، كما ناقشناه عبر بحثنا وحاولنا استخلاصه من القرآن الكريم .

ج- وجدت أن المنهج موجود في القرآن الكريم ، وهو شامل عالج كثيراً من المجالات والموضوعات ، وتضمن شروطاً وأهدافاً ، وأساليب ومعوقات .

د- ذكرت كلمة التقويم ومشتقاتها في القرآن الكريم كثيراً ، وكانت أغلب دلالاتها البارزة هي توزيع الشيء وإقامة الأمر ، وتحسينه وتعديله نحو الخير على قاعدة العدل والعلم والشمول والتبَيُّن .

هـ- استنتجت أن رسالات الله التي أرسل بها رسله وأنبياؤه ما هي إلا مناهج تقويم وإصلاح لحياة البشرية ، كلما نذت عن الجادة والطريق والاستقامة ، قومها الله عز وجل عبر هذه الرسالات والكتب ، وكان القرآن خاتم هذه الكتب ، وشعاره كما قال تعالى : ﴿ إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ... ﴾ [الإسراء: ٩]. وأن هذا المنهاج التقويمي القرآني عالمي كما هي رسالته وهدفه ، فقد قوم المسلمين وغير المسلمين ، وكانت معاييرهم عادلة شاملة للجميع .

و- لاحظت أن التزام المسلمين لهذا المنهج التزام ناقص ، مجزؤ مشوش ، على مستوى التنظير والتأصيل ، ومستوى العمل والتطبيق .

ز- تأكدت أن أهم أنواع التقويم هو " التقويم الذاتي " ، وأن النفس البشرية هي مصدر التغيير والتقويم ، لأجل التحسين والتطوير المطلوب ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ .

ح- ثبت لدي أن تقويم الأمور وتشخيصها بمنهجية القرآن هو الأساس الذي لا يمكن تخطيه في مسيرة المشروع الإسلامي الحضاري الكبير .

(٢) مقترحات البحث ، وهي :

(أ) العمل على وضع ما يمكن تسميته " علم أصول التقويم القرآني " من قبل العلماء والمتخصصين في علوم القرآن والإدارة ، وذلك على غرار علم أصول الفقه ، وعلم أصول التفسير ... الخ .

(ب) إجراء دراسات وأبحاث متعمقة أكثر تخصصاً في موضوعات من مثل : منهج التقويم الإداري في القرآن ، منهج التقويم التربوي في القرآن ، منهج التقويم الجهادي في

---

القرآن، منهج التقويم الذاتي في القرآن ، وكذلك العالمي والنفسي ، والاجتماعي والفكري والعقدي وغيرها .

(ج) الاهتمام بتدريس منهج التقويم عبر مناهج الجامعات والمعاهد في البلاد الإسلامية كمادة في علوم الشريعة والإدارة.

(د) يمكن أن تتعدى هذه الاقتراحات في (أ، ب) إلى السنة النبوية ، والسيرة النبوية . هذا ما وفقتني الله إليه ، وهو - ولا شك - جهد المقل ، الراجي من الله القبول والتوفيق ، ثم من أهل العلم والاطلاع النصيحة والتقويم والتسديد . فما كان من إصابة فمن توفيق ربي عز وجل ، وما كان من زلة وخطأ ، فمني ومن الوسواس الخناس . اللهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك . فأنت وحدك الهادي إلى سواء السبيل .

\*\*\*

# الفهارس

- أ) فهرس الآيات الكريمة
- ب) فهرس الأحاديث الشريفة
- ج) فهرس المراجع والمصادر
- د) فهرس الموضوعات

## فهرس الآيات الكرىمات

الصفحة	السورة	رقم الآية	الآية
٣٩، ٣٣، ٢١، ٤، ١	الإسراء	٩	إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم... ﴿
١	الكهف	١٠٩	قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي... ﴿
١٤، ١٣	المائدة	٤٨	لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً... ﴿
١٩، ١٥	النساء	٣٤	الرجال قوامون على النساء... ﴿
٩٨، ٢١، ١٨، ١٥	التين	٤	لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴿
١٥، ١١	البقرة	282	وأقوم للشهادة... ﴿
١٩	البقرة	١٧٧	وأقام الصلاة وأتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴿
١٩	المائدة	٦	وإذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم ﴿
١٩	الأعراف	١٧٠	والذين يُسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة.. ﴿
١٩	النساء	١٠٢	وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة... ﴿
١٩	الكهف	٧٧	فوجدنا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه.. ﴿
١٩	المائدة	٦٦	ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل... ﴿
١٩	المائدة	٦٨	لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل... ﴿
١٩	البقرة	٢٢٩	فإن خفتم ألا يقيما حدود الله... ﴿
١٩	يونس	١٠٥	وأن أقم وجهك للدين حنيفاً... ﴿
١٩	الرحمن	٩	وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان.. ﴿
٥٦، ٣٥، ١٩	النساء	١٣٥	يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ﴿
١٩	البقرة	٢٥٥	الله لا إله إلا هو الحي القيوم... ﴿
٢٠	فصلت	٣٠	إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا... ﴿

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ وألو استقاموا على الطريقة... ﴾	١٦	الجن	٢٠
﴿ قد أجيبب دعوتكما فاستقيما... ﴾	٨٩	يونس	٢٠
﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت... ﴾	١٥	الشورى	٢٠
﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾	٦	الفاحة	٢٠
﴿ والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾	٢١٣	البقرة	٢٠
﴿ وأوفوا الكيل إذا كلنم وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾	٣٥	الإسراء	٢٠، ١٦٦
﴿ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴾	١٨٢	الشعراء	٢٠
﴿ أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أم من يمشي سوياً على صراط مستقيم ﴾	٢٢	الملك	٢٠
﴿ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم... ﴾	٧	التوبة	٢٠
﴿ ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم... ﴾	٣٦	التوبة	٢٠
﴿ أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم... ﴾	٤٠	يوسف	٢٠
﴿ ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾	٣٠	الروم	٢٠
﴿ فأقم وجهك للدين القيم... ﴾	٤٣	الروم	٢٠
﴿ وذلك دين القيمة ﴾	٥	البينة	٢٠
﴿ واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى... ﴾	١٢٥	البقرة	٢٠
﴿ وما منا إلا له مقام معلوم... ﴾	١٦٤	الصفافات	٢٠
﴿ كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ﴾	٢٦	الدخان	٢٠
﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان ﴾	٤٦	الرحمن	٢٠

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ أنا أتيك به قبل أن تقوم من مقامك ... ﴾	٣٩	النمل	٢٠
﴿ الذي أحلنا دار المقامة من فضله ... ﴾	٣٥	فاطر	٢٠
﴿ وما هم بخارجين منها لهم عذاب مقيم .. ﴾	٢١	التوبة	٢٠
﴿ رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي ... ﴾	٤٠	ابراهيم	٢٠
﴿ وإنما لبسبيل مقيم ﴾	٧٦	الحجر	٢٠
﴿ ألا إن الظالمين في عذاب مقيم ﴾	٤٠	الزمر	٢٠
﴿ ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا وسمعنا وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ﴾	٤٦	النساء	٢١
﴿ إن ناشئة الليل هي أشد وطأً وأقوم قبلاً ﴾	٦	المزمل	٢١
﴿ فإله يحكم بينهم يوم القيامة فيما فيه يختلفون ﴾	١١٣	البقرة	٢١
﴿ الله لا إله إلا هو ليجمعنكم إلى يوم القيامة .. ﴾	٨٧	النساء	٢١
﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ... ﴾	٤٧	الأنبياء	٢١
﴿ وأتبعوا في هذه لعنة ويوم القيامة ... ﴾	٦٠	هود	٢١
﴿ وكلكم آتية يوم القيامة فرداً ﴾	٩٥	مريم	٢١
﴿ ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾	١٦	المؤمنون	٢١
﴿ ربنا وأنتا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة ... ﴾	١٩٤	آل عمران	٢١
﴿ أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة ... ﴾	٢٤	الزمر	٢١
﴿ لا أقسم بيوم القيامة ... ﴾	١١	القيامة	٢١
﴿ قل الله يُحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة ... ﴾	٢٦	الجاثية	٢١



الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ قد بينا الايات لقوم يوقنون... ﴾	١١٨	البقرة	٢١
﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾	٨٦	آل عمران	٢١
﴿ فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً ﴾	٧٨	النساء	٢١
﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا... ﴾	٨	المائدة	٣ ، ٢١ ، ٥٢ ، ٣٧٢
﴿ فقطع دابر القوم الذين ظلموا... ﴾	٤٥	الأنعام	٢١
﴿ فكيف آسى على قوم كافرين ﴾	٩٣	الأعراف	٢١
﴿ إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم... ﴾	٣٩	التوبة	١١
﴿ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين ﴾	٧٥	يونس	٢٢
﴿ وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون ﴾	٤٤	الزخرف	٢٢
﴿ .. أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتاً... ﴾	٨٧	يونس	٢٢
﴿ ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق... ﴾	٨٩	الأعراف	٢٢
﴿ هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة... ﴾	١٥	الكهف	٢٢
﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى... ﴾	٧٩	طه	٢٢
﴿ وأحلوا قومهم دار البوار ﴾	٢٨	إبراهيم	٢٢
﴿ فأتت به قومها تحمله... ﴾	٢٧	مريم	٢٢
﴿ ونجيناهم وقومهما من الكرب العظيم ﴾	١١٥	الصافات	٢٢
﴿ وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾	٣٠	الفرقان	٢٢
﴿ قال رب اني دعوت قومي ليلاً ونهاراً... ﴾	٥	نوح	٢٢
﴿ وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم... ﴾	٧٩	الأعراف	١٢ ، ٢٢٤

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ وأبلغكم رسالة ربي وأنصح لكم ... ﴾	٦٢	الأعراف	٢٢، ٢٣٥
﴿ وأبلغكم رسالات ربي وأنا لكم ناصح أمين ﴾	٦٨	الأعراف	٢٢
﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ... ﴾	٧١	الأنفال	٢٣
﴿ وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم .. ﴾	٣٦	الأحزاب	٢٣
﴿ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً ... ﴾	٦٥	النساء	٢٣
﴿ إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما هم فيه يختلفون ﴾	٩٣	يونس	٢٣
﴿ فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون ﴾	٤٧	يونس	٢٣
﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾	١٨	ق	٢٤
﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ... ﴾	٦	الحجرات	٢٤، ٧٣
﴿ بل الإنسان على نفسه بصيره ... ﴾	١٤	القيامة	٢٤
﴿ واعلموا أن الله يعمل ما في أنفسكم فاحذروه .. ﴾	٢٣٥	البقرة	٢٤
﴿ واتقوا يوماً ما ترجعون فيه إلى الله ... ﴾	٢٨١	البقرة	٢٥، ١٩٩
﴿ اجعلني على خزائن الأرض إن حفيظ عليم ﴾	٥٥	يوسف	٢٥
﴿ يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين ﴾	٣٦	القصص	٢٦
﴿ ... وإنك لعلى خلق عظيم ﴾	٤	القلم	٢٦، ٤٤، ٨٧
﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ... ﴾	١٧	المائدة	٢٧
﴿ قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا ... ﴾	٢٣	الأعراف	٢٨، ١٩٩

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾	١٩	الأعراف	٢٨
﴿ ... ألم أنهكما عن تلكما الشجرة ... ﴾	٢٢	الأعراف	٢٨
﴿ لقد أرسلنا رسlnا بالبينات ... إن الله قوي عزيز ﴾	٢٥	الحديد	٣٥١ ، ٥٢ ، ٣٥
﴿ قل أمر ربي بالقسط ... ﴾	٢٩	الأعراف	٣٥
﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ... ﴾	٩٠	النحل	٣٥
﴿ ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ... ﴾	١	الطلاق	٣٥
﴿ لا تشرك بالله إن شرك لظلم عظيم ﴾	١٣	لقمان	٣٥
﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قرى ... ﴾	١٥٢	الأنعام	١٦٤ ، ٣٥
﴿ وأشهدوا ذوي عدل منكم ... ﴾	٢	الطلاق	٣٥
﴿ وإذا حكتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ... ﴾	٥٨	النساء	٥٥ ، ٥٢ ، ٣٥ ، ٣٨
﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ... ﴾	٨	المتحنة	٣٥
﴿ وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ... ﴾	١٩٠	البقرة	٣٥
﴿ ولا يكلف الله نفساً إلى وسعها ... ﴾	٢٨٦	البقرة	٦٠ ، ٣٦
﴿ وليكتب بينكم كاتب بالعدل ... ﴾	٢٨٢	البقرة	٣٧
﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ... ﴾	٥٨	النساء	٥٥ ، ٥٢ ، ٣٨
﴿ يسألونك عن الخمر والميسر ... ﴾	٢١٩	البقرة	٣٦١ ، ٤٤ ، ٤٣
﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى، وما يدريك لعله يزكى ... ﴾	٣-١	عبس	٦٣ ، ٤٤ ، ٢٩
﴿ لما بلغ أشده واستوى أتيناها حكماً وعلماً ... ﴾	١٤	القصص	٤٥

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ قال رب اني ظلمت نفسي فاغفر لي ... للمجرمين ﴾	١٦-١٧	القصص	٤٥، ٢٠٨، ٣٢٠
﴿ ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ... ﴾	٧٥	آل عمران	٤٧، ٤٨، ٣٦١
﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة ... ﴾	١١٣	آل عمران	٤٨
﴿ وإن منهم لفريقاً يلوون ألسنتهم بالكتاب ... ﴾	٧٨	آل عمران	٣٧
﴿ قل لا يستوي الخبيث ولا الطيب ... ﴾	١٠٠	المائدة	٤٩
﴿ أم حسب الذين اجترحوا السيئات ... ﴾	٢١	الجمعة	٥٣
﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام ... ﴾	١٩	التوبة	٥٤
﴿ لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ... ﴾	١٠	الحديد	٥٤
﴿ وكنتم أزواجا ثلاثة ... أولئك المقربون ﴾	٧-١١	الواقعة	٥٤
﴿ وكذلك جعلناكم أمة وسطا ... ﴾	١٢٣	البقرة	٥٥
﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط .. ﴾	٨	المائدة	٥٧، ٤١٨
﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ... ﴾	١٥٢	الأنعام	٥٩، ١٦٤
﴿ قل أغير الله أبغي ربا ... فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون ﴾	١٦٤	الأنعام	٥٩
﴿ ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غدا ... ﴾	٢٣-٢٤	الكهف	٦٢، ٦٦
﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ... ﴾	٥٢	الأنعام	٦٣
﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ... وماتوا وهم فاسقون ﴾	٨٤	التوبة	٦٣، ٦٦
﴿ ما كان لنبي أن يكون له أسرى ... والله عزيز حكيم ﴾	٦٧	الأنفال	٦٣
﴿ عفا الله عنك لما أذنت لهم ... وتعلم الكاذبين ﴾	٤٣	التوبة	٦٧، ٦٣
﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم ... له عذاب عظيم ﴾	١١	التوبة	٦٣

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿وإذ تقول لنذي أنعم الله عليه... وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾	٣٧-٣٨	الأحزاب	٦٥
﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء...﴾	١	المتحنة	٦٨
﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم... وأنتم لا تشعرون﴾	٢	الحجرات	٦٩
﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا... خبيراً﴾	٩٤	النساء	٧٢
﴿وتفقد الطير فقال ما لي لا أرى الهدد أم كان من الغائبين لأعذبه عذاباً شديداً... فانظر ما ذا يرجعون﴾	٢٠-٢٧	النمل	٣٤٥، ٧٥
﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها... وأعلم ما تبذون وما كنتم تكتمون﴾	٣٠-٣٣	البقرة	٧٩
﴿ونادى نوح ربه قال رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق... فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾	٤٥-٤٩	هود	٣٨٧، ٨٠
﴿يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده... وما كان من المشركين﴾	٦٥-٦٧	آل عمران	٨١
﴿وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف... لا تتبعم الشيطان إلا قليلاً...﴾	٨٣	النساء	٨١
﴿ولا تقف ما ليس لك به علم... فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً﴾	٣٦-٣٩	الإسراء	١٦٦، ٨٣
﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لآعين... إنا كنا﴾	١٦-١٧	الأنبياء	٧٢

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
فاعلين ﴿			
﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ... إن الله تواب رحيم ﴿	١٢	الحجرات	٧٢
﴿ ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ... ﴿	١٥٩	آل عمران	٧٤
﴿ أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين ﴿	١٤٢	آل عمران	٧٤
﴿ اذهب أنت وأخوك ولا تنيا في ذكري ... إني معكما أسمع وأرى ﴿	٥٦-٤٢	طه	٨٩
﴿ هل أتى على الإنسان حين من الدهر ... أما شاكراً أو إما كفوراً ﴿	٣-١	الإنسان	٨١
﴿ قتل الإنسان ما أكفره ... كلا لما يقض ما أمره ﴿	٢٣-١٧	عبس	٨٣
﴿ بل الإنسان على نفسه بصيرة ، ولو ألقى معاذيره ﴿	١٥-١٤	القيامة	١٨٩ ، ١٨٦ ، ٨٤
﴿ فينظر الإنسان مما خلق ... فما له من قوة ولا ناصر ﴿	١٠-٥	الطارق	٨٤
﴿ ثم رددناه أسفل سافلين ﴿	٥	التين	٨٧ ، ٨٥
﴿ إن الإنسان لربه لكنود ... وإنه لحب الخير لشديد ﴿	٧-٦	العاديات	٨٧
﴿ ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة... أولئك لهم مغفرة ورزق كريم ﴿	١١-٩	هود	٨٨
﴿ وإذا مس الإنسان الضر ... ما كانوا يعملون ﴿	١٢	يونس	٨٨
﴿ وأنكم من كل ما سألتموه ... إن الإنسان لظلوم كفار ﴿	٣٤	إبراهيم	١٠٢
﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴿	٤	النحل	١٠٨ ، ١٠٣
﴿ ويدعو الإنسان بالشر دعاءه بالخير ، وكان الإنسان عجولاً ﴿	١١	الإسراء	١٠٥

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ وإذا مسكم الضر في البحر ... وكان الإنسان كفوراً ﴾	٦٧	الإسراء	١٠٦
﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ... وإذا مسه الشر كان يؤوساً ﴾	٨٣	الإسراء	١٠٧
﴿ قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربي .. وكان الإنسان قتوراً ... ﴾	١٠٠	الإسراء	١٠٧
﴿ خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين ... ﴾	٤	النحل	١٠٨
﴿ إنا عرضنا الأمانة على السموات ... إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾	٧٢	الأحزاب	١٠٨
﴿ يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾	٢٨	النساء	١٠٩
﴿ والعصر إن الإنسان لفي خسر ... وتواصوا بالصبر ﴾	٣-١	العصر	١١٠
﴿ إن الإنسان خلق هلوعاً ... وإما مسه الخير كان منوعاً ﴾	٢١-١٩	المعارج	١١٠
﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ... وأن إلى ربك المنتهى ﴾	٤٢-٣٩	التجم	١١٠
﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ﴾	٧٧	يس	١١١
﴿ والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع ... لقوم يتفكرون ﴾	٩-٥	النحل	١١٠
﴿ وأوحى إلى النحل أن اتخذي .. لقوم يتفكرون ... ﴾	٦٩-٦٨	النحل	١١٣
﴿ حتى إذا أتوا على واد النمل قالت نملة ... فهم لا يهتدون ﴾	٢٤-١٨	النمل	٢٨٧ ، ١١٣
﴿ واقصد في مشيك ... أن أنكر الأصوات لصوت الحمير ﴾	١٩	لقمان	١١٤
﴿ مثل الذين حملوا التوراة ... والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾	٥	الجمعة	١١٦
﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾	٥٦	الذاريات	١١٨

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة استجدوا لآدم ... وخلقته من طين ﴾	١٢ - ١١	الأعراف	٢١٨ ، ١١٨
﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان ... للذين لا يعقلون ﴾	٢٧	الأعراف	١١٩
﴿ فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة ... أنهم مهتدون ﴾	٣٠	الأعراف	١١٩
﴿ ولقد ذرأنا لجهنم ... أولئك هم الغافلون ﴾	١٧٩	الأعراف	١٢٠
﴿ قل أعوذ برب الناس ... من الجنة والناس ﴾	٦ - ١	الناس	١٢٠
﴿ قل أوحى إلي أنه استمع نفر من الجن ... وأحصى كل شيء عدداً ﴾	٢٨ - ١	الجن	١٢١
﴿ إن الشيطان لكم عدو ... من أصحاب الجحيم ﴾	٦	فاطر	١٢٢
﴿ قال عفريت من الجن أنا أتيتك به... فإن ربي غني كريم ﴾	٤٠ - ٣٩	النحل	١٢٢
﴿ فلما قضينا عليه الموت ... ما لبثوا في العذاب المهين ﴾	١٤	سبا	١٢٣
﴿ خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجان من مارج من نار ﴾	١٥ - ١٤	الرحمن	١٢٣
﴿ من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ... فلا يؤمنون إلا قليلاً ﴾	٤٦	النساء	١٢٥
﴿ إن الله لا يغفر أن يشرك به ... فقد افترى إثماً عظيماً ﴾	٤٨	النساء	١٢٥
﴿ ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب ... من الذين آمنوا سبيلاً ﴾	٥١	النساء	١٢٦
﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ... وإليه المصير ﴾	١٨ - ١٧	المائدة	١٢٦



الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم ... ثم انظر أنا يؤفكون ﴾	٧٥ - ٧٢	المائدة	١٢٧
﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود ... فاكذبنا مع الشاهدين ﴾	٨٣-٨٢	المائدة	١٢٧
﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ... وكفى بالله وكيلاً ﴾	١٧١	النساء	١٢٧
﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك ... أولئك أصحاب الجحيم ﴾	٦٨-٦٧	المائدة	١٢٨
﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه أذر ... إن ربك حكيم عليم ﴾	٨٣-٧٤	الأنعام	١٣٣
﴿ أولئك الذين هدى الله ... إن هو إلا ذكرى للعالمين ﴾	٩٠	الأنعام	١٣٥
﴿ ودخل معه السجن فتيان ... قضى الأمر الذي فيه تستفتيان ﴾	٤١-٣٦	يوسف	١٣٦
﴿ ولقد آتينا إبراهيم رشده ... فجعلناهم الأخسرين ﴾	٧٠-٥١	الأنبياء	١٤٠
﴿ أفرايتم اللات والعزى ... وهو أعلم بمن اهتدى ﴾	٣٠-١٩	النجم	١٤٣
﴿ وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم ... ﴾	١١٩	الأنعام	١٤٥
﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله ... ولكن المنافقين لا يعلمون ﴾	٨-١	المنافقون	١٤٥، ٣٤٥، ٣٩٦
﴿ يسألونك عن الأنفال ... إن كنتم مؤمنين ﴾	١	الأنفال	١٥١
﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق ... ويقطع دابر الكافرين ﴾	٧-٥	الأنفال	١٥١
﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً ... إن الله سميع عليم ﴾	١٧-١٥	الأنفال	١٥١

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه ... إن الله غفور رحيم ﴾	١٥٢- ١٥٥	آل عمران	٣٥٢، ١٥٥ ٣٦٤
﴿ أو لما أصابتكم مصيبة ... وليعلم المؤمنين ﴾	١٦٦-١٦٥	آل عمران	٣٦٤، ١٥٥ ٣٦٥
﴿ الذين استجابوا لله والرسول ... إن كنتم مؤمنين ﴾	١٧٢- ١٧٥	آل عمران	١٥٥
﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ... إن يريدون إلا فراراً ﴾	١٣-٩	الأحزاب	١٦١
﴿ لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ... كان الله على شيء قديراً ﴾	٢٧-٢١	الأحزاب	١٦١
﴿ وإلى مدین أخاهم شعبياً ... عليه توكلت وإليه أنيب ﴾	٨٨-٨٤	هود	٣٨٩، ١٦٥
﴿ والسماء رفعها ووضع الميزان ... ولا تخسر الميزان ﴾	٩-٧	الرحمن	١٦٧
﴿ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ... لرب العالمين ﴾	٦-١	المطففين	١٦٨
﴿ وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ... فإنه غفور رحيم ﴾	٥٤	الأنعام	١٧٦، ١٧٠
﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ... وما ربك بظلام للعبيد ﴾	٤٦	فصلت	١٧٠
﴿ يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ... الله رؤوف بالعباد ﴾	٣٠	آل عمران	١٧٥، ١٧٠
﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب ﴾	٢٩	الرعد	١٧٠

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ﴾	٣	الكهف	١٧٠
﴿ قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً... لا يبغون عنها حولاً ﴾	١٠٣- ١٠٨	الكهف	١٧١، ١٨١، ٤٠٢
﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم... إن الله غفور رحيم ﴾	١٠٢	التوبة	١٧١
﴿ تبارك الذي بيده الملك... وهو العزيز الغفور ﴾	٢-١	الملك	١٧١
﴿ لنن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ﴾	٦٥	الزمر	١٧١
﴿ وقال الذين كذبوا اتبعوا لو أن لنا كرة... من النار ﴾	١٦٧	البقرة	١٧١، ١٧٣
﴿ والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة... إلا ما كانوا يعملون ﴾	١٤٧	الأعراف	١٧١
﴿ كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة... وأولئك هم الخاسرون ﴾	٦٩	التوبة	١٧١
﴿ وإن كلا ليوفينهم ربك أعمالهم إنه بما يعملون خبير ﴾	١١١	هود	١٧١
﴿ والذين كفروا فتعسأ لهم... فأحبط أعمالهم ﴾	٩-٨	محمد	١٧١، ١٨٥
﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب... والله سريع الحساب ﴾	٣٩	النور	١٧١، ١٨٤
﴿ وجوه يومئذ خاشعة، عاملة ناصبة، تصلى ناراً حامية ﴾	٤-١	الغاشية	١٧١، ١٨٧
﴿ يومئذ يصدر الناس أشتاتاً... شراً يره ﴾	٨-٦	الزلزلة	١٧١، ١٨٨
﴿ إن الذين يكفرون بآيات الله... وماله من ناصرين ﴾	٢٢-٢١	آل عمران	١٧٢، ١٧٤
﴿ أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام... وأولئك هم الفائزون ﴾	٢٠-١٩	التوبة	١٧٢

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ وجاءوا على قميصه بدم كذب ... والله المستعان على ما تصفون ﴾	١٨	يوسف	١٧٢
﴿ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر ... إنك كنت من الخاطئين ﴾	٢٩-٢٥	يوسف	١٧٢
﴿ ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق ... وساء سبيلاً ﴾	٣٢-٣١	الإسراء	١٧٨، ١٧٢
﴿ وما تكون في شأن وما تتلو فيه من قرآن ... إلا في كتاب مبين ﴾	٦١	يونس	١٧٢
﴿ مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد ... ذلك هو الضلال البعيد ﴾	١٨	إبراهيم	١٧٢، ١٧١، ١٧٧
﴿ قال فإن اتبعنتي فلا تسألني ... ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً ﴾	٨٢-٧٠	الكهف	١٧٣، ١٧٩، ٣٩٤
﴿ إنه من يأتي ربه مجرمًا ... وذلك جزاء من تزكى ﴾	٧٦-٧٤	طه	١٧٣
﴿ حتى إذا جاء أحدكم الموت ... وهم فيها كالحون ﴾	١٠٤-٩٩	المؤمنون	١٧٣، ١٨٢
﴿ ولا تطرد الذين يدعون ربهم ... فتطردهم فتكون من الظالمين ﴾	٥٢	الأنعام	١٧٦
﴿ ما كان للمشركين أن يعمرُوا مساجد الله ... وأولئك هم الفائزون ﴾	٢٠-١٧	التوبة	١٧٧
﴿ قال فإن اتبعنتي فلا تسألني عن شيء .. ما لم تسطع عليه صبراً ... ﴾	٨٢-٧٠	الكهف	١٧٩

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ لقد كان في قصصهم عبرة ... ورحمة لقوم يؤمنون ﴾	١١١	يوسف	٢٤٩ ، ٢٤٨ ، ١٨٠
﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت .. أنهم هم الفائزون ﴾	١١١-٩٩	المؤمنون	١٨٢
﴿ وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب .. مالكم من زوال ﴾	٤٤	إبراهيم	١٨٣
﴿ يوم تأتي تأويله يقول الذين نسوه ... ﴾	٥٣	الأعراف	١٨٣
﴿ ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم ... إنا موقنون ﴾	١٢	السجدة	١٨٣
﴿ وترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل إلى مرد من سبيل ﴾	٤٤	الشورى	١٨٣
﴿ وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً ... من نصير ﴾	٣٧	فاطر	١٨٣
﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ... فأصدق وأكن من الصالحين ﴾	١٠	المنافقون	١٨٣
﴿ والذين كفورا أعمالهم كسراب .. فما له من نور ﴾	٤٠-٣٩	النور	١٨٤
﴿ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم .. ولن يترك أعمالكم ﴾	٣٥-١	محمد	١٨٥
﴿ فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ... فلن يضل أعمالهم ﴾	٤	محمد	١٧١
﴿ ووجوه يومئذ ناعمة ... في جنة عالية ﴾	١٠-١	الغاشية	١٨٧
﴿ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره .. شراً يره .. ﴾	٧-٦	الزلزلة	١٨٨
﴿ اهبطوا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو ... ﴾	٣٦	البقرة	١٩١
﴿ إنا عرضنا الأمانة ... إنه كان ظلوماً جهولاً ﴾	٢٧	الأحزاب	١٩٥

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
* فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام *	١١	الرحمن	١٩٦
* ذواتا أفنان *	٤٨	الرحمن	١٩٦
* إرم ذات العماد *	٧	الفجر	١٩٦
* قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا .. لنكونن من الخاسرين.. *	٢٣	الأعراف	٣٢٠
* قال ما خطبكن إذ روادتن يوسف عن نفسه ... وإنه لمن الصادقين *	٥١	يوسف	٢١٢
* وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء ... إن ربي غفور رحيم *	٥٣	يوسف	٤٠٢، ٢١٢
* قال رب إنني أخاف أن يكذبون ... فأرسل إلى هارون *	١٢-١٣	الشعراء	٢٠٥
* قيل لها ادخلي الصرح فلما رأته حسبتك لجة .. الله رب العالمين *	٤٤	النحل	٣٢٠ ، ٢٨٨
* قال رب إنني قتلت منهم نفساً ... إنني أخاف أن يكذبون *	٣٣-٣٤	القصص	٢٠٧
* إنا بلوناهم .. لو كانوا يعملون *	١٧-٣٣	القلم	٢١٥
* والذين إذا فعلوا فاحشة ... ونعم أجر العاملين *	٣٥-٣٦	آل عمران	١٩٧
* والله نور السموات والأرض ... والله بكل شيء عليم *	٣٥	النور	١٩٩
* وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ... إنني آمنت بربكم فاسمعون *	٢٠-٢٥	يس	٢٠١
* قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا ... إن أنتم إلا تكذبون *	١٥	يس	٢٠١
* قالوا طائركم معكم أنن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون *	١٩	يس	٢٠١

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾	٢٦-٢٧	يس	٢٠١
﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتَنْتَنِي بِهِ اسْتَخْلَصَهُ لِنَفْسِي ... مَكِينٌ أَمِينٌ ﴾	٥٤	يوسف	٢٠٢
﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ... ﴾	٥٥	يوسف	٢٠٢
﴿ وَلَا تَزَكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى .. ﴾	٣٢	النجم	٢٠٢
﴿ وَذَا النُّورِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾	٨٧-٨٨	يونس	٢٠٤
﴿ ... وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاخْشَوْهُ ... ﴾	٢٣٥	البقرة	٢٠٤
﴿ إِنْ الَّذِينَ تَقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنْ ذِكْرِكُمْ فَاذْهَبُوا فَتَرَاهُمْ يُبْصِرُونَ ﴾	٢٠١	الأعراف	٢٠٨
﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ كُلِّيًا ... وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾	٢١-٢٢	إبراهيم	٢١٠
﴿ قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا ... إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾	٤١-٤٣	النمل	٢١٤
﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ... وَغَدُوا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴾	١٧-٢٣	القلم	٢١٥
﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ... وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾	١٣٠	الأنعام	٢١٦
﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ... فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴾	٤٠-٤١	النازعات	٢١٨
﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ .. إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾	١٢-١٣	الأعراف	٢١٨
﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ ... ﴾	٢٥	التوبة	٢١٩
﴿ وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾	١٠٤	الكهف	٢١٩
﴿ وَلَنْ اتَّبَعَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ... وَلَا نَصِيرٌ ﴾	١٢٠	البقرة	٢٢١

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ إن الله لا يُغير ما قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ... ﴾	١١	الرعد	٢٢٣
﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ... لو كنتم تعلمون ﴾	٤-١	نوح	٢٣٠
﴿ وإلى عاد أخاهم هوداً ... وما كانوا مؤمنين ﴾	٧٢-٦٥	الأعراف	٢٤٨ ، ٢٣٢
﴿ واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف ... وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾	٢٦-٢١	الأحقاف	٢٣٤
﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحاً ... ولكن لا تحبون الناصحين ﴾	٧٩-٧٣	الأعراف	٢٣٥
﴿ ونفس وما سواها ... وقد خاب من دستاها ﴾	١٠-٧	الشمس	٢٣٩
﴿ أ فحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون ﴾	١١٥	المؤمنون	٢٤٠
﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم ... كان عنه مستولاً ﴾	٣٦	الإسراء	٢٤٠
﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا ... وخيراً أملاً ﴾	٤٦-٤٥	الكهف	٢٤١
﴿ وإذ أخذ ربك من بني آدم ... بما فعل المبطلون ﴾	-١٧٢ ١٧٣	الأعراف	٢٤٢
﴿ الله يعلم ما تحمل كل أنثى ... وسارب بالنهار ﴾	١٠-٨	الرعد	٢٤٢
﴿ فلما تراءى الجمعان ... ثم أغرقنا الآخرين ﴾	٦٦-٦١	الشعراء	٢٤٣
﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾	١٠٥	التوبة	٢٤٣
﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ﴾	٤١	مريم	٢٤٩ ، ٢٤٤
﴿ واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولاً نبياً ﴾	٥١	مريم	٢٤٤
﴿ واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً ﴾	٥٤	مريم	٢٤٤



الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ... ومن يفعل ذلك يلق أثاماً ﴾	٦٧-٦٢	الفرقان	٢٤٤
﴿ والذين لا يشهدون الزور ... لم يخرؤا عليها صماً وعمياناً ﴾	٧٣-٧٢	الفرقان	٢٤٥
﴿ أولئك يجزون الغرفة ... حسنت مستقراً ومقاماً ﴾	٧٦-٧٥	الفرقان	٢٤٥
﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً ... عند ربك مكروها ﴾	٢٨-٢٧	الإسراء	٢٤٥
﴿ أم تحسب أن أكثرهم يسمعون ... بل هم أضل سبيلاً ﴾	٤٤	الفرقان	٢٤٦
﴿ فاعتبروا يا أولي الأبصار ﴾	٢	الحشر	٢٥٤ ، ٢٤٨
﴿ قد كانت لكم آية في فنتين التقتا ... لأولى الأبصار ﴾	١٣	آل عمران	٢٤٨
﴿ وانكر في الكتاب إبراهيم ... عسى ألا أكون بدعاء ربي شقياً ﴾	٤٨-٤١	مريم	٢٤٩
﴿ وإذ نادى ربك موسى ... وما كان أكثرهم مؤمنين ﴾	٦٧-١٠	الشعراء	٢٥١
﴿ هو الذي أخرج الذين كفروا .. فاعتبروا يا أولى الأبصار ﴾	٢	الحشر	٢٥٤
﴿ فيما رحمة من الله لنت لهم ... إن الله يحب المتوكلين ﴾	١٥٩	آل عمران	٢٥٨
﴿ ودخل معه السجن فتيان ... إنا نراك من المحسنين ﴾	٣٦	يوسف	٢٦٤
﴿ وإذ قال موسى لقومه ... وما الله بغافل عما تعلمون ﴾	٧٤-٦٧	البقرة	١٦٦
﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن ... وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾	٥٤	الكهف	٢٦٨

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾	٥٣	العنكبوت	٢٦٨
﴿ أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ... إن الله على كل شيء قدير ﴾	٢٠-١٧	البقرة	٢٦٨
﴿ وإن مثل عيسى عند الله كمثل آدم ... فلا تكونن من الممترين ﴾	٦٠-٥٩	آل عمران	٢٧٠
﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ... والله واسع عليم ﴾	٦١	البقرة	٢٧١
﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ... الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾	٢٦٥	البقرة	٢٧١
﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم ... الله لا يهدي القوم الكافرين ﴾	٢٦٤	البقرة	٢٧٢
﴿ واتل عليهم نبأ الذي آتينا ... وأنفسهم كانوا ظالمين ﴾	١٧٧-١٧٥	الأعراف	٢٧٣
﴿ فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الأرض ... إلى صراط مستقيم ﴾	٢٥-٢٣	يونس	٢٧٤
﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ... وهم بالآخرة هم كافرون ﴾	١٩-١٨	هود	٢٧٥
﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات واخبتوا ... هم فيها خالدون ﴾	٢٣	هود	٢٧٥
﴿ مثل الفريقين كالأعمى والأصم ... أفلا يذكرون ﴾	٢٤	هود	٢٧٥
﴿ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً ... ويفعل الله ما يشاء ﴾	٢٧-٢٤	إبراهيم	٢٧٦

الصفحة	السورة	رقم الآية	الآية
٢٦٦	النحل	٧٥-٧٦	﴿ ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً... وهو على صراط مستقيم ﴾
٢٧٧	الكهف	٤٥	﴿ واضرب لهم مثل الحياة الدنيا... وكان الله على شيء مقتدراً ﴾
٢٧٧	النور	٣٥	﴿ الله نور السموات والأرض... والله بكل شيء عليم ﴾
٢٧٧	النور	٣٩-٤٠	﴿ والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة... فما له من نور ﴾
٢٧٧	المدثر	٤٩-٥١	﴿ فما لهم عن التذكرة معرضين... فرت من قسورة ﴾
٢٨١	المائدة	١٢-١٩	﴿ ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل... والله على كل شيء قدير ﴾
٢٨٢	آل عمران	١١١-١١٥	﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس... والله على كل عليم بالمتقين ﴾
٢٨٣	المدثر	١١-٢٦	﴿ ذرني ومن خلقت وحيداً... سأصليه سقر ﴾
٢٨٥	الأحزاب	١٢-١٩	﴿ وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض... وكان ذلك على الله يسيراً ﴾
٢٨٧	النمل	٢٢-٢٤	﴿ فمكث غير بعيد.. فهم لا يهتدون ﴾
٢٨٨ ، ٣٤٥	النمل	٢٧-٢٨	﴿ قال سننظر أصدقت... فانظر ماذا يرجعون ﴾
٢٨٨ ، ٣٢٠	النمل	٤٤	﴿ قالت ربي اني .. رب العالمين ﴾
٢٨٨	الرعد	١٨	﴿ أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد ﴾
٢٨٨	الزمر	١٠	﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾
٢٨٨	الأنعام	٦٢	﴿ ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين ﴾

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ وإن كان مثقال حبة من خردل ... وكفى بنا حاسبين ﴾	٤٧	الأنبياء	٢٨٨
﴿ لقد أحصاهم وعدهم عدداً ﴾	٩٤	مريم	٢٨٩
﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ... ولا هم يحزنون ﴾	٤٨	الأنعام	٢٨٩
﴿ قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ... أفلا تتكفرون ﴾	٥٠	الأنعام	٢٨٩
﴿ وعنده مفاتيح الغيب ... وهو أسرع الحاسبين ﴾	٦٢-٥٩	الأنعام	٢٨٩
﴿ إن كل من السموات والأرض ... وكلهم آتية يوم القيامة فرداً ﴾	٩٥-٩٣	مريم	٢٩٠
﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ... وأحصى كل شيء عدداً ﴾	٢٨-٢٦	الجن	٢٩٠
﴿ وأنزلنا إليك الكتاب بالحق ... ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون ﴾	٥٠-٤٨	المائدة	٢٩٧
﴿ ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى ... ولا نصير ﴾	١٢٠	البقرة	٢٩٨
﴿ قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله ... وهو خير الفاصلين ﴾	٥٧-٥٦	الأنعام	٢٩٩
﴿ إن الساعة آتية أكاد أخفيها ... واتبع هواه فتردى ﴾	١٦-١٥	طه	٣٠٠
﴿ أفلم يدبروا القول ... فهم عند ذكرهم معرضون ﴾	٧١-٦٨	المؤمنون	٣٠٠
﴿ ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون ﴾	١٨	الجاثية	٣٠١
﴿ أفرأيت من اتخذ إليه هواه ... أفلا تذكرون ﴾	٢٣	الجاثية	٣٠١

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ وعاداً وثمود وأصحاب الرس وقروناً بين ذلك كثيراً ﴾	٣٨	الفرقان	٣٠٢
﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً ... بل هم أضل سبيلاً ﴾	٤٤-٤١	الفرقان	٣٠٢
﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط... بما تعملون ﴾	١٣٥	النساء	٣٠٣، ٣٦١، ٤١١
﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ... أم نجعل المتقين كالفجار ﴾	٢٨-٢١	ص	٣٠٥، ٣٦١، ٤٠١
﴿ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم ... ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾	٣٠-٢٨	الروم	٣٠٨
﴿ ويعذب المنافقين والمنافقات ... وساعت مصيراً ﴾	٦	الفتح	٣١٢
﴿ بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول ... وكنتم قوماً بوراً ﴾	١٢	الفتح	٣١٢
﴿ يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ... إن الله تواب رحيم ﴾	١٢	الحجرات	٣١٣
﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ... وإن هم إلا يخرصون ﴾	١١٦-١١٥	الأنعام	٣١٤
﴿ قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ... إن الله عليم بما يفعلون ﴾	٣٦-٣٤	يونس	٣١٥
﴿ إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ... ولقد جاءهم من ربهم الهدى ﴾	٢٣	النجم	٣١٦
﴿ ما لهم به من علم ... وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾	٢٨	النجم	٣١٦
﴿ ولقد جاءكم يوسف بالبينات .. على كل قلب متكبر جبار ﴾	٣٥-٣٤	غافر	٣١٧

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ... وإنهم لفي شك منه مريب ﴾	٤٥	فصلت	٣١٨
﴿ يا أيها الناس إن كنتم في شك من ديني .. من المؤمنين ﴾	١٠٤	يونس	٣١٨
﴿ ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم ... مما تدعونا إليه مريب ﴾	٩	إبراهيم	٣١٨
﴿ وحيل بينهم وبين ما يشتهون ... إنهم كانوا في شك مريب ﴾	٥٤	سبا	٣١٨
﴿ وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة ... وأنتم ظالمون ﴾	٥١	البقرة	٣٢١
﴿ وإذ قال موسى لقومه ... إنه هو التواب الرحيم ﴾	٥٤	البقرة	٣٢١
﴿ وظللنا عليكم الغمام ... ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾	٥٧	البقرة	٣٢١
﴿ وإذ قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله ... عنك صدوداً ﴾	٦١	النساء	٣٢٢
﴿ وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ... لوجدوا الله تواباً رحيماً ﴾	٦٤	النساء	٣٢٢
﴿ فلا وربك لا يؤمنون ... ويسلموا تسليماً ﴾	٦٥	النساء	٣٢٢
﴿ وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري ... وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون ﴾	٣٨-٣٩	القصص	٣٢٧
﴿ يا قوم لكم الملك اليوم .. إلا سبيل الرشاد ﴾	٣٩	غافر	٣٢٧
﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ... قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾	٣٠	البقرة	٣٣٠، ٣٥٠
﴿ ولقد آتينا موسى الكتاب ... ففريقاً كذبتهم وفريقاً تقتلون ﴾	٨٧	البقرة	٣٣٠
﴿ تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض ... ولكن الله يفعل ما يريد ﴾	٢٥٣	البقرة	٣٣٠

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك ... ﴾	١١٠	المائدة	٣٣٠
﴿ قل أنزله روح القدس ... وهدى وبشرى للمسلمين ﴾	١٠٢	النحل	٣٣٠
﴿ يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة ... فتقلبوا خاسرين ﴾	٢١	المائدة	٣٣٠
﴿ إني أنا ربك فاخضع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴾	١٢	طه	٣٣٠
﴿ هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس ... سبحانه الله عما يشركون ﴾	٢٣	الحشر	٣٣١
﴿ إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى ﴾	١٦	النازعات	٣٣١
﴿ يسبح الله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزیز الحكيم ﴾	١	الجمعة	٣٣١
﴿ ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ... ﴾	٢٧	الشورى	٣٣١
﴿ وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله ... ولا يهتدون ﴾	١٠٤	المائدة	٣٣٢، ٤٠١
﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ... ما لا تعلمون ﴾	٢٨	الأعراف	٣٣٢
﴿ قالوا أجنبتنا لتفتتنا عما وجدنا عليه آباءنا ... وما نحن لكم بمؤمنين ﴾	٧٨	يونس	٣٣٢
﴿ إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل ... لها عابدين ﴾	٥٣-٥٢	الأنبياء	٣٣٣
﴿ نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ... كذلك يفعلون ﴾	٧٤-٧١	الشعراء	٣٣٣
﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ... إلى عذاب السعير ﴾	٢١	لقمان	٣٣٣
﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة ... إنا بما أرسلتم به كافرون ﴾	٢٤-٢٢	الزخرف	٣٣٣

الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ... أولئك هم الصادقون ﴾	٨	الحشر	٣٤٥
﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق ... على ما فعلتم نادمين ﴾	٦	الحجرات	٣٥٠
﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ... إن الله غفور رحيم ﴾	١٠٢	التوبة	٣٦٣
﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين ﴾	١٣٧	آل عمران	٣٨٢
﴿ ومن أحيائها فكأنما أحييا الناس جميعاً ... ﴾	٣٢	المائدة	٣٨٢
﴿ قل للمخلفين من الأعراب استدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون ... ﴾	١٦	الفتح	٣٨٥
﴿ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا إلا تتبعن ... ولم ترقب قلبي ﴾	٩٤-٩٢	طه	٣٩٤
﴿ غلبت الروم في أدنى الأرض ... وهو العزيز الرحيم ﴾	٥-٢	الروم	٣٩٤
﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض ... يتخذوه سبيلاً ﴾	١٤٦	الأعراف	٤٠١
﴿ ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ... إنك إذا لمن الظالمين ﴾	١٤٥	البقرة	٤٠١ ، ٣٧٠
﴿ قالوا يا نوح .. إن كنت من الصادقين ﴾	٣٢	هود	٤٠١
﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ... ﴾	٣٩	يونس	٤٠٢



الآية	رقم الآية	السورة	الصفحة
﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء ... بأنا مسلمون ﴾	٦٤	آل عمران	٤١٤
﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ... ﴾	١٣	الشورى	٤١٤
﴿ قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ... ونحن له مسلمون ﴾	١٢٦	البقرة	٤١٤
﴿ اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم ﴾	٥	المائدة	٤١٤
﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ... إن الله يحب المقسطين ﴾	٨	الممتحنة	٤١٤، ٤١٩
﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ... ونحن له مسلمون ﴾	٤٦	العنكبوت	٤١٤
﴿ ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها ... فانصرنا على القوم الكافرين ﴾	٢٨٦	البقرة	٤٢١
﴿ لا تكلف نفس إلا وسعها ... ﴾	٢٣٣	البقرة	٤٢١
﴿ لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها ... ﴾	٧	الطلاق	٤٢١
﴿ زين للناس حب الشهوات ... والله عنده حسن المآب ﴾	١٤	آل عمران	٤٢٢
﴿ فأمما الذين في قلوبهم مرض فيتبعون ما تشابه منه ... ﴾	٧	آل عمران	٤٢٢
﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ... إن الله عليم خبير ﴾	١٣	الحجرات	٤٢٩

## فهرس الأحاديث النبوية

م	طرف الحديث	الصفحة
١	(قالوا : يا رسول الله لو قومت لنا . فقال : الله هو المقوم )	٤
٢	(الدين النصيحة ...)	٢٢
٣	(والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ...)	٢٣
٤	(من كذب عليّ عامداً متعمداً فليتبوأ مقعده من النار)	٢٤
٥	(لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها ..)	٣٥
٦	(لا تلعنوه فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله )	٤٩
٧	( ...وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ...)	١٥٤ ، ٦٨
٨	( ... التثبت من الله والعجلة من الشيطان ...)	٧٣
٩	( نهى رسول الله عن قيل وقال ...)	٨٢
١٠	( يا أبا ذر إنك رجل ضعيف ، وإنها أمانة ...)	٨٣-٨٢
١١	( إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق )	٨٧
١٢	( الله أكبر ، لقد قلتم كالأذي قالت بنو إسرائيل لموسى ...)	٨٨
١٣	( ألا تصلين ... وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً )	١٠٨
١٤	( قال الله تعالى لأدم : يا آدم إني عرضت الأمانة ...)	١٠٨

م	طرف الحديث	الصفحة
١٥	( دخلت امرأة الناس في هرة ، حسبتها ، لا هي أطعمتها ... )	١١٧
١٦	( الشيطان جاثم على قلب ابن آدم ... )	١٢١
١٧	( لا تبرحوا إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ... )	١٥٦
١٨	( خمس بخمس : ما نقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ... )	١٦٨
١٩	( إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتقنه )	١٦٩
٢٠	( يا رسول الله انذن لي بالزنا ..... )	١٧٩
٢١	( يا أبا بكر ما رأيت في الدنيا مما تكره فمناقيل ذر الشر ... )	١٨٨
٢٢	( قل أمنت بالله ثم استقم )	١٩٩
٢٣	( الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم )	٢٠٣
٢٤	( من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت )	٢٠٦
٢٥	( الكيس من دان نفسه وعمله لما بعد الموت ... )	٢٠٦
٢٦	( بشروا ولا تنفروا ، ويسروا ولا تعسروا )	٣٨٣
٢٧	( إن المقسطين عند الله على منابر من نور )	٣٩٤
٢٨	( اعقلها وتوكل )	٣٩٥

## فهرس المصادر والمراجع حسب الترتيب الهجائي

١ . القرآن الكريم .

(أ)

- ٢ . إحياء علوم الدين : الإمام أبي حامد الغزالي ، طبعة دار الريان للتراث / القاهرة .
- ٣ . الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة: د.أحمد السمراي، دار النفائس ١٩٨٨م / بيروت .
- ٤ . آداب النفوس : أبو عبد الله الحارثي المحاسبي ، تحقيق محمد عطاء طبعة ، دار الجليل ١٩٨٧م .
- ٥ . إدارة الأفراد : د. محمد يوسف القريوتي .
- ٦ . الأذكار : الإمام يحيى بن شرف النووي ، المكتبة القيمة / القاهرة .
- ٧ . إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ، المعروف بـ " تفسير أبي السعود" أبي السعود محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي ، الطبعة الرابعة ١٩٩٢م / بيروت .
- ٨ . الأساس في التفسير : الشيخ سعيد حوى ، طبعة دار السلام / مصر .
- ٩ . أسباب النزول : جلال الدين السيوطي . إعداد د. محمد حسين الحمصي ، دار التربية / دمشق .
- ١٠ . إعلام الموقعين : الإمام ابن قيم الجوزية ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد .
- ١١ . الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التورخ : الإمام محمد بن عبد الرحمن شمس الدين السخاوي .
- ١٢ . اتجاهات معاصرة في التربية الأخلاقية : د . ماجد عرسان الكيلاني ، الطبعة الأولى ١٩٩٢م / دار البشير / الأردن .
- ١٣ . الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري : د. محمود حمدي زقزوق ، طبعة سلسلة كتاب الأمة ١٤٠٤هـ وزارة الأوقاف / قطر .
- ١٤ . الاستشراق والمستشرقون : د . مصطفى السباعي .

(ب)

١٥. البحث والتقويم التربوي : أحمد الخطيب وآخرون ، دار المستقبل ١٩٨٥م / عمان .  
١٦. بدائع الفوائد : ابن قيم الجوزية .

(ت)

١٧. تاريخ القضاء في الإسلام : أحمد عبد المنعم البهي الطبعة الأولى ١٩٨٨م .  
١٨. تاريخ بغداد : للخطيب البغدادي ، دار الكتاب العربي / بيروت .  
١٩. التحرير والتنوير : للأستاذ محمد طاهر بن عاشور ، طبعة دار التونسية للنشر ١٩٨٤م .  
٢٠. التعريفات : علي بن محمد الجرجاني ، تحقيق وتعليق : عبد الرحمن عميرة ، مكتبة لبنان ١٩٨٥م / لبنان .  
٢١. تفسير القرآن العزيز المعروف بـ " تفسير عبد الرزاق " : أبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني ، دار المعرفة الطبعة الأولى ، ١٩٩١م / بيروت .  
٢٢. تفسير القرآن العظيم : الإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير القرشي الدمشقي ، طبعة إحياء التراث ودار الحديث / القاهرة ١٩٨٨م .  
٢٣. التفسير الكبير " مفاتيح الغيب " الإمام فخر الدين محمد بن عمر اثرازي ، دار الكتب العلمية ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٠م / بيروت - لبنان .  
٢٤. تفسير المراغي : الأستاذ أحمد مصطفى المراغي ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الرابعة ١٩٧١م / مصر .  
٢٥. تفسير المنار : رشيد رضا .  
٢٦. التفسير المنير: د. وهبة الزحيلي ، دار الفكر الطبعة الأولى ، ١٩٩١م / بيروت ، دمشق .  
٢٧. التفسير الواضح : د. محمد محمود حجازي. دار التفسير، الطبعة الثامنة ١٩٨٠م .  
٢٨. تفسير جامع البيان في تفسير القرآن : للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري .  
٢٩. تفسير سورة النور: أبو الأعلى المودودي / مترجم عن الأردية .  
٣٠. التفسير والمفسرون : الشيخ محمد حسين الذهبي الطبعة الثانية ١٩٧٦م بدون دار نشر .  
٣١. التقويم الدعوي : أ. د. عبد الله يوسف الحسن ، دار المنطلق ، الطبعة الأولى ، ١٩٩٢م / دبي .

٣٢. التقويم الذاتي للشخصية الإسلامية : أكرم عبد القادر أبو إسماعيل ، رسالة ماجستير / الجامعة الأردنية - عمان ١٩٩٣ م .

٣٣. تقييم المنهج : د . محمد زياد حمدان ، دار التربية الحديثة ، الأردن ١٩٨٦م/١٤٠٦هـ .

٣٤. التوجيه والتقويم خلال التاريخ الإسلامي : الشيخ محمود شاكر ، طبعة المكتب الإسلامي ، ١٩٨٦ م .

٣٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي ، الطبعة الأولى عام ١٩٩٦ م ، مكتبة الرسالة / بيروت .

(ج)

٣٦. الجامع لأحكام القرآن : الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي ، مؤسسة مناهل العرفان ، بيروت ، ومكتبة الغزالي / دمشق .

(خ)

٣٧. خصائص التصور الإسلامي ومقوماته : الأستاذ سيد قطب .

(د)

٣٨. دائرة المعارف : المعلم بطرس البستاني . دار المعرفة / بيروت .

٣٩. الدافعية والانفعال : إدوارج موارى ، ترجمة أحمد عبد العزيز سلامة .

٤٠. درء تعارض العقل والنقل : للإمام ابن تيمية ، تحقيق محمد رشاد شاكر .

٤١. دراسات في الفكر التربوي الإسلامي : عبد الرحمن صالح عبد الله ، دار البشير ومؤسسة الرسالة ١٩٨٨ م / عمان .

٤٢. دليل التدريب القيادي : د . هشام الطالب ، المعهد العالمي للكفر الإسلامي / أمريكا ، الطبعة الثانية عام ١٩٩٥ م .

(ر)

٤٣. رسائل العاملين : د جاسم مهلهل الياسين ، مؤسسة الكلمة للنشر والتوزيع / الكويت .

٤٤. رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : شيخ الإسلام الإمام أحمد بن تيمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد .

٤٥. الرفع والتكميل في الجرح والتعديل : أبي الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي الهندي ، تحقيق : الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ، مركز الدعوة الإسلامية الطبعة الثالثة / باكستان .

٤٦. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : أبي الفضل شهاب الدين السيد محمد الألوسي البغدادي ، دار الفكر ١٩٩٧م / بيروت .

(س)

٤٧. السنن الإلهية: د. عبد الكريم زيدان، الطبعة الثانية ١٩٩٤م ، مؤسسة الرسالة / بيروت .

٤٨. سنن الترمذي : الإمام أبي عيسى الترمذي .

٤٩. سير أعلام النبلاء : الإمام شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي .

(ص)

٥٠. صحيح مسلم : الإمام أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري .

٥١. صحيح مسلم بشرح النووي / طبعة مكتبة الغزالي ، ومؤسسة المناهل / بيروت وطبعة دار الشعب / مصر .

(ط)

٥٢. طبقات الشافعية : تاج الدين السبكي ، دار المعرفة ، الطبعة الثانية / بيروت.

٥٣. ظاهرة المحنة : الجز الأول د. خالص جلبي ، دار البشير / عمان ، الطبعة الثانية .

(ع)

٥٤. العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر : عبد الرحمن بن محمد بن خلدون " مقدمة ابن خلدون "

انتشارات استقلال ، مطبعة أمير ، الطبعة الرابعة / طهران .

٥٥. العلل ومعرفة الرجال : الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ، تحقيق وصي الله عباس ،

المكتب الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٩٨٨م .

٥٦. علم النفس التربوي : عبد الحميد نشواني .

(ف)

٥٧. الفتاوي الكبرى : شيخ الإسلام الإمام أحمد بن تيمية ، طبعة فرج الله زكي

الكردي .

٥٨. فتح الباري شرح صحيح البخاري : الإمام ابن حجر العسقلاني .

٥٩. فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية في علم التفسير : علي بن محمد

الشوكاني ، دار المعارف / بيروت .

٦٠. فتح المغيـث بشرح ألفية الحديث : الإمام محمد بن عبد الرحمن شمس الدين السخاوي .
٦١. فصول في التفكير الموضوعي : د. عبد الكريم بكّار ، الطبعة الثانية ، دار القلم والدار الشامية ١٩٩٨ م .
٦٢. في ظلال القرآن : سيد قطب ، الطبعة الثانية عشرة ١٩٨٦ م ، دار العلم / جدة ، دار الشروق / القاهرة .
٦٣. فيض القدير شرح الجامع الصغير : محمد عبد الرحمن المناوي ، دار المعرفة الطبعة الثانية ١٩٧٣ م / بيروت .

(ق)

٦٤. القصص القرآني: عماد زهير حافظ : دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٩٩٠ م / دمشق .
٦٥. القضاء الإداري : د. محمود مصطفى ، دار الفكر العربي ١٩٩٧ / القاهرة .
٦٦. القضاء ونظامه في الكتاب والسنة : د . عبد الرحمن إبراهيم عبد العزيز الحميضي ، جامعة أم القرى ، الطبعة الأولى / السعودية .
٦٧. القول المختصر المبين في مناهج المفسرين : أبي عبد الله محمد محمود النجدي.
٦٨. القيادة والتغيير : د . بشير شكيب الجابري ، دار حافظ ، جدة ، الطبعة الأولى ١٩٩٤ هـ .
٦٩. القياس والتقويم التربوي : د . سليمان أحمد عبيدات ، جمعية المطابع التعاونية / عمان ١٩٨٨ م .
٧٠. القياس والتقويم في العملية التدريسية : أ . د . أحمد عودة ، دار الأمل ١٩٩٣ م الطبعة الثانية / الأردن .
٧١. القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر : عبد المجيد بن مسعود ، تقديم عمر عبيد حسنة ، سلسلة كتاب الأمة / وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية / قطر .

(ك)

٧٢. كتاب الثقة : ابن حبان .
٧٣. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : للإمام جار الله محمد بن عمر الزمخشري ، دار الكتاب العربي / بيروت .



٧٤. كشف الظنون : حاجي خليفة ، طبعة ١٩٨٢ م .
٧٥. كلمة الحق في القرآن الكريم : د. محمد عبد الرحمن الراوي ، نشر جامعة محمد ابن سعود الإسلامية ١٣٠٩ هـ / الرياض - السعودية .
- (ل)
٧٦. لسان العرب : جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي ، دار إحياء التراث، الطبعة الأولى ١٩٨٨ م - بيروت .
٧٧. لفظ الدرر بشرح متن نخبة الفكر : الحافظ أحمد بن حجر بن علي المصري .
- (م)
٧٨. مبادئ التقويم التربوي الأساسية في التربية الحديثة : أحمد جوهر محمد حسين ، جامعة اليرموك ، الأردن ١٩٨٩ م .
٧٩. مبادئ القياس النفسي والتقييم التربوي : د . سبع محمد أبي لبدة ، الطبعة الرابعة ١٩٨٧ / عمان - الأردن .
٨٠. محاسن التأويل : محمد جمال الدين القاسمي ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، مكتبة عيسى البابي الحلبي / مصر .
٨١. مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين : الإمام ابن قيم الجوزية ، طبعة دار الفكر عام ١٩٨٨ م / بيروت .
٨٢. مدخل إلى القرآن الكريم : د . محمد عبد الله دراز ، دار القلم / الكويت .
٨٣. مدخل لدراسة الشريعة الإسلامية: د . يوسف القرضاوي ، الطبعة الثانية ١٩٩٧ م مؤسسة الرسالة / بيروت .
٨٤. المرجع في تدريس علوم الشريعة : د . عبد الرحمن صالح عبد الله ، طبعة عام ١٩٩٤ م / الجامعة الأردنية / الأردن .
٨٥. المسئولية : د . محمد أمين المصري ، دار الأرقم ، الطبعة الرابعة ١٩٨٤ م / الكويت .
٨٦. المعارضة السياسية في الإسلام : يحيى محمد الخلايلة / رسالة ماجستير / الجامعة الإسلامية العالمية إسلام آباد / باكستان .
٨٧. المعجزة الكبرى " القرآن " : محمد أبو زهرة ، دار الفكر ودار غريب / القاهرة .
٨٨. المعجم الفلسفي : د . جميل صليبا . دار الكتاب اللبناني / لبنان .

٨٩. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم : محمد فؤاد عبد الباقي ، المكتبة الإسلامية ١٩٨٢م / استنبول - تركيا.
٩٠. المعجم الوسيط : مجمع اللغة العربية : إخراج : د. إبراهيم أنيس و د. عبد الحليم منتصر و د. عطية صالحة .
٩١. معجم مقاييس اللغة : أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا . تحقيق : عبد السلام هارون .
٩٢. المفردات في غريب القرآن : العلامة الحسين بن محمود بن المفضل الملقب بـ " الراغب الأصفهاني " أصح المطابع / كراتشي .
٩٣. مقومات الشخصية المسلمة : ماجد عرسان الكيلاني ، طبعة مصر .
٩٤. من فلسفة التشريع الإسلامي : الأستاذ فتحي رضوان ، دار الكتاب العربي / القاهرة .
٩٥. المناهج : د. عبد اللطيف فؤاد إبراهيم ، مكتبة مصر ، الطبعة السادسة ١٩٨٤م / القاهرة .
٩٦. مناهج البحث العلمي : عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات / الكويت عام ١٩٧٧م .
٩٧. مناهج البحث في العلوم الاجتماعية والإنسانية : تحرير أ. د. جابر أحمد منصور بحث أ. د. محمد علي الفرا . مكتبة دار العروبة / الكويت عام ١٩٨٨م .
٩٨. منتخب الأحكام : ابن زنين المالكي : تحقيق د. عبد الله عطية الغامدي .
٩٩. المنجد في اللغة والأعلام : دار المشرق / بيروت وانتشارات إسماعيليان ، طهران .
١٠٠. منهج أهل السنة والجماعة في النقد والحكم على الآخرين : هشام بن إسماعيل الصيني ، المنتدى الإسلامي ، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ / لندن .
١٠١. منهج أهل السنة والجماعة في تقويم الرجال ومؤلفاتهم : أحمد بن محمد الصويان ، دار الوطن للنشر ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ / الرياض .
١٠٢. منهج التربية الإسلامية : الأستاذ محمد قطب ، طبعة دار الشروق / القاهرة .
١٠٣. منهج القرآن في التربية : محمد شديد ، مؤسسة الرسالة ١٩٩٤م / بيروت .
١٠٤. المنهج المعاصر : د. محمد زياد حمدان ، دار التربية الحديثة ، الأردن ، عام ١٩٨٨م .
١٠٥. الموافقات : الإمام أبي إسحاق الشاطبي ، طبعة دار المعرفة / بيروت .
١٠٦. الميزان في تفسير القرآن : العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ، مؤسسة إسماعيليان / إيران .
١٠٧. الميسر في علم النفس التربوي : د. أحمد بلقيس ، د. توفيق مرعي .

(ن)

- ١٠٨ . النظام الأخلاقي في الإسلام : د. محمد عقلة ، مكتبة الرسالة / عمان .  
١٠٩ . النظرية العامة للدعوة الإسلامية : د. عدنان علي رضا النحوي، دار النحوي/ الرياض .  
١١٠ . النقد الذاتي : د . خالص جلبي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الأولى/ بيروت .  
١١١ . النهاية في غريب الحديث : لابن الأثير .  
١١٢ . واقعا المعاصر : الأستاذ محمد قطب - مؤسسة المدينة المنورة ، الطبعة الرابعة ١٩٨٨ م .

## المجلات والدوريات

- ١١٣ . جريدة الفرقان الأسبوعية الكويتية : جمعية إحياء التراث الإسلامي / الكويت .  
١١٤ . صحيفة العالم الإسلامي : العدد ( ١٦٥٩ ) .  
١١٥ . مجلة الإنسان ، دار الأمان / باريس ، العدد (٥) .  
١١٦ . مجلة الرابطة / رابطة العالم الإسلامي العدد (٣١٧) ١٩٩٩ م .  
١١٧ . مجلة المجتمع الكويتية : جمعية الإصلاح الاجتماعي / الكويت الأعداد (١٤٢٤ ، ١٤١٦ ، ١٤١٩ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٤٠٨ ، ١٤١٩ ) .  
١١٨ . مجلة المجلة العدد (١٩٤) لندن .  
١١٩ . مجلة الوسط : العدد (٤٤٧) لندن .  
١٢٠ . مجلة عالم الفكر : العدد الأول ١٩٨٩ م .  
١٢١ . مجلة فلسطين المسلمة العدد (١٠) عام ١٩٩٩ م لندن .  
١٢٢ . مجلة منبر الداعيات العدد (٤٢) لبنان .

\*\*\*

# فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
أ	الإهداء
ب	شكر وتقدير
ج	
د/١-٤	ملخص البحث بالعربية
هـ/١-٨	ملخص البحث بالإنجليزية
١	<b>المقدمة</b>
١٢	المبحث التمهيدي : وفيه ستة فروع :
١٣	الفرع الأول : معنى المنهج لغة واصطلاحاً
١٤	الثاني : معنى المنهج لغة واصطلاحاً
١٧	الثالث : الفرق بين التقييم والتقويم
١٩	الرابع : مصطلح التقويم ومشتقاته ومعانيه في القرآن الكريم
٢٦	الخامس : عناصر التقويم
٣٢	السادس : أصل التقويم وعلاقته بقاعدة العدل وفطرة الإنسان في القرآن الكريم
٤١	<b>الفصل الأول : قواعد التقويم، وفيه خمسة مباحث :</b>
٤٢	المبحث الأول : قاعدة الشمول والموازنة وفيه ثلاثة مطالب :
٤٣	المطلب الأول : شمول تقويم الأشياء والأشخاص والمناهج
٤٥	المطلب الثاني : شمول التقويم في دائرة علم الجرح والتعديل
٤٧	المطلب الثالث : شمول التقويم تجاه المخالفين
٥١	المبحث الثاني : قاعدة العدل والموضوعية وفيه ستة مطالب :
٥٢	المطلب الأول : العدل في إرسال الرسل
٥٣	المطلب الثاني : العدل في التمييز والتفاضل
٥٣	المطلب الثالث : العدل والموضوعية بين المسلمين وغيرهم
٥٥	المطلب الرابع : العدل والموضوعية في وسطية الأمة المسلمة
٥٥	المطلب الخامس : العدل على أساس الحق على أساس القرابة والمصلحة
٥٩	المطلب السادس : العدل على أساس التقويم الفردي والطاقة الفردية

٦١	المبحث الثالث : قاعدة الوضوح والصرامة وفيه مطلبان :
٦٢	المطلب الأول : ما ورد في سيرة الأنبياء والرسول
٦٧	المطلب الثاني : ما ورد في مواقف متنوعة
٧١	المبحث الرابع: قاعدة العلم والخبرة وثبوت الدليل وفيه مطلبان
٧٢	المطلب الأول : التبين والتثبت من الأخبار والمرويات
٧٩	المطلب الثاني : الوقوف عند الحد في مجال العلم والمعرفة
٨٦	المبحث الخامس: قاعدة الارتباط بالهدف والأخلاق
٩١	<b>الفصل الثاني : مجالات التقويم ، وفيه أربعة مباحث :</b>
٩٢	المبحث الأول: مجال تقويم المخلوقات ( الإنسان ، الحيوان ، الجن ) وفيه ثلاثة مطالب
٩٣	المطلب الأول: تقويم جنس الإنسان
١١١	المطلب الثاني: تقويم الحيوان
١١٨	المطلب الثالث : تقويم الجن
١٢٤	المبحث الثاني :مجال تقويم المعتقدات والمبادئ وفيه ثلاثة مطالب :
١٢٥	المطلب الأول : تقويم عقائد أهل الكتاب
١٣٣	المطلب الثاني : تقويم العقائد والمبادئ في القصص القرآني
١٤٣	المطلب الثالث: تقويم عقائد مشركي العرب وأفكارهم
١٤٩	المبحث الثالث : مجال تقويم الأفعال والأعمال وفيه ثلاثة مطالب :
١٥٠	المطلب الأول : تقويم الأعمال في ميدان الجهاد
١٦٤	المطلب الثاني : تقويم الأعمال في ميدان الوزن والكيل والبيع والشراء
١٧٠	المطلب الثالث : تقويم الأعمال بشكل عام
١٩٤	المبحث الرابع :مجال التقويم الذاتي وفيه ثلاثة مطالب :

١٩٧	المطلب الأول : التقويم الذاتي في دائرة الإيمان وأهله
٢١١	المطلب الثاني : التقويم الذاتي في دائرة الاحتراف وأهله
٢١٧	المطلب الثالث : ضوابط ومعايير التقويم الذاتي
٢٢٥	<b>الفصل الثالث : فوائد التقويم ، وفيه أربعة مباحث</b>
٢٢٧	المبحث الأول: تصحيح التصور والاعتقاد وفيه ثلاثة مطالب :
٢٢٩	المطلب الأول : تقويم سيدنا نوح لعقائد قومه وتصوراتهم
٢٣١	المطلب الثاني : تقويم سيدنا هود لعقائد قومه وتصوراتهم
٢٣٥	المطلب الثالث : تقويم سيدنا صالح لعقائد قومه وتصوراتهم
٢٣٨	المبحث الثاني : تربية النفس البشرية وصلتها وفيه ثلاثة مطالب :
٢٤٠	المطلب الأول : تربية النفس البشرية وتقويمها عبر المجال الوقائي
٢٤١	المطلب الثاني: تربية النفس البشرية وتقويمها في محيط التصور النظري والقيمي
٢٤٣	المطلب الثالث : تربية النفس البشرية وتقويمها في محيط الأخلاق العملية
٢٤٧	المبحث الثالث: أخذ الدروس والعبر والعظات وفيه مطلبان:
٢٤٩	المطلب الأول : الدروس والعبر في تقويم قصص الأنبياء
٢٥٣	المطلب الثاني : الدروس والعبر في مناسبات التنزيل
٢٥٧	المبحث الرابع : إشاعة الشورى والحوار
٢٦١	<b>الفصل الرابع : أساليب التقويم ، وفيه أربعة مباحث</b>
٢٦٤	المبحث الأول : الملاحظة والمعاشية
٢٦٨	المبحث الثاني : التشبيه وضرب الأمثال
٢٧٩	المبحث الثالث : السجل التاريخي وفيه مطلبان :
٢٨٠	المطلب الأول: سجل أهل الكتاب وتقويم القرآن لهم
٢٨٣	المطلب الثاني : سجل المشركين والمنافقين وتقويم القرآن لهم

٢٨٦	المبحث الرابع : الإحصاء والتقرير الميداني وفيه مطلبان :
٢٨٧	المطلب الأول : التقرير والكشف الميداني
٢٨٨	المطلب الثاني : الإحصاء ودقة الحساب
٢٩٤	<b>الفصل الخامس : معوقات التقويم ، وفيه أربعة مباحث :</b>
٢٩٧	المبحث الأول : الهوى والتعصب
٣١٢	المبحث الثاني : الظن والريبة والشك
٣٢٠	المبحث الثالث : الظلم
٣٢٤	المبحث الرابع : المبالغة والتفديس والتقليد وفيه ثلاثة مطالب :
٣٢٦	المطلب الأول : المبالغة
٣٢٩	المطلب الثاني : التفديس
٣٣٢	المطلب الثالث : التقليد
٣٣٩	<b>الفصل السادس : توظيف منهج التقويم القرآني ، وفيه أربعة مباحث :</b>
٣٤١	المبحث الأول : تحديد المنهج وتوضيحه من قبل العلماء والمفكرين وفيه مطلبان
٣٤٣	المطلب الأول : وقفة مع منهج الجرح والتعديل وعلم الرجال
٣٤٧	المطلب الثاني : جهد العلماء في تحديد منهج التقويم والنقد
٣٦٧	المبحث الثاني : تربية المسلمين على منهج التقويم القرآني فهماً وسلوكاً وفيه مطلبان
٣٦٨	المطلب الأول : معالجة معوقات منهج التقويم القرآني
٣٧٨	المطلب الثاني : تربية المسلمين على منهجية التفكير التقويمي في القرآن
٣٩٠	المبحث الثالث : تقويم تجارب العمل الإسلامي على ضوء منهج التقويم القرآني
٤٠٩	المبحث الرابع : ربط المنهج التقويمي بعالمية الإسلام وفيه مطلبان :
٤١٣	المطلب الأول : تقويم بعض المفكرين والكتاب لغير المسلمين

٤٢١	المطلب الثاني : فقه العصر وعالمية التقويم القرآني
٤٣٢	<b>الخاتمة</b>
٤٥١	الفهارس :
٤٥٢	فهرس الآيات :
٤٨٠	فهرس الأحاديث
٤٨٢	فهرس المصادر والمراجع
٤٩٠	فهرس الموضوعات



---

## Summary

The Holy Quran is the last circle as well as the final constitution for human life. It contains what so ever is suitable to the situation of the Muslims in their past and future. It is the anthology of the previous messages of God that has a comprehensive methodology, deals with all levels of time, space and people. Accordingly it has a very vast field for treatment and useful food for various stages of human activities and for its triangular elements soul, wisdom and body.

The Holy Quran contains different methods and rules lead the humanity towards right Journey that is leading to his Creator, for achieving happiness, justice and uprightness in this world and reward blessings success and iternal paradise on the Day of Judgment All these achievements are based on the Criteria standards and Devine principles mentioned in the Quran for distinction, command and evaluation of the men's actions. These Devine principles are far from mans' wishes and his various sensibilities.

My subject of study is "The Method of evaluation in the Holy Quran" that is selected to concentrate on explaining such principles applicqble to the human conditions and effect the things thoughts and individuals belonging to the different walks of life. Keeping in view the subject of study it is necessary that its principles, conditions; dimation, benefits styles and hindrances are to be highlighted and then they may be applied to the present situation of the Muslim ummah and other nations of the globel.

So "The Method of Evaluation in the Holy Quran" is a constitution that determines the value of the things negatively and positively and after that it is applied for their modification and correction in accordance with the standards set by the Creator for His creature so that the creature could achieve its objectives of worship, vice gerancy, with justice and comprehensiveness in this world and with reward or punishment in the world hereafter.

There are 644 Quranic verses those contain the Term Al-Taqaawam or the words drive from it. One verse contains its meanings in the context of Ummah, as to maintain something

---

forever, its reformation and to stand up for it as Allah the Almighty said:

(فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ) [الكهف-٧٧]

Al-Isteqamah for the meanings of smooth running of the matter and the religion With the concept of straight path that has no curve. where as The words Al-Taqqeem and Al-Aqwam have the meanings, the best in its composition, its Balance, its correctness and its Justice.. As Allah said:

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) [التين-٤] and regarding such other meanings Allah says: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) [الإسراء-٩] The Quran has permanent and regular motive for reform, Justice, arbitration and evaluations so as it is permanent spirit stands for a distinction between right and wrong, good and evil and beauty and ugliness. As Allah' said mentioning these meanings :

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ)

[الحديد-٢٥]

and Allah also says :

(لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ) [البقرة-٢٨٦]

The principle for establishing Justice and arbitration among the people, in accordance with Allah's scale and assessment for them with Justice, is based on what they earned and acted for various affairs of their lives.

This study brings forward a number of principles for “the Quranic method of evaluation” including COMPREHANSIVENESS and balance in evaluation. Due to this reason the study points out the negative as well as positive aspects of the thing as Allah said:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ

نَفْعُهُمَا) [البقرة-٢١٩].

The Quran stated the benefits of the WINE and its sins and it did not state one of the both. Likewise the principle of Justice and objectivity contained in the saying of Allah:

---

(إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) [النساء-٦٦] .

and principles of clarity explanation, knowledge, experience, proof, argument, the objectivity of the evaluation and its ethics will also appear in the study as important principles of the method.

The method of EVALUATION covers many such dimensions those includes the evaluation of the creatures like human beings, animals and Jinn. Allah said about the human beings:

(إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) [الإنسان-٢].

It means through mixing a minor thing from the male and the female he created ears, eyes as tools for distinction and guidance and granted straight path hoopoe, ant, donkey, horse and others.

The ways of straight path and evaluation in the fields of beliefs and thoughts as Allah says regarding the evaluation of the beliefs of the christens:

(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم) [المائدة-١٧].

The Quran evaluated the whole area of actions and its example is to evaluate the act of Jihad (Fighting in the ways of Allah) as Allah said :

(أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم) [آل عمران-١٦٥].

The Quran generally looks into the conclusions of the actions, their assessment and their correctness as an honorable foundation in Islamic Shariah. Imam Shaatabi said "to look into the conclusions of the actions is the purpose and objective of Shariah". The quranic verse covers the point:

(فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) [الزلزال٧-٨].

This is a quranic principle stated for the evaluation of people' all acts if they are very tiny particles in the air.It is proved that the personal assessment is one of the biggest points among the dimensions of human life.It is the beginning point for change in the humanlife anddict is a foundation for the fact that the man has good and evil in his composition as the Quran says:

---

(ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها) [الشمس ٧-٨].

There is a criteria for change, that the man himself should have a strong desire for change as the Quran says :

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) [الرعد-١١].

Prophet Adam and Eve spoke regarding this principle, when they both said :

(قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) [الأعراف-٢٣].

This study states that the Quranic system of evaluation has its considerable benefits and objectives those are ultimately leading towards ethics, They are not useless and meant for defamation, criticism, impairment, commendation, hypocrisy and exaggeration. For example the evaluation of beliefs that they all should be correct and true as Allah said :

(والى عاد أخاهم هودا قال يقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) [الأعراف-٦٥].

The worship for Allah alone, without making partner to Him inherits Taqwa and straight path.

Among the benefits of evaluation to extend warnings and lessons. Due to this reason the efforts of the Prophets for the evaluation of their nations are mentioned in the Quranic stories regarding the long preaching lives of the respected prophets. As Allah said :

(لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي

بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون) [يوسف-١١١].

The evaluations of the Prophets about their nations contains the warnings and advices for preachers and those who want to bring change in the humanbeings.

The promotion of consultancy and dialogue are also among its benefits of the study on quranic method of stocktaking. Because the consultancy can only be achieved after applying the evaluation to the affairs and dialogue deals with its negative as well as positive results. As Allah said:

(وشاورهم في الأمر) [آل عمران-١٥٩].

---

This command was issued after the result of the battle jihad and it extends benefit for self assessment to the suitable man for a proper job. The evaluation may be applied to the administration at the time of disturbance and negligence for its betterment and excel –ration of its performance.

It is also useful for monitoring the future and for extending Justice to evaluate the friends and enemies at the one time. It also provide PSHYCHOLOGICAL satisfaction, clarity promotes confidence, moral bravery, minimizing the friction, duel acceptance of others viewpoints and opens human vistas for wisdom, intlact and stonds against restricting the human wisdom.

The study shows that the Quranic evaluation appears in different styles and various ways, like the method of coexistence and scientific observances that is mentioned in Allah's saying about coexistence of two young persons with prophet Yousuf during his imprisonment in jail:

(ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين) [يوسف-٣٦].

The interpretation of dream was demanded by the two younger persons from prophet Yousuf due the coexistence and thir confdance on prophet yousuf that is clear from their saying :

(إنا نراك من المحسنين).

The evaluation has also been stated in the form of a proverb and similitude like the saying of Allah:

(مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم) [البقرة-٦١].

The spending of wealth in the way of allah, has been increased in many times for the people. The Quran explains the subject with such example that makes the man happy and opens his wisdom and provides him understanding.

In the same way the styles of evaluation have been applied to the historical records of the ancient nations and communities, as well as to the counting, registration and the field report and there is a saying of Allah on the subject :

---

(وإن كان حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) [الأنبياء-٤٧].

It means a small gram of plant is being counted with due care and wisdom. And Allah's another saying:

(وجنتك من سبأ بنبأ يقين) [النمل-٢٢].

This statement was expressed by Hudhud when it was informing prophet Sulayman about the conditions of Queen Sabaa.

This study revealed That the evaluation had Obstacles and Hindrances those were standing on its way and were not allowing it to extended to the whole life of the mankind the obstacle are like cruelty desaes Prejudices, shert of understanding and intlict doubt and misconceptios and in the same way, the blind imitation exaggeration and rejected sacredness.

These are very hard hindrances encircle the man and his wisdom and forbids lain from the Justice of evaluation its objectively clarity and comprehensiveness' there are many verses lead to the subject such as (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا) at Allah's saying:

(وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون).

Their harts have doubt about the truth and faith that made them as they have boubts, they are afraid and they do not possess any stable position and a right command. As Allah's said:

(يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً) [الحجرات-١٢].

The doubts misconceptions regarding the people mis assessment of their conditions and wrong evaluation of their affais lead towards spying and beak biting and in the way the human relations are broken and social set up is damaged. As Allah says:

(وإذ قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم) [البقرة-٥٤]

That your wrong assessment of my conract regarding the worship of calf that is the peack of injustice and oppression against your -selves and your wisdom.

PHARAOH EXAGGRATED, and declared himself as sacred one and appointed himself As Elah other than Allah who said :

---

---

(قال فرعون ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد) [غافر-٣٩]

and Allah said (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري) [القصص-٣٨].

I mean that your opinion should follow my opinion. So I am not but your big lord. And Allah said in the rejection of blind imitation that covers the orders and provides true evaluation as Allah said:

(وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان

الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) [لقمان-٢١].

They are insisting upon the following of forefathers, though Satan leads them to Hell and stops them their from Allah's worship through this stupid logic and blind imitation that closes the man's reasoning man's and heart from the right and trse path. Likewise among the hindrances there is the concept of compound ignorance about something and to be the blunt for such ignorance or interruption into the same and forbidding its approach to the life of people.

In the same way they are short of means for the avaluatoin education and training. But afterward they shift the shortcomings Retreat and difficulties towards the others. If one does not apply self assessment for himself, to promote his continous justification for mistakes, though Allah insured this point in this verse:

(بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره) [القيامة: ١٤-١٥].

The man better knows about himself and his mistakes, although he brings excuses and frames arguments.

In the last part of the study I tried to point out the conditions for application of the evaluation method to the life of the Muslims and non-Muslims and offered some theoretical efforts on the subject rendered by the Scholars and Experts. They include the method of evaluation of Al-Jarh Wal-Tadeel in the school of Ilm-ur-Rejaal and the Terms of Hadith as well as to make certain standards that who they should thmkleased on justice and reality and its relationship with our Islamic Standardization for evaluation and method for the study of evaluation of an Islamic personality, the evaluation of others and their publications. I pointed out the need for the training of the Muslims on the basis of this methodology for understanding and building of behavior through the means of teaching and training, to define the hindrances of the method and its

---

preventives. I insured that the objective of the evaluation method is the human personality as Allah said:

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) [الرعد-١١].

I touched a little to the evaluation of Islamic actions negatively and positively and its out-come is that the subject needs more efforts vigorously on the basis of the Quranic method that is exhaustive and just.

At the end I established the need of linking this method with the Universality of Islam, that is method for the creation of whole humanity including the Muslims and non-Muslims and its standards is necessary that their measures are to be applied on all people without injustice. The friend and the enemy both are equal in the eyes of the Quranic evaluation method based on Justice. After that I mentioned some notions those may be helpful for increasing awareness and understanding in contemporary age and its invention. for example the comparative study of fiqh, preferences Fiqh of causes of corruption causes of good and Fiqh of ideas and look on others. What are the formative elements for the rise of Ummah and its opinion about contemporary issues such as the concept globalization, dialogue among the religions, combating the terrorism and to target the enemies of Islam and their followers after its Quranic evaluation that is free from excess shallowness and looks with single eye, self Justification and intro woriness for self. It was proved that this method can not be applied but through the application of continuous efforts from childhood up to the age, of extending benefit to others. and success can only be achieved if all effective circles from the leadership level up to the people in the life of Ummah and their moto should be Allah's saying:

(إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم) [الإسراء-٩].

And everyone should work accordingly to this foundation through contentment, Planning and their method of evaluation.